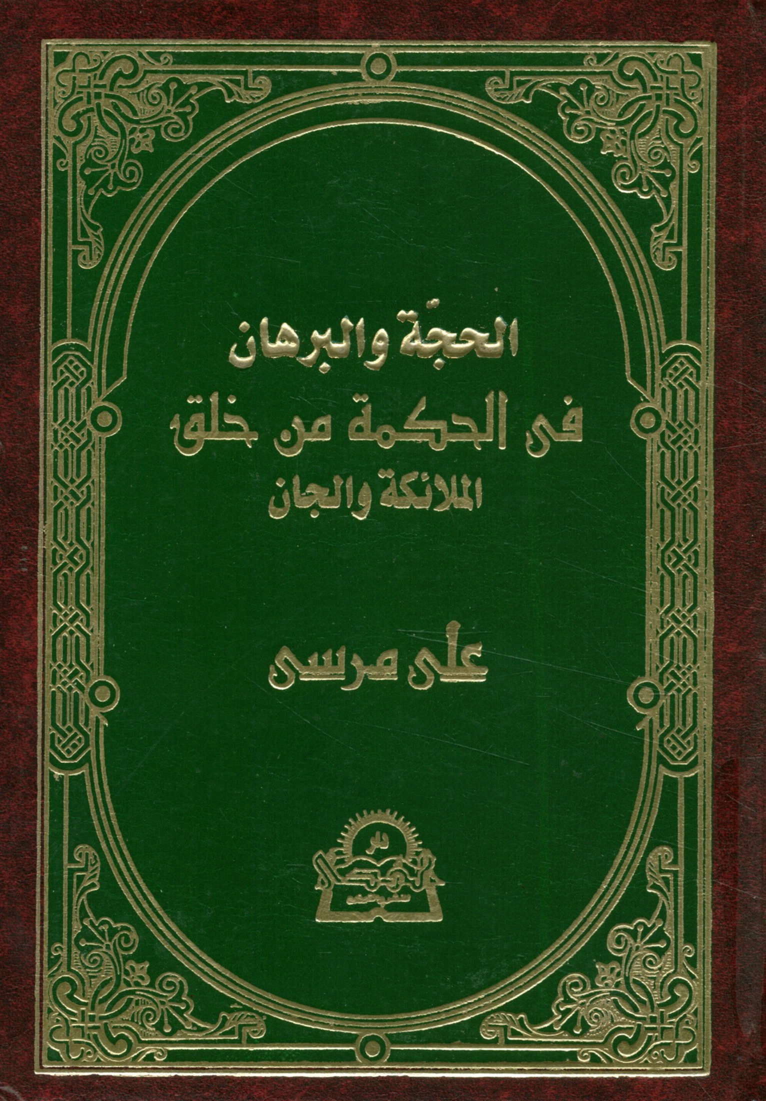

الحجّة والبرهان
فى الحكمة من خلق
الملائكة والجان
على مرسى

الحجّة والبرهان
في الحكمة من خلق
الملائكة والجان

تصريح مجمع البحوث الإسلاميّة
رقم ٧٦٧٧ لسنة ٢٠٠٦م



الحجّة والبرهان
فى الحكمة من خلق الملائكة والجان

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية | ٨٤٣١ | ٢٠١٠

(الترقيم الدولى) | 977 | 17 | 8773

FIRST EDITION
{1431H 2010 AD}

الإصدار الأول
{١٤٣١هـ ٢٠١٠م}

كتاب من إصدار



جمهورية مصر العربية. القاهرة. المعادى.
(٧) شارع حلوان الزراعى . طرة الأسمنت.

PUBLISHED BY



P.C: 11729, Maadi, Cairo, Egypt.
7- HEIWAN St, TORA ELCEMENT.

الحجّة والبرهان في الحكمة من خلق الملائكة والجان

دراسة قرآنية تبحث فى حكمة خلق هذا العالم المغيّب
والوقوف على حقيقته وعلاقته بالإنسان من خلال رؤية
إسلامية صحيحة

تأليف
على مرسى مرسى

الإصدار الأول
١٤٣١هـ ٢٠١٠م



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف مجمع البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة	AL - AZHAR AL - SHARIF ISLAMIC RESEARCH ACADEMY GENERAL DEPARTMENT For Research, Writting & Translation

السيّد الأستاذ / علي مرسي محمّد

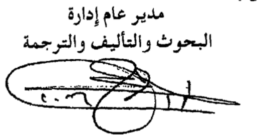
السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد :

فبالإشارة إلى طلبكم الخاص بفحص ومراجعة مؤلّفكم { **الحجّة والبرهان في الحكمة من خلق الملائكة والجان** } - نفيدكم بأنّ الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلاميّة، ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة، مع التّأكيد على ضرورة العناية التّامة بضبط الآيات القرآنية والأحاديث النّبوية الشّريفة، والله تعالى الموفّق. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحريرا في ٩ / ١٠ / ١٤٢٧هـ

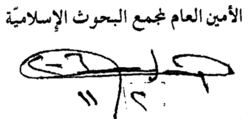
الموافق ١ / ١١ / ٢٠٠٦م

مدير عام إدارة
البحوث والتأليف والترجمة



الأمين المساعد للثّقافة

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلاميّة



اعتماد مجمع البحوث الإسلاميّة للمادّة العلميّة للكتاب

نص خطاب الإدارة العامّة للبحوث والتّأليف والتّرجمة المتضمّن تزكية المادّة العلمية للكتاب واعتماد نصوصه والموافقة على طبعه وتداوله من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشّريف - القاهرة جمهوريّة مصر العربيّة

تقديم الكتاب

الحمد لله فاطر السّموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أُولى أجنحة مثنى وثُلاث ورُباع، يزيد فى الخلق ما يشاء، إنّ الله على كلّ شيء قدير، وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له، أحاط بكلّ شيء علما، وأحصى كلّ شيء عددا، ووسع كلّ شيء رحمة وحكمة، وأشهد أن نبيّنا محمّدا عبد الله ورسوله، بعثه بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون.

اللّهمّ فاجعل شرائف الصّلوات ونوامى البَركات، على نبيّك محمّد ﷺ الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدّافع جيشات الأباطيل، والدّامغ صولات الأضاليل، كما حمّل ﷺ فاضطلع، قائما بأمرك، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا إلى نفاذ أمرك، فأضاء ﷺ الطّريق للخابط، وأقام موضّحات الأعلام، ونيّرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدّين، وبعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق.

اللّهمّ فاجعل له مفسحا فى ظلّك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، اللّهمّ وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم اللّهمّ لديك منزلته وأتمم له نوره، وصلّ اللّهمّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه فى العالمين إنّك حميد مجيد.

أمّا بعد ـ فإنّ ما تضمّنه هذا الكتاب من بيان لعالم الملائكة والجنّ وما يتّصل بتعريفهما وبيان خلقهما من نصُوص شرعيّة وأدلّة قطعيّة، إنّما يُمثّل محاولة صريحة لتجريد إيماننا المطلق بالغيب من كلّ شائبة وشكّ، وخطوة جادّة لبيان العقيدة الصّحيحة عن هذا العالم «المغيّب» وتعميق أثرها الإيمانى فى وعى المسلم ووجدانه.

والله تعالى جعل الإيمان بالغيب من صفات عباده المتّقين الذين ذكرهم فى مكنون كتابه الكريم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[البقرة:٣]. ويدخل فيه ما تدركه العقول دون الحواسّ، وما غاب عن النّاس ممّا أخبرهم به رسول الله ﷺ عن ربّه تعالى من الملائكة، والجنّ، والبعث، والنّشور، والحساب، والجنّة، والنّار، وغير ذلك ممّا هو مغيّب عنّا وجاءت النّصوص القطعيّة الثّابتة لتحدّثنا عنه حديث التّصديق والإذعان.

فكان من أهمّ مقاصد هذا البحث التّعرُّف على تلك العوالم التى تحدّث القرآن عنها فى مُجملات بيانه التّعريفي وأوّلها [عالم الملائكة الأطهار] باعتبارهم رسل الله تعالى فى تنفيذ أمره الكونى الذى يُدبّر به ملكوت السّموات والأرض،ولكونهم الجهة المقابلة للشّياطين وكلاهما من أمر الغيب، فإذا كان إبليس ومن معه يمثّلون الشّرّ والفساد ويأمرون به، فإنّ الملائكة هم جند الله الذين يُمثّلون قيم الخير والهدى والصّلاح، يأمرون بها ويثبتون عليها.

وعندما تشير النّصوص الصّحيحة إلى أنّ الملائكة مخلوقات نورانيّة متميّزة، وأنّهم مستغرقون فى الطّاعة لربّهم، وأنّ لهم من العلوم، والأحوال، والإرادات، والأعمال ما لا يحصيه إلاّ ذو الجلال والإكرام، فإنّ التّصديق بهم يأتى فى «التّرتيب الثّانى» لدرجات الإيمان الكامل كما فى قوله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥]. كما حكم الخالق بالضّلال البعيد على من يكفر بالملائكة وينكر وجودهم لقوله تبارك اسمه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النّساء: ١٣٦].

والإيمان بالملائكة الكرام إيمان بحقيقة غيبيّة لا سبيل للإدراك البشرى أن يعرفها بوسائله الحسّيّة والعقليّة المهيأة له، ومن ثَمَّ شاءت إرادة الله تعالى ورحمته أن يخرج البشر من النّطاق المحدود لهذه الحواسّ، ليتلقّوا العلم والمعرفة عن هذه المخلوقات ممّا وراء هذا النّطاق المحدود.

وإذا كان [عالم الملائكة] من الحقائق الغيبيّة المستيقَنة التى جاءت من عند الله تعالى، فإنّ الإيمان بهذا العالم يُوسّع من آفاق الشّعور الإنسانى بالوجود، فلا تنكمش صورة الكون فى تصوّر المؤمن حتّى تقتصر على ما تدركه حواسّه، كما أنّه يُؤنس قلبه بهذه الأرواح الطّائعة المؤمنة من حوله لتشاركه إيمانه المطلق بخالقه سبحانه، وتستغفر له وتحفظه وتحوطه، وتكون عونه على الهدى والخير فى كلّ الظّروف والأحوال.

أمّا [عالم الجنّ] فهم غيب مُغَيَّب لا نعلم حقيقتهم ولا نعرف عنهم إلاّ ما أخبَرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو، فهم كما أخبرنا القرآن مخلوقون من نار، يأكلون ويشربون، منهم الذّكور والإناث، والصّالح والطّالح، والمؤمن والكافر، وإنّهم فى التّكليف كالآدميين، لا يُرون على فطرتهم، كما أنّ من تشيطن منهم وتمحّض للشّرّ والغواية - كإبليس وذريّته - فلا نعلم عنهم إلاّ ما جاء به الخبر الصّادق عن الله تعالى فى الذّكر الحكيم وتفسير نبيّه ﷺ له فى الهدى القويم.

ولقد تمّ تناول الحديث عن هذا [العالم المغيّب] من خلال عرض الدّلالات القطعيّة والبراهين الشرعيّة على وجودهم من الكتاب والسُّنّة وما أجمع عليه أهل العلم فى بيان خلقهم وتنوّع أصنافهم وأنّهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

(أوّلها) الجنّ المكلّف بالعبادة.

(والثّانى) السّواكن من الجنّ وخشاش الأرض.

(والثّالث) شياطين الجنّ ومردتهم.

كما استهدف الكتاب من خلال عرضه [لمسألة الجنّ] تصحيح المفاهيم الخاطئة التى نشرها الفكر الخرافى عن هذه العوالم لتتّفق ومجمل البيان القرآنى المنزّل فى حقّهم،

والتّأكيد على أنّ الحديث عنهم لا ينبغي أن يتمّ تناوله إلاّ من خلال الأدلّة القطعيّة المُوثّقة بصريح الكتاب وهدى السُّنّة ولاشيء غيرهما.

وعندما يكون الحديث عن الجنّ قائما على محض الخيال فإنّ الخرافيّين من النّاس يُطلقون العنان لفكرهم حتّى يتخيّلوا عنهم ما لا حقيقة له فى أصل الدّين، عندما يقولون [بولوج الجنّ جسد الإنس] حتّى التبس على الكثير من النّاس موضوع [الصَّرْع] على أنّه سُكون للشّياطين فى أجساد الآدميّين مُستدلّين على ذلك بالضّعيف من الحديث، لذلك جاء البيان القرآنى مُصحّحا لأوهام كثيرة فى نفوس المخاطَبين به، عندما وضع حقيقة هذا «الخلق المُغيَّب» فى موضعها الصّحيح بلا غلوّ ولا اعتساف فى مواجهة فريقين من النّاس:

(أوّلهما) هؤلاء الذين غمرت الأوهام قلوبهم وسيطرت الخُرافات على أفكارهم حتّى قالوا عن الجنّ ما لم يأت الله به من سلطان وخالفوا النّهج القويم للدّين.

(والثّانى) الذين أنكروا وجود الجنّ أصلا بتقوُّلهم أنّ الحديث عن هذا الخلق هو حديث الجهل والشّعوذة، والمنكرُ لكلام الله تعالى وهدى رسوله كافر لا محالة.

وفيما كان الفريقان بين الإغراق فى الوهم والمبالغة فى الإنكار جاء الإسلام ليُقرّر حقيقة الجنّ ويؤكدّها، عندما بيّن الخالق سبحانه أنّ لهذا «الخلق المُغيّب» خصائص غير خصائص البشر، لكونه مخلوقا من نار، وأنّه يرى النّاس ولا يراه النّاس، وأنّه لا يملك إلاّ التّأثير السّلبى فى إدراك البشر، وأنّه مأذون له فى توجيه الضّالين والعاصين منهم إلى الشّر والفساد، وأنّه لا يستطيع أنّ يلج جسد الإنسان لمخالفة ذلك لطبيعة الخلق التى جُبِلَ عليها كلٌّ من الإنس والجنّ، ودليل ذلك مُستمدّ من البلاغ القرآنى الذى نزل ليُصَحّح تصوُّرات النّاس عنهم، ويحرّر القلوب من خضوعها لسلطانهم.

فعالم [الجنّ] فى حياة البشر حقيقة قائمة تُثبت الآيات الكريمة وجوده، وتُحدّد البراهين الصّادقة الكثير من خصائصه، وتدع تصوّر المسلم عنه واضحا دقيقا مُتحرّرا من الوهم والخرافة، وتخلّصه كذلك من التّعسُّف فى الإنكار الجامح المهلك.

وإذا كانت حقائق [هذا العالم] قد تقرّرت فى التّنزيل الحكيم، فليس لنا بعد ذلك أن نجزم بوجوده أو نفيه، أو أن نقول بإمكانيّة تصوّره أو عدم تصوُّره لمجرّد أنّ طبيعته خارجة عن مألوف عقولنا، وبعيدة عن مدارك حواسّنا، فإذا كشف الله لنا عن هذا القدر من أسراره فسبيلنا فى هذه الحالة أن نتلقّى البيان القرآنى عنه بالقبول والتّسليم، نتلقّاه كما هو فلا نزيد عليه ولا ننتقص منه ولا نؤوّله على غير حقيقته ومراده.

ولقد أُلّفَ أكثر من كتاب عن [عالم الجنّ] وأحكامه منها القديم ومنها الحديث، عدا ما قاله المفسّرون وشرّاح السُّنّة بمناسبة ورود شىء من ذلك فى سياقه، وما ذكرته كتب

العقائد فى الحديث عنهم على اعتبار أنّ الجنّ جزء من هذا العالم الغيبى والإيمان بوجودهم من الأمور المعلومة من الدّين بالضّرورة.

وممّن أفرد «التّأليف» عن الجنّ قديما الإمام السّيوطى فى كتابه [لقط المرجان فى أحكام الجآن]. والقاضى بدر الدّين الشّبلى فى كتابه [آكام المرجان فى غرائب الأخبار وأحكام الجآن]. وابن حيّان الأصبهانىّ المعروف «بأبى الشّيخ» فى كتابه المعروف باسم [العظمة].

ولقد حاول البعض فى بحثه «لعالم الجنّ» أن يستأنس بالأحاديث التى حكم فقهاء الأمّة بضعفها، ولم يدرك هؤلاء أنّ الحقائق الجليّة فى مثل هذه المسألة إنّما تتأيّد بالدّليل القطعى الثّابت الذى لا يقوم الإيمان بالغيب إلاّ عليه، وأنّ الخرافة لا تنبنى عليها حقيقة، ولا يتأكّد من خلالها يقين، ولا تقوم بها فى الشّرع حجّة أو دليل، ولا يتحقّق من توهّمها علم أو معرفة، وبالتّالى فإنّنا لا نحتاج فى فهمنا لحقائق هذا «العالم الغيبى» إلا ما ورد من آيات كريمة تؤكّده وآثار نبويّة صحيحة تعضّده.

ثمّ يتوقّف الكتاب بقارئه أمام تلك المعجزة الإلهيّة المتمثّلة فى [قلب الإنسان] وكيف أنّه محل الاعتقاد الصّحيح والإيمان الحقّ بالله جلّ وعلا، وبيان علاقة هذا القلب بالجوارح والحواسّ، وكيف يتدرّج الشّيطان فى نزغه لهذا القلب من الابتداع فى الدّين إلى التّردّى فى شباك الشّرك والكفر، ومن ارتكاب الصّغائر إلى المحرّم من الكبائر، ومن التّهوين فى أداء الفروض والأركان، إلى السّقوط فى مهاوى الرّذيلة والعصيان.

ثمّ يعرض لمداخل الشّيطان ووسائله للاقتناص والغواية، فيُفرد الحديث عن ذلك فى أكثر من «ثمانية عشر» موضعا، جاءت كلّها مؤيّدة بالدّليل القطعى تحذيرا من شرّه ووقاية من كيده ونزغه، ثم يشير إلى فتنته وتسلّطه على أهل المساجد وتلبيسه عليهم صلاتهم بالالتفات عنها والسّهو فيها، وأنّ وسيلته فى ذلك هى تلك الخواطر الرّديئة التى يُوردها بوسوسته على القلوب والأذهان.

إنّ المادّة العلميّة التى أحاطت بكلّ هذه المسائل وقدّمت لها الشّرح والبيان، إنّما أكدّت فى جوهرها على تلك «المعانى السّامية» التى تضمّنها هدى الكتاب وصريح السُّنَّة باعتبارهما المنهل الرّوى والمنهج الصّفىّ للعقيدة الإيمانيّة الصّحيحة التى تُنكر الشّطط وتلفظ الخرافة، وتكشف البدعة، وتجابه الهوى، وترفض المتاجرة باسم الدّين، نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد المتواضع نورا فى صحائف الأعمال، وهديا نستعين به فى سائر الأفعال، مُتجاوزا عمّا نكون قد قصّرنا فيه عن غير قصد، إنّه سبحانه نعم المولى ونعم النّصير.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا الأكرم محمّد وعلى آله وصحبه إلى يوم يُبعثون.

(المؤلـف)

الإيمان بالغيب

الغيب من القضايا التى شاء الله تعالى أن يبتلى بها عباده «ليَخْتَبِرَ» إيمانهم و«يُمَحِّصَ» قُلُوبَهم، و«يُبَرْهِنَ» لهم على أنّ المحدود لا يدرك المطلق، وأنّ عدم إدراك العقل للمجهول لا ينفى وجوده فى ضمير الغيب المكنون، وأنّ عليه أن يَكِلَ أمر هذا الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، عندما يتلقّى العلم فى شأنه من العليم الخبير، الذى يحيط بالظّاهر والباطن، والغيب والشّهادة، وتلك هى الصّفة الأولى من صفات المتّقين كما جاء فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة:٣]. و﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[فاطر:١٨].

والإيمان فى اللّغة يطلق على التّصديق المحض كقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السّلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[يوسف:١٧]. أى بمصدّق، وشرعا: التّصديق الجازم المقترن بإذعان النّفس لأمر الله تعالى وقبولها لمراده، والإيمان بكل ما جاء به النّبى ﷺ واعتقاده اعتقادا جازما، كالإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشرّه.

وقول الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥] . يبيّن أركان الإيمان الشّرعى المشار إليها فى حديث جبريل عليه السّلام[١] حين قال للنّبى ﷺ «فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ[٢]».

وهذه «السّتّة» يُطلق عليها أركان «الإيمان» وهى كلّها داخلة فى «كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ» المتضمّنة للشّهادتين اللّتين يَلْقَى المسلم عليهما ربّه تعالى لقوله ﷺ «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ[٣]». فإن قالهما المسلم بصدق ويقين كان من المؤمنين الموحّدين مع أنّه لم يتلفّظ بكلّ أركان الإيمان، وما ذلك إلاّ لأنّ أركان الإيمان كلّها داخلة فى هاتين الشّهادتين.

والشّهادة الإخبار عن الشّىء المتيقّن، وقد جرى على ألسنة الأمّة سلفها وخلفها فى أداء الشّهادة لفظة «أَشْهَدُ» مقتصرين عليها دون غيرها من الألفاظ الدّالة على تحقيق الشّىء نحو قوله: «أَعْلَمُ وَأَتَيَقَّنُ». وهى موافقة لألفاظ الكتاب والسّنّة ولا تخلو من معنى التّعبّد فكان الإجماع على تعيينها دون غيرها من دلالات الألفاظ،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] والتّرمذى [٢٦١٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٧٧٧] ومسلم [٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩] والتّرمذى [٢٦٣٨].

ولعلّ السّر في ذلك أنّ الشّهادة اسم من المشاهدة التي هي الاطلاع على الشّيء عيانا، فاشترط في الأداء ما يُنبيء عن المشاهدة، وأقرب شيء يدلّ على ذلك ما اشتقّ من اللّفظ وهو «أشْهَدُ» بصيغة المضارع.[1] ومن الشّهادة: الإعلام والحضور كما في قول النّبي ﷺ «الْغَنِيمَةُ لِمَنْ شَهِدَ الْوَاقِعَةَ[2]». أي حضرها.

ومن الشّهادة «العلم» نحو قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨]. وفي الرّوض المربع: هي الإخبار بما علمه بلفظ «أشْهَدُ» أو «شَهِدْتُ»[3]. و«شَهِدَ» على كذا: أخبر به خبرا يقينيّا قاطعا أنّه شهد. و«تَشَهَّدَ»: أي نطق بالشّهادتين. و«التَّشَهُّدُ» في الصّلاة: قراءة التّحيّة المتضمّنة للشّهادتين.

وكلمة «أشْهَدُ» في اللّغة جاءت على «ثلاثة معان» وقد استعملها القرآن الكريم بكلّ من هذه المعاني عندما عبّر بها:

(١) عن «المشاهدة» وهي الإدراك بإحدى الحواسّ كما في قول الله تعالى ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين:٢١].

(٢) وعن «الشّهادة» وهي قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة، وقوله ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾. يعني شهادة بمشاهدة «البصيرة»، ثمّ قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزّخرف:١٩]. تنبيها أنّ الشّهادة تكون عن معاينة، كما تأتي بمعنى الإقرار بما علم، أو الإخبار بما رأى كما في قوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾[الطلاق:٢].

(٣) وعن «الحَلف» وقد استعملها بهذا المعني عندما جاءت من المنافقين على غير ما تُكنّ صدورهم كما في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١]. فاعتبر قولهم «نَشْهَدُ» يمينا، ولذلك قال فقهاء الحنفيّة: أنّ من قال «أشْهَدُ» فقد «حَلَفَ» لأنّ هذه الشّهادة تجري مجرى الْقَسَم في التّأكيد.

وإذا كان التّرابط قد تحقّق بين هذه المعاني مجتمعة فإنّ المرء يَحْلِفُ إذا شَهِدَ ويَشْهَدُ إذا شَاهَدَ، وعلى هذا فشهادة المسلم أنّه «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» لا تعتبر إلاّ باستجماع معنى المشاهدة بالقلب يقينا مع الشّهادة باللّسان إقرارا، والاستقامة على أمر الدّين إذعانا وتطبيقا، فمن لم يشهد بعقله وقلبه أنّه «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» أو كان متردّدا فيها فهو «منافق» إن نطق بالشّهادتين

(١) انظر المنهل العذب المورود [ج ٢ ص ١١٣].

(٢) انظر نصب الرّاية للزّيلعي [ج ٣ ص ٤٠٨].

(٣) انظر الرّوض المربع [ص ٥٢٦] ومعجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٣٤٥].

بلسانه ، و«كافر» إن لم ينطق ، ومن لم يشهد بلسانه «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» عنادا وكبرا فهو «كافر» .

وما قاتل رسول الله ﷺ المشركين والكفّار إلاّ من أجل أن يقولوا «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» خالصة بها قلوبهم ويؤمنوا بجميع ما جاء به نبيُّ الإسلام ﷺ هديا ونورا وإرشادا ، وأنّ من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلاّ بحقّها ووُكلت سريرته إلى الله تعالى لقول النّبى ﷺ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أن «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» ، وَيُؤْمِنُوا بِى وَبِمَا جِئْتُ بِه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ[1] » .

فإذا نطق المسلم بهاتين الشّهادتين وكانتا منه إعلانا صريحا يدلّل به على إسلام الوجه والقلب لخالقه ومولاه ، فهو من خلال عمله اليومى وحركته المستمرّة فى الحياة يُبرهن على حقيقة هاتين الشّهادتين فى قلبه إيمانا وتصديقا ، ويؤكّد بهما استقامة وجدانه انقيادا لأمر الله تعالى وتسليما لهدى نبيّه الأكرم ﷺ .

ومن ثمّ تأتى شهادته بلسانه تأكيدا يقينيًّا لهذه العقيدة فى شقّها الأوّل على أنّه لا مُطمأنّ إليه ، ولا مُستجار به ، ولا محبوب ، ولا مالك ، ولا مُطاع ، ولا مُعظّم ، ولا سيّد ، ولا حاكم للعالم كلّه إلاّ خالق السّموات والأرض جلّ وعلا .

إنّه يُقرُّ بلسانه أمام ربّه أنّ أصول العبوديّة التى تضمّنتها شهادته ، إنّما تجسّدت معانيها السّامية مع كلّ حركة تطامنا ورهبة ، وتمثّلت حقيقتها فى كلّ عمل قنوتا وإنابة ، وتتابعت شواهدها مع كل توجّه إقبالا ورجاء ، لتأتى مناهج الحياة كلّها بعد ذلك ترجمة أصيلة لقوله «أَشْهَدُ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» . .

ثمّ يُعلن المسلم التّلازم الكامل بين الشّهادتين اللّتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى باعتبارهما التّجسيد الحى لركنى التّوحيد وأصول العقيدة ، فالمسلم لا يقوم بلوازم العبوديّة الحقّة لربّه تعالى إلاّ إذا عرف رسوله ﷺ ومعرفة الرّسول تتبع معرفة الله تعالى ، فتأتى الشّهادة لنبيّنا ﷺ أنّه عبد الله ورسوله إقرارا منه أنّ التّلقى عن النّبى ﷺ فى كيفيّة تحقيق هذه العبوديّة هو شطرها الثّانى المتمثّل فى قوله «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» .

وعلى هذا فإنّ شهادتيه من خلال إقراره بهما لا تعتبران إلاّ بتأكيد معنى المشاهدة بالقلب يقينا وإيمانا ، مع الشّهادة باللّسان تصديقا وإقرارا ، ثمّ تأتى الشّهادة على هذا النّحو بين يدى ربّه تعالى برهانا جازما على صدقه فى شهادته ، ودليلا مؤكّدا على حقيقة الإخلاص فى تلك المشاهدة .

ويستفاد من هذه المعانى أنّ ركائز العقيدة الإسلاميّة الصّحيحة لا تقوم إلاّ على ركنين أساسيّين تضمّنتهما الشّهادة الحقّ من المسلم لخالقه سبحانه :

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١] وافقه البخارى [٢٩٤٦] والتّرمذى [٢٦٠٦] .

(أولهما) الإيمان المُطلق والجازم بالله تعالى

إنّ الشّق الأوّل من هذه الشّهادة يذكر صراحة قوله القاطع أنّه [لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ] وهي كلمة التّوحيد التي تعنى الإيمان المطلق بالله تعالى، والتّصديق بوجوده سبحانه ربًا واحدًا أحدًا، فردًا صمَدًا، من غير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وأنّه جلّ شأنه متّصف بكلّ كمال، منزّه عن كلّ نقص.

وأنّه سبحانه وتعالى رقيب على عباده، حسيب عليهم، عادل بينهم، لا يظلم مثقال ذرّة، وأنّه سبحانه محيط بكلّ شيء، توّابٌ رحيم، عليمٌ حكيم، غفورٌ ودود، غنىٌّ حميد، سميعٌ بصير، شاكرٌ حليم، إلى غير ذلك ممّا وصف به ذاته العليّة من صفات البهاء والجلال والكمال، وذلك كلّه يترجم معنى قول المسلم [لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ] أى لا معبود بحقّ إلاّ الله، ويلزم لهذا المعنى أمران:

(الأوّل) أن يكون سبحانه غنيًا عن كلّ ما سواه.

(والثّانى) أن يفتقر إليه كلّ ما عداه.

والحدّ الأدنى لهذا الإيمان هو التّصديق الذى لا شبهة فيه، بل هو الجزم الذى لا يقبل الشّك بحال، وقد وصف الله المؤمنين بذلك فقال تعالى﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[الحجُرات :١٥] أى صَدَّقُوا ولم يترددوا فى هذا الإيمان أبدا، ومنه قوله ﷺ «أَفْضَلُ الإيمَانِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إيمَانٌ لاَ شَكَّ فِيهِ(١)». أى من أرفع درجات الإيمان التّصديق اليقينى الذى لا ريبَة فيه ولا تردُّد.

ثمّ يأتى بالدّرجة الأعلى من هذا الإيمان وهو الشّعور بالذّات الإلهيّة وصفاتها والإقبال عليها كما جاء فى سُؤال جبريل للنّبى ﷺ عن الإحسان فقال له «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ(٢)». وجاء عند أحمد بلفظ «أَنْ تَعْمَلَ للهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». وتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه فاستمرّ على إحسان العبادة له فإنّه يراك. وإحسان العبادة : الإخلاص فيها، وفراغ البال حال التّلبُّس بها، ومراقبة المعبود سبحانه وتعالى عندما أشار فى الجواب إلى حالتين:

(الأولى) أن يغلب عليه مشاهدة الحقّ تعالى بقلبه حتّى كأنّه يراه بعينه، وهو قوله ﷺ «كُنْ كَأَنَّكَ تَرَى اللهَ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ(٣)».

(والثّانية) أن يستحضر المرء أنّ الحقّ تعالى مُطّلع عليه يرى كلّ ما يعمل وهو قوله

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٠٧٠٤].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] والتّرمذى [٢٦١٠].

(٣) أخرجه أبو نعَيم فى الحلية [٨/ ٢٠٢] وصحّحه الألبانى [١٠٣٧] وقال حسن.

ﷺ « فَإِنَّهُ يَرَاكَ». (قال) النّووى [معناه أنّك إنّما تراعى الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك لكونه يراك لا لكونك تراه، فأحسن عبادته وإن لم تره].

وكلمة [التّوحيد] تتضمّن العلم بالله وتوحيده وذكره لقوله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمّد:١٩]. وإن كان رسول الله ﷺ أعلم الخلق بالله وأعرفهم به سبحانه، وهو منه فى أعلى الدّرجات لقوله ﷺ من حديث عائشة «إنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا[١]». وفى رواية «إِنِّى أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً».

والعلم بالله تعالى يتناول ما بصفاته وما بأحكامه وما يتعلّق بذلك كلّه، إلاّ أنّ الآية تتضمّن ثلاثة أوجه:

(أوّلها) يعنى اعلم أنّ الله أعلمك أنه [لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ].

(الثّانى) ما علمته استدلالا فاعلمه خبراً يقينًا ومن ذلك قول النّبى ﷺ «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ[٢]».

(الثّالث) يعنى فاذكر أن [لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ]. فعبّر عن الذّكر بالعلم لحدوثه عنه، ومنه قول النّبى ﷺ «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ[٣]».

وكلمة التّوحيد هى كلمة التّقوى التى يتّقى بها من الشّرك وهى قوله [لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ]. وأُضيفت إلى التّقوى لأنّها سببها وبه قال الجمهور لما روى مرفوعا من حديث أُبَىّ بن كعب عن النّبى ﷺ فى تفسير قول الله تعالى﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾[الفتح :٢٦].قال لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ[٤]». فكان المسلمون أحقّ بها وأهلها لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيّه ﷺ، ولمّا قال النّبى ﷺ لأبى طالب وقريش عنده مجتمعة: «يَاعَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». أبى ومن معه من صناديد قريش وأنفوا من ذلك، فذكر الله استكبارهم عنها فقال تعالى﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[الصّافّات:٣٥]. أى ينكرون ويتعصّبون لإثبات الشّرك ويستنكفون عن الإقرار بالتّوحيد والخضوع للعلى الأعلى سبحانه.

(ثانيا) الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ

إنّ قول المسلم [أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ] يتضمّن الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ وثبوت الرّسالة له، وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنّه المبلّغ عن ربّه تعالى هذا الدّين العظيم كما

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠] ومسلم [٢٣٥٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦].

(٣) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٣٠٨٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٢٦٥].

في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النّساء: ١٧٠]. ويندرج تحته:

(١) وجوب الأمانة والتّبليغ والصّدق، واتّصافه ﷺ بما لا نقص فيه سواء أكان واجبا كالفطانة وعدم دناءة الآباء والأمهات، أم جائزا كالمرض والجوع.

(٢) الإيمان بجميع الأنبياء والكتب والملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر.

(٣) الوقوف على مدائح نبيّنا الأكرم ﷺ والمحاسن الثّابتة له في نفسه ثمّ على حسن آثاره في دين الله تعالى وما يجب له من الحقّ على أمّته شرعا وعادة، فمن أحاط بذلك وسلم عقله علم أنّ رسوله ﷺ أحقّ بالمحبّة من الوالد الفاضل في نفسه البرّ الشّفيق على ولده لقوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِه وَوَالِده وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وفي رواية «حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِه وَأَهْلِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[١]».

والإيمان [بمحمّد ﷺ] نبيّا ورسولا يقتضي أن نؤمن بكلّ ما أخبرنا عنه هذا النّبي الصّادق والرّسول الخاتم عن ربّه تعالى وأوّل ذلك:

(١) الإيمان بالملائكة الأطهار وبوجودهم، وأنّهم عباد مُكرمون، لا يتّصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وأنّهم أجساد نورانيّة خلقت من نور، ونؤمن بمن ذُكر منهم تفصيلا كجبريل، وميكائيل، وملك الموت، ونافخ الصّور، وحملة العرش، وخازن النّار، والحفظة، والزّبانية، وبالباقي إجمالا، كما نؤمن بوظائفهم من تبليغ للرّسل، أو كتابة لأعمال الإنسان، ورزقه وأجله، وشقاوته، وسعادته، وسُؤال الميّت في قبره، وقبض الأرواح، والنّفخ في الصّور، إلى غير ذلك من الوظائف والأعمال الموكّلة لبعضهم ممّا هو مفصّل في الكتاب والسّنّة.

(٢) الإيمان بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله والتّصديق بأنّها كلام الله تعالى، وأنّ ما تضمّنته هو الحقّ المبين وهي صُحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وقرآن محمّد ﷺ وهو الكتاب النّاسخ لما قبله من كتب والجامع لكل ما فيها من أحكام لقول النّبي ﷺ «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاة السَّبْعَ الطِّوَالَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ[٢]».

ثمّ اليقين بأنّ القرآن كلّه حقّ لا باطل فيه، ثمّ بكونه لم يُغَيَّرْ منه حرفٌ، ولم تُبَدَّلْ منه كلمة وأنّه الكتاب العزيز الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصّلت: ٤٢]. فهو كتابنا الموجود الآن بين أيدينا بلا تبديل ولا تغيير، ولا زيادة

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٥] ومسلم [٤٤].

(٢) أورده فى صحيح الجامع [١٠٥٩] والصّحيحة [١٥٨]

ولا نقصان، وأنّه الكتاب المعجز المحفوظ بحفظ الله تعالى له فى نفس لغته ولفظه ورسمه إلى قيام السّاعة لقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩].

ثمّ الإيمان بتحريم ما حرّم القرآن، وتحليل ما أحلّه، ثمّ اعتقاد تمام الهدى وكماله فيه، والضّلال فى غيره إن كان مخالفا لمضمونه، فأنظمته هى الحقّ الذى لا حقّ غيره، سواء فى ذلك العقائد أو العبادات، أو مناهج الحياة، أخلاقا وتشريعا وآدابا، والإيمان بأنّ الغيوب التى أخبرنا عنها من الجنّ، والملائكة، والسّموات، والبعث، والحساب، والجنّة، والنّار، والرّسل، والمعجزات، واليوم الآخر أنّها جميعها حقٌّ لا مراء فيه.

ثـمّ الإيمان «بالسُّنَّة» باعتبارها الموضّحة للقرآن والمبيّنة له، ولا يفهم القرآن تفصيلا إلاّ بها لقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل : ٤٤] ثمّ الإيمان بأنّ هذا القرآن كتاب الهداية الرّبّانيّة إلى يوم القيامة كما فى قول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢]. وأىّ طلب للهدى أو الحقّ أو الخير أو العدل فى غيره ومن غيره كفر وبهتان وردّة وضلال.

(٣) الإيمان بالرّسل تفصيلا إذا فصّل القرآن وإجمالا إذا أجمل، والتّصديق بأنّهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، ثمّ الإيمان بعصمتهم وفطانتهم وتبليغهم، وكونهم متّصفين بما يليق بهم من صدق وأمانة وتبليغ وفطانة، وما لا يُؤدّى إلى نقص مراتبهم العليّة، والإيمان بوحدة رسالة السّماء لوحدانيّة مُرسلها سبحانه، وبالأخوّة بين الأنبياء لوحدانيّة المصدر الذى تلقّوا الوحى عنه، واليقين بصدق بعثة الرّسول الخاتم ﷺ الذى تكاملت فى رسالته كلّ الرّسالات التى جاءت لهداية البشر.

(٤) الإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة ومنه قول الله تعالى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٦٢]. ويشمل ذلك الإيمان بالبرزخ بعد الحياة الدّنيا، وبما اشتمل عليه من سُؤال القبر، وعذابه، ونعيمه، وبعث، وحشر، ونشر لكتب الأعمال، وتعليقها فى الأعناق، وأخذها باليمين لقوم، وبالشّمال لآخرين، وقراءة كلٍّ كتابه، وحساب، وميزان، وصراط، وحوض، وشفاعة، وجنّة، ونار، وخلود، ورؤية الخالق جلّ وعلا.

(٥) الإيمان بالقدر كلّه خيره وشرّه، والإذعان بأنّ كلّ ما قدّر الله فى الأزل لابدّ من وقوعه، وما لم يقدّره يستحيل وقوعه، وبأنّه تعالى قدّر الخير والشّرّ قبل خلق الخلائق لقوله ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ[1] ». ونؤمن كذلك بأنّ جميع الكائنات

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٣] والتّرمذى [٢١٥٦].

بقضائه وقدره كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ويأتي تفسير ذلك من قول النبي ﷺ من حديث ابن عمر عند مسلم «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ[1]».

ويتفاوت النّاس كذلك في الإيمان بالقدر، فمنهم من يحقّق الحكمة فيه فيرضى عن الله في كلّ حال، ويتوكّل عليه مستسلماً لما قضاه الله وقدّره لقوله ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ[2]».

فمن آمن بعلم الله الأزلي وإرادته التي خصّصت الأشياء بالوقوع، وقدرته التي أبرز بها هذه الأشياء وكون ذلك قد سُجّل في كتاب فقد آمن بالقدر، ولا يتحقّق كمال الإيمان بالقدر حتّى يعلم المرء أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه لقول النّبي ﷺ من رواية أحمد عن أبي الدّرداء رضي الله عنه «إِنّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ[3]».

(٦) التّسليم بأنّ الموت حقّ على جميع العباد وأنّ متاع الدّنيا قليل، وأنّ الآخرة خير لمن اتّقى، وأنّ الشّيطان للإنسان عدوٌّ مبين، وأنّ مُخالفته ومُعاداته طوق النّجاة للأتقياء الصّالحين، وأنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنّه لم يجعل للكافرين على المؤمنين من سبيل لقوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: ١٤١].

والحقيقة أنّ هذه «الدّرجات العالية» من الإيمان أو الأقلّ منها ترجع إلى مقدار جزم الإنسان «بالشّهادتين» وعمق الإيمان بهما في قلبه ويقينه، فكلّما كانت الشّهادتان أكثر تمكّنا في القلب كلّما ارتفعت درجات الإيمان بأركانه كلّها، وكذلك كلّ أعمال الإيمان والإسلام فإنّما هي لتحقيق معنى «الشّهادتين» في قلب المسلم هداية ورشادا.

لذلك كانت «الشّهادتان» بداية الإسلام ونهايته لقوله ﷺ «مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ[4]». وقوله ﷺ «مَنْ شَهِدَ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ.[5]»

كما قام اتّفاق أهل السُّنّة من المحدّثين والفقهاء على أنّ «المؤمن» الذي يُحكم بأنّه من

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٥] وأحمد [٥٨٨٣]. (٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢١٤٤]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٧٣٦٣] وأورده في الصّحيحة [١٦٩٠]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨] وافقه البخاري [٣٤٣٥]. (٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩].

أهل القبلة ولا يُخلّد في النّار، لا يكون إلاّ من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادا يقينيا جازما خاليًا من الشُّكوك، ونطَق «بالشّهادتين». وأوجبوا على من نشأ مؤمنا أن يذكرها في العمر مرّة، وأن يُكثر من ذكرها عارفا معناها ومقاصدها لينتفع بها في الدّنيا والآخرة، أمّا «الكافر» الذي يريد الدّخول في الإسلام فَذِكْرُهُ لها ليس شرطا في صحّة إيمانه ولا جزءا من مفهومه.

ولـمّا كان الإخلال بركن من أركان الإيمان «السِّتَّة» إخلالا بالشّهادتين أصلا، كان لابدّ من الإشارة إلى بعض المسائل المتعلّقة بهذه الأركان على النّحو التّالي:

(١) أنّ بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ المقصود بقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. هو الإيمان بأركان الإيمان السِّتَّة، على اعتبار أنّ مرجع أمر الغيب كلّه إليها، فلو قال: إنّ الله والملائكة واليوم الآخر والقدر «غَيْبٌ» أمّا الكتب والرّسل «فليسا» كذلك، فكيف اعتبرنا الإيمان بهما إيمانا بغيب؟ فالجواب أنّ اعتبار الإيمان بالرّسل من الإيمان بالغيب من حيث اتّصال الوحي بهم وهو «غَيْبٌ» وصفة الرّسالة لا تقوم إلاّ به، فإيماننا بهذه الصّفة «إيمانٌ بغَيْب» واعتبار الإيمان بالكتب من الإيمان بالغيب من حيث الاعتقاد بأنّها مُنزّلة عليه وذلك أمر غيبي.

(٢) أنّ هذه الأركان السِّتَّة ذكرها حديث جبريل كاملة وقد جاء القرآن بخمسة منها مجتمعة في أكثر من آية منها قوله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النّساء:١٣٦]. وذُكر القدَر منفردا في أكثر من آية منها قوله تعالى﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]. ولعلّ ذكر القدَر جاء مُنفردا لكونه داخلا في الإيمان بالله تعالى، إذ معنى القدَر على الحقيقة علم الله القديم بما هو كائن، وتخصيص الإرادة الإلهيّة لهذه الكائنات بالوقوع وإبراز القدرة لما تعلقت به الإرادة، فمرجع الإيمان بالقَدَر إلى الإيمان بالله تعالى.

(٣) أنّ الإيمان لا يقبل التّجزئة فمن كَفَر برُكن واحد منه فقد كَفَر بالكُلّ، ومن كَفَر بمضمون قطعي في رُكن فقد كَفَر بالكُلّ، فلابدّ من الإيمان الكامل بهذه الأركان، فمن آمن بالله تعالى «آمن» بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدَر كما في قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[النّساء:١٥٠]. فلابدّ من الإيمان بمجموع الأركان السِّتَّة، فمن جزّأها فقد كفر لقوله عقب هذه الآية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النّساء:١٥١]. ويفسّر ذلك قوله ﷺ من رواية أحمد «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَع: حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ[١]».

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧٥٨].

(٤) وكما أنّ أركان الإيمان لا تقبل التّجزئة فإنّ لكلّ ركن شمولا وتفصيلا، ولا يعتبر الإيمان إيمانا كاملا إلاّ إذا صدّق بها كلّها : فالإيمان بالله تعالى يشمل الإيمان بوجوده، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، على الوجه المراد له من تنزيه وكمال كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[الأعراف : ١٨٠] .

(٥) أنّ المسلم قد يكون مُؤمنا في بعض الأحوال، ولا يكون مُؤمنا في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكلّ مؤمن مسلم وليس كلّ مسلم مؤمنا، ذلك لأنّ أصل الإيمان التّصديق، وأصل الإسلام الخضوع والانقياد. فقد يكون المرء مستسلما في الظّاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقا في الباطن غير منقاد في الظّاهر ودليل ذلك قوله تعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤] . وفيها دليل على أنّ الإيمان ليس الإسلام، فإنّ الإيمان باطن والإسلام ثمرة لهذا الإيمان ودلالة على صحّته.

ولمّا قال سعد للنّبي ﷺ «مَالَكَ عَنْ فُلاَنٍ ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْ مُسْلِمًا. إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ[1] ». أي أعطيه مخافة أن يرتدّ لضعف إيمانه أو يتكلّم بما لا يليق فيسقط في النّار، وقوله ﷺ في رواية «لاَ تَقُلْ مُؤْمِنٌ وَقُلْ مُسْلِمٌ». لا يدلّ على إنكار كونه مؤمنا، بل معناه النّهي عن القطع بالإيمان الذي محلّه القلب فلا يظهر، وإنّما الذي يُجزم به هو الإسلام لظهوره، فلذلك كانت لفظة الإسلام أولى به، أمّا الإيمان فباطن لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

(٦) أنّ النّبي ﷺ جعل الإسلام اسما لما «ظَهَرَ» من الأعمال، وجعل الإيمان اسما لما «بَطَنَ» من الإسلام، بل جاء ذلك تفصيلا لجملة هي كلّها شيء واحد جماعها هذا [الدّين العظيم] . ولذلك قال النّبي ﷺ «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» . فالتّصديق والعمل يتناولهما اسم [الإيمان والإسلام] جميعا ويدلّ عليه قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران : ١٩] . وقوله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥] . وقوله تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة : ٣] .

ولا يكون الدّين في محل القبول والرّضا إلاّ بانضمام التّصديق إلى العمل فإذا ورد الإسلام مقترنا بالإيمان كان ذلك ترجمة لأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل كالشّهادتين والصّلاة وسائر أركان الإسلام، وإذا انفرد الإيمان حينئذ يكون بمعنى الاعتقاد بالقلب والتّصديق بالله تعالى . [ولذلك كان الإيمان في لسان الشّرع هو التّصديق بالقلب والعمل بالأركان، وهذا يشير إلى أنّ الإيمان والإسلام من الألفاظ التي إذا اجتمعت انفردت، وإذا

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٠] .

انفردت اجتمعت، فإذا انفرد كلّ منهما كان بمعنى الآخر، وإذا اجتمعا كان الإيمان بمعنى التّصديق القلبي المحض، والإسلام بمعنى الانقياد الظّاهري لأوامر الشّرع ونواهيه[1]].

وكان ﷺ يقول في دعائه إذا صلّى على الميّت «اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ منّا فَأَحيه عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ منّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ[2]». لأنّ الأعمال بالجوارح وإنّما يتمكّن منه في الحياة، فأمّا عند الموت فلا يبقى غير التّصديق بالقلب.

(٧) أنّ الإيمان بالله تعالى قول وعمل يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية وهو مذهب أهل السُّنَّة من سلف الأمّة وخلفها، فأمّا القول فالمراد به النّطق بالشّهادتين، وأمّا العمل فالمراد به ما هو أعمّ من عمل القلب والجوارح ليدخل فيه الاعتقاد والعبادة، وأرادوا بذلك أنّ الأعمال شرط في كمال الإيمان، ومن هنا نشأ القول بالزّيادة والنّقصان فيه، والحجّة على زيادته ونقصانه ما جاء في الكتاب الكريم من قوله تعالى:

* ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣].

* ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح: ٤].

وكلّها تدلّ على أنّ إيمان من لم تحصل له الزّيادة ناقص، فإن قيل أنّ الإيمان في اللُّغة هو التّصديق، فالجواب أنّ التّصديق يكمُل بالطّاعات كلّها، فكلّما ازداد المؤمن من «أعمال البرّ» كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت «أعمال البرّ» نقص «كمال الإيمان»، وكلّما ازدادت زاد «الإيمان» هدى وكمالا ورشادا.

كما أنّ نقصان الإيمان يكون بارتكاب المعاصي والمخالفات لقوله ﷺ «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ[3]». أي لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، ولذلك يحتاج المرء إلى أن يجدّد إيمانه بربّه تعالى كلّما غلبته المعصية لما روى عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلَقُ فَسَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ[4]». وعندما قالوا «يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ[5]».

(٨) ولمّا كان الإيمان أمرًا محسوسًا في حياة المسلم فإنّ له في واقعه تذوّقًا وطعمًا وحلاوة، ولا يتذوّق طعم الإيمان إلاّ من رضي بالله ربًّا، فلم يسأل معه غيره كما في قول النّبي ﷺ «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً[6]».

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢ / ٢٥٩]. (٢) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٢٠١] والتّرمذي [١٠٢٤].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧] وأبو داود [٤٦٨٩]. (٤) أخرجه الحاكم [٥] وأورده في الصّحيحة [١٥٨٥]. (٥) رواه أحمد بإسناد صحيح [٨٦٩٥] وأورده الهيثمي في مجمع الزّوائد [ج ١ ص ٥٧]. (٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٤] والتّرمذي [٢٦٢٣].

والرّضا بالشّيء القناعة به والاكتفاء به عن غيره، وعرّفه الجمهور بأنّه قصد الفعل دون أن يشوبه إكراه. [يقال] رضيت الشّيء ورضيت عنه وعليه وبه واسترضاه: طلب رضاه، وهو بمعنى سرور القلب وطيب النّفس وضدّه السّخط والكراهية.

وفي الحديث جعل رسول الله ﷺ الرّضى بالله تعالى قرين الرّضى بدينه ونبيّه وهذه الثّلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلاّ بها وعليها، فالرّضى بربوبيّته سبحانه يتضمّن الرّضى بتدبير عبده وإفراده بالتّوكّل عليه والاستعانة به والاعتماد عليه، والرّضى بإلهيّته يتضمّن الرضى بمحبّته وحده وخوفه ورجائه والإنابة والتّبتّل إليه، فالرّضى بإلهيّته يتضمّن رضاه بما يُؤمر به، والرّضى بربوبيته يتضمّن رضاه بما يقدره عليه.

والرّضى بنبيّه ﷺ رسولا يتضمّن كمال الانقياد له والتّسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقّى الهدى إلاّ من مواقع كلماته، ولا يرضى إلاّ بقوله وحُكمه. أمّا الرّضى بدينه فإذا قال أو حَكَمَ أو أمَرَ أو نهى، رضي كلّ الرّضى ولم يبق في قلبه حرجا من حكمه وسلّم له تسليما ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها.

ولا شكّ أنّ من كانت هذه صفته فقد خلصت «حَلاَوَةُ الإيمَان» إلى قلبه وذاق طعمه، وتنسّم روحه، وصحّ إيمانه، واطمأنّت به نفسه وخامر باطنه، لأنّ رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه، ولأنّ من رضي أمرا سهُل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل الإيمان قلبه سهلت عليه الطّاعات ولَذّ مذاقها عنده والله تعالى أعلم.

كما لا يجد طعم الإيمان إلاّ من تذوّق حلاوته وتحمّل المشاقّ في رضى الله ورسوله وإيثاره ذلك على عَرَض الدّنيا وهو معنى قوله ﷺ «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حَلاَوَةَ الإيمَان: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيه ممَّا سوَاهُمَا، وأنْ يُحبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحبُّهُ إلاَّ لله، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الْكُفْر بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّار[1]».

وفي قوله «حَلاَوَةَ الإيمَان» استعارة تخييليّة شبّه بها النّبي ﷺ رغبة المؤمن في الإيمان بشيء «حلو» وأثبت له لزوم ذلك الشّيء وأضافه إليه، كما جاء التّعبير عنه «بالحلاوة» عندما شبّه الله «الإيمان» بالشّجرة المثمرة في قوله جلّ شأنه ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم: ٢٤]. فالكلمة الطيّبة هي كلمة الإخلاص، والشّجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتّباع الأمر واجتناب النّهي، وورقها ما يهتمّ به المؤمن من خير، وثمرها عمل الطّاعات، وحلاوة ذلك كلّه يكون عند جني الثّمرة كما جاءت الإشارة إليه في الآية بقوله تعالى﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وغاية كماله تناهي نضج هذه الثّمرة وبه يظهر طعمها وحلاوتها [[2]].

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٣]. (٢) انظر فتح الباري [ج ١ ص ٧٧ ـ بتصرّف].

فإذا تأمّل المرء أنّ الشّارع لا يأمر ولا ينهى إلاّ بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك، تمرّن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعا له، ويلتذّ بذلك التذاذًا عقليا، إذ الالتذاذ العقلى إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك، فعبّر رسول الله ﷺ عن هذه الحالة «بالحلاوة» لأنّها أظهر اللّذائذ المحسوسة، فمن ذاق عرف ومن عرف اهتدى والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومراتب المؤمنين فى تحصيلهم لحلاوة الإيمان وتذوّقهم لطعمه تتفاوت بقدر استلذاذهم للطّاعات وبُعدهم عن الخطايا والسّيئات، وتحمّلهم مشاقّ الدّين وإيثارهم ذلك على الدّنيا، فكما أنّ مُخالفة أوامر الله لا تُورّث إلاّ اللّعنة والعذاب، فإنّ محبّة العبد لخالقه سبحانه لا تحصل إلاّ بفعل طاعته وترك مخالفته ويأتي دليل ذلك من قوله ﷺ عند الحاكم «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِى قَلْبِه(١)».

فإذا تخلّص القلب من الجواذب الفاسدة والمواد الرّديئة واستفرغ تلك الأخلاط التى تسبّبها «النَّظْرَةُ الْمُحَرَّمَةُ» فإنّه يستطيع أن يتذوّق حلاوة الإيمان بربّه تعالى ويعايش جلال المراقبة لخالقه سبحانه، فإنّ من ترك شيئا لله تعالى عوّضه الله خيرا منه لما جاء فى الحديث عمّن ترك تلك النّظرة أنّه «أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِى قَلْبِه». فحلاوة الإيمان ولذّة الطّاعة تورّث القلب محبّة الله لتكون أحلى وأطيب ممّا صرف بصره عنه وتركه لله تعالى ابتغاء مرضاته ورضوانه.

(٩) أنّ الإيمان الشّرعي اسم لمعنى ذى شُعَب وأجزاء، وله حدّ أدنى وأعلى كما فى قوله ﷺ «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ(٢)». ولفظه عند البخارى «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ(٣)». والاسم يتعلّق ببعضها كما يتعلّق بكلّها، والحقيقة تقتضى جميع شُعَبه، وتستوفى جملة أجزائه كالصّلاة الشّرعية لها شُعب وأجزاء والاسم يتعلّق ببعضها، والحقيقة تقتضى جميع أجزائها وتستوفيها ويدلّ عليه قوله ﷺ «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ».

وفى الأحاديث الدّلالة على أنّ أفضل هذه الشّعب [وأعلاها] قول «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ» وهو لفظ التّوحيد المتعيّن على كلّ مسلم صادق الإيمان أن يعتقده والذى لا يصحّ شيء من هذه الشّعب إلاّ بعد صحّته، [وأدناها] ما يتوقّع ضرره بالمسلمين من إماطة الأذى عن

(١) أخرجه الحاكم [٨٠٤٠] وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٥] وأبو داود [٤٦٧٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٩].

طريقهم بقوله ﷺ «وأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ». وأشار العلماء إلى أنّ شُعَبَ الإيمان تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(الأول) ما يتفرّع عن أعمال القلب من معتقدات ونيّات

ويشتمل هذا القسم على «أربع وعشرين» خصلة هي:

(١) الإيمان بالله تعالى ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وأنّه ليس كمثله شيء، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه.

(٢) الإيمان باليوم الآخر ويدخل فيه السّؤال في القبر، والبعث، والنّشور، والحساب، والميزان، والصّراط، واليقين بأنّ الجنّة حقّ، وأنّ النّار حقّ.

(٣) محبّة الله تعالى، والحبّ والبغض فيه، ومحبّة النّبى ﷺ واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصّلاة عليه، واتّباع هديه وسُنّته.

(٤) الإخلاص ويدخل فيه ترك الرّياء والنّفاق، والتّوبة، والخوف، والرّجاء، والشُّكر، والوفاء، والصّبر، والرّضا بالقضاء، والتّوكُّل، والرّحمة، والتّواضُع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصّغير، وترك الكِبْر والعُجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

(الثّانى) ما يتفرّع عن أعمال اللسان

ويشتمل على «سبع» خصال هي:

(١) التّلفظ بكلمة التّوحيد. (٢) وتلاوة القرآن. (٣) وتعلُّم العلم. (٤) وتعليمه. (٥) والدّعاء. (٦) والذّكر ويدخل فيه الاستغفار. (٧) واجتناب اللّغو.

(الثّالث) ما يتفرّع عن أعمال البدن

ويشتمل على «ثمان وثلاثين» خصلة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(الأوّل) ما يختصّ منها بالأعيان وهى «خمس عشرة» خصلة:

(١) التّطهير حسّا وحكما ويدخل فيه اجتناب النّجاسات (٢) وستر العورة (٣) والصّلاة فرضا ونفلا (٤) والزّكاة كذلك (٥) وفكّ الرّقاب (٦) والجود ويدخل فيه إطعام الطّعام وإكرام الضّيف (٧) والصّيام فرضا ونفلا (٨) والحجّ والعمرة كذلك (٩) والطّواف (١٠) والاعتكاف (١١) والتماس ليلة القدر (١٢) والفرار بالدّين (١٣) والوفاء بالنّذر (١٤) والتّحرّى فى الأيمان (١٥) وأداء الكفّارات.

(والثّانى) ما يتعلّق منها بالاتّباع وهى «ستّ» خصال:

(١) التّعفُّف بالنّكاح (٢) والقيام بحقوق الأولاد (٣) وبرّ الوالدين وفيه اجتناب

العقوق (٤) وتربية الأولاد (٥) وصلة الرّحم (٦) وطاعة الرّؤساء والرّفق بالمرءوسين .

(والثّالث) ما يتعلّق منها بالعامّة وهى «سبع عشرة» خصلة:

(١) القيام بالإمرة مع العدل (٢) ومتابعة الجماعة (٣) وطاعة أُولى الأمر (٤) والإصلاح بين النّاس ويدخل فيه قتال الخوارج والبُغاة (٥) والمعاونة على البرّ ويدخل فيه الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر (٦) وإقامة الحدود (٧) والجهاد ومنه المرابطة (٨) وأداء الأمانة (٩) والقرض مع وفائه (١٠) وإكرام الجار (١١) وحسن المعاملة وفيه جمع المال من حلّه (١٢) وإنفاق المال فى حقّه (١٣) وردّ السّلام (١٤) وتشميت العاطس (١٥) وكفّ الأذى عن النّاس (١٦) واجتناب اللّهو (١٧) وإماطة الأذى عن الطّريق.

فهذه «تسعٌ وستُّونَ» خصلة ويمكن عدّها «تسعًا وسَبْعِينَ» خصلة باعتبار إفراد ما ضُمَّ بعضه إلى بعض ممّا ذكر، وقد جمعت كُلُّهَا بين التّصديق بالقلب والإقرار باللّسان والعمل بالجوارح [(١)].

وعن تفاضل أهل الإيمان يضرب رسول الله ﷺ مثلا بعمّار الذى مُلئت رءوس عظامه بالإيمان بقوله «مُلِىءَ عَمَّارٌ إيمَانًا إلَى مُشَاشه(٢)». والمُشَاشُ: هو العظم الذى لا مُخَّ فيه، ثمّ يشير إلى الحدّ الأدنى الذى يمكن أن يتحقّق من الإيمان بقوله ﷺ «مَنْ رَأى منكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَده، فَإنْ لَمْ يَسْتَطعْ فَبلسَانه، فَإنْ لَمْ يَسْتَطعْ فَبقَلْبه، وَذَلكَ أضْعَفُ الإيمَان(٣)». أى فليكرهه بقلبه وهو أضعف أعمال الإيمان المتعلّقة بإنكار المنكر فى ذاته، وفى قوله «وَذَلكَ أضْعَفُ الإيمَان»: قال النّووى: معناه والله أعلم أقلّه ثمرة.

ومن الرّوايات التى أثبتت التّفاضل بين أهل الإيمان وتفاوت درجاتهم فيه ما جاء فى الصّحيح عن أبى سعيد رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «بَيْنَا أنَا نَائمٌ رَأيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، منْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدىَّ، وَمنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلكَ، وَعُرضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب وَعَلَيْه قَميصٌ يَجُرُّهُ، قَالَ: فَمَاذَا أوَّلْتَ ذَلكَ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ الدِّينُ(٤)».

واتّفاق أهل التّعبير قائم على أنّ القميص يُعبّر بالدّين وأنّ طوله يُدلّل على بقاء آثار صاحبه من بعده، ومن دلالات الحديث كذلك أنّ أهل الدّين يتفاضلون فيه بالقلّة والكثرة والقوّة والضّعف، والمراد بالأفضل فيه من يكون أكثر ثوابا، والأعمال علامات الثّواب، فمن كان عمله أكثر فدينه أقوى، ومن كان دينه أقوى فثوابه أكثر، ومن كان ثوابه أكثر فهو أكرم

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٠٢٢] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٨٠٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٩] وأبو داود [١١٤٠] والنّسائى [٥٠٢٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٩١] ومسلم [٢٣٩٠] والنّسائى [٥٠٢٦].

وأفضل عند الله تعالى. (قال) ابن العربى [إنّما أوّله النّبىﷺ بالدّين لأنّ الدّين يستُر عورة الجهل كما يستر الثّوب عورة البدن. كما أنّ المراد بالدّين العمل بمقتضاه كالحرص على امتثال الأوامر واجتناب النّواهى، وكان لعمر رضي الله عنه فى ذلك المقام العالى، كما يُؤخذ من الحديث أنّ كلّ ما يُرى فى القميص من حُسن أو غيره فإنّه يعبّر بدين لابسه، وقد يكون نقص الثّوب بسبب نقص الإيمان وقد يكون بسبب نقص العمل والله تعالى أعلم(١)].

وخلاصة المسألة أنّ من استجمع «مَعْنَى الشَّهَادَتَيْن» بعقله وقلبه يقينا وإيمانا، وحصّل مقاصدهما بلسانه تصديقا وإذعانا، وأحالهما فى حياته إلى واقع وبرهان، فقد استكمل إيمانه بالغيب وتحقّقت له الخشية من الخالق جلّ وعلا مصداقا لقوله تعالى:

* ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الرّعد: ٢١].
* ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[فاطر: ١٨].
* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الملك: ١٢].

ويُراد بِٱلْغَيْبِ فى القول الكريم [كلّ ما غاب عن الإنسان سواء أكان مُحصّلا فى القلوب أم غير مُحَصّل، أو هو كلّ شىء غاب عن «إدراك حواسّ» الخلائق كلّهم أو بعضهم، فما يدركه المخلوق من الموجودات الحسّيّة بحاسّة من حواسّه الظّاهرة بطريقة مباشرة يعتبر بالنّسبة إليه من «عالم الشّهادة». وما لا يدركه منها بطريقة مباشرة يعتبر بالنّسبة إليه من «عالم الغيب»(٢)].

والغيب فى اللّغة: كلّ ما غاب عنك، وهو من «ذَوَات الْيَاء». يقال منه: غَابَت الشَّمْسُ تَغِيبُ. و[اغتَابَهُ اغْتِيَابًا] أى ذكَرَ من ورائه عيوبه. والاسم: [الْغِيبَةُ] بالكسر. و[الْغَيْبَةُ]: الْبُعْدُ والتَّوَارِى. وأَغَابَت المرأةُ فهى «مُغيبَةٌ» إذا غابَ عنها زَوْجُهَا. ووقعنا فى غَيْبَة وغَيَابَة: أى فى «هبطة» من الأرض، ومنه قوله ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وغَيَابَةُ كُلّ شَىْءٍ قَعْرُهُ(٣)]. و[الْغَابَةُ] الأَجَمَةُ ذات الشّجر الكثير الكثيف وجمعه: غَابٌ وغَابَاتٌ. (قال) ابن الأعرابى [الغيب ما كان غائبا عن العيون وإن كان محصّلا فى القلوب(٤)].

واسم الغيب من الأمور الإضافيّة التى يُراد به مَا [غاب عنّا] فلم ندركه، ويراد به مَا غاب عنّا [لم يدركنا]. وذلك لأنّ الواحد منّا إذا غاب عن الآخر مغيبا مُطلقا لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا. والله جلّ شأنه شهيد على العباد مهيمن عليهم لا يعزُب عنه مثقال

(١) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٤١٣].
(٢) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ص ٦٣٦].
(٣) انظر المعجم الوجيز [ص ٤٥٨].
(٤) انظر التّفسير الكبير لابن تيمية [ج ٣ ص ١٦].

ذرّة فى الأرض ولا فى السّماء، فهو ليس بغائب ومن ذلك قولـه جلّ شأنه:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣].
إنّما [لمّا] لم يره العباد كان [غيبًا] . لهذا يدخل الحقّ تبارك وتعالى فى الغيب الذى يُؤْمَنُ به وليس سبحانه بغائب ، فإنّ الغائب اسم فاعل من قولك : «غاب يغيب» فهو : غائبٌ ، والله شاهدٌ غير غائب .

واختلف المفسّرون في تأويل قول الله تعالى﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ . فقال بعضهم [الغيب في هذه الآية «الْقُرْآنُ» وما فيه من الغيوب] . وقال آخرون [الغيب كلّ ما أخبر به رسول الله ﷺ ممّا لا تهتدى إليه العقول من أشراط السّاعة ، وعذاب القبر ، ويوم الحشر ، والنّشر ، والصّراط ، والميزان ، والجنّة ، والنّار] .

و(قال) ابن العربى [المراد بقول الله تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ . كلّ غيب أخبر به الرّسول ﷺ أنّه كائن وحقيقته ما غاب عن الحواسّ ممّا لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النّظر[1]] .

وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها وذلك لتضمّنها حقيقة الإيمان الشّرعي المشار إليه فى قول النّبى ﷺ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ ، وكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[2] » .

[وقد يكون الشّىء قد «غابَ» عن حواسّنا لكنّنا ندرك «وجوده» ووجود بعض صفاته ببراهين عقلية ، والبرهان العقلى لا ينقل الشّىء من عالم الغيب إلى عالم الشّهادة ، لكن يجعله معلوما بعد أن كان غير معلوم[3]] . ولذلك يدخل فى كلمة الغيب :

(١) ما غاب عن العباد من الحاضر والمستقبل وأخبر عنه الخالق سبحانه رسله كما فى قوله تعالى﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[آل عمران:٤٤].

(٢) ما أخبرنا عنه الوحى من «أمور ماضية ومستقبلية» كما جاء فى قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة:٣] . وقوله تعالى﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[التوبة:٧٨].

(٣) ما أخبرنا عنه الوحي من أمور موجودة الآن وهى مغيّبة عنّا كما فى قول الله تعالى﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الجنّ:٢٦] . ومنه قول رسول الله ﷺ «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ ، لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إلاَّ اللهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِى

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربى [١ ص ٨] .
(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] والتّرمذى [٢٦١٠] .
(٣) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ص ٦٣٨] .

غَـد إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِى الْمَطَرُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ تَدْرِى نَفْسٌ بأىِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مـتَى تَقُـومُ السَّـاعَـةُ إلاَّ اللهُ[1] ». وهو مـا جاء تفسيـرا لقول الله تعالى فى التنزيل الحكيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[لقمان: ٣٤].

أمّا قولهم: الغيب هو «الله تعالى». أى من الإيمان «بالغيب» الإيمان بالله تعالى لأنّه لا يُرى فى دار الدّنيا وإنّما تُرى آياته الدّالة عليه سبحانه ويشير إلى ذلك :

(١) ما جاء فى موضع النّفى عن «نفسه جلّ شأنه» أن يكون غائبا بقوله تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[الأعراف: ٧].

(٢) ما ذكر فى الموضع الآخر عندما جعل ذاته العليّة غيبا بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. أى بالخالق سبحانه.

كما أنّ كلّ ما فى الوجود هو من عَالَم الشّهادة بالنّسبة إلى الخالق فهو سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرّعد: ٩]. وهو وصف ثناء عليه سبحانه وتعالى بأنّه عالم كلّ ما يصحّ أن يوصف بأنه غيب، ولهذا يقرن فى الآية الغيب بالشّهادة وهى أيضا مصدر:

* [فالشهادة] هى المشهود أو المشاهد.

* [والغيب] هو إمّا «المغيب عنه» فهو الذى لا يشهد نقيض الشّهادة، وإمّا بمعنى «الغائب» الذى غاب عنّا فلم نشهده، فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه على النّسبة إلى الغير أى ليس هو بنفسه غائبا، وإنّما غاب عن الغير أو غاب الغير عنه، وقد يقال أن اسم «الشّهادة والغيب» يجمع النّسبتين معا:

(١) «فَالْغَيْبُ» : ما غاب عنّا وغبنا عنه فلم نشهده.

(٢) «وَالشَّهَادَةُ» : مَا شَهِدنَا وَشَهِدْنَاهُ.

وعلى كلّ تقدير فالمعنى فى كونه غيبا هو انتفاء شهود ناله، وهذه تسمية قرآنية صحيحة [[2]]. لذلك كان الإيمان بالغيب هو الفارق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وهو المقتضى الأوّل للشّهادتين، بل إنّ الشّهادتين هما رمز الاعتراف بالغيب الذى تحدّث عنه القرآن عندما يترجم المؤمنون هذه الرّمزية إلى خوف وخشية كما فى قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٤٩].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٣٧٩].

(٢) انظر التّفسير الكبير لابن تيمية [ج ٣ ص ١٧].

(الكتاب الأول)

التّعريف بعالم الملائكة الأطهار

عقيدة المؤمنين في الملائكة أنّها مخلوقات غيبيّة نورانيّة متميّزة، أخبر الله تعالى عنها في نحو «ثمان وثمانين» آية من نحو «ثلاث وثلاثين» سورة في القرآن الكريم، كما جاء التّنصيص على أنّ الإيمان بهم من أركان العقيدة الصّحيحة، والكتاب ناطق بأنّ الملائكة أصناف لكلّ صنف منهم وظيفة وعمل، والإيمان الحقّ لا يتوقّف على معرفة حقيقتهم، وإنّما يفوّض العلم في ذلك إلى الله تعالى من غير بحث عن هذه الحقائق التي هي من علم الغيب المفوّض إلى الخالق جلّ شأنه.

وقد أطلق القرآنُ لفظ «الْجِنَّة» على الملائكة في قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[الصّافّات:١٥٨]. وأكثر أهل التّفسير على أنّ الجِنَّةَ هاهنا «الملائكة». وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم «جنّةٌ» لأنّهم لا يُرَوْنَ. كما أُطلق ذات المسمّى على الشّياطين في قوله ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[النّاس:٦].

[وليس ثمّة دليل على أنّ بين الملائكة والجنّ فصلا جوهريا يميّز أحدهما عن الآخر وإنّما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف كما ترشد إليه الآيات البيّنات، وعلى كلّ حال فجميع هؤلاء المسمّيات بهذه الأسماء من عالم الغيب، لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنسبة شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نصّ قطعي عن النّبي ﷺ[1]].

وتكمُن الحكمَة في خلق الله للملائكة في معرفة الخلق لمظاهر قدرته وعظمته، فالقادر على أن يخلق ما هو شرٌّ ولا يفعل إلاّ شرًّا كالشّياطين، قادر على أن يخلق ما هو خير ولا يفعل إلاّ خيْراً كالملائكة، وقادر كذلك على أن يخلق ما هو قابل لفعل الخير والشّرّ كما في قول الله تعالى عن خلق الإنسان ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشّمس:٧-٨].

ومن خلال ذلك كلّه يقف المكلّفون على قدرة الخالق سبحانه وإبداعه في خَلقه كيفما شاء، ويتعرّفون على عظمة مملكته وكثرة جنوده الذين من أعظمهم وأكثرهم ملائكة الرّحمن جلّ وعلا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدّثر:٣١].

والملائكة الكرام مخلوقات نورانيّة لطيفة لا تحتاج إلى أجساد تقوم بها، وأنّها أُعطيت القدرة على التّشكّل بالصّور الحسنة ولا تحكم عليهم الصّورة بخلاف الجنّ وهو قول أكثر المسلمين، وإذا كانت السّموات هي مسكن الملائكة فإنّهم ينزلون إلى الأرض بأمره لقوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدْر:٤].

---

(١) انظر تفسير المنار لمحمّد رشيد رضا [ج ١ ص ٢٢١].

وقد دلّ الكتاب على صنوف الملائكة الموكّلة بالمخلوقات ووظائفها، وأنّه سبحانه وكّل بالأفلاك والشّمس والقمر ملائكة تحرّكها، ووكّل بالرّياح ملائكة تصرّفها بأمره تعالى، ووكّل بالقَطْر ملائكةً، وبالسّحاب ملائكةً تسوقه إلى حيث أُمرت به، وكذلك البحار قد وُكّلَتْ بها مَلائكةٌ تسجرها وتمنعها من أن تفيضَ على الأرض فتهلك أهلَهَا، ووكّل بالجبال ملائكةً، ووكّل بالرّحم ملكًا يقول: يارَبّ نطفة؟ يارَبّ علقة؟ يارَبّ مضغة؟ يارَبّ ذَكَرٌ أم أنثى؟ فما الرّزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيدٌ؟.

[ووكّل بكلّ عبد حافظَين عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه بأمر الخالق وإذنه، ووكّل بالخير والشّر ملائكةً تحصيه وتحفظه وتكتبه، ووكّل بالموت ملائكةً، ووكّل بمساءلة الموتى ملائكةً في القبور، ووكّل بالرّحمة ملائكةً، وبالعذاب ملائكةً، وبالمؤمن ملائكةً يثبّتونه ويدفعونه إلى الطّاعات دفعا، ووكّل بالنّار ملائكةً يبنونها ويوقدونها ويصنعون أغلالها وسلاسلها ويقومون بأمرها.

ووكّل بالجنّة ملائكةً يفرشونها ويصنعون أرائكها و سُرُرَهَا وصحافها ونَمارقَهَا وزَرَابيَّها، فأمر العالم العلوى والسُّفلى والجنّة والنّار بتدبير الملائكة بإذن ربّهم تبارك وتعالى وأمره، إلى غير ذلك من صنوف الملائكة الأطهار التي لا يُحْصِي أجناسهم ولا مدّة أعمارهم ولا كيفيّة عبادتهم إلا الخالق سبحانه وتعالى[1]].

[ومن الملائكة الأمناء على وحيه، والألسنة إلى رسله، والموكّلون بقضائه وأمره، والحفظة لعباده، والسَّدَنة لأبواب جنّاته، ومنهم الثّابتة في الأرضين أقدامهم والمارقة للسّماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفّعون بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حُجُب العزّة وأستار القدرة، لا يتوهّمون ربّهم بالتّصوير ولا يُجرُونَ عليه صفات المصنوعين ولا يَحُدُّونَهُ بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنّظائر[2]].

وتدلّ الأحاديث الصّحيحة عن نبيّنا ﷺ على أنّه ما من موضع في السّموات السّبع العُلَى إلاّ هو مشغول بالملائكة وهم في صنوف متعدّدة من العبادة، فمنهم القائم أبدا، ومنهم الرّاكع أبدا، ومنهم السّاجد أبدا، ومنهم الصّافّون لا يتزايلون، والمسبّحون لا يسأمون فلا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فتور الأبدان، ولا غفلة النّسيان.

والملائكة لا يُحْصَوْنَ عددا في علم المخلوقات لكثرتهم الكاثرة (لقول) النبي ﷺ من حديث أبي ذرّ مرفوعا «إنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إلاَّ عليه مَلَكٌ سَاجِدٌ[3]». ومعنى «الأطيط» في قوله ﷺ «أطّتْ»: صوت الأقتاب، وأَطِيطُ

(١) انظر إغاثة اللّهفان لابن القيّم [ص ٤٦١]. (٢) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢ ص ١٨٠].
(٣) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢٣١٢] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [١٧٢٢].

الإبل أصواتها وحنينها، ومعناه أنّ كثرة من في السّماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتّى أطّتْ، أي حصل الصّوت منها كما يحصل من الرحْل إذا رُكب عليه، وهذا إيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثمَّ أطيط ومنه قوله ﷺ عن عائشة «مَا في السَّمَاءِ الدُّنْيَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلاّ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أوْ قَائِمٌ، فَذَلكَ قَوْله تَعَالَى﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[الصّافات: ١٦٤-١٦٦[1]].

والملائكة عالم غيبي لايعلم حقيقتهم إلاّ خالقهم سبحانه وتعالى، جرّدهم ربّهم من الشّهوات وجَبَلَهُمْ على الطّاعات، فلا يُوصفون بذكورة ولا بأنوثة، فمن اعتقد أنّهم ذكور فسَق، ومن اعتقد أنّهم إناث كَفَر، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، إذ هم كما وصفهم خالقهم في الكتاب المكنون ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩-٢٠].

الإيمان بالملائكة من أركان العقيدة الصّحيحة

جاء في القرآن الكريم أنّ الإيمان بالملائكة والتّصديق بوجودهم ركن من أركان العقيدة الإسلامية كما في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥]. والإيمان بالملائكة في الآية يأتي في التّرتيب الثّاني في تعريفه وهذا يُشْعِرُ بأهمّيته بالنّسبة لأركان الإيمان عند الذين يرون أنّ [الواو] لا تقتضي مُطلق الجمع، وكذلك عند الذين يعتبرون التّقديم مُشْعِراً بالأهمّية أو بالفضل [[2]]. وقُدِّم ذكر «الملائكة» على الكتب والرّسل طبقا للتّرتيب الواقع في الآية كما جاء به التّنزيل الحكيم.

كما أثبت القرآن الضّلال لمن يكفر بالملائكة لقول الله تعالى﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النّساء: ١٣٦]. ولهذا كان الإيمان بهم أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان، كما جاء في كثير من الأحاديث النّص على أنّ الإيمان بالملائكة جزء من حقيقة الإيمان المطلق بالله تعالى كما في قوله ﷺ «أنْ تُؤْمنَ باللّه ومَلائكته وكُتُبه ورُسُله والْيومِ الأخرِ والْقَضاء خَيْره وشَرّه[3]». وفيه الدّلالة على أن نؤمن بأسماء من عُيِّنتْ أسماؤُهم منهم ومن لم تُعيَّن أسماؤهم، فإنّنا نؤمن بهم إجمالا ونؤمن بما ورد من أعمالهم التي يقومون بها ما علمنا منها وما لم نعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره [٢٣ / ١١١] وحسّنه الألباني كما في الصّحيحة [١٠٥٩].

(٢) انظر الأساس في السُّنَّة [ج ٢ ص ٦٨٥].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] والتّرمذي [٢٦١٠].

ونؤمن كذلك بأوصافهم التى وُصِفُوا بها ما علمنا منها، ومن ذلك رؤية النّبى ﷺ لجبريل عليه السّلام وله ستّمائة جناح قد سدّ الأفق على خلقته التى خُلق عليها، وواجبنا نحو الملائكة أن نصدّق بهم وأن نحبّهم لكونهم عباده القائمين بأمره، فلا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه من غير انقطاع ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩ - ٢٠]. فمن أنكر وجود الملائكة فهو منكر لكلام الله ورسوله وأنّه كافر لا محالة إذ لا مجال للتّأويل فى ذلك، فالنّصوص قاطعة والعلم بوجود الملائكة ممّا هو معلوم من الدّين بالضّرورة.

وقد نصّ القرآن الكريم على أنواع من الضّلال وقعت به بعض الأمم أو بعض النّاس في شأن الملائكة كوصف بعضهم الملائكة بأنّهم إناث ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾[النّجم: ٢٧]. ووصف بعضهم الملائكة الكرام بأنّهم بنات الله، كما توجّه آخرون منهم إلى الملائكة بالعبادة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[سبأ: ٤٠]. وكلّ ذلك كفر وبهتان عظيم.

ولقد جاء الحديث عن الملائكة الكرام فى القرآن الكريم بمناسبات مختلفة ومُتعدّدة فى نحو [ثمان وثمانين] آية من نحو [ثلاث وثلاثين] سورة:

فورد مسمّى «الملك» مُفردا [١٠] عشر مرّات ومنه قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢]. وذكر بلفظ «مَلَكًا» [٣] ثلاث مرّات كما فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾[الأنعام: ٩]. وذكر بصيغة المثنّى [٢] مرّتين فى كلّ من البقرة [١٠٢]. والأعراف [٢٠] من قوله ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾. ثمّ جاء مسمّى «الملائكة» بصيغة الجمع [٦٨] مرّة كما فى قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحجّ: ٧٥]. وجاء بلفظة «ملائكته» [٥] خمس مرّات كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾[الأحزاب: ٥٦].

والملائكة واحدها: مَلَكٌ ـ بفتح اللام ـ وأصله [مَلأَكُ]: مشتقّ من [الْمَلأَكة] وهى الرِّسَالَةُ. يقال: أَلكْنى إلى فُلاَن: أَبلغْهُ عنّى، سُمّى بذلك لأنّه مُبلِّغٌ عن الله تعالى، ووزن مَلأَكٌ: مَفْعَلٌ [(١)]. والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع. [قال] صاحب الكشّاف [الملائك جمع ملأك على الأصل كالشّمائل فى جمع شَمْأَلْ]، ولفظ الملَك يشعر بأنّه رَسُولٌ مُنَفِّذ لأمر ربّه كما فى قوله تعالى:

* ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[الحجر: ٨].
* ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٧].

(١) انظر المطّلع [ص ٢٨٦] والقاموس المحيط [ص ١٢٢٩].

عقيدة النّاس بالملائكة قبل الإسلام

كان النّاس ولا يزالون أمام هذه العقيدة قسمين :

(القسم الأوّل) : هم أتباع الأنبياء والرّسل عليهم السّلام وهؤلاء يؤمنون بالملائكة حتماً، ثقةً منهم بإخبار الأنبياء والرّسل، لأنّ الإيمان بوجود الملائكة أمر نادى به ودعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

(القسم الثّانى) : وهم من غير أتباع الأنبياء [ومن هؤلاء من لم يتعرّض للملائكة بإثبات ولا نفى، ومنهم من أثبت وجودهم عن طريق المكاشفة والمشاهدة بمصادفات خاصّة، أو عن طريق الاستدلال وفق القسمة العقليّة التى تصوّرها بعض الفلاسفة فى احتمالات الخلق، ومنهم المادّيون الذين ينكرون كلّ الكائنات الغيبيّة(١)].

عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فى الملائكة

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلاّ ما جاءنا عن طريق الكتاب والسُّنَّة لأنّنا لا نتّصل بهم عن طريق الحسّ اتّصالا يُفيد العلم اليقينى حتّى نكشف حقيقتهم ونحدّد تكوينهم، وحسبنا فى عقيدتنا بالملائكة أن نقتصر على ما وردت به النّصوص القرآنيّة دون أن نجرى وراء التّكهّنات الفكرية أو التّصوّرات الذّهنيّة التى قد تصطدم وحقيقة الإيمان بوجودهم، وعقيدة السّلف من أهل السُّنَّة والجماعة تقوم على أنّ الملائكة مخلوقات غيبيّة عنّا ذوات أجسام نورانيّة لطيفة تتميّز بالصّفات التّالية :

(١) أنّهم مخلوقون من نور ودليل ذلك قول النّبى ﷺ من حديث عائشة «خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ(٢)».

(٢) أنّ الملائكة قد يكونون معنا ولا نراهم لقوله ﷺ «يَاعَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلاَمُ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لاَ أَرَى، تُرِيدُ النَّبِىَّ ﷺ(٣)». وقد ورد أنّ أمّ المؤمنين خديجة كانت تمتحن نزول الوحى على النّبى ﷺ بإماطة الخمار عن رأسها : فإذا كشفت شعرها هدأت حالة النّبى ﷺ، وإذا غطّت شعرها عادت إليه الحالة، لعلمها بأنّ جبريل لا يدخل بيتا فيه امرأة مكشوفة الرّأس، ولذلك قالت له لمّا حَسَرَتْ عن رأسها «هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: لاَ. قَالَتْ: يَا ابْنَ عَمٍّ اثْبُتْ وَأَبْشِرْ فَوَاللهِ إِنَّهُ لَمَلَكٌ وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ(٤)».

(١) انظر كتاب العقيدة الإسلامية للميدانى [ص ٢٣٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢١٧] ومسلم [٢٤٤٧].

(٤) انظر كتاب العقيدة الإسلامية [ص ٢٣٦].

(٣) أنّ الملائكة قادرون على [التمثّل] بأمثال الأشياء وكذلك [التّشكُّل] بالأشكال الجسمانيّة، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم وبالأحاديث الصّحيحة كما سيأتى بيانه .

(٤) وأنّهم يتمتّعون بالقدرات الخارقة التى جعلها الله فيهم، فمنهم على قلّة عددهم من يحملون العرش، ومنهم صاحب الصّور الذى يبلغ فى القوّة إلى حيث إنّه بنفخة واحدة يصعق من فى السّموات والأرض، وبالنّفخة الثّانية منه يعودون أحياء كما كانوا .

(٥) أنّ طاعتهم لله تعالى مُطلقة، وعبادتهم قائمة، ومبادرتهم لامتثال أمره متحقّقة وأنّهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وأنّهم كما قال عنهم خالقهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦] . وأنّهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النّحل: ٥٠].

(٦) وأنّهم مقرّبون إلى الخالق ومكرّمون عنده كما فى قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾[الأعراف:٢٠٦].

(٧) وأنّهم لا يتناكحون ولا يتناسلون، ولكنّهم عباد مخلوقون بقدرة الله تعالى دون وساطة تناسل، ولذا قرّر علماء التّوحيد أنّ من نَسَبَ الملائكة إلى [الأنوثة] كفر لأنّه كذَّب صريحَ القرآن، ومن نسبهم إلى [الذّكورة] فسَق لأنّه نسب إليهم ما لم يأت به عن الله تعالى ورسوله ﷺ شىء، ولذلك ذمّ الله الكافرين الذين جعلوا الملائكة إناثا، وتوعّدهم بكتابة شهادتهم الكاذبة وسؤالهم يوم القيامة عن تلك الافتراءات فقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزّخرف:١٩].

(٨) وأنّ الله تعالى جعل منهم رسل التّبليغ بالشّرائع للأنبياء كما فى قوله سبحانه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر: ١].

(٩) وأنّهم مخلوقون قبل هذه السّلالة من البشر والدّليل على ذلك قصّة خلق آدم الثّابتة فى القرآن الكريم والتى يخاطب فيها الملائكة الكرام خالقهم بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] . وأمْرُ الله للملائكة بالسّجود لآدم قد كان بعد أن أتمّ خلقه، وأثبت لهم ميزته، وطرفا من الحكمة فى خلقه [(١)].

صفات الملائكة

يشير قوله تعالى﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾[النّازعات: ١ ـ ٢]. إلى

(١) انظر كتاب العقيدة الإسلاميّة [ص٢٤٠].

أنّ للملائكة صفات سلبية وأخرى إضافية:

(١) أمّا الصّفات السّلبية فهي:

أنّ الملائكة مبرّأة عن الشّهوة والغضب والأخلاق الذّميمة والموت والهَرَم والسّقم وتركيب الأعضاء والأخلاط والأركان، بل هي جواهر مبرّأة عن هذه الأحوال، وقوله تعالى﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾: يشير إلى أنها منزوعة عن هذه الأحوال نزعا كليّا من جميع الوجوه. ثمّ يأتي قوله تعالى﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ إشارة إلى أنّ خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التّكليف والمشقّة كما هو الحال في حقّ البشر، بل هم بمقتضى ماهيّاتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزّهوا عن هذه الصّفات.

(٢) كما أنّ الصّفات الإضافية قسمان:

(أحدهما) قوّتهم العاقلة وحالهم في معرفة مُلْك الله تعالى وملكوته والاطلاع على نور جلاله، فوصفهم في هذا المقام بوصفين:[(١)]

(١) ما تضمّنه قوله تعالى﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾[النّازعات:٣]. فهم يسبحون من أوّل فطرتهم في بحار جلال الله ولا منتهى لسباحتهم لأنّه لا منتهى لعظمة الله وعلوّ صمديّته ونور جلاله وكبريائه، فهم أبدا في تلك السّباحة عابدون مُكرمون.

(٢) ما تضمّنه قول الله تعالى﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾[النّازعات:٤]. وهو إشارة إلى مراتب الملائكة في تلك السّباحة، فكما أنّ مراتب معارف البعض بالنّسبة إلى مراتب معارف الآخرين ناقصة، فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنّسبة إلى مراتب معارف الباقين مُتفاوتة، فكان التّفاوت قائما في مراتب التّجلّي وهذا هو المراد من قوله جلّ شأنه ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾.

(أمّا الثّاني) فهو يتمثّل في قوّتهم العاملة التي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النّازعات:٥]. وذلك لأنّ كلّ حال من أحوال هذا العالم مُفوّض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمّار العالم العلوي كما في قوله جلّ شأنه ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[النّحل:٢].

ولقد تعرّض القرآن الكريم في أكثر من نصّ لبعض صفات الملائكة نذكر منها:

(أولا) قربهم من الله تعالى وذلك يمتنع أن يكون بالمكان والجهة، فلم يبق إلا أن يكون هو القرب بالشّرف وهو مراد قوله تعالى﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:١٩-٢٠].

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ٣١ ص ٢٩].

(ثانيا) وصف القرآن لطاعتهم وذلك من وجوه:

(١) قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠]. وقوله تعالى﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[الصافات: ١٦٥-١٦٦]. والله تعالى ما كذّبهم فى ذلك فثبت به مواظبتهم على العبادة.

(٢) مبادرتهم إلى امتثال أمره تعالى تعظيما لجلاله وهو قوله ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[الحجر: ٣٠].

(٣) أنهم لا يفعلون شيئا إلاّ بوحيه وأمره ومن ذلك قوله ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٧].

(٤) وصف قدراتهم التى منحها الخالق إيّاهم ومن ذلك أنّ حملة العرش وهم ثمانية يحملون العرش والكرسى، ثمّ إنّ الكرسى الذى هو أصغر من العرش أعظم من جملة السّموات السّبع والأرضين السّبع لقوله تعالى﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البقرة: ٢٥٥]. فانظر إلى نهاية قدرتهم وقوّتهم.

(٥) عظم خوفهم وشديد وجلهم من الخالق جلّ وعلا مع كثرة عبادتهم وعدم إقدامهم على الزّلات ويدلّ عليه قوله تعالى﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النّحل: ٥٠]. وقوله تعالى﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨].

(ثالثا) وصف سبحانه الملائكة بثلاثة أنواع من الصّفات فى قوله ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[عبس: ١٣-١٦]. وهذه الصّفات تختصّ بالملائكة عند الإطلاق فلا يشاركهم فيها سواهم ولا يدخل معهم فى متناولها غيرهم، فكان:

(أوّلها) أنّهم [سَفَرَةٌ]. وفيه قولان:

(١) أنّهم الملائكة الذين يُحصون أعمال العباد فى الأسفار التى هى الكتب من قول الله تعالى﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزّخرف: ٨٠]. وقوله تعالى ﴿كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾. والسَّفَرَةُ: واحدهم سَافِرٌ كقولك كتبة وكاتب، يُقَالُ: سَفَرْتُ أى كَتَبْتُ، و[السِّفْرُ] الكتاب الكبير لأنّه يُسفِر عن المعنى إذا قرىء وجمعه أَسْفَارٌ وهى الكتب العظام من قول الله تعالى﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة: ٥]. (قال) الزّجاج [وإنّما قيل للكتبة سَفَرَةٌ وللكاتب سَافِرٌ لأنّه الذى يُبيِّن الشّىء ويُوضّحه].

(٢) أنّهم الرّسل من الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله ورسله، والعرب تقول سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم، فجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسّفير الذى يصلح به بين القوم، وهؤلاء الملائكة لـمّا كانوا وسائط بين الله تعالى

وبين البشر فى البيان والهداية والعلم لا جَرَمَ سُمُّوا سَفَرَة.

(الثّانية) أنّهم [كرامٌ] على ربهّم يترفّعون بأنفسهم عن المعاصى ولا يدنّسون أرواحهم بها، وفيه قال ابن عبّاس رضي الله عنه [يتكرّمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته أو تبرّز لغائطه]. وهو معنى الأثر المروى عن على رضي الله عنه [أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلاّ عند ثلاث: الغائط والجنابة والغسل[1]].

(الثّالثة) أنّهم [بَرَرَةٌ]. ويراد به العمل الدّائم الخالص لله تعالى، يقال: برّ وبارّ إذا كان أهلا للصّدق، ومنه برّ فلان في يمينه: أى صدق فيه، وفلان يبرّ خالقه ويتبرّره: أى يطيعه، فمعنى بررة أنّهم مُطيعون لله تعالى صادقون له فى أعمالهم.

ويقصد بقوله تعالى﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾: القرآن الكريم وآياته الباهرات، فصحفه كما هى مُكرّمة فى الدّين لما تحمله من البلاغ الإلهى إلى البشر، فهى رفيعة القدر مُطهّرة من كلّ دنس، مصونة عن أن تمسّها أيدى الكفّار، ومراد الآية تعظيم حال القرآن والتّنويه بذكره وأنّ هذه التّذكرة مثبتة فى صُحُفه التى تتميّز بأمرين:

(الأوّل) أنّها صحف منتسخة من اللّوح المحفوظ مُكرّمة عند الله تعالى مرفوعة القدر فى كتاب مكنون لا يمسّها إلا المطهّرون.

(الثّانى) أنّ طهارة تلك الصّحف إنّما حصلت بأيدى هؤلاء السّفرة، ولمّا كان لا يمسّها إلاّ الملائكة المطهّرون أضيف التّطهير إليها لطهارة من يمسّها.

والذى يشير إلى مقصود قوله تعالى﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أنّه القرآن الكريم ما جاء فى صحيح البخارى عن عائشة من قوله ﷺ «مَثَلُ الَّذى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ[2]». وجاء عند مسلم بلفظ «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ[3]».

والماهر بالقرآن هو الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقّف ولا يشقّ عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه، وفى الحديث دلالة على أنّ قارىء القرآن الحافظ له مع السّفرة البررة فيما يستحقه من الثّواب. (قال) القاضى [يُحتمل أن يكون معنى أنّه مع الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السّفرة لاتصافه بصفتهم من حَمْلِ لكتاب الله تعالى وحفظه وإتقان تلاوته، قال: ويحتمل أن يُراد أنّه عامل بعملهم وسالك مسلكهم، وأمّا الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردّد فى تلاوته لضعف حفظه فله أجران، أجر بالقراءة وأجر بتعتعته فى تلاوته ومشقّته[4]].

(١) أورده الألوسى فى روح المعانى [ج ٩ ص ٣١٧]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٩٣٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٩٨]. (٤) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣٤٤].

الهيئة الخلقيّة للملائكة

إذا كان البيان القرآني قد تضمّن وصفا للملائكة الكرام من ناحية طبيعتهم ومهامّهم وأنّهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ . فإنّه يشير في أوّل سورة فاطر إلى وصف يختصّ بهيئتهم الشّكليّة ويتعلّق بتكوينهم الخَلْقي كما تناوله الخالق جلّ شأنه بقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[فاطر : ١] . وهو وصف لا يمثّلهم للتّصوّر لعدم معرفة هيئتهم ولا كيف تكون أجنحتهم ، والمسلم لا يملك إلاّ الوقوف عند هذا الوصف دون تصوّر مُعيّن أو شكل محدّد ، لأنّ كلّ تصوّر في هذه المسألة قد يأتي مُجانبا للصّواب ، أو مُخالفا لفهم المتشابه من آياتِ الكتاب .

وفي معنى قول الله تعالى﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ . قال العلماء [هي صفة للأجنحة ، وجاء تفسيره عند قتادة : أنّ بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة ينزلون بها من السّماء إلى الأرض ويعرجون من الأرض إلى السّماء[(١)] .

ورغم أنّ المرء لا يعرف للطّائر إلاّ شكل الجناحين فإنّ الله تعالى ذكر أجنحة الملائكة مثنى وثلاث ورُباع ، وعقّب على الوصف بقوله تعالى﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ . ليقرّر طلاقة المشيئة وعدم تقيّدها بشكل من أشكال الخلق ، لئلا يتبقّى وراء هذا التّعقيب صورة لا يتناولها مدلوله من صور الخلق والإنشاء .

وكذلك الذي ورد في السُّنّة الصّحيحة فإنّه لا يُحدّد شكلا ولا يُقرّر هيئة ، وإنّما جاء الأمر فيه على إطلاقه ومنه قول ابن مسعود «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ[(٢)] » . وجاء قوله ﷺ عند أحمد بلفظ «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ» . قَالَ «سَأَلْتُ عَاصِمًا عَنِ الأَجْنِحَةِ؟ فَأَبَى أَنْ يُخْبِرَنِي ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَنَاحَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ[(٣)] » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ . قال «رأى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ[(٤)] » . وجاء عند النّسائي بلفظ «أَبْصَرَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى رَفْرَفٍ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» . فيجتمع من الحديثين أنّ الموصوف جبريل ، والصّفة التي كان عليها ، والمراد أنّ الذي سدّ الأُفُقَ الرّفْرَفُ الذي كان فيه

---

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ١٤ ص ٣١٩] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٨٥٧] .

(٣) أخرجه أحمد [٣٨٦٢] بإسناد صحيح .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٣٣] .

جبريل عليه السّلام، فنُسب جبريل إلى سدّ الأُفُق مجازا، ومن رواية مسلم والتّرمذى أنّ رسول الله ﷺ «رأى جبْريلَ فِى حُلَّة مِنْ رَفْرَف قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضَ[١]». يُعْرَفُ المراد بالرَّفْرَف وأنّه [حُلَّةٌ] وهو ما يتأيّد بقوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾.

وأصل الرّفرف ما كان من الدّيباج الأخضر رقيقا حسن الصّنعة ثمّ اشتهر استعماله فى السّتر، وكلّ ما فَضَل من شىء فعُطف وثُنِىَ فهو رَفْرَفٌ، ويقال: رفرف الطّائر بجناحيه إذا بسطهما، وقال بعض الشّرّاح: يحتمل أن يكون جبريل قد بسط أجنحته فصارت تشبه الرّفرف [[٢]].

وكما هو ثابت فإنّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع لقوله ﷺ «وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِب الْعِلْم رِضًا بِمَا يَصْنَعُ[٣]». وفى رواية «وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ[٤]». أى تكريما له وتعظيما لحقّه. [أو أراد بوضع الأجنحة نزولهم عند مجالس العلم وإظلالهم بها وإحفافهم لها[٥]]. ومن ذلك ما روى أبى عثمان عن سلمان رضي الله عنه «كَانَت امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا أَظَلَّتْهَا الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِى الْجَنَّة[٦]».

ومن هذا أيضا ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال «أُصِيبَ أَبِى يَوْمَ أُحُد فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِه وَأَبْكِى، وَجَعَلُوا يَنْهَوْنَنِى وَرَسُولُ الله ﷺ لاَ يَنْهَانِى، قَالَ: وَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرو تَبْكِيه فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: تَبْكِيه أَوْ لاَ تَبْكِيه، مَا زَالَت الْمَلائِكَةُ تُظَلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ[٧]». (قال) القاضى [يحتمل أنّ ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله تعالى ورضاه عنه، أو أظلّوه من «حرّ الشّمس» لئلا يتغيّر ريحه أو جسمه[٨]].

وفى تفسير قول الله تعالى ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا﴾. قال ابن عبّاس وغيره [الملائكة تصُفُّ أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتّى يأمرها الله تعالى بما يريد، وهذا كما تقوم العبيد بين أيدى ملوكهم صفوفا[٩]]. وجاء قوله ﷺ عند مسلم من حديث أبى هريرة «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٤] والتّرمذى [٣٢٨٣].

(٢) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٤٧٧].

(٣) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٤١] والتّرمذى [٢٦٨٢].

(٤) قوله «حَفَّتْهُمْ» من حَفَّ يَحُفُّ حَفًا وَحِفَافًا ـ الشّىء وبه وحوله: أحاط به.

(٥) انظر لسان العرب لابن منظور [ج ٢ ص ٣٧٩].

(٦) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٣٨٨٤] وقال الذّهبى صحيح.

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٤٧١] وافقه البخارى [١٢٩٣].

(٨) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٢٦٢].

(٩) انظر تفسير القرطبى [ج ١٥ ص ٦١].

وَتَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيَّارَةً فُضْلاً يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فيه ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا[١]».

وجاء عند البخارى بلفظ «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا».

الملائكة أفضل أم الأنبياء؟

للعلماء فى تفضيل الملائكة على غيرهم من الخلائق قولان:

(الأوّل) أنّ الله تعالى فضّل الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع من القرآن كما فى قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾[الأعراف: ٢٠]. وقوله ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[الأنعام: ٥٠]. ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النّساء: ١٧٢]. لذلك كان الكلام فى الملائكة مقدّما على الكلام فى الأنبياء لوجهين:

(١) أنّ الله تعالى قدّم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالرّسل فى قوله سبحانه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥].

(٢) أنّ الملَك واسطة بين الله تعالى وبين الرّسُول فى تبليغ الوحى والشّريعة فكان مُقدّما على الرّسُول، ومن ذلك قول الحسن [فضّل الله تعالى الملائكة بالصّور والأجنحة والكرامة]. وقال غيره [فضّلهم عزّ وجلّ بالطّاعة وترك المعصية فلهذا يقع التّفضيل فى كلّ شىء].

(٣) ومن النّاس من فاضَل بين الجنسين فقالوا إنّ حقيقة الملَك أفضل من حقيقة الإنسان لأنّها نورانيّة وخيّرة ولطيفة مع سعة العلم والقوّة وصفاء الجوهر.

(٤) كما يؤيّد ذلك أنّ طاعة الملائكة بأصل الخلقة وطاعة البشر لا تكون إلاّ مع المجاهدة للنّفس لما طبعت عليه من الشّهوة والمرض والهوى والغضب فكانت عبادتهم أشقّ، وأيضا فطاعة الملائكة بالأمر الوارد عليهم وطاعة البشر بالنّصّ تارّة وبالاجتهاد تارّة والاستنباط تارّة فكانت أشقّ كذلك.

(٥) ولأنّ الملائكة قد سلمت من وسوسة الشّياطين وإلقاء الشُّبَه والأغواء الجائزة على البشر.

(٦) ولأنّ الملائكة تشاهد حقائق الملكوت والبشر لا يعرفون ذلك إلاّ بالإعلام فلا يسلم منهم من إدخال الشّبه إلاّ الثّابت على دينه.

(الثّانى) أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة عقلا ونقلا وذلك لأمرين:

(١) أنّ الأنبياء ركّبت فيهم الشّهوة البشرية وقد تغلّبت عليها عقولهم الشّريفة

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨٩] والبخارى [٦٤٠٨].

فعُصِمُوا من الوقوع فى المخالفات ، بخلاف الملائكة فإنّهم جُرِّدوا من الشّهوات وجُبلوا على الخيرات .

(٢) أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسّجود لأدم تكريما له وإظهارا لفضله وطاعة لله تعالى حتّى قال إبليس ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء : ٦٢] . كما جاء قول الله تعالى ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة : ٣٣] . إشارة إلى علوّ شأنه ، فكان أفضل منهم بأن قدَّمه الخالق عليهم وأسجدهم له وأمرهم أن يتعلّموا منه فحصلت له مراتب الجلال والإكرام بأن جعله مسجوداً لهم مختصاً بالعلم الذى ميّزه الله به عليهم .

ونخلص من هذه المسألة إلى تحديد النّقاط التّالية :

أوّلا ـ أنّ تقديم ذكر الملائكة على الأنبياء إنّما جاء لتقدّمهم فى الخلق والإيجاد ، ولسبق ذكرهم فى القرآن فى العديد من الآيات ، وقد وقع فى حديث جابر رضي الله عنه « نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللّه به[1] » . ورواه النّسائى بصيغة الأمر : « فَابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ اللّه به[2] » . ولأنّهم وسائط بين اللّه وبين الرّسل فى تبليغ الوحى والشّرائع ، فناسب أن يقدّم الكلام فيهم على الأنبياء ولا يلزم من ذلك أن يكونوا أفضل من الأنبياء .

ثانيا ـ من النّاس من قال إنّ الكلام فى النُّبوّات مُقدَّم على الكلام فى الملائكة لأنّه لا طريق لنا إلى معرفة وجود الملائكة بالعقل بل بالسّمع ، فكان الكلام فى النُّبوّات أصلا للكلام فى الملائكة لذا وجب تقديم الكلام فى النّبوّات .

ثالثا ـ أنّه لا طريق إلى القطع بأنّ الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأنّ الملائكة خير منهم ، لأنّ طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله ﷺ أو إجماع الأمّة وليس هاهنا شيء من ذلك .

رابعا ـ لـمّا سُئل ابن تيمية عن صالحى بنى آدم والملائكة أيّهما أفضل ؟ فأجاب بأنّ :

(١) صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النّهاية .

(٢) وأنّ الملائكة أفضل باعتبار كمال البداية .

فإنّ الملائكة الآن فى الرّفيق الأعلى منزّهون عمّا يلابسه بنو آدم مستغرقون فى عبادة الله تعالى ، ولا ريب أنّ هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر ، وأمّا يوم القيامة بعد دخول الجنّة فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة . قال ابن القيّم [وبهذا التّفصيل يتبيّن سرّ التّفضيل وتتّفق أدلّة الفريقين ويصالح كلّ منهم على حقّه[3]] .

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٢١٨] .

(٢) من حديث صحيح أخرجه النّسائى [٢٩٦٢] .

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية [ج ٤ ص ٣٤٣] .

المهام والوظائف المكلّف بها الملائكة

وكما أنّ البشر متفاضلون عند الله تعالى وأكرمهم عنده الرّسل، فقد جاءت النّصوص القطعية التى تؤكّد أنّ «الملائكة» مُتفاضلون كذلك فى الدّرجة والرّفعة، وأنهم أصناف متعددّة، كما ثبت أنّ لكلّ منهم مهامًا ووظائف تتّفق والأدوار التى جاء بيانها فى الكتاب والسُّنَّة حيث نعرض لها على النّحو التّالى:

(أولًا) حملة العرش

وهم الملائكة المقرّبون الثّمانية الذين يحملون عرش الرّحمن يوم القيامة كما فى قوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقّة: ١٧]. قال ابن عبّاس: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلاّ الله تعالى، وفى تفسيره قال السُّدّىُّ: العرش تحمله الملائكة الحملة فوقهم ولا يحمل حملة العرش إلاّ الله تعالى، وقيل «فَوْقَهُمْ»: أى إنّ حملة العرش فوق الملائكة الذين فى السّماء على أرجائها.

وأخرج الماوردى عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «يَحْمِلُهُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ يومَ الْقِيَامَة ثَمَانِيَةٌ». وروى جابر عن النّبى ﷺ قال «أُذنَ لى أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَك منْ مَلاَئكَة الله تعَالَى منْ حَمَلَة الْعَرْش، إنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَة أُذُنه إلَى عَاتقه مَسيرةُ سَبْعمائة عَام[1]». والعاتق هو ما بين المنكبين إلى أصل العُنق، أمّا المُراد بالسَّبعمائة: التّكثير لا التّحديد.

(ثانيا) الحافّون حول العرش

وهم الملائكة المشتغلون بذكره سبحانه المطيعون لأمره، الذين لا يَفْتُرُونَ ولا يستكبرون عن عبادته آناء اللّيل والنّهار لا يسأمون كما فى قول الله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزّمر: ٧٥]. وقد جمع قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]. القسمين من الملائكة:

(الأوّل) حملة العرش وهم أولئك الثّمانية الذين يحملونه يوم القيامة ولا شكّ أنّهم من أشراف الملائكة وأكابرهم.

(الثّانى) الحافّين من حول العرش الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾. وقوله ﴿حَآفِّينَ﴾: أى يحيطون بالعرش ويطوفون به طواف تعبّد وذكر وطاعة.

والفريقان على ذلك يكونان من أفضل الملائكة منزلة ومكانة [لأنّ نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد، فلمّا كان العرش أشرف الموجودات كانت الأرواح

---

(١) حديث صحيح أخرجه: أبو داود [٤٧٢٧] والطّبرانى فى الأوسط [١٧٣٠].

المتعلّقة بتدبير العرش أفضل من الأرواح المدبّرة للأجساد، لما ظهر بالبراهين اليقينيّة أنّه لا نسبة لعالم الأجساد إلى عالم الأرواح، فكلّ ما شاهدته بعين البصر فى اختلاف مراتب عالم الأجساد يجب أن تشاهده بعين بصيرتك فى اختلاف مراتب عالم الأرواح(١)].

(ثالثا) أكابر الملائكة المصطفين

(جبريل و ميكائيل وإسرافيل)

دلّ القرآن الكريم على أنّ طبقات الملائكة مختلفة فى الوصف والدّرجة والفضيلة ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: ١٧٢] . وكما اصطفى الله رسوله محمّدا ﷺ من الخمسة أولى العزم اصطفى كذلك المقرّبين من الملائكة الأخيار جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السّلام كما فى قول الله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: ٧٥] .

فجاء ذكر جبريل وميكائيل فى آية واحدة عندما قالت اليهود للنّبى ﷺ «مَنْ صَاحِبُكَ الَّذى يَأْتيكَ منَ الْمَلائكَة؟ فَإنَّهُ لَيْسَ منْ نَبىٍّ إلاَّ يأْتيه مَلَكٌ بالْخَبَر! قَالَ: هُوَ جبْريلُ. قَالُوا ذَاكَ الَّذى يَنْزلُ بالْحَرْب وَالْقتَال، ذَاكَ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ ميكَائيلَ الَّذى يَنْزلُ بالنَّبَات وَالْقَطْر وَالرَّحْمَة! فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ٩٧-٩٨(٢)]: أى من كان عدوّا لجبريل فهو عدوّ لميكائيل لأنّ فطرتهما واحدة، وحقيقتهما واحدة، من مقتها وعاداها فى أحدهما فقد عاداها فى الآخر، وفى الآية إخبار ببعض قبائح اليهود ومنكرات أقوالهم وأفعالهم.

وقيل: إنّ سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السّلام أنّه أُمر باستمرار النُّبوّة فيهم فنقلها لغيرهم، وقيل: لكونه يطّلع على أسرارهم، والأقرب فى ذلك أن يكون سبب عداوتهم له أنّه كان ينزل بالقرآن على نبيّنا محمّد ﷺ لأنّ قوله فى الآية الكريمة ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. مُشعر بأنّ هذا التّنزيل لا ينبغى أن يكون سببا للعداوة لأنّه إنّما فعل ذلك بأمر الله تعالى وتقرير ذلك من وجوه:

(أوّلها) أنّ الذى نزّله جبريل من القرآن بشارة للمُطيعين بالثّواب وإنذار للعصاة بالعقاب، ولم يكن ذلك باختياره بل بأمر الله تعالى الذى يعترفون أنّه لا محيص عن أمره ولا سبيل إلى مخالفته، فعداوة مَنْ هذا سبيله توجب عداوة الله تعالى، وعداوة الله

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢٧ ص ٣٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٤٨٣].

كفر فيلزم أنّ عداوة مَنْ هذا سبيله كفر .

(والثّانى) أنّ الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب ، فإمّا أن يقال إنّه كان يتمّرّد أو يأبى عن قبول أمر الله وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين ، أو كان يقبله ويأتى به على وفق أمر الله فحينئذ يتوجّه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل عليه السّلام فما الوجه فى تخصيص جبريل بالعداوة ! .

(الثّالث) أنّ إنزال القرآن على محمّد ﷺ بواسطة جبريل كما شقّ على اليهود ، فإنزال التّوراة على موسى عليه السّلام شقّ على قوم آخرين ، فإن اقتضت نفرة بعض النّاس لإنزال القرآن عداوته ، فلتقتض نفرة أولئك المتقدّمين إنزال التّوراة على موسى عداوته ، ومعلوم أنّ كلّ ذلك باطل فثبت بهذه الوجوه فساد ما قالوه [(١)] .

وللعلماء فى معنى الآية قولان :

(الأوّل) أنّها تحمل الوعيد والذّم الشّديدين لمن عادى الملَكَين الكريمين ، والإعلام بأنّ عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم ، وعداوة العبد لخالقه سبحانه هى معصيته واجتناب طاعته ومعاداة أوليائه ، وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه من غضب الرّب ونقمته .

(الثّانى) أنّ الله تعالى خصّ جبريل وميكائيل بالذّكر وإن كان ذكْرُ الملائكة يتضمّنهما تشريفا لهما ، وتأكيدا لعلوّ قدرهما عند الله تعالى وزيادة منزلتهما وفضلهما ، وقيل : خُصّا بذلك لأنّ اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما فتحتّم ذكرهما ، لئلا تقول اليهود : إنّا لم نعاد الله وجميع ملائكته فنصّ الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأوّلونه من تخصيص [(٢)] .

وقد أشار العلماء إلى الدّلالة التى تحملها الآية الكريمة وبيانها لفضل جبريل عليه السّلام بذكره مرّتين من عدّة وجوه :

(أحدها) أنّه سبحانه قدّم جبريل عليه السّلام فى الذّكر على ميكائيل وتقديم المفضول على الفاضل فى الذّكر مستقبح عرفا ، فلزم أن يكون غير مقبول شرعا .

(وثانيها) أنّ جبريل عليه السّلام ينزل بالقرآن والوحى والعلم وهو مادة بقاء الأرواح ، وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهى مادّة بقاء الأبدان ، ولمّا كان العلم أشرف من الغذاء لزمَ أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل .

(وثالثها) أنّ الله عزّ وجلّ ذكر جبريل عليه السّلام بوصف المطاع على الإطلاق فى قوله

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٣ ص ٢١١] .

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٣٧] .

سبحانه ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وظاهر القول الكريم يقتضى كونه مطاعا بالنّسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه [(١)].

وهؤلاء الملائكة هم المصرّح بذكرهم فى القرآن وهم المذكورون أيضا فى دعاء النّبى ﷺ «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢)».

وفيه يتوسّل النّبى ﷺ إلى الله تعالى بربوبيّته العامة والخاصّة لهؤلاء الملائكة الثّلاثة الموكّلين بالحياة:

(١) فجبريل موكّل بالوحى الذى به حياة القلوب والأرواح.

(٢) وميكائيل موكّل بالقَطْر الذى به حياة الأرض والنّبات والحيوان.

(٣) وإسرافيل موكّل بالنّفخ فى الصُّور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم، فسأله رسوله ﷺ بربوبيّته لهؤلاء أن يهديه لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنه وهو على صراط مستقيم[(٣)].

(قال) النّووى: [خصّهم بالذّكر وإن كان الله تعالى ربّ كلّ المخلوقات كما تقرّر فى القرآن والسُّنَّة من نظائره من الإضافة إلى كلّ عظيم المرتبة وكبير الشّأن ودون ما يستحقر ويستصغر، فيقال له سبحانه: ربّ السّموات والأرض وربّ العرش الكريم، وربّ الملائكة والرّوح، وربّ المشرقين وربّ المغربين، فَكُلُّ ذلك وشَبَهُهُ وَصْفٌ له سبحانه بدلائل العظمة وبديع القدرة والمُلك، ولم يستعمل ذلك فيما يُحتقر ويُستصغر فلا يقال ربّ الحشرات وخالق القردة والخنازير وشبه ذلك على الإفراد، وإنّما يقال: خالق المخلوقات وخالق كلّ شىء، وحينئذ تدخل هذه فى العموم(٤)].

ثمّ كان من أظهر ما اشتهر من الملائكة المكرّمين:

١ ـ جبريل عليه السّلام

وقد أثنى الله سبحانه عليه فى القرآن أحسن الثّناء وَوَصَفَهُ بأجمل الصّفات، وجعله أقرب الملائكة إليه سبحانه، وأنّه صاحب الوحى وسفير الله به إلى الأنبياء لقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشّعراء:١٩٣]. وقد روى الطّبرىّ عن أبى العالية قال «جِبْرِيلُ مِنَ الْكَرُوبِيِّينَ». وهم سادة الملائكة ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السّلام.

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٣ ص ٢١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٧٠] وأبو داود [٧٦٧] والتّرمذى [٣٤٢٠].

(٣) انظر إغاثة اللّهفان لابن القيّم [ص ٤٦٢].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣١٥].

وقيل إنّ اسم جبريل عربيّ وأنّه مشتقّ من جبروت الله، وقال بعضهم إنّه اسم أعجمي إلاّ أنّه نزل في القرآن بلسان عربي مبين، وجاء في المسند عن علي بن الحسين «اسم جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَبْدُ الله وَاسْمُ مِيكَائِيلَ عُبَيْدُ الله[1]». ومن مباحث هذا اللّفظ أنّ جبريل اسم أعجمي مركّب من: «جَبر» ومعناه بالعبرانيّة أو السّريانية «القوّة». ومن: «إيل» ومعناه «الإله» أي قوّة الله، وقيل معناه «عَبْدُ الله». (قال) في الفتح [وهو وإن كان اسمه سريانيًا لكنّه وقع فيه موافقة من حيث المعنى للغة العرب، لأنّ الجبر هو إصلاح ما «وَهَى» وجبريل موكّل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام[2]].

ثمّ إنّه سبحانه وصف جبريل عليه السّلام بأمور منها:

(١) أنّ الله تعالى ذَكَرَهُ قبل سائر الملائكة في القرآن لقوله تعالى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

(٢) سمّاه الله في كتابه روح القدس ﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]. أي خلاصة الطّهارة وأصلها وسرّها، وقوله تعالى لعيسى ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]. كما جاء قوله ﷺ من حديث جابر «رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ[3]».

(قال) النحّاس: وسُمِّي جبريل روحا وأُضيف إلى القُدُسِ لأنّه كان بتكوين الله عزّ وجلّ له روحا من غير ولادة، وروى عن مجاهد قال: القُدُسُ هو الله تعالى، وكذا قال الحسن: القُدُسُ الله تعالى وروحه جبريل عليه السّلام.

والرّوح في البيان القرآني على عدّة أوجه:

(أحدها) عبّر بالرُّوح عمّا تقوم به حياة النّفس التي لا يملك نفخها في الإنسان إلاّ واهب الحياة لكلّ كائن ومصدر الوجود لكلّ موجود ومن ذلك:

(*) قوله تعالى عن خلق آدم ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدة: ٩]. أي من سرّ الحياة التي لا يخلقها إلاّ الله تعالى.

(*) وسمّى المسيح ابن مريم روحا كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النّساء: ١٧١]. لأنّه نشأ بحياة ألقاها إلى مريم من غير واسطة.

(*) ومنها الرّوح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنّها من أمر الله وقد قيل إنّها الرّوح المذكورة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النّبأ: ٣٨].

---

(١) انفرد بلفظه أحمد وإسناده مرسل [٢٠٠٥٢].

(٢) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٣٥٤].

(٣) أورده السّيوطي في الدّر المنثور [١ / ٦٨] وجاء في صحيح السُّنّة ما يفيد معناه.

(*) وسمّى الرّحمة في القرآن «رَوْحًا» بفتح الرّاء المشدّدة وسكون الواو ومنه قوله تعالى﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٧].أي من رحمته تعالى.

(*) ومنها أيضا راحة النّفس وسرورها وسعادتها لقول الله تعالى﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٩]. أي فرحة وبشر وسرور.

(الثّاني) سَمَّى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح كما في قوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشّورى: ٥٢]. وقوله جلّ شأنه ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[غافر: ١٥].

(الثّالث) عبّر بالرّوح عن القوّة والثّبات والنّصرة التي يُؤيّد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين كقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

أمّا أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلاّ بالنّفس كما في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر: ٢٧]. وقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[الشّمس: ٧]. وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥]. كما جاءت في السّنة بلفظ النّفس والرّوح.

والرّوح أمر غيبي استأثر الله بعلمه كما في قوله تعالى﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]. وقيل [إنّ الرّوح جسم نورانيّ لطيف حيّ متحرّك ينفذ في الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء في العود الأخضر، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللّطيف بقي ذلك الجسم مُتشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحسّ والحركة الإراديّة، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الرّوح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح والله تعالى أعلم[1]].

مكانة جبريل عند الله تعالى

مدح الله تعالى جبريل بستّ صفات في معرض تبليغه نصّ القرآن لرسول الله ﷺ فقال ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التّكوير: ١٩-٢١]. فكان [رسول ربّه] إلى جميع الأنبياء، ومن كرمه على ربّه: أنّه جعله [واسطةً] بينه وبين أشرف عباده وهم الأنبياء، أمّا كونه [قويًا]: فلأنّه رفع مدائن قوم لوط على جناحه ثمّ قلبها عليهم، فهو قوى على تنفيذ ما يؤمر به غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السّموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى.

أمّا [مكانته] عند الله تعالى فإنّه بيّن أفضليّته وخصّه بالذّكر وقدّمه في التّرتيب على سائر الملائكة كما في قوله تعالى﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ

(١) انظر كتاب الرّوح لابن القيّم [ص ١٥٣ - ١٥٤].

﴿ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التّحريم : ٤] . وكونه [مُطَاعًا] : فلأنّه إمام الملائكة ومقتداهم .

أمّا كونه [أمينًا] فهو قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشّعراء : ١٩٣] . وذلك يقتضى صدقه ونصحه وإلقاءه إلى الرّسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان ، وبذلك يكون قد جُمع له بين المكانة والكرامة والطّاعة والأمانة والقوّة والقرب [(١)] .

بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ

(أولًا) جبريل عليه السّلام يغسل قلب النّبى ﷺ بماء زمزم

للعناية الإلهيّة رموزها التى تشير إلى السّر دون أن ترفع النّقاب عن مكنونه أو أن تكشف بُعد أعماقه ، وتقع هذه الرّموز خارج دائرة الزّمان والمكان ، كما تستعصى وقائع الحَدَث على العقول البشريّة والمعامل التّحليلية ، وعندما نتكلّم عن معجزة شقّ الصّدر فإننا نقف أمام رمز إلهى لآية تتخلّق ، ولأنّ النّبوة آية كبرى من آيات الخالق فقد وقعت لرسول الله ﷺ ثلاثة رموز عُرفت باسم شقّ الصّدر ، عندما تواردت الرّوايات الصّحيحة التى ذكرت حكاية شقّ صدر النّبى ﷺ وغسل قلبه الشّريف بماء زمزم ثلاث مرّات :

(الأولى) كانت فى زمن الطّفولة أيّام كان يعيش رسول الله ﷺ طفلا وليدا فى بادية بنى سعد لما رُوى عن أنس رضي الله عنه قال «إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِى ظِئْرَهُ[(٢)] - فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ» . [قال] أنسٌ «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِى صَدْرِهِ[(٣)]» . فنشأ ﷺ صافيًا من الأدناس معصومًا من الذّنوب محفوظًا من الشّيطان .

أمّا (الثّانية) فكانت والرّسول ﷺ فى العاشرة وبضعة أشهر يرعى الغنم وعنها يروى أبو هريرة عن نبيّه ﷺ أنّه قال «إِنِّى لَفِى صَحْرَاءِ ابْنُ عَشْرَ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ ، وَإِذَا بِكَلاَمٍ فَوْقَ رَأْسِى ، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ نَعَمْ ، فَاسْتَقْبَلاَنِى بِوُجُوهٍ لَمْ أَرَهَا قَطُّ وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقٍ قَطُّ وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، فَأَقْبَلاَ إِلَىَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِعَضُدِى لاَ أَجِدُ أَحَدُهُمَا مَسًّا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَضْجِعْهُ ، فَأَضْجَعَانِى بِلاَ قَصْرٍ وَلاَ هَصْرٍ ، وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : افْلُقْ صَدْرَهُ ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَى صَدْرِى فَفَلَقَهَا فِيمَا أَرَى بِلاَ دَمٍ وَلاَ وَجَعٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَخْرِجِ الْغِلَّ وَالْحَسَدَ ، فَأَخْرَجَ شَيْئًا

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٤٦٢] .

(٢) الظِّئْرُ المُرضعة لغير ولدها ويُطلق على زوجها أيضا وجمعه أظآر .

(٣) أخرجه مسلم [١٦٢/٢٦١] .

كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ، فَإِذَا مِثْلُ الَّذِى أَخْرَجَ يُشْبِهُ الْفِضَّةَ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِى الْيُمْنَى فَقَالَ: اغْدُ وَاسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ وَرَحْمَةً لِلْكَبِيرِ[(١)]».

ثمّ كانت (الثّالثة) عند إرادة العروج إلى السّماء زيادة فى إكرامه ﷺ ليتلقّى ما يوحى إليه وهو فى أكمل أحوال التّطهّر والنّقاء، تأهّبا للتنزّل الإلهي واستعدادا للقرب من حضرة العلي الأعلى ومناجاته لقول أنس «كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَفَرَجَ صَدْرِى ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِىءٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِى صَدْرِى، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِى فَعَرَجَ بِى إِلَى السَّمَاءِ[(٢)]».

ولاشكّ أنّ أحداث شقّ الصّدر الثّلاثة كانت رموزا لمعنى واحد هو معنى العناية الإلهيّة الحارسة للنّبى المُرسل ﷺ فى بداية رسالته، وكون الحدث رمزا لا يعنى أنّه لم يقع، إنّما يعنى أنّ وقوعه كان إشارة إلى معنى دقيق لابدّ وأن يُلتفت إليه، فما الذى كان يعنيه حادث شقّ الصّدر فى كلّ مرّة:

(١) لقد جاء الحدث فى المرّة الأولى مبكّرا أثناء الطّفولة لنزع حظ الشّيطان فيه.

(٢) وفى المرّة الثّانية جاء الحدث وهو صبىّ قد تجاوز العاشرة بشهور، وسنّ العاشرة هو سنّ التّكليف، ومن هنا فإنّ غسْل القلب يعنى تهيئته للرّقى الرّوحى وإعداده لتلقى الوحى والرّسالة.

(٣) وفى المرّة الثّالثة جاء شقّ القلب قبل الإسراء والمعراج استعداداً لاختراق الأكوان وتهيئة لتلقّى الفيض الإلهي والقدرة على احتمال رؤية الآيات الكبرى، وكذلك يحرس الله أنبيائه ويرعاهم على عينه.

ويفسّر الشّيخ محمّد الغزالي رحمه الله أحداث شقّ الصّدر بقوله [أنّ بشرا ممتازاً كمحمّد ﷺ لا تدعه العناية الإلهيّة عُرضة للوساوس الصّغيرة التى تناوش غيره من سائر النّاس، فإذا كانت للشّر موجات تملأ الآفاق وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتّأثّر بها، فقلوب الأنبياء ـ بتولّى الله لها ـ لا تستقبل هذه التيّارات الخبيثة ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد النّبى ﷺ هو متابعة التّرقّى لا مقاومة التّدنّى، وفى تطهير النّاس من المنكر لا فى التطهّر منه]، وهذا معنى جميل لا يبتعد عن معنى العناية الإلهيّة بالنّبى ﷺ وهو ما يُعبّر عنه [بعصمة النّبى ﷺ].

أمّا الذين استبعدوا أن يقع ما وقع ويندهشون من شقّ الصّدر بغير دم ولا ألم فهؤلاء

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١١٥٦]. (٢) أخرجه مسلم [١٦٣] وافقه البخارى [٣٣٤٢].

ينسون أنّ قضاء الله لا ينفذ حسب تصوّرنا نحن البشر، وإنّما أمر الله تعالى أمين الوحى جبريل بإنفاذ مشيئته فى تطهير هذا القلب الوليد وإعداده للنّبوة، وجبريل هو الذى أشار إلى مريم فصارت العذراء البتول حاملا، وأشار إلى مدينة لوط فأصبح عاليها سافلها، وأشار إلى البحر وهو يتقدّم موسى فانشقّ طائعا كلّ فرق كالطود العظيم، وجبريل ذاته هو الذى أشار إلى قلب الرسول الأكرم ﷺ ليغسله تأهبا واستعدادا لتلقّى أمر السّماء، ولَكم حيّرت إشارات هذا الملَك عقول الذين يصدّون عن هذا الحدَث من البشر!.

(قال) فى الفتح: [وجميع ما ورد من شقّ الصّدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ممّا يجب التّسليم له دون التّعرّض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شىء من ذلك(١)]. أمّا عن شقّ صدره الشّريف وما اشتمله من خوارق العادة على ما يدهش سامعه فضلا عمّن شاهده، فإنّ بيان ذلك يتضمّن الإشارة إلى مسألتين:

(الأولى) عن موضع الشّقّ فى صدره الشّريف ﷺ عندما أشارت الرّوايات إلى أنّه كان «مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِه»: أى من الموضع المنخفض الذى بين التَّرْقُوتَيْنِ إلى أسفل بطنه. وكذلك قوله «مِنْ قَصَّتِه إِلَى شِعْرَتِه»: أى من رأس صدره إلى ما بين السُّرَّة والعانة. وجاء فى رواية مسلم «فَشَقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ فَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ(٢)». و«مَرَاقُّ البطن»: ما رَقَّ منه ولاَنَ فى أسافله ونحوها.

وقيل إنّ الحكمة فى شقّ قلبه الشّريف ﷺ مع القدرة على أن يمتلىء قلبه إيمانا وحكمة بغير شقّ الزّيادة فى قوّة اليقين لأنّه ﷺ أعطى برؤية شقّ بطنه وعدم تأثّره بذلك ما أَمِنَ معه من جميع المخاوف العاديّة. فلذلك كان من أشجع النّاس وأعلاهم حالا ومقالاً كما فى قول الله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

(الثّانية) أنّ جبريل عليه السّلام عندما انتهى من غسل القلب الشّريف كما فى رواية مسلم «لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى مَكَانِه»: أى جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، وجاء عند البخارى بلفظ «ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ». ثم يأتي قول أنس رضي الله عنه لِيُذَكِّرَ بما كان يراه من أثر هذا الشّقّ فى صدر رسول الله ﷺ بقوله «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِى صَدْرِهِ ﷺ». و«الْمِخْيَطُ»: أداة الخياطة كالإبرة ونحوها.

وقوله ﷺ عند البخارى «فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِى ثُمَّ أُوتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَغَسَلَ قَلْبِى». ولفظه عند مسلم «ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِى مَكَانِه». يتضمّن التّعريف بأمرين:

(الأوّل) أنّ تخصيص الطَّسْت من [الذّهب] جاء لكونه أشهر آلات الغسل عُرفا، أمّا

---

(١) انظر فتح البارى [ج ٧ ص ٢٤٥].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٤].

الذّهب فلكونه أغلى أنواع الأواني الحسّية وأصفاها، ولأنّ فيه خواصّ ليست لغيره منها: أنّه من أواني الجنّة، وأنّه لا تأكله النّار ولا التّراب، ولا يلحقه الصّدأ، ومنها أنّه أثقل الجواهر فناسب ثِقَلَ الوحي.

(قال) السُّهيلي [إن نُظر إلى لفظ الذّهب ناسب من جهته إذهاب الرّجس عنه، ولكونه وقع عند العروج به إلى السّموات، وإن نُظر إلى معناه: فلوضاءته ونقائه وصفائه، ولثقله ورسوبته، ولأنّه أعزّ الأشياء في الدّنيا.

(الثّاني) أنّ غسل القلب [بماء زمزم] تأكيد لما فيه من فضيلة على جميع المياه، ولما اجتمع في [ماء زمزم] من كون أصل مائها من الجنّة ثمّ استقرّ في الأرض، فأُريد بذلك بقاء «بركة» رسول الله ﷺ في «الأرض» إلى يوم القيامة. [قال] السُّهيلي [لمّا كانت زمزم هزمة[1] جبريل روح القدُس لأمّ إسماعيل «جدّ» النّبي ﷺ ناسب أن يُغسل بمائها عند دخول حضرة القُدس ومُناجاته].

(قال) في الفتح: [والحكمة في وقوع فرض الصّلاة ليلة المعراج، أنّه لمّا قُدِّسَ ﷺ ظاهراً وباطنًا حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصّلاة أن يتقدّمها الطّهور، فناسب ذلك أن تفرض الصّلاة في تلك الحالة، وليظهر شرفه في الملأ الأعلى ويُصَلِّي بمن سكنه من الأنبياء وبالملائكة وليُناجي ربّه تعالى[2]].

(ثانيا) كيف كان الوحي يأتي رسول الله ﷺ

انحصرت كيفيّة وحي السّماء إلى رسول الله ﷺ في حالتين:

(الأُولى) إمّا من [صفة الوحي] ومنه ما أتاه به في النّوم من الرّؤيا الصّادقة، ومنه ما أُلقي في القلب من الإلهام، ومنه ما يُلقيه روح القدس في روعه، ومنه ما سُمع من الله تعالى بلا واسطة ليلة الإسراء، ومنه مجيئه كدويّ النّحل وصلصلة الجرس.

(الثّانية) إمّا من صفة [حامل الوحي] وهو جبريل عليه السّلام»: كأن يتمثّل في هيئة الرّجل كما في قصّة مجيئه في صورة دِحْيَة، وفي صورة آدمي معروف أو غير معروف وغير ذلك وكلّها في الصّحيح، أو كمجيئه في صورته التي خلقه الله عليها وله ستّمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السّماء والأرض وقد سدّ الأفق.

وقد قسّم العلماء هذا الوحي إلى قسمين:

(١) الوحي الإعلامي وفيه يُعلم الله نبيّه ﷺ الشّيء بكيفيّة من الكيفيّات.

(٢) الوحي الإقراري وفيه يجتهد النّبي ﷺ في الأمر فيسلك فيه مسلكا ما،

---

(١) الْهزْمَةُ مِنْ هَزَمَهُ يَهْزِمُهُ فانهزم: غَمَزَهُ بيده فصارت فيه حُفْرَةٌ، وكلُّ موضع منهزم منه: هزْمةٌ. [انظر القاموس المحيط ص ١٥١٠]. (٢) انظر فتح الباري [ج ١ ص ٥٤٨].

فإن كان صوابا أقرّه الوحي و إن كان غير صواب نبّهه الوحي، وحينئذ يكون إعلاميا، فالوحي التّقريري هو ما أقرّ الله نبيّه فيه على صواب فعله من تلقاء نفسه، أمّا الإعلامي فإنّ مقتضى الأحاديث تبيّن أنّه قد جاء بكيفيّات متعدّدة :

(الكيفيّة الأولى) الرّؤيا الصّادقة وكانت أوّل ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي فتأتي مثل فلَق الصّبح في ظهور نوره وضيائه لحديث عروة بن الزّبير عن أمّ المؤمنين عائشة قالت «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدىءَ به رَسُولُ الله ﷺ منَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالحَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[1]». والرّؤياالصّالحة هي التى ليست ضغثًا ولا من تلبيس الشّيطان ولا فيها ضَرْبُ مَثَلٍ مُشْكِلٍ، والمراد «بِفَلَقِ الصُّبْحِ» ضياؤه، وخصّ بالتّشبيه لظهوره الواضح الذى لا شكّ فيه.

[قال] عياض: [إنّما ابتدىء رسول الله ﷺ بالرّؤيا لئلا يفجأه الْمَلَكُ ويأتيه صريح النُّبوّة بغتة فلا تحتملها قواه البشرية، فبُدىء بأوّل خصال النّبوّة وتباشير الكرامة من صدق الرّؤيا[2]]. وقد وقع ما يدلّ على أنّ الذى كان يراه ﷺ هو جبريل ولفظه «أَنَّهُ قَالَ لخَديجَةَ بَعْدَ أَنْ أَقْرَأَهُ جبْرِيلُ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. أَرَأَيْتُك الَّذى كُنْتُ أُحَدِّثُك إِنّى رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ! فَإِنَّهُ جبْرِيلُ اسْتَعْلَنَ لِي بِأَنَّ رَبِّى أَرْسَلَهُ إِلَيَّ[3]». أى ظهر لي علانية، فرؤياه المناميّة ﷺ حقّ لا يعتريها تلبيس أو تخييل وكذا جميع الأنبياء، تجد هذا واضحا فى قصّة ذبح إبراهيم ولده عليهما السّلام، وكيف أنّ ذلك كان بناء على رؤيا مناميّة، وتجده أيضا في قصّة يوسف عليه السّلام وأنّ رؤياه الأحد عشر كوكبا والشّمس والقمر له ساجدين قد تحقّقت بعد سنوات.

(والثّانية) أن يكلّمه الله سبحانه من وراء حجاب فلا يرى ﷺ ربّه وإنّما يسمع كلامه تعالى مع اليقين بأنّه يكلّمه، وهذا مفهوم قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[الشّورى: ٥١]. فقوله سبحانه ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾. هي الكيفيّة المذكورة هنا، وتكليم الله تعالى نبيّه ﷺ إمّا في اليقظة كما في ليلة الإسراء حين فرض سبحانه الصّلاة. وإمّا في النّوم كما في قوله ﷺ «رَأَيْتُ رَبِّى فِي أَحْسَنِ صُورَة فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى[4]».

(الثّالثة) أن يوحى إليه بواسطة الملَك ولا يرى الملَكَ وإنّما يعلم بمجيئه بظهور علامات تدلّ على ذلك من دويّ كدويّ النّحل ويدلّ على هذا حديث عمر رضي الله عنه «كَانَ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٩٢٥] ومسلم [١٦١] والتّرمذى [٣٣٢٥].
(٢) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٤٧٤].
(٣) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٥٨٧].
(٤) حديث صحيح لغيره أخرجه التّرمذى [٣٢٣٣] وأحمد [٢٥٨٠] والدّارمى [٢١٥٥].

إذا نزلَ علَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ[1]» . أو يأتيه بصلصلة كصلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه فيتلبّس به الملك حتّى إنّ جبينه ليتفصّدُ عرقًا في اليوم الشّديد البرد لما روى أنّ الحارث بن هشام قال «يارَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ ﷺ : أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» . قَالَتْ عَائِشَةُ «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُفْصَمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[2]» .

وفي قوله ﷺ «مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ» قال الخطّابي : يريد أنّه صوت مُتدارك يسمعه ولا يتبيّنه أول ما يسمعه حتّى يتفهّمه بعد، وقيل : بل هو حفيف أجنحة الملَك، والحكمة في تقدّمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولمّا كانت صلصلة الجرس لا تحصل إلاّ مُتداركة وقع التّشبيه به دون غيره من الآلات.

وروى ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ كان يقول «كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِينِي عَلَى نَحْوَيْنِ : يَأْتِينِي به جِبْرِيلُ فَيُلْقِيهِ عَلَيَّ كَمَا يُلْقِي الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ فَذَاكَ يَنْفَلِتُ مِنِّي، وَيَأْتِينِي فِي بَيْتِي مِثْلَ صَوْتِ الْجَرَسِ حَتَّى يُخَالِطَ قَلْبِي فَذَاكَ الَّذِي لاَ يَنْفَلِتُ مِنِّي» . (قال) في الفتح : [وهذا مرسل مع ثقة رجاله فإن صحّ فهو محمول على ما كان قبل نزول قول الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة : ١٦[3]] .

وقوله في الحديث «فَيُفْصَمُ عَنْهُ» : أي يقلع ويتجلي عنه ما يغشاه، أمّا قوله «لَيَتَصَفَّدُ» : مأخوذ من الْفَصْد وهو قطع الْعِرْق لإسالة الدّم، شبّه جبينه بالعِرْق المصفود مبالغة في كثرة الْعَرَقِ، وفي قوله «فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ» : دلالة على كثرة معاناة التّعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة الْعَرَقِ في شدّة البرد فإنّه يُشْعِرُ بوجود أمر طارىء زائد على الطّباع البشرية.

والحكمة فيما كان يعانيه ﷺ عند نزول الوحي مُتعدّدة، منها ما يترتّب على المشقّة من زيادة الأجر ورفعة الدّرجة، ومنها أن يتفرّغ ﷺ للوحي وتنهض جوارحه لما سيلقى عليه ومن ذلك ما رُوى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ قَالَ يَارَسُولَ اللهِ وَاللهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٢٣] . (٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢١٥] ومسلم [٢٣٣٣] بقطعة لم ترد هنا . (٣) أورده الحافظ في فتح الباري [ج ١ ص ٢٧] .

وَفخذُهُ عَلَى فَخذى فَثقُلَتْ عَلَىَّ حَتَّى خفْتُ أَنْ تُرضَّ فَخذى، ثُمَّ سُرِّىَ عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[١]». والرَّضُّ الْكَدْمُ الشَّديدُ منْ رَضَّهُ رَضًا: دَقَّهُ أو كَسَرَهُ فهو مَرْضُوضٌ ورَضيضٌ من قولهم: ارْتَضَّ الشَّىْءُ أى تَكَسَّرَ.

(الرّابعة) ما كان يُلقيه الملَك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه أو يكلّمه ومن هذه الكيفية قوله ﷺ «إنَّ جبْريلَ عَلَيْه السَّلاَمُ أَلْقَى فى رُوعى أَنَّ أَحدًا منْكُمْ لَنْ يَخْرُجَ منَ الدُّنْيَا حتَّى يَسْتَكْملَ رِزْقَهُ، فَاتَّقوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسَ وأَجْملُوا فى الطَّلَب[١]». وجاء عند ابن حبّان بلفظ «إنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فى رَوْعِى أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْملُوا فِى الطَّلَب[٢]».

(الخامسة) أن يُوحى إليه بواسطة الملَك وقد تمثّل له رجلا فيخاطبه حتّى يعى عنه ما يقول له وفى هذه المرتبة كان يراه الصّحابة أحيانا لما في صحيح مسلم أنّ النّبى ﷺ قال «يَاعُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: فَإِنَّهُ جبْريلُ أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دينَكُمْ[٣]». وعن ابن عمر قال «كَانَ جبْريلُ عَلَيْه السَّلاَمُ يَأْتى النَّبىَّ ﷺ فى صُورَة دحْيَةَ[٤]». ودحْيَةُ هذا صحابىٌّ جليل شهد المشاهد كلّها مع النّبى ﷺ عدا بدر وكان رجلا جسيما أبيض.

ويتأيّد هذا بما رواه مسلم عن أبى عثمان قال «وَأُنْبئْتُ أَنَّ جبْريلَ عَلَيْه السَّلامُ أَتى نَبىَّ الله ﷺ وَعنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ. قَالَ: فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ ثُمَّ قَامَ. فَقَالَ نَبىُّ الله ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ مَنْ هَذَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَتْ هَذَا دحْيَةُ. قَالَ: فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ايْمُ الله! مَاحَسبْتُهُ إلاَّ إيَّاهُ حَتَّى سَمعْتُ خُطْبَةَ نَبىِّ الله ﷺ يُخْبرُ عَنْ جبْريلَ[٥]».

(السّادسة) أنّه يرى الملَك فى صورته التى خلقه الله عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيَه لحديث ابن مسعود رضي الله عنه «رأى رَسُولُ الله ﷺ جبْريلَ لَهُ ستُّمائَة جَنَاحٍ[٦]» وجاء فى رواية «لَهُ ستُّمائَة جَنَاحٍ يَتَنَاثَرُ منْهَا تَهَاوِيلُ الدُّرِّ وَالْيَاقُوت[٧]». ومن هذه الكيفيّة رؤيته ﷺ جبريل فى ليلة المعراج على صورته التى خلقه الله عليها، وفى هذه اللّيلة

---

(١) أخرجه الحاكم فى البيوع عن ابن مسعود [٢١٨١] وأورده الذّهبى فى التّلخيص.

(٢) حديث صحيح بشواهده أخرجه ابن حبّان [١٠٨٤] وأورده فى صحيح الجامع [٢٠٨٥].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] والتّرمذى [٢٦١٠].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٥٨٥٧].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٣٤] ومسلم [٢٤٥١].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٨٥٧] ومسلم [١٧٤] والتّرمذى [٣٢٧٧].

(٧) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٧٤٨].

ثالثا ـ جبريل يرافق النّبى ﷺ فى إسرائه ومعراجه

(أ) ـ رحلة الإسراء

ثبت الإسراء فى جميع مصنّفات الحديث وروى عن الصّحابة الكرام فى كلّ أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه عندما بدأت رحلة النّبى ﷺ إلى الأرض المباركة ليلا برفقة جبريل عليه السّلام، وهو الأمر الذى سجّله الخالق سبحانه فى كتابه المكنون ليظل مُسَطّرًا مقروءا إلى يوم يبعثون كما فى قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

كما يأتى وصف الرّحلة فيما رُوى عن أنس أنّ النّبى ﷺ قال «أُتيتُ بالْبُراق فركبْتُه حَتّى أتيتُ بيْتَ الْمَقْدس. قالَ: فرَبَطْتُه بالْحَلْقَة الّتى يرْبطُ به الأنْبيَاء، ثُمّ دَخَلْتُ الْمَسْجدَ فصَلّيْتُ فيه ركْعَتَيْن ثُمّ خرجْتُ، فَجَاءَنى جبْريلُ عَلَيْه السّلام بإنَاء منْ خَمْرٍ وإنَاءٍ منْ لَبَنٍ، فاخْتَرْتُ اللّبَنَ. فَقَالَ جبْريلُ ﷺ اخْتَرْتَ الْفطْرَةَ، ثُمّ عرجَ بنَا إلَى السّمَاء[1]».

وفسّروا الفطرة فى قوله «اخْتَرْتَ الْفطْرَة» بالإسلام والاستقامة، ثمّ جعل «اللّبن» علامة لكونه سهلا طيّبا طاهرا سائغا للشّاربين سليم العاقبة، أمّا الخمر فإنّها أُمّ الخبائث وجالبة لأنواع من الشّر فى الحال والمآل. وجاء عند البخارى بلفظ «ثُمّ أُوتيتُ بإنَاء منْ خَمْرٍ وإنَاء منْ لَبَنٍ وإنَاءٍ منْ عَسَلٍ، فأَخَذْتُ اللّبَنَ، فَقَالَ: هيَ الْفطْرَةُ الّتى أنْتَ عَلَيْهَا وأُمّتُكَ». أى دين الإسلام. (قال) القرطبى [يحتمل أن يكون تسمية اللّبن «فطرة» لأنّه أوّل شىء يدخل بطن المولود ويشقّ أمعاءه، والسّر فى ميل النّبى ﷺ إليه دون غيره لكونه كان مألوفا له ولأنّه لم ينشأ من جنسه مفسدة[2]].

ومن الرّوايات التى وردت فى ركوب رسول الله ﷺ للبُراق ليلة الإسراء ما رواه التّرمذى فى جامعه عن أنس قال «أنّ النّبيّ ﷺ أُتيَ بالْبُرَاق لَيْلَةَ أُسْريَ به مُلْجَمًا مُسْرَجًا فاسْتَصْعَبَ عَلَيْه، فَقَالَ لَهُ جبْريلُ: أَبمُحَمّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكبَكَ أَحَدٌ أكْرَمُ عَلَى الله منْهُ، قَالَ: فَارْفَضّ عَرَقًا[3]». وقوله «فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْه» أى صار البُراق صعبا على النّبى ﷺ أن يركبه، فلمّا قال له جبريل عليه السّلام ما قال «ارْفَضّ عَرَقًا» أى جرى عَرَقه وسال، ثمّ سكن وانقاد وترك الاستصعاب.

ومن الدّروس المستفادة من رحلة الإسراء:

(١) ربطها بين عقائد التّوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام إلى

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٨٧] ومسلم [٢٥٩ / ١٦٢] واللّفظ له. (٢) انظر فتح البارى [ج ٧ ص ٢٥٨]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٦٠٨] والتّرمذى [٣١٣١].

نبيّنا محمّد ﷺ، وتأكيدها لوحدة رسالة السّماء والأُخوّة بين الأنبياء والنّاس جميعا وذلك انطلاقا من الوحدانيّة المُطلقة لله تعالى ومن تنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كلّ وصف لا يليق بجلاله وكماله.

(٢) كما أُريد بها إعلان وراثة النّبى ﷺ لمقدّسات الرّسل قبله واشتمال رسالته على هذه المقدّسات وارتباط رسالته بها جميعا، وأنّ جميع الشّرائع قد انطوت فى القرآن الكريم وفى سُنّة خاتم المرسلين ﷺ والتى نسخت جميع الرّسالات التى أُنزلت من قبلها.

(٣) جمعه سبحانه لنبيّه ﷺ عند إسرائه من بيت المقدس بين رؤية القبلتين، ولأنّ بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله فحصل له الرّحيل إليه فى الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل كلّها، و يؤكد من خلال رحلة الإسراء على وحدة القبلتين وارتباط الكعبة المشرّفة بالمسجد الأقصى وعلى عُموم رسالته وخُلودها، وعلى حقيقة إمامته وسُموّ دعوته وشُمولها لمصالح العباد والبلاد فى كلّ زمان ومكان.

(٤) ولأنّ بيت المقدس وما حوله محل الحشر وغالب ما اتّفق له فى تلك اللّيلة يناسب الأحوال الأُخرويّة، فكان المعراج منه أليَق بذلك أو للتّفاؤل بحصول أنواع البركات والتّقديس له ﷺ حسًّا ومعنى.

(٥) تقريره سبحانه لصفة العبوديّة فى قوله ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. وتوكيدها فى مقام الإسراء والعروج إلى الدّرجات التى لم يبلغها بشر، وذلك كى لا تُنسى هذه الصّفة ولا يلتبس مقام العبوديّة بمقام الألوهية كما التبسا فى العقائد المسيحيّة بعد عيسى ﷺ بسبب ما لابس مولده ووفاته، وبسبب الآيات التى أُعطيت له فاتخذها بعضهم سببا للخلط بين مقام [العبوديّة] ومقام [الألوهيّة]. وبذلك تبقى للعقيدة الإسلاميّة بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذّات الإلهيّة عن كلّ شُبهة من شرك أو مُشابهة من قريب أو من بعيد.

(٦) أنّ الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السّماء إرادة إظهار الحقّ لمعاندة من يريد إخماده، لأنّه لو عرج به من [مكّة] إلى السّماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح، فلمّا ذَكَرَ أنّه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس سألوه عن تعريف بعض الجزئيات من بيت المقدس كانوا قد رأوها وعلموا أنّه لم يكن رآها قبل ذلك، فلمّا أخبرهم بها حصل التّحقيق بصدقه فيما ذَكَرَ من الإسراء إلى بيت المقدس، وإذا صحّ خبره فى ذلك لزم تصديقه فى بقيّة ما ذكره، فكان ذلك زيادة فى إيمان المؤمنين وزيادة فى شقاء الجاحدين والمعاندين.

(٣) - رحلة المعراج

بدأت رحلة المعراج من المسجد الأقصى إلى السّموات العُلى برفقة جبريل عليه

السّلام لترمز إلى ما هو أبعد من [طى المكان وإيقاف الزّمان] وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزّمان والمكان، ويتكشّف ذلك كلّه من خلال تلك البُرهة الوجيزة التى لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ لتفتح القلب على آفاق عجيبة فى هذا الوجود، وتكشف عن الطّاقات المخبوءة والاستعدادات اللّدنية التى يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة من اللّطائف والأسرار.

وسورة «النَّجْم» وهى فى جلال موقعها القرآنى تكشف عن الآيات الباهرات التى رآها رسول الله ﷺ خلال تلك الرّحلة المباركة، إنّها تصف اللّحظات التى كُشفت فيها الحجب عن قلب النّبى المصطفى ﷺ وأُزيحت عنه الأستار، عندما كان يتلقّى من الملأ الأعلى يسمع ويرى، ويحفظ ما وعى، إنّها لحظات خُصَّ بها ذلك القلب المُصَفَّى كى يتهيّأ لحمل الأمانة التى ارتضاها الخالق جلّ وعلا بعثا ونورا للحياة.

ولقد سُمِّيَت السّورة بهذا الاسم لاستهلالها بقسَم من الله تعالى [بالنَّجْم] وهو سُبحانه غنىّ عن القسَم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنيّة بصيغة القسَم كان ذلك إشارة إلى أهميّة الأمر المُقسَم به والمُقسَم عليه وجواب القسَم الذى تمثّل فى بيان أوجه الإعجاز الإنبائى فى الإخبار برحلة المعراج كما فى قوله تعالى﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النّجم:١٣-١٤].

فمن خلال هذه الآيات أمتنّ الله على عباده بوصفه لهم هذه اللّحظات الحيَّة وصفا مُوحيا مُؤثّرا وينقل أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم، عندما سجّل لهم رحلة هذا القلب الطّاهر فى رحاب الملأ الأعلى خُطوة خُطوة، ليأتى المشهد على الحقيقة بيانا مُتكاملا يحيطه البهاء فى كلّ آفاق السّماء ويشعّ منه الجمال فى كلّ صوب واتجاه.

إنّه سُبحانه وتعالى يُؤكّد أوّل ما يؤكّد فى مكنون كتابه أنّ رسوله ﷺ مُبَلِّغٌ بالحقّ عن الحقّ، غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع، ولا ناطق عن الهوى فيما يبلّغهم من الرّسالة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. إنّه القول الكريم الذى يُبيّن أنّ هذا الوحى معروف حامله، مستيقن طريقه، مشهودة رحلته، رآه رسول الله ﷺ رأى العين والقلب، فلم يكن واهما فيما شاهده، ولا مخدوعا فيما رآه.

وتنتقل بنا الآيات الجليلة من خلال سياقها المُبدع لتصف أدب النّبى ﷺ فى ذلك المقام بقوله تعالى﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. وفى تفسيره قال ابن عبّاس [أى ما عَدَل يمينا ولا شمالا ولا تجاوز الحدّ الذى رأى]. وقيل: لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، فما رآه كان يقينا راسخا، ولم يكن «زغللة عين» ولا تجاوز رؤية، إنّما هى المشاهدة الواضحة المتحقّقة التى لا تحتمل شكًّا ولا تقبل ظنًّا بل إنّه ﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أى عاين فيها من آيات ربّه الباهرات، وآلائه النّاصعات واتّصل قلبه بالحقيقة التى عاشها من خلال النّقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى تلك الفترة الوجيزة، ثمّ عروجه إلى السّموات العُلَى كى يرى من آيات ربّه الكبرى.

فكان منها اطّلاعه على عظمة هذا الكون وضخامة بنائه وانتظام حركته، وقدرة الله تعالى على طى المكان وإيقاف الزّمان له، ثمّ رأى من أمور الغيب ما لا يمكن لأهل الأرض أن يروه، عندما رأى كلاّ من الملائكة وسابق الأنبياء والمرسلين، ومكّنه سبحانه من التحدُّث إليهم، وأطلعه على نماذج من نعيم أهل الجنّة فى الجنّة، ومن عذاب أهل النّار فى النّار، وكان ذلك كلّه من الآيات الباهرات التى أطلع الله سبحانه عليها خاتم أنبيائه ورُسله ﷺ، إنّ أمر الوحى أمر عيان مشهود، ورؤية محقّقة، ويقين جازم، واتّصال مباشر، ومعرفة مؤكّدة، وصُحبة محسوسة، ورحلة واقعيّة بكلّ مراجعها، وأنّ المستهدف من مسراه ﷺ ومعراجه تحقيق قوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾. فكان منْ أوّل الآيات التى رآها فى هذه الرّحلة المباركة وشاهدها:

(١) رؤيته ﷺ لجبريل عليه السّلام على صورته التى خلقه الله عليها يسدّ الأفق بصورته الهائلة ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّجم: ٦ - ٧]. إنّه دنا منه فتدلّى نازلا مقتربا إليه، فكان أقرب ما يكون منه على بعد ما بين القوسين أو أدنى، وهو تعبير عن منتهى القُرب، إنّها رُؤية عن قُرب بعد التّرائى عن بعد، وهى وحى وتعليم ومشاهدة وتيقُّن. وهى حال لا يتأتّى معها كذب فى الرّؤية ولا تحتمل المماراة أو المجادلة، وهو ما عبّر عنه التّنزيل بقوله ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. إنّه رأى فتثبّت فاستيقن فؤاده أنّه الْمَلَكُ حامل الوحى ورسول ربّه إليه ليُعلّمه ويُكلّفه تبليغ ما يعلم.

(٢) ورأى رسل الله وأنبياءه وسلّم عليهم واحدا واحدا، ووصفهم وصفا كاملا فأخبر عن موسى أنّه «رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ». ووصف عيسى بن مريم بأنّه «مَرْبُوعُ الْخَلْقِ، إِلَى الْحُمْرَةِ والْبَيَاضِ، سَبِطُ الرَّأْسِ». وقال عن نبىّ الله يوسف «إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ». وحمله ابن المنير على أنّ المراد أنّ يوسف أُعطى شطر الْحُسْن الذى أُتيَهُ نبيُّنا ﷺ، وعند وصفه لأبى الأنبياء إبراهيم ﷺ يُشبّه نفسه به بقوله «فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ. يَعْنِي نَفْسَهُ ﷺ». وفى رواية «وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِه بِهِ[(١)]».

وجاء فى الصّحيح عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ مُوسى وإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِه بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢ / ١٦٨] وافقه البخارى [٣٤٣٧] والتّرمذى [٣١٣٠].

وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِي اشْرَبْ أَيَّهِمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ لِي: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ(١)».

وقوله ﷺ في وصفه لنبيّ الله موسى بأنّه «رَجُلٌ ضَرْبٌ»: أي نحيف الجسم دهين الشّعر ومسترسله، ثمّ نسبه ﷺ في قوله «كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ» إلى حيٍّ من اليمن كان لرجل لُقِّب بذلك لشنآن كان بينه وبين وأهله والنّسبة إليه شنوئي.

أمّا وصفه ﷺ لنبيّ الله عيسى بقوله «فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» فمراده أنّه ليس بالطّويل ولا بالقصير بل هو وسط في طوله، و«الدّيماس» هو الحمّام، والمراد من ذلك وصفه بصفاء اللّون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتّى كأنّه قد خرج منه لتوّه والماء يقطر من رأسه.

(٣) وأرى مالكا خازن النّار لقوله ﷺ «فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ! هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ(٢)».

(٤) ورأى رسول الله ﷺ الدّجّال في آيات أراه الله تعالى إياها لقوله «ثُمَّ إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ جَعْدٍ قَطَطٍ، أَعْوَرِ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: هَذَا الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ(٣)». والْجَعْدُ هُنَا القصير المتردّد اللّئيم.

(٥) ورأى الجنّة وما فيها من جنابذ اللّؤلؤ والمسك كما في قوله ﷺ «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ(٤)». وجنابذ اللّؤلؤ هي القباب وواحدتها جنبذة، أمّا اللّؤلؤ فمعروف.

(٦) ورأى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السّلام وقد أسند ظهره إلى البيت المعمور لقوله ﷺ «فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ(٥)».

(٧) ثمّ رُفع له البيت المعمور لقوله ﷺ «فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ(٦)». واستُدلّ به على أنّ الملائكة أكثر المخلوقات لأنّه لا يعرف من جميع العوالم من يتجدّد في جنسه في كلّ يوم سبعون ألفا غير ما ثبت عن الملائكة في هذا الخبر.

(٨) وحدّث نَبيُّ الله ﷺ «أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٣٩٤] ومسلم ١٦٨X] والجامع الصّحيح [٥٤٦٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٣].

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٢/٢٥٩].

(٦) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٠٧].

بَاطِنَانِ ، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الأَنْهَارُ؟ قَالَ : أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ[1]» . وقيل إنّما أُطلق على هذه الأنهار أنها من الجنّة تشريفا للنيل والفُرات الأرضيّين وتشبيها لهما بأنهارها ، لما فيهما من شدّة العذوبة والحُسن والبركة .

(٩) ثم ذُهِبَ به ﷺ إلى سدرة المنتهى «وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ ، قَالَ : فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى[2]» :

و[السّدرة] كما يُعرف من اللّفظ هي «شَجَرَةُ النَّبْقِ» وقد اختيرت دون غيرها لأنّ فيها ثلاثة أوصاف : ظلاً ممدودا ، وطعما لذيذا معقودا ، ورائحة زكيّة ، فكانت بمنزلة الإيمان الذى يجمع بين القول والفعل والنيّة ، وقد ذُكرت إمّا لكونها : سدرة المنتهى وهذا يعنى أنّها التى ينتهى عندها المطاف فجنّة المأوى عندها ، أو هى التى انتهت إليها رحلة المعراج ، أو التى انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ حيث وقف هو وصعد محمّد ﷺ درجة أُخرى أقرب إلى عرش ربّه وأدنى .

ويؤيّد ذلك قول نبىّ الله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ[3]» . و[صَرِيفُ الأَقْلامِ] هو ما تكتبه أقلام الْقَدَرِ من تصاريف الأمور وتواليها . [قال] الخطّابى : [هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللّوح المحفوظ ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده من أمره وتدبيره] .

وفى قول الله تعالى ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن مسعود «لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى قَالَ انْتَهَى إِلَيْهَا مَا يَعْرُجُ مِنَ الأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ» قال «فَأَعْطَاهُ اللَّهُ عِنْدَهَا ثَلاثًا لَمْ يُعْطِهِنَّ نَبِيًّا كَانَ قَبْلَهُ : فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ خَمْسًا ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لأُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتُ مَا لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا[4]» . وهى الذّنوب العظام والكبائر التى تُهلك أصحابها وتُوردهم النّار وتُقحمهم فى عذابها وهلاكها ، والتَّقَحُّمُ : الوقوع فى المهالك .

وقيل إنّ الذى يغشاها ملائكة كأنّهم طيور يرتقون إليها متشوّقين متبرّكين زائرين كما يزور النّاس الكعبة ، وقيل [تغشاها أنوار الله تعالى لأنّ النّبى ﷺ لمّا وصل إليها تجلّى ربّه لها كما تجلّى للجبل فظهرت الأنوار ، لكنّ السّدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٤] وافقه البخارى [٣٢٠٧] .
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٢] .
(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤٩] ومسلم [١٦٣] .
(٤) أخرجه مسلم [١٧٣] والترمذى [٣٢٨٦] .

فَجُعِلَ دكًّا ولم تتحرّك الشّجرة، وخَرَّ موسى صَعِقًا ولم يتزلزل محمّد ﷺ[1]].

والله تعالى فى قوله ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ يذكر ما لابس هذه الرّؤية عند سدرة المنتهى زيادة فى التّوكيد واليقين ممّا لا يصفه بيان ولا يحدّده وصف، فقد كان أهول من كلّ وصف وأضخم من كلّ تحديد.

(١٠) لمّا أوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى فرض عليه خمسين صلاة لقوله ﷺ عند مسلم «فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ[2]». ثمّ خُفِّفَتْ فأصبحت خمسا لقول أنس «فُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَوَاتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِهِ خَمْسِينَ، ثُمَّ نَقَصَتْ حَتَّى جُعِلَتْ خَمْسًا، ثُمَّ نُودِىَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُ لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، وَإِنَّ لَكَ بِهَذِهِ الْخَمْسِ خَمْسِينَ[3]».

وجاء عند البخارى بلفظ «سَأَلْتُ رَبِّى حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ. قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ، نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِى وَأَجْزِى الْحَسَنَةَ عَشْرًا[4]».

وعند مسلم «فَرَاجَعْتُ رَبِّى فَقَالَ هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ[5]».

(قال) فى الفتح [والحكمة فى تخصيص فرض الصّلاة بليلة الإسراء أنّه ﷺ لمّا عُرج به رأى فى تلك اللّيلة تعبُّد الملائكة، وأنّ منهم القائم فلا يقعد، والرّاكع فلا يسجد، والسّاجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمّته تلك العبادات كلّها فى كلّ ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطُّمأنينة والإخلاص[6]].

كما تميّزت فريضة الصّلاة دون غيرها من التّكاليف الشّرعية التى جاءت بواسطة الوحى بحظّها من التّكليف بما يتناسب ومقامها العظيم من المكلّف سبحانه وتعالى، فهى وحدها التى تولّى ربّنا عزّ وجلّ إيجابها على الأمّة بمخاطبة رسوله ﷺ من غير واسطة ليلة الإسراء حين عُرج به إلى السّماء قبل الهجرة بسنة ونصف.

ولقد أشار العلماء إلى بعض الدّروس والعبر المستفادة من رحلة الإسراء والمعراج حيث نذكر منها ما يلى:

(**أولا**) التّسليم بأنّ المعجزات خوارق للسُّنن وبالتّالى فإنّ العقل البشرى لا يستطيع تفسيرها، فإذا جاء عنها خبر فى كتاب الله تعالى أو فى سُنّة رسول الله ﷺ فعلى كلّ

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٧ ص ٩١].
(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٢].
(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٥٧٨].
(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٠٧] ومسلم [١٦٤].
(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٣].
(٦) انظر فتح البارى [ج ٧ ص ٢٥٦].

مُؤمن التّسليم الكامل بوقوعها.

(ثانيا) أنّ الرّحلة كلّها «غيب» من غيب الله الذى نُؤمن به إيمانا يقينيا صادقا، وقد أطْلَع عليه عبده ورسوله ﷺ ولم يرد إلينا عنه إلاّ هذا، فلا يُدرك المرء كيفيّته إلاّ بمشيئة من خالقه تعالى وخالق الملائكة العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة.

(ثالثا) الإيمان الجازم بأنّ الله تعالى فضّل بعض الأماكن والأزمنة على بعض، كما فضّل بعض النّبيين والرّسل على بعض، فجعل مكّة المكرّمة أشرف بقاع الأرض يليها في الفضل مدينة رسول الله ﷺ، ثمّ يلى ذلك فى الكرامة بيت المقدس الذى ندعو الله تعالى أن يُعين الأُمّة على تطهيره من دنس الصّهاينة المجرمين المعتدين عليه وما حوله من مقدّسات.

(رابعا) التّصديق بحتميّة الفرج بعد الضّيق والرّخاء بعد الشّدة، وبأنّه لا يجوز للشّدائد أن تصدّ المسلم عن قول الحقّ وعن الجهاد فى سبيل الله من أجل إعلاء دينه دون ملل أو يأس مهما كلّفه ذلك من تضحيّات.

(خامسا) التّسليم بأنّ معجزة الإسراء والمعراج جاءت لتكريم رسول الله ﷺ بعد المعاناة الطّويلة التى عاناها من كفّار ومشركى قريش وثقيف، وبعد تخلى أغلب أهل الأرض عنه وتآمرهم عليه ومُطاردتهم له تأكيدا على أنّ حبل الله المتين لا ينقطع أبدا مهما انقطعت حبال النّاس.

(سادسا) أنّ قول الله تعالى﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾. يؤكّد ما ذهب إليه معظم السّلف من المسلمين إلى أنّ إسراء النّبى ﷺ كان إسراء بالجسد وفى اليقظة وأنّه ركب البُراق بمكّة ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه.

(سابعا) أنّه ليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يعدل عن الظّاهر والحقيقة إلى التّأويل إلاّ عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال [بروح عبده] ولم يقل سبحانه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. والآية تدلّ على ذلك، ولو كان الإسراء مناما لَمَا كانت فيه آية ولا معجزة، ولَمَا قالت له أُمّ هانىء رضى الله عنها «لاَ تُحَدِّث النَّاسَ فَيُكَذِّبُوكَ!»، ولاَ فُضِّلَ أبو بكر بالتّصديق، ولَمَا أمكن قريش التّشنيع والتّكذيب.

(ثامنا) لمّا استخبر المشركون النّبى ﷺ عن صفة بيت المقدس وصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك لقوله ﷺ «لَمَّا كَذَّبَتنى قُرَيْشٌ قُمْتُ فى الْحجْرِ فَجَلَّى اللهُ لِى بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ[1]». أى كَشَفَ اللهُ الحجب بينى وبينه حتّى رأيته.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٨٦] ومسلم [١٧٠] والتّرمذى [٣١٣٣].

وجاء عند مسلم «لَقَدْ رَأَيْتنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ[1]». (قال) الجوهري [الْكُرْبَةُ بالضَّمِّ الْغَمُّ الذي يأخذ بالنّفس وكذلك الْكَرْبُ، وكَرَبَهُ الْغَمُّ: إذا اشتدّ عليه].

وجاء في حديث جابر رضي الله عنه عند أحمد بإسناد صحيح «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلاَ اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ[2]». وقوله «فَطَفِقْتُ» أي فشرعت أُخبرهم عن علامات بيت المقدس وأنا أنظر إليه. (قال) في التُّحْفَة [وهذا أبلغ في المعجزة ولا استحالة فيه، فقد أُحضر عرش بلقيس في طرفة عين لنبي الله سليمان عليه السّلام وهو يقتضي أنّه أزيل من مكانه حتّى أُحضر إليه وما ذاك في قدرة الله بعزيز[3]].

(٣) جبريل يؤمُّ النبي ﷺ في الصّلاة عند الكعبة

لمّا كان جبريل عليه السّلام هو أمين الوحي المنزّل، فقد شاء الخالق سبحانه أن ترتبط الأرض بالسّماء ارتباط العمل والتّكليف عندما صلّى بالنّبي ﷺ عند البيت مرّتين لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «أَمَّنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عِنْدَ الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ، فَصَلَّى بِيَ الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ» إلى قوله «ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ يَامُحَمَّدُ: هَذَا وَقْتُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ[4]». وقوله «مَرَّتَيْنِ» أي صلّى بي إماما عند الكعبة مرّتين في يومين متتاليين.

وجاء قوله ﷺ في رواية أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه عند مسلم «نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي بِوَقْتِ الصَّلاَةِ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ. قَالَ: يَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ[5]». كما جاء حديث جابر رضي الله عنه عند النّسائي بلفظ «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُ مَوَاقِيتَ الصَّلاَةِ، فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ[6]».

وذكر ابن إسحاق في المغازي أنّ ذلك كان صبيحة اللّيلة التي فُرضت فيها الصّلاة وهي ليلة الإسراء لما روى عن نافع بن جبير وغيره «لَمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلَةِ

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٢].

(٢) حدي صحيح أخرجه أحمد [١٤٩٧٤] والتّرمذي [٣١٣٣].

(٣) انظر تحفة الأحوذي [ج ٨ ص ١٠٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٩٣] والتّرمذي [١٤٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦١٠] وأبو داود [٣٩٤] وابن ماجه [٥٤٨].

(٦) حديث صحيح أخرجه النّسائي [٥١٢].

الَّتِي أُسْرِيَ بِهِ فِيهَا لَمْ يَرُعْهُ إِلاَّ جِبْرِيلُ نَزَلَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَأَمَرَ فَصِيحَ بِأَصْحَابِهِ الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعُوا، فَصَلَّى جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّاسِ وَطَوَّلَ الرَّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ ثُمَّ قَصَّرَ الْبَاقِيَتَيْنِ[1]». ويؤيّده ما ورد في رواية عبد الرّزاق عن معمر قال «نَزَلَ فَصَلَّى، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّى النَّاسُ مَعَهُ».

وذكر ابن أبي خيثمة عن الحسن «أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عِنْدَ صَلاَةِ الظُّهْرِ، نُودِيَ أَنِ الصَّلاَةَ جَامِعَةٌ، فَفَزِعَ النَّاسُ فَاجْتَمَعُوا إِلَى نَبِيِّهِمْ ﷺ فَصَلَّى بِهِمُ الظُّهْرَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، يَؤُمُّ جِبْرِيلُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَيَؤُمُّ مُحَمَّدٌ ﷺ النَّاسَ لاَ يُسْمِعُهُمْ فِيهِنَّ قِرَاءَةً[2]».

(قال) عياض [ظاهره أنّ صلاته ﷺ كانت بعد فراغ صلاة جبريل لكنّ المنصوص في غيره أنّ جبريل أمّ النّبي ﷺ فيُحمل قوله عند البخاري «ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللَّه ﷺ[3]». على أنّ جبريل كان كُلَّمَا فعل جزءا من الصّلاة تابعه النّبي ﷺ بفعله وبهذا جزم النّووي[4]].

والأظهر [أنّ إمامة جبريل عليه السّلام لم تكن على الحقيقة، بل على النّسبة المجازيّة من دلالته بالإيماء والإشارة إلى كيفيّة أداء الأركان والفروض كما يقع لبعض المعلّمين عندما يُعلّمون غيرهم بالإشارة البيانيّة والقوليّة[5]]. وابتداء جبريل عليه السّلام الصّلاة بالظّهر رغم أنّ فرض الصّلاة على الأمّة كان ليلا، فقياسه أنّ أوّل صلاة تؤدّى هي الصّبح لا الظّهر، إلاّ أنّ حكمة قوله «فَصَلَّى بِيَ الظُّهْرَ» تؤكّد على المعاني التّالية:

(١) أنّ صلاة الظّهر كانت الفريضة المختارة التي وقع فيها ابتداء بيان جبريل لأركان الصّلاة وفروضها حتّى لا تحول ظلمة آخر اللّيل في وقت الصّبح بين ظهور الكيفيّة ووضوح التّكليف.

(٢) أنّ في مسمّى الظّهر إشارة إلى أنّ دينه ﷺ سيظهر على الأديان كلّها ظهور هذه الفريضة في وضح النّهار، وذلك لابتداء وقتها عند انتصافه وظهور الشّمس جليّة مستنيرة في كبد السّماء، وفي القاموس [ظَهَرَ] الشَّيْءُ ظُهُورًا: تَبَيَّنَ وَظَهَرَ بعد خفاء، وأَظْهَرَ الشَّيْءَ: بَيَّنَهُ ومنه قول الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصّف: ٩]. ومن الإظهار ألاّ يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزّمان.

(١) انظر المنهل العذب المورود [ج ٣ ص ٢٨٣].
(٢) انظر المصدر السّابق [ج ٣ ص ٢٨٤].
(٣) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٢١].
(٤) انظر فتح الباري [ج ١ ص ٧].
(٥) انظر المنهل العذب المورود [ج ٣ ص ٢٨٣].

والصّلاة من أوّل ما افترض الله تعالى من الإسلام ليلة المعراج، ومن أكثر الفروض ذكراً فى كتابه تعالى، ومن أوّل ما يُحَاسَبُ عليه من العمل يوم القيامة، ومن آخر ما يُفقد من الدّين، فإن ضيّعها المرء ضاع دينه كلّه لما رواه الشّيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ(١)».

وبذلك كانت الصّلاة الرُّكن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم بحال، ولا يتطرّق إلى فرضيتها تهاون أو اختلال، باعتبارها ركن الإسلام وعماده، ودليل الإيمان وشعاره، حتّى صارت من أعظم فروض العبادات شأناً، وأوضحها برهاناً، وأشهرها فى النّاس بياناً، ولذلك تأتى إمامة جبريل للنّبى ﷺ فى الصّلاة عند الكعبة لتشير إلى تلك المعانى الخالدة التى ربطت الأرض «بمنهجيّة السّماء» والتى كان من أهمّ دلالاتها:

(١) هذا التّطبيق الفورى لما افترضه الخالق سبحانه ليلة المعراج دون ما فاصل فى التّوقيت الزّمنى لتلقى الأمر الإلهى بفرض الصّلاة إيذاناً ببدء مرحلة جديدة لا يكون السّجود فيها إلاّ لله جلّ ثناؤه.

(٢) تأكيد الإمامة العظمى لنبى هذه الأمّة ﷺ غداة صلاته إماماً بالأنبياء والرُّسل والإشارة إلى أنّ البيت الحرام هو قبلة المسلمين وكعبتهم التى ارتضاها الخالق جلّ وعلا لهم إلى يوم الحساب.

(٣) كما دلّ على عظيم الاهتمام بفريضة الصّلاة ورفيع قدرها لنزول جبريل عليه السّلام ببيان كيفيّتها، وتحديد أوقاتها وفعله ذلك مرّتين فى يومين مُتتاليين.

(٤) جبريل يدارس نبيّنا ﷺ القرآن

وتبلغ رابطة الوحى بنبيّنا الكريم ﷺ مبلغها عندما أبطأ جبريل فى النّزول عليه، فشَقَّ على رسول الله ﷺ أن يطول غياب الوحى عنه هذه الفترة فقال لجبريل «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تعالى ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤](٢)». أى أنّ ما أمامنا وما خلفنا من الأزمنة والأمكنة، إنّما هى لله تعالى، فلا ننتقل من شىء إلى شىء فيها إلاّ بأمره سبحانه وتقديره ومشيئته.

وتأكيداً لهذه الرّابطة فقد كان جبريل يدارس النّبى ﷺ القرآن كلّ ليلة فى رمضان

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨] ومسلم [١٦] والتّرمذى [٢٦٠٩] والنّسائى [٥٠١٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢١٨] والتّرمذى [٣١٥٨].

لحديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ[1]». وفيه شبه جوده ﷺ بالرّيح المرسلة بل جعله أبلغ في ذلك منها.

وجاء الحديث عند النّسائى بلفظ «وَكَانَ يَلْقَاهُ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ[2]». ويدلّ ظاهره على أنّ كلاًّ منهما كان يقرأ على الآخر، وهى موافقة لقول أبى هريرة «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ». فيتطلّب ذلك زمانا زائدا على ما لو قرأ الواحد، وقوله «يُعَارِضُهُ» و«يَعْرِضُ عَلَيْهِ» و«عَارَضَهُ» كلّها بمعنى واحد أى يستعرض ما أقرأه إيّاه.

(قال) فى الفتح [الحكمة فى قوله «فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ»: أنّ مدارسة القرآن تجدّد له العهد بمزيد غنى النّفس، والغنى سبب الجود، والجود فى الشّرع إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى، وهو أعمّ من الصّدقة ومن ذلك قوله ﷺ «كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»، وأيضا فرمضان موسم للخيرات لأنّ نعم الله تعالى على عباده زائدة فيه على غيره، فكان رسول الله ﷺ يؤثر متابعة سنّة الله فى عباده، فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزّل به والنّازل والمذاكرة حصل المزيد من الجود[3]].

ويستفاد من الحديث :

(١) تعظيم شهر رمضان لاختصاصه بابتداء نزول القرآن فيه ثمّ معارضة النّبى ﷺ لما نزل منه فيه، ويلزم من ذلك كثرة نزول جبريل فيه، وفى كثرة نزوله من توارد الخيرات والبركات مالا يُحصى ولا يُعدّ.

(٢) ويُستفاد منه أنّ فضل الزّمان إنّما يحصل بزيادة العبادة والطّاعة فيه.

(٣) أنّ مداومة التّلاوة تُوجب زيادة الخير واستحباب تكثير العبادة لحديث أبى هريرة رضي الله عنه «فَعُرِضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِى الْعَامِ الَّذِى قُبِضَ فِيهِ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ فِى كُلِّ عَامٍ عَشْرًا فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِى الْعَامِ الَّذِى قُبِضَ فِيهِ[4]».

(٤) وفيه أنّ ليل رمضان أفضل من نهاره لقول ابن عبّاس رضي الله عنهما «كَانَ يَلْقَاهُ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ فِى شَهْرِ رَمَضَانَ». [وأنّ المقصود من التّلاوة الحضور والفهم لأنّ اللّيل مظنّة ذلك لما فى النّهار من الشّواغل والعوارض الدّنيوية والدّينية[5]].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٩٩٧] ومسلم [٢٣٠٨].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٢٠] والنّسائى [٢٠٩٤].
(٣) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٤١].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٩٩٨].
(٥) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٦٦١].

(٥) حبّ جبريل للمؤمنين

وكما أخبر رسول الله ﷺ فإنّ حبّ جبريل للمُؤمنين يحقّق لهم محبّة الله تعالى كما يحقّق لهم القبول في الأرض وهو ما يقرّره قوله ﷺ «إذَا أَحَبَّ اللَّهُ لِعَبْدٍ نَادَى جِبْرِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُحبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِى جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ(١)».

ويأتى نداء جبريل تنويها بدرجة العبد عند الله تعالى وتشريفا له فى الملأ الأعلى، وليحصل له من المنزلة المنيفة على الحظّ العظيم بمحبّة الله تعالى له ودوام فضله إليه، وهذا نحو قوله تعالى فى الحديث القدسى «وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».
ويترتّب على ذلك:

(١) تحقيق محبّة جبريل عليه السّلام للعبد فى قوله «فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ». باستغفاره له وثنائه عليه ودعائه له.

(٢) تحقيق محبّة أهل السّماء للعبد فى قوله «فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ». بإرادتهم خير الدّارين له وميل قلوبهم إليه لكونه مُطيعا لله تعالى مُحبّا له سبحانه وإرادتهم دفع الشّر عنه ما أمكن.

(٣) محبّة العباد له وميلهم إليه والرّضا عنه واستطابة ذكره فى حال غيبته [(٢)]

ولا يكون دعاء جبريل للعاصى إلاّ بالبغض فتمقته الخلائق لمعصيته كما فى قول النّبى ﷺ عند مسلم «وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الأَرْضِ(٣)».

وقوله «أَبْغَضَ» من بَغَضَ الشَّىْءَ بُغْضًا: مَقَتَهُ وكَرِهَهُ، فهو بَاغِضٌ وبَغُوضٌ، والبغضاء شدّة الكراهية ومنه قول الله تعالى ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[آل عمران: ١١٨]. وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾[المائدة: ٩١].
والمراد من البغض المسند إلى الله تعالى غايته من إرادة الخذلان والإعراض وهو الإبعاد عن الرّحمة، أمّا الإبغاض بالنّسبة إلى جبريل وإلى الملائكة فهو محتمل للحقيقة أى الكراهية القلبية والنّفرة النّفسية، وللمعنى المجازى أى دعاؤهم عليه بالطّرد وأنواع المقت.

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [٧٦١٤] والبخارى [٣٢٠٩] ومسلم [٢٦٣٧].
(٢) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٦٦١].
(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٣٧].

(٦) ميكائيل عليه السّلام

هو الْمَلَكُ الموكّل بالْقَطْرِ والنّبات وذو المكانة العالية من ربّه تعالى ومن أشراف الملائكة المقرّبين، وفي قوله تعالى ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ : قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم «ميكَالَ» بوزن قنطارٍ وقرأ الباقون «ميكَائيل» على وزن ميفاعيل، وهو اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف، وقد روى عن أنس رضي الله عنه «أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لجِبْرِيلَ مَا لِي لَمْ أَرَ ميكَائيلَ ضَاحِكًا قطُّ ؟ قَالَ مَا ضَحِكَ مُنْذُ خُلِقَت النَّارُ[١]». وذلك للدّلالة على هول ما تحتويه جهنّم من العذاب المهين.

ومن المرويّ عن ميكائيل عليه السّلام أنّه كان رفيقا لجبريل في حراستهما لرسول الله ﷺ والذّود عنه يوم أُحُد لما رواه الشّيخان عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال «لَقَدْ رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُد عَنْ يَمين رَسُول الله ﷺ وَعَنْ يَسَارِه رَجُلَيْن عَلَيْهِمَا ثيَابٌ بِيضٌ يُقَاتِلاَن عَنْهُ كَأشَدِّ الْقتَال، مَا رَأيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ[٢]». وفي رواية «رأَيْتُ عَنْ يَمين رَسُول الله ﷺ وَعَنْ شِمَاله يَوْمَ أُحُد رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ، يَعْني جبْرِيلَ وَمِيكَائيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ».

(٧) إسرافيل عليه السّلام

هو أحد حملة العرش وصاحب الصُّور الذى ينفخ فيه بأمر الله النّفخة الأُولى، فيهلك من في السّموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله استثناءهم من الموت بهذه النّفخة، ثمّ ينفخ فيه الثّانية للبعث إلى الحياة بعد الموت، والصُّور قرن ينفخ فيه، كلّ دارة منه كما بين السّماء والأرض، وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنّفخ للبعث ولهذا قال النّبى ﷺ «كَيْفَ أنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قد الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ، قَالُوا كَيْفَ نَقُولُ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنعْمَ الْوَكيلُ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا[٣]».

ولمّا سأل الرّجلُ رسولَ الله ﷺ «ما الصُّورُ ؟ قَالَ قَرْنٌ يُنْفَخُ به[٤]». وجاء عند أبي داود بلفظ «الصُّور قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيه». بصيغة المجهول أى ينفخ فيه إسرافيل النّفختين، وقيل يُراد بالصُّور صُور الموتى ينفخ فيها الأرواح، وحُكى عن السُّهيلى [أنّ إسرافيل أوّل من سجد من الملائكة فجُوزى بولاية اللّوح المحفوظ[٥]]. وجاء عند أحمد من حديث ابن

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٣٢٧٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٠٥٤] ومسلم [٢٣٠٦].

(٣) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢٤٣١] وأحمد [١٠٩٨٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٢٤٤] وأبو داود [٤٧٤٢].

(٥) انظر البداية والنّهاية لابن كثير [ج ١ ص ٤٦].

عبّاس رضي الله عنهما «أَنَّهُ الَّذى نزَلَ عَلَى النَّبىِّ ﷺ فَخَيَّرهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبيًّا عَبْداً أَوْ نَبيًّا مَلكًا ! فَأَشَارَ إِلَيْهِ جبْريلُ أَنْ تَوَاضَعْ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبيًّا عَبْداً[1]».

وفى تفسير قول الله تعالى ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[ق: ٤١]. (قال) الزّمخشرىّ [المنادى إسرافيل]، وقال قتادة [إسْرَافيلُ صَاحِبُ الصُّور]. وفى قوله تعالى ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. أى يشهد عملَ الأبرار مقرّبو كلّ سماء من الملائكة.

(وعن) وهب وابن إسحاق [المقرّبون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صَعدَت الملائكة «بالصّحيفة» وله نور فى السّموات كنور الشّمس حتّى يُنتهى بها إلي إسرافيل عليه السّلام فيختم عليها ويكتب فهذا قوله تعالى ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطفّفين: ٢١]. أى يشهد كتابتهم[2]].

تفسير العلماء لمسمّى الملائكة الثّلاثة {جبريل و ميكائيل وإسرافيل}:

جاء فى حديث أبى عبيد عن النّبى ﷺ «إِنَّمَا هُوَ جَبْرَئيلُ وميكَائيلُ كَقَوْلكَ: عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ[3]». ويتأيّد هذا بما جاء فى كتاب التّفسير عند البخارى عن عكرمة قال: «جَبْر وَميكَ وَسَرَاف: عَبْدٌ. وَإِيلْ: اللهُ[4]». وذُكر عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وجماعة من أهل العلم أنّ جَبْرَ، وميكَا، وإسْرَافَ هى كلّها بالأعجمية بمعنى [عَبْدٌ أَوْ مَمْلُوكٌ]. وفى القاموس [«إيلُ»: إسمٌ من أسماء الله تعالى عِبْرَانِىٌّ أَوْ سُرْيَانِىٌّ، وَقَوْلُهُمْ: جبْرَئيلُ وميكَائيلُ كقولهم عَبْدُ الله وتَيْمُ الله[5]].

(وقال) الماوردى [إنّ جبريل وميكائيل اسمان أحدهما «عَبْدُ الله» والآخر: «عُبَيْدُ الله» لأنّ «إِيلَ» هو اللهُ تعالَى. و«جَبْرُ» هو عَبْدٌ و«ميكَا» هو عُبَيْدٌ، فكان جبريلُ عَبْدَ الله وميكائيلُ عُبَيْدَ الله، وكلّ شىء رجع إلى إيل فهو مُعَبَّدٌ لله عزّ وجلّ[6]]. وعند الأصمعى [يعنى «إيل» معنى الرّبوبية ثم أُضيف «جبر» و«ميكا» إليه]. و(قال) أبو عبيد [فكأنّ معناه عَبْدُ إيلَ، ورَجُلُ إيلَ مُضَافٌ إليه، فهذا تأويلُ قوله: عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَبْدُ الله[7]].

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧١٦٠].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٩ ص ٢٦٤].

(٣) أخرجه أبوعبيد فى غريب الحديث [٣٨٨ / ٣].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ١٥].

(٥) انظر مختار الصّحاح [ص ١٤].

(٦) الأثر صحيح وأخرجه ابن جرير فى تفسيره [١ / ٤٣٧].

(٧) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ٨٣].

وعن مجاهد في معنى «الإلّ» في قول الله تعالى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]. قال «اللهُ تعالى». ويُروى عن ابن إسحاق أنّ وفد «بني حنيفة» لمّا قدموا على «أبي بكرٍ» بعد مقتلِ «مسيلمة». ذكر لهم «أبو بكرٍ» قراءة مسيلمة فقال «إنّ هذا الكلام لم يخرجْ من «إلّ»». (قال) أبو عبيد: كأنّه يعني «الرّبوبيّة». «فالإلّ» ثلاثة أشياء: اللهُ جلّ ثناؤه والعهدُ والقرابة(١)].

(رابعا) ملك الموت

لم يُصرّح في الكتاب باسم ملك الموت ولا في الأحاديث الصّحاح فجاء تعريفه مجردا في قوله [مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ]. وقد وردت تسميته في بعض الآثار [بعزرائيل] وهو الذي يتولّى قبض الأرواح بعد استيفاء أجلها المقدّر لها في الحياة الدّنيا واستلالها من الأجسام وإخراجها من النّفس وتصرّفه كلّه بأمر الله وبخلقه وإبداعه لقوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السّجدة: ١١]. أي يقوم بقبض الأرواح وهي وكالة مأخوذة من لفظه لا من معناه.

ويعاون ملَك الموت في معالجة الرّوح وإخراجها هؤلاء الجندالكرام من الملائكة الذين سخرّهم الله لمعاونته والعمل بإمرته كما في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢]. وقوله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. والمراد بهم الأعوان الذين يستلّون الرّوح من صاحبها فلا يقصّرون ولا يتوانون لكونهم ﴿ لَا يُفَرِّطُونَ﴾: أي لا يتجاوزون الحدّ فيما أُمروا به من الإكرام أو الإهانة.

والله سبحانه قسّم ملائكة الموت في قوله تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النّازعات: ١ - ٢]. إلى قسمين:

الأول - {النّازعات}

وهي الملائكة التي تنزع أرواحِ الكافرين بشدّة وعنف من تحت كلّ شعرة في الجسد وكلّ ظفر كالسّفّود(٢) يُنْزَعُ من الصّوف الرّطب، ثمّ يُرجعونها في أجسادهم ثمّ ينزعونها مرّة أخرى، فهذا عملهم بالكافرين حتّى يرى الواحدُ منهم نفسه في وقت النّزع كأنّها «تغرق». وهو مأخوذ من قولهم: نزع في القوس فأغرق. يقال: أغرق النّازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتّى ينتهي إلى النّصل، فيكون تقدير الآية الكريمة: والنّازعات إغراقا، والغرق والإغراق في اللّغة بمعنى واحد ويراد به المبالغة في النّزع.

(١) انظرغريب الحديث [ج ٣ ص ٨٥].

(٢) السّفّود عود من حديد يُنْظَمُ فيه اللّحْمُ لِيُشْوَى.

فإذا ما احتضرت نفسُ الكافر قيل لها «اخْرُجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ، اخْرُجي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيُقَالُ فُلاَنٌ، فَيُقَالُ: لاَ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لاَ تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ[١]».

الثاني - {النّاشطات}

وهي الملائكة التي تَنْشَطُ نفس المؤمن فتقبضها كما يُنْشَطُ العقَالُ من البعير إذا حُلَّ عنه، وسُمِّيت بذلك لذهابها ومجيئها بأمر الله تعالى حيثما كانَ، والنّشْطُ هو الجذب، يقال [نَشَطْتُ الدّلْوَ أَنْشطُهَا وأَنْشَطْتُهَا نَشْطًا] أى نَزَعْتُهَا برفق، فالملائكة تنشط أرواح المؤمنين كما تنشط الدّلو من البئر.

وإنّما خصّ المؤمن بالنّشط والكافر بالنّزع لما بين النّشط والنّزع من الفرق، [فَالنَّزْعُ]: جذب بشدَّة وهوْل. و[والنَّشْطُ]: جَذْبٌ بلين ورفق، ونُقل عن على وابن عبّاس ومسروق أنّ الملائكة يَسُلُّونَ أرواحَ المؤمنين سَلاًّ رفيقا فهذا هو المراد من قول الله تعالى فى الآية الكريمة ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾.

ثمّ يتركونها حتّى تستريح رويدا ثمّ يستخرجونها برفق ولطافة، وهكذا يرفقون فى ذلك الاستخراج لئلاّ يصل إليه ألم وشدّة، فيأتون المسلم بيضَ الوجوه بيضَ الثّياب ومعهم حريرة بيضاء فتنزع نفسه برفق ولين، فيقبضها الملَك ويخاطبها، والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثمّ تخرج ولها نور مثل شعاع الشّمس ورائحة أطيب من رائحة المسك، والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمّونه، والملائكة تقول «اخْرُجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِى بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ فُلاَنٌ، فَيُقَالُ مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ[٢]».

والمؤمن إذا حَضَرَهُ الموت بُشّرَ برضوان من الله تعالى وكرامته فليس شىء أحبّ إليه ممّا أمامه فأحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه، وإنّ الكافر إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشّرَ بعذاب الله تعالى وعقوبته، فليس شىء أكره إليه ممّا أمامه فَكَرِهَ لقاء الله وكره الله لقاءه لقول النّبى ﷺ من حديث عائشة فى الصّحيحين «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، فَقُلْتُ: يَانَبِيَّ اللهِ! أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: لَيْسَ

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٥٦] والتّعليق الرّغيب [٤ / ١٨٧].

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٥٦] وأورده فى المشكاة [١٦٢٧].

كَذَلك ولَكنَّ الْمُؤْمن إذَا بُشِّرَ برحْمَة الله ورضْوَانه وجَنّته أَحَبَّ لقَاءَ الله، فَأَحبَّ اللهُ لقَاءَهُ، وإنَّ الْكَافرَ إذَا بُشِّرَ بعَذَاب الله وَسَخطه كَرِهَ لقَاءَ اللهُ وكَرِهَ اللهُ لقَاءَهُ(١)».

وجاء فى رواية النّسائى «ولَكنْ إذَا شَخَصَ الْبَصَرُ وحَشْرَجَ الصَّدْرُ واقْشَعَرَّ الْجلْدُ وتَشَنَّجَت الأَصَابعُ، فَعنْدَ ذَلكَ مَنْ أَحَبَّ لقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لقَاءَهُ(٢)». و[حشرجة الصّدر]: تردّد صوت النَّفَس فيه، وقد قيل:

لعمرك ما يغنى الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصّدر

والتّوفّى فى قوله تعالى﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾. وقوله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مأخوذ من استيفاء العدد، وتُوُفِّىَ الْمَيِّتُ: استوفى عدد أيّام عمره، والوفاة: الموت، وأوفيتك المال وتوفيته واستوفيته: إذا أخذته كلّه.

والتّوفّى فى القرآن:

(١) يُضاف مرّة إلى مَلَك الموت لمباشرته ذلك كما فى قول الله تعالى﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السّجدة:١١].

(٢) وتارّة يُضاف إلى الملائكة لمعاونتهم فى ذلك لقوله تعالى﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[محمّد:٢٧]. وقد جاء فى الحديث «إنَّ لمَلَك الْمَوْت أعْوَانٌ يُقَطِّعُونَ الْعُرُوقَ وَيَجْمَعُونَ الرُّوحَ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يُنْتَهَى بهَا إلَى الْحُلْقُوم فَيَتَوَفَّاهَا مَلَكُ الْمَوْت». وهو معنى قوله تعالى﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة:٨٣].

(٣) وتارّة يضاف إلى الله تعالى على الحقيقة كما فى قوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزّمر:٤٢]. (قال) سعيد بن جبير [إنّ الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى(٣)]. أى يعيدها مرّة أُخرى.

والخلاّق العليم سبحانه يستوفى الآجال للأنفس التى تموت وهو يتوفّاها كذلك فى منامها وإن لم تمت بعد، ولكنّها فى النّوم متوفّاة إلى حين، فالتى حان أجلها يُمسكها فلا تستيقظ، والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو إلى أن يحلّ أجلها المسمّى لها، فالأنفس فى قبضته يمسكها متى شاء ويرسلها كيف شاء كما هى فى صحوها أو نومها [(٤)].

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨٤] وافقه البخارى [٦٥٠٧] والتّرمذى [١٠٦٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨٥] والنّسائى [١٨٣٣].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٥ ص ٢٦٠].

(٤) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٤ ص ٣٠٥٥].

ومن الحكم البالغة أن جعل الخالق جلّ ثناؤه النّوم وفاة والموت وفاة، وفيه قال رسول الله ﷺ «كَمَا تَنَامُونَ فَكَذَلكَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تُوقَظُونَ فَكَذَلكَ تُبْعَثُونَ[1]». ومن المأثور عن عمر رضي الله عنه قوله «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ». وروى مرفوعا عن جابر رضي الله عنه «قيلَ يَارَسُولَ الله أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّة؟ قَالَ لاَ، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَالْجَنَّةُ لاَ مَوْتَ فِيهَا[2]».

والله تعالى يقبض الرّوح فى حالة النّوم وحالة الموت:

(١) فما قبضه فى حال النّوم فإنّما يغمره بما يحبسه عن التّصرّف فكأنّه شىء مقبوض وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. أى يزيل الحابس عنها فتعود كما كانت، فتوفّى الأنفس فى حال النّوم يكون بإزالة الحسّ وخلق الغفلة والآفة فى محلّ الإدراك.

ولا يلزم من قبض الرّوح الموت، فالموت انقطاع تعلّق الرّوح بالبدن ظاهرا وباطنا، والنوم انقطاعه عن ظاهره فقط. وهو المعنى الذى يشير إليه حديث أبى قتادة عن أبيه حين ناموا عن الصّلاة فقال رسول الله ﷺ «إنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حينَ شَاءَ[3]».

(٢) وما قبضه حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة وهو قوله تعالى ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ وتوفّيها [يكون بخلق الموت وإزالة الحسّ بالكلّية، فالإمساك يكون بحرمانها من الإدراك الحسىّ والإرسال بأن يعيد إليها الإحساس[4]].

وفى تفسير الآية قال ابن عبّاس [يقبضها قبضين قبض الموت وقبض النّوم، ثمّ فى النّوم يقبض التى تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتّى يأتى أجلها وقت النّوم].

وهذان الأمران هما اللّذان جمعهما رسول الله ﷺ فى قوله «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّى بكَ وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسى فَاغْفرْ لَهَا، وَإنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بمَا تَحْفَظُ به عبَادَكَ الصَّالحينَ[5]». ومنه قول بلال لمّا ناموا عن الصّلاة «أَخَذَ بنَفْسى الَّذى أَخَذَ بنَفْسكَ يَارَسُولَ الله بأَبى أَنْتَ وَأُمّى[6]». ومُراده أنّ الله تعالى استولى عليه بقدرته كما استولى على نفس نبيّه ﷺ مع عظيم قدره ومنزلته.

---

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٥ ص ٢٦١].

(٢) رواه الطّبرانى فى الأوسط [١ / ٢٨٢] وصحّحه الألبانى فى الصّحيحة [١٠٨٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٤٧١] ومسلم [٦٨١] مطوّلا.

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٥ ص ٢٦١].

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٤] وافقه البخارى [٦٣٢٠] وأبو داود [٥٠٥٠].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٨٠] وأبو داود [٤٣٥] والنّسائى [٦١٩].

والإمساك في الحديث كناية عن [الموت] والرّحمة والمغفرة تناسبه، والإرسال كناية عن [استمرار الحياة]. والبقاء والحفظ يناسبه، (قال) الطّيبي [هذا الحديث موافق لقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾. وكذلك وقع التّصريح بالموت والحياة في قوله ﷺ من رواية ابن عمر «اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَ نَفْسي وَأَنْتَ تَتَوفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا[1]»]. و[اختُلف] هل النّفس والرّوح شيء واحد أم شيئان؟:

(١) فعلى [الأوّل]: تُعرَّفُ النّفس بأنّها جسم لطيف مُشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر على هيئة جسد صاحبها.

(٢) وعلى [الثّاني]: تُعرَّفُ بأنّها جسم لطيف مُودع في الجسم محلا للأخلاق المذمومة كما أنّ الرّوح محل للأخلاق المحمودة [[2]].

ولقد سمَّى نبينا ﷺ المقبوض وقت الموت ووقت النّوم «رُوحًا وَنَفْسًا» كما سمّى المعروج به إلى السّماء «رُوحًا وَنَفْسًا» لقول الملائكة عند قبضها روح المسلم «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ في الْجَسَدِ الطَّيِّبِ[3]». وفي الحديث الصحيح «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ[4]». لكن يُسَمَّى «نَفْسًا» باعتبار تدبيره للبدن ويُسَمَّى «رُوحًا» باعتبار لطفه، فإنّ لفظ «الرّوح» يقتضي اللّطف ولهذا تسمّي الرّيح «رَوْحًا» كما في قوله ﷺ «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ[5]». أي من الرّوح التي خلقها الله تعالى.

وإضافة الرّوح إلى الله تعالى إضافة مِلْك لا إضافة وصف إذ كلّ ما يضاف إلى الله تعالى إن كان عينا قائمة بنفسها فهو مِلْكٌ له كقول الله سبحانه ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ وقوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾. وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محلّ تقوم به فهو صفة لله تعالى كقولنا: [علْمُ اللهِ، وَكَلَامُ اللهِ، وقُدْرَةُ اللهِ، وأَمْرُ اللهِ] لكن قد يعبّر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمّى المعلوم «علْمًا» والمقدور «قُدْرَةً» والمأمور به «أَمْرًا» والمخلوق بالكلمة «كَلمَةً» فيكون ذلك مخلوقا كما في قول الله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. وقول الله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

كما يعبّر بلفظي «الرُّوحِ والنَّفْسِ» عن عدّة معان: فيُراد بالرّوح الهواء الخارج من

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي في عمل اليوم واللّيلة [٧٨٦].

(٢) انظر المنهل العذب المورود [ج ٤ ص ٢٢].

(٣) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٥٦] وأورده في المشكاة [٦١٢٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٢٠) وابن ماجه [١١٩٨] وأبو داود [٣١١٨].

(٥) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٩٧] وابن ماجه [٣٠١٨].

البدن والهواء الدّاخل فيه، ويُراد [بالرّوح] البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه السّارى فى العروق، وهو الذى تُسمّيه الأطبّاءُ [الرّوح الحيوانى]، فهذان المعنيان غير الرّوح التى تفارق بالموت التى هى النّفس.

ويُراد «بنفس الشّيء» ذاته وعينه كما يقال: رأيت زيدا بعينه، وقد قال الله تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾. وفى الحديث الذى جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النّبى ﷺ قال الله تعالى «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بى، وأنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِى، إنْ ذَكَرَنِى فى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فى نَفْسِي[1]». كما يراد بلفظ «النّفس» الدّم الذى يكون فى الحيوان كقول الفقهاء «مَا لَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ وَمَا لَيْسَ لَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ». ومنه يقال نَفِسَتِ المرأةُ إذا «حَاضَتْ» ونُفِسَتْ إذا «نَفِسَهَا» وَلَدُهَا [[2]].

ثمّ يأتى قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠]. ليضيف بُعْداً آخر للعلاقة بين النوم والموت كقوله تعالى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾. أى يُنيمكم فيقبض نفوسكم التى بها تميّزون، وليس ذلك موتا على الحقيقة، بل هو قبض للأرواح عن التّصرّف بالنّوم كما يقبضها بالموت، فالذى ينام كأنّه استوفى حركاته فى اليقظة.

ولذلك قالوا [إنّ الرّوح إذا خرج من البدن فى المنام تبقى فيه الحياة ولهذا تكون فيه الحركة والتّنفّس، فإذا انقضى عمره خرج روحه وانقطعت حياته وصار ميّتا لا يتحرك ولا يتنفّس]. (قال) الزّجاج [النّفْس التى تُفارق الإنسان عند النّوم هى التى للتّمييز، والتى تُفارقه عند الموت هى التى للحياة، وهى التى يزال بزوالها النَّفَس..].

[.. ولمّا كان مَلَكُ الموت يتولّى مهمّته بالوساطة والمباشرة، أُضيف التّوفّى إليه عندما يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها ثمّ يسلّمها إلى ملائكة الرّحمة أو العذاب لما جاء فى الخبر «أنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَيَهِيبُ بالأرْوَاحِ كَمَا يَهِيبُ أحَدُكُمْ بِفُلُوِّهِ أوْ فَصِيلِهِ: ألاَ هَلُمَّ ألاَ هَلُمَّ». أى يصيح بها لتأتى[3]].

وروى أبو الشّيخ عن وهب بن منبّه قال «إنَّ الْمَلائكَةَ الّذِينَ يُقْرَنُونَ بالنَّاسِ هُمُ الّذِين يَتَوَفَّوْنَهُمْ وَيَكْتُبُونَ لَهُمْ آجَالَهُمْ، فَإذَا كَانَ يَوْمُ كَذَا تَوَفَّتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾. فقيل

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٥] وافقه البخارى [٧٤٠٥].

(٢) انظر مجموع الفتاوى [ج ٩ ص ٢٩٣].

(٣) انظر التّذكرة للقرطبى [ج ١ ص ٧٠].

لوهب: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السّجدة:١١]. قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّوْا أَنْفُسًا دَفَعُوهَا إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ وَهُوَ كَالْعَاقِبِ الَّذِى يُؤَدِّى إِلَيْهِ مَنْ تَحْتَهُ[(١)]».

وجاء في الخبر «أَنَّ الْمَيِّتَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مَلَكٌ يَجْذِبُ النَّفْسَ مِنْ قَدَمِهِ الْيُمْنَى، وَمَلَكٌ يَجْذِبُهَا مِنْ قَدَمِهِ الْيُسْرَى، وَمَلَكٌ يَجْذِبُهَا مِنْ يَدِهِ الْيُمْنَى، وَمَلَكٌ يَجْذِبُهَا مِنْ يَدِهِ الْيُسْرَى». فَإِذَا مَا قَبَضَ مَلَكُ الْمَوْتِ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ أَسْلَمَهَا إِلَى مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا أَوْ إِلَى مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ إِنْ كَانَ كَافِرًا[(٢)]». فَمَلَكُ الْمَوْتِ يَقْبِضُ وَالأَعْوَانُ يُعَالِجُونَ وَاللهُ تَعَالَى يُزْهِقُ الرُّوحَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وذكر القرطبي في [التّذكرة] عن سلمان أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «ارْقُبُوا لِلْمَيِّتِ عِنْدَ مَوْتِهِ ثَلَاثًا: إِنْ رَشَحَ جَبِينُهُ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَشَرَ مَنْخَرَاهُ، فَهِيَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ نَزَلَتْ بِهِ، وَإِنْ غَطَّ غَطِيطَ الْبَكْرِ الْمَخْنُوقِ، وَخَمَدَ لَوْنُهُ، وَأَزْبَدَ شِدْقَاهُ، فَهُوَ عَذَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى قَدْ حَلَّ بِهِ[(٣)]». ويتأيد هذا بما رواه ابن ماجه والتّرمذى عن بُريدة أنّ النّبيَّ ﷺ قَالَ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَمُوتُ بِعَرَقِ الْجَبِينِ[(٤)]».

وقالوا إنّ رَشْحَ الجبين من علامات الخير عند الموت وفيه وجهان:

(الأوّل) عندما يشتدّ الموت على المؤمن فإنّ جبينه يعرق تأثّرا من هذه الشّدّة لتمحيص ذنوبه وزيادة درجته.

(الثّاني) أنّ المؤمن إذا جاءته البشرى من الله تعالى عند الموت مع ما كان قد اقترف من الذّنوب والآثام، حصل له بذلك خجل واستحياء من الخالق جلّ وعلا فيعرق لذلك جبينه [[(٥)]].

ومن أبلغ آيات الموت أنّ الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متّصلا بها «غَيْبًا مُغَيَّبًا» وحجبها عن إدراك المكلّفين في هذه الدّار، وذلك من كمال حكمته وليتميّز المؤمنون بالغيب من غيرهم، فأوّل ذلك أنّ الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريبا منه ويشاهدهم عيانًا، ويتحدّثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط[(٦)] إمّا من الجنّة وإمّا من النّار،

---

(١) إسناده صحيح وأورده السّيوطى في شرح الصّدور [ص ٤١] والدّر المنثور [٣/ ٣٢٣].

(٢) إسناده صحيح وأخرجه الطّبرى [٧/ ٢١٧].

(٣) أورده القرطبي في التّذكرة [ص ١٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٩٨٢] والنّسائى [١٨٢٨] وابن ماجه [١١٩٧].

(٥) انظر تحفة الأحوذى [ج ٣ ص ٤١٧ بتصرّف].

(٦) الحنوطُ كلّ ما يُخْلَطُ من الطّيب بأكفان الموتى وأجسامهم خاصّة من مسك وعنبر وكافور.

ويُؤمّنون على دعاء الحاضرين بالخير والشرّ.

ويشير إلى ذلك كلّه قوله ﷺ عن أمّ سلمة «إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوِ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْراً، فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ، قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ! قَالَ قُولِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَى حَسَنَةً[1]».
وفي الحديث النّدب إلى قول الخير من الدّعاء والذّكر والاستغفار للميّت، وطلب اللّطف به والتّخفيف عنه، وتثبيته عند السّؤال ونحوه، وفيه حضور الملائكة وتأمينهم.

وقد يُسَلِّمُ ملائكة الموت على المحتضر ويردّ عليهم تارّة بلفظه وتارّة بإشارته، وتارّة بقلبه حيث لا يتمكّن من نطق ولا إشارة، لما روى عن محمد القرظي قال «إذا استنقعت[2] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَلِيَّ اللهِ، اللهُ يَقْرأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، ثمّ ينزع بهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النّحل: ٣٢]».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال «إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَقْبِضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ قَالَ رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ[3]». أمّا الكفّار فلا بشرى لهم ولا سلام يوم يرون الملائكة وقد نزعوا الأنفس منهم نزعًا لا رحمة فيه ولا هوادة وإنّما هو العذاب المقيت والهول الشّديد ودليل ذلك قول الله تعالى ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٢٢]. أي محجورا عليهم أن يُعاذوا أو يُجاروا.

(خامسا) سؤال الملكين للعبد في القبر

كانت الأمم قبل بعثة النّبي ﷺ تأتيهم رسلهم بالبيّنات فإن أطاعوا فذاك وإن أبَوْا اعتزلوهم وعُجّلَ لهم بالعذاب، فلمّا أرسل الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحقّ وكان رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

وتُقُبِّلَ الإسلامُ ممّن أظهره سواء أَسَرَّ الكفر أم أضْمَرَ النّفاق. فلمّا ماتوا قيّض الله لهم فَتَّانَيِ القبر ليستخرجا سرّهم بالسّؤال، وليميّزا الخبيث من الطّيّب وليثبّت اللهُ الذين آمنوا بالقول الثّابت ويُضلَّ اللهُ الظّالمين.

ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩١٩] وأبو داود [٣١١٥].

(٢) قوله «استنقعت» أي إذا اجتمعت نفس المؤمن تريد الخروج، وأراد بالنّفس الرّوح.

(٣) انظر القرطبي [ج ١٠ ص ١٠٢].

هَذَا الرَّجُلِ؟ لمُحَمَّد ﷺ. فَأَمَّا الْمُؤْمنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِه مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّة، فيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

قَالَ قَتَادَةُ: «وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِه، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟. فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي! كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ[1]».

وجاء عند أبي داود بلفظ «وَيَأْتِيه مَلَكَان فَيُجْلِسَانه فَيَقُولاَن لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولاَن لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلاَمُ، فَيَقُولاَن لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولاَن: وَمَا يُدْرِيكَ؟ يَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِه وَصَدَّقْتُ[2]».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْه مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة فَالْجَنَّةُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَالنَّارُ، ثُمَّ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِى تُبْعَثُ إِلَيْه يَوْمَ الْقِيَامَة[3]».

وروى البخارى عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِى قَبْرِه أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وزاد شعبة «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ[4]».

[قال] الكرمانى [ليس فى الآية ذكر عذاب القبر، فلعلّه سمّى أحوال العبد فى قبره «بعَذَابِ الْقَبْرِ» تغليبا لفتنة الكافر على فتنة المؤمن لأجل التّخويف، ولأنّ القبر مقام الهول والوحشة، ولأنّ ملاقاة الملائكة ممّا يَهَاب منه ابن آدم فى العادة[5]].

ويأتى قوله ﷺ من رواية التّرمذى ليقف بنا أمام [وصف ومسمّى] الملَكين الْمُكَلَّفَيْنِ بالسُّؤال فى القبر «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ ـ أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ ـ أَتَاهُ مَلَكَان أَسْوَدَان أَزْرَقَان، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَالآخَرُ النَّكِيرُ فَيَقُولاَن مَا كُنْتَ تَقُولُ فِى هَذَا الرَّجُلِ؟[6]». فجاء اسم الأوّل على وزن [مفعول] من أنكر بمعنى نكر إذا لم يعرف أحدًا، والآخر على وزن فعيل بمعنى

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٤] ومسلم [٢٨٧٠].
(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٧٥٣] والنّسائى [٢٠٥٨].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٩] ومسلم [٢٨٦٦].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٦٩] ومسلم [٢٨٧١] وابن ماجه [٣٤٦٣].
(٥) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٧٧].
(٦) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [١٠٧١] وانفرد به دون السّتة.

[مفعول] من نكر بالكسر إذا لم يعرفه أحد، وكلاهما ضدّ المعروف فَسُمِّيَا بهما لأنّ الميّت لم يعرفهما ولم ير صورة مثل صورتيهما [كذا في المرقاة]. وهو ما أشار إليه الحافظ في الفتح قال: إنّ اسم اللَّذَيْنِ يَسْألانِ المذنبَ : [مُنْكَرٌ ونَكِيرٌ] وأنّ اسم اللّذين يسألان المطيع : [مُبَشِّرٌ وبَشِيرٌ[1]].

كما سُمِّيَ الملَكان [بفتّانَي القبر] لما في سُؤالهما من انْتِهَارٍ مُرِيعٍ، وما في خَلْقِهِمَا من هَوْلٍ رهيب، فخَلْقُهُمَا لا يشبه خَلْقَ الآدميين ولا الملائكة ولا خَلْقًا آخر، بل هما في خَلْقٍ مغاير يكون [للمُؤمن] تثبيتًا ونصرةً و[للكافر] تعذيبًا ونقمة، وهتكا لستر [المنافق] في البرزخ من قبل أن يُبعث حتّى يحلّ عليه العذاب الأليم.

واختلف العلماء بحسب اختلاف الرّوايات في سُؤال الكافر في قبره على قولين:

(الأوّل) أنّ الكافر لا يُسْأَلُ ومستند من قال بذلك ما رواه عبدالرّزّاق عن عبيد ابن عمير قال «إِنَّمَا يُفْتَنُ رَجُلاَنِ مُؤْمِنٌ وَمُنَافِقٌ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَلاَ يُسْأَلُ عَنْ مُحَمَّدٍ وَلاَ يَعْرِفُهُ». (قال) في الفتح :[وهذا موقوف. وقال ابن عبد البرّ: والآثار تدلّ على أنّ الفتنة في القبر لا تكون إلاّ لمؤمن أو منافق كان منسوبا إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشّهادة، وأمّا الكافر الجاحد المبطل فليس ممّن يُسأل عن ربّه ودينه ونبيّه، وإنّما يُسأل عن هذا أهل الإسلام[2]]. ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من حديث زيد رضي الله عنه مرفوعا «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا[3] ». ومثله عند أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه «يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا[4] ». وقوله ﷺ من حديث عائشة «فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ فَبِي تُفْتَنُونَ وَعَنِّي تُسْأَلُونَ[5]».

(الثّاني) أنّ الكافر يُسأل كما يُسأل المسلم والأدلّة الصّحيحة الصّريحة على ذلك أكثر من أن تُذكر. (قال) ابن القيّم في «كتاب الرّوح» [في القرآن والسّنّة دليل على أنّ السّؤال للكافر والمسلم كما في قول الله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧]. وقد ثبت أنّها نزلت في عذاب القبر حين يُسأل «مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟»[6]].

ولـمّا عُلم أنّ هذه الآية نزلت في عذاب القبر كان موقف الكافر فيه عكس موقف

(١) انظر تحفة الأحوذي [ج ٣ ص ٥٢١] وفتح الباري [ج ٣ ص ٢٨٠].
(٢) انظر فتح الباري [ج ٣ ص ٢٧٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٦٧] ولا يوجد عند غيره من الجماعة.
(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٠٩٤٢] وابن حبّان [٧٨٥].
(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٩٧٠].
(٦) انظر كتاب الرّوح لابن القيّم [ص ٨٤].

المسلم في التثبيت كما في حديث أنس عند البخارى «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟[1]». بواو العطف. ومثله في حديث أنس عند أبى داود «وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ[2]».

وفى الكتاب العزيز الدّلالة على أنّ الكافر يُسأل فى قبره عن دينه كما فى قول الله تعالى ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٦]. فإذا سُئلوا يوم القيامة فكيف لا يُسألون فى قبورهم قبل الحساب.

وممّا جاء فى الصّحيح الذى يؤكّد أنّ المرابط فى سبيل الله يُؤَمَّنُ من فتّان القبر ما رُوى من قوله ﷺ عن فضالة بن عبيد «كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الْمُرَابِط، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ[3]». (قال) العلقمى [يُحتمل أن يكون المراد أنّ الملكين لا يجيئان إليه ولا يختبرانه بل يكفى موته مرابطا فى سبيل الله شاهدا على صحّة إيمانه، ويحتمل أنّهما يجيئان إليه لكن لا يضرّانه ولا يحصل بسبب مجيئهما فتنة[4]].

(سادسا) ملائكة الجنّة

هم الموكّلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضّيافة لساكنيها، وغير ذلك ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا تخلو وظيفة الملائكة فيها من إكرام المؤمنين وتنعيمهم عندما يدخلون عليهم بالإتحاف من عند ربّهم عطاءً غير مجذوذ بما صبروا عن فُضول الدّنيا، ومُلازمة فروض الطّاعة، ومُفارقة المعاصى والذّنوب كما جاء فى قول الله تعالى ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرّعد: ٢٣ - ٢٤].

إنّ الآية الكريمة لتُعبّر عن جو الاحتفاء والتّلاقى الذى يشترك فيه ملائكة الرّحمن بالتّأهيل والتّكريم فى حركة رائحة غادية عبّرت عنها بمدلول الفرحة والابتهاج بقوله تعالى ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾. ثمّ يقف بنا سياقها أمام هذا المشهد البديع الرّائع كى يبقى حاضرا فى مشاعرنا وحتّى نسمع الملائكة أطوافا يقولون ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. فهو لقاء حافل مُفعم بالتّرحاب شعاره السّلام وتحيته السّلام هكذا جاء فى القرآن:

* ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٢٧].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٧٥١] ولم يخرجه غيره.

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٥٠٠] والترمذى [١٦٢١].

(٤) انظر سُنن أبى داود [ج ٣ ص ١٠٨٢].

* ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].
* ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

ويتبيّن من قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. أنّ خزنة الجنّة يذكرون لأهل الثّواب كلمات ثلاث:

(أولها) قولهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: وفيه البشارة بالسّلامة من الآفات والمحن بما صبروا فى الحياة الدّنيا على أمر الله تعالى ونهيه.

(وثانيها) قولهم ﴿طِبْتُمْ﴾: وفيه الإشارة إلى تطهّرهم من دنس الخطايا وآثامها والمعاصى وأوزارها بعدما طُيِّبوا منها بعفو الله تعالى وكرمه ومغفرته ورحمته.

(وثالثها) قولهم ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: وفيه التّعبير عن الثّناء الطّيب فى محل التّكريم وهو الخلود فى نعيم الجنّة ورغدها.

وروى أحمد عن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ قال «هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، قال فَتَأْتِيهِمُ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: ٢٤][1]». إنّه التّكريم الذى يحظى به المؤمنون فى موقف العزّة والمباهاة والإكرام يوم القيامة عندما يدخلونها بغير سابقة حساب ولا عاقبة عذاب.

(سابعا) ملائكة النّار

خطورة النّار يوم القيامة أنّها لا تُسَعَّرُ إلاّ بالنّاس والحجارة، فالنّاس فيها كالحجارة سواء كان ذلك فى مهانتها أو رخصها أو الإلقاء بها دون اعتبار ولا عناية، وما أفظعها من نار تلك التى تُوقد بالحجارة، وما أشدّه من عذاب هذا الذى يجمع إلى شدّة اللّذع والدّمدمة مشاعر المهانة والحقارة والذّل والانكسار، فكلّ ما بها وما يلابسها فظيع فى صولته رهيب فى وقعه وأذاه.

وطبيعة ملائكة النّار وزبانيتها تتناسب مع طبيعة العذاب الذى هم به موكّلون، فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، وكذلك القدرة على النّهوض بما يأمرهم به سبحانه فهم: ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: ٦]. إنّهم بغلظتهم وشدّتهم مُوكّلون بهذه النّار الشّديدة الغليظة ولذلك كان رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٥٧٠] وذكره الهيثمى فى مجمع الزّوائد [١٠ / ٢٥٩].

يستعيذ بربّه تعالى من فتنة النّار وعذاب النّار بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ[1]».

ويأتي في مقدمة الموكّلين بالنّار وعذابها:

١ ـ خزنة جهنّم

وخزنة جهنّم من الملائكة تسعة عشر وقد أخبر القرآن بذلك كما في قوله جلّ شأنه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر: ٤٩]. وقوله تعالى﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾[الزمر: ٧١]. وقوله تعالى﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾[الملك: ٨].

أمّا عددهم فقد جاء مُصرّحا به في قول الله تعالى ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدّثر: ٣٠]. وهؤلاء التّسعة عشر هم الرّؤساء والنّقباء أمّا جملتهم فالعبارة تعجز عن تحديدها كما في قوله تعالى﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدّثر: ٣١]. أى وما يدرى عدد ملائكة ربّك الذين خلقهم لتعذيب أهل النّار [إلاّ هُو] أى إلاّ الله تعالى وهذا جواب لأبى جهل الملعون حين قال [أمَا لمحمّد من الجنود إلاّ تسعة عشر!].

وعندما تكشف الآيات عن حكمة الله البالغة في بيان هذا الجانب من الغيب بقوله تعالى﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدّثر: ٣٠]. فإنّ المؤمنين قد تلقّوا هذه الكلمات بالتّسليم اللائق بمن وثق بربّه تعالى، وتأدّب معه أدب من لا يتمارى في خبره وقوله، بعكس هؤلاء الكافرين الذين تلقّوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان عارية من التّوقير للعليّ الأعلى سبحانه، خالية من الجدّ في تلقّى هذا الأمر العظيم، وراحوا يتهكّمون عليه ويسخرون منه ويتّخذونه موضعا للتّندّر والمزاح.

فعن ابن عبّاس وقتادة لمّا نزل قول الله تعالى﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾. قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمّهاتكم!. أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أنّ خزنة جهنّم تسعة عشر؟ وأنتم الدُّهْمُ[2] والشّجعان فيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ [قال] السُّدّيُّ [فقال الأسود الجمحى: لا يهولنّكم التّسعة عشر! أنا أدْفَعُ بمنكبى الأيمن عشرة من الملائكة وبمنكبى الأيسر التّسعة ثمّ تمرّون إلى الجنّة، يقولها مستهزئا!! فنزل قول الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[المدّثر: ٣١]. أى لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مطالبتهم فهم من ذلك الخلق المُغَيَّب الذى لا يعلم طبيعته ولا قوّته إلاّ الله سبحانه، فلا

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٨] ومسلم [٥٨٩] والنّسائى [٥٤٨١].

(٢) الدَّهْمُ والدَّهْمَاءُ: عامّة النّاس وسوادُهم والجمع (دُهْمٌ) ويقصد بها هنا العدد الأكثر.

مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين!، وما كان قولهم عن مغالبتهم إلاّ وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله تعالى وتدبيره للأمور.

وقيل [جعلهم ملائكة لأنّهم خلاف جنس المعذّبين من الجنّ والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ [المُجانس] من الرّأفة والرّقة ولا يستروحون إليهم، ولأنّهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتُؤمن هوادتهم، ولأنّهم أشدّ خلق الله بأسا وأقواهم بطشا وفي ذلك قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. أي ضلالة وعذابا للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه على قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[1]].

٢ ـ مالك الموكّل بالجحيم

لم يُذكر في التّنزيل من خزنة جهنّم بالاسم إلاّ [مَالِكٌ] وهو المقدّم على جميع الخزنة والموكّل [بالجحيم] كما في قول الله تعالى ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزّخرف:٧٧]. وله غضبة على النّار وأهلها إذا غضبها حطّم بعضها بعضا لغضبه، وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعا من زجرته، فتلك مهمته لما جاء عن سمرة أنّ رسول الله ﷺ قال «رأيتُ اللّيلةَ رَجُلَيْنِ أتيانِي فقالا: الّذي يُوقِدُ النّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النّارِ، وأنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ[2]».

ويضعُنا رسول الله ﷺ أمام هذا المشهد الحيّ الذي رآه في رُؤياه من صورة خازن النّار كما في حديث سَمُرَة عند البخاري قال «فَانْطَلَقْنَا فَأتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً، وَإذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا» الحديث. ثمّ قال «وأمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الّذي عِنْدَ النّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ[3]». وقوله «رَجُلاً مَرْآةً»: أي قبيح المنظر، أمّا قوله «يَحُشُّهَا»: أي يُوقد النّار ويحرّكها، وإنّما كان كريه الرّؤية لأنّ في ذلك زيادة في عذاب أهل النّار.

وذُكر عن محمد بن كعب القرظي قال: [لمّا استغاث أهل النّار بالخزنة فقالوا ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]. أي إنّهم سألوا يوما واحدا يُخفّف عنهم فيه العذاب فكان الرّد من الخزنة قاطعا ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ فلمّا يئسوا ممّا عند الخزنة نادوا مالكا وهو عليهم وله مجلس في وسطها وجسور تمرّ عليها ملائكة العذاب، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي سألوه الموت فقال ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[4]]. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى

---

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ١٩ ص ٨١].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٣٦] ومسلم [٢٢٧٥].

(٣) من حديث أخرجه البخاري [٧٠٤٧].

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن المبارك [ج ١٦ ص ١١٧].

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. قالَ [مَكَثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ قَالَ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[1]].

٣ ـ زبانية جهنم

وهناك من يعمل تحت إمرة الخزنة من الموكّلين بالنار وهم [الزَّبانية] الذين جاء تعريفهم في قول الله تعالى ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]. وهم الملائكة الغلاظ الشّداد كما جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره، واحدهم [زِبْنِيّ]، وهو اسم للجمع، مأخوذ من الزَّبْنِ وهو الدَّفْعُ بعنف وقوّة، وسُمّوا بذلك لدفعهم أهل النّار إليها ورميهم فيها، فهم أعظم الملائكة خَلْقًا، وأشدّهم بطشا، وأفظعهم صورة وهيئة، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه وعظم طغيانه.

ومن وظائفهم فيها ما ثبت من قوله ﷺ عن ابن مسعود «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا[2]». أي يُجاء بها من المحل الذى خلقها الله فيه فتُدار بأرض المحشر حتّى لا يبقى للجنّة طريق إلاّ الصّراط كما دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة، والزّمام ما يُزمّ به الشّيء أي يشدّ ويربطُ، وهذه الأزمّةُ التى تُساقُ جهنّمُ بها أيضا تمنع من خروجها على أهل المحشر فلا يخرج منها إلاّ الأعناق التى أُمرت بأخذ من شاء الله أخذه، وملائكتها كما وصفهم سبحانه بقوله ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: ٦]. وما جعل الله تعالى عدّتهم إلاّ فتنة وضلالة للذين كفروا كما في قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. أمّا جملتهم فالعبارة عنها قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر: ٣١].

وسُمّيت [نار جهنّم] بهذا الاسم لبعد قعرها وغلظ أمرها من قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾. [قال] في القاموس: جرى على أنّها عربية لم تجر للتّأنيث والتّعريف. يقال: بئر جهنام أى بعيدة القعر، وقيل مشتقّة من الجهومة وهي الغلظ ومنه متجهّم الوجه أى عابس غليظ سمج. [نسأل الله تعالى أن يُعيذنا من عذابها ويباعد بيننا وبين نارها].

(ثامنا) وظائف الملائكة وأقسامها

من المعلوم أنّ للملائكة من الوظائف والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يعلمه ولا يحصيه إلاّ العليم الخبير، فمنهم المسبّح، والمكبّر، والمهلّل، والرّاكع، والسّاجد والقائم، والمستغفر. ثمّ تنقسم الملائكة بعد ذلك تبعا لوظائفها ومهامّها المكلّفة بها كما في نصوص الكتاب العزيز والسُّنّة المطهّرة إلى أقسام:

(١) حديث صحيح أخرجه الحاكم [٣٧٢٨] ووافقه الذّهبى صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٤٢].

(الأول) المكلفون بتدبير أمر العالم

وهؤلاء هم الذين أوكل الله تعالى إليهم تدبير أمرهذا العالم وأحواله ونزولهم بالحلال وتفصيله والحرام وتبيينه عن طريق الكتب والشرائع السماوية وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما وقتادة وغيرهما ، ويرجع أمر هذا التّدبير إلى الله تعالى فلمّا نزلت به الملائكة سُمّيت بذلك كما في قوله عزّ وجلّ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشّعراء: ١٩٣]. وقول الله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[البقرة:٩٧]. فالله عزّ وجلّ هو المنزّل والذى نزل به على قلب النّبى ﷺ هو جبريل عليه السّلام، فالملائكة هم رسل الله تعالى فى تدبير وتنفيذ أمره الكونى الذى يدبّر به العالم ولهذا يضيف الخالق مهمّة [التّدبير]:

(١) إلى الملائكة تارّة لكونهم المباشرين للتّدبير كقوله ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾.

(٢) وفى آية أخرى يُضيف التّدبير إليه سبحانه كقوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[يونس:٣]. وقوله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[الرّعد:٢]. فهو المدبّر أمرًا وإذنًا ومشيئة، والملائكة المدبّرات مباشرة وامتثالا وتنفيذا كما فى قول الله تعالى ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[النّحل:٢].

وروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما فى قوله تعالى ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾. [أنها الملائكة وُكّلت بتدبير أحوال الأرض فى الرّياح والأمطار]. وقال غيره: «إنّ الله وكّل تدبير أمر الدّنيا إلى أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت، أمّا جبريل فموكّل بالرّياح والجنود، وأمّا ميكائيل فموكّل بالْقَطْر والنّبات، وأمّا ملَك الموت فموكّل بقبض الأنفس فى البرّ والبحر، وأمّاإسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل[(١)]».

(الثّانى) الموكلون بنفخ الأرواح

من الملائكة من هم موكّلون بنفخ الأرواح فى الأجنّة وكتابة أعمالها وآجالهاوأرزاقها وسعادتها أو شقاوتها، كما أنّهم موكّلون بتخليقها ونقلها من طور إلى طور، وتصويرها وحفظها فى أطباق الظّلمات الثّلاث لقوله ﷺ عند البخارى «إنَّ أحَدَكُم يُجْمَعُ فى بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكونُ علَقَةً مثلَ ذلكَ، ثُمَّ يكونُ مُضْغَةً مثلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إليْهِ ملَكًا بأرْبعِ كلِمَاتٍ: فَيكْتُبُ عَمَلَهُ، وأجَلَهُ، ورِزْقَهُ، وشَقىٌّ أم سَعيدٌ، ثُمَّ يَنفخُ فيه الرّوحَ[(٢)]». وجاء عند أبى داود «فَيقُولُ: يارَبِّ أشَقىٌّ أوْ سَعيدٌ؟ فَيُكْتَبانِ، فيَقُولُ: أىْ ربِّ! أذَكرٌ أوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبانِ. ويُكْتَبُ عَمَلُهُ وأثَرُهُ وأجَلُهُ ورِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلاَ يُزَادُ فيهَا ولاَ يُنْقَصُ[(٣)]».

---

(١) أخرجه البيهقى فى شُعَب الإيمان [١٥٦] وأورده فى الدُّر المنثور [٦ / ٣١١]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٣٢] ومسلم [٢٦٤٣]. (٣) أخرجه مسلم [٢٦٤٤] وأبوداود [٤٧٠٨] والتّرمذى [٢١٣٧].

وجاء قوله ﷺ من رواية حذيفة رضي الله عنه عند مسلم «إذا مرّ بالنّطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعثَ الله إليها ملكًا فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثمّ قال يارب: أذكرٌ أم أنثى؟. فيقضي ربّك ما شاء، يكتبُ الملكُ، ثمّ يقول يارب أجلُه! فيقولُ ربّك ما شاء، يكتبُ الملكُ ثمّ يقولُ: يارب رزقُه؟ فيقضي ربّك ما شاء. ويكتبُ الملكُ، ثمّ يخرجُ الملكُ بالصّحيفة في يده فلا يزيدُ على ما أمر ولا ينقص». (١)

ونسبة الخَلْق والتّصوير للملَك في قوله «فصوّرها وخلق سمعها وبصرها». نسبة «مجازيّة» لا حقيقيّة، وأنّ ما صدر عنه فعْل ما في المضغة كان عند التّصوير والتّشكيل بقدرة الله تعالى وخلقه وإبداعه، ألا تراه سبحانه وقد أضاف إليه الخلقة الحقيقيّة وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال تعالى:

* ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٦].
* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[الأعراف: ١١].
* ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[التّغابن ٣].
* ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار: ٨].

إلى غير ذلك من الآيات مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أنّه لا خالق ولا مُوجد لشيء من المخلوقات إلاّ ربّ العالمين، وهكذا القول في قوله ﷺ «ثُمّ يُرسلُ الْملَكَ فينفُخُ فيه الرُّوح(٢)». أي أنّ النّفخ سببُ خلق الله فيها الرّوح والحياة وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة فإنّه بإحداث الله تعالى لا بغيره [(٣)].

وفي قوله «ثُمّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ». [قال] ابن القيّم [وإنّما يُرسل الله سبحانه إليه الْملَكَ فينفخ فيه نفخة تحدثَ له الرّوح بواسطة تلك النّفخة بأمر الله تعالى، فتكون النّفخة هي سبب حصول الرّوح وحدوثها له، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه والغذاء سبب نموه، فمادّة الرّوح من نفخة الْملَك ومادة الجسم من صبّ الماء إلى الرّحم، فهذه «مادّةٌ سماويّةٌ» وهذه «مادّةٌ أرضيّةٌ».

ومن النّاس من تغلب عليه المادّة السّماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة، ومنهم من تغلب عليه المادّة الأرضيّة فتصير روحه سُفليّة تُرابيّة مهينة تناسب الأرواح

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٤٥] ولا يوجد عند غيره من الجماعة.

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٤٣].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٢ ص ٨].

السّفلية، فالْمَلَكُ أب لروحه والتُّرَابُ أب لبدنه وجسمه[1]].

(الثّالث) الموكلون بمراقبة أعمال المكلّفين

وهم الذين يتولون مراقبة أعمال المكلّفين وحفظها وإحصائها وتسجيلها وكتابتها في صحف الأعمال، بعدما أعطاهم الله تعالى القدرة على علم جميع ما يفعله النّاس من خير أو شرّ، فيُحصونه إحصاءً دون ما غفلة عن شيء منه، فهؤلاء الملائكة الملازمون لنا هم معنا لكنّهم غائبون عن إحساسنا، فنحن نؤمن بهم كما ثبت في الشّريعة دون أن نزيد على ذلك شيئا من تخيّلاتنا ما لم يرد به نصّ شرعي ثابت [[2]].

وقوله تعالى﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٧-١٨]. يثبتَ أنّ الله جعل لكلّ إنسان متلقّيين من الملائكة يستقبلان ويتلقّيان أقواله وأفعاله الحسنة والسّيئة تلقى معرفة وحفظ وتسجيل، أمّا أحدهما: فعن [اليمين]، وأمّا الآخر: فعن [الشّمال]، وكلّ منهما [قعيد]: أي ملازم لا يفارق الإنسان بحال من الأحوال لمراقبة أعماله وأقواله وأفعاله بمنتهى الدّقّة، وكلّ منهما عتيد: أي أعدّه الله تعالى وهيّأه لهذه المهمّة فهو حاضر للقيام بها كما أمره الخالق جلّ وعلا.

والله تعالى أثبت لهؤلاء الحفظة أوصافا جليلة عندما ذكر أنّهم ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾. [فلا يُغيّرون ممّا نقول شيئا، ولا يبدّلون ممّا نفعل أمرا، فهم ملتزمون بأمر الله تعالى في تسجيل ما يشاهدون ويسمعون، كما أنّهم ليسوا فيما يقومون به من تسجيل وكتابة للأقوال والأفعال آلات ميّتة لا تعي ما تسجّله أو تتلقّاه، بل هم وكما جاء في التّنزيل الحكيم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. أي يدركون حقيقة ما نفعل، ويعلمون المقاصد المحدّدة من هذه الأفعال، فهم يعلمون الطّاعات، ويعلمون المعاصي، ويعلمون ظواهر الأعمال، كما يعلمون خفاياها ودقائقها ومقاصدها[3]].

لذلك ينبغي على المسلم أن يستحي من هؤلاء الكرام الكاتبين الذين لا يتركونه طرفة عين، فلا يُملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها، فإنّ الله تعالى خلقهم كراما في خَلْقهم وأخلاقهم مُكرّمين بقربهم لما روى عن مجاهد أنّ النّبي ﷺ قال «أَكْرِمُوا الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لاَ يُفَارِقُونَكُمْ إِلاَّ عِنْدَ إِحْدَى حَالَتَيْنِ الْجَنَابَةُ وَالْغَائِطُ[4]». وفي

(١) انظر كتاب الرّوح [ص ١٤٨].

(٢) انظر كتاب العقيدة الإسلامية للميداني [ص ٢٤٤].

(٣) انظر كتاب العقيدة الإسلامية للميداني [ص ٢٤٥ - بتصرّف].

(٤) أورده ابن كثير في البداية والنّهاية [ج ١ ص ٥١].

رواية «إنَّ اللهَ تعالى يَنهاكُمْ عَنِ التَّعرّي، فاستَحْيُوا منَ اللهِ والّذينَ مَعكُمُ الكِرامَ الكاتبينَ، الّذينَ لا يُفارِقُونكُم إلاّ عندَ إحدَى ثَلاثِ حالاتٍ الغائطِ والجَنابةِ والغُسْلِ(١)».

كما لا يحبّ [الحفظة من الملائكة] أن ترى العبد على المعصية لما رواه البزّار عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال «إنَّ ملائكةَ اللهِ يعرِفُونَ بني آدمَ، وأحسَبُهُ قال ويعرِفُونَ أعمالَهُم، فإذا نَظرُوا إلى عبدٍ يعمَلُ بطاعةِ اللهِ ذكَرُوهُ بينَهُم وسَمَّوْهُ وقالُوا أفلَحَ اللّيلةَ فُلانٌ، نَجا اللّيلةَ فُلانٌ، وإذا نظَرُوا إلى عبدٍ يعمَلُ بمَعصيةٍ ذكَرُوهُ بينَهُم وسَمَّوْهُ وقالُوا هَلَكَ اللّيلةَ فُلانٌ!(٢)».

فإذا علم المرء أنّ الملائكة الكرام تُحصى عليه أعماله وترصد أفعاله وتسجّل أقواله، كان إلى الحذر من المعاصي أقرَب، والإمساك عنها فى كلّ الأوقات أصوَب، فإذا حاول ارتكاب المعصية وأدرك بإيمانه مشاهدتهم لها يزجره الحياء منهم عن الإقدام عليها، وإذا علم أنّهم يُحصون عليه الكبيرة والصّغيرة كان ذلك رادعا له عنها، وإذا علم أنّ كلّ ذلك مُسجّلٌ عليه لا محالة كان الرّدع عنها أقوى وأكمل.

(الرابع) الحفظة المعقّبات

هم الذين يحفظون النّاس ـ بأمر الله تعالى ـ من شرّ كلّ ذى شرّ خفيّ أو ظاهر، ومن أذى كلّ ذى أذى فى خضَمّ هذا الكون المشحون بالتّوتّرات والمخاطر، فلا يُصيب الإنسان منها شيء إلاّ إذا كان فيه قضاء الله تعالى وقدره، ثمّ يأتى التّعريف القرآنى ليقسّم هؤلاء الملائكة إلى قسمين:

(أ) الحفظة

وهم الذين جاء ذكرهم فى قول الله سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[الأنعام: ٦١]. أى من الملائكة، وحقيقة الإرسال إطلاق الشّيء بما حمل من الرّسالة، فإرسال الملائكة يكون بما حملوا من الحفظ الذى أمروا به كما فى قول الله عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾[الانفطار: ١٠]. أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتكتبها كما تحفظهم من الآفات والأعراض.

والحفظة جمع «حافظ» وهو اسم فاعل من حفظ الشّيء يحفظه حفظا: صَانَهُ ورَعَاه، وصيغة المبالغة: «حَفيظٌ» من أسماء الله الحسنى، ومنه قول الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[هود: ٥٧]. أى رقيب مهيمن شديد الحفظ، وقول الله تعالى ﴿هَٰذَا مَا

(١) انظر البداية والنّهاية لابن كثير [ج ١ ص ٥١].

(٢) انظر المصدر السّابق.

تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾[ق: ٣٢]: أى شديد المحافظة على تنفيذ كلّ ما أمره الله به كثير الرّعاية لحدوده الله وأوامره لا يتعدّاها، وقوله تعالى﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطّارق: ٤]. أى مَلَكٌ يحفظ عليها رزقها وعملها وأجلها ويراقبُ أفعالها.

وفى تفسيره (قال) قتادة [قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شرّ]. وقال الفرّاء [الحافظ من الله تعالى يحفظها حتّى يسلمها إلى المقادير، لأنّ الحافظ فى الحقيقة هو الله تعالى لقوله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. أى صائنًا لعبده حارسا له يَقِيهُ الشّر ويحميه منه].

(٢) المعقّبات

وهم الملائكة الذين يتعقّبون الإنسان ولا يفارقونه، بل يرافقونه من جميع الجهات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من المخاطر الظّاهرة والخفيّة بأمر الله، ضمن حدود ما قدّره الله لقوله تعالى﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرّعد: ١١]. أى ملائكة يحفظونه بأمر الله من قضاء الله وأمره، أو يحفظونه من أجل أمر الله لهم بحفظه، والدّليل عليه قراءة من قرأ «يَحْفَظُونَهُ بأمْرِ الله» .وقيل للملائكة الكرام [مُعَقِّبَةٌ] على وزن مَلَائِكَةٌ. يقال مَلَكٌ مُعَقِّبٌ وملائكة مُعَقِّبَةٌ ومُعَقِّبَاتٌ :جمع الجمع، والتَّعقُّبُ العود بعد البدء كقوله تعالى﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[النّمل: ١٠]. أى يرجع إلى المكان الذى أدبر منه. [وأعقبه بعمله]: جازاه عاجلا وأتبعه الجزاء، ومنه:

* قوله تعالى﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[التّوبة: ٧٧]. أى أتبعهم نفاقهم وجعله يلحقهم فى أعقابهم.

* وقوله تعالى﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ٣٩]. أى أخذهم بالعذاب والهلاك.

(قال) أبو الهيثم: سُمِّينَ «مُعَقِّبَاتٌ» لأنّهن يَعُدْنَ مرّة بعد مرّة، وفعْل من عمل عملا ثمّ عاد إليه فقد «عَقَّبَ». أى رجع من حيث أتى.

واختُلف فى مقصود قوله تعالى﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. على قولين:

(الأوّل) أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم لطفا منه سبحانه بخلقه فإذا جاء القدر خَلُّوا بينه وبينه، ولتأويل الآية عند من قال بذلك وجهان:

(١) يحفظونه من الموت ما لم يأت الأجل.

(٢) يحفظونه من الجنّ والوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة.

وفي ذلك جاء من طريق كعب الأحبار [لولا أنّ الله وكّل بكم ملائكة يَذُبُّونَ عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتُخُطِّفْتُم[1]]. و(قال) مجاهد [ما من عبد إلاّ وله مَلَكٌ مُوكّل بحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، وليس شيء يأتيه يريده إلاّ قال: وراءَكَ، إلاّ شيء يأذن الله فيه فيصيبه[2]]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال «مَا مِنْ آدَمِيٍّ إلاّ وَمَعَهُ مَلَكٌ يَذُودُ عَنْهُ حَتَّى يُسْلِمَهُ لِلَّذِي قُدِّرَ لَهُ». وعن أبي مجلز قال [أنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ فَقَالَ: إنَّ نفراً يُرِيدُونَ قَتْلَكَ! فَقَالَ: إنَّ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ[3]].

(الثّاني) أن يكون حفظهم بأمر الله من قضاء الله وأمره، وهو قسمان:

(١) أمر قضى حلوله ووقوعه بصاحبه فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيّره.

(٢) أمر قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه بل قضى صرفه بالتّوبة والدّعاء والصّدقة.

والذى عليه جمهور العلماء أنّ المراد بالمعقّبات الملائكة الحفظة، وإنّما صحّ وصفهم بذلك إمّا لأجل أنّ ملائكة اللّيل تعقب ملائكة النّهار وبالعكس، وإمّا لأنّهم يتعقّبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتابة، وكلّ من عمل عملا ثمّ عاد إليه فقد عَقَّبَ تَعْقِيباً.

وعلى هذا فالمراد من المعقّبات عندهم ملائكة اللّيل وملائكة النّهار لحديث أبي هريرة عن النّبى ﷺ قال «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وَفِي صَلاَةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ، فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ[4]».

وتأتي رواية البزّار من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «إنَّ للهِ مَلاَئِكَةً يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ». وقوله «يَتَعَاقَبُونَ» أى تأتي طائفة عقب طائفة ثم تعود الأولى عقب الثّانية، وقوله «فِيكُمْ» أى المصلّين أو هم مُطلق المؤمنين.

ومن لطف الله تعالى بعباده وإكرامه لهم أن جعل اجتماع ملائكته فى حال طاعتهم لتكون شهادة الملائكة لهم بأحسن الشّهادة، كما اقتضت حكمته تعالى أن يكون السّؤال للذين باتوا فيهم دون الذين ظلوا باقي الوقت لكون اللّيل مظنّة المعصية، فلمّا لم يقع منهم عصيان واشتغلوا بالطّاعة كان النّهار أولى بذلك.

(١) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٢٢٢].

(٢) انظر البداية والنّهاية لابن كثير [ج ١ ص ٥٠].

(٣) انظر المصدر السّابق

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٤٢٩] ومسلم [٦٣٢] والنّسائى [٤٨٤].

أمّا معنى قول الله تعالى﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾[المعارج :٣] . أى ذى العلوّ الرّفيع والدّرجات الفواضل والنّعم السّابغات ، وقيل المعارج وجوه إنعامه على الخلق التى تصل إلى النّاس على مراتب مختلفة. [أو] هى معارج الملائكة لكونها تعرج إليه سبحانه ثمّ أضيفت إليه إضافة تشريف .

ويُقصد بعروج الملائكة فى الحديث : الارتقاء والصّعود من عَرَجَ [بفتح الرّاء] يَعْرُجُ [وضمّها] عُرُوجًا ومَعْرَجًا ، والمعْرَجُ : المصعد والطّريق التى تعرج فيها الملائكة إلى السّماء وجاء معناه فى قوله تعالى﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ . وعروج الملائكة هو إلى منازلهن فى السّماء ، ثمّ يأتى المعنى ذاته فى قوله تعالى﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[الزّخرف :٣٣] . أى على المعارج يرتقون ويصعدون .

(قال) الرّاغب [العروج ذهاب فى صعود ، ومنه قول الله تعالى﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الحديد : ٤] . وقوله ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : أى ما يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ، والمعراج شبيه السُّلَّم ومنه ليلة المعراج ، أو درج تعرج فيه الأرواح إذا قبضت وحيث تصعد أعمال بنى آدم(١)] .

واختُلف فى تعريف «الملائكة المتعاقبين» على قولين :

(الأوّل) قيل هم الحفظة الكرام وهو ما نقله عياض وغيره عن الجمهور أنّ هؤلاء الملائكة هم من الحفَظَة الكُتَّاب ، وقيل : [يحتمل أن يكونوا من جملة الملائكة بجملة النّاس غير الحفَظَة(٢)] .

(الثّانى) أنّهم غير الحفظة لكونهم لا يفارقون العبد أبدا ولا أنّ حفظة اللّيل غير حفظة النّهار ، واستدلّ أصحاب هذا القول بأنّهم لو كانوا هم الحفظة لم يقع الاكتفاء فى السُّؤال منهم عن حالة التّرك دون غيرها فى قول الله تعالى « كَيْفَ تركْتُمْ عِبَادى ؟(٣) » .

فكان السُّؤال عن اللّيل أبلغ من السُّؤال عن النّهار لكون النّهار محلّ الاشتهار ، أمّا سُؤاله جلّ شأنه « كَيْفَ تَرَكْتُم عِبَادى ؟» . فهذا السُّؤال على ظاهره وهو تعبُّدٌ منه سبحانه لملائكته كما أمرهم بكتب الأعمال ، كما أنّه يقع عن آخر الأعمال ولأنّ الأعمال بخواتيمها ، ولذلك يستحبّ عند بعض العلماء أن لا يفارق المسلم شيئا من أموره إلاّ وهو على طهارة كشَعْرِهِ إذا حَلَقَهُ وظُفْرِهِ إذا قَلَّمَهُ وثَوْبِهِ إذا أَبْدَلَهُ ونحو ذلك .

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٤٢٧] .

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ١٤٥] .

(٣) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ٤٥] .

(الخامس) المكلّفون بالسّياحة فى الأرض

وقد يكون من هذا الصّنف الملائكة الصّافّات من قوله تعالى﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾، التى تُصَفُّ فى السّماء كصفوف الخلق فى الدّنيا للصّلاة فى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، ومنها الزّاجرات كقوله ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾: التى تزجر السّحاب وتسوقه فى قول السُّدّىّ، ومنها ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة التى تقرأ كتاب الله تعالى على قول عبد الله بن مسعود، ومنها ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[الذّاريات: ٤]: الملائكة تأتى بالأمر المختلف من الخصب والجدب والمطر والموت والحوادث، وهؤلاء الملائكة لا يُحصى عددهم إلاّ خالقهم لقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدّثر: ٣١].

ومن أدلّة كثرتهم تعاقبهم زُمْرَة بعد زُمْرَة إلى البيت المعمور كلّ يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه كما فى قوله ﷺ لمّا ذكر صعوده إلى السّماء السّابعة ليلة الإسراء «فُتِحَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّى فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لاَ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ[(١)]».

ومن المهامّ التى يتولاّها هؤلاء الكرام:

(أ) الملائكة يكتبون الأوّل فالأوّل لصلاة الجمعة

من الملائكة من يتولّى تسجيل القادمين لصلاة الجمعة لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلاَئِكَةُ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ[(٢)]». وجاء فى رواية «إِذَاكَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِى يُهْدِى بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِى يُهْدِى بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشا، ثُمَّ دجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ[(٣)]». والْمُهَجِّرُ هو الْمُبَكِّرُ الآتى للجُمعة فى أوّل ساعة.

وتشير الأحاديث إلى أنّ ابتداء طىّ الصّحف يكون عند ابتداء خروج الإمام وانتهائه بجلوسه على المنبر وهو أوّل سماع الملائكة للذّكر، ومراده طى صحف الفضائل المتعلّقة بالمبادرة إلى صلاة الجمعة دون غيرها من سماع الخطبة وإدراك الصّلاة والذّكر والدّعاء والخشوع ونحو ذلك فإنّه يكتبه الحافظان قطعا.

وكأنّ فضل السّعى مُبكّراً إلى الجمُعة وتحصيل خيرها قد ارتبط بأمرين:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٠٧ و٣٣٩٣] ومسلم [١٦٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢١١] ومسلم [٨٥٠] والنّسائى [١٣٨٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٩٢٩] ومسلم [٨٥٠] والنّسائى [١٣٨٤].

(الأوّل) وقوف الملائكة على باب المسجد يكتبون الأوّل فالأوّل ولا يحظى بذلك إلاّ من بَكَّرَ إلى الصّلاة وسعى إليها لينال سبق تدوين الاسم وكمال الفعل.

(الثّانى) ثمّ بخروج الإمام للخطبة وقيام الملائكة بطى الصّحف واستماعهم للذّكر والموعظة.

وكما تبيّن الأحاديث أنّ مراتب النّاس فى الفضل تكون بحسب أعمالهم فإنّهم ينقسمون فى التّبكير لصلاة الجمعة إلى قسمين:

(١) من تَعَوَّدَ التّبكير إليها إلاّ أنّه تخلّف عن ذلك لعذر فإنّ الملائكة تسأل عنه وتتفقّده وتدعو له كما فى حديث عمرو بن شعيب ﷺ «فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طُوِيَت الصُّحُفُ وَرُفِعَت الأَقْلامُ، فَيَقُولُ بَعْضُ الْمَلائِكَة لِبَعْضٍ مَا حَبَسَ فُلانًا فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: اللّهُمَّ إِنْ كَانَ ضَالاً فَاهْدِه، وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا فَاشْفِه، وَإِنْ كَانَ عَائِلاً فَأَغْنِه[١] ». فحظ هذا دعاء الملائكة له بالهداية والغنى.

(٢) من لم يحافظ على التّبكير فكأنّه قد جاء ليحقّق فرضيّة الجمعة لا أن يُحصّل خيريّة الخطبة وفضلها لما جاء عند ابن ماجه «فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِيءُ بِحَقٍّ إِلَى الصَّلاةِ[٢] ». فكان حظّه الحرمان من تدوين اسمه فى السّجل الملائكى الذى لا يحظى به إلاّ المتسابقون إلى عفو الله تعالى وفيضه ورضوانه.

(٣) الملائكة يقومون صفوفا بين يدى الخالق جلّ وعلا

والمؤمنون فى صلاتهم يَصُفُّونَ كما تُصَفُّ الملائكة عند ربّهم لما فى حديث جابر أنّ رسول الله ﷺ قال «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ. قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِى الصَّفِّ[٣] ». وهى عنديّة لا يعلمها إلاّ الله تعالى، أو عند قيامهم لطاعة ربّهم، أو عند عرش ربّهم، وقد قال الله تعالى مبلّغا عنهم ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[الصّافات: ١٦٥]. وكذلك يأتون يوم القيامة صفوفا بين يدى الله تعالى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢]. وكما يأتون فيه صفوفا يقفون فيه صفوفا لقوله ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النّبأ: ٣٨]. وقال أبو مالك [كان النّاس يصلّون متبدّدين فأنزل الله قوله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم النّبى ﷺ أن يصطفّوا].

ويستفاد من الدّلالات التى تحملها الأحاديث ما يلى:

---

(١) رواه ابن خُزيمة بإسناد صحيح [١٧٧١] وأورده المنذرىّ فى التّرغيب [ج ١ ص ٥٠٢ رقم ٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٩٠٣] وانظر التّعليق الرّغيب [١ / ٢٥٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٣٠] وأبو داود [٦٦١] وابن ماجه [٨١٨].

(١) أنّه عندما تقتدى صفوف الأرض بصفوف ملائكة السّماء فإنّ ذلك يمثل الانعكاس الصّادق لتلك الصّورة الوضيئة التي أحبّها الله تعالى للمؤمنين أن تكون خارج المسجد كما هي داخله في قوله تعالى ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصّفّ: ٤]. فإن هي استقامت فيه كانت مؤشّرًا للتّوحّد خارجه.

(٢) أنّ تكامل الصّفوف فى الصّلاة داخل المسجد واحترامها وتسويتها وسدّ خللها وإقامتها على النّظام الذى ارتضاه لها نبيّنا ﷺ يأتى تأسّيا واقتداء بملائكة السّماء ومنعا من اختراق الشّيطان لصفوف المؤمنين ووحدتهم لقوله ﷺ «رُصُّوا صُفُوفَكُمْ، وَقَارِبُوا بَيْنَهَا، وَحَاذُوا بالأَعْنَاق، فَوَالَّذى نَفْسى بيَده، إنِّى لأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ منْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ[١]». والْخَلَلُ [بفتح الخاء المعجمة واللام]: هو ما يكون بين الاثنين من الاتساع عند عدم التّراصّ.

(٣) إنّ إقامة الصّفوف وتوحّدها تُمكّن المسلمين من التّعرّف على طبيعة دينهم الدّاعى للتّكاتف والتّآلف، وتتّضح لهم معالم طريقهم القائم على وحدة المنهج والاتجاه.

(٤) إنّ التّلاحم الإيمانى من خلال الصّف المترابط يكشف للأمّة طبيعة التّضامن الوثيق الذى يُبرزه ذلك الصّف الواحد فى حياتها، ويُؤكّد للمسلمين مدى فاعليّته وتأثيره فى بناء هذا الكيان الواحد، الذى تتعاون لبناته وتتماسك بحيث تُؤدّى كلّ لبنة دورها فى وحدة الصّف داخل المسجد وخارجه، تعبيراً عن ارتباط المسلم بأمّته ارتباط الشّعور والحركة والتّلازم والانتماء.

(٥) كما أنّ المعنى الذى يستلهمه المؤمنون من اصطفاف الملائكة عند ربّهم أن يكونوا صفًّا واحداً متلاحماً خلف نبيّهم ﷺ باتّباع هديه وسُنّته، وصفًّا واحداً فى الدّفاع عن دينه وشريعته، وصفًّا واحدا فى مواجهة أعداء منهجه.

(٦) وإذا كان اصطفاف الملائكة عند ربّهم تَوَحُّداً على الطّاعة والذّكر فإنّ الله تعالى يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفّا كأنّهم بنيان مرصوص، وهو البنيان الذى رُصَّتْ لبناته بتلائم وتناسب وتقارب حتّى صار كقطعة واحدة، والتّراصّ: التّلاصق ومنه قوله تعالى ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصّفّ: ٤].

لذلك كان رسول الله ﷺ شديد الاهتمام بتسوية الصّفوف داخل المسجد، كثير التّرغيب فى إقامتها ووصلها، مشيراً إلى أنّ حكم الجماعة لا يتحقّق إلاّ بالمحافظة عليها وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص كما جاء فى روايات عديدة منها:

* قوله ﷺ «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِى

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٦٦٧] والنّسائى [٨١٤] وأحمد [١٣٧٣٧].

إِخْوَانِكُمْ، وَلاَ تَذَرُوا فُرُجَاتٍ(١) لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ(٢)».

* وقوله ﷺ «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلاَةِ(٣)». وجاء في رواية البخاري «فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلاَةِ(٤)».

* وكما رغّب النّبي ﷺ في إتمام الصّفوف وتحسينها شدّد في الإنكار على الإخلال بها والتّفريط في إقامتها لما رُوي عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه قال «أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ «ثَلاَثًا»: وَاللهِ لَتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، قَالَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وَرُكْبَتَهُ بِرُكْبَةِ صَاحِبِهِ وَكَعْبَهُ بِكَعْبِهِ(٥)». وجاء عند مسلم بلفظ «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ(٦)».

* ولـمّا جاء معنى الاختلاف في القلوب مرّة والوجوه أخرى قال العلماء:

١ - أنّ الحديث الأوّل يُحذّر من المخالفة «بين القلوب» بترك إقامة الصّفوف وتسويتها وتعديلها، وهدف الشّيطان اللّعين إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين فيتغيّر بعضهم على بعض، لأنّ مخالفتهم في الصّفوف مخالفة في ظواهرهم واختلاف الظّواهر سبب لاختلاف البواطن، كما أنّ فيه دليلا على أنّ وقوع الوعيد يكون من جنس الجناية.

٢ - وفي قوله «أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ». إنّهم لـمّا أساءوا الأدب في إسلام الوجه لله تعالى كان الجزاء في العضو الذي أساءوا به وهم في الصّلاة، أو أنّهم لـمّا اختلفوا صورة بالتّقدّم أو التّأخّر عن الصّفّ جُوزُوا بالاختلاف معنى.

[قال] القرطبي [معناه تفترقون فيأخذ كلّ واحد وجها غير الذي يأخذه صاحبه لأنّ تقدّم الشّخص على غيره يُؤدّي إلى مظنّة الكبر المفسد للقلب الدّاعي للقطيعة].

وذهب الجمهور إلى أنّ إقامة الصّفوف في الصّلاة سُنّة، بل أكّد بعضهم الإجماع على ذلك وقالوا إنّ الوعيد المذكور في الأحاديث إنّما جاء من باب التّغليظ والتّشديد والتّحريض على تسوية الصّفوف وتعديلها وتحسينها، فقد ثبت عن عمر رضي الله عنه أنّه كان يُوكّل رجالا بإقامة الصّفوف فلا يُكبّرُ حتّى يُخْبَرَ أنّ الصّفوف قد استوت. [وروى عن عليٍّ

---

(١) الفُرُجَاتُ جمع فرجة وهي المكان الخالي بين اثنين.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٦٦٦] والنّسائي [٨١٨] بلفظ مختصر.

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٣٣] وأبو داود [٦٦٨] وابن ماجه [٨١٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٢٣] ومسلم [٤٣٣].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٢٥] ومسلم [٤٣٦] وأبوداود [٦٦٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧١٧] مختصرا ومسلم [٤٣٦] والتّرمذي [٢٢٧].

وعثمان رضى الله عنهما أنّهما كانا يتعهّدان ذلك ويقولان : استووا ، وكان علىٌّ رضي الله عنه يقول «تَقَدَّمْ يَا فُلاَنُ ، تَأَخَّرْ يَا فُلاَنُ» . قاله التّرمذى(١)] .

(٣) الملائكة يرصدون مجالس العلم والذّكر

ومن الملائكة من يسيحون فى الأرض ويرصدون مجالس الذّكر والعلم لحديث أبى هريرة عن النّبى ﷺ قال «إِنَّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيَّارَةً فُضْلاً يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِساً فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِأَجْنِحَتِهِمْ ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعَدُوا إِلَى السَّمَاءِ» .

قَالَ «فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِى الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ ، قَالَ وَمَاذَا يَسْأَلُونِى ؟ قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ . قَالَ : وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِى ؟ قَالُوا : لاَ أَىْ رَبِّ ! قَالَ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِى ؟» . قَالَ «فَيَقُولُونَ : رَبِّ ! فِيهِمْ فُلاَنٌ : عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، قَالَ فَيَقُولُ : وَلَهُ غَفَرْتُ ، هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ(٢)» .

(قال) النّووى [إنّهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من الْمُرَتَّبِينَ مع الخلائق ، فهؤلاء السَّيَّارة لا وظيفة لهم وإنّما مقصودهم حلق الذّكر(٣)] . ويؤكّد الحديث [على أنّ الذّكر الحاصل من بنى آدم أعلى وأشرف من الذّكر الحاصل من الملائكة ، لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشّواغل ووجود الصّوارف وصدوره فى عالم الغيب بخلاف الملائكة فى ذلك كلّه(٤)] .

ويُقصد بقوله «يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ» : المجالس التى تتضمّن أنواع الذّكر من تلاوة كتاب الله تعالى وتفسيره ، والدّعاء بخيرى الدّنيا والآخرة ، وقراءة الحديث ، وتدارس أحكام السُّنَّة والفقه ، والعلم الشّرعى ومذاكرته والمناظرة فيه ، والتّلقى عن العلماء العاملين بهدى الكتاب والسُّنَّة . لقوله ﷺ «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ(٥)» .

(٤) الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة أو كلب

ولا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تصاوير لقوله ﷺ من حديث أبى طلحة «لاَ

---

(١) انظر تحفة الأحوذى [ج ١ ص ٤٨٣] .
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨٩] وافقه البخارى [٦٤٠٨] .
(٣) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ١٩] .
(٤) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢١٧] .
(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩] وأبو داود [٤٩٤٦] والتّرمذى [١٤٢٥] .

تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ وَلاَ صُورَةُ تَمَاثِيل[1]». وعند مسلم بلفظ «لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ وَلاَ تَمَاثِيلُ[2]». وفي رواية أبي داود «إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَحْضُرُ جَنَازَةَ الْكَافِرِ بِخَيْرٍ وَلاَ الْمُتَضَمِّخَ بِالزَّعْفَرَانِ وَلاَ الْجُنُبَ[3]». وقوله «الْمُتَضَمِّخُ» أى المتلطّخ بالزّعفران لأنّه مُتَلَبِّسٌ بمعصية حتّى يقلع عنها [[4]].

والمراد بالملائكة فى الأحاديث: غير الحفظة الذين يطوفون بالرّحمة والتّبريك والاستغفار على المؤمنين، أمّا الحفَظَة والكَتَبة فيدخلون كلّ بيت ولا يفارقون بنى آدم فى كلّ حال، لأنّهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها وكذا الموكّلون بقبض الأرواح، وجمعت الرّوايات بين ثلاثة أحوال تمنع الملائكة من التّواجد بالمكان حال حضورها فيه وهى:

{علّة وجود الكلب}

اختلف العلماء فى سبب امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب فقيل:

* لكون الكلاب نجسة العين ويؤيّده ما جاء فى بعض طرق الحديث عن عائشة رضى الله عنها عند مسلم «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ بِهِ مَكَانَهُ[5]». وعلى هذا يُحمل قول من قال إنّ الكلب غير نجس العين فيُنضح موضعه على الاحتياط لأنّ النّضح مشروع لتطهير المشكوك فيه.

* أو لأن بعضها يسمّى شيطانا والملائكة ضد الشّياطين، ولقُبح رائحة الكلب، وعَطَنه والملائكة تكره الرّائحة الكريهة.

* أو لأنّها تأكل النّجاسة وتتلطّخ بها فينجس ما تعلّقت به أو وَلَغت فيه.

* أو لأنّها منهى عن اتّخاذها فعُوقب مُتّخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه ودفعها أذى الشّيطان عنه.

وظاهر قوله «وَلاَ كَلْبٌ» أنّه عام فى كلّ كلب سواء أُذن فى اتخاذه لغرض الحراسة أم لا، لأنّه نكرة فى سياق النّفى، وإلى العموم جنح القرطبى لعموم الحديث، ولامتناع جبريل عليه السّلام من دخول البيت الذى كان فيه الكلب مع كونه ﷺ لم يكن يعلم بوجوده

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٢٥] ومسلم [٢١٠٦] والتّرمذى [٢٨٠٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠٧] وأبوداود [٤١٥٣].

(٣) حديث حسن أخرجه أبوداود [٤١٧٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠٥] وأبو داود [٤١٥٧] والنّسائى [٤٢٨٧].

(٥) الزَّعْفَرَانُ نَبَاتٌ بَصَلِيٌّ زَهْرُهُ أَحْمَرُ إلى الصُّفْرَةِ من فصيلة السَّوْسَنِيَّات يستعمل لتطبيب بعض أنواع من الطعام أو الحلويات وهو مادّة صبغية والطِّيب منه يسمّى خَلُوقًا (القاموس).

لقوله ﷺ لعائشة «مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَهُنَا ؟ فَقَالَتْ : وَاللهِ مَا دَرَيْتُ !. فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ. فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ ؟. فَقَالَ مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ، إِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ[1] ».

(علّة وجود الصّورة)

أمّا ظاهر قوله «وَلاَ صُورَةٌ» فيدلّ على أنّ الصّورة مطلقا تمنع دخول الملائكة سواء كان لها ظلّ أم لا، ممتهنة أم غير ممتهنة. وقيل إنّ الممتهنة التى لا ظلّ لها لا تمنع دخول الملائكة، والأظهر عند النّووى [أنّه عام فى كلّ صورة وأنّهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الحديث[2]]. و[قال] الزّهرىّ [النّهى الذى ورد فيها على العموم سواء أكانت رَقْمًا[3] فى ثوب أم غير رقْم وسواء أكانت فى حائط أم ثوب أم بساط مُمتهن أو غير مُمتهن عملا بظاهر الحديث[4]].

وعلّة امتناع الملائكة من دخول البيت الذى فيه الصّورة لما فيها من معصية فاحشة ومضاهاة لخلق الله عزّ وجلّ، ولأنّ بعضها قد يكون فى صورة ما يُعبد عند الملل الأُخرى من دون الله تعالى.

أمّا [التّصاوير] ويقصد بها هيئة الحيوان أو غيره فاتّفق العلماء على تحريمه سواء أصنع بما يمتهن أم بغيره، له ظل أم لا، للأحاديث الكثيرة الدّالة على الوعيد الشّديد لمن يشبّهون بخلق الله تعالى منها :

* ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللهِ[5] ».

* وقوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الَّذِينَ يَصْنَعُونَ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ[6] ».

(قال) النّووى [تصوير صورة الحيوان حرام «شديد» التّحريم وهو من «الكبائر» لأنّه متوعّد عليه بهذا الوعيد الشّديد المذكور فى الأحاديث وسواء صنعه بما يُمتهن أو بغيره

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠٤].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٣٤٣].

(٣) الرَّقْم هو النّقش فى الثّوب ويُراد به ما لا ظلّ له، يقال : «رَقَمْتُ الثَّوْبَ رَقْمًا» : أى وَشَيْتُهُ، فهو مرقوم، وعن على رضي الله عنه فى صفة السّماء : «سَقْفٌ سَائِرٌ وَرَقِيمٌ مَائِرٌ». يريد به وَشْيَ السّماء بالنُّجوم. [انظر معجم المصطلحات ج ٢ ص ١٧٠].

(٤) انظر المنهل العذب المورود [ج ٢ ص ٢٩٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩١ / ٢١٠٧] وأبو داود [٤١٥٣].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠٨].

فصنعته حرام بكلّ حال، لأنّ فيه مُضاهاة لخلق الله تعالى، أمّا تصوير صورة الشّجر ورحال الإبل وغير ذلك ممّا ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم نفس التّصوير، وهو قول جماهير العلماء من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم وهو مذهب الثّورى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم[1]].

{علّة وجود الجنب}

الجُنُب فى اللّغة الذى بَعُدَ بخروج الماء الدّافق عن حال الصّلاة فيحرم عليه أن يباشر عملا من الأعمال الشّرعية الموقوفة على الوضوء قبل أن يغتسل، ولمّا كان التّهاون فى الغسل من الجنابة مانعا للخير الكثير والبركة الحاصلة فإنّه يؤدّى إلى امتناع الملائكة من دخول البيت الذى فيه الجنب.

وظاهر قوله ﷺ فى الحديث «وَلاَ الْجُنُبَ»: العموم، فيشمل من أصابته الجنابة أوّل اللّيل وأخّر الغُسل إلى ما بعد الفجر، لكن هذا العموم ليس مرادا، بل المراد به من يتعوّد ترك الغسل ويتهاون فيه إلى أن يخرج وقت الصّلاة، فهو فى أكثر أوقاته جنبٌ غير طاهر.

(قال) الخطّابى [لم يرد بالْجُنُب هاهنا مَنْ أصابته جنابة فأخّر الاغتسال إلى حضور الصّلاة، ولكن يجنُب فلا يغتسل ويتهاون به ويتّخذ تركه عادة، فإنّ رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه فى غُسل واحد، وفى هذا جواز تأخير الاغتسال عن أوّل وقت وجوده[2]].

أمّا الجُنُب الذى لا يتّخذ ذلك عادة مستمرّة له ولا يترك الاغتسال إلى أن يخرج وقت الصّلاة، فلا يمنع دخول الملائكة البيت لما ثبت من أنّ النّبى ﷺ كان يغتسل تارةً أوّل اللّيل وتارّة آخره، ومن أنّه رخّص للجُنب أن ينام قبل أن يغتسل لقول عائشة «أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ وَهُوَ جُنُبٌ تَوَضَّأَ وُضُوءَهُ للصَّلاَةِ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ[3]».

وجاء فى رواية عمّار رضي الله عنه عند أبى داود «ثَلاَثَةٌ لاَ تَقْرَبُهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، جِيفَةُ الْكَافِرِ، وَالْمُتَضَمِّخُ بِالْخَلُوقِ[4] وَالْجُنُبُ إِلاَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ[5]». ومن ذلك ندرك أنّ العلّة فى امتناع الملائكة من دخول البيت الذى فيه الجنب هى تهاونه بالجنابة ولكونه بعيدا عن العبادة مُمتنعا من الذّكر والتّلاوة.

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٣٤١].

(٢) انظر المنهل العذب المورود [ج ٢ ص ٢٩٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٠٥] وأبو داود [٢٢٢] وابن ماجه [٤٨٠].

(٤) الخَلُوقُ ضرب من الطّيب أعظم أجزائه الزّعفران.

(٥) حديث حسن أخرجه أبو داود [٤١٨٠] وأورده الألبانى فى السّلسلة الصّحيحة [١٨٠٤].

(٥) الملائكة يؤمّنون على قراءة المصلّى

شاءت إرادة الخالق جلّ وعلا أن تتأكّد العلاقة الوثيقة بين المؤمن والملائكة التى تشهد الصّلوات ممّن فى الأرض أو فى السّماء عندما يتوافق تأمين المصلّى مع تأمين الملائكة كما فى قول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا قَالَ الإِمَامُ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ فَقُولُوا آمِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ(١)». وفى رواية «إِذَا قَالَ الإِمَامُ سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ(٢)».

وفيها إشعار بأنّ الملائكة تقول ما يقوله المأمومون، وأنّ المراد بالموافقة أن تكون فى القول والزّمن لقوله ﷺ «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ وَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ فِى السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ(٣)». ومعناه: وافقهم فى وقت التّأمين فأمّن مع تأمينهم، فهذا هو الصّحيح والصّواب.

(قال) ابن المنير [والحكمة فى إيثار الموافقة فى القول والزّمان أن يكون المأموم على يقظة للإتيان بالوظيفة فى محلها لأنّ الملائكة لا غفلة عندهم فمن وافقهم كان متيقظا(٤)].

واختلفوا فى هؤلاء الملائكة فقيل هم الحفظة وقيل غيرهم لقوله ﷺ «فَوَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ أَهْلِ السَّمَاءِ(٥)». وأجاب الأوّلون عنه بأنّه إذا قالها الحاضرون من الحفظة قالها من فوقهم حتّى ينتهى بها إلى أهل السّماء.

ويُستفاد من هذه الأحاديث:

(١) استحباب التّأمين عقب الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد [(٦)].

(٢) وأنّه ينبغى أن يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام لا قبله ولا بعده لقول النّبى ﷺ «وَإِذَا قَالَ: [وَلاَ الضَّالِّينَ] فَقُولُوا آمِينَ». أمّا رواية «إِذَا أَمَّنَ فَأَمِّنُوا» فمعناها إذا أراد التّأمين.

(٣) كما يُسنّ للإمام والمنفرد الجهر بالتّأمين وكذا للمأموم على المذهب الصّحيح، وقد أجمعت الأمّة على أنّ المنفرد يؤمّن وكذا الإمام والمأموم فى الصّلاة السّريّة وكذلك قال الجمهور فى الجهريّة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤١٠] وافقه البخاوى [٧٨٢] وأبو داود [٩٣٦]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٠٩] وأبو داود [٨٤٨] والتّرمذى [٢٦٧]. (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٤ / ٤١٠] وافقه البخارى [٧٨١]. (٤) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ٣٠٩]. (٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٦ / ٤١٠]. (٦) انظر نووى مسلم [ج ٢ ص ٣٦٦].

(٦) الملائكة يستغفرون للمسلم

من الملائكة من يدعون للمؤمن ويستغفرون له ويصلّون عليه ما دام في طاعة ربّه سبحانه، ويبشّرونه بكرامة الله تعالى وعفوه ومغفرته، وهم الذين يذكّرونه إذا نسى وينشّطونه إذا كسل ويثبّتونه إذا جزع لقوله ﷺ من حديث أبي هريرة عند البخارى «إِنَّ أَحَدَكُمْ فِى صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلاَئِكَةُ تَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، مَا لَمْ يَقُمْ مِنْ صَلاَتِهِ أَوْ يُحْدِثْ[١]».

وجاء عند مسلم «وَالْمَلاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِى مَجْلِسِهِ الَّذِى صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ مَالَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ[٢]». وهو مطابق لقول الله تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشّورى: ٥]. والسّرّ في ذلك أنّهم يطّلعون على أفعال بنى آدم وما فيها من المعصية والخلل فى الطّاعة فيقتصرون على الاستغفار لهم من ذلك.

ولمّا ذكر القرآن أنّ الملائكة يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب فى قول الله تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: ٧]. فقد دلّت هذه السّجيّة الطّاهرة على أنّهم يحبّون من اتّصف بهذه الصّفة، عندما يتلقّف الْمَلَكُ الموكّل بالإنسان الدّعاء من فم صاحبه ليردّه عليه بمثل ما قال لقوله ﷺ من حديث أبى الدّرداء ﷺ «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلاَّ قَالَ الْمَلَكُ وَلَكَ بِمِثْلٍ[٣]». وفى رواية «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ[٤]».

والدّعاء بظهر الغيب معناه أن يكون فى غيبة المدعو له وفى سرّه لأنّه أبلغ فى الإخلاص والقبول. [قال] النّووى [وفى هذا فضل الدُّعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعة من المسلمين لحصلت لهم هذه الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين فالظّاهر حصولها أيضا، وكان بعض السّلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدّعوة لأنها تُستجاب ويحصل له مثلها[٥]].

(٧) الملائكة تلعن من هجرت فراش زوجها

جاء الخبر الصّحيح الذى يُبيّن أنّ الملائكة تلعن تلك التى هجرت فراش زوجها من

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٢٩] ومسلم [٦٤٩].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢ / ٦٤٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٣٢] وأبو داود [١٥٣٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٣٣] وابن ماجه [٢٣٥٨].

(٥) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٥٩].

غير إذن أو عذر لقوله ﷺ «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِه فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ[1]». وفي رواية البخارى «لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ[2]». [قال] النووى: [إنّ اللّعنة تستمرّ عليها حتّى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها، أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش[3]].

وظاهر عموم الحديث حرمة امتناعها من فراشها ولو كانت حائضا لإمكان الاستمتاع بها بغير جماع، وظاهر الخبر اختصاص اللّعن بما إذا وقع منها ذلك ليلا لقوله «حَتَّى تُصْبِحَ». وكأنّ السِّرّ فيه تأكيد ذلك الشّأن فى اللّيل وقوّة الباعث عليه ولا يلزم منه جواز امتناعها منه نهارا، أمّا تخصيص اللّيل بالذّكر فلكونه مظنّة ذلك.

كما تحمل الأحاديث [الدّلالة على أنّ الملائكة تدعو على أهل المعصية ما داموا فيها، وذلك يدلّ على أنّهم يدعون لأهل الطّاعة ما داموا فيها، كما أنّها دليل على قبول دعاء الملائكة من خير أو شرّ لكونه ﷺ قد خوّف من ذلك، واختُلف فى أىّ الملائكة تلعن هذه الزّوجة أهم الحفظة أم غيرهم؟. إلاّ أنّ الأمرين يُحْتَمَلان عند العلماء، كما يُحتمل أن يكون بعض الملائكة مُوكّلا بذلك[4]].

وكما يحمل الحديث الإرشاد إلى مساعدة الزّوج وطلب مرضاته يبيّن أنّ من أقوى المُؤثّرات على الرّجل داعية النّكاح، ولذلك حضّ الشّارع الحكيم النّساء على مساعدة الرّجال فى ذلك، كما أنّ فيه الإشارة إلى ملازمة طاعة الله تعالى والصّبر على عبادته جزاء على مراعاته لعبده، حيث لم يترك شيئا من حقوقه إلاّ جعل له من يقوم به، حتّى جعل ملائكته تلعن من أغضب عبده بمنع شهوة من شهواته.

(٨) الملائكة تحفّ مجالس العلم بأجنحتها

جاءت الرّوايات التى تؤكّد تنزّل الملائكة الكرام على أهل العلم بالسّكينة والرّحمة والمغفرة، وأنّ الله تعالى يُظهر فضلَهُم ويفخر بهم لقوله ﷺ «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ[5]». وقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٩٣] ومسلم [١٤٣٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٩٤].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٥ ص ٢٦١].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٩ ص ٢٠٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩] وأبو داود [٤٩٤٦] والترمذى [١٤٢٥].

وَجَلَّ إلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيمَنْ عِنْدَهُ[1]».

وتقف بنا الأحاديث أمام أمرين:

(الأوّل) أهميّة تحصيل العلم وتأصيله في حياة المسلم.

(الثّاني) احتفاء الملائكة بمن حرص على مجالس العلم والتّعلّم.

أمّا [الأمر الأوّل] فإنّه يدلّل على أنّه ليس أفضل من العلم تكرمة يحبّ المرء أن يُوصف بها ولو لم يكن العلم له صفة، وليس أسوأ من الجهل مذمّة يكره أن يُنعت بها ولو لم يكن عنده من العلم شيء، فكفى بالعلم شرفًا أن يدّعيه من لا يحسنه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ منه من هو غارق فيه.

وأمور الدّين لا تُعرف إلاّ بالتّفقُّه فيه ومدارسة أحكامه لما رواه أبو الدّرداء رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ به طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّة، وَإِنَّ الْمَلاَئكَةَ لَتَضَعُ أَجْنحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِد كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ[2]».

فأجلّ العلوم ما قرّب إلى الخالق تعالى وأعان على الوصول إلى عفوه ورضاه وهو المراد من قوله ﷺ «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا». وسلوك الطّريق لالتماس العلم يدخل فيه:

(١) سلوك الطّريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء.

(٢) وسلوك الطّريق المعنويةّ المؤدّية إلى تحصيل هذا العلم ومعرفته، وحفظه، ومذاكرته، ومدارسته، ومطالعته، وكتابته، والتّفهُّم له، ونحو ذلك من الطّرق المعنويّة التي يُتوصّل بها إلى هذا العلم، وعلى هذا فالعلم المحصّل قسمان:

(أحدهما) ما كانت ثمرته في قلب الإنسان وهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته «المقتضي» لخشيته ومهابته وإجلاله والخضوع له ومحبّته ورجائه ودعائه والتّوكُّل عليه ونحو ذلك، فهذا هو العلم النّافع كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ».

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠٠] والتّرمذي [٣٣٧٨] وابن ماجه [٣٠٧٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٤١] والتّرمذي [٢٦٨٢] وابن ماجه [١٨٣].

(والثّانى) العلم الذى على اللّسان وهو حُجَّة على الإنسان، فأوّل ما يُرفع من الدّين العلم النّافع الذى يُخالط القلوب ويُصلحها ويبقى علم اللّسان حُجَّة، فيتهاون النّاس به ولا يعملون بمقتضاه، وهو المعنى الذى تضمّنه قول جابر رضي الله عنه «الْعِلْمُ عِلْمَان: عِلْمٌ فى القلب فذاك الْعِلْمُ النَّافِعُ، وعِلْمٌ على اللّسانِ فذاكَ حُجَّةُ اللهِ تعالَى على ابْنِ آدمَ يومَ الْقِيَامَةِ [1]».

ثمّ يشير [الأمر الثّانى] إلى تكريم هؤلاء الذين يجلسون فى بيت الله تعالى يتلون كتابه ويتدارسونه فيما بينهم بأربعة أشياء:

(أحدها) تنزُّل السّكينة

ذُكرت السّكينة فى ستّة مواضع من كتاب الله العزيز منها قوله تعالى﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ٤]. وقوله تعالى﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]. والسّكينة بوزن فعيلة: ما تسكن به النّفوس وهى مأخوذة من الطُّمأنينة وسُكون النّفس إلى صدق الوعد وقوّة اليقين.

والمراد بها هنا الحالة التى يطمئن بها القلب، فلا يزعج لطارق دنيوى لعلمه بإحاطة قدرة الله تعالى لسائر الكائنات، فيسكن القلب ويطمئن بموعود الأجر والثّواب لقوّة رجائه بحصوله لما وفقه للاشتغال به عمّا سواه. (قال) التُّوربشتى [هى الحال التى يطمئنّ بها القلب فيسكن عن الميل إلى الشّهوات وعن الرّغب، والأصل فيها الوقار، وقيل هى مَلَكَةٌ تسكن قلب المؤمن وتؤمّنه ومنه قول رسول الله ﷺ «إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ»].

وجاء عن تنزّل السّكينة على قارئ القرآن ما رواه الشّيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه «كَانَ رَجُلٌ يَقْرأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ [2] فَتغشّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنفرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ [3]».

وجاء عن أبى سعيد «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرأُ فِي مِرْبَدِهِ» الحديث. وفيه «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ [4]». فأخبر رسول الله ﷺ [عن تنزّل السّكينة مرّة وعن نزول الملائكة

---

(١) رواه ابن عبد البرّ فى كتاب العلم عن الحسن مُرسلا بإسناد صحيح [ج ٢ ص ١٩٠].

(٢) الشَّطَنَيْن تثنية «الشّطن» وهو الحبل الطويل تُشدُّ به الدّابّة.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦١٤] ومسلم [٧٩٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٨] ومسلم [٧٩٦].

مـرّة، فدلّ على أنّ السّكينة كـانت فى تلك الظُّلّة وأنّهـا تتنزّل أبدا مـع الملائكة(١)].

(والثّانى) غشيان الرّحمة

أصل الغشيان التّغطية ومن ذلك قول الله تعالى﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[اللّيل: ١]. أى يغطّى كلّ شىء، ومن معنى «الْغَشَيَان»: الإتيان. يقال: «يغشانى النّومُ أوّل اللّيل» أى يأتينى، وهذا يعنى أنّ الرّحمة واللّطف والعفو والإحسان قد عمّت مجالس العلم والذّكر والتّلاوة وأحاطت بها إحاطة الشّمول والتّغطية من كلّ جانب كما فى قول رسول الله ﷺ «وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ».

ومراده كما هو ظاهر: آثارها من الجود والفيض والإحسان والفضل كقول الله تعالى﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾[البقرة: ١٥٧]. وقوله تعالى﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الإسراء: ٨٢]. وجاء عن سلمان رضي الله عنه أنّه كان فى جماعة يذكرون الله تعالى، فمرّ النّبى ﷺ فقال لهم «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ؟ فَإِنِّى رَأَيْتُ الرَّحْمَةَ تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُشَارِكَكُمْ فِيهَا(٢)».

(الثّالث) حفاف الملائكة بهم

قام الدّليل على أنّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع لقوله ﷺ «وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ(٣)». وفى رواية «وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ». أى أحدقت بهم وطافت بحفافيهم تشريفا لهم وتنويها لما هم فيه من الذّكر والتّجلّيات والخضوع والطّاعة.

وإنّما تفعل الملائكة ذلك لأهل العلم خاصّة من بين سائر أعمال الطّاعة لله تعالى لتأدّبها بهذا الأدب منذ السّجود لآدم، فكُلّما ظهر لها علم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظاما للعلم وأهله ورضًى منهم بالطّلب له والسّعى إليه والانشغال به.

ويَسْأَلُ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ وهو فى المسجد «مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، قَالَ: فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ(٤)». وجاء فى رواية «قَالَ فَأَبْشِرْ فَإِنَّهُ مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْرُجُ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ بَسَطَتْ لَهُ الْمَلائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى بِمَا يَفْعَلُ حَتَّى يَرْجِعَ(٥)». وفى بسط الملائكة لأجنحتها تعظيم للمذكور سبحانه

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٣ ص ٢٤٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم فى المستدرك [٤٢٣] ووافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.

(٣) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٤١] والتّرمذى [٢٦٨٢] وابن ماجه [١٨٣].

(٤) أخرجه الحاكم [٣٤٤] وأورده الذّهبى فى التّلخيص سندًا ومتنًا.

(٥) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٣٤٣] وأورده فى صحيح الجامع [١٩٥٦].

وإعظام للذّاكر على غاية من القرب والمواصلة بحيث لا يتركون للشّيطان فُرجة يتوصّل منها إلى الذّاكر بحال.

ويراد بقوله ﷺ «تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا» واحد من أمرين:

(الأوّل) أنّها تعطف عليه وتدعو له كما قال تعالى فيما وصّى به الأبناء من الإحسان إلى الوالدين بقوله ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[الإسراء: ٢٤]. وهي استعارة في الشّفقة والرّحمة بهما والتّذلّل لهما، وضَرْبَ خَفْض الجناح مَثَلا لجناح الطّائر حين ينتصب بجناحه لولده.

(الثّاني) أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها لما ذكر في بعض الرّوايات «وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَفْرِشُ أَجْنِحَتَهَا». أي إنّ الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه الصّحيح ابتغاء مرضاة الله، وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته وحملته عليها، فلا يحْفى إن كان ماشيا، ولا يملّ إن كان متعبا، وتقرُب عليه الطّريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضّرر كالمرض والتّعب وذهاب المال وضلال الطّريق.

وجليس المسجد إذا تخلّف عن الجماعة ومجالس العلم والذّكر استوحشته الملائكة وسألت عنه واستشعرت فقده، فإن كان الغياب لمرض دعوا له بالشّفاء والثّواب، وإن كان في حاجة ساعدته وأعانته لقوله ﷺ من رواية أبي هريرة عند أحمد «إِنَّ لِلْمَسَاجِدِ أَوْتَادًا، الْمَلاَئِكَةُ جُلَسَاؤُهُمْ، إِنْ غَابُوا يَفْتَقِدُوهُمْ، وَإِنْ مَرِضُوا عَادُوهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ أَعَانُوهُمْ[(١)]». وقوله «أَوْتَادًا»: أي روّاد المسجد الذين تثبت بهم أركان الدّين وتقوى ويحافظون على الجماعة ومجالس العلم فيه.

(الرّابع) ذكر الله لهم في الملأ الأعلى

ويكون ذلك بثنائه على عباده في الملأ الأعلى تنويها بعلوّ درجاتهم وزيادة ثوابهم وإخلاصهم في عبادته، ومن ذكره أيضا أن يُفرّج عن المكروب كربه إذا قرأ القرآن، ويزيل عن المعسور عسره لأنّ ذلك أدعى للإجابة وأقرب للقبول وتنزّل الرّحمات لقوله ﷺ «يَقُولُ اللهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ[(٢)]». والله عزّ وجلّ ذاكرٌ من ذَكَرَهُ وزائدُ من شكره ومُعذّبُ من كفره. وفي معنى قوله ﷺ «وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ[(٣)]». (قال) النّووي [يُظْهِرُ فضلكم لهم،

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٩٣٨٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٥] وافقه البخاري [٧٤٠٥].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠١] والتّرمذي [٣٣٧٩].

يُريهم حسن عملكم ويُثنى عليكم عندهم، وأصل المباهاة من بَاهَى يُبَاهِى مُبَاهَاةً مُبَاهٍ: افْتَخَرَ(1)].

تمثّل الملائكة فى صورة البشر

جاءت الأدلّة التى تؤكّد أنّ الملائكة أجسام علويّة طاهرة لطيفة قادرة على [التمثّل] بالهيئات و[التّشكُّل] بالمرئيّات، والقرآن الكريم والأحاديث الصّحيحة يشيران فى أكثر من موضع إلى أحداث ووقائع تمثّلت فيها الملائكة الكرام بصورة البشر بقدرة الخالق سبحانه ومشيئته، وقد جاء التّصريح باستطاعتهم [التّمثّل] بالأشكال الجسمية فى عدّة نصوص قرآنيّة وأحاديث صحيحة منها:

(1) بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السّلام

وقصة الملائكة مع إبراهيم ﷺ تضمّنها قوله تعالى﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٦٩ - ٧١]. وتشير الآيات إلى المهمّة التى كُلِّفَ بها الملائكة من خلال أمرين:

(الأوّل) حملهم البشارة لإبراهيم بالذّرية والولد.

(الثّانى) مجيئهم بالعذاب إلى قوم لوط.

ونُقل عن بعض المفسّرين أنّهم كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، فلمّا رأى إبراهيم ﷺ أنّهم لم يأكلوا أنكرهم وخافهم، فقالوا لا تخف! وأخبروه أنّهم رسل الله جاءوه مبشّرين لامرأته بالولد والذّريّة.

(قال) علماؤنا [لم يأكلوا لأنّ الملائكة لا تأكل وقد كان من الجائز كما يَسَّرَ الله لهم أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جسدا وهيئة أن ييسّر لهم أكل الطّعام، إلاّ أنّه كما قال العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى حتّى يتكلّف إبراهيم الضّيافة، فإذا ما رأى توقّفهم عن الطّعام وخاف، جاءته البشرى فجأة بإسحاق ويعقوب وهو ما كان ينتظره ويتمنّاه(2)].

(2) قصّة الملائكة مع لوط عليه السّلام

فى تفسير قول الله تعالى﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾[هود: ٧٧]. قال العلماء [إنّ الملائكة عند خروجهم من عند إبراهيم وكان بين بيته وبين تلك القرية التى يسكنها

(1) انظر المعجم العربى الأساسى [ص ١٨٧].

(2) انظر أحكام القرآن [ج ٣ ص ١٠٦٣].

لوط أربعة فراسخ، بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة ورأتا هيئة حسنة، فقالتا: ما شأنكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية. قالتا: فإنّ أهلها أصحاب الفواحش! فقالوا: أبها مَنْ يُضيِّفُنا؟ قالتا: نعم هذا الشّيخ وأشارتا إلى نبيّ الله لوط عليه السّلام. فلمّا رأى لوط حسن سمتهم وجمال هيئتهم خاف قومه عليهم كما في قول الله تعالى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]. وإنّما ضاق صدره وأُفُقَهُ بهم لما رأى من جمالهم وحسن هيئتهم وما يعلم من فسق قومه وغيّهم وانحرافهم وضلالهم(١)].

وقول الله تعالى ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨]. يحكي هرولة امرأة لوط الكافرة لمّا رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم إلى مجالس قومها قائلة لهم: إنّ لوطا ﷺ قد أضاف اللّيلة فتية ما رُؤى مثلهم جمالا وكذا وكذا، فحينئذ جاءوا يُهرعون إليه، والآيات تسجّل كلّ جوانب القصة كما في قول الله تعالى ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨١ - ٨٢].

(٣) ملك الموت وموسى عليه السّلام

ثمّ تأتي قصّة مَلَك الموت مع نبيّ الله موسى عليه السّلام لتؤكّد حقيقة هامّة تتعلّق بقدرة الملائكة الكرام على [التّخييل والتّمثّل] في صورة الإنسان كما شاء الله تعالى، ومن الأحاديث التي ذكرت هذه القصّة ما أورده البخاري عن أبي هريرة موقوفا، ثم عقّبه برواية همّام عنه مرفوعا قال:

«أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ. قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِمَا غَطَّى يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ، قَالَ: فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَوْ كُنْتُ ثَمَّ، لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ(٢)».

وجاء في رواية همّام عن أبي هريرة عند أحمد ومسلم «جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ أَجِبْ رَبَّكَ قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا، قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ!. وَقَدْ فَقَأَ

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ٩ ص ٧٤].

(٢) أخرجه البخاري [٣٤٠٧] ومسلم [٢٣٧٢].

عَيْنِى ، قَالَ : فَـرَدَّ اللهُ إِلَيْه عَيْنَهُ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى عَبْدِى فَقلْ : الْحَيَاةَ تُرِيدُ ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيد الْحَيَـاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَـوْر ، فَمَا تَـوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَة فَإِنَّكَ تَعيشُ بِهَـا سَنَةً ، قَالَ ثُـمَّ مَـهْ ؟ قَـالَ : ثُمَّ تَمُوتُ ، قَـالَ فَـالآنَ مِنْ قَرِيـب ، رَب أَمِتْنِى مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَة رَمْيَةً بِحَجَر[(١)] » . وفى رواية عمّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « كَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَأْتِى النَّاسَ عيَانـًا فَأَتَى مُوسَى فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ[(٢)] » .

وتشير الرّوايات إلى أنّ ملَك الموت بُعثَ إلى موسى عليه السّلام مرّتين :

{المرّة الأولى}

وكانت تخييراً لموسى عليه السّلام وليست تكليفًا للْمَلَك بقبض روحه ، فلمّا قال له (أَجِبْ رَبَّكَ) دفعه موسى عليه السّلام عن نفسه بقوّة لمَا رُكِّبَ فيه من الْحدَّة ولَطَمَ عَيْنَ الْمَلَك ففقأَهَا ، وعلّل العلماء لطمة موسى لملَك الموت عليهما السّلام بمـا يلى :

(١) أنّ مجىء ملَك الموت إلى موسى عليه السّلام كان على غير الصّورة التى كان يعرفه عليها ، وكان موسى غيورا فرأى فى داره رجلا لا يعرفه فرفع يده فلطمه ، ولم يعلم أنّه مَلَكٌ من عند الله تعالى ، وظنّ أنّه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها ممّا أدّى إلى فقء عينه ، لا أنّه قصدها بالفقء وتؤيّده رواية « فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ » .

وهذا ما اختاره كثير من الأئمّة ، قالوا : وليس فى الحديث تصريح بأنّه تعمّد فقء عينه ، فإن قيل : فقد اعترف موسى عليه السّلام حين جاءه ثانيا بأنّه ملَك الموت ؟ ، فالجواب أنّه أتاه فى المرّة الثّانية بعلامة عَلِمَ بها أنّه مَلَكُ الموت فاستسلم بخلاف المرّة الأولى والله تعالى أعلم .

(٢) أنّه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السّلام قد أذنَ الله له فى هذه اللّطمة ويكون ذلك امتحانا للمظلوم ، والله سبحانه يفعل فى خلقه ما شاء ويمتحنهم بما أراد .

(٣) وجوّز ابن عقيل أن يكون موسى عليه السّلام قد أُذنَ له أن يفعل ذلك بمَلَك الموت ، وأُمِرَ ملك الموت بالصّبر على ذلك كما أُمِرَ موسى ﷺ بالصّبر على ما يصنع الخضر .

(٤) أو أنّه لطمه لأنّه جاء لقبض روحه من قبل أن يُخَيِّرَهُ لما ثبت أنّه لم يُقْبَضْ نَبِىٌّ حتّى يخيّر لما روى عن أمّ المؤمنين عائشة قالت « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ : لَنْ يُقْبَضَ نَبِىٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّة ثُمَّ يُخَيَّرُ[(٣)] » . فلهذا لمّا خيّره فى المرّة الثّانية أذْعَنَ وقال « فَالأنَ مِنْ قَرِيبٍ » .

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٨ / ٢٣٧٢] وأحمد [٧٦٣٤] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٥٠٩] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٤٨] ومسلم [٢٤٤٤] .

أمّا (المرّة الثّانية)

فقد علم فيها موسى عليه السّلام أنّه ملَك الموت وأنّه جاءه بالرّسالة من عند الله فطابت نفسه بقضائه ولم يستمهل وقال «فالآنَ». وقد ترتّب على ذلك عدّة أمور:

(١) أنّ الله تعالى ردّ إلى ملَك الموت عينه ليعلم موسى أنّه جاء من عند الله فلهذا استسلم حينئذ لأمر ربّه تعالى ومشيئته.

(٢) إنّما فقأ موسى العين التى هى [تخييل وتمثيل] وليست عينا على الحقيقة، ومعنى ردّ الله تعالى عينه أى أعادها إلى خلقتها الحقيقيّة وهو قول ابن قتيبة.

(٣) أنّ الله تعالى ردّ إلى ملَك الموت عينه البشرية ليرجعه إلى موسى على كمال الصّورة فيكون ذلك أقوى فى اعتباره، وهذا هو المعتمد [لتمثُّله] بصورة الإنسان، وقد جاء ذلك فى عدّة أحاديث سبق الإشارة إليها.

(٤) كما استُدلَّ بقول النّبى ﷺ «لَكَ بكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةً». على أنّ الذى بقى من الدّنيا كثير لأنّ عددَ الشّعر الذى تواريه اليد قدر المدّة التى بين موسى وبعثة نبيّنا الأكرم ﷺ مرّتين وأكثر، وأنّ أجل موسى قد كان قَرُبَ حضوره ولم يبق منه إلاّ مقدار ما دار بينه وبين ملك الموت من المراجعتين.

أمّا سُؤال موسى عليه السلام الإدناء من الأرض المقدّسة بقوله «أَمِتْنِى مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ». فلشرفها وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم، وقال بعض العلماء: وإنّما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنّه خاف أن يشتهر قبره عندهم فيفتتن به النّاس. وزعم ابن حبّان أنّ قبر موسى ﷺ بمدين بين المدينة وبيت المقدس، إلاّ أنه اشتهر عن قبر بأريحا عنده [كَثِيبٌ أَحْمَرُ] أنه قبر موسى ﷺ، وأنّ أريحا من الأراضى المقدّسة التى بارك الله حولها، و«الكثيب» هو الرّمل المستطيل المحدودب.

وجاء عن قبض ملَك الموت لروح موسى عند عمّار «فَشَمَّهُ شَمَّةً فَقَبَضَ رُوحَهُ وَكَانَ يَأْتِي النَّاسَ خُفْيَةً». يعنى بعد ذلك، ويقال إنّه أتاه بتفّاحة من الجنّة فشمّها فمات، وذكر السِّدِّىُّ فى تفسيره: أنّ موسى لـمّا دنت وفاته مشى هو وفتاه يوشع ابن نون فجاءت ريح سوداء فظنّ يوشع أنّها السّاعة فالتزم موسى، فانسلّ موسى من تحت القميص فأقبل يوشع بالقميص، وعن وهب بن منبّه [أنّ الملائكة تولوا دفنه والصّلاة عليه وأنّه عاش مائة وعشرين سنة(١)].

(قال) المازرى [وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وقالوا: كيف يجوز على موسى عليه السّلام فقء عين ملَك الموت؟ وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

---

(١) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٥٠٩].

أحدها ـ أنّه لا يمتنع أن يكون نبى الله موسى عليه السّلام قد أذن الخالق تعالى له فى هذه اللّطمة ويكون ذلك امتحانا للمظلوم، والله سبحانه وتعالى يفعل فى خلقه ما شاء ويمتحنهم بما أراد.

والثّانى ـ أنّ موسى لم يعلم أنّه ملَك وظنّ أنّه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها فأدّت المدافعة إلى فقء عينه لا أنّه قصدها بالفقء، وتؤيّده رواية «وَصَكَّهُ»[(١)]

(٤) تمثّل روح القدس لمريم بشراً سويّاً

ويأتى جبريل ليتمثّل لمريم عليها السّلام بشرا سويا بإذن ربّه ليهَبها غلاما زكيًّا كما فى قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]. أى بشرا مستوى الخَلْق لم يفقد من صفات الإنسان شيئا، والأكثرون فى التّفسير على أنّه جبريل ويسمّى فى القرآن [رُوحًا] كما فى قول الله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشّعراء:١٩٣ـ١٩٤]. ولا يليق ذلك إلاّ بجبريل عليه السّلام.

واختلفوا فى كيفيّة ظهوره لها على قولين:

(الأوّل) أنّه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سَوِىُّ الْخَلْقِ.

(الثّانى) أنّه ظهر على صورة ترْبٍ لها[(٢)] اسمه يوسف من خُدَّام بيت المقدس، وكلّ ذلك محتمل ولا دلالة فى اللّفظ على التّعيين. وقيل [إنّما تمثّل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه، فلو ظهر لها فى صورة الملائكة لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه[(٣)]].

(٥) رؤية النّبى ﷺ لجبريل عليه السّلام

أمّا رؤية النّبى ﷺ لجبريل عليه السّلام فإنّ أحوالها تعدّدت وتنوّعت من خلال ثلاث مراحل:

{الأولى} رؤيته ﷺ له على صُورَتِهِ الْخِلْقِيَّة

بدأت رؤية النّبى ﷺ لجبريل عليه السّلام فى صورته التى خُلق عليها وله ستمائة جناح، ورؤيته له وهو على كرسى بين السّماء والأرض وقد سدّ الأُفق، وقد ثبت عن عائشة رضى الله عنها عند مسلم أنّه لم يره كذلك إلاّ مرّتين أو لم يأته فى تلك الحالة بوحى لما رواه البخارى فى صحيحه:

(١) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص١٤٣].
(٢) التّرْبُ [المُمَاثِلُ فى السّن] وأكثر ما يُستعمل فى المؤنث وجمعه أتراب، ومنه قوله تعالى فى الكتاب ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [انظر المعجم الوجيز ص٧٣].
(٣) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢١ ص ١٩٨].

* عن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «فتَرَ عَنِّى الْوَحْيُ فتْرَةً، فبَيْنَا أنا أمْشي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِى قِبَلَ السَّمَاءِ، فإذَا الْمَلَكُ الَّذى قد جَاءَنِى بِحِرَاءَ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ(١)».

وعن مسروق «قُلْتُ لعائشة: ألَمْ يَقُلِ اللهُ تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة النّجم:١٣]. فقَالَتْ: أنَا أوَّلُ هذه الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ: إنَّما هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أرَهُ عَلَى صُورَتِه الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ: رَأيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إلَى الأرْضِ(٢)».

* وروى الشّيباني قال «سَألْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. قَالَ أخْبَرَنِى ابنُ مَسْعُودٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمائَةِ جَنَاحٍ(٣)».

* وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النّجم:١١]. قال «رأى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ(٤)». وقوله ﷺ «أتَانِي جِبْرِيلُ فِي خُضْرٍ مُعَلَّقٍ بِه الدُّرُّ(٥)». وعن ابن مسعود قال «رأى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي صُورَتِه وَلَهُ سِتُّمائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِه مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِه عَلِيمٌ(٦)». والتّهاويل واحدها تهوال وهى الأشياء المختلفة الألوان، وأصلها ممّا يهول الإنسان ويحيّره.

(الثّانية) تمثّل جبريل في صورة الرّجل

وكان جبريل عليه السّلام يتمثّل للنّبى ﷺ في أكثر الأحيان في صورة الرّجل لحديث عائشة «أنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَألَ النَّبيَّ ﷺ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ أحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا(٧)».

وقوله «يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً»: أى يتمثّل مثل الرّجل أو بالتّمييز أو بالحال، والتّقدير: هيئة رجل. (قال) إمام الحرمين [تمثّل جبريل معناه أنّ الله تعالى أفنى الزّائد من خلقه أو

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٣٨] ومسلم [١٦١].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٧ / ١٧٧] واللّفظ له والتّرمذى [٣٠٦٨].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٨٥٨] ومسلم [١٧٤].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٨٥٦] وأحمد [٣٧٤٠] والتّرمذى [٣٢٨٣].
(٥) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٨٦٣].
(٦) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٧٤٨].
(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢١٥] ومسلم [٢٣٣٣].

أزاله عنه ثمّ يعيده إليه بعد، ولا ينحصر الحال فى ذلك بل يجوز أن يكون الآتى هو جبريل بشكله الأصلى إلا أنّه انضمّ فصار على قدر هيئة الرّجل وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته.

وضربوا لذلك مثلا بالقُطن إذا جُمعَ بعد أن كان مُنتفشا فإنّ صورته تتضخّم بالنّفش ولم تتغيّر ذاته وهذا على سبيل التّقريب. والحقّ أنّ تمثُّل الملَك رجلا ليس معناه أنّ ذاته انقلبت رجلا بل معناه أنّه ظهر بتلك الصّورة تأنيسا لمن يخاطبه، والظّاهر أيضا أنّ القدر الزّائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى عن الرّائى فقط[1]].

ومثال ذلك ما رواه مسلم عن أبي سلمة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «يَاعَائِشُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلاَمَ. قَالَتْ فَقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ» قَالَتْ «وَهُوَ يَرَى مَالاَ أَرَى[2] ». أى أنّ رسول الله ﷺ يرى جبريلَ على هيئته التى نزل بها ولا أراه، وفى الحديث فضيلة ظاهرة لعائشة أم المؤمنين لسلام جبريل عليها.

(الثّالثة) تمثّل جبريل فى صور بعض الصّحابة

وكان جبريل عليه السّلام يأتى النّبى ﷺ فى صور بعض الصّحابة رضوان الله عليهم، عندما رأت أمّ سلمة رضى الله عنها جبريل فى صورة دحْيَةَ الكلبى وهو أحد أصحاب رسول الله ﷺ وقد كان رجلا وسيما لما رواه مسلم عن أبى عثمان قال «وَأُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَتَى نَبِيَّ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ، قَالَ: فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ ثُمَّ قَامَ. فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ: مَنْ هَذَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ. قَالَ: فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: ايْمُ اللهِ! مَا حَسِبْتُهُ إِلاَّ إِيَّاهُ حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ يُخْبِرُ عَنْ جِبْرِيلَ[3] ».

(قال) النّووى [فيه منقبة لأمّ سلمة رضى الله عنهاوجواز رؤية البشر للملائكة ووقوع ذلك على الحقيقة، فيرونهم على صورة الآدميين، لأنّهم لا يقدرون على رؤيتهم على صورهم، وكان النّبى ﷺ يرى جبريل على صورة دحية غالبا[4]]. ويؤيّده ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ[5] ».

ويروى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ لمّا عُرِض عليه الأنبياء ليلة الإسراء أخبر عن رؤيته لجبريل عليه السّلام فوجده أقرب شَبَهًا إلى دحية الكلبى فقال «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٢٩] والنّفْشُ التّفرّق والانتشار بعد التّلبُّد.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٥٣] ومسلم [٢٤٤٧] وأبو داود [٥٢٣٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٣٣] ومسلم [١٠٠ / ٢٤٥١].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٨ص ٢٤٥].

(٥) حديث صحيح أخرجه أحمد [٥٨٥٧].

ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ إِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ [يعنى نفسه] وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ[1]». وفى رواية ابن رُمْح «دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ». [قال] الجوهرى الشَّنوءَة: التَّقزّز وهو التّباعد عن الأدناس.

الصّحابة الكرام يرون الملائكة

(أ) جبريل يسأل النّبى ﷺ أمام الصّحابة

تعدّدت رؤية الصّحابة للملائكة الكرام وكان ذلك واقعا حسّيًّا معلوما فى حياتهم، وبداية ذلك عندما جاء جبريل فى صورة السّائل عن أحكام الدّين كما وصفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنّه:

«شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟[2]». وبدأ يسأل رسول الله ﷺ فى حضرة الصّحابة عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثمّ كان بيان النّبى ﷺ لذلك كلّه فى تواجده وحضور الصّحابة، ومع كلّ إجابة كان يقول «صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ».

ثمّ أدبر الرّجل فقال النّبي ﷺ رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ! فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ[3]». وفى رواية «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رُدُّوهُ عَلَيَّ! فَالْتُمِسَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا[4]».

ومن دلالات الحديث:

(١) أنّه أتاه بحضرة الصّحابة فى صورة رجل حسن الهيئة لكنّه غير معروف لديهم، وأنّ معنى قوله «وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ»: التّعجّب المتضمّن لدعوى كونه مَلَكًا إذ لو كان غريبا لظهر عليه أثر السّفر وشعثه، ولو كان مدنيًّا لعرفوه، واختار قوله «وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ» على قوله «لاَ نَعْرِفُهُ» لأنّه آكد فى تنكيره.

(٢) أنّ مناداة جبريل للنّبى ﷺ باسمه [يَا مُحَمَّدُ] دون تشريف وتفخيم مع قول الله تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النّور:٦٣]. يأتى زيادة فى التّغريب عند افتتاح الخطّاب بالمسألة.

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٧] والتّرمذى [٣٦٥٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠] ومسلم [٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩] وافقه البخارى (٤٧٧٧).

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠].

(٣) أنّ الله تعالى مكّن جبريل أن يتمثّل فيما شاء من الصّور البشرية فلم يعرفه النّبى ﷺ إلاّ فى آخر الأمر لما ورد من قوله «مَا جَاءَ لِى فِى صُورَةٍ لَمْ أَعْرِفْهُ إلاَّ فِى هَذِهِ الْمَرَّةِ». فدلّ على أنّ الْمَلَكَ يجوز أن يتمثّل لغير النّبى ﷺ فيراه ويتكلّم بحضرته وهو يسمع.

(٤) أنّ إسناد التّعليم إلى جبريل بقوله ﷺ عند مسلم «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، مجاز إذ كان المعلّم بالحقيقة رسول الله ﷺ.

(٥) أنّ حكمة مجىء جبريل لتعليمهم بسؤاله رسول الله ﷺ أنهم لمّا أكثروا السّؤال على النّبى ﷺ نهاهم كراهية لما قد يقع من سؤال تعنّت أو تجهيل أحجموا عن السّؤال، فلمّا صدقوا فى ذلك أرسل إليهم جبريل ليكفيهم المهمّات.

(٦) وفى قول النّبى ﷺ «رُدُّوهُ عَلَيَّ فَالْتَمِسَ فَلَمْ يَجِدُوهُ»: أنّ الملَكَ يجوز أن يتمثّل لغير النّبى ﷺ فيراه ويتكلّم بحضرته وهو يسمع، [وقد ثبت عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنّه كان يسمع كلام الملائكة والله أعلم(١)].

(٢) سعد بن أبى وقاص يرى الملكين الكريمين

وفى يوم أُحُد يرى الصّحابى الجليل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه جبريل وميكائيل عليهما السّلام يقاتلان عن النّبى ﷺ ويحرسانه لما رُوى عنه رضي الله عنه عند مسلم «لَقَدْ رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ يُقَاتِلانِ عَنْهُ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ(٢)». وجاء فى رواية البخارى قوله رضي الله عنه «رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ، يعنى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ(٣)».

وفى الحديث [بيان كرامة النّبى ﷺ على الله تعالى وإكرامه إيّاه بإنزال الملائكة تقاتل معه وتدافع عنه وتحرسه، وفيه بيان فضيلة الثّياب البيض، وأنّ رؤية الملائكة لا تختصّ بالأنبياء بل يراهم الصّحابة والأولياء والصّالحون، وفيه منقبة لسعد بن أبى وقّاص الذى رأى الملائكة(٤)].

(٣) قتال الملائكة يوم بدر

فى معركة بدر ومن عريشه الذى كان يقود منه المعركة نظر رسول الله ﷺ إلى السّاحة التى حوله ثمّ التفت إلى أبى بكر وقال «أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ مُعْتَجِرٌ

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ١٥١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٠٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٠٥٤].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٧٤].

بعمامته، آخذٌ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصرُ الله وعُدَّته[1]». وروى البخارى عن ابن عبّاس أنّ النبى ﷺ قال يوم بدر «هذا جبريل آخذٌ برأسِ فرسه عليه أداةُ الحرب[2]».

ويومها عاشت الدّعوة الوليدة لحظة من اللّحظات النّادرة فى التّاريخ الإنسانى، عندما أكّدت الوقائع أنّ للملائكة قوّة لا يصمد لها أحد من البشر أو غير البشر، والملائكة هم جنود الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. ولقد شاهدنا الملائكة قبل ذلك وهم يحملون أمر الله بالعذاب على القرى الظّالمة مثل قرية لوط أو قوم عاد أو قوم ثمود، وكانت هذه القرى تضمّ عشرات الألاف أو مئات الألاف، ورغم اتّساعها وامتلائها بالنّاس كانت لا تحتاج لأكثر من مَلَك أو مَلَكين لتدميرها وخسفها وتحويلها من مدن إلى خرائب خاوية على عروشها أو بحيرات.

ونعلم أيضا أنّ ظهور أحد الملائكة على صورته التى خلقه الله عليها يعنى هلاك كلّ البشر وصعقهم، ولا يحتمل هذه الرّؤيا إلاّ نبى من أُولى العزم الذين يزوّدهم الله تعالى بالقدرة على الاحتمال، فكيف نزل [ألفٌ] من الملائكة مع جيش المسلمين بينما مَلَك واحد كان يكفى لتحطيم جيش العدوّ وعشرات الجيوش معه؟.

إلاّ أنّ القرآن الكريم نزل ليؤكّد أنّ مشاركة الملائكة فى هذه المعركة إنّما جاء تثبيتا للمسلمين، وطمأنينة لقلوبهم، ودعما للثّقة بدينهم، وبشرى بالنّصر المؤكّد لهم، ولعلّ الله تبارك وتعالى قد أراد أن يرى الملأ الأعلى ملائكة البشر وهم يدافعون عن عقيدة التّوحيد كما فى قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[آل عمران: ١٢٦].

لقد كان احتفال الملائكة بالمسلمين يوم النّصر الأعظم فى بدر رفعة لدّين الإسلام ودعما لأركان الإيمان، إذ جاء المدد من السّماء موصولا بالمؤمنين فى أرض المعركة عندما أمدّهم الله بألف من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾، ثمّ بثلاثة آلاف ﴿مُنْزَلِينَ﴾. ثمّ بخمسة آلاف ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. فذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. وقوله ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران: ١٢٤-١٢٥].

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [١/٦٢٦] وابن كثير فى التّفسير [٢/٤٣٤].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٩٩٥].

وتظاهرت الرّوايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بدر تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم وكان في ذلك نصرة من الله تعالى لدينه ونبيّه ﷺ ومن ذلك :

ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ! إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَهُ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ. ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ(١)».

وقال أبو داود المازني رضي الله عنه «إِنِّي لأَتْبَعُ رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ لأَضْرِبَهُ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي(٢)». وليس غيره إلاّ مَلَك كريم من مدد السّماء المتواصل.

وجاء رجل من الأنصار بالعبّاس بن عبد المطّلب أسيرا، فقال العبّاس «إِنَّ هَذَا وَاللهِ مَا أَسَرَنِي، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ» فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسَرْتُهُ يَارَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «اسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ(٣)».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما «كَانَ الْمَلَكُ يَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ مَنْ يَعْرِفُونَ مِنَ النَّاسِ يُثَبِّتُونَهُمْ فَيَقُولُ إِنِّي قَدْ دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: لَوْحَمَلُوا عَلَيْنَا مَا ثَبَتْنَا فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[الأنفال: ١٢ (٤)].

وعن الرّبيع بن أنس رضي الله عنه قال «كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلائِكَةِ مِمَّنْ قَتَلُوهُمْ بِضَرْبٍ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَعَلَى الْبَنَانِ مِثْلَ سِمَةِ النَّارِ قَدْ أُحْرِقَ بِهِ».(٥) وفيه تحقيق معنى قوله ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

وروى البخاري عن رفاعة بن رافع قال «جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلائِكَةِ(٦)». وروى عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ(٧)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٣٦٩٠] والتّرمذي [٣٠٨١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٦٦٨] والبيهقي في دلائل النّبوّة [٢ / ٣٣٨].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٩٤٨] وأورده البيهقي في دلائل النّبوّة [٢ / ٣٤٣].

(٤) أورده البيهقي في دلائل النّبوّة [٢ / ٣٤٠].

(٥) أورده البيهقي في دلائل النّبوّة [٢ / ٣٣٨].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٩٩٢].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٩٩٥].

(٤) الملائكة تظلل أسيد بن حضير

ويجوز عند الأئمّة رؤية آحاد الأمّة للملائكة وهو ما تضمّنته رواية الصّحابي الجليل أسيد بن حضير عند الشيخين قال «بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ في مِرْبَدِه إذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فقرأ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فقرأ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فإذا مِثْلُ الظُّلَّة فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَغَدَوْتُ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقُلْتُ: يَارَسُولَ الله بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي؟». أي اضطربت ووثبت.

«فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ! قَالَ: فَقَرَأْتُ. ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ الله اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ!. قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّة فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْمَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ(١)».

وجاء في رواية: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّة فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ. فَخَرَجْتُ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟ قَالَ لاَ. قَالَ تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ(٢)». وجاء عند الإسماعيلي أيضا «اقْرَأْ أُسَيْدُ فَقَدْ أُوتِيتَ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». (قال) في الفتح [وفي هذه الزّيادة إشارة إلى الباعث على استماع الملائكة إلى قراءته(٣)].

وقوله ﷺ لأُسيد «اقْرَإِ ابْنَ حُضَيْرٍ»: أي كان ينبغي أن تستمرّ على قراءتك، وليس أمرا له بالقراءة حال التّحديث، وكأنّه استحضر صورة الحال فصار كأنّه حاضر عنده لما رأى ما رأى، فكأنّه يقول: ينبغي أن تستمرّ على قراءتك للقرآن وتغتنم ما حصل لك من نزول السّكينة والملائكة واستماعها لقراءتك، وتستكثر من القراءة التي هي سبب بقائها، وفهم أُسَيْدٌ رضي الله عنه ذلك فأجاب بعذره في قطع القراءة وهو قوله «فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى» أي خفتُ إنِ استمررتُ على القراءة أن تطأ الْفَرَسُ ولدى بأظلافها إذا اضطربت.

ودلّ سياق الحديث على جواز رؤية بني آدم الملائكة، فالمؤمنون يرونهم رحمة والكفار عذابا، وعلى محافظة أسيد رضي الله عنه على خشوعه في صلاته، لأنّه كان يمكنه أوّل ما جالت الفرس أن يرفع رأسه وكأنّه كان قد بلغه حديث النّهي عن رفع المصلّي رأسه إلى السّماء

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٤٢ / ٧٩٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٠١٨].

(٣) انظر فتح الباري [ج ٨ ص ٦٨١].

فلم يرفعه حتّى اشتدّ به الخَطْبُ، ويحتمل أن يكون قد رفع رأسه بعد انقضاء صلاته فلهذا تمادى به الحال ثلاث مرّات.

(قال) النّووى [وفى هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمّة للملائكة وفيه فضيلة القراءة وأنّها سبب نزول الرّحمة وحضور الملائكة وفيه فضيلة استماع القرآن[1]]. كذا أطلق وهو صحيح. [لكنّ الذى يظهر التّقييد بالصّالح مثلا والحسَن الصَّوْت، فالذى فى الرّواية إنّما نشأ عن قراءة خاصّة من سورة خاصّة بصفة خاصّة، ويُحتمل من الخصوصيّة ما لم يذكر، وإلاّ لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكلّ قارىء، وقد أشار فى الحديث بقوله «مَا يَتَوَارَى مِنْهُمْ». وعند مسلم «لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ». إلاّ أنّ الملائكة لاستغراقهم فى الاستماع كانوا يستمرّون على عدم الاختفاء الذى هو من شأنهم[2]].

(٥) ابن عبّاس يرى جبريل عليه السّلام

ومن المشاهدات التى سجّلها التّاريخ للصّحابة الكرام ورؤيتهم للملائكة الأبرار ما رواه أحمد والطّبرانى بأسانيد صحيحة عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال:

«كُنْتُ مَعَ أَبِى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يُنَاجِيهُ، فَكَانَ كَالْمُعْرِضِ عَنْ أَبِى، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ فَقَالَ لِى أَبِى: أَىْ بُنَىَّ أَلَمْ تَرَ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ كَالْمُعْرِضِ عَنِّى؟ فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ رَجُلٌ يُنَاجِيهُ! قَالَ: فَرَجَعْنَا إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَقَالَ أَبِى: يَارَسُولَ اللهِ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ كَذَا وَكَذَا، فَأَخْبَرَنِى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَكَ رَجُلٌ يُنَاجِيكَ، فَهَلْ كَانَ عِنْدَكَ أَحَدٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهَلْ رَأَيْتَهُ يَاعَبْدَ اللهِ» قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّ ذَاكَ جِبْرِيلُ، وَهُوَ الَّذِى شَغَلَنِى عَنْكَ[3]».

(٦) الملائكة تستحيى من عثمان رضى الله عنه

من الفضائل الظّاهرة لعثمان بن عفان رضي الله عنه وجلالته عند الملائكة الكرام استحياؤها منه لما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِى بَيْتِى كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَلاَ أَسْتَحِى

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣٤٢].

(٢) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٦٨١].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٦٧٩] وهو فى مجمع الزّوائد [٩ / ٢٧٦].

مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلائِكَةُ[١]». وقوله «فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ» أي لم تكترث به وتحتفل بدخوله كاهتمامك واحتفائك بعثمان رضي الله عنه.

(٧) أبو جهل يرى حرّاس النّبي ﷺ من الملائكة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ». «قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟، فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا[٢]». وقوله «يَنْكُصُ»: أي يرجع على عقبيه ماشيا على ورائه هروبا ممّا رآه من النّار والهول والملائكة التي تحرس رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وجاء عند البخاري عن ابن عبّاس رضي الله عنه بلفظ «قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ[٣]». ووقع عند البلاذري [نَزَلَ اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ رُءُوسُهُمْ فِي السَّمَاءِ وَأَرْجُلُهُمْ فِي الأَرْضِ]. وأخرج النّسائي نحو حديث ابن عبّاس وزاد في آخره «فَلَمْ يُفَجِأْهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ -أي أبو جهل- يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ» الحديث.

(قال) في الفتح [وإنّما شدّد الأمر في حقّ أبي جهل لعنه الله لزيادته بالتّهديد في حقّ رسول الله ﷺ بدعوى أهل طاعته وبإرادة وطء العنق الشّريف، وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك[٤]].

هل تموت الملائكة؟

الذي عليه أكثر النّاس أنّ جميع الخلق يموتون حتّى الملائكة بما فيهم ملك الموت المكلّف بقبض الأرواح، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ وإنّما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة والمنكرين أتباع أرسطو وأمثالهم ممّن زعم أنّ الملائكة هي العقول والنّفوس وأنه لا يمكن موتها بحال، والآيات في القرآن تنطق بأنّ الملائكة عبيد مدبّرون وأنّهم ﴿عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ﴾. والله سبحانه قادر على أن يميتهم ثمّ يحييهم كما هو قادر على إماتة

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٤٠١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٩٧] والنّسائي في الكبرى.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٩٥٨].

(٤) انظر فتح الباري [ج ٨ ص ٥٩٦].

البشر والجن ثمّ إحيائهم وقد قال الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧].

واستدل بعض العلماء بقوله ﷺ عند البخارى «أَعُوذُ بعِزَّتكَ الَّذى لاَ إلَهَ إلاَّ أَنْتَ الَّذى لاَ يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ[١]». على أنّ الملائكة لا تموت، ولا حجّة فيه لأنّه مفهوم لقب ولا اعتبار له، وعلى تقديره فيعارضه ما هو أقوى منه وهو عموم قول الله تعالى ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]. (قال) فى الفتح [مع أنّه لا مانع من دخولهم فى مسمّى الجنّ لجامع ما بينهم من الاستتار عن عيون الإنس[٢]]. إلاّ أنّ الدّلائل تشير إلى أنّ موتهم سيكون ضمن الخلائق يوم النّفخة لقوله ﷺ عند الشّيخين «فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ[٣]».

كما يتأيّد هذا بقوله ﷺ «إنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِى أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِى أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ[٤]». والمراد بالصّعق: غَشْيَةٌ تلحق من سمع صوتا أو رأى شيئا يفزع منه أو أصابه أمر عظيم.

فنبيّنا محمّد ﷺ أوّل من يخرج من قبره قبل الأنبياء وغيرهم إلاّ موسى عليه السّلام فإنّه حصل له فيه تردّد: هل بُعثَ قبله من غشْيَته أو بَقىَ على هذه الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصّعق مُفيقا لأنّه حوسب بغشية الطّور!. وتبيّن هذه الأحاديث أنّ الملائكة يُصعقون فى النّفخة يوم القيامة مثل صعق الغشى.

فإذا جاز عليهم صعق الغشى جاز صعق الموت، وصعق الغشى هو مثل صعق موسى عليه السّلام كما فى قول الله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[الأعراف:١٤٣]. واختلف العلماء فى المستثنى فقيل الملائكة، وقيل الأنبياء، وقيل الشّهداء، واختاره الحليمى قال: وهو مروىّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ الاستثناء لأجل الشّهداء.

(قال) ابن تيمية [والصّحيح أنّه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح، أمّا الملائكة فإنّهم موجودون أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلاّ من خصّه الله بكرامة من أوليائه، وإذا تقرّر

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٣٨٣] ومسلم [٢٧١٧].
(٢) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٣٨٢].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤١٤] ومسلم [٢٣٧٣].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤٠٨] ومسلم [١٦٠/٢٣٧٣].

أنّهم أحياء فإذا نفخ فى الصّور نفخة الصّعق صعق كلّ من فى السّموات ومن فى الأرض إلاّ من شاء الله تعالى: فأمّا صعق غير الأنبياء فموت، وأمّا صعق الأنبياء فالأظهر أنّه غشية، فإذا نُفخ فى الصّور نفخة البعث: فمن مات حَيِي ومن غشى عليه أفاق(١)]. ولقد أخبر القرآن الكريم بثلاث نفخات:

(الأولى) نفخة الْفَزَع.

(والثّانية) نفخة الصَّعْق.

(والثّالثة) نفخة القيام.

فجاء ذكر الأولى فى قول الله تعالى﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[النّمل٨٧]. وجاء ذكر النّفخة الثّانية والثّالثة فى قوله تعالى﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزّمر:٦٨]. ثمّ جاء فى تأويل الأئمّة للآيات الكريمة أنّهما نفختان لا ثلاث:

(النّفخة الأولى) يموت بها كلّ من كان حَيًّا ويغشى على من لم يمت ممّن استثنى الله من خلقه كما فى قوله تعالى﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

(والنّفخة الثّانية) يَحْيَا بها كلّ من مات ويفيق بها من غشى عليه مصداقا لقول الله تعالى﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أمّا نفخة الْفَزَع إنّما تكون راجعة إلى نفخة الصَّعْق لأنّ الأمرين لازمان لهما، أى فَزِعُوا فَزَعًا ماتوا منه، أو إلى نفخة البعث وهو اختيار القشيرى وغيره فإنّه قال والمراد [النّفخة الثّانية] أى يُحْيَوْنَ من موتهم فزعين يقولون ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يس: ٥٢]. ويعاينون من الأمر ما يفزعهم ويهولهم ولتجتمع الخلق فى أرض الجزاء والحساب.

وجاء فى معنى الآية الكريمة ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قولان:

(أحدهما) أنّه الإسراع والإجابة إلى النّداء من قولهم [فزعت إليك فى كذا إذا أسرعت إلى ندائك فى معونتك].

والثّانى) هو الفزع المعهود من الخوف والحزن لأنّهم أُزعجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا وهذا أشبه القولين(٢).

(١) انظر التّذكرة للقرطبى [ص ١٩١].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٣ ص ٢٤٠].

(الكتاب الثانى)

الجنّ هذا العالم الغيبى

التّعريف بعالـم الجنّ

انقسم النّاس فى حديثهم عن الجنّ واعتقادهم فى وجوده إلى فريقين جمعوا فيه بين الإفراط الذى يؤدّى إلى الغلوّ، والتّفريط الذى يرخّص فى التّزيّد والإنكار، عندما ذهب أكثرهم إلى القول بأنّ وراء هذا الإنسان النّاطق المفكّر نوع آخر من [الخلق المغيّب] الذى لا تُدرَك ذاته ولا يُعرف إلاّ بآثاره وتصرُّفاته، وله القدرة على أن يتلبّس جسم الإنسان فينطق بلسانه ويتحرّك بتحرّكه ويسلبه إرادته حتّى يجعل من جسده محلا مسكونا بلا مشاعر أو أحاسيس.

وجعلوا للإنسان فى مقابل ذلك وسائله وتلاواته من [الآيات والأدعية والتّعاويذ] ما يستعين بها على استحضاره كلّما أراد وعلى تسخيره فى قضاء ما يُراد، وأنّ هذا النّوع المغيّب هو المعروف فى لسان النّاس باسم [الجنّ]. وفى مقابل هذا الإفراط يرى فريق آخر أنّه ليس فى هذا العالـم المرئى مخلوق يتمتّع ببعض هذه الخواصّ وأنّه ليس فى هذا الكون من خلق الله تعالى سوى الإنسان، والرّأيان فى الواقع يمثّلان الفكرة الإنسانيّة المعروفة منذ القدم فى المادّيّة والروحيّة.

وبينما يتقاسم النّاس هذين الرّأيين عن [وجود الجنّ] وهما كما نرى على طرفى نقيض يأتى [القرآن الكريم] من خلال آياته الواضحات النّافية لكلّ شكّ وكلماته البيّنات التى لا تحتمل التّأويل - بالقول القاطع الذى يؤكّد أنّ فى هذا العالم خلقا آخر غير هذا الإنسان لا تُرى أشباحه ولا تُعرف حقيقته إلاّ من خلال البلاغ القرآنى المنزّل على قلب رسول الله ﷺ عندما يقرّر وجوده ويشير إلى بعض خواصّه الذّاتيّة التى يتمتّع بها، وينفى عنه تلك الخواصّ التى أضيفت إلى طبيعة خلقه إفراطا فى تصويره أو التى انتقصت من حقيقة خلقه تفريطا فى إنكاره.

ثمّ جاءت عناوين هذا [الخلق المغيّب] فى القرآن واضحة وصريحة:

(١) عندما أشارت الآيات إلى [عالم الملائكة] وجعلت التّصديق بهم عنصرا من عناصر الإيمان بالله تعالى، ثمّ ذكرت أعمالهم وفصّلتها ثمّ وصفتهم بالطّاعة الدّائمة التى خُلقوا بها وأنّهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التّحريم: ٦].

(٢) ثمّ ذكرت [الجنّ] وجعلتهم نوعا مُقابلا للإنسان يندرجون معه تحت عنوان [الثّقلين] وخاطبتهم وتحدثت عنهم فى المسئوليّة والمؤاخذة والمصير، كما خاطبت الإنسان

وتحدّثت عنه في كلّ ذلك كما جاء قوله ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرّحمن : ٣١].

وعندما يُخبر التّنزيل الحكيم عن الجنّ ويقطعُ بوجودهم فإنّ إنكارهم يكون تكذيبا لإخبار الله سبحانه عنهم، وبذلك يكون من لم يؤمن بهم غير مؤمن بالقرآن، ومن ثمّ تأتي محاولات التّأويل للآيات الواضحات تحريفا للكلم عن مواضعه وسلخا للألفاظ عن معانيها وإفسادا لتلك المقابلة التّكليفيّة بين الإنس والجنّ كما في قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذّاريات : ٥٦].

وعندما ينفي القرآن الكريم الشّك في وجود الجنّ فإنّه يؤكّد مسئوليتهم عن التّكاليف ومؤاخذتهم على التّقصير وهو مراد قول الله تعالى ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[الأعراف : ٣٨]. وكما جاء القرآن بأصل وجودهم جاء بما يرشد إلى صلتهم بالنّاس وأنّها لا تعدو مجرّد [الوسوسة والتّزيين] على نحو ما يحدث للنّاس من النّاس واقرأ في ذلك من سورة النّاس ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[النّاس ٤ - ٦].

واقرأ في ذلك أيضا ما جاء على لسان الشّيطان نفسه وهو من الجنّ بنصّ القرآن ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم : ٢٢]. فليس للجنّ مع الإنسان شيء غير الدّعوة والوعد والوسوسة والإغواء والتّزيين كقول الله تعالى في التّنزيل ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر : ٣٩].

وكما جاء هذا في القرآن جاء فيه أيضا ما يقطع بأنّ الذين يتأثرون بوسوسة الجنّ وإغوائهم إنّما هم فقط ضعاف العقول والإيمان، أمّا أقوياؤهما فهم بعقولهم وإيمانهم بعيدون عن التّأثر بها، وقد استثنى الله تعالى من المتأثرين بها عباده الطّائعين المخلصين فقال ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر : ٤٢]. وقال ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الإسراء : ٦٥].

أمّا ما وراء الوسوسة والإغواء [من ظهورهم للإنسان العادي بصورتهم الأصلية، ومن دخولهم في جسمه واستيلائهم على حواسّه، ومن استخدامه إياهم في جلب الخير ودفع الشّر، واستحضارهم كلّما أراد، ومن التّزوّج بهم ومعاشرتهم وغير ذلك ممّا شاع على ألسنة الجهلاء من النّاس، فهذا كلّه مصدره خارج عن نطاق المصادر الشّرعية ذات القطع واليقين[1]].

(١) انظر كتاب الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله تعالى [ص ٢٤].

حقيقة الجنّ فى الكتاب والسُّنّة

أكّدت النّصوص القرآنية على أنّ الجنّ خلق من خلق الله يُشبهون الإنس فى الصّفات التى تؤهّلهم للابتلاء فى ظروف الحياة، وقد خلقهم الله ليبلوهم أيّهم أحسن عملا، وكلفهم فى رحلة ابتلائهم أن يعبدوه ولا يشركوا بعبادته أحدا، وأنّهم عالم غيبى لا يعلم حقيقتهم إلاّ خالقهم سبحانه، وهم أجسام يغلب عليها الجزء النّارى، وأنّ منهم الذّكور والإناث، والصّالح والطّالح، والمؤمن والكافر، من شأنهم الخفاء، ولهم القدرة على التّشكّل بالصّور الخيّرة والشّريرة، بخلاف الملائكة فإنّهم أجسام نورانية ولا تحكم عليهم الصّورة.

كما قام الإجماع فى عصر الصّحابة والتّابعين ومَنْ بعدهم على وجود عالم الجنّ والشّياطين والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم، ولا يجادل فى هذا الاتفاق متديّن متشبّث بمُسْكَة من الدّين، فالإيمان بوجود الجنّ مستمدّ من «الإيمان بالغيب» الذى هو من عند الله تعالى وإنكار وجوده يقود إلى إنكار الحفظة من الملائكة عليهم السّلام.

وعالم الجنّ من الحقائق التى لا تُعرف إلاّ عن طريق النّقل من الكتاب والسُّنّة [ولا يُقبل إيمان عبد حتّى يصدّق بها تصديقا جازما، وقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦]. يُبيّن أنّه سبحانه وتعالى ما خلق الجنّ والإنس فى الحياة الدّنيا إلاّ ممتحنين ومختبرين وليؤمنوا به سبحانه ويعبدوه، وأنّهم سيُبعثون للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء[1]].

كما تبيّن الآية [أنّ الجنّ أحد خلق الله فى الأرض، أُنزل أبوهم إبليس إليها كما أُنزل أبو البشريّة آدم، هذا مَرْضِىٌّ عنه وذاك مَسْخُوطٌ عليه، وكلّ من الشّياطين والجنّ مُسمّيان لعنصر واحد، وإنّما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن منهم إنّه شيطان[2]]. وقد تعرّض القرآن الكريم للحديث عنهم فى نحو «أربعين آية» من عشر سور تقريبا، كما خصّص الخالق سبحانه سورة كاملة وهى [سورة الجنّ] ذكر فيها قصّة نفر منهم استمعوا للقرآن من تلاوة الرّسول الكريم ﷺ فآمنوا ثمّ ولّوْا إلى قومهم مُنذرين.

والجنّ سلالة كالإنس أصنافًا وألوانًا وأقواما وقبائل ولهم مساكن ومنازل، يرونَنا من حيث لا نراهم، وقد يجلسون معنا ويساكنوننا فى بيوتنا، ومنهم الأقزام والعمالقة، ومنهم الضّعفاء ومنهم الأشدّاء الأقوياء، ومنهم الغوّاصون فى البحار ومنهم من يقوم بأعمال البناء والصّناعات كالإنس سواء بسواء، دلّ على هذا ما جاء فى قصّة سليمان عليه السّلام إذ سلّطه الله على الجنّ فقال جلّ شأنه فى عرض بعض اللّقطات من قصّته:

(١) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٥٧].

(٢) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٥٤٣].

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾[ص٣٧-٣٨ (١)].

ولذلك وجب ضرورة الإيمان بخلقهم والعلم اليقيني بوجودهم وبأنّهم نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلّفة المميّزة المتناسلة، ولكنّهم مُجرّدون عن المادّة البشرية مُستترون عن الحواسّ، يموتون ويُبعثون للحساب والجزاء مثوبة للعابد وعقوبة للكافر، فمن أنكر وجود الجنّ أو تأوّل فيهم تأويلا يُخرجهم به عن هذا الظّاهر فقد خالف العقيدة الصّحيحة للإسلام والمسلمين.

ومن الحقائق التى تدلّ على إثبات وجودهم:

(أوّلا) آيات القرآن الكثيرة والتى أجمع أهل التّأويل على ما يذهب إليه من إثبات وجودهم بظاهرها.

(ثانيا) كما يدلّ على إثبات وجودهم ما نقل عن النّبى ﷺ من الرّوايات الصّريحة الصّحيحة التى تؤكّد حقيقة وجودهم.

(ثالثا) ما جاء من الأخبار المؤكّدة التى تدلّل على حقيقة الجنّ عن الصّحابة والتّابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

ويأتى تفصيل ذلك على الوجه التّالى:

(أولا) الدلالات القرآنية على وجود الجنّ

الجنّ كالملائكة لا نعرف من حقيقتهم إلاّ ما جاءنا عن طريق الوحى فى القرآن وما أخبر به رسول الله ﷺ لأنّنا لا نتّصل بهم عن طريق الحسّ اتّصالا يفيد العلم اليقينى فى مجرى العادات حسب سُنن الكون حتّى نعرف تكوينهم. [كما أنّ وجود مخلوقات غيبيّة عنّا لا نحسّ بها من الأمور الممكنة عقلا، فلا يكون إنكار المنكر لها إلاّ تكذيبًا للخبر الصّادق دون أيّة حجّة أو بُرهان، وذلك لا يكون إلاّ من سمات الجاهلين أو الكافرين (٢)].

ولقد أنزل الله تعالى سُورة كاملة ذكر فيها قصّة النّفر الذين استمعوا للقرآن الكريم من تلاوة الرّسول ﷺ فآمنوا وولّوا إلى قومهم مُنذرين كما في سورة الجنّ، ثمّ تعرّض القرآن الكريم للحديث عنهم فى نحو أربعين آية من عشر سُوَر تقريبا نذكر بيانها على النّحو التّالى:

(أولا) ـ ذُكر لفظ (الجنّ) فى كتاب الله تعالى [٢٢] اثنتين وعشرين مرّة:

* فأشير فى خمس منها إلى استنكار إشراك الإنس الجنّ فى عبادتهم لله تعالى:

(١) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٢٧].

(٢) انظر كتاب العقيدة الإسلامية [ص ٢٤٩].

[الأنعام: ١٠٠] و(سبأ: ٤١) و [فصّلت: ٢٩]) و [الأحقاف: ١٨] و [الجنّ: ٥].

* وذكر في آيتين عداء شياطين الجنّ للأنبياء: [الأنعام: ١١٢] وفسوق إبليس وخروجه عن طاعة ربّه سبحانه: [الكهف: ٥٠[1]].

* وجاء استكثار الجنّ للإنس في آية واحدة: [الأنعام: ١٢٨].

* وبيّن في آية أنّ رسل الله تكون إلى الجنّ كما للإنس: [الأنعام: ١٣٠].

* وأشار في ثلاث آيات إلى حشر الكثير من الجنّ في نار جهنّم: [الأعراف: ٣٨ و ١٧٩] و [فصّلت: ٢٥].

* وأثبت في آيتين عجز الجنّ والإنس أن ينفذوا من أقطار السّموات أو أن يأتوا بمثل آية واحدة من القرآن: [الإسراء: ٨٨] و [الرّحمن: ٣٣].

* وجاء تسخير الجنّ للإنس وطاعتهم لهم في خمس آيات: (النّمل ١٧ و ٣٩) و(سبأ: ١٢ و ١٤) و (الجنّ: ٦).

* وسجّل استماع الجنّ للقرآن وتكليفهم بالعبادة والطّاعة في ثلاث آيات هي: [الأحقاف: ٢٩] و [الذّاريات: ٥٦] و [الجنّ: ١].

(ثانيا) ـ كما ورد لفظ [الجانّ] في التّنزيل الحكيم سبع مرّات:

* فأشار في آيتين إلى خلق الجانّ من مارج النّار: [الحجر: ٢٧] و [الرّحمن: ١٥].

* وجاءت آيتان في موقع التّشبيه بالجانّ: [النّمل: ١٠] و [القصص: ٣١].

* وأتى في آيتين بالدّلالة على تناكحهم: [الرّحمن: ٥٦ و ٧٤].

* وأشارت آية واحدة إلى سؤالهم توبيخا يوم القيامة: (الرّحمن: ٣٩).

(ثالثا) ـ كما ورد مسمّى «الجِنّة» في الذّكر الحكيم [١٠] عشر مرّات:

* فجاء في آيتين تشيران إلى افتراء قريش أنّ بصاحبهم جِنّة: [المؤمنون: ٢٥] و [سبأ: ٨].

* وذكر في آيات ثلاث تكذيب الكفّار في دعواهم ذلك: [الأعراف: ١٨٤] و [المؤمنون: ٧٠] و (سبأ: ٤٦).

* وجاء في آيتين تحملان الوعيد بأن تُملأ جهنّم من عصاة الجنّ والإنس: [هود: ١١٩] و [السّجدة: ١٣].

* وذكر مرّتين في آية واحدة كذب الكفار في دعواهم أنّ بين الله تعالى وبين الجِنّة نسبا وإنّهم لمحضرون للحساب يوم القيامة: [الصّافّات: ١٥٨].

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم [ص ١٧٩ ـ ١٨٠].

* وحذّر في آية واحدة من وسوسة الجِنّة والنّاس في صدورالنّاس :[النّاس : ٦] .

[والكتاب العظيم الذى احتوى كلّ هذه الدّلالات على وجود الجنّ لهو ذاته الكتاب الذى قالت عنه الجنّ لمّا سمعته ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ . إذ هو عجب في مبانيه وفي معانيه ، ولا يكون القرآن عجبا إلاّ إذا كان مُعجزاً مُتفرّداً مُتميّزاً عن كلّ كلام آخر ، فلا تستطيع الخلائق أن تأتي بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا بالمساعدة والمعاونة فهو إذن كلام منزّل من ربّ العالمين(١)] .

فأوّل ما أدهشهم منه أنّه [عَجَبٌ] غير مألوف ، وأنّه يثير الدَّهْشَ في القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقّاه بحسّ واع وقلب مفتوح ومشاعر مُرهفة ، إنّه كتاب ذو جاذبية غلاّبة وإيقاع يلمس المشاعر ويهزّ أوتار القلوب ، وهذا كلّه يدلّ على أنّ أولئك النّفر من الجنّ كانوا يتذوّقون حقيقة المعاني والألفاظ والكلمات وتلك حقيقة القرآن عند من ذاق حلاوته وأدرك جمال آياته وجلال معانيه .

(ثانيا) الجنّ في السُّنَّة النّبويّة الصّحيحة

جاءت الرّوايات الصّحيحة عن نبيّنا ﷺ لتؤكّد أنّ عالم الجنّ مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة ، وأنّهم ذاوت إرادة واختيار ، وأنّهم مُكلّفون بالإيمان والعبادة ، منهيُّون عن الكفر والعصيان ، وأنّ رسالة نبيّنا محمّد ﷺ رسالة عامة شاملة للجنّ والإنس ، وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين جميعا إلى إنسهم وجنّهم .

ومن هذه الرّوايات ما جاء عند مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» . قَالَ : فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ : «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ» . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ(٢)» .

وروى أبو داود عن ابن مسعود قال «لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ الْجِنِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ انْهَ أُمَّتَكَ أَنْ يَسْتَنْجُوا بِعَظْمٍ ، أَوْ رَوْثَةٍ ، أَوْ حُمَمَةٍ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ لَنَا فِيهَا رِزْقًا ، فَنَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ(٣)» . وقوله [حُمَمَةٌ] وجمعها حُمَمٌ وهي كلّ ما احترق بالنّار من الخشب والعظام ونحوها ، ودلّ فقه الحديث على أنّ للجنّ حقوقا يُقْضى بها كالإنس والبعد عمّا يُؤذيهم ، والنّهي عن الاستنجاء بالرَّوْثة والعَظْمِ والحُمَم لكونها طعام لهم .

---

(١) انظر معارج التّفكّر للميداني [ج ٥ ص ٥٦٧] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٥٠] والتّرمذي [٣٢٥٨] وأبو داود مختصرا [٨٥] .

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٩] .

(ثالثا) عقيدة أهل السُنَّة والجماعة فى وجود الجنّ

إنّ أكثر أهل الملل والنّحل خصوصا أتباع الأنبياء يعتقدون بوجود الجنّ باعتبار أنّ الأنبياء ـ وهم صادقون بلا ريب ـ قد أخبروا بوجودهم، ولا يتمّ إيمان المؤمن بالله إلاّ بأن يصدّق بجميع ما يُخبر به رسوله، ولكن كثر الجدل بين أهل الملل وبين بعض فلاسفة القدماء ومتفلسفة المحدّثين حول رؤية هذه المخلوقات.

ولا تَعْدُو أدلّة المنكرين أن تكون أدلّة واهية تماما لا ترقى إلى مستوى المناقشة حتّى لو سلّمُوا بمبدأ صدق ما أخبرت به الرّسل، لأنّ هؤلاء ليس لهم من دليل على نفى وجود عالم الجنّ إلاّ أن يقولوا: لم يثبت لنا وجودهم عن طريق حواسّنا، فهم إذن غير موجودين!!. وقد سبق فى مباحث العقيدة وثبوتها سقوط مثل هذا الاستدلال وأنّه لا يصحّ الاعتماد عليه بحال من الأحوال، وأنّ طرق التّيقن غير منحصرة فى الإدراك الحسّى فقط بل هناك:

(١) مسلك الاستنتاج العقلى.

(٢) ومسلك الخبر الصّادق.

ويكفى لإثبات حقيقة من الحقائق الاعتماد على أى مسلك يقينى يتّفق وطبيعة الحقيقة المعنيّة، ويظهر سقوط استدلال هؤلاء المنكرين بشكل أجْلَى وأوضح بعد أن كشف العلمُ الحديث من خفايا الكون الكثير، وأظهرَ من القوى المعنويّة الكامنة فى هذا الكون ما يُدْهِشُ العُقُولَ ويُبْهِرُهَا، ولا يزال العلم وسيظلّ مُقبلا فى بحثه وكشفه. حتّى كادت العقول أن تستسهل التسليم بالمستحيلات فضلا عن الممكنات، علما بأنّ وجود الجنّ أمر ممكن عقلا كما قدّمنا، [وليس هناك أى دليل عقلى يثبت استحالة وجودهم، وإنّما يتوقّف إثبات وجودهم على واحد من اثنين:

(الأوّل) إمّا الكشف الحسّى.

(الثّانى) وإمّا الخبر اليقينى الصّادق.

أمّا الكشف الحسّى: فلم يثبت لنا به وجودهم بطريق يقينى قاطع، ولا نستطيع إثبات ذلك فى الأحوال العاديّة بطريق يقينى قاطع أيضا، وإنّما ثبت لنا وجودهم بطريق الخبر القاطع الصّادق، فنحن نعتقد بوجودهم ونسلّم بحضورهم تسليما دون ما تردّد أو اعتراض كما أخبرنا ربّنا سبحانه فى كتابه وما جاء فى سُنَّة نبيّنا محمّد صلوات الله وسلامه وتبريكاته عليه[١]].

فإذا كان [الخبر اليقينى الصّادق] الذى نزل به وحى السّماء هو القاعدة الأصيلة للحديث

---

(١) انظر كتاب العقيدة الإسلاميّة [ص ٢٥١ ـ ٢٥٢].

عن [مسألة الجنّ] فإنّ مبحثنا فى ذلك يتضمّن العناصر التّالية :

(أ) مادة كلمة «الجـنّ» عند أهل اللّغة

لـمّا كان مسمّى الجنّ خلاف الإنس مأخوذاً من الاجتنان وهو الاستتار فإنّ المادّة اللّغوية لكلمة «الجنّ» فى كلّ صيغها تدلّ على معنى السّتر . [والجنّ والجنّةُ : لفظان يُطلَقان على جنس واحد من مخلوقات الله يشبهون فى صفاتهم النّفسية الإنس ، ويختلفون عن الإنس فى تكوين أجسادهم وهم مستورون عن أعين الإنس(١)] .

ونعرض فيما يلى للمعنى اللّغوى لهذا المسمّى :

* تأتى كلمة الجن من [جَنَّ الشَّىْءَ يَجُنُّهُ جَنًّا] : سَتَرَهُ ، وكُلُّ شَىْءٍ سُتِرَ عَنْكَ فقد جُنَّ عَنْكَ . و[جَنَّهُ اللَّيْلُ يَجُنُّهُ جَنًّا وجُنُونًا ، وجَنَّ عَلَيْهِ يَجُنُّ - بالضّم - جُنُونًا وأَجَنَّهُ] سَتَرَهُ ، وفى التنزيل الحكيم ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ . أى سَتَرَهُ بظلمته ، وبه سُمّىَ الْجِنُّ لاسْتِتَارِهِمْ واخْتِفَائِهِمْ عن الأبصار ، وجَنَّ اللَّيْلِ وجُنُونُهُ وجَنَانُهُ : شِدَّةُ ظُلْمَتِهِ وادْلِهْمَامُهُ ، وقيل : اخْتِلَاطُ ظَلَامِه لأنّ ذلك كُلَّهُ سَاتِرٌ .(٢)

* والجَنَانُ - بالفتح - : الْقَلْبُ لاستتاره فى الصّدر ، وقيل : لوَعْيِه الأَشْيَاءَ وجمعه لَهَا وحفظه إِيَّاهَا ، وأَجَنَّ عَنْهُ واسْتَجَنَّ : اسْتَتَرَ . (قال) شِمرٌ [وسُمِّىَ الْقَلْبُ جَنَانًا لأنَّ الصَّدْرَ أَجَنَّهُ] .

* والْجَنِينُ : الْوَلَدُ ما دَامَ فى بَطْنِ أُمّه لاسْتِتَارِه فيه ، وجَمْعُهُ : أَجِنَّةٌ وأَجْنُنٌ . [وقد جَنَّ الجنينُ فى الرَّحِمِ يجنُّ جَنًّا وأَجَنَّتْهُ الحاملُ(٣)] .

* والْجُنَّةُ [بالضّم] : ما وَارَاكَ من السِّلاحِ واسْتَتَرْتَ به منه . والجُنّةُ : السُّتْرَةُ والجمع : الْجُنَنُ . يقالُ : استْجَنَّ بجُنَّةٍ أى استتر بسُتْرةٍ ، وقيل : كلُّ مَسْتُورٍ جَنِينٌ ، حتّى إنّهم ليقولون [حقْدٌ جَنِينٌ وضِغْنٌ جَنِينٌ] .

* والْجُنَّةُ : الدِّرْعُ ، وكلّ ما واقاك جُنّةٌ . والجُنّةُ : خرْقَةٌ تلبسها المرأة فتغطى رأسَها ما قَبَلَ منه وما دَبَر غير وسَطه وتُغَطِّى الوَجْهَ وحَلْىَ الصَّدر ، وفى الحديث الشّريف «الصَّوْمُ جُنَّةٌ(٤)» . أى يقى صاحبه ما يُؤذيه من الشّهوات ، والْجُنَّةُ : الوقايةُ .

* والْجِنُّ : وَلَدُ الجَانّ ، [قال] ابن سيده : الْجِنُّ نوعٌ من العالَم سُمُّوا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ولأنّهم اسْتَجَنُّوا من النّاس فلا يُرَوْنَ ، والجمع جِنَّانٌ ، وهم الْجِنَّةُ ، وفى التّنزيل

(١) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٤٩] .

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور [ج ٢ ص ٣٨٥] .

(٣) انظر المصدر السّابق [ج ٢ ص ٣٨٦] .

(٤) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٢٤] وأورده الألبانى فى الإرواء [٤١٣] .

العزيز ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصّافات:١٥٨]. قالوا: الْجِنَّةُ هَهُنا الملائكة عند قوم من العرب.

* وعن الفرّاء في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾. قال [يقال الْجِنَّةُ ههنا الملائكة، يقول: جعلوا بين الله وبين خلقه نسبا فقالوا الملائكة بناتُ الله، ولقد علمت الْجِنَّةُ أنّ الذين قالوا هذا القول مُحْضَرُونَ في النّار(١)].

* والْجِنِّيُّ: منسوب إلى الْجِنّ أو الْجِنَّة، والْجِنَّةُ: الْجِنُّ: ومنه قوله تعالى في التّنزيل الحكيم ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السّجدة:١٣]. [قال] الجوهري [الجنُّ خلاف الإنسِ والواحدُ جِنِّيٌّ، سُمّيت بذلك لأنّها تخفى ولا تُرى].

* والْجِنَّةُ: طائف الْجِنّ، ومنه: جُنَّ جَنًّا وجُنُونًا واسْتُجِنَّ، والْمَجَنَّةُ: الجُنُونُ، والمَجَنَّةُ: الْجِنُّ، وأَرْضٌ مَجَنَّةٌ: كَثِيرَةُ الْجِنّ.

* والْجَانُّ [أبو الْجِنّ خُلِقَ من نار ثم خُلِقَ منهُ نَسْلُهُ(٢)].

* والْجَانُّ اسم جمع لِلْجِنّ كالجامل والباقر وفي التنزيل قال ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ فالجانّ والجنّ وصفان من باب واحد كما يقال: ملح ومالح، فيكون الجنّ: اسم [الجنس] كالملح، والجان: مثل [الصّفة] كالمالح. وقال أبو إسحاق في قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ رُوِيَ أنّ خلقا يقال لهم الجانُّ كانوا في الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدّماء، فبعث الله ملائكته فأجلتهم منها، وقيل [إنّ هؤلاء الملائكة صاروا سكّان الأرض بعد الجان فقالوا: ياربّنا أتجعل فيها من يفسد فيها]. (قال) أبو عمرو [الجَانُّ من الجنّ وجَمْعُه جِنَّانٌ مثل قوله حَائطٌ وحِيطَانٌ].

* والْحِنُّ [بالحاء] كما قال الرّاجز: ضَرْبٌ من الْجِنّ وهم كلابُ الْجِنّ وسفلتهم، وفي حديث زيد بن مقبل «جِنَّانُ الْجِبَال» أي الذين يأمرون بالفساد من شياطين الإنس أو من الجنّ، والْجِنَّةُ [بالكسر] اسم الْجِنّ. وفي الحديث «أنّهُ نَهى عَنْ ذَبَائِحِ الْجِنّ(٣)». قال: هو أَنْ يَبْنِيَ الرَّجُلُ الدَّارَ فإذا فرغَ من بنائها ذبح ذبيحةً وكانوا يقولون إذا فُعِلَ ذلك لا يضرُّ أَهْلَهَا الْجِنُّ.

* والْجَانُّ ضَرْبٌ منَ الحيّات أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ يَضْرِبُ إلى الصُّفْرَة لا يؤذى، وهو كثيرٌ في البيوت، والْجَمْعُ: جِنَّانٌ. وفي الصّحيح «أنّهُ نَهى عَنْ قَتْلِ الْجِنَّان(٤)»، قال: هي الْحَيَّاتُ التي تكون في البيوت، واحدها [جَانٌّ] وهو الدَّقيقُ الْخَفيفُ.

(١) انظر لسان العرب لابن منظور [ج ٢ ص ٣٨٨].

(٢) انظر المصدر السّابق [ج ٢ ص ٨٩].

(٣) أورده أبو عبيد في غريب الحديث [رقم ١٥٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٣٣].

وفي [التهذيب] في معنى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ قال الجانُّ حيَّةٌ بَيْضَاء، والمعنى أنّ الْعَصَا صَارَتْ تَتَحرَّكُ كما يتحرّكُ الْجَانُّ حَرَكَةً خَفِيفَةً، وكانت في صورة ثُعْبَان وهو العظيم من الحيَّات، ونحو ذلك قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [شبّهها في عظمها بالثُّعبان وفي خفّتها بالجانّ]، ولذلك قال الله تعالى مرّة ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وجاء في أخرى ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وفي حديث زمزم «أنَّ فيهَا جِنَّانًا كَثِيرَةً[1]» أي حيَّات. وكان أهل الجاهليَّة يُسمُّون الملائكة عليهم السّلام «جِنًّا» لاستتارهم عن العيون، قال الأعشى يذكرُ نبي الله سليمان عليه السّلام:

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلاَئكِ تِسْعَةً ❋ قِيَامًا لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلاَ أَجْرِ

وقد قيل في قوله عزّ وجلّ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. إنّه عَنى الملائكة. و[قال] أبو إسحاق: في الآية دليل على أنّ إبليس أُمرَ بالسّجود مع الملائكة، وأكثر ما جاء في التّفسير أنّ إبليس من غير الملائكة وقد ذكر الله تعالى ذلك فقال ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. وقيل أيضا إن إبليس من الجنّ بمنزلة آدم من الإنس، وقد قيل: إنّ الجنّ ضرب من الملائكة كانوا خُزَّانَ الأرض، وقيل: خُزَّانَ الجنان. والْجَنَّةُ: هي [دارُ النّعيم في الدّار الآخرة، من الاجتنان وهو السَّتْر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، وسُمِّيَتْ بالجنّة وهي المرَّة الواحدة من مصدر جَنَّهُ جَنًّا: إذا سَتَرَهُ، فكأنّها سَتْرَةٌ وَاحِدَةٌ لِشِدَّةِ الْتِفَافِهَا وَإِظْلاَلِهَا[2]].

ويقال للواحد من «الْجِنِّ» لفظ «الْجِنِّيِّ» فهو اسم جنس جمعي يُفرّق بينه وبين واحده «بالياء». وقال بعض علماء اللّغة: [الجنّ نَوْعٌ من العالم سُمُّوا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ولأنّهم استجنّوا من النّاس فلا يُرون[3]]. وهكذا تدور صيغ هذه المادّة دالّة على معان مُختلفة تشترك جميعُها بمعنى السّتر والاستتار.

واختلف أهل العلم في أصل الجنّ، فروى إسماعيل عن الحسن البصري: أنّ الجنّ ولد إبليس والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثّواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو وَليٌّ لله، ومن كان كافرا فهو شيطان، وذكر الماوردي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال [الجانّ أبو الجنّ وليسوا شياطين، والشّياطين ولد إبليس، لا يموتون إلاّ مع إبليس، والجنّ يموتون ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، فآدم أبو الإنس والجانّ أبو الجنّ وإبليس أبو الشّياطين[4]].

(١) انظر لسان العرب لابن منظور [ج ٢ ص ٣٩٠].
(٢) انظر المصدر السّابق [ج ٢ ص ٣٩١].
(٣) انظر معارج التّفكّر للميداني [ج ٥ ص ٥٢٤].
(٤) انظر تفسير القرطبي [ج ١٠ ص ٢٥].

ولقد تعدّدت الرّوايات فى صحّة اسم أبى الجنّ فجاء :

* فى عقد المرجان للبرهان الحلبى أنّ اسمه [شُومْيَا] .

* وفى لقط المرجان للسّيوطى [سُمُومَا] .

* وفى رواية عكرمة : [سُومْيَا] لما روى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال « لَمَّا خَلَقَ اللّهُ سُومْيَا أَبُو الْجِنِّ وَهُوَ الَّذِى خُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تَمَنَّ ؟ قَالَ : أَتَمَنَّى أَنْ نَرى وَلاَ نُرَى ، وَأَنْ نُغَيَّبَ فِي الثَّرَى ، وَأَنْ يَصِيرَ كَهْلُنَا شَابًا . قَالَ : فَأُعْطِيَ ذَلِكَ ، فَهُمْ يَرَوْنَ وَلاَ يُرَوْنَ ، وَإِذَا مَاتُوا غُيِّبُوا فِي الثَّرَى ، وَلاَ يَمُوتُ كَهْلُهُمْ حَتَّى يَعُودَ شَابًّا » . وذكر في عيون الأخبار ما جاء عن ليث عن مجاهد قال « أُعطِينَا أَنَّا نَرَى وَلاَ نُرَى ، وَأَنَّا نَدْخُلُ تَحْتَ الثَّرَى ، وَأَنَّ شَيْخَنَا يُرَدُّ فَتًى[1] » .

وليس عالم الجنّ أشخاصا جسمانيّة كثيفة تجىء وتذهب مثل النّاس بل القول المحصّل فيه أمران :

(الأوّل) أنّها أجسام هوائيّة قادرة على التّشكُّل بأشكال مختلفة ولها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشّاقة وغيرها .

(الثّانى) أنّها موجودات غير متميّزة ولا حَالّة فى المتميّز وأنّها مجرّدة عن الجسمية .

وعلى كلا القولين : فهذه الأرواح قد تكون مشرقة ربّانيّة خيّرة سعيدة وهى المسمّاة [بالصّالحين] من الجنّ ، وقد تكون كدرة سفليّة شرّيرة شقيّة وهى المسمّاة [بالشّياطين] ، وهناك من قال إنّ الجنّ جواهر مجرّدة عن الجسميّة وعلائقها وجنسها مُخالف لجنس النّفوس النّاطقة البشرية . وفى كلّ الأحوال [فإنّه ليس فى إثبات الجنّ مستحيل عقلى بعدما أثبت العلماء وجودهم عقلا وشرعا :

(١) فعُموم وطلاقة القُدرة الإلهيّة يُجيز وُجودهم عقلا .

(٢) والخبرُ المتواتر من القُرآن والسُّنّة يُوجب وُجودهم شرعا .

وحقٌّ على اللّبيب المعتصم بحبل الدّين أن يُثبت ما قضى العقل بجوازه ونصّ الشّرع على حقيقته[2]] .

(٣) خلق الجـان مـن مـارج مـن نـار

نعمة الإيجاد والإنشاء من أجلّ النّعم التى امتنّ الله بها على خلقه ، والمسافة بين الوجود وعدم الوجود لا تُقاس أبعادها بأى مقياس ممّا يألفه البشر ، فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود ،

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة [ج ٤ ص ١٠٩] . (٢) انظر أحكام القرآن [ج ٤ ص ١٨٦٤] .

أمّا المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تُدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجنّ كذلك فإن هم إلاّ خلق مقاييسه كمقاييس المخلوقات !.

وحين يمتنّ الله علي الجنّ والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء كما في التّنزيل الحكيم ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرّحمن : ١٤ - ١٥] . فإنّما يمتنّ عليهما بالنّعمة الّتي تفوق حدّ الإدراك عندما تشير الآيات إلى مادّة خلق الإنس والجنّ ليُذكّر كلاّ منهما بالأصل الذى أنشأه الله تعالى منه وهى النّعمة التى تقوم عليها سائر النّعم ، إنّه سبحانه ينتقل من الامتنان عليهما بآلائه فى الكون إلى الامتنان عليهما بآلائه فى ذوات أنفسهما وفى خاصّة وجودهما ومراحل إنشائهما ، ليأتى الحديث عن هذا الخلق المبدع على النّحو التّالى [(١)] :

(أوّلا) عندما يشير الحقّ سبحانه إلى أنّ خلق الإنسان كان من صلصال وهو الطّين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضّرب عليه ، وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النّشأة من الطّين أو من التّراب ، كما يمكن أن تكون تعبيرا عن حقيقة الوحدة بين مادّة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التّكوين .

ولقد أثبت التّحليل الكيميائى لجسم الإنسان أنّه يتكوّن أساسا من الماء [٥٤٪ إلى أكثر من ٧٠٪] بالإضافة إلى نسبة من الدّهون [من ١٤٪ إلى ٢٦٪] والبروتينات [من ١١٪ إلى ١٧] الكربوهيدرات [فى حدود ١٪] وعدد من العناصر والمركّبات غير العضوية [تتراوح نسبتها بين ٥٪ و ٦٪].

ولمّا يردّ كلّ ذلك إلى عناصره الأوليّة يتّضح أنّ جسم الإنسان يتكوّن من العناصر التّالية : الأكسجين ٦٥٪ والكربون ١٨٪ والهيدروجين ١٠٪ والنّيتروجين ٣٪ والكالسيوم ١,٤٪ والفوسفور ٠,٧٪ والكبريت ٠,٢٪ والبوتاسيوم ٠,١٨٪ والصّوديوم ٠,١٠٪ والكلور ٠,١٠٪ والمغنيسيوم ٠.٠٤٥٪ وعناصر نادرة ٠,٠١٤٪ وتشمل كلا من اليود والفلور والبروم والحديد والنّحاس والمنجنيز والزّنك والكروم والكوبالت والنّيكل والموليبدينوم والقصدير والفاناديوم والسّيلكون والألومنيوم ، وهذا التّركيب يشبه فى مجموعه التّركيب الكيميائى لتراب الأرض المختلط بالماء(٢)] .

وهذا الذى أثبته العلم لا يجوز أن يُؤخذ على أنّه التّفسير الحتمى للنّصّ القرآنى الكريم ، فقد تعنى الحقيقة القرآنية هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئا آخر سواه وتقصد إلى صورة أخرى من الصّور الكثيرة التى يتحقّق بها معنى خلق الإنسان من تراب أو طين أو صلصال ، وكلّ ما يُستفاد من الكشوف العلمية فى تفسير نصوص القرآن هو توسيع

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٧ ص ٣٤٥١] .
(٢) انظر كتاب الله والعلم الحديث [ص ١٨٠] .

مدلولها فى تصوّرنا وفكرنا كلّما أطلعنا العلم على شيء ممّا تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله تعالى فى الأنفس والآفاق دون أن يحمل النّص القرآنى الكريم على أنّ مدلوله هو هذا الذى كشفه العلم[(١)]].

(ثانيا) أمّا خلق الجانّ من [مارج من نار] فهى مسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية، والمصدر الوحيد فيها هو هذا القرآن باعتباره خبر الله الصّادق الذى خلق وهو سبحانه أعلم بمن خلق، والْمَارِجُ: المشتعل المتحرّك كألسنة النّار المتوهّجة مع الرّياح، وفى حديث عائشة رضى الله عنها عند مسلم «خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم[(٢)]». يبيّن رسول الله ﷺ أنّ الجنّ مخلوقون من مارج من نار أى من أخلاط لَهَبٍ صَافٍ من النّار، وهذه النّار قد اشتدّ توقّدها بسبب السَّمُومُ، وهى الرّيح ذات الحرارة الشّديدة التى تنفذ فى مسامّ الأشياء والأبدان وهو ما جاء به التّنزيل فى أكثر من نصّ قرآنى ومنه:

(١) قول الله تعالى﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر:٢٧]. أى وخلقنا المخلوق الأوّل من الجنّ من نار توقّدت من ريح حارّة شديدة الحرارة، وهى التى يقال لها «السَّمُومُ» لنفوذها فى المسامّ، وهذه النّار الملتهبة لهبا صافيا مكوّنة من عناصر مختلطة، وفى تفسيره للآية قال ابن مسعود رضي الله عنه «نار السّموم التى خَلَق الله منها الجانّ جزء من سبعين جزءا من نار جهنّم، والسَّمُومُ الرّيح الحارّة التى تقتل وإنّها نار لا دخان لها والصّواعق تكون منها[(٣)]». وسُمّيت الرّيح الحارّة سَمُومًا لدخولها بلطف فى مسامّ البدن.

(٢) ويشير قوله تعالى﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرّحمن:١٥]. إلى المارج وهو اللّهب الصّافى من الدّخان، يقال مرج اللّهب إذا ارتفع، وفيه تأويلات: منها قول ابن عبّاس رضي الله عنهما «خلق الله تعالى الجانّ من خالص النّار أو من لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر[(٤)]». وفى تعريفه (قال) الجوهرى [المارج نار لا دخان لها خلق منها الجانّ]. وقال أبو عبيد [المارج خلط النّار وأصله من مَرَجَ اللَّهَبُ مُرُوجًا إذا اضطرب واختلط وامتزج[(٥)]].

(قال) ابن حزم [الجنّ أجسام رقاق صافية هوائيّة لا ألوان لهم وعنصرهم النّار كما أنّ

---

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٧ ص ٣٤٥١].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٦] وأحمد [٢٥٢٣٠].
(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٠ ص ٢٤].
(٤) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٣٨٤].
(٥) انظر تفسير القرطبى [ج ١٧ ص ١٦١].

عنصرنا التّراب وبذلك جاء القرآن، والنّار والهواء عنصران لا لون لهما، وإنّما يحدث اللّون في النّار المشتعلة عندنا لامتزاجها برطوبات ما تشتعل فيه من الحطب والكتّان والأدهان وغير ذلك، ولو كانت لهم ألوان لرأيناهم بحاسّة البصر، ولو لم يكونوا أجساما صافية رقاقا هوائيّة لأدركناهم بحاسّة اللّمس].

ولـمّا أخبر الله تعالى أنّ الجانّ خلقوا من نار وأنّ الشّهب تضرّهم وتحرقهم كان التّساؤل الذي يقول كيف تحرقُ النّارُ النّارَ؟ فكان الجواب عند ابن عقيل عن ذلك على قولين:

(الأوّل) أنّ الله تعالى أضاف الجنّ والشّياطين إلى النّار كما أضاف الإنسان إلى التّراب والطّين، والمراد به في حقّ الإنسان أنّ أصله الطّين، وليس الآدمي طينا حقيقة لكنّ «خَلْقَهُ الأوّل» كان من طين كما في قول الله تعالى ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السّجدة: ٧]. ثمّ تطوّر خلقه من الطّين إلى النّطفة كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

(الثّاني) أنّ الجانّ كان في الأصل نارا ثمّ تطوّر خلقه على غير صورة معلومة لنا ودليل ذلك[١]:

(١) قول النّبي ﷺ من حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه «إنَّ عَدُوَّ اللهِ تَعَالَى إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي[٢]». وقوله ﷺ من رواية جابر رضي الله عنه «ذَاكَ الشَّيْطَانُ أَلْقَى عَلَى قَدَمِي شَرَرًا مِنْ نَارٍ لِيَفْتِنَنِي عَنِ الصَّلَاةِ[٣]».

(٢) ما رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه «أَنَّهُ أَبْصَرَ زُطًّا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا هَؤُلَاءِ الزُّطُّ. قَالَ مَا رَأَيْتُ شَبَهَهُمْ إِلَّا الْجِنَّ لَيْلَةَ الْجِنِّ وَكَانُوا مُسْتَنْفِرِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[٤]».

فيُعلم من الرّوايتين أنّ الجنّ ليسوا باقين على عنصرهم النّاري، وقد جاء الخبر النّبوي ليؤكّد أنّ ريق العفريت الذي عرض له ﷺ في الصّلاة كان باردا، ولولا أنّهم على أشكال ليست نارا لـما ذَكَرَ الصُّورَ التي شَبَّهَهُم بها وترك اللّهب والشّرر وهو ما يتأكّد بحديث يحيى بن سعيد قال «أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَأَى عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ يَطْلُبُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا الْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَآهُ[٥]».

وبيان الدّلالة منه أنّهم لو كانوا باقين على عنصرهم النّاري وأنّهم نار محرقة لما احتاجوا

(١) انظر آكام المرجان للشّبلي [ص ٢٥]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤٢] والنّسائي [١٢١٤]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٠٩٠٤]. (٤) أورده البيهقي في دلائل النّبوّة [٢ / ١٦].
(٥) أخرجه مالك في الموطأ [١٧١١] وقال حديث مُرسل. [والحديث المُرسل عند جمهور المحدّثين ما سقط من إسناده الصّحابي، وقيل: ما انقطع إسناده، أو قول الرّاوي: «قال رسول الله ﷺ». واعتمده جمهور الأصوليين فيدخل فيه المعلّق والمنقطع والمُعضل]: انظر إحكام الفصول لأبي الوليد [ص ٥١].

أن يأتي الشّيطان أو العفريت منهم بشعلة من نار، ولكانت يد الشّيطان أو العفريت أو شيء من أعضائه إذا مسّ ابن آدم أحرقه كما تحرق النّارُ الآدمي بمجرّد المسّ، فدلّ على أنّ تلك النّار انغمرت في سائر العناصر، حتّى صار البرد ربّما كان هو الغالب في بعض الأحيان إمّا للأعضاء نفسها أو لما تحلّل من البدن كاللّعاب كما في قوله ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي، فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ إِصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا[(١)]».

(قال) القاضي أبو بكر [ولسنا ننكر مع ذلك يعني أنّ الأصل الذي خلقه منه النّار أن يكثّفهم الله تعالى ويغلّظ أجسامهم ويخلق لهم أعراضا تزيد على ما في النّار فيخرجون عن كونهم نارا ويخلق لهم صورا وأشكالا مختلفة[(٢)]].

(٣) أصناف الجـنّ

الصِّنْفُ [بالكسر والفتح]: النّوع والضّرب وجمعه أصنافٌ وصنوفٌ، والصّنف من الشّيء: ضرب منه متميّز بصفات خاصّة أو مشتركة، ولذلك جاءت الرّوايات التي تبيّن أنّ الجنّ على ثلاثة أصناف [أوّلها] يطير كالهواء، و[الثّاني] عليهم الحساب والعقاب، و[الثّالث] ما يسمّى بخشاش الأرض، والقريب الذي يُؤيّد هذا المعنى:

* ما رُوي عن أبي الدّرداء رضي الله عنه من قول النّبي ﷺ «خَلَقَ اللّهُ تَعَالَى الْجِنَّ ثَلاَثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَخَشَاشِ الأَرْضِ، وَصِنْفٌ كَالرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ عَلَيْهِمُ الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ[(٣)]».

* وما رواه ابن عبد البرّ عن وهب بن منبّه «أَنَّ الْجِنَّ أَصْنَافٌ: فَخَالِصُهُمْ رِيحٌ لاَ يَأْكُلُونَ وَلاَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَتَوَالَدُونَ، وَمِنْهُمْ أَجْنَاسٌ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَنَاكَحُونَ وَيَمُوتُونَ وَهَذِهِ هِيَ السَّعَالِي وَالْغُولُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ[(٤)]».

* ويؤيّده ما رواه ابن حبّان والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي ثعلبة الخشني أنّ رسول الله ﷺ قال «الْجِنُّ عَلَى ثَلاَثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ، وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ[(٥)]».

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١٧١٩].

(٢) انظر أكام المرجان للشّبلي [ص ٢٦].

(٣) أخرجه الحكيم التّرمذي في نوادر الأصول [ص ٥٠] والدّيلمي في الفردوس بمأثور الخطاب [٢٩٤٢] وذكره السّيوطي في الدُّر المنثور [٣/١٤٧] وأورده أبو الشّيخ في كتاب العظمة [١٠٩٧].

(٤) إسناده صحيح وأورده أبو الشّيخ في كتاب العظمة [١٠٩٩].

(٥) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٣٧٥٣] وافقه الذّهبي في التّلخيص وقال صحيح؛ وأورده الألباني في صحيح الجامع [٣١١٤] والتّبريزي في مشكاة المصابيح [٤١٤٨] والبيهقي في الأسماء عن أبي ثعلبة.

ويعضد هذه الرّواية ما أخرجه البخارى عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال «إنّ الْمَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مَائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ(١)».

وهو يدلّ على أنّ هؤلاء النّفر من صنف «الجنّ الطّيارين» لبيان أنّهم كانوا يرتقون لاستراق السّمع من الملائكة الذين ينزلون فى العنان، وهو ما يبدو لك من السّماء إذا نظرت إليها. وقالوا: الْعَنَانُ السّحاب.

* وذكر أبو الشّيخ رواية أبى ثعلبة بلفظ «الْجِنُّ عَلَى ثَلاَثَة أَصْنَاف فَثُلُثٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَثُلُثٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ، وَثُلُثٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ(٢)». من الحلّ والتّرحال أى فى المكان ومنه.

* ورواه ابن أبى الدّنيا عن أبى الدّرداء وفى آخره «وَثُلُثٌ كَبَنِي آدَمَ لَهُمُ الثَّوَابُ وَعَلَيْهِمُ الْعِقَابُ(٣)». (قال) ابن عبد البرّ [الجنّ عند أهل الكلام والعلم باللّسان منزّلون على مراتب:

(١) فإذا ذكروا الجنّ خالصا قالوا [جِنّيّ].

(٢) وإن أرادوا أنّه مُمَكَّنٌ يسكن مع النّاس قالوا [عامرٌ] وجمعُه عُمَّار.

(٣) فإن كان ممّن يعرض للصّبيان قالوا: [أرْوَاحٌ].

(٤) فإن خَبُث وتعزّم فهو [شَيْطَانٌ].

(٥) فإن زاد على ذلك فهو [مارِدٌ].

(٦) فإن زاد على ذلك وقَوِىَ أمرُه قالوا [عِفْرِيتٌ] وجمعه عَفَارِيتٌ(٤)].

ويُستفاد من هذه الرّوايات أنّ الجنّ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(الأوّل) صنف هم والإنس فى التّكليف سواء بسواء، وأنّهم فرق متعدّدة مختلفة يحلّون ويظعنون.

(الثّانى) صنف تجمعه خشاش الأرض وشقوقها من حيّات، وثعابين، وعقارب، وكلاب وسعالى، يظهرون ويختفون.

(الثّالث) من هم فى خلقتهم كالرّيح يطيرون بأجنحتهم فى الهواء لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون وهم شياطين الجنّ ومردتهم.

وعلى ذلك فإنّ مبحثنا فى هذه المسألة ينقسم فى مجمله إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢١٠] ومسلم [٢٢٢٨] باختلاف.

(٢) إسناده صحيح وأخرجه أبو الشّيخ فى كتاب العظمة [١١٠٣].

(٣) أخرجه ابن أبى الدّنيا فى الهواتف [١٥٦] وابن حبّان [٣ / ١٠٧].

(٤) انظر أكام المرجان للشّبلى [ص ٢٠].

(القسم الأوّل)

الجنّ المكلّف بالعبادة

وهذا الصّنف من الجنّ هو الذى جاء تعريفه فى الرّوايات بأنّهم :

١ ـ «يَحلُّونَ وَيَظْعَنُونَ».

٢ ـ «وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَوَالَدُونَ».

٣ ـ «وَيَقَعُ عَلَيْهِمُ الْحِسَابَ وَالْعِقَابَ».

وهذا القسم هو المكلّف من حين الخلقة، فمنهم المؤمن والكافر كما فى قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[الجنّ: ١١]. وهذا التّقرير من الجنّ بأنّ منهم صالحين وغير صالحين، يفيد ازدواج طبيعة الجنّ واستعدادهم للخير والشّر كالإنسان ـ إلاّ من تمحضّ للشّر منهم وهو إبليس وقبيله ـ وهو تقرير ذو أهميّة بالغة فى تصحيح تصوّرنا الاعتقادى عن هذا الخلق الغيبى، فأغلبنا على اعتقاد أنّ الجنّ يُمثّلون الشّر وقد خلصت طبيعتهم له وأنّ الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو طبيعة مزدوجة [(١)].

فجاء قوله تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ : ليُبيّن أنه قد كان فى الجنّ جنٌّ صالحون قبل وصول دعوة النّبى ﷺ إليهم، إذ كانوا على ملّة مقبولة عند الله غير منسوخة بملّة لاحقة، أمّا بعد أن وصلت إلى الجنّ دعوة النّبى ﷺ فلا يوصف بالصّلاح إلاّ من كان مؤمنا مسلما تقيّا متبّعا رسالة خاتم الأنبياء سيّدنا محمّد ﷺ.

وقولهم ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أى لكلّ منّا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر، والطّرائق جمع طريقة وهي مذهب الرّجل، وتُطلق فى اللّغة على السّيرة والمذهب والحال والفرقة، أى [كنّا فرقًا شتّى وأديانًا مختلفة وأهواء متباينة يَهُودًا ونَصَارى وعَبَدَةَ أوْثَانٍ(٢)]. وعن السُّدّىّ فى قول الله تعالى ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾. قال [الجنّ أهواء مثلكم منهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة(٣)].

(أ) هل الجنّ مكلّفون بالعبادة؟

الجنّ عند جمهور المسلمين من الصّحابة والتّابعين مكلّفون بالعبادة مأمورون بالطّاعة كالإنسان سواء بسواء، وأنّهم مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة ذات إرادة واختيار، فهم مكلّفون بالإيمان والعبادة، منهيّون عن الكفر والعصيان، إذ لهم إرادات حرّة وقدرات فكرية على إدراك الخير والشّر، والحَسَن والقبيح، والظّلم والعدل، والتّقوى والبرّ، ولهم غرائز وأهواء وشهوات،

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٩ ص ٢٧٣٢].

(٢) انظر معارج التّفكُّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٥٧].

(٣) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٣٤٥].

كما أنّ لهم قدرات ما على تنفيذ ما يُريدون من طاعة لله تعالى ومعصية له. وكثير من خطابات التّكليف فى القرآن الكريم يجمع الله فيها بين الجنّ والإنس[1] كما فى قوله تعالى:

* ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

* ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

* وفى قول الله تعالى حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]. يقرّرون تصوّرهم لحقيقة الهُدَى والضّلال وأنّ الهُدَى هو الإسلام، فمن أعلن استسلامه لله تعالى صادقا مخلصا، وأعلن قبوله أن يدخل فى دين الإسلام طائعا مختارا، وأسلم وجهه لما أنزله الله تعالى لعباده وبعث به رسوله الأكرم ﷺ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين تحرّوا الصّواب فى طلب الرّشد والاهتداء إلى هذا الدّين العظيم عن معرفة وقصد، وبعد تبيّن ووضوح.

والتّكليف لغة[2] مصدر كَلَّفَ بمعنى ألزم، فالتّكليف: إلزام ما فيه كلفة أى مشقة، والتّكاليف: المشاقّ وهو معنى قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فإلزام الشّىء والإلزام به: هو تصييره لازما لغيره لا ينفكّ عنه مُطلقا أو وقتا ما، وفى الاصطلاح: طلب الشّارع ما فيه كُلْفَةٌ من فعل أو ترك. [أو] هو إلزام الكُلْفَةُ على المخاطب. [أو] هو إلزام مقتضى خطاب الشّرع.

وفى الوقت الذى يقف بنا النّص القرآنى فيه أمام فريق من الجنّ آمن بالله ورسوله فى مُقابل فريق آخر كفر بدعوة الحقّ والدّين، كانت بداية التّكليف للجنّ عندما انطلق هؤلاء النّفر إلى قومهم منذرين كما فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. إنّهم حينما استمعوا لهذا القرآن تنادوا بالإنصات إليه فاطمأنّت قلوبهم إلى الإيمان بالله تعالى، كما أنّ سياق الخبر فى هذه الآية وتصويره مسّ القرآن لشغاف قلوب الجنّ على هذا النّحو وما وقع فى حسّهم من الجمال والرّوعة المؤسرة للحسّ والشّعور بقولهم ﴿أَنصِتُوا۟﴾. إنّما يترجم حقيقة ما حكوه لقومهم عنه وما دعوهم إليه.

(١) انظر كتاب العقيدة الإسلاميّة [ص ٢٥٣].

(٢) انظر الموسوعة الفقهيّة [٣/ ٢٤٨].

وإذا كان النّفر من الجنّ قد وَعى القرآن الكريم بعد إنصات وتدبُّر ، فأطلق في كيانهم دفعة قويّة من التّأثر العميق حتّى فاضت قلوبهم إيمانا بالخالق جلّ شأنه فانطلقوا إلى قومهم بنفوس مُفعمة بالرّضا مملوءة بما لا تملك له دفعا ولا تملك عليه صبرا حتّى تفيضه على الآخرين بمثل هذا الأسلوب المتدفّق النّابض بالحرارة والانفعال ، فإنّ غيرهم من المكذّبين الضّالين من بني البشر قد قالوا في زمن التّنزيل الكريم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصّلت :٢٦] . وما زال الأكثر من هؤلاء البشر يردّدون بألسنتهم ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾ . والجنّ في كلّ الأصداء إلى يوم القيامة تقول :

﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف : ٣٠ - ٣١] . إنّه الفارق الذى يفصل بين السّماع والصّمم ، السّماع الذى أدّى بالجنّ إلى الاستقامة على طريق الطّاعة والإيمان ، والصّمم الذى ساق الكثيرين من بني الإنسان إلى دَركات الكفر والطُّغيان .

[لقد ولّوْا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنّا سمعنا كتابا جديدا أُنزل من بعد موسى يصدّق كتاب موسى في أصوله ، فأدركوا الصّلة بين الكتابين بمجرّد سماعهم آيات من هذا القرآن قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكنّ طبيعتها تشي بأنّها من ذلك النّبع الذى نَبع منه كتاب موسى عليه السّلام[1]] .

والمتأمّل لقول القرآن حكاية عنهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ . يُدرك أنّهم علموا أنّ الإنجيل مُلحق بالتّوراةُ ومُؤيّد لأحكامها ومُخفّف لبعض شدّتها ، أمّا القرآنُ فكتاب مستقلّ طوى التّوراة والإنجيل معا في معانيه وأنشأ شريعة مُهيمنة على ما سبقها من وحي مُنَزَّل .

وعندما تجيء الإشارة إلى الصّلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجنّ لتُعلن هذه الحقيقة التي يُدركها الجنّ ويغفل عنها البشر أنّ الكتاب المنزّل على قلب سيد البشر محمّد ﷺ كتابٌ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

[وتشير كذلك إلى أسس الاعتقاد الكامل القائمة على تصديق الوحي ووحدة العقيدة بين القرآن وما قبله من الكتب المنزّلة ، وتتضمّن كذلك شهادة هؤلاء الجنّ البعيدين نسبيّا عن مؤثرات الحياة البشريّة بمجرّد تذوّقهم لآيات من القرآن تأتي في قولهم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، إنّ وَقْع الحقّ والهدى في هذا القرآن هائل ضخم لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى

---

(١) انظر في ظلال القرآن [ج ٢٦ ص ٣٢٧٣] .

الجامح اللّئيم، ومن ثمّ لمس هذه القلوب لأوّل وهلة فإذا هى تنطق بهذه الشّهادة وتعبّر عمّا مسّها منه هذا التّعبير الصّادق المؤثّر [1]].

ومن قول الجنّ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف: ٣١]. يتبيّن للمرء مدى حرصهم على نذارة قومهم فى حماسة المقتنع المندفع الذى يستشعر أنّ عليه واجبا فى النّذارة لابدّ أن يؤدّيه، عندما اعتبروا أنّ نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله تعالى لكلّ من بلغته من إنس وجنّ، واعتبروا أنّ الرّسول ﷺ داع لهم إلى الله تعالى بمجرّد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثّقلين له فنادوا قومهم ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

لقد قالوا ذلك مبالغة منهم فى دعوة من دعوهم إلى الإيمان لـمّا سمعوا القرآن من نبىّ الإسلام ورحمة الله للعالمين محمّد ﷺ، ثمّ كان إيمانهم برسالته وتصديقهم بدعوته على النّحو التّالى:

(أوّلا) لـمّا سمعت الجنّ القرآن آمنوا بالله تعالى وكان من مُقتضى هذا الإيمان دخولهم دائرة التّكليف التى أوجبها الله على عباده كما فى قوله ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

إنّه قول الواثق المطمئنّ إلى عدل الله تعالى وإلى قدرته ثمّ إلى طبيعة الإيمان وحقيقته، بعدما سمعوا القرآن وسَمَوْه [هُدًى] كما هى حقيقته ونتيجته، ثمّ يقرّرون ثقتهم فى ربّهم وهى ثقة المؤمن التى لا تتزعزع فى خالقه ومولاه بقولهم ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[الجنّ: ١٣].

والله سبحانه لن يبخس المؤمن حقّه ولن يرهقه بما فوق طاقته، وكذلك يحميه من البخس والرّهق، فالمؤمن فى أمان من البخس والرّهق، وهذا الأمان يولد الطّمأنينة والرّاحة طوال فترة العافية، فلا يعيش فى قلق وتوجّس حتّى إذا كانت الضّراء لم يهلع ولم يجزع ولم تغلق على نفسه المنافذ، إنّما يعدّ الضّراء ابتلاء من ربّه يصبر له فيُؤجر، ويرجو فرج الله منها فيُؤجر، وهو فى الحالين لم يَخَفْ بَخْسًا ولا رَهَقًا ولم يكابد بَخْسًا ولا رَهَقًا [[2]].

(ثانيا) بعد تلقّى الجنّ البلاغ من رسول الله ﷺ افترقت إلى جماعتين أُولاها أسلمت وجهها لله تعالى، وأخرى عدلت عن طريق الحقّ والصّواب كما فى قوله جلّ شأنه وسلطانه ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾[الجنّ: ٤].

والقاسطون هم الجائرون المجانبون للعدل والصّلاح، وقد جعلهم هذا النّفر من الجنّ

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٦ ص ٣٢٧٣].

(٢) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٩٦ـ٥٩٧].

فريقا يُقابل المسلمين، وفى هذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول تُبيّن أنّهم بعد دعوتهم للإسلام صاروا فريقين:

(الفريق الأوّل): المسلمون وهم الذين أعلنوا إسلامهم واتّباعهم لأحكام الدّين وشرائعه، إذ استجابوا لدعوة إخوانهم النّفر من الجنّ الذين سمعوا القرآن فآمنوا به وبمن أُنْزل عليه، وأطاعوا ربّهم وأسلموا له، وبإعلانهم هذا اختاروا لأنفسهم أن يسلكوا الصّراط المستقيم الذى هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والصّالحين.

(الفريق الثّانى): القاسطون أى الجائرون الذين عدلوا عن الحقّ وانحرفوا عن الصّراط المستقيم، والسّبب فى عدولهم عن الحقّ وميلهم عنه أنّهم لم يُسلموا فجاء الاستغناء ببيان جورهم الكلّى عن ذكر عدم إسلامهم، والقاسط فى اللّغة: الجائر الذى يحيدُ عن الحقّ وعن طريق الهدى. [وآيات الذّكر الحكيم تدلّ بوضوح على أنّ الجنّ فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون، وما ورد منها حكاية لقول الجنّ مع السّكوت عن ردّه إقرار له [(1)].

(ثالثا) أنّ بيان تكليفهم واضح فيما اشتمل عليه القرآن الكريم من ذمّ الشّياطين ولعنهم والتّحرّز من غوائلهم وشرّهم، وذَكَر ما أعدّ الله لهم من العذاب، وفى ذلك كلّه دليل على تكليفهم بالعبادة، وهى أمور لا يخصّ بها إلاّ من خالف الأمر والنّهى وارتكب الكبائر وهتك المحارم مع تمكّنه من عدم فعْل ذلك وقدرته على فعل خلافه مختارا [(2)].

وإذا كان الجنّ عند جمهور المسلمين «مكلّفين» كما سبق بيانه، فهل هم مخاطبون بفروع الإسلام كالصّوم والصّلاة وغير ذلك من العبادات أم هم مخاطبون بالتّصديق فقط؟ يقول ابن تيمية [لا ريب أنّهم مأمورون بأعمال زائدة على التّصديق ومنهيّون عن أعمال غير التّكذيب، فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنّهم ليسوا مُماثلى الإنس فى الحدّ والحقيقة، فلا يكون ما أُمروا به ونُهوا عنه مساويا لما عليه الإنس فى الحدّ، لكنّهم مشاركون الإنس فى جنس التّكليف بالأمر والنّهى والتّحليل والتّحريم، وهذا ما لا نعلم فيه نزاعا بين المسلمين(3)]. أمّا دلائل التّكليف بالأمر والنّهى والتّحليل والتّحريم فهى فى القرآن الكريم كثيرة:

* فأخبر أنّ الشّيطان يخافُ الله تعالى بقوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال:48]. والعقوبة إنّما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور، ومعصية إبليس لم تكن تكذيبا فإنّ الله تعالى قد أمره بالسّجود، وقد علم أنّ الله أَمَرَهُ ولم يكن بينه وبين

(1) انظر كتاب العقيدة الإسلامية [ص 254].
(2) انظر تفسير القرطبى [ج 17 ص 269].
(3) انظر فتاوى ابن تيمية [ج 4 ص 233].

الله رسول يكذّبه، فلمّا امتنع عن السّجود لآدم عاقبه الله العقوبة البليغة، ولهذا قال النّبي ﷺ «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ يَاوَيْلَهُ! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ[1]».

* ويبيّن الحقّ في قوله تعالى ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢]. أنّهم أُمروا بإجابة داعي الله الذي هو نبيّنا ﷺ والإجابةُ والاستجابة هي طاعة الأمر وطاعة النّهي، وهي العبادة التي خُلقَ لها الثّقلان كما في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦].

* والله تعالى أخبر بمكوث إبليس ومن تبعه من الجنّ والإنس في نار جهنّم فقال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. فبيّن سبحانه أنّه لا يدخلها إلاّ من اتّبع إبليس من الكفّار والفسّاق، ومعلوم أنّ الكفّار ليسوا بمؤمنين ولا عارفين لله معرفة يكونون بها مؤمنين.

* كما أخبر سبحانه على لسان الجنّ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. وفيه بيان أنّ في الجنّ الصّالح وغير الصّالح، والصّالح هو القائم بما وجب عليه، ودون الصّالح لابدّ أنّ يكون عاصيا في بعض ما أُمر به، وهذا يُبيّن أنّ فيهم من يترك بعض الواجبات فيحَاسَبُ عليها وهو ما يقرّره رسول الله ﷺ في قوله من حديث جابر رضي الله عنه «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ عَاصِيَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ[2]».

* وقول الله تعالى ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. فيه خطاب لمن أهبطه الله تعالى من الجنّة. [وكلا الخطابين لأبوي الثّقلين، وهو دليل على أنّ الجنّ مُكلّفون وأنّهم مأمورون منهيّون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا ممّا لا خلاف فيه بين الأمّة، وأنّ نبيّنا ﷺ بُعث إليهم كما بُعث إلى الإنس كما لا خلاف بينها أنّ مسيئهم مستحقّ للعقاب[3]].

أمّا ثوابهم وعقابهم فلم يختلف من أثبت تكليفهم أنّهم يعاقبون على المعاصي كما في قوله سبحانه ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرّحمن: ٣١]. وهو يحمل الوعيد من الله تعالى إلى الجنّ والإنس بالمجازاة والحساب لعظم شأنهما بسبب التّكليف، وسُمّيا ثَقَلاَن لما ألقى عليهما من مشقّة التّكاليف [أو] لأنّهما مُثقَلان بالذّنوب والأوزار، وفي الآية دليل على أنّ الجنّ مُخاطبون مُثَابون مُعَاقبون كالإنس سواء بسواء، مُؤمنهم كمُؤمنهم

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١] وأحمد [٩٦٧٤] وابن ماجه [٨٧١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٤٢٦٩] وابن أبي شيبة [١١٧٦٨] والصّحيحة [١٧١٨].

(٣) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ٣٧].

وكافرهم ككافرهم لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

وذهب جمهور العلماء إلى أنّهم يُثَابُونَ على الطّاعة وهو قول الأئمّة الثّلاثة والأوزاعي وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن وغيرهم. ثمّ اختلفوا هل يدخلون مدخل الإنس؟ على أربعة أقوال:

[أحدها] نعم وهو قول الأكثر.

[وثانيها] يكونون في رَبَض الجنّة وهو منقول عن مالك وطائفة،

[وثالثها] أنّهم أصحاب الأعراف.

[ورابعها] التّوقّف عن الجواب في هذا.[1]

ونقل عن مالك [أنّه استدلّ على أنّ لهم الثّواب وعليهم العقاب بقول الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرّحمن:٤٦]. والخطاب في قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرّحمن:٤٧]. مُوجّه إلى الإنس والجنّ، فإذا ثبت أنّ فيهم مؤمنين والمؤمن من شأنه أن يخاف مقام ربّه ثبت المطلوب والله أعلم[2]].

(رابعا) أنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلاّ لعبادته وتوحيده وذكره كما في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذّاريات:٥٦]. أي وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ لعبادتي وتوحيدي والسّير على نهج ديني. [فإذا تساوى الجنّ والإنس في الابتلاء والتّكليف، فلابدّ أن يكون لكلّ منهما حساب وجزاء بالثّواب الجزيل أو بالعقاب الشّديد على حسب أعمالهم[3]].

وقد ثبت بنصّ القرآن وإجماع الأمّة أنّ مسيء الجنّ في النّار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، ومحسنهم في الجنّة بفضل الله وبما كانوا يعملون، وقيل إنّهم يكونون في رَبَضِ الجنّة يراهم أهل الجنّة ولا يرونهم كما كانوا في الدّنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يُعلم إلاّ بتوقيف تنقطع الحجّة عنده، فإن ثبتت حجّة يجب اتّباعها وإلاّ فهو ممّا يُحكى ليُعلم، وصحّته موقوفة على الدّليل [[4]].

وتأتي حكمة تقديم الجنّ على الإنس في الآية لعدّة وجوه:

(أوّلها) أنّ ذكر الجنّ أوّلا يتناول الملائكة لأنّ الجنّ أصله من الاستتار فهم مستترون

(١) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٣٩٨].

(٢) انظر المصدر السّابق.

(٣) انظر معارج التّفكّر للميداني [ج ٥ ص ٥٥٨].

(٤) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ٣٩].

من الخلق، وعلى هذا كان تقديم الجنّ لدخول الملائكة فيهم، ولكونهم أكثر عبادة وإخلاصًا، فليس المقصود بتناول الملائكة أنّها من جنس الجنّ تُصبغ بطبيعتهم في الاستتار، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾. وقول الله تعالى ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥].

فإنّ لفظ [الجنّ] هنا لا يتناول الملائكة بحال لنزاهتهم عن العيوب، وأنّه لا يتوهّم عليهم الكذب ولا سائر الذّنوب، فلمّا لم يتناولهم عموم اللّفظ لهذه القرينة بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم.(١)

(الثّاني) لـمّا كانت العبادة سرّية وجهريّة وللسّرية فضل على الجهريّة وكانت عبادة الجنّ سرية فلا يُداخلها رياء، بعكس عبادة الإنس فإنّ الرّياء عندما يُداخلها لا تكون لله تعالى والجنّ ليس كذلك.

أمّا العبادة التي خُلقَ الجنُّ والإنسُ من أجلها فهي التّعظيم لأمر الله والشّفقة على خلقه سبحانه، فإنّ هذين النّوعين لم يُخْلِ اللهُ شرعا منهما، أمّا خصوص العبادات فالشّرائع مُختلفة فيها بالوضع والهيئة، والقلّة والكثرة، والزّمان والمكان، والشّرائط والأركان، ولـمّا كان التّعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلا لزم اتّباع الشّرائع فيها نقلا بقول الرّسل عليهم السّلام [(٢)].

(٣) الجنّ يموتون ويُبعثون للقضاء والجزاء

ثبت في القرآن والسُّنّة أنّ الجنّ يموتون ثُمّ يُبْعَثُونَ يوم القيامة للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، ودليل ذلك قول اللهِ تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨]. فبيّن اللهُ تعالى في هذا النّصّ الكريم أنّه قد مضت بالموت أمم قبل الكافرين المعاصرين لرسول الله صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

ونظام الحياة والموت نظام يشمل الجنّ كما يشمل الإنس إلاّ أنّ الجنّ في ذلك ينقسم إلى قسمين:

(الأوّل) من كَتَبَ اللهُ تعالى عليه الموت منهم إذا وافاه أجله ودلّ على ذلك قول النّبي ﷺ «اللّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بعِزَّتكِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ(٣)».

---

(١) انظر أكام المرجان [ص ١٨].

(٢) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢٨ ص ٢٣٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٧] ووافقه البخارى [٧٣٨٣].

(الثّانى) يشمل إبليس ومن معه من الشّياطين، وكان قد عُلم أنّه خاضع لنظام الموت كسائر الجنّ، فسأل ربّه بعد أن حكم عليه بالإخراج من الملأ الأعلى والطّرد واللّعن أن يُنْظِرَهُ فلا يُميته إلى يوم البعث ومن ذلك قوله ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]. وهذا السّؤال من إبليس لم يكن عن ثقة ويقين منه بمنزلته عند الله تعالى، أو أنّه أهل لأن يجيب الله له دعاء! وإنّما استهدف من سُؤاله أمرين:

(الأوّل) تأخير عذابه زيادة فى بلائه كفعل الآيس من النّجاة والسّلامة.

(الثّانى) أراد بالإنظار ألاّ يموت لأنّ يوم البعث لا موت فيه ولا بعده.

فوعده الله تعالى بأن يُنظره إلى وقت انتهاء الحياة ضمن المؤجّلين إلى ذلك الوقت من الملائكة كما فى قول الحق سبحانه ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠-٨١]. فجاء قول الله تعالى تغليظا له فى الوعيد لا على وجه التّكرمة والتّقريب.

وعن «الوقت المعلوم» قال ابن عبّاس وغيره: أراد به النّفخة الأولى أى حين تموت الخلائق. وقيل: الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ويجهله إبليس فيموت ثُمّ يُبعث كما فى قول الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرّحمن: ٢٦-٢٧].

ومن الأحداث التى ترتبط بيوم القيامة السّؤال والحساب والجزاء بالثّواب أو العقاب كما فى قول الله تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرّحمن: ٣٩]. «والمعنى لا يُسْأَلُونَ إذا استقروا فى النّار، وقال الحسن وقتادة: لا يُسألون عن ذنوبهم لأنّ الله تحفظها عليهم وكتبتها الملائكة، فيرى كلّ واحد من الإنس والجنّ معاصيه وقد تسجّلت فى كتاب عمله شريطا مؤرّخا بالصّوت والصّورة والخواطر والنّيات [(١)].

ويأتى بيان تعذيب كفرة الجنّ حكاية لما يخاطب به الذين كانوا يفترون على الله الكذب ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. فدلّ هذا النّصّ على أنّ حال الجنّ كحال الإنس امتحانا وتكليفا فى الدّنيا وجزاء يوم القيامة.

وخطاب الجنّ لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]. يشير إلى أمرين [(١)]:

(١) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٥٩].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٢١٨].

(الأوّل) الدّلالة على أنّ الجنّ كالإنس فى الأمر والنّهى والثّواب والعقاب، وأنّهم كما يُعاقبون فى الإساءة يُجازون فى الإحسان مثل الإنس وإليه ذهب مالك والشّافعى وابن أبى ليلى، وأنّ الجنّ يدخلون الجنّة ويأكلون ويشربون.

(الثّانى) التّحذير من العذاب الأليم فى جهنّم يوم القيامة إن لم يجيبوا داعى الله ويُؤمنوا به، كما أنّ فيه الدّلالة على أنّ الجنّ يُعذّبون فى النّار كالإنس إذا كانوا من الكافرين المجرمين، فمن أجاره الله من الخلود فى عذاب النّار أدخله الجنّة لا محالة سواء كان من الإنس أم من الجنّ لقوله تعالى﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرّحمن:٤٦-٤٧]. ومعلوم أنّ المتّقين من الجنّ قد خافوا مقام ربّهم يوم الدّين [(١)].

أمّا إبليس فهو أوّل من يُكسَى يوم القيامة حُلّةً من النّار لقوله ﷺ من حديث أنس «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبِه وَيَسْحَبُهَا وَهُوَ يَقُولُ: يَاثُبُورَهُ، وَذُرِّيَّتُهُ خَلْفَهُ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَاثُبُورَهُمْ، حَتَّى يَقِفَ عَلَى النَّارِ وَيَقُولُ: يَاثُبُورَهُ وَيَقُولُونَ يَا ثُبُورَهُم فَيُقَالُ لهم ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٤(٢)]. أى أنّ هلاككم أكثر من أن تدعو مرّة واحدة، والثّبور هو الهلاك والطّرد والخسران من قوله تعالى﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء:١٠٢]. أى مُهلكا مقهورا مطرودا من رحمة الله تعالى أو مصروفا عن الحقّ الذى أنْكَرْتَه [(٣)].

وفى المسند عن العبّاس بن مِرْداس رضي الله عنه:

«أَنَّ رَسُولَ اللّٰه ﷺ دَعَا لأُمَّتِه عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِالْمَغْفِرَةِ فَأُجِيبَ: إِنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، مَا خَلاَ الظَّالِمَ، فَإِنِّى آخِذٌ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالْمُزْدَلِفَةِ أَعَادَ الدُّعَاءَ فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ أَوْ قَالَ: تَبَسَّمَ».

«فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى: إِنَّ هَذِه لَسَاعَةٌ مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا. فَمَا الَّذِى أَضْحَكَكَ أَضْحَكَ اللّٰهُ سِنَّكَ؟ قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللّٰه إِبْلِيسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدِ اسْتَجَابَ دُعَائِى وَغَفَرَ لأُمَّتِى، أَخَذَ التُّرَابَ فَجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِه وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، فَأَضْحَكَنِى مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِه(٤)».

---

(١) انظر المصدر السّابق [ج ١٧ ص ١٧٤].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٣٥٣٧] والهيثمىّ [١٠ / ٣٩٢].

(٣) انظر النّهاية [١ / ٢٠٦] والقاموس القويم [١ / ١٠٥].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٦١٥٩] وقالوا فى تحقيقه رواته مقبولون.

(٣) سماع الجنّ القرآن من رسول الله ﷺ

جاء في القرآن الكريم بشأن مَنْ وَفَدَ إلى رسول الله ﷺ من الجنّ نصّان:

(الأوّل) ما جاء في [سورة الجنّ] وقد دلّ على أنّه يتحدّث عن وفد لم يعلم النّبي ﷺ بحضورهم واستماعهم القرآن منه، ولم يعلم بإيمانهم ولا بانصرافهم إلى قومهم دُعاة إلى دين الله حتّى أعلمه الله تعالى بذلك، وكان هؤلاء النّفر من جنّ نصيبين من ديار بكر قرب الشّام أو من جنّ «نِيْنَوَى» قرب الموصل بالعراق.

وقد جاؤوا إلى النّبي ﷺ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر [بنخلة] في طريق الطّائف وكان يقرأ «سُورَةَ الْعَلَقِ». وقيل: «سُورَةَ الرَّحْمَنِ»، لما روى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما [أنّ النّبي ﷺ لم يشعر بهم في هذه الواقعة ولم يقصد بها إبلاغهم القرآن، وإنّما صادف حضورهم وقت قراءته[١]]. فأُنزلت عليه السّورة وأمره الله تعالى فيها أن يُحدّث النّاس بخَبَرهم.

(الثّاني) ما جاء بالآيات [٢٩ - ٣٢] من [سورة الأحقاف] وليس فيها ما يدلّ على أنّ الرّسول ﷺ لم يكن يعلم بحضورهم لدى وفودهم إليه، ويمكن أن يحمل عليه بعض ما ورد من الأحاديث التي جاء فيها ذكر وفادة الجنّ إلى النّبي ﷺ وكان أوّل سماع الجنّ للقرآن الكريم من رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة عشر من المبعث عندما تنزّل عليه قول الله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف: ٢٩].

وقد ساق ابنُ إسحاق - فيما رواه ابن هشام في السّيرة - خبر النّفر من الجنّ بعد خروج رسول الله ﷺ إلى الطّائف يلتمس النُّصرة من ثَقيف بعد موت عمّه أبي طالب واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين من كُفّار مَكّةَ، وردّ ثَقيف عليه ردًّا قبيحا وإغرائهم السّفهاء والأطفال به حتّى أدموا قدميّ النّبي ﷺ بالحجارة فتوجّه إلى ربّه تعالى بهذا الابتهال المؤثّر العميق:

«اللّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ[٢]».

---

(١) انظر كتاب العقيدة الإسلاميّة [ص ٢٥٠].

(٢) انظر سيرة ابن هشام [ج ٢ ص ٢٨٥] والبداية والنّهاية [ج ٣ ص ١٣٦] والطّبري في تاريخه [٢/ ٣٤٥] وجمع الجوامع [٩٧٤٣].

وقال ابن إسحاق [ثمّ إنّ رسول الله ﷺ انصرف من الطّائف راجعا إلى مكّة حين يئس من خبر ثقيف، حتّى إذا كان بنخلة(١) قام من جوف اللّيل يُصلّي، فمرّ به النّفر من الجنّ الذين ذكرهم الله وهم ـ فيما ذُكر ـ سبعة نفر من جنّ نصيبين فاستمعوا له، فلمّا فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين [(٢)].

والذى يتّفق مع النّصوص القرآنيّة ما دلّ عليه حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما كما في رواية البخارى قال «انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَالَكُمْ؟ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شَيْءٌ حَدَثَ! فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ».

«فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا يَاقَومنا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾. وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ(٣)».

وبهذا الإسناد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ «قَوْلُ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن: ١٩]. قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي وَأَصْحَابُهُ يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ فَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: تَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ، قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ ـ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ـ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(٤)». وجاء عند الحاكم بلفظ «كَانُوا يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ يَعْنِي الْجِنَّ».

ويتأكّد سجود الجنّ بما رواه البخارى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنّ والإِنْس(٥)». وإنّما أعاد الجنّ والإنس مع دخولهم فى المسلمين لنفى توهّم اختصاص ذلك بالإنس.

وتأتى رواية الحاكم عن ابن مسعود لتتوافق مع حديث ابن عبّاس قال أنّ الجنّ «هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِبَطْنِ نَخْلَةَ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا،

(١) نخلة: أحد واديين على ليلة من مكّة فى اتجاه الطّائف. (٢) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٦ ص ٣٢٧٣]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٧٣ و٤٩٢١] ومسلم [٤٤٩] والترمذى [٣٣٢٣].
(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٣١] والحاكم [٣٩١١] وقال الذهبى فى التّلخيص صحيح.
(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٨٦٢].

قالُوا صَهْ، وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةُ[1]». و«صَهْ» اسم فعل أمر بمعنى اسكت.

وفى حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما الدّلالة على أنّ الرّسول ﷺ إنّما علم بالحادث عن طريق الوحي وأنّه لم يرَ الجنّ ولم يشعر بهم. ثمّ إنّ [هذه الرّواية] هي الأقوى من ناحية الإسناد والتّخريج وتتّفق معها في هذه النّقطة رواية [أبي إسحاق]، كما يقوّيها ما عرفناه من القرآن من صفة الجنّ، وكما رُميت الشّياطينُ بالشُّهب وحيل بينهم وبين السّماء رُميت الجنُّ كذلك، والدّليل ما رواه التّرمذي عن ابن عبّاس قال:

«كَانَ الْجِنُّ يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمِعُونَ إِلَى الْوَحْيِ، فَإِذَا سَمِعُوا الْكَلِمَةَ زَادُوا فِيهَا تِسْعًا، فَأَمَّا الْكَلِمَةُ فَتَكُونُ حَقًا، وَأَمَّا مَا زَادُوا فِيهَا فَيَكُونُ بَاطِلاً، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنِعُوا مَقَاعِدَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لإِبْلِيسَ، وَلَمْ تَكُنِ النُّجُومُ يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ مَا هَذَا الأَمْرُ إِلاَّ مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ فِي الأَرْضِ! فَبَعَثَ جُنُودَهُ فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ، أُرَاهُ قَالَ: بِمَكَّةَ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الأَرْضِ[2]».

(قال) ابن قتيبة [إنّ الرّجم كان قبل مبعث النّبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدّة الحراسة، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلمّا بُعث مُنعوا من ذلك أصلا، فعلى هذا القول يكون حمل الجنّ على الضّرب في الأرض وطلب السّبب إنّما كان لكثرة الرّجم ومنعهم عن الاستراق بالكلّية[3]].

وفى قوله «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ» قال ابن عمر [لمّا كان اليوم الذي نُبِّىءَ فيه رسولُ الله ﷺ بذلك مُنعت الشّياطين ورُموا بالشّهب، وقيل: لم تكن السّماء تُحرَسُ في الفترة بين عيسى ونبيّنا محمّد ﷺ، فلمّا بُعثَ رسول الله ﷺ حُرِسَتِ السّماءُ ورُمِيَت الشّياطينُ بالشُّهب، ومُنعت من الدُّنوِّ من السّماءِ[4]].

واختلفوا في عدد النّفر الذين توجّهوا فاستمعوا القرآن من رسول الله ﷺ؛ فأخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس أنّهم كانوا [تسعة]. ومن طريق النّضر عن عكرمة كانوا [سبعة] من أهل نصيبين فجعلهم النّبي ﷺ رسلا إلي قومهم، وقال الثُّمَالِيُّ: بلغني أنّهم من «بني الشَّيْصَبَان» وهم أكثرُ الجنّ عددًا وأقواهم شوكة وهم عامّة جنود إبليس، ومن طريق مجاهد نحوه وقال: كانوا أربعة من نصيبين وثلاثة من حرّان وهم [حَسَا وَنَسَا وَشَاصَرُ وَمَاصَرُ وَالأَدْرَسُ وَوَرْدَانُ وَالأَحْقَبُ[5]].

(1) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٣٧٥٢] وقال الذّهبي في التّلخيص صحيح. (٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٣٢٤]. (٣) انظر تحفة الأحوذي [ج ٨ ص ٣٢٤]. (٤) انظر تفسير القرطبي [ج ١٩ص ١٢]. (٥) انظر فتح الباري [ج ٨ ص ٥٤٢].

ونقل السُّهَيْليُّ في «التّعريف» أنّ ابن دُرَيْد ذكر منهم خمسة: [شاصر وماصر ومنشي وناشي والأحقب]. ولمّا قال النبي ﷺ لابن مسعود «أنْظِرْني حَتّي آتيكَ وَخَطَّ عَلَيْه خَطًّا» الحديث، قال ابن عبّاس: كانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الْمَوْصل، وقيل إنّ الجنّ الذين أتَوْا مكّة من جنّ نصيبين، والذين أتَوْهُ بنخلة من جن «نِيْنَوى» والسّورة التي كان يقرؤها النّبي ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

ويتضمّن قوله تعالى﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. أمْرٌ منه سبحانه لرسوله ﷺ أنّ يُظْهِرَ لأصحابه ما أُوحِيَ إليه في واقعة الجنّ وما يتضمّنه من فوائد منها:

(١) أن يعرفوا أنّ هنالك خلقا اسمه الجنّ، وأنّ بين هذا الخلق المغيّب وبين البشر مفارقات لما له من خصائص غير خصائص البشر، منها خلقَتُه من نَار، وأنّه يرَى النَّاسَ ولا يَرَاهُ النَّاسُ، وأنّه ﷺ كما بُعثَ إلى الإنس فقد بُعثَ إلى الجنّ أيضاً.

(٢) وأنّ لهم جُمُوعًا تُشبه جُمُوعَ البشر في قبائِل وأجناس لا ندري شكلها لقول الله تعالى﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:٢٧]. وأنّ لهم القدرة على الحياة على هذا الكوكب لقوله تعالى لآدم ولإبليس﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة:٣٦].

(٣) أن تعلمَ قريش أنّ الجنّ مع تمرّدهم لمّا سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا برسوله ﷺ وأقرّوا بوحدانيته كما أخبر عنهم ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

(٤) أن يعلم القوم أنّ الجنّ مكلّفون كالإنس وأنّهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم بدليل قول هذا النّفر:﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾[الجنّ:١٤]. ودليل ذلك ذهابهم إلى قومهم منذرين.

(٥) كما يبيّن أنّ الجنّ يستمعون كلامنا ويفهمون لغتنا بدليل استماع وفَهْم النَفر من الجنّ للقرآن بلفظه العربي المنطوق والتّأثّر به معنًى ومبنًى كما في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الأحقاف:٢٩].

(٦) ويُعلمهم أنّ الجنّ يملكون التّأثير في إدراك البشر وأنّهم مأذونون في توجيه الضّالين منهم لقول الله تعالى في حكاية حوار إبليس اللّعين ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٨٢]. وغير هذا من النّصوص المماثلة.

(٧) وأنّ الجنّ لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم وأنّهم لا يعلمون الغيب ولم تَعُدْ لهم صلة بالسّماء، وأنّهم لا صِهرَ بينهم وبين الله تعالى ولا نسب، وأنّ الجنّ لا قوّة لهم

مع قوّة الله تعالى ولا حيلة كما فى قوله سبحانه ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[الجنّ : ١٢ [١]].

كما اشتملت [سورة الجنّ] فى مُجملها على ثلاثة دروس :

(الدّرس الأوّل) يتضمّن بيان قصّة هؤلاء النّفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن من النّبى ﷺ فآمنوا به وصدّقوه وانصرفوا إلى أقوامهم من الجنّ دعاة إلى دين الله الحقّ الذى أنزله الله على خاتم أنبيائه ورسله وجعله خاتم الرّسالات الرّبّانيّة للنّاس ويتضمّن الآيات من (١ ـ ١٥) .

(الدّرس الثّانى) يتضمّن بيانا من الله عزّ وجلّ مكمّلا لبعض القضايا الدّينية التى جاءت مضافة إلى القضايا التى ذكرها دعاة الجنّ بين أقوامهم ومعطوفة عليها للإشعار بأنّ ما ذكره هؤلاء النّفر من الجنّ بين أقوامهم حقّ، وهو بمثابة التّصديق من الله لها واعتمادها فتنزل منزلة القول المباشر منه سُبحانه ويشمل الآيات من (١٦ ـ ١٩) .

(الدّرس الثّالث) يتضمّن تعليما من الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ لما يقوله فى دعوته، وقضايا هذا التّعليم تُعتبر من القضايا الدّينية التى تتناسب مع القضايا التى ذكرها دعاة النّفر من الجنّ، والقضايا الأخرى التى أضافها البيان الرّبّانى المباشر وتلائم المرحلة الدّعوية التى نزلت فيها سورة الجنّ وفيها معالجة الموقف الذى وصل إليه كبراء مشركى قومه فى «مكّة المكرّمة» وتشمل الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) . [وبهذا تظهر لنا وحدة موضوع السّورة ويظهر لنا ترابُط قضاياها وتعانُق آياتها[٢]] .

(٤) بعث النّبى ﷺ إلى الجنّ

لم يُبعث إلى الجنّ من الإنس نبى إلاّ نبيّنا محمّد ﷺ لعموم رسالته إلى الجنّ والإنس باتّفاق، ودليل ذلك قولهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ . يعنى نبيّه ﷺ، وهذا يدلّ على أنّه مبعوث إلى الجنّ والإنس . (قال) مقاتل [لم يبعث الله نبيّا إلى الجنّ والإنس قبل النّبى ﷺ[٣]] . وروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما [لَمَّا قَالُوا : ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ سَبْعُونَ رَجُلاً فَرَجَعُوا إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَوَافَقُوهُ فِى الْبَطْحَاءِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ[٤]] .

(قال) ابن عبد البرّ [لا يختلفون أنّه ﷺ بُعث إلى الإنس والجنّ وهذا ممّا فُضّلَ به على الأنبياء[٥]] . و(قال) ابن تيمية [اتّفق على ذلك عُلماء السّلف من الصّحابة والتّابعين

(١) انظر تفسير الرّازى [ج ٣٠ ص ١٥٣ ـ بتصرّف] .
(٢) انظر معارج التّفكّر [ج ٥ ص ٥٢٠] .
(٣) و(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٢١٧] .
(٥) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٣٩٧] .

وأئمّة المسلمين]. وثبت التّصريح بذلك في قوله ﷺ عند مسلم «كَانَ كُلُّ نبيّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً وبُعثتُ إلى كُلِّ أحْمَرَ وأسْوَدَ[(١)]».

(قال) النّووي: [الأحمر: الإنس، والأسود: الجنّ والجميع صحيح فقد بُعث إلى جميعهم[(٢)]]. ويؤيّد ذلك قول الجنّ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[الجن:١٣]. وفيه دليل على إيمان الجنّ بالله تعالى وتصديقهم برسالة محمّد ﷺ ونبوّته.

وفي قول الله تعالى﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[الجنّ ١٤-١٥]. بيان اختلافهم وتفرّقهم بعد استماعهم القرآن إلى:

(١) مسلمين قصدوا طريق الحقّ وتوخوه فأسلموا أنفسهم إلى الهدى.

(٢) وكافرين جاروا عن طريق الحقّ والإيمان فكانوا لجهنّم وقودا وحَطَبا.

ومعنى القاسط [الجائر لأنّه عادل عن طريق الحقّ والمقسط العادل لأنّه عادل إلى الحقّ[(٣)]]. والقرآن الكريم يشير إلى أنّ البيان البلاغي بلفظة ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ قد وقع من نفر الجنّ مرّتين:

(الأولى) بيان تَمْهيديٌّ لبدء دعوتهم قومَهُم من الجنّ بقولهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وهذا يدلّ على أنّ الجنّ أقوام يُشبهون في تقسيماتهم أقوامَ الإنس.

(الثانية) نداء دَعَويٌّ بعد النّداء التّمهيدي الأوّل بقولهم لقومهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾[الأحقاف: ٣١]. وفيه وصفوا رسول الله ﷺ بأنّه داع إلى الله تعالى أي الدّاعي المبلّغ عن الله كتابه وبيانات دينه الذي أرسله الله تعالى به.

وكلّ من البيانين يدعوان الجنّ إلى قبول دعوة النّبي الخاتم ﷺ والالتزام بهديه وطاعته، والاستجابة للإيمان الحقّ وسلوك الطّريق المستقيم في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا، وكذلك جاء وصف الله تعالى لنبيّه ﷺ بأنّه «دَاعِىَ ٱللَّهِ» الذي أنزل عليه كتابه الْمُبَيِّنُ دين الله الْمُشْتَمِلُ على مطلوبه من عباده.

(٥) هل رأى النّبي ﷺ الجنّ؟

الأثبت في هذه المسألة أنّ رسول الله ﷺ رأى الجنّ ليلة اجتمع بهم عندما أتاه داعي

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٢١].
(٢) انظر نووي مسلم [ج ٣ ص ١٠].
(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٩ ص ١٧].

الجنّ مرّة أخرى فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ لما رُوى عن علقمة رضي الله عنه «قُلْتُ لابْنِ مَسْعُود: هَلْ صَحِبَ النَّبِىَّ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ ؟ قَالَ مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، وَلَكِنْ قد افْتَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ بِمَكَّةَ، فَقُلْنَا اغْتِيلَ أَوِ اسْتُطِيرَ مَا فُعِلَ به ؟. فبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحْنَا ـ أَوْ كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ ـ إِذَا نَحْنُ بِه يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ، قَالَ: فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِى كَانُوا فيه، قَالَ: أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ».

قَالَ الشَّعْبِيُّ: «وَسَأَلُوهُ الزَّادَ وَكَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ، فَقَالَ: كُلُّ عَظْمٍ يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ، عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمُ الْجِنِّ(١) ». وقوله «يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» ما يكون لمؤمنيهم من طعام، وأمّا غيرهم فطعامه مالم يذكر اسم الله عليه كما في بعض الرّوايات. أمّا ما روى عن ابن مسعود أنّه سُئل عن ليلة الجنّ فقال «مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، فهو معارض بما في حديث أبي رافع عن ابن مسعود رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَّ حَوْلَهُ فَكَانَ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ مِثْلَ سَوَادِ النَّخْلِ، وَقَالَ لِي: لاَ تَبْرَحْ مَكَانَكَ، فَأَقْرَأَهُمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا رَأَى الزُّطَّ قَالَ كَأَنَّهُمْ هَؤُلاَءِ(٢)».

وجاء عن النّهدى «أَنَّ ابْنَ مَسْعُود أَبْصَرَ زُطًّا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ فَقَالَ: مَا هَؤُلاَءِ ؟ قَالُوا: هَؤُلاَءِ الزُّطُّ. قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَبَهَهُمْ إِلاَّ الْجِنَّ لَيْلَةَ الْجِنِّ وَكَانُوا مُسْتَنْفِرِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا(٣) ». والإثبات مقدّم على النّفى، والزُّطّ بضم الزّاى: جنس من السّودان أو الهنود. (قال) ابن العربى [وابن مسعود أعرف بالأمر من ابن عبّاس لأنّه شاهده وابن عبّاس سمعه وليس الخبر كالمعاينة(٤)]. أمّا قوله «قَد افْتَقَدْنَاهُ» فإنّه يدلّ على أنّهم لم يعلموا بخروجه إلاّ أن يُحمل على أنّ الذى فقده غير الذى خرج معه.

ولقد تعدّدت وقائع وفادة الجنّ إلى النّبى ﷺ وظاهر الأحاديث يدلّ على أنّها كانت ستّ مرّات كما ذكرها الشّبلى [(٥)]:

(الأولى) قيل فيها اغتيل أو استطير. (الثّانية) كانت بالحَجُون.
(الثّالثة) كانت بأعلى مكّة. (الرّابعة) كانت ببقيع الغرقد.
وفى هذه اللّيالى حضر ابن مسعود وخطّ له النّبى ﷺ خطًّا لا يتجاوزه.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٥٠] والتّرمذى [٣٢٥٨].
(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٤٣٥٣].
(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النّبوّة [٢ / ١٦] والسّيوطى فى جمع الجوامع [ج ١ ص ٢٨٧].
(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٢١٣].
(٥) انظر أكام المرجان للشّبلى [ص ٦٤].

(الخامسة) كانت خارج المدينة وحضرها الزّبير بن العوّام.
(السّادسة) كانت فى بعض أسفاره وحضرها بلال بن الحارث.

(قال) فى الفتح [فأمّا ما وقع فى مكةّ فكان لاستماع القرآن والرّجوع إلى قومهم منذرين كما وقع في القرآن وأمّا في المدينة فللسّؤال عن الأحكام(١)].

وقد قيل إنّ الجنّ أتوْا رسول الله ﷺ دفعتين:

* إحداهما بنخلة وهى التى ذكرها ابن عبّاس.
* والثّانية بمكّة وهى التى ذكرها ابن مسعود.

(قال) البيهقى [الذى حكاه ابن عبّاس إنّما هو من أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النّبى ﷺ علمت بحاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثمّ أتاه داعى الجنّ مرّة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه ابن مسعود ورأى آثارهم وآثار نيرانهم وكانوا اثنى عشر ألفا من جزيرة المَوْصِل كما قاله عكرمة(٢)].

(٦) لماذا تأخّرت دعوة الجنّ لعشر سنوات من المبعث

يُستفاد من قول الله تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ١ - ٢]. عدّة مسائل:

(الأولى) أنّ الله عزّ وجلّ يبلّغ المؤمنين بحادثة حضور نفر من الجنّ إلى الرّسول ﷺ واستماعهم القرآن الكريم من تلاوته بأسلوب غير مباشر مع تبليغ الرّسول ﷺ بطريقة مباشرة، فيتحقّق بهذا تبليغان:

* أحدهما من قِبَلِ الله عزّ وجلّ.
* والآخر من قِبَلِ الرّسول ﷺ.

(الثّانية) إبعاد الشّبهة التي كان قد طرحها فى بدء الرّسالة بعضُ المشركين بأنّ الوحى الذى كان ينزل عليه هو [رَئِيٌّ(٣)] من الجنّ كان يأتى إليه فيحدّثه، إذ دلّت سورة [الجنّ] على أنّ الرّسول ﷺ لم يكن يعلم بوفادة الجنّ إليه لاستماع القرآن وتلقّى معارف الدّين عنه، إذ لم يسبق له أن كان له مع الجنّ لقاء لا قبل النُّبوّة ولا بعدها.

والحكمة من هذا أن لا يختلط على النّاس الأمر، ويحدث فى قلوبهم الشّك فيخلطوا بين رسول الوحى من الملائكة وهو جبريل عليه السّلام وبين لقاءات الرّسول ﷺ للجنّ،

(١) انظر فتح البارى [ج ٧ ص ٢٠٩].
(٢) انظر دلائل النُّبوّة [٢ / ١٣].
(٣) الرَّئِيُّ (بفتح الرّاء) الْجِنِّيُّ يَعْرِضُ للإنسان ويُخبره بما يزعم أنّه من الغيب.

فجبريل مَلَكٌ يُبَلِّغ عن الله عزّ وجلّ، والجنّ عباد مُمتحنون مُكلّفون مُتلقّون مُتعلِّمُون من الرّسول ﷺ كالإنس سواء بسواء.

ولهذا لم يشأ الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ أن يلتقى بالجنّ قبل الرّسالة مع استعداده الفطرى لذلك، كما لم يهيىء له أن يلقاهم بعد الرّسالة حتّى مضت مدّة على رسالته تزيد على تسع سنوات كما تدلّ أحداث السّيرة المحمّديّة. وقد نزلت عليه [أربعون سورة] من القرآن دون أن يكون له اتصال بالجنّ، ثمّ أعلمه الله تعالى فى [سورة الجنّ] بأنّ نفرا منهم استمعوا القرآن منه وهو يتلوه فقالوا ما حكى الله عنهم فى هذه السّورة الكريمة.

وفى قول الله تعالى﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجنّ: ١٩]. قال الزّبير بن العوّام [هم الجنّ حين استمعوا القرآن من النّبى ﷺ أى كاد يركب بعضهم بعضا ازدحاما ويسقطون حرصا على سماع القرآن]. ورُوى عن مكحول قال [أنّ الجنّ بايعوا رسول الله ﷺ فى هذه اللّيلة وكانوا سبعين ألفا وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر[1]].

ثمّ كانت هناك مرّة أو مرّات أخرى قرأ فيها النّبى ﷺ على الجنّ عن علم وقصد، ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته ﷺ سورة الرّحمن فيما أخرجه التّرمذى بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال «خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أصْحَابه فقرأ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أوّلها إلَى آخرهَا فسكَتُوا، فَقَالَ: لَقَدْ قَرأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أتَيْتُ عَلَى قَوْله تَعَالَى﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. قالوا: لاَ بِشَىْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ[2]».

(الثّالثة) إعلام الله تعالى النّاس عن طريق تكليف رسوله ﷺ بأنّ الجنّ مخلوقون فى ظروف الحياة الدّنيا للابتلاء كالإنس، وأنّ الدّار الآخرة لهما هى دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وأنّ الجنّ مكلّفون أن يستمعوا آيات الله المنزّلات ليعلموا مطلوب الله ورسوله منهم فى رحلة ابتلائهم كالإنس سواء بسواء. ولهذا جاء نفر من أشرافهم لاستماع القرآن وليقوموا بتبليغ أقوامهم هذا الدّين الذى ختم الله به رسالاته لأهل الأرض.

كما تُبيّن الآيات فى [سورة الأحقاف] أنّ الله عزّ وجلّ اصطفى نفرا من الجنّ فصرفهم عن توجُّهاتهم وأعمالهم التى كانوا مشتغلين بها، وأرسلهم إلى النّبى ﷺ بوسيلة لم يذكرها القرآن لنا ليتبلّغوا الدّعوة منه، وليرجعوا إلى أقوامهم مبلّغين دين الله الخاتم الذى أنزله إلى الإنس والجنّ، ومُنذرين بعذاب الله مَنْ لم يستجب من الجنّ لدعوة هذا الدّين العام الشّامل، الذى اصطفى الله لتبليغه خاتم الأنبياء والمرسلين من الإنس، وهو أفضل رسل الله وأنبيائه أجمعين.

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٩ ص ٢٣].

(٢) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٢٩١] والبيهقى فى دلائل النّبوّة [٢ / ١٦].

(٧) الجنّ يأكلون ويشربون

دلّت النّصوص الصّريحة على أنّ الجنّ يأكلون ويشربون إلاّ أنّ كيفيّة طعامهم وشرابهم غير معلومة، وللعلماء في أكل الجنّ وشربهم ثلاثة أقوال:

(أوّلها) أنّ جميع الجنّ لا يأكلون ولا يشربون وهذا قول متوقّف فيه.

و(الثّاني) أنّ صنفا منهم يأكلون ويشربون وصنفا لا يأكلون ولا يشربون، ويشهد لهذا القول ما روى عن وهب بن منبّه لـمّا سُئلَ عن أكل الجنّ وشُربهم قال: «هُمْ أَجْنَاسٌ فَأَمَّا خَالِصُ الْجِنِّ فَهُمْ رِيحٌ لاَ يَأْكُلُونَ وَلاَ يَشْرَبُونَ وَلاَ يَتَوَالَدُونَ، وَمِنْهُمْ أَجْنَاسٌ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَوَالَدُونَ وَيَتَنَاكَحُونَ وَيَمُوتُونَ[١]». وفي رواية «إِنَّ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يُولَدُ لَهُ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ بِمَنْزِلَةِ الآدَمِيِّينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الرِّيحِ لاَ يَتَوَالَدُونَ وَلاَ يَأْكُلُونَ وَلاَ يَشْرَبُونَ وَهُمُ الشَّيَاطِينُ[٢]».

(والثّالث) أنّ جميع الجنّ يأكلون ويشربون واختلفوا في وسيلة ذلك وكيفيّته على قولين[٣]:

(١) أنّ أكلهم وشربهم مجرّد تَشَمُّمٍ واسترواح وهو قول لا ينهض له دليل.

(٢) أنّ أكلهم وشربهم مَضْغٌ وبَلْعٌ، وهو القول الذى تشهد له الأحاديث الصّحيحة وتبرهن عليه العمومات الصّريحة والتى منها:

* قول النّبى ﷺ عن استحلال الشّيطان للطّعام الذى لا يُسَمَّى عليه كما في حديث حذيفة رضي الله عنه «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ الَّذِى لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ[٤]». والمعنى أنّه يتمكّن من أكل الطّعام إذا شرع فيه إنسان بغير ذكر الله تعالى، ويحول دون تمكّنه من المشاركة فيه أن يذكر اسم الله عليه في أوله لقول النّبى ﷺ «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ[٥]». ومعناه: قال الشّيطان لإخوانه وأعوانه ورفقته.

* وما رواه البخارى عن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «مَنْ حَفَرَ بِئْرَ مَاءٍ لَمْ تَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جِنٍّ وَلاَ إِنْسٍ وَلاَ طَائِرٍ إِلاَّ آجَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٦]». فبيّن أنّ الجنّ ممّن ينتفع بهذا الماء وأنّ صاحبه مأجور عليه يوم القيامة.

---

(١) رواه ابن عبد البرّ عن وهب بن منبّه [انظر فتح البارى ج ٦ ص ٢٩٧].

(٢) إسناده صحيح وأورده أبو الشّيخ فى العظمة [١٠٩٩].

(٣) ذكره الحافظ فى الفتح [ج ٦ ص ٣٩٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٧] وأبو داود [٣٧٦٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٨] وأبو داود [٣٧٦٥] وابن ماجه [٣١٤٩].

(٦) رواه البخارى فى تاريخه وابن خُزيمة فى صحيحه وأورده الألبانى فى صحيح التّرغيب [٢٧١].

ولمّا سألت الجنّ رسولَ الله ﷺ الزّادَ قالَ «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ[1]». ثمّ قال رسول الله ﷺ «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ». وقد ثبت نهيه ﷺ عن الاستنجاء بالعظم والرّوث في أحاديث متعدّدة منها قول جابر رضي الله عنه «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُتَمَسَّحَ بِعَظْمٍ أَوْ بِبَعْرٍ[2]».

وبيّن حكمة النّهي عن ذلك بقوله ﷺ «فَإِنَّهُ زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ». وذلك لئلاّ يفسد عليهم طعامهم وعلفهم، كما يبيّن أنّ ما أباح لهم من ذلك [ما ذُكر اسم الله عليه دون ما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عليه]. ويسأله أبو هريرة «مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ؟ فَيَقُولُ ﷺ «هُمَا طَعَامُ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ، إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طُعْمًا[3]». وفي رواية أبي قدامة السّرخسي «إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا». ولمّا علّل ﷺ بأنّ العظم والرّوثة طعام الجنّ قال له ابن مسعود «وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ ذَلِكَ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ عَظْمًا إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهِ لَحْمَهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ أُخِذَ، وَلاَ وَجَدُوا رَوْثًا إِلاَّ وَجَدُوا فِيهِ حَبَّهُ الَّذِي كَانَ يَوْمَ أُكِلَ[4]».

[قال] ابن التّين [يحتمل أن يجعل الله ذلك عليها، ويحتمل أن يُذيقهم منها طعاما].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم «إِنَّ الْبَعْرَ زَادُ دَوَابِّهِمْ». ولا ينافي ذلك حديث أبي هريرة لإمكان حمل الطّعام فيه على طعام الدّواب، فعلّةُ النّهي عن الاستنجاء بهما كونهما من طعام الجنّ: العظام لهم والرّوث لدوابّهم، واختلاف اللّفظ يُدلّل على اختلاف المعنى إذ جاء لفظ الحديث عند الطّبراني «كُلُّ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ[5]». وعند مسلم «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ[6]». وفيه قال العلماء:

(١) أنّ رواية مسلم في تأكيد الذّكر تخصّ المؤمنين من الجنّ.

(٢) ورواية الطّبراني النّافية للذّكر جاءت في حقّ الشّياطين.

وفي قوله «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» قال بعض العلماء: هذا لمؤمنيهم، وأمّا غيرهم فجاء في حديث آخر أنّ طعامهم ما لم يذكر اسم الله عليه[7]]. وقال في

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٠ / ٤٥٠] والتّرمذي [٣٢٥٨].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٨ / ٢٦٣] وأبو داود [٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٨٦٠].

(٤) نقلا عن المنهل العذب المورود [ج ١ ص ١٤٦] وقال رواه أبو عبد الله الحاكم في الدّلائل.

(٥) أخرجه الطّبراني في الكبير [١١١٨١] وأورده السّيوطي في الدّرّ المنثور [٣ / ٤٣].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٥٠] والتّرمذي [٣٢٥٨].

(٧) انظر نووي مسلم [ج ٨ ص ٤٠٧].

تحفة الأحوذى: [وفي هاتين الرّوايتين تنوّع ظاهر، ويمكن أن يُجمع بينهما بأنّ المراد بقوله «ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» أى عند الذّبح، وبقوله: «لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» يعنى عند الأكل، وإلاّ فما في الصّحيح هو أصحّ[1]].

ولمّا نهى النّبى ﷺ عن الاستنجاء بما يُفسد طعام الجنّ وطعام دوابّهم [كان هذا تنبيها على النّهى عمّا يُفسد طعام الإنس وطعام دوابّهم بطريق أولى، لكنّ كراهة هذا والنّفور عنه ظاهر فى فطرِ النّاس، بخلاف العظم والرّوثة فإنّه لا يعرف نجاسة طعام الجنّ، فلهذا جاءت الأحاديث الصّحيحة المتعدّدة بالنّهى عنه، وقد ثبت بهذه الإحاديث أنّه خاطب الجنّ وخاطبوه وقرأ عليهم القرآن وأنّهم سألوه الزّاد[2]].

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال «كُنَّا إذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِىٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِىِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ: إِنَّ يَدَهُ فِى يَدِى مَعَ يَدِهَا[3]». وجاء عند أبى داود بلفظ «إِنَّ يَدَهُ لَفِى يَدِى مَعَ أَيْدِيهِمَا». والتّثنية فيه تعود إلى الجارية والأعرابى ومعناه إن يدى فى يد الشّيطان مع يد الجارية والأعرابى.

والحديث يدلّ على أنّ الجنّ يأكلون وأنّ الشّياطين منهم يستحلّون الأكل مع الإنس من طعامهم إذا لم يذكروا اسم الله عليه، فإذا ذكروا اسم الله تعالى كان هذا الذّكر مانعا لهم من مشاركة الإنس فى طعامهم بقوى غيبيّة يسخّرها الله عزّ وجلّ كملائكة تمنعهم من مدّ أيديهم إلى الطّعام ومن الأكل منه.

(قال) النّووى [والصّواب الذى عليه جماهير العلماء من السّلف والخلف أنّ هذا الحديث وشبهه من الأحاديث الواردة فى أكل الشّيطان محمولة على ظواهرها، وأنّ الشّيطان يأكل حقيقة إذ العقل لا يحيله والشّرع لم ينكره بل أثبته فوجب قبوله واعتقاده والله تعالى أعلم[4]].

ويأتى النّص القرآنى القاطع بأنّ للجنّ رزقه من الطّعام كما للإنس هذا الرّزق من

---

(١) انظر تحفة الأحوذى [ج ٨ ص ٢٤٧].

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية [ج ١٩ ص ٣٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٧] وأبو داود [٣٧٦٦].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ١٤٨].

الطّعام في قول الله تعالى ﴿خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[الذّاريات: ٥٦ - ٥٧].

والآية تؤكّد على ثلاثة أمور:

(الأوّل) أنّ الذى خلق هذه العوالم كلّها لا يحتاج إلى ما يمتلكونه من رزق أو طعام، فهو سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤]. أى يرزق ولا يُرزق فهو غير محتاج إليهم، وأنّه المتكفّل بهم وبأرزاقهم لقوله تعالى ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وقوله سبحانه ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[الأنعام: ١٥١]. فكما أشرك الحقّ سبحانه الجنّ مع الإنس في تكليف العبادة، فإنّه جمعهما أيضا على المشاركة المجازيّة عند الحديث عن الرّزق ونفيه سُؤالهم ما يملكونه من رزق وطعام.

(الثّانى) أنّ الله تعالى عندما ينفى عن ذاته ما يُريده السّادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرّزق والإطعام، فإنّ فى ذلك دلالة بليغة على أنّ للجنّ رزقا وطعاما كما للإنس هذا الرّزق وهذا الطّعام، وهو المؤكّد فى قول الله سبحانه ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذّاريات: ٥٧].

(الثّالث) أنّ الله تعالى لـمّا كلّفهم بخدمته أخبرهم أنّه قد كفاهم مؤنة ما يحتاجون إليه فقال ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾. أى ما أريد أنّ يرزقوا أنفسهم ولا أحدا من خلقى، ونَسَب الإطعام إليه سبحانه لأنّ الخلق عياله، ومن أطعم عيال أحد فكأنّما أطعمه، ويفيد الاستثناء فى الآية أنّهم خُلقوا لتوحيده وطاعته لا لجمع الدّنيا والأرزاق ونحوها ممّا يُحتاج إليه فإنّ الله تعالى قد كفاهم مؤنة ذلك.

(٨) الجـنّ يتنـاكحون ويتنـاسلون

أقام القرآن الكريم الدّليل القاطع على أنّ الجنّ يتناكح ويتناسل بالكيفية التى لا يعلمها إلاّ الخالق جلّ وعلا،[وإذعان المسلم لهذه الحقيقة يؤكّد كمال إيمانه بالغيب الذى هو من عند الله تبارك وتعالى، ولأنّ الجنّ يتوالدون فلا يمتنع أن يقال فيهم الذّكور والإناث[١]].

ويتأكّد النّكاح من الجنّ بقوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾. أى لم يفتض بكاراتهن قبل أزواجهن الذين هنّ مُخصّصات لهم فى الجنّة إنس ولا جان، والطّمث هو الجماع تُفضّ به البَكارة، يقال [طَمَثَ الرّجُلُ امْرأتَهُ طَمْثًا]: إذا افتضّها، واختلفوا فى الطّمث على قولين:

(١) أورده السُّيوطى فى الدُّر المنثور بإسناد صحيح [٦/ ١١٨].

(١) أنَّ الطَّمْثَ هو الْجِمَاعُ الذى يكون معه تدمية من فَرْجِ الأنثى عند حدوثه، ويكون الدّم من فرج الأنثى على هذا النّحو هو الطّمث.

(٢) أنّ الطَّمْثَ هو المسّ بالمباشرة وهو احتمال ظاهر.

وفى الآية دليل على أنّ الجن تغشَى كالإنس وتدخل الجنّة ويكون لهم فيها زوجات من الجنّ كما للمؤمنين أزواج من الإنس. وفى تفسير الآية (قال) ضمرة بن حبيب: [للجنّ جنيّات وللإنس إنسيّات(١)].

وفى قوله تعالى﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾[الكهف ٥٠]. دليل على أنّهم يتناكحون لأجل الذّريّة التى هى الولد والأهل. (قال) الشّعبى [سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلتُ إنّ ذلك عرس لم أشهده، ثمّ ذكرتُ قوله تعالى﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾. فعلمتُ أنّه لا تكون ذرّية إلاّ من زوجة فقلتُ: نعم(٢)]. وفى تفسير الآية قال قتادة [ذرّيته هم أولاده، يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عددا(٣)].

(قال) القرطبى [الذى ثبت فى هذا الباب من الصّحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصّحيحين عن الإمام البرقانى أنّه خرّج فى كتابه مسندا من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قوله ﷺ «لاَ تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلِ السُّوقَ وَلاَ آخرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فَبِهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ». وهذا يدلّ على أنّ للشّيطان ذُرِّيَّةً من صلبه والله أعلم(٤)]. وذهب ابن عطيّة إلى أنّ ظاهر قوله ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: يقتضى الموسوسين من الشّياطين الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل، وذكر الطّبرى وغيره أنّ مجاهدا قال [ذُرِّيَّة إبليس الشّياطين]، وفى تفسير قول الله تعالى﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف :٢٧]. قال ابن زيد [قبيله] نسله.

وذكر البعض فيما كتب أنّ لهذه الذّريّة أسماء وتعاريف وهذا وما جانسه ممّا لم يأت به سند أو دليل، والصّحيح من هذا ما جاء فى كتاب مسلم من أنّ للصّلاة شيطانا يسمّى [خنْزَبٌ(٥)]. كما ذكر التّرمذى فى جامعه عن أُبَىِّ بن كعب رضي الله عنه قوله «إنّ للوضوء شيطانا يُسمّى [الْوَلْهَانُ] فَاتَّقُوا وَسْوَاسَ الْمَاءِ(٦)».

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٠ ص ٤٢٠].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٢١١].

(٣) إسناده صحيح وأورده السّيوطى فى الدُّر المنثور [٤ / ٢٢٧].

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٠ ص ٤٢٠].

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٣].

(٦) أورده التّرمذى بإسناد ضعيف [٥٧].

كما أنّ قول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. يفيد أنّ الجنّ فيهم الرّجال، ومتى كان فيهم رجال ففيهم إناث وأنّهم يتوالدون ويتناسلون كالإنس، فليس من المستغرب أنْ يُسَمّوا ذكورهم البالغين [رجالا] وأن يُسَمّوا إناثهم البالغات [نساء] ويكون النّص القرآني قد جاء بيانا لما قالوا. فلا يقال إنّ لفظ «رجال» خاص بالذّكور البالغين من الإنس.

واستدلّ على ذلك أيضا بقول [الجنيّ] كما في رواية أبي المتوكّل عن أبي هريرة عند النّسائي عن تلاوة آية الكرسي «إِذَا قُلْتَهُنَّ لَمْ يَقْرَبْكَ ذَكَرٌ وَلاَ أُنْثَى مِنَ الْجِنِّ[1]». وفي رواية ابن الضّريس من هذا الوجه «لاَ يَقْرَبُكَ مِنَ الْجِنِّ ذَكَرٌ وَلاَ أُنْثَى صَغِيرٌ وَلاَ كَبِيرٌ».

أمّا [الملائكة فبما أنّهم لا يتناكحون ولا يتناسلون، فليس فيهم ذكور ولا إناث ولا رجال ولا نساء[2]]. وبهذا التّحليل [يسقط الاعتراض وتندفع الإشكالات ويثبت أنّ في الجنّ رجالا ونساء وأنّهم يتناسلون وأنّ لهم ذرّيات، والثّابت أنّ الله تعالى أخبر أنّ لإبليس أتباعا وذرّية وأنّهم يُوسوسون إلى بني آدم ويضلّونه ويغوونه، إلاّ أنّه لم يثبت عند الأئمّة والعُلماء في كيفيّة التّوالد منهم وحدوث الذّرية عنهم فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح[3]].

وإذا كان الجنّ في طبيعة خلقه قد شارك الإنس في بعض الخصائص، فإنّه لم يُحرَم كذلك من مشاركتهم في بعض الجوانب الوجدانية التي تشاركه فيها، فإنّ الإيمان بالغيب يجعل من أحاديث النّبي ﷺ وهديه فيما أخبر به الأمّة عن الجنّ أمرا يقينيا لا يتزعزع في قلوب المؤمنين، واليقين بذلك هو قمة التّصديق بما أخبر به النّبي ﷺ أنَ الجنَ تتقاسم رحمة واحدة مع الإنس والبهائم والهوامّ في هذه الحياة، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون لقوله ﷺ «إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[4]».

ومن معاني الرّحمة عند الخلق: الرّقة والعطف، ومن الله تعالى: الخير والنّعمة، ومن أسمائه تعالى [الرّحمن]: الكثير الرّحمة، وهو وصف مقصور على الخالق جلّ وعلا ولا يجوز أن يقال لغيره، ومنه [الرّحيم] الكثير الرّحمة، وفي الحديث دلالة على مشاركة الجنّ للإنس

---

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي في الكبرى [٨٠١٧ و ١٠٧٩٤].

(٢) انظر معارج التّفكّر للميداني [ج ٥ ص ٥٧٦].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٠ ص ٤٢٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٥٢] وابن ماجه [٣٤٨٤].

في المسائل الوجدانية التى تقاسموها مع بعض المخلوقات كالرّحمة التى يتعاطفون بها فيما بينهم ويتراحمون.

(٩) هل يستطيع الجنّ أن يتشكّل؟

استنبط العلماء من «مجموع النّصوص» أنّ الله تعالى أعطى الجنّ القُدرة على التّشكُّل بالصُّور الشّريفة والخسيسة، وتحكم عليهم الصّورة فلا يُرَون على فطرتهم، وقدرة الجنّ على تغيير خلقتهم والانتقال فى الصّور محكومة بجواز واحد من أمرين:

(الأوّل) أن يُعَلِّمَهُمُ الله تعالى كلمات يتكلّمون بها أو يُلهمهم ضروبًا من الأفعال إذا فعلوها نقلهم الله تعالى من صورة إلى صورة، وكانوا بها قادرين على التّصوير والتّخييل كما تصوّر إبليس فى صورة سراقة بن مالك يوم بدرالكبرى، وفى صورة الشّيخ النّجدى يوم دار النّدوة وتزعّم حزب الشّر المتآمر على رسول الله ﷺ. [وهذا كلّه محمول على ما ذُكر عندما أقدره الله على قول قاله أو فعل فعله فنقله من صورته إلى تلك الصّور التى تخيّلوها فى هيئة سراقة وغيره(٢)].

ولذلك روى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال «أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْكُمْ تَخَيَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَرَاهُ فَلاَ يَصُدَّنَّ عَنْهُ وَلْيَمْضِ قُدُمًا، فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ أَشَدُّ فَرَقًا(٣٣)مِنْكُمْ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ صَدَّ عَنْهُ رَكِبَهُ، وَإِنْ مَضَى قَرُبَ مِنْهُ». قال مجاهد: فَأَنَا ابْتَلَيْتُ بِهِ حَتَّى رَأَيْتُهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَضَيْتُ قُدُمًا فَهَرَبَ مِنِّى(٣)».

(الثّانى) أن يتغيّر عن خلقه وينتقل إلى صورة أخرى بالسّحر الذى يُسحَر له لما رُوى عن يسير بن عمرو قال «ذُكِرَتِ الْغِيلاَنُ عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: إِنَّ شَيْئًا مِنَ الْخَلْقِ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَوَّلَ فِى غَيْرِ خَلْقِه، وَلَكِنْ لِلْجِنِّ سَحَرَةٌ كَمَا لِلإِنْسِ سَحَرَةٌ، فَإِذَا خَشِيتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَأَذِّنُوا بِالصَّلاَةِ(٤)». والغُولُ فى لغة العرب [هو الجان إذا تبدّى فى اللّيل] كما سيأتى البحث فيه إن شاء الله تعالى.

فرُؤية الجنّ تكون على غير الصّورة التى خُلقوا عليها بعد أن يتحوّلوا ويأخذوا أشكالا أخرى، أمّا فى زمن الأنبياء فإنّ الله تعالى يُكثّف أجسامهم ويقويهم ويدلّ على ذلك قوله ﷺ «أَنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِى اللهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِى الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ

(١) انظر أكام المرجان للشّبلى [ص ٣٠].

(٢) قوله [أَشَدُّ فرَقًا] يعنى أشدُّ خوفا، وقد (فرِقَ) منه، ولا يقال فرِقَهُ. [مختار الصّحاح ص ٢١٠].

(٣) ذكره السُّيوطى فى لقط المرجان [ص١٣٢] وأبو الشّيخ فى العظمة [١١٥٦].

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة بإسناد صحيح [٢٩٧٤٢].

كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[سورة ص: ٣٥] . فَرَدَّهُ اللهُ تَعَالَى خَاسِئًا[١] » .

وقد وقع في رواية عبد الرّزّاق «عَرَضَ لِي فِي صُورَةِ هِرٍّ[٢]» . ولمسلم من حديث أبي الدّرداء «جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي[٣]» . ولأحمد من حديث أبي سعيد «فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ إِصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ[٤]» .

ويُستخلص من هذه الأحاديث عدّة فوائد :

(الأولى) فيها دليل على أنّ رؤية البشر للجنّ غير مستحيلة ، وأنّ الجنّ أجسام لطيفة ، والجسم وإن لطف فإدراكه غير ممتنع أصلا ، وأمّا قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ . فإنّ ذلك حكم الأعم الأغلب من أحوال بني آدم ، وقد امتحنهم الله بذلك وابتلاهم ليفزعوا إليه ويستعيذوا به من شرّهم ويطلبوا الأمان من غائلهم ، ولا يُنكر أن يكون حكم الخاصّ والنّادر من المصطفين من عباده بخلاف ذلك والله أعلم .

(الثّانية) الدّلالة على أنّ الجنّ ليسوا باقين على عنصرهم النّاري فتلك النّارية امتزجت في سائر العناصر .

(الثّالثة) الدّلالة على أنّ أصحاب سليمان ﷺ كانوا يرون الجنّ في أشكالهم وهيئاتهم حال تصرّفهم وهو من دلائل نبوّته ، ولولا مشاهدتهم إيّاهم لم تكن تقوم الحجّة له لمكانته عليهم .

(الرّابعة) أنّ رؤية رسول الله ﷺ للعفريت هو ممّا خُصَّ به كما خُصَّ برؤية الملائكة الكرام وقد أخبر أنّ جبريل عليه السّلام له ستمائة جناح ، ورأى النّبي ﷺ الشّيطان في هذه اللّيلة وأقدره الله عليه لتجسّمه لأنّ الأجسام مُمْكِنَةٌ من القدرة عليها ، ولكن أُلْقِيَ فِي رَوْعِهِ مَا وُهِبَ سُلَيْمَانُ ﷺ فلم ينفذ ما قوي عليه من حبسه ورغبته عمّا أراد سليمانُ الانفراد به وحرصا على إجابة الله تعالى دعوته .

(الخامسة) أمّا غير النّبي ﷺ من النّاس فلا يُمَكَّنُ من الشّيطان ولا يرى أَحَدٌ الشّيطانَ على صورته غَيْرُهُ ﷺ لقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ . [لكنّ سائر النّاس يرونه إذا تشكّلَ في غير صورته[٥]] .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٦١] ومسلم [٥٤١] .

(٢) أورده الحافظ في الفتح [ج ١ ص ٦٦١] .

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤٢] .

(٤) من حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده [١١٧١٩] .

(٥) انظر عمدة القاري للعيني [ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥] .

(قال) النحّاس [قول الله تعالى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ : يدلّ على أنّ الجنّ لا يُرون إلاّ في وقت نبيٍّ ليكون ذلك دلالة على نبوّته، لأنّ الله جلّ وعزّ خلقهم خلقا لا يُرون فيه وإنّما يُرون إذا نُقلوا عن صورهم، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلاّ في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(1)].

(10) الغيلان تتشكّل وتتلوّن!

يقال تَشَكَّلَ الشَّيْءُ: تَصَوَّرَ وتَمَثَّلَ وصار كهيئة الشّيء وصورته وهو الْمَثَلُ والشِّبْهُ، و[شَاكَلَهُ] شَابَهَهُ ومَاثَلَهُ ومنه [الْمُشَاكَلَةُ]: الْمُمَاثَلَةُ. ويرتبط ذلك بما تحدّثت عنه المراجع المتعلّقة بهذا البحث عمّا [يُسَمَّى بالغيلان] التي ورد مُسَمَّاهَا في بعض الرّوايات الصّحيحة كما في حديث أبي أيّوب رضي الله عنه من رواية التّرمذي قال «كَانَ لِي تَمْرٌ فِي سَهْوَةٍ فَكَانَتِ الْغُولُ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ(2)».

والْغُولُ [بالضّم] السِّعْلاَةُ وجمعها [سَعَالِي] والْغُولُ من غَالَهُ الشَّيْءُ غَوْلاً واغتاله: يعني «أَهْلَكَهُ على غفلة منه» وأخذه من حيث لم يدر، ومنه: التَّغَوُّلُ وهو التَّلَوُّنُ [يقال: تَغَوَّلَتِ الْمَرْأَةُ إذا تزيّنت وتلوّنت، وتغوّلت الْغُولُ تَخَيَّلَتْ وتَلَوَّنَتْ(3)].

وكلّ ما اغتال الإنسانَ من جنٍّ أو شيطان أو سَبُعٍ فَأَهْلَكَهُ فهو غُولٌ، وتغوّلتهم الْغُولُ: تَوَهُّوا. وفي حديث النّبي ﷺ «إِذَا سِرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَمْكِنُوا الرِّكَابَ أَسْنَانَهَا وَلاَ تُجَاوِزُوا الْمَنَازِلَ، وَإِذَا سِرْتُمْ فِي الْجَدْبِ فَاسْتَجِدُّوا، وَعَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ، وَإِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمُ الْغِيلاَنُ فَنَادُوا بِالأَذَانِ، وَإِيَّاكُمْ وَالصَّلاَةَ عَلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ وَالنُّزُولَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ وَالسِّبَاعِ(4)». أي ادفعوا شرّها بذكر الله تعالى، وهذا يدلّ على أنّه لم يرد بنفيها عدمه.

وكانت العرب تزعم [أنّ الغيلان هي الشّياطين التي تظهر للنّاس في الْفَلَوَاتِ(5)]. تتراءى لهم وتتغوّلُ تغوُّلاً أي تتلوّنُ تَلَوُّنًا في صور شتى، وَتَغُولُهُمْ أي تُضِلُّهُمْ عن الطّريق وتُهْلِكُهُمْ، وقالوا: هي من مَرَدَةِ الجنّ والشّياطين، فنفى النّبي ﷺ ذلك وأبطله كما في حديث جابر رضي الله عنه «لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ غُولَ(6)». وفي رواية «لاَ عَدْوَى وَلاَ غُولَ وَلاَ صَفَرَ».

---

(1) انظر تفسير القرطبي [ج 7 ص 186].

(2) أخرجه التّرمذي [2880] وقال هذا حديث حسن غريب.

(3) انظر لسان العرب لابن منظور [ج 10 ص 147].

(4) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [14211] وأبو داود [2569] والتّرمذي [2858].

(5) الفَلَوَاتُ هي الأرض الواسعة المُقفِرَةُ.

(6) حديث صحيح أخرجه مسلم [2222] ولا يوجد عند غيره من الجماعة.

ورواه أبو داود بلفظ «لاَ غـُولَ[1]». وقوله «لاَ غُولَ»: ليس نفـيا لعين الغول ووجوده وإنّما فيـه إبطال زَعْم العرب فى تلوّنه بالصّور المختلفة واغتياله النّاس.

ويكون المعنى بقوله «لاَ غُولَ» أنّها [لا تستطيع أن تضلّ أحدا، ويشـهد له الحديث الآخر «لاَ غُولَ وَلَكِنَّ السَّعَالى». والسَّعَالى: هم سَحَرَةُ الجنّ، أى ولكن فى الجنّ سحرة لهم تلبيس وتخييل[2]]. والأصحّ فى تفسير «لاَ غُولَ» ما قاله عمر رضي الله عنه «إِنَّ أَحَدًا لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ صُورَتِه الَّتِى خُلِقَ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ لَهُمْ سَحَرَةٌ كَسَحَرَتِكُمْ، فَإِذَا أَنْتُم رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَذِّنُوا». وفى رواية «إِذَا رَآهَا أَحَدُكُمْ فَلْيُؤَذِّنْ، فَإِنَّهُ لاَ يُحَوَّلُ عَنْ خَلْقِه الَّذِى خُلِقَ لَهُ[3]». أراد أنّها [تُخَيِّلُ] وذلك سحر منها. (قال) النّووى: [وفى الحديث الآخر «إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلاَنُ فَنَادُوا بِالأَذَانِ». أى ارفعوا شرّها بذكر الله تعالى، وهذا دليل على أنه ليس المراد نفى أصل وجودها[4]].

(11) رؤية الإنس للجنّ بين التّمثّل والحقيقة

اختلف أهل العلم فى رؤية الإنس للجنّ على ثلاثة أقوال:

(الأوّل) استحالة رؤيتهم على الصّورة التى خُلقوا عليها لما رواه البيهقى بإسناده عن الشّافعى قال [مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى الْجِنَّ أَبْطَلْنَا شَهَادَتَهُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا]. وهذا [محمول على من يدّعى رؤيتهم على صورهم التى خلقوا عليها[5]].

كما لا يمتنع أن يكون النّبى ﷺ قد رآهم فى صورهم كما يرى الملائكة، ولو استطاع الجنّ تغيير [صور أنفسهم] بأى صورة شاءوا وأرادوا لوجب أن ترتفع الثّقة عن معرفة النّاس، كما أنّ الجنّ لا يستطيع بحال أن يتصوّر بصور الأشخاص وهيئاتهم ولا ثبت أنّ لهم قدرة على البشر بوجه من الوجوه، ويتأكّد هذا بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢[6]].

(الثّانى) أنّ رؤيتهم تكون تخيُّلا فقط لعدم انتقالهم عن صورتهم الأصلية، وقيل

(١) حديث حسن وانفرد به أبو داود عن الكتب السّتة [٣٩١٣].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٧٥].

(٣) أورده ابن منظور فى لسان العرب [ج ١٠ ص ١٤٧].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٧٥].

(٥) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٣٨٦].

(٦) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢٠ ص ٥٨].

إنّهم ينتقلون بضرب من الفعل إذا فعله انتقل كالسّحر وفيه نقل عن الأصمعى قوله [إنّ الشّياطِينَ لاَ تَسْتَطِيعُ أنْ تُغَيِّرَ خَلْقَهَا ولَكِنَّها تُسَخِّرُ[1]] .

(الثّالث) أنّ الله سبحانه [خلق لهم من تيسُّر التّصوُّر فى الهيئات ما خلق لنا من تيسُّر التّصَوُّر فى الحركات ، فنحن إلى أى جهة شئنا ذهبنا ، وهم فى أى صورة شاءوا تيسّرت لهم ووجدوا عليها ولا نراهم فى هيئاتهم وهو قول ابن العربى[2]] . فمن ادّعى أنه يرى شيئا منهم بعد أن يتطوّر على صور شتى من الحيوان فلا يقدح فيه .

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف :٢٧] . يُبيِّن أنّ إبليس ومعه أصحابه وجنده أو من كان من نسله يرون الإنس ، لأنّه تعالى خلق فى عيونهم إدراكا يُحقّق لهم هذه الرّؤية كما فى قوله سبحانه ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ﴾ ولم يجعل هذا الإدراك فى عيون الإنس ليتحقق فيهم قول الله تعالى ﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ .

وتُعُقِّبَ بأنّ نفى رُؤية الإنس للجنّ على هيئتهم ليس بقاطع فى الآية بل ظاهرها أنّه ممكن ، فإنّ نفى رؤيتنا إيّاهم مقيّد بحال رؤيتهم لنا ، ولا ينفى إمكان رؤيتنا لهم فى غير تلك الحالة ويحتمل العموم .

وعلّل بعض العلماء عدم رؤية الإنس للجنّ بأمور منها :

(١) أنّ الإنس لا يَرون الجنّ بسبب رقّة أجسام الجنّ ولطافتها ودليل ذلك قول الله سبحانه ﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ .

(٢) وأنّ رؤية الجنّ للإنس تعتمد على كثافة أجسام الإنس .

(٣) وأنّ الوجه فى رؤية بعض الجنّ بعضا أنّ الله تعالى يقوّى شعاع أبصار الجنّ ويزيد فيه ، فلو زاد الله فى قوّة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضا ، ولو زادت كثافة أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة ، لرأيناهم على حالتهم التى هم عليها ، وعلى هذا [فإنّ رؤية الإنس للجنّ موقوفة على أمرين :

(الأوّل) زيادة كثافة أجسام الجنّ بما يتناسب وقوّة أبصار الإنس .

(الثّانى) أو زيادة قوّة أبصار الإنس بما يتواءم وكثافة أجسام الجنّ والله أعلم[3]] .

(قال) ابن الفرّاء [الجنّ أجسام مؤلّفة وأشخاص ممثّلة ، يجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافا للمعتزلة فى دعواهم أنّها رقيقة ، وأنّ امتناع رؤيتنا لهم من جهة رقّتها

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قُتيبة [ج ٤ ص ١١١] .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٤ ص ١٨٦٤] .

(٣) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١٤ ص ٥٧ ـ ٥٨] .

وهو مردود، فإنّ الرّقة ليست بمانعة عن الرّؤية ويجوز أن يخفى عن رؤيتنا بعض الأجسام الكثيفة إذا لم يخلق الله فينا إدراكها[1]].

وعموم قوله سبحانه ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. [يحمل التّحذير للمُؤمنين أنّ الشّيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم لكونه الأقدر على فتنتهم بوسائله الخفيّة، وهم محتاجون في مواجهته إلى شدّة الاحتياط، وإلى مضاعفة اليقظة، وإلى دوام الحَذَر حتّى لا يأخذهم على حين غفلة وغرّة[2]].

(١٢) ماذا عن طبيعة أجساد الجنّ ؟

ويتناول الأستاذ الميداني رحمه الله في كتابه [معارج التّفكُّر] هذه المسألة بشيء من التّفصيل على النّحو التّالي:

[أمّا طبيعة أجسادهم فلطيفة لا تراها أعين النّاس بحسب العادة وبحسب شروط رؤية النّاس في الحياة الدّنيا، لكن لا يمنع العقل من إمكان رؤيتهم إذا تشكّلوا بالأشكال الجسمية التي يمكن أن تراها أعين الإنس أو كان لدى الرّائي من الإنس قدرات خاصة تؤهّله لرؤيتهم، وقد دلّت النّصوص على أنّ الله تعالى أعطاهم القدرة على التّشكُّل بأجساد يراها الإنس وهم قد يتشكّلون بها أحيانا.

ولا يمنع العقل أيضا من إمكان رؤية بعض النّاس لهم دون أن يتشكّلوا بالأشكال الجسميّة الكثيفة، ويكون هذا لمن وهبهم الله عزّ وجلّ قدرات خاصّة فوق قدرات النّاس العاديّة وهذه الرّؤية تكون في أحوال نادرة، وقد صحّ أنّ النّبي ﷺ رأى بعض الجنّ وهم على أصل طبيعتهم دون أن يتشكّلوا بالأشكال الجسمانية التي يمكن أن تراها أعين الإنس، ويوجد لدى بعض النّاس طاقات نفسية نادرات لا يوجد نظيرها لدى الآخرين وبهذه الطّاقات النّفسية النّادرة قد يرون الجنّ وهم على أصل طبيعتهم دون أن يتشكّلوا وإنكار مثل هذه الحقائق مكابرة لا تغيّر من الحقّ والواقع شيئا والله على كلّ شيء قدير[3]].

(١٣) ما ورد من أخبار بتحوُّل الجنّ في بعض الصُّور

لقد جاءت الأدلّة القاطعة التي تبيّن أنّ الجنّ يتطوّرون ويتشكّلون في صور الإنس وفي صور الحيّات والعقارب وفي صور بعض الحيوانات كذلك، ومن أمثلة ذلك نذكر ما جاء عن بعضها في كتب التّراث على النّحو التّالي:

---

(١) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٣٩٦].

(٢) انظر في ظلال القرآن [ج ٨ ص ١٢٨٠].

(٣) انظر معارج التّفكّر للميداني [ج ٥ ص ٥٢٢].

(١) عبد الله بن الزبير وأزَبّ

رُوى عن يعلى بن عقبة قال [بات عبد الله بن الزّبير رضي الله عنه بالصّحراء فقام ليَرْحَلَ ، فوجدَ على البردعة رجلا طُوله «شِبْران» عظيمَ اللّحية فنَفَضَها فوقع الرّجل بين جانبي الرّحْل ، فنفض ابن الزّبير رضي الله عنه الرّحْل ثم شدّه ، وأخذ السّوط ثمّ أتاه ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا أزَبٌّ . قالَ : ومَا أزَبٌّ ؟ قال : رَجُلٌ منَ الْجنِّ . قال : افتح فَاكَ أنْظُر إليه ففتحَ فَاهُ ؛ قال : أهكذا حُلُوقُكُم ؟ لقد شُوِّهَت حلُوقُكُمْ ثمّ قَلَبَ السَّوْطَ فوضَعَه في رأس أزَبّ حتّى شَقّهُ[١]] .

(٢) لُكَيْزٌ وابنة الرّجل الصّالح

وعن إسحاق بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «كانت بنتُ عوف بن عفراء مُضطجعَةً في بيتها مُتقَيِّلَةً إذ استَيْقَظَت وزنجيٌ على صدرها آخذًا بحَلْقها قالت : فأمسكَني كما شاء الله تعالى وأنا حينئذ قد حَرُمَتْ عليَّ الصّلاةُ . فبينا أنا كذلكَ نظرتُ إلى سقف البيت يَنْفَرِجُ ، حتّى نظرتُ إلى السّماء فإذا صحيفةٌ صفراء تَهْوِى بين السّماء والأرض حتّى وقَعَتْ على صدرى فنشرها . .» .

« . . وأرسل حَلقى فقرأها ، فإذا فيها : [من رَبِّ لُكَيْزٍ إلَى لُكَيْزٍ ، اجتنب ابنَةَ الرّجُل الصّالح إنّه لا سبيل لك إليها] . ثمّ ضرب على ركبتى وقال : لولا هذه الصّحيفةُ لكان دمٌ ، أى لذبحتُك ، فاسودّتْ ركبتى حتّى صارت مثلَ رأس الشّاة ، فأتيت عائشة رضى الله عنها فذكرتُ لها ذلكَ فقالت لى «يابنة أخي : إذا حِضْتِ فألزمي عليك ثيابَك فإنّه لا سبيل له عليك إن شاء الله» . فحفظها الله تعالى بأبيها وكان استُشْهِدَ رضي الله عنه يومَ بَدْرٍ[٢]] .

(٣) العجوز والصّبى

وعن الأصمعى عن عُمَيْر بن ضُبَيْعَة قال [بينما أنا أسير فى فلاة أنا وابنُ ظبيانَ عرضت لنا عجوزٌ ومعها صبيٌّ يبكى ، فقال : إنّى مُنْقَطِعٌ بى فى هذه الفلاة فلو تحمّلتمانى ؟ فقال صاحبُ عمير : لو أردفتَه !! فحمله خلفه ؛ فمكثنا ساعة فنظر فى وجه عميرٍ وتنفّس فخرج مِنْ فِيه نَارٌ مثلُ نار الأتُون ، فأخذَ له عميرٌ السّيفَ ، فبكَى وقال : ما تريدُ منّى ؟ فكفّ عنه ولَم يُعْلِمْ صاحبَهُ بما رأى ؛ ثم عاد [الثّالثة] ففغر فى وجهه [أى فتح له فاه] فحمل عليه بالسّيف ، فلمّا رأى الجدّ وثبَ وقال : قَاتَلَكَ اللّهُ مَا أشَدَّ قَلْبَكَ مَا فَعلْتُهُ قَطُّ فِى وَجْهِ رَجُلٍ إلاَّ ذَهَبَ عَقْلُهُ[٣]] .

---

(١) انظر عيون الأخبار [ج ٤ ص ١١٠] .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النّبوة [٧/ ١١٦] .

(٣) انظر عيون الأخبار [ج ٤ ص ١١٢] .

(٤) الجنى يستمع القرآن من عائشة رضى الله عنها

عن ابن أبى مليكة قال «أنّ جانًّا كان لا يزال يطّلع على عائشة فأمرت به فقُتل، فأُتيَتْ فى المنام فقيل: قتلت عبد الله المسلم! فقالت: لو كان مسلما لم يطلع إلى أزواج النّبى ﷺ فقيل لها: ما كان يطّلع حتّى تجمعى عليك ثيابك! وما كان يجىء إلاّ ليستمع القرآن. فلمّا أصبحَتْ أمرت باثنى عشر ألف درهم فقسّمت بين المساكين(١)».

(٥) صدقك وهو كذوب

هذه القصّة تناولتها كتب السُّنَّة من خلال روايات مختلفة محمولة على التّعدّد لا التّباين، ورغم اتّفاق هذه الرّوايات على المعنى الذى تضمّنه فقهها وحملته دلالاتها، إلاّ أنّها جاءت فى بنائها اللّفظى على الاختلاف اليسير الذى لا يضرّ بالمعنى. [فالبخارى] يرويها عن أبى هريرة، و[التّرمذى وأحمد] عن أبى أيوب، و[الحاكم] عن أبىّ بن كعب، و[الطّبرانى] عن معاذ بن جبل، و[ابن أبى الدّنيا] يرويها عن زيد بن ثابت رضى الله عنهم.

ونأتى بهذه الرّوايات تفصيلا على النّحو التّالى:

[رواية البخارى]

عن أبى هريرة قال: «وَكّلَنى رَسُولُ الله ﷺ بحفْظ زَكَاة رَمَضَانَ، فَأَتَانى آت فَجَعَلَ يَحْثُو منَ الطَّعَام، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَالله لأَرفَعَنَّكَ إلَى رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: إنِّى مُحْتَاجٌ وَعَلَىَّ عيَالٌ وَلى حَاجَةٌ شَديدَةٌ! قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبىُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: مَا فَعَلَ أَسيرُكَ الْبَارحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَارَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً شَديدَةً وَعيَالاً فَرحمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ، قَالَ: أَمَا إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ. فَعَرفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لقَوْله ﷺ أَنَّهُ سَيَعُودُ. فَرصَدْتُهُ فَجَعَلَ يَحْثُو منَ الطَّعَام، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: دَعْنى أُعَلِّمُكَ كَلمَات يَنْفَعُكَ اللهُ بهَا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إذَا أَوَيْتَ إلَى فرَاشكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرسىِّ».

«فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لى رَسُولُ الله ﷺ مَا فَعَلَ أَسيرُكَ الْبَارحَةَ؟ قُلْتُ: يَارَسُولَ الله زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنى كَلمَات يَنْفَعُنى اللهُ بهَا فَخَلَّيْتُ سَبيلَهُ. قَالَ: مَا هىَ؟ قُلْتُ: قَالَ لى: إذَا أَوَيْتَ إلَى فرَاشكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرسىِّ منْ أَوَّلهَا حَتَّى تَختمَ الآيَةَ. وَقَالَ لى: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ منَ الله حَافظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبحَ». «فَقَالَ النَّبىُّ ﷺ أما إنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطبُ مُذْ ثَلاَث لَيَال يَا أَبَاهُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ(٢)». وقوله ﷺ «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»: من التّتميم البليغ الغاية فى الحُسن لأنّه أثبت له الصّدق فأوهم له صفة المدح، ثمّ استدرك ذلك بصفة المبالغة فى الذّمّ بقوله «وَهُوَ كَذُوبٌ».

---

(١) الأثر صحيح وأورده الذّهبى فى سير أعلام النُّبلاء بسند رجاله ثقات [وانظر العظمة - ١١١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٥ و ٥٠١٠].

[رواية الترمذى وأحمد]

عن أبى أيّوب الأنصارى رضي الله عنه قال: «أَنَّهُ كَانَ فِي سَهْوَةٍ لَهُ فَكَانَتِ الْغُولُ تَأْتِي فَتَأْخُذُ، فشكَاهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: إذا رأيْتها فقُلْ: بسْمِ الله أجيبِى رسُولَ الله، قالَ: فجاءتْ فقال لَهَا: فأخذَهَا، فقالَتْ لَهُ: إنِّى لا أعُودُ فأرْسَلَهَا. فجَاءَ فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ «ما فعلَ أسيرُكَ؟» قَالَ: أخذْتُها فقالَتْ لِى: إنِّى لا أعُودُ فأرْسَلْتُها».

«فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إنَّها عائدةٌ». فأخذْتُها مرَّتَيْنِ أوْ ثلاثًا، كُلَّ ذلكَ تقُولُ لا أعُودُ، ويَجيءُ إلى النَّبيِّ ﷺ فيقُولُ «ما فعَلَ أسيرُكَ؟» فيَقُولُ: أخذْتُها. فتقُولُ: لا أعُودُ. فيقُولُ: إنَّها عائدةٌ فأخُذُهَا، فقالَتْ: أرْسلْنى وأعلِّمُكَ شيْئًا تقُولُ فلا يقْربُك شَىْءٌ: آيَةَ الْكُرْسيِّ، فأتى النَّبِيَّ ﷺ فأخْبرَهُ فقَالَ «صَدَقَتْ وهِيَ كَذُوبٌ[1]».

[رواية الحاكم]

عن أُبَيِّ بن كعب قال: «أنَّهُ كَانَ لَهُ جَرِينُ تَمْرٍ فكَانَ يَجِدُهُ يَنْقُصُ، فحَرَسَهُ لَيْلَةً فإذا هُوَ بمِثْلِ الْغُلاَمِ الْمُحْتَلِم، فسَلَّمَ عليْهِ فرَدَّ عليْهِ السَّلاَمَ فقَالَ: أجنِّيٌّ أمْ إنْسيٌّ؟ فقَالَ: بَلْ جنِّيٌّ! فقَالَ: أرني يَدَكَ، فأرَاهُ: فإذَا يدُ كَلْبٍ وشَعْرُ كَلْبٍ، فقَالَ: هكَذَا خُلقَ الْجنُّ؟. قالَ: لَقَدْ علمَت الْجنُّ أنَّهُ لَيْسَ فيهمْ رجُلٌ أشَدَّ منِّى! قالَ: ما جاءَ بكَ؟ قالَ: أُنبئْنَا أنَّكَ تُحبُّ الصَّدَقَةَ فجئْنَا نُصيبُ منْ طَعَامكَ! قالَ: مَا يُجيرُنَا منْكُمْ؟ قَالَ: تَقْرأُ آيَةَ الْكُرْسيِّ منْ سُورَة الْبَقَرَة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. قالَ: نعَمْ. قالَ: إذَا قرأْتَهَا غُدْوَةً أُجرتَ منَّا حتَّى تُمْسى، وإذَا قرأْتَهَا حينَ تُمْسى أُجرتَ منَّا حتَّى تُصْبحَ. قالَ أُبَىُّ ابْنُ كَعْبٍ: فغَدَوْتُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فأخْبَرْتُهُ بذَلكَ فقَالَ صَدَقَ الْخَبيثُ[2]».

[رواية الطبرانى]

عن معاذ بن جبل قال «جَعَلَنِى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَدَقَة الْمُسْلمينَ فجَعَلْتُ التَّمْرَ فِى غُرْفَةٍ فوَجَدْتُ فيه نُقْصَانًا، فأخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقَالَ «هَذَا شَيْطَانٌ يَأْخُذُهُ». قالَ: فدَخَلْتُ الْغُرْفَةَ فأغْلَقْتُ الْبَابَ علَيَّ، فجَاءَتْ ظُلْمَةٌ عظيمَةٌ فغَشيَت الْبَابَ، ثُمَّ تصَوَّرَ فِى صُورَةِ فيلٍ، ثُمَّ تصَوَّرَ فِى صُورَةٍ أُخْرَى، فدَخَلَ منْ شَقِّ الْبَابِ فشَدَدْتُ إزَارِى علَيَّ».

«فجَعَلَ يأْكُلُ منَ التَّمْرِ، قالَ: فوَثَبْتُ إلَيْه فضَبَطْتُهُ فالْتَقَتْ يدَاىَ علَيْه فقُلْتُ: يَاعَدُوَّ الله، فقَالَ: خَلِّ عَنِّى فإنِّى كَبيرٌ ذُو عيَالٍ كَثيرٍ وأنَا فقيرٌ، وأنَا منْ جنِّ نَصيبينَ، وكَانَتْ لنَا هَذه الْقَرْيَةُ قبْلَ أنْ يُبْعَثَ صَاحبُكُمْ، فلَمَّا بُعثَ أخْرجْنَا عنْهَا فخَلِّ عنِّى فلَنْ أعُودَ إلَيْكَ. فخَلَّيْتُ عنْهُ، وجَاءَ جبْريلُ علَيْه السَّلاَمُ فأخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بمَا كَانَ،

---

(١) أخرجه أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٤٨٣] والترمذى [٢٨٨٠].

(٢) أخرجه الحاكم [٢١٠٣] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى فى التلخيص.

فصلّى رسولُ الله ﷺ الصُّبحَ فنادى مُناديه : أينَ مُعاذُ بنُ جبَلٍ؟».

«فقُمتُ إليه، فقالَ رسولُ الله ﷺ ما فعلَ أسيرُكَ يامُعاذُ؟». فأخبرتُه فقال: أما إنَّه سيَعودُ فعُدْ». قالَ: فدخَلتُ الغُرفَةَ وأغلَقتُ علَى البابَ، فدخلَ من شقِّ البابِ، فجعلَ يأكُلُ منَ التَّمرِ، فصنعتُ به كما صنعتُ في المرَّةِ الأولى، فقالَ: خلِّ عنِّي فإنِّي لن أعودَ إليكَ! فقُلتُ: ياعدوَّ الله ألمْ تقلْ لا أعودُ؟ قالَ: فإنِّي لن أعودَ وآيةُ ذلكَ على أنْ لا يقرأَ أحدٌ منكُم خاتمةَ البقرةِ فيدخُلُ أحدٌ منَّا في بيتهِ تلكَ اللَّيلَةَ(١)». وخاتمة البقرة من قوله تعالى﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. إلى آخر السّورة الكريمة.

ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من رواية أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه «مَنْ قرأَ هاتينِ الآيتينِ من آخرِ سُورةِ البقرَةِ فى ليلَةٍ كفتَاهُ(٢)». وقوله ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه «الآيتَان من آخرِ سُورَةِ البقرةِ مَنْ قرأهُما فى ليلَةٍ كفتَاهُ». أى حفظه الله تعالى بهما من شرّ الشّيطان وكيده فلا يكون له عليه سلطان.

ورُوى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال «بينَما رسُولُ الله ﷺ وعندَهُ جبريلُ علَيه السَّلامُ إذْ سمِعَ نقيضًا فوقَهُ، فرفَعَ جبريلُ بصرَهُ إلى السَّماءِ فقالَ: هَذا بابٌ قدْ فُتحَ منَ السَّماءِ ما فُتحَ قطُّ، قالَ: فنزَلَ منْهُ ملَكٌ، فأتى النَّبيَّ ﷺ فقالَ: أبشرْ بنوريْنِ أوتيتَهُما لمْ يؤتَهُما نبيٌّ قبْلَكَ، فاتحةَ الكتابِ وخواتيمِ سُورَةِ البقَرَةِ، لَمْ تقرأْ حرفًا منْهُما إلاَّ أُعطيتَهُ(٣)». و[النَّقيضُ] صوتَ كصوت الباب إذا فُتح.

وفى الأحاديث من الفوائد غير ما تقدم:

(١) أنّ الشّيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن، وأنّ الحكمة قد يتلقّاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها.

(٢) وأنّ الشّخص قد يعلم الشّىء ولا يعمل به وأنّ الكافر قد يصدق ببعض ما يصدق به المؤمن ولا يكون بذلك مؤمنا.

(٣) وبأنّ الكذّاب قد يصدُق وأنّ الشّيطان من شأنه أن يكذب.

(٤) وأنّه قد يتصوّر ببعض الصّور فتمكن رؤيته وأنّ قول الله تعالى﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾[الأعراف:٢٧]. مخصوص بما إذا كان علىٰ صورته التى خُلقه الله تعالى عليها.

(٥) وأنّ الجنّ يأكلون من طعام الإنس وأنّهم يظهرون للإنس لكن بالشّرط المذكور،

---

(١) حديث صحيح أخرجه الطّبرانى فى الكبير ٤ / ١٦٢ [٤٠١١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٠٨] وافقه البخارى [٥٠٥١] وأبو داود [١٣٩٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٠٦] والنّسائى [٩١١] واللّفظ له.

وأنّهم يتكلّمون بكلام الإنس ويسرقون ويخدعون، وأنّهم يصيبون من الطّعام الذى لا يذكر اسم الله تعالى عليه، وفيها قبول العُذر والسّتر على من يُظن به الصّدق.

(٦) وفيها بيان فضل آية الكرسى وفضل خواتيم سورة البقرة.

(٧) وفيها اطلاع النّبى ﷺ على المغيّبات كما فى حديث معاذ بن جبل أنّ جبريل عليه السّلام جاء إلى النّبى ﷺ فأعلمه بأمره مع الشّيطان [(١)].

(القسم الثّانى)

السّواكن من الجنّ وخشاش الأرض

ذكر أهل العلم أنّ خشَاش الأرض(٢) من حيّات وهوام وعقارب صنف من أصناف الجنّ لقوله ﷺ من حديث أبى الدّرداء رضي الله عنه «خَلَقَ اللهُ تعالَى الْجِنَّ ثَلاَثَةَ أَصْنَاف: [مِنْها] صِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبٌ وَخَشَاشُ الأَرْضِ(٣)». وجاء فى رواية أبى ثعلبة بلفظ «خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْجِنَّ ثَلاَثَةَ أَصْنَاف: [مِنْهَا] وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ(٤)».

ولمّا أعطى الله تعالى الجنّ القدرة على التّشكُّل بالصّور الشّريفة والخسيسة وحكمت عليهم الصّورة فلا يُرَوْنَ إلاّ على فطرتهم، كان أكثر ما يتصوّرون لبنى آدم فى شكل الحيّات لقوله ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه «إِنَّ لِبُيُوتِكُمْ عُمَّارًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهِنَّ ثَلاثًا، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَاقْتُلُوهُنَّ(٥)». وما جاء فى المسند عن ابن عبّاس «إِنَّ الْجِنَّانَ مَسِيخُ الْجِنِّ كَمَا مُسِخَتِ الْقِرَدَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ(٦)». والجِنّانُ: هى الْحَيَّاتُ التى تكون فى البيوت واحدها «جَانٌّ» وهو الدّقيق الخفيف. [قاله ابن الأثير]. وجاء عن عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال «الْحَيَّاتُ مَسْخُ الْجِنِّ صُورَةً، كَمَا مُسِخَتْ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ(٧)».

وجاء فى الصّحيح عن أبى السّائب قصّة الرّجل الذى رجع إلى بيته «فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ

(١) انظر فتح البارى [ج ٤ ص ٥٧١].

(٢) خَشَاشُ الأرض حشراتها وهوامُّها ومنه كلّ شىء رقّ ولطُفَ.

(٣) أخرجه الحكيم التّرمذى فى نوادر الأصول [ص ٥٠] والدّيلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب [٢٩٤٢] وأورده أبو الشّيخ فى العظمة [١٠٩٧].

(٤) أخرجه الحاكم [٣٧٥٣] وافقه الذّهبى وقال صحيح وصحّحه الألبانى فى صحيح الجامع [٣١١٤] وأورده فى مشكاة المصابيح [٤١٤٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم بنحوه [٢٢٣٦] والتّرمذى [١٤٨٤].

(٦) رواه أحمد بإسناد صحيح [٣٢٥٤] ونقل السّيوطى نحوه مرفوعا فى صحيح الجامع [٣٨٧١] وأبو الشّيخ فى العظمة [١١٠١] وزاد فيه «وَالْخَنازِيرُ».

(٧) أخرجه فى صحيح الجامع [٣٢٠٣] وأورده فى الصّحيحة [١٨٢٤].

بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً، فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعُنَهَا بِه، وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ لَهُ: اُكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي؟. فَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِه، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْه، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَمِ الْفَتَى؟. قَالَ: فَجِئْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِيهِ لَنَا؟ فَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلاثَةَ أَيَامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ[1]».

ويأتي قوله «فَآذِنُوهُ»: بمعنى الإمهال والخروج كأنّها مهلة كاشفة لحقيقته، فإذا لم يذهب بالإنذار عُلِمَ أنّه ليس من عوامر البيوت بل هو شيطان، وفي رواية أخرى «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاثًا، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلاَّ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ. وَقَالَ لَهُمُ اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ[2]». وقوله «فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعُنَهَا بِه» أي أماله إليها إرهابا ومبالغة في الزّجر وحَمَلَهُ على ذلك فرطُ الغَيْرَة وما كان بالذي يطعنها!.

(قال) القرطبي [يُفهم من هذا الحديث أنّ هذا الجانّ الذي قتله الفتى كان مسلما وأنّ الجنّ قتلته قصاصا؛ لأنّه لو سُلِّمَ أنّ القصاص مشروع بيننا وبين الجنّ لكان إنّما يكون في العمد المحض، وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتل نفس مسلمة إذ لم يكن عنده علمٌ من ذلك، وإنّما قصد إلى قتل ما سُوِّغَ قتل نوعه شرعا، فهذا قَتْلُ خطأ ولا قصاص فيه. فالأَوْلَى أن يقال إنّ كفّار الجنّ أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عُدْوَانًا وانتقاما[3]].

ولذلك جاء قول النّبي ﷺ «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا». ليُبيّن طريقا يحصل به التّحرُّز من قتل المسلم منهم ويُتَسَلَّطُ به علي قَتل الكافر منهم أيضا لما روى من وجوه «أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَتَلَتْ جَانًّا، فَأُرِيَتْ فِي الْمَنَامِ أَنَّ قَائِلاً يَقُولُ لَهَا: لَقَدْ قَتَلْتِ مُسْلِمًا؛ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ مُسْلِمًا لَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ! قَالَ مَا دَخَلَ عَلَيْكِ إِلاَّ وَعَلَيْكِ ثِيَابُكِ. فَأَصْبَحَتْ فَأَمَرَتْ بِإِثْنَي عَشَرَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَجُعِلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ[4]». وفي رواية «مَا دَخَلَ عَلَيْكِ إِلاَّ وَأَنْتِ مُسْتَتِرَةٌ؛ فَتَصَدَّقَتْ وَأَعْتَقَتْ رِقَابًا».

ولمّا كان أكثر ما يتصوّر به الجنّ يكون على شكل الحيَّة وجمعها حيّات، ويُطلق على الذّكر والأنثى منها وهي رتبة من الزّواحف كالثّعبان والأفعي وغيرهما، جاء التّأكيد من نبيّنا ﷺ بقتل الأخطر منها كما في قوله ﷺ «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٩ / ٢٢٣٦] وأبوداود [٥٢٥٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٠ / ٢٢٣٦] وأبو داود [٥٢٥٦].

(٣) انظر المُفْهِم للقرطبي [ج ٥ ص ٥٣٨].

(٤) الأثر صحيح وأورده في سير أعلام النّبلاء بسند كلّهم ثقات وذكره أبو الشّيخ في العظمة [١١١٤].

وَالْأَبْتَرَ فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ وَيَسْتَسْقِطَانِ الْحَبَلَ(١)». والحيّات المذكورة في الحديث أجناس ويختلف وضعها باختلاف أحوالها. ويأتي تفصيل هذا القسم عند أبي عبيدة على «ثلاثة أصناف» الأفاعي والأساود والجنّان:

(١) فالأفاعي هي جمع [أَفْعَى] وهي الأنثى من شرار الحيّات رقشاءُ دقيقةُ العنق، عريضة الرّأس، قاتلةُ السُّمِّ، وهي التي سُمِّيت بالأبتر لقصر ذَنَبِهَا، والذّكر منها يُسَمَّى [أُفْعُوَانٌ] بضم الهمزة والعين، وقيل إنّه يُكْنَى [بأبي يحيى] لأنّه يعيش ألف سنة، وهو الشّجاع الأسود الذي يواثب الإنسان، ومن صفة الأفعى إذا فُقِئَتْ عَيْنُهَا عادت ولا تغمضُ حدقتها أبداً [(٢)].

(٢) أمّا الأساودُ جمع أَسْوَدُ [فقال] أبو عبيد: هي حيّة رقطاء من أخبث الحيّات وأخطرها، ويقال لهذا النّوع «أَسْوَدٌ سَالِخٌ» لأنّه ينسلخ من جلده كلّ سنة، وفي السُّنن جاء قوله ﷺ عن ابن عمر مرفوعا «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، مِنَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ شَرِّ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ شَرِّ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣)». وقيل هي حَيَّةٌ رقيقة رقشاء دقيقة العنق عريضة الرّأس وربما كانت ذات قرنين.

(٣) الْجِنَّانُ بتشديد النّون ومفردها [الجَانٌّ] وهي الحيّة الصّغيرة الرّقيقة الخفيفة الدّقيقة البيضاء وهي المقصودة بقوله تعالى ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾. وفي الصّحيح «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ الْجِنَّانِ الَّتِي فِي الْبُيُوتِ(٤)».

ويؤيّد ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «بَيْنَا أَنَا أُطَارِدُ حَيَّةً لأَقْتُلَهَا فَنَادَانِي أَبُو لُبَابَةَ: لاَ تَقْتُلْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ الْحَيَّاتِ. فَقَالَ: إِنَّهُ نَهَى بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ ذَوَاتِ الْبُيُوتِ وَهُنَّ الْعَوَامِرُ(٥)». (قال) عياض [قيل الْجِنَّانُ ما لا يتعرّض للنّاس، والْجِنَّلُ ما يتعرّض لهم ويؤذيهم].

ويقف بنا ابن عمر رضي الله عنهما أمام تعريفين لهذه الحيّة:

(الأوّل) أنّها من ذوات البيوت أي اللاّتي يُوجدن في البيوت وظاهره التّعميم في جميع البيوت، وعن مالك تخصيصه ببيوت أهل المدينة، وقيل يختصّ بيوت المدن دون غيرها لما أخرجه أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ كُلَّهَا إِلاَّ الْجَانَّ الأَبْيَضَ الَّذِي كَأَنَّهُ قَضِيبُ فِضَّةٍ(٦)». أي كأنّه قطعة فضّة.

وذكر التّرمذي عن ابن المبارك قال [إنّما يُكره من قتل الحيّات: قتل الجنّة التي تكون

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٩٧] ومسلم [٢٢٣٢] وابن ماجه [٢٨٦٣]. (٢) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٤٠٠]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦١٦١] وأبو داود [٢٦٠٣]. (٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٣١٣] ومسلم [١٣٦ / ٢٢٣٣]. (٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٩٨] ومسلم [٢٢٣٣]. (٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٦١].

دقيقة كأنّها فضّة ولا تلتوى فى مشيتها]. (قال) أبو داود [الْجَانُّ لاَ يَنْعَرِجُ فِى مِشْيَتِهِ -أىْ لاَ يَنْعَطِفُ- فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا كَانَتْ عَلاَمَةً فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى[1]].

(الثّانى) وهو ما أُدرج من كلام الزُّهرى فى الخبر بقوله «وَهُنَّ الْعَوَامِرُ». قال أهل اللّغة [عوامر البيوت هى ما يعمرها من الجنّ فيتمثّل فى صور الحيّات]. وتسميتهنّ عوامر [لطول مُكُوثِهِنَّ فى البيوت وهو مأخوذ من العُمْر وهو طول البقاء[2]].

(قال) التّوربشتى [عمّار البيوت وعوامرها: سكانها من الجنّ. وجاء عند مسلم من حديث أبى سعيد رضي الله عنه مرفوعا «إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهِ ثَلاَثًا، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلاَّ فَاقْتُلُوهُ[3]». ولمّا كان أكثر ما يتصوّر به الجنُّ يكون على شكل الحيّة فإنّ تعريفها يأتى على قسمين:

(القسم الأوّل) حيّة على [أصْلِ خِلْقَتِهَا] فبيننا وبينها العداوة الأصلية فى معاضدة إبليس على آدم، وإلى هذا وقعت الإشارة بقول النّبى ﷺ الذى رُوى عن أبى هريرة رضي الله عنه «مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ [يعنى الحيّات] وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُنَّ خِيفَةً فَلَيْسَ مِنَّا[4]». وجاء فى رواية «مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةَ طَلَبِهِنَّ فَلَيْسَ مِنَّا، مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ[5]».

وعلّلوا ذلك بما جاء فى كتب التّفسير أنّ الحيّة أبدَت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم عليه السّلام بأن أدخلت إبليس الجنّة بين فَكَّيْهَا، ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به، وقال لها إبليس: أنت فى ذمّتى، فأمر رسول الله ﷺ بقتلها، وهذا من المسائل التى لم يأت بها نصّ أو دليل والله تعالى أعلم.

وهذا القسم يُقتَلُ ابتداء من غير إنذار ولا إمهال، سواء كان فى المدينة أو غيرها لما روى فى الصّحيح عن أبى لبابة رضي الله عنه «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الْجِنَّانِ الَّتِى تَكُونُ فِى الْبُيُوتِ إِلاَّ الأَبْتَرَ وَذَا الطُّفْيَتَيْنِ، فَإِنَّهُمَا اللَّذَانِ يَخْطِفَانِ الْبَصَرَ وَيَتَتَبَّعَانِ مَا فِى بُطُونِ النِّسَاءِ[6]».

وزعم الدّاودى أنّ الجنّ لا يتمثّل بذى الطّفيتين والأبتر فلذلك أُذنَ فى قتلهما حتّى ولو كان المرء فى الصّلاة لقوله ﷺ «اقْتُلُوهَا وَإِنْ كُنْتُمْ فِى الصَّلاَةِ[7]». يعنى الحيّة والعقرب،

(١) انظر سُنن أبى داود [ج ٤ ص ٤١٠].
(٢) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٤٠١].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٠ / ٢٢٣٦].
(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٤٨] وابن حبّان [٥٦٤٤].
(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٥٠].
(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٩٨] ومسلم [٢٢٣٢] وأبو داود [٥٢٥٣] واللّفظ له.
(٧) انظر تفسير القرطبى [ج ١ ص ٣١٨].

كما ورد ذكر ذلك في قوله ﷺ «اُقْتُلُوا الْحَيَّات والْكلاَب وَاقْتُلُوا ذا الطُّفْيَتَيْن والأبتر، فَإنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ ويَسْتَسْقطَان الْحَبَالَى[1]».

وجاء عند البخاري بلفظ «اُقْتُلُوا الْحَيَّات، وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ، فَإنَّهُمَا يَطْمسَان الْبَصَرَ وَيَسْتَسْقطَان الْحَبَلَ[2]». وذا الطّفيتين نوع من الأفاعي على ظهرها خطّان كأنهما القصبة، وهي من الأنواع السّامة الخطرة، أمّا الأبتر فهو الثّعبان الذي سبق أن قُطع ذيله فإنّه يصير خطرا شديد السّم ويسمّى «الْحَنَشُ[3]».

وعن الأبتر (قال) النّضر بن شميل [إنّه صنف من الحيّات أزرق مقطوع الذّنب لا تنظر إليه امرأة حامل إلاّ ألقت ما في بطنها غالبا[4]]. وقد ذكر مسلم في روايته عن الزّهري قال «وَنَرَى ذَلِكَ مِنْ سُمَّيْهِمَا». أمّا قوله «يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ». ففيه تأويلان ذكرهما الخطّابي وآخرون:

أحدهما - أنّهما يخطفان البصر ويطمسانه بمجرّد نظرهما إليه لخاصيّة جعلها الله تعالى في بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان، ويؤيّد هذا الرّواية الأخرى في صحيح مسلم «يَخْطفَان الْبَصَرَ». وقوله «يَلْتَمِعَان الْبَصَرَ»، كما قالوا [إنّ في الحيّات نوع يُسَمَّى النّاظر إذا وقع بصره على عين إنسان مات من ساعته[5]].

والثّاني - أنّهما يقصدان البصر باللّسع والنّهش والأول أصحّ وأشهر.

فإن كانت الحيّة على غير هذه الهيئة احتُمل أن تكون حيّة أصليّة، واحتُمل أن تكون جنّيًّا تصوّر بصورتها، فلا يصحّ الإقدام بالقتل على المحتمل، لئلا يُصادف منهيا عنه [حسبما رُوي عن عروس المدينة حين قتل الحيّة فلم يُعلم أيّهما كان أسرع موتا هو أم الحيّة؟[6]].

ويأتي الأمر بقتل الحيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرّة المخوّفة منها، فما كان منها متحقّق الضّرر وجبت المبادرة إلى قتله لقوله ﷺ «وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ». فخصّهما ﷺ بالذّكر مع أنّهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما، وما لم يتحقّق ضرره فما كان منها في غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر، ولأنّ نوع

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٣٣] وأبو داود [٥٢٥٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٩٧] والتّرمذي [١٤٨٣].

(٣) انظر سُنن أبي داود [ج ٤ ص ٤٠٧].

(٤) انظر مشارق الأنوار [١ / ٦٥].

(٥) انظر نووي مسلم [ج ٧ ص ٤٩٥].

(٦) انظر أحكام القرآن لابن العربي [ج ٤ ص ١٨٦٧].

الحيّات غالبه الضّرر فيستصحب ذلك فيه ولأنّه كلّه مُرَوِّعٌ بصورته وبما في النّفوس من النّفرة عنه، ولذلك قال ﷺ «اقْتُلوا الحَيَّاتِ كُلَّهُنَّ، فَمَنْ خَافَ ثَأْرَهُنَّ فَلَيْسَ مِنِّي[(١)]».

(القسم الثّاني) ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتّى يُنذر، وأمّا ما ليس في البيوت فيُقتل من غير إنذار لقوله ﷺ «إِنَّ لِبُيُوتِكُمْ عُمَّارًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهِنَّ ثَلاَثًا فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَاقْتُلُوهُنَّ[(٢)]». [قال] العلماء: [إذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنّه ليس من عوامر البيوت ولا ممّن أسلم من الجنّ، بل هو شيطان فلا حُرمة له فاقتلوه ولن يجعل الله له سبيلا إلى الإضرار بكم[(٣)]].

(وقال) ابن تيمية: [والجنّ يتصوّرون في صور شتّى فإذا كانت حيّة البيوت قد تكون جنيّا فتُؤذن ثلاثا فإن ذهبت فبها وإلاّ قُتلت، فإنّها إن كانت حيّة أصلية فقد قُتلت، وإن كانت جنيّة فقد أصرّتْ على العدوان بظهورها للإنس في صورة حيّة تفزعهم بذلك، والعادي هو الصّائل الذي يجوز دفعه بما يدفع ضرره ولو كان قتلا، فأمّا قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز والله تعالى أعلم[(٤)]].

وللعلماء في حيّات البيوت ثلاثة أقوال:

(الأوّل) قتل الحيّات أجمع في الصّحارى والبيوت بالمدينة وغير المدينة، ولم يستثنوا من ذلك نوعا ولا جنسا ولا موضعا، واحتجّوا في ذلك بأحاديث عامة كما في قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ كُلَّهُنَّ فَمَنْ خَافَ ثَأْرَهُنَّ فَلَيْسَ مِنِّي[(٥)]».

(الثّاني) قتل الحيّات أجمع إلاّ سواكن البيوت في المدينة وغيرها، فإنّهن لا يُقتلن إلاّ بعد إنذارهن لما جاء في حديث أبي لبابة من النّهي عن قتلهن بعد الأمر بقتل جميع الحيّات، واستدلّوا بقوله ﷺ «إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاَثًا، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلاَّ فَاقْتُلُوهُ[(٦)]».

(الثّالث) لا تُنْذَر إلاّ حيّات المدينة فقط لما جاء في حديث أبي سعيد «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ[(٧)]». أمّا حيّات غير المدينة في جميع الأرض والبيوت فتقتل من غير

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٤٩] والنّسائي [٣١٩٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٣٦] وأبوداود [٥٢٥٦] والتّرمذي [١٤٨٤].

(٣) انظر تحفة الأحوذي [ج ٤ ص ٤١٩].

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية [ج ١٩ ص ٤٤].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٤٩].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٠ / ٢٢٣٦].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٩ / ٢٢٣٦] وأبو داود [٥٢٥٧].

إنذار لقوله ﷺ في الحديث «خَمْسٌ مِنَ الْفَوَاسِقِ تُقْتَلُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ[1]». وذكر منهن «الْحَيَّةَ». ولكلّ من هذه الأقوال وجه قوى ودليل ظاهر.

وخالف الإمام مالك في ذلك وقال يُنهى عن قتل جنّان جميع البلاد حتّى يُؤذن ثلاثة أيّام لعموم نهيه ﷺ عن قتل الجنّان التي تكون في البيوت، وعلّل ذلك بوجود من أسلم من الجنّ في أماكن غير المدينة كما في قوله ﷺ عند البخارى «وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ فَسَأَلُونِي الزَّادَ[2]». وهو [نصٌّ في أنّ مِنْ جنّ غير المدينة من أسلم فلا يُقتل شيء منها حتّى يُحَرَّجَ عليه[3]].

التّحريج والإنذار

التّحريج في اللّغة بمعنى [التّضييق والإنذار] بالتّتبّع والطّرد والقتل، والمقصود به هنا العبارات التي توجّه لعوامر البيوت عند ظهورها بقصد زجرها وإنذارها حتّى تتكشّف حقيقتها أهي من الجنّ فتنصرف بإذن الله تعالى، أم هي من جملة الحيّات الأصليات فتُقتل لقوله ﷺ في الحديث الصّحيح «إِنَّ الْهَوَامَّ مِنَ الْجِنِّ، فَمَنْ رَأَى فِي بَيْتِهِ شَيْئًا فَلْيُحَرِّجْ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ عَادَ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ[4]».

وجاء في لفظ «فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا، فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ». (قال) في المرقاة [أي ليس بجنّيّ مسلم بل هو إمّا جنّيّ كافر وإمّا «حَيَّةٌ»، وإمّا ولد من أولاد إبليس، وسمّاه شيطانا لتمرّده وعدم ذهابه بالإيذان[5]].

ويتعلق بالتّحريج مسألتين:

(أولهما) لفظ التّحريج والإنذار

لم يأت في لفظ التّحريج والإنذار في كتب السّنن إلاّ ما رواه النّسائي عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ حَيَّاتِ الْبُيُوتِ فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئًا فِي مَسَاكِنِكُمْ فَقُولُوا: أَنْشُدُكُمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمْ نُوحٌ، وَنَنْشُدُكُمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ، لاَ تُؤْذُونَنَا! فَإِنْ عُدْنَ فَاقْتُلُوهُنَّ[6]».

ولعل مالكا أخذ لفظ [التّحريج] ممّا وقع عند مسلم «فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثًا». وحكي ابن حبيب عن النّبي ﷺ أنّه كان يقول «أَنْشُدُكُمُ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ أَلاَّ تُؤْذُونَنَا وَأَلاَّ تَظْهَرْنَ عَلَيْنَا[7]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٩٨]. (٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٦٠]. (٣) انظر المُفْهِم للقرطبي [ج ٥ ص ٥٣٠]. (٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٢٥٦]. (٥) انظر تحفة الأحوذى [ج ٤ ص ٤١٩]. (٦) أخرجه النّسائي في السّنن الكبرى [١٠٨٠٤]. (٧) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٩٤] والمفهم للقرطبي [ج ٥ ص ٥٣٨].

(والثّانية) أن يكون التّحريج والإنذار ثلاثا

جاء عند مسلم في التّحريج والإنذار روايتان :

(الأولى) عن محمّد بن رافع من قوله ﷺ «فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلاَثًا فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ[(١)]».

(والثّانية) عن أبي الطّاهر من قوله ﷺ «فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ[(٢)]».

فالذين أخذوا بالرّواية الأولى اختلفوا في قوله «فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاَثًا». هل يكون ثلاثة أقوال في ثلاثة أحوال ؟ أم ثلاثة أقوال في حالة واحدة ؟. والصّحيح أن يكون ثلاث مرّات في حالة واحدة ، لأنّه لو جعلت ثلاث مرّات في ثلاث حالات لكان ذلك استدراجا لهنّ وتعريضا لمضرّتهن، ولكن إذا ظهرت تُنذر كما تقدّم، فإن فرّت وإلاّ أُعيد عليها الإنذار ثلاث مرّات ، فإن فرّت وغابت وإلاّ قتلت .

أمّا عن الرّواية الثّانية من قوله ﷺ «آذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيامٍ» فقد قال الإمام مالك [أحبُّ إليَّ أنْ يُنذروا ثلاثة أيّام]. وقال عيسى بن دينار [يُنْذَرُ ثلاثة أيّام وإن ظهر في اليوم مرارا، ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار في يوم واحدٍ حتّى يكون في ثلاثة أيّام].

(قال) في المُفْهِم [وهذا تنبيهٌ على أنّ من النّاس من يقول : إنّ الإذن ثلاث مرّات ، وهو الذي يُفهم من قوله «فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلاَثًا» ومن قوله «فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاَثًا» لأنّ ثلاثا للعدد المؤنث ، فيظهر أنّ المراد ثلاث مرّات ، والأَوْلى : ما صار إليه مالك ، لأنّ قوله «فَآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيامٍ» نصٌّ صحيح مقيّدٌ لتلك المُطْلقَات ، فلا يُعْدَلُ عنه ، ويمكن أن يُحمل تأنيث العدد على إرادة ليالي الأيّام الثّلاثة ، فغلّب اللّيلة على عادة العرب في باب التّاريخ فإنّها تغلّب فيها التّأنيث[(٣)]].

(قال) النّووي :[إذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنّه ليس من عوامر البيوت ولا ممّن أسلم من الجنّ ، بل هو شيطان فلا حرمة عليكم فاقتلوه ، ولن يجعل الله له سبيلا للانتصار عليكم بثأره ، بخلاف العوامر ومن أسلم والله تعالى أعلم[(٤)]].

و(في) أحكام القرآن [ويَكْشفُ الإِنْذَارُ هذا الخفاء ، فإن مضى كان علامة على أنّه ليس بمؤمن ، أو أنّه من جملة الحيّات الأصليّات ، إذ لم يُؤذن للجنّ في التّصوّر على الأبتر

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤١ / ٢٢٣٦] وأبو داود [٥٢٥٨].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٩ / ٢٢٣٦] وأبوداود [٥٢٥٧].

(٣) انظر المفهم للقرطبي [ج ٥ ص ٥٣٨].

(٤) انظر نووي مسلم [ج ٧ ص ٤٩٥].

والطَّفِيّ، ولو تصَوّرتْ في هذا كتصورّها في غيره لما كان تخصيص النّبي ﷺ بالإطلاق بالقتل في هذين والإنذار في سواهما معنى.

والأمر لا يخلو من أن تكون حيّة جنيّة أو أصليّة، فإن كانت جنيّة فهي أفهم بالمراد، وإن كانت أصليّة فصاحب الشّرع أذن في الخطاب على ما تقدّم، فإن قيل: إنّما يُحتاج الإنذار للتّفرقة بين الجانّ والحيوان فإن كفَّ فهو جنّ مُؤمن وإلاّ كان كافرا أو حيوانا، قلنا: أمّا الحيوان فلقد جُعلت له علامة، وأمّا غيره فقد خُصَّ بالإنذار؛ والحيوان يفهم بالإنذار كما يفهم بالزّجر ولهذا تُؤدّب البهيمة والله أعلم[1]].

(وجاء) عند القرطبي [فما كان من حيوان أصله الأذاة فإنّه يُقتل ابتداء لأجل إذايته من غير خلاف كالحيّة والعقرب والفأر والوزَغ وشبهه[2]]. وفي ذلك جاء قوله ﷺ في رواية مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ في قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْحِدَأَةُ، وَالْعَقْرَبُ، والْفَأْرَةُ، والْكَلْبُ الْعَقُورُ[3]». كما جاء قوله ﷺ من رواية عائشة «خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ، والْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا[4]». والغراب الأبقع هو الذي في ظهره وبطنه بياض.

(قال) النّووي [وأمّا تسمية هذه المذكورات فواسق فصحيحة جارية على وفق اللّغة، وأصل الفسق: الخروج، فسُمِّيت هذه فواسق لخروجها بالضّرر والإيذاء عن طريق معظم الدّواب، وقيل لخروجها عن حكم الحيوان في تحريم قتله في الحرم والإحرام[5]]. ويُؤيّد ذلك قوله ﷺ «الْحَيَّةُ فَاسِقَةٌ، وَالْعَقْرَبُ فَاسِقَةٌ، وَالْغُرَابُ فَاسِقٌ، وَالْفَأْرَةُ فَاسِقَةٌ[6]».

(القسم الثّالث)

شياطين الجنّ و مردتهم

هذا الصّنف من خالص الجنّ الذي يطير بجناحيه كالرّيح المرسلة ولا ينطبق عليه ما وصفت به الفصائل الأخرى من الجنّ، فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون إن صحّ ذلك عنهم، وقيل إنّ أكلهم صحيح ولكنّه تشمّم واسترواح فلا مضغ فيه ولا بلع، ويكون استرواحه وتشمّمه بالشّمال، وتأتي الآيات الكريمة لتصنّف مُسمّيات هذا القسم وتُبيّن مراتبهم على النّحو التّالي:

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي [ج ٤ ص ١٨٦٨].

(٢) انظر تفسير القرطبي [ج ١ ص ٣١٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٩٩] وافقه البخاري [٣٣١٥] وأبو داود [١٨٤٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٧/١١٩٨] وافقه البخاري [٣٣١٤] والنّسائي [٢٨٩١].

(٥) انظر نووي مسلم [ج ٤ ص ٣٧٦].

(٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٥٦٢٩].

(١) فمن الجنّ [إبْلِيسُ] كما فى قول الله جلّ شأنه ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠]. وهو المشئوم على نفسه وعلى ذرّيته وأوليائه وأهل طاعته من الجنّ والإنس.

(٢) ومن الجنّ كذلك [العِفْرِيتُ] كما فى قول الله تعالى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾[النّمل: ٣٩]. وهو القوى الماكر المخادع منهم.

(٣) ثمّ يأتى مسمّى [الشّيْطَانُ] فى أكثر من وصف قرآنى:

* فهو [شَيْطَانٌ مَارِدٌ] من قوله تعالى ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[الصّافّات: ٧].

والمارد البالغ الغاية فى العتوّ والخبث واتخاذ وسائل الإغواء والإضلال والمهارة فى اصطناع المكايد والمآثم والشّرور.

* وهو [شَيْطَانٌ مَرِيدٌ] من قوله تعالى ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[النّساء: ١١٧]. وقوله سبحانه ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾[الحجّ: ٣]. وهو العاتى الطّاغى المتمرّد الخارج عن الطّاعة.

* وهو (شَيْطَانٌ رَجِيمٌ) كما فى قوله تعالى ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]. وقوله تعالى ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النّحل: ٩٨]. والرّجيم الملعون من قبل الله تعالى وملائكته والنّاس أجمعين.

ويأتى تفصيل ذلك كلّه على النّحو التّالى:

(ا) إبليس اللعين

هو رأس الشّياطين المتمرّد على أمر الله تعالى الذى يتعدّد اسمه ويتغيّر بحسب حالة الشّر الكامن فيها، فإن كان اسمه متخفّيا وراء لفظ الحرّية المبتذلة فإنّه يأتى ترجمة حقيقية لمسمّى الإثم ذاته، وإن كان مُستحوذا على قلوب الفسّاق والماجنين، فهو أيضا مسيطر على أدمغة الفلاسفة ومنظّرى الدّعارة الفكريّة فى هذا العالم، وإن كان هو الدّافع فى سقوط أهل الرّذيلة فى هوّة الضّياع السّحيق، فهو كذلك سبب فى هبوط أهل الباطل إلى الدّرك الأسفل من النّار، كما يتمثّل [اسم إبليس]:

* فى الخيانة غير المغتفرة والمجون الهستيرى الذى يصيب شباب الأمّة.
* والغوغائيّة القاتلة المتحكّمة فى حياة البشر.
* والمرأة المتلوّنة المتبرّجة التى لا تردّ يد لامس.
* والجسد العارى الرّخيص الذى لا مكان له إلاّ فى سوق النّخاسة.

* والنّظرة العابثة الماجنة المتعطّشة للإثـم والفجور.

* والقيَم التي انهارت لتلحق بالحضيض في تعاملات النّاس.

* والإعلام الهابط الذى يقوّض الأخلاق ويهدم الأسر.

* وموجات العولمة التي تسعى للقضاء على ما تبقى من قيم الدّين ومبادئه.

ولقد بيّن لنا القرآن الكريم أصل إبليس ولو لم يبيّن لنا ربّنا أصل خلقته وجبلّته ما استطعنا إلى معرفة ذلك سبيلا، لأنّه غيب من المغيب الذي لا يعلمه إلاّ عالم الغيب والشّهادة ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥]. وذكر مسمّى إبليس فى كتاب الله تعالى مذموما مدحورا [إحدى عشرة] مرّة جاءت كلّها فى فضح عناده وعصيانه وكشف كبره وصلفه وعدم إذعانه لأمر السّجود إلاّ آيتين [(١)]:

(الأولى) هى قول الله تعالى﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[الشعراء:٩٥]. وتأتى فى موقع التّوبيخ والتّعذيب بالقذف بهم فى النّار مع من كُبكبُوا فيها والغاوين.

(والثّانية) قول الله تعالى﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾[سبأ: ٢٠]. وفيه قال الحسن [لـمّا أُهبط آدم من الجنّة ومعه حواء ومعهما إبليس قال: أمّا وقد أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذّرية أضعف وأضعف، فكان ذلك ظنّا من إبليس فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾(٢)].

واختلفت الرّوايات فى الاسم الحقيقي للملعون [إبليس] فزعم قوم من أهل اللّغة أنّ اشتقاق اسم إبليس من الإبلاس وهى الْحَيْـرَةُ والسّكوت من الْحُزْن أو الخوف كأنّه أُبلس [أىْ يَئِسَ] من رحمة ربّه كما فى قوله تعالى﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم:١٢].

[يقال] أَبْلَسَ الرَّجُلُ إِبْلاسًا: فهو مُبْلسٌ إذَا يَئِسَ وانقطعت حُجَّتُهُ، وهذا يدلّ على أنّ إبليس إنّما سُمِّيَ بهذا الاسم بعد لعن الله تعالى إيّاه. وذكر عن السُّدِّى قال [سُمِّى إِبْلِيسُ لأَنَّ الله عزّ وجلّ أَبْلَسَهُ وَغَيَّرَهُ(٣)].

وقد روى ابن أبى الدّنيا وغيره عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال «كان اسم إبليس حيث كان مع الملائكة [عَزَازِيلُ] كان من أشراف الملائكة ذوى الأجنحة الأربعة ثمّ أُبْلسَ بعد». وقيل «إنّ اسمه كان [نَائلاً] فلمّا عصى الله تعالى غضب عليه فلعنه فصار شيطانا». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قالَ «لَمَّا عَصَى إِبْلِيسُ لُعِنَ وَصَارَ شَيْطَانًا». وعن سُفيان: كُنْيَةُ إِبليس

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم [ص ١٣٤].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٤ ص ٢٩٢].

(٣) أخرجه الطّبرى فى تفسيره [١ / ١٨٠] والسّيوطى فى الدّر المنثور [١ / ٥٠].

[أبو كدُوس[1]] وقال ابن زيد والحسن وقتادة [إبليس أبو الجنّ كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملَكا]. ورُوى نحوه عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال [إنَّ اسْمَهُ الْحَارِثُ]. وفى الحديث «كَمَا أنَّ آدَمَ أَصْلُ الإِنْسِ كَذَلِكَ إِبْلِيسَ أَصْلُ الْجِنَّة[2]». وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال [والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين، فكما أنّ آدم أصل الإنس، كذلك إبليس أصل الْجِنَّة[3]].

وإبليس اسم أعجمى لا ينصرف للْعُجْمَة والتّعريف، وقيل [هو عربى واشتقاقه من الإبلاس ولم ينصرف للتّعريف ولأنّه لا نظير له فى الأسماء، وهذا بعيد على أنّ فى الأسماء مثله نحو إخريط وإحفيل وإصليت[4]].

إبليس سفيه الجـنّ

وإبليس هو إمام سفهاء الجنّ كما جاء وصفه فى القرآن الكريم ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾[الجنّ: ٤]. فأبان هؤلاء النّفر من الجنّ بمقالتهم هذه أنّ السّفيه منهمْ هو إبليس وكلّ من استجاب له واتّبعَ كفره بربّه تعالى. و[السَّفيهُ]: هو ناقص العقل الذى لا يحكم أمره برشد، فيجانبُ الحقّ والصّواب ويبعُد عن سبيل الهدى والرّشاد.

والسَّفيه فى الآية هو «إبْليسُ» فى قول مجاهد وابن جريج وقتادة وقال [عَصَاةُ سَفيهُ الْجنِّ كَمَا عَصَاةُ سَفيهُ الإنْسِ]. وأصل السَّفه فى اللّغة: ضعف العقل وسوء التّصرُّف، ويُسَمَّى السَّفيه سفيها لخفّة عقله وكثرة حركته وطيشه من: سَفهَ يسْفَهُ والمصدر السَّفَاهَة، ولهذا سمّى الله النّساء والصّبيان سفهاء فى قوله تعالى﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النّساء: ٥]. لتبذيرهم فى المال والإسراف فيه، ويقابله الرّشْد وهو إصلاح المال وتنميته وعدم تبذيره.

[ولم يكن هناك أسْفَهُ من إبليس ولا أحْقَرُ منه، إذ عرَّض نفسه للطّرد من رحمة الله تعالى ومنازل القرب من ربّه، وللعذاب الأبدى والشّقاء الدّائم إرضاء لنزعة الكبر والحسد فى نفسه لمّا رفض أمر ربّه بالسّجود لآدم، وجحد حقّ الله على عباده فى طاعته بما يشاء، وهذا من فَرْط سفاهته وقلّة عقله الإرادى، إذ لم تقو إرادته على ضبط جماح هواه فى الكِبْر والحسد مع وفرة ذكائه وواسع حيلته[5]].

(١) جاء فى البداية والنّهاية [ج ١ ص ٥٨] عن النَّقّاش: أنّ كنيته [أبو كردوس].

(٢) أورده السّيوطى فى الدُّر المنثور [٤ / ٢٢٧] وعزاه لابن الأنبارى.

(٣) إسناده صحيح وأخرجه الطّبرى [١٥ / ١٧٠] والدّر المنثور [٤ / ٢٢٧].

(٤) انظر أكام المرجان للشّبلى [ص ٢٠].

(٥) انظر معارج التّفكّر [ج ٥ ص ٥٧٠].

ويتبع إبليسَ فى سفاهته كلُّ كفرة الجنّ الذين اتّبعوا سبيله، وعبارة [سَفيهُنَا] فى الآية تعمّ كلّ كفرة الجنّ متناولة إمامها إبليس أوّل ما تتناول دون اسمه العَلم [إبليس] لمسألة جديرة بالعناية وتشمل :

(١) وصفه بالسّفاهة وهى قلّة العقل التى ساقته للشّر والخلود فى النّار.

(٢) إدخال كلّ جنوده من شياطين الجنّ ضمن عبارة [سَفيهُنَا] فالنّكرة المضافة إلى معرفة تعمّ كلّ الأفراد التى ينطبق على الواحد منها النّكرة المضافة مثل خذ من شاة الغنى ودرهمه وديناره [أى من شياهه ودراهمه ودنانيره[1]].

أمّا الشّطط والاشتطاط فهو الْغُلُوُّ فى الكُفر والبُعد وتجاوز الحدّ [أو] هو الجوْر والكذب، فيعبّر به عن [الجوْر] لبعده عن العدل، وعن [الكذب] لبُعده عن الصّدق. فكلّ ما بعُد وجَار عن الطّريق السّوى فهو باطل، وهذا ما أضلّ به إبليسُ كفرة الجنّ، فيدخل فيه كلّ قول يتضمّن وصف الله تعالى بما هو منزّه عنه فى ذاته أو فى صفاته، أو فى أفعاله أو فى أوامره ونواهيه وشرائعه لعباده وتصاريفه فى كونه، ونحو ذلك من كلّ ما فيه طعن أو تشكيك فى حكمته.

هل كان إبليس من الملائكة؟

لـمّا كان وجود إبليس فى صفوف الملائكة مَدْعَاةً للخلط وعدم الفهم الصّحيح لحقيقته، حرص القرآن على أنّ يبيّن لنا أصل جنسه وطبيعة خلقته فجاء ذلك مبيّنا فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف : ٥٠]. وقال سبحانه ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرّحمن : ١٥]:

(١) فبيّن فى الآية الأولى جنسه وأنّه ليس من الملائكة وإن كان موجودا معهم وبين صفوفهم.

(٢) وبيّن فى الثّانية طبيعة خلقه وأنّه مخلوق من نار.

وبيّنت أيضا من طريق التّلميح أنّه ليس من الملائكة لأنّ الملائكة خُلقت من نور لقول رسول الله ﷺ «خُلِقَت الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ[2]». فدلّ ذلك على اختلاف الأصل وتباين الجنس وعلى أنّه ليس من الملائكة، وقالت طائفة من العلماء : لـمّا جاء قول الله تعالى ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ نصب على الاستثناء المتّصل، دلّل ظاهره على أنّ إبليس كان من الملائكة على قول ابن عبّاس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيّب وقتادة رضى الله عنهم وهو ما رجّحه الطّبرى.

---

(١) انظر معارج التفكّر [ج ٥ ص ٦٦٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٦].

ويأتي تفصيل ذلك على ثلاثة أقوال :

(الأوّل) رغم أنّه من الملائكة فإنّ ذلك لا ينافى كونه من الجنّ ولهم فيه وجوه :

(١) أنّ قبيلة من الملائكة يُسَمَّون بذلك لقوله تعالى﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾[الأنعام: ١٠٠]. ويتأيّد ذلك بقول سعيد بن جبير رضي الله عنه [إنّ الجنّ سبط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم وخُلق سائر الملائكة من نور].

(٢) أنّ الجنّ سُمُّوا جنًّا للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون فى الجنّ.

(٣) أنّه كان خازن الْجَنَّة ونُسبَ إلى الجنّة كقولهم: كوفي وبصرى، وروى عن سعيد بن جبير رضي الله عنه [أنّه كان من الجنّانين الذين يعملون فى الجنّات فى حيّ من أحياء الملائكة يصوغون حُلِيَّةَ أهل الجنّة قد خلقوا]. كما يُروى عنه قوله « كَانَ إِبْلِيسُ مِنْ خَزَنَةِ الْجِنَّانِ(١) ».

وعن كريب عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال « إِنَّ مِنَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلَةً يُقَالُ لَهَا الْجِنُّ، وَكَانَ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا، وَكَانَ يُوَسْوِسُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَعَصَى فَسَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ فَمَسَخَهُ شَيْطَانًا رَجِيمًا(٢) ».

ومذهب المسلمين أنّ أحدا من الشّياطين لم يكن مأمورا بالسُّجود لكنّ أبوهم إبليس هو الذى كان مأمورا فامتنع وعصى :

* فجعله بعض النّاس من الملائكة لدخوله في الأمر بالسُّجود، فكشف بمعصيته أنّه ليس من صنف الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، فأخرجه الله وطرده من رحمته.

* وبعضُهم جعله من الجنّ لأنّ له قبيلا وذرّية، [ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور، والتّحقيق: أنّه كان من الملائكة باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله لا باعتبار مثاله(٣)].

(الثّانى) أنّه من الجنّ الذين هم الشّياطين والذين خُلقوا من نار وهو أبوهم.

(الثالث) أنّه كان من الملائكة فَمُسِخَ وَغُيِّرَ لما رُوى عن عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنه [كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلائِكَةِ فَلَمَّا عَصَى اللهَ غَضِبَ عَلَيْهِ فَلَعَنَهُ فَصَارَ شَيْطَانًا(٤)].

وأصل ما يدلّ على أنّه ليس من الملائكة :

---

(١) إسناده صحيح وأورده أبو الشّيخ فى كتاب العظمة [١١٤٠].

(٢) إسناده حسن وأخرجه الطّبرى [١٥ / ٣٥١].

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية [ج ٤ ص ٣٤٦].

(٤) أخرجه الطّبرى [١٥ / ١٦٩] والسّيوطى فى الدّر المنثور [٤ / ٢٢٦].

(١) الإجماع على أنّ الملائكة لا تتناكح ولا ذرّية لها ، ولـمّا كان لإبليس ذرّية دلّ على أنّه من غيرها .

(٢) ما احتجّ به بعضهم من أنّ إبليس له الشّهوة فقد رُكّبت فيه بعدما مُحيَ من ديوانهم كما حدثت الشّهوة من [هاروت وماروت] بعد أن أُهبطا إلى الأرض .

(٣) ما ذكره الطّبرى عن ابن عبّاس أنّ [إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ ، خلقوا من نار السّموم من بين الملائكة . قال : وكان اسمه بالعربية [الحارث] ، وكان خازنا من خُزّان الجنّة ، وخلقت الملائكة كلّهم من نور غير هذا الحىّ ، وخلقت الجنّ من مارج من نار وهو لسان النّار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت(١)] .

ممّا سبق يتبيّن لنا أصل إبليس وجنسه وطبيعة جبلّته ومادّة خلقه ، بما لا يدع مجالا للعقول أن تستنبط أو تستنتج أهو من الجن أم من الملائكة ، بعدما ظلّ يعبد الله معهم ويسبّح بحمده بينهم ويترقّى فى درجات العبادة حتّى بلغ الكتابُ أجله ، وانتهى من السّماء وجوده وعمله ، فكشف الله سرّه وهتك ستره وبيّن القرآنُ أمره حين قال له ربّه ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص : ٧٧ - ٧٨] .

حدوث الذّرية عن إبليس

اختُلف فى ذرّية إبليس التى هى من صلبه فأثبت بعض العلماء ذلك واستدلّوا عليه بقول الله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ . إلاّ أنّ الأدلّة التى تُؤيّد ذلك لا ترتقى إلى درجة الصّحيح ، ولأنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله تعالى أخبر فى كتابه أنّ لإبليس أتباعا وذرّية ، وأنّهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم ، ولم يثبت عند العلماء وجها فى كيفية التّوالد منهم ، وحدوث الذّرية عن إبليس فيتوقّف الأمر فيه على مسألتين :

(الأولى) أنّ الإيمان يقتضى التّصديق الكامل بأنّ للشّيطان ذرّية كما دلّت عليه الآية بكَيْفٍ مجهول لا يعلمه إلاّ الخالق سبحانه ، فالتّوقّف عند النّص فى ذلك أوجب .

(الثّانية) أنّ أمر حدوث الذّرية عن إبليس يتوقّف على [النّقل الصّحيح] ممّا جاءت به الشّريعة فلا يُقبل فيه نصّ ضعيف بحال .

حكمة خلق إبليس والشّياطين

سبق فى علم الله تعالى عند خلقه لإبليس أنّه سيكون سببا فى فساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وشقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الله تعالى ، وسيكون السّاعى

(١) أورده السّيوطى فى الدّر المنثور [٤ / ٢٢٦] .

إلى وقوع خلاف ما يحبّه الله ويرضاه بكلّ طريق وكلّ حيلة، فهو مبغوض من الله تعالى مغضوب ومسخوط عليه، وملعون وممقوت، ومع هذا فهو وسيلة إلى محابّ كثيرة لله تعالى ترتّبت على خلقه ووجودها أحبّ إليه من عدمها، ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون خلق إبليس مُحَقِّقًا لبعض المقاصد التى أشار إليها ابن القيّم عند بحثه لهذه المسألة فى كتابه [مدارج السّالكين(١)] فجاءت على النّحو التّالى:

(١) أن تظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادّات المتقابلات، فخَلَقَ هذه الذّات التى هى من أخبث الذّوات وشرّها وهى سبب كلّ شرّ، فى مقابلة ذات جبريل عليه السّلام التى هى من أشرف الذّوات وأطهرها وأزكاها بل هى مادّة كلّ فيض وخير، فتبارك الله خالق هذا وهذا.

(٢) كما ظهرت لهم قدرته التّامة فى خلق اللّيل والنّهار، والنّور والظّلام، والدّاء والدّواء، والحياة والموت، والحرّ والبرد، والحسَن والقبيح، والأرض والسّماء، والذّكر والأنثى، والماء والنّار، والخير والشّر، وهكذا تترى المتقابلات وبضدّها تتميّز الأشياء.

وذلك من أدلّ الدّلائل على تمام قدرة الخالق سبحانه وكمال عزّته وقوّة سُلطانه وعظمة مُلكه، فإنّه خلق المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلّط بعضها على بعض، وجعلها محلّ تصريفه وتدبيره وحكمته.

(٣) ومن أدلّ الدّلائل على كمال حكمته سبحانه ظهور آثار أسمائه مثل القهّار وذى الانتقام والعدل والضّار وشديد العقاب وسريع الحساب وذى البطش والرافع والخافض والمعز والمذلّ، فإنّ هذه الأسماء والأفعال: كمال، فلابد من وجود متعلّقها. ولو كان الخلق كلّهم على طبيعة الملَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

(ومنها): ظهور آثار أسمائه المتضمّنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقّه، وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى آثار هذه الأسماء لتعطّلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا بقوله «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا وَتَسْتَغْفِرُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ(٢)». وقوله ﷺ «إنَّ اللّهَ لَوْ شَاءَ أَنْ لاَ يُعْصَى مَا خَلَقَ إِبْلِيسَ(٣)».

(ومنها): ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنّه سبحانه «الحكيم الخبير» الذى يضع الأشياء فى مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشّىء فى غير

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ١٩٢].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٧ ص ١٧١].

موضعه ولا يُنزله غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الرّفع موضع الخفض ولا العزّ مكان الذّل، ولا الذّل مكان العزّ، ولا يأمر بما ينبغى النّهى عنه ولا ينهى عمّا ينبغى الأمر به.

فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ووصولها له، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو عُطلت تلك الأسباب ـ لما يتصوّر فيها من الشّر ـ لتعطّل الخير الذى هو أعظم من الشّر الذى فى تلك الأسباب، وهذا كالشّمس والمطر والرّياح التى فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشّر والضّرر.

(ومنها): حصول العبوديّة المتنوّعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلّها، فإنّ عبودية الجهاد من أحبّ أنواع العبوديّة إليه سبحانه، ولو كان النّاس كلّهم مؤمنين لتعطّلت هذه العبوديّة وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحبّ فيه، والبغض فيه، وبذل النّفس له فى محاربة عدوّه، وعبوديّة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وعبوديّة الصّبر ومخالفة الهوى، وإيثار محابّ الله تعالى على محابّ النّفس.

(ومنها): عبوديّة مُخالفة عدوّه ومراغمته فى الله تعالى وإغاظته فيه، وهى من أحبّ أنواع العبوديّة إليه، فإنّه سبحانه يحبّ من وليّه أن يغيظ عدوّه ويراغمه ويسوءه، وهذه عبوديّة لا يتفطّن لها إلاّ الفضلاء.

(ومنها): أنّ عبيده يشتدّ خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلّ بعدوّه بمخالفته وسقوطه من مرتبة الملائكيّة إلى المرتبة الشّيطانيّة، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك، وأنّهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذى حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتّبة على مخالفته.

(ومنها): أنّ الطّبيعة البشرية مشتملة على الخير والشّر والطّيب والخبيث، وذلك كامن فيها كُمُون النّار فى الزّناد، فخلَق الشّيطان مستخرجا لما فى طبائع أهل الشّر من القوّة إلى الفعل، وأرسلت الرّسل لتستخرج ما فى طبيعة أهل الخير من القوّة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما فى قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتّب عليه آثاره، وما فى قوى أولئك من الشّر ليترتّب عليه آثاره، وتظهر حكمته فى الفريقين وينفذ حكمه فيهما.

ولـمّا ظنّت الملائكة أنّ وجود من يسبّح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود

من يعصيه ويخالفه بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. أجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع مالا تعلمه الملائكة بقوله في التنزيل﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومن معاني هذا النص القرآني الكريم أنّ الله تعالى بعلمه وإرادته وحكمته استخلف آدم وذرّيته للابتلاء والاختبار بأعمالهم في الأرض، وهو أعلم بكلّ منهم من علم أي منهم بنفسه، وأنّ أبانا آدم عليه السّلام استخلف ذرّيته على التّوحيد الكامل لله سبحانه وعلى الفهم الصّحيح لرسالة الإنسان في الحياة، شاهدا لجلاله سبحانه بالألوهيّة والرّبوبيّة والخالقيّة والوحدانيّة المطلقة فوق جميع خلقه، وبالتّنزيه الكامل عن جميع صفات خلقه، وعن كلّ وصف لا يليق بجلاله من مثل ادّعاء الشّريك أو الشّبيه أو المنافس أو الصّاحبة والولد فتعالى سبحانه عمّا يقولون علوًّا كبيرا.

(ومنها): أنّ ظهور الكثير من آيات الخالق سبحانه وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشّر في النّفوس الكافرة الظّالمة، كآية الطّوفان، وآية الرّيح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النّار على إبراهيم عليه السّلام بردا وسلاما، والآيات التي أجراها سبحانه على يد موسى عليه السّلام، وغير ذلك من الآيات الباهرات التي لولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت وتحدّث بها النّاس جيلا بعد جيل وحتّى تقوم السّاعة.

وبالجملة فإنّ العبوديّة المطلقة للخالق سبحانه والآيات والعجائب التي ترتّبت على خلق ما لا يحبّه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته أحبّ إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها[1]].

ضياع إبليس بين خيرية النّار والطّين

لـمّا ظهرت مكانة آدم عليه السّلام بقول ربّه تعالى﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾. عرف الجميع فضله إلاّ الحاسد اللّئيم الذي حاول أن ينتقص من قيمته ومكانته، ويقلّل من شأنه ويحط من درجته، فأبى أن يسجد له ضمن السّاجدين وردّ الأمر على ربّ العالمين، ولم يجد لذلك علّة يتعلّل بها أو معذرة يتأسّف من خلالها إلاّ أن يقول﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

وهذا ما هداه إليه جهله عندما وازن بين النّار والطّين، ثمّ يخرج بعد ذلك من هذه الموازنة بأنّ النّار أرقى من الطّين، إنّه تعلّل بأنّ النّار التي خُلق منها أشرف من الطّين لعلوّها وصعودها وخفّتها ولأنّها جوهر مضيء، ولكن عدوّ الله أخطأ من حيث فضل النّار على الطّين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق إذ أنّ جوهر الطّين أرقى من

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ١٩٨].

النّار، فالطّين يُوصف بالرّزانة والخشوع والتّؤدة والرّوية والانشقاق والإنبات: تُعطيه بذرة يُعطيك شجرة، أمّا النّار فإنّك تُعطيها السّليم تُعطيك الحطيم.

وأفضليّة الطّين على النّار تأتى بعد ذلك من عدّة وجوه [(١)]:

(الأوّل) أنّ من جوهر الطّين الرّزانة، والسّكون، والوقار، والأناة، والحلم، والحياء، والصّبر، وذلك هو الدّاعى لآدم عليه السّلام بعد السّعادة التى سبقت له إلى التّوبة والتّواضع والتّضرّع، فأورثه ربّه تعالى المغفرة والاجتباء والهداية.

(الثّانى) أنّ من جوهر النّار الخفّة والطّيش والحدّة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الدّاعى لإبليس بعد الشّقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار فأورثه الهلاك والعذاب واللّعنة والشّقاء.

(الثّالث) أنّ التّراب إذا وضع فيه الحَبّ أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته أنّه يؤدّى ما استودعته فيه إليك مضاعفا، ولو استودعته النّار لخانتك وأكلته فهى لا تُبقى ولا تَذر، وكما جاء وصفها فى القرآن ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾.

(الرّابع) أنّ النّار وإن حصل منها بعض المنفعة والمتاع إلاّ أنّ الشّر كامن فيها لا يصدّها عنه إلاّ قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرْث والنّسل، أمّا التّراب فالخير والبركة كَامِنَانِ فيه، كلّما أُثيرَ وقُلِّبَ ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

(الخامس) أنّ الله تعالى أكثر ذكر الأرض فى كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنّه سبحانه جعلها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا أو كِفَاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التّفكير فيها والنّظر فى آياتها وعجائبها وما أودع فيها، ولم يذكر النّار إلاّ فى معرض العقوبة والتّخويف والعذاب.

(السّادس) أنّ الله تعالى وصف الأرض بالبركة فى غير موضع من كتابه وأخبر أنّه بارك فيها عموما فقال﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصّلت: ١٠]. أمّا النّار فلم يخبر سبحانه أنّه جعل فيها بركة أصلا بل المشهود أنها مُذْهِبَةٌ للبركات مَاحِقَةٌ للخيرات.

(السّابع) أنّ الشّيطان اللّعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطّين ترابا ممتزجا بماء فاحتقره ولم يعلم أنّ الطّين مركّب من أصلين عظيمين:

(أوّلهما) الماء الذى جعل الله تعالى منه كلّ شيء حيّا.

(والثّانى) التّراب الذى جعله خزانة المنافع والنّعم للعباد.

(١) انظر أكام المرجان للشّبلى [ص ١٧٣ - ١٧٤].

فلو تجاوز نظر اللّعين صورة الطّين إلى مادّته ونهايته لرأى أنّه خير من النّار وأفضل، ثمّ لو سلّم بطريق الفرض الباطل أنّ النّار خير من الطّين، لم يلزم بكون المخلوق من الأفضل أفضل، فإنّ الفرع قد يختصّ بما لا يكون في أصله، فإنّ القادر على كلّ شيء يخلق من المادة المفضولة ما هو خير ممّن خلقه من المادة الفاضلة، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله على أصله حجّة فاسدة احتجّ بها إبليس، وهي حجّة الذين يحتجّون بأنسابهم وقد قال النّبي ﷺ «ومَنْ بَطَّأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ[1]». وفي رواية ابن ماجه «ومَنْ أَبْطَأَ به عَمَلُهُ». أي من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال لاتّكاله على شرف النّسب وركونه إلى فضيلة الأباء والأجداد.

وآدم وإن كان مخلوقا من طين فقد حصل له بنفخ الرّوح المقدّسة فيه ما شرُفَ به. فلهذا قال الله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩]. فعلّق السّجود بأن ينفخ فيه من روحه، فالموجب للتّفضيل هذا المعنى الشّريف الذى ليس لإبليس مثله. فالاعتبار بكمال النّهاية لا بنقص المادة، واللّعين بقوله [أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ لم يتجاوز نظره محل المادّة ولم يعبر منها إلى كمال الصّورة ونهاية الخلقة. (قال) ابن عبّاس رضي الله عنهما [كانت الطّاعةُ أَوْلَى بإبليس من القياس فعصى ربّه تعالى، وهو أوّل من قاس برأيه والقياس في مخالفة النّص مردود[2]].

كيف يعذّب إبليس بالنّار وهو مخلوق من النّار؟

[من المعلوم أنّ الله سبحانه خلق إبليس والجنّ من النّار كما ذكر حكاية عن إبليس ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقوله تعالى﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر: ٢٧]. ومن المعلوم أيضا أنّ الله سيعذب إبليس ومن اتبعه بالنّار لقوله تعالى﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٥].

ولمّا كان من المعلوم أنّ للعذاب ألما يُؤثّر في الجسم وذلك يظهر في المخالفة بين طبيعة الجسم والأداة التي يكون بها العذاب، فكيف يحسّ الشّيطان بعذاب النّار وطبيعته لا تختلف عن طبيعتها لكونه مخلوق منها؟. ويُجاب عن ذلك بما يأتي:

(١) أنّ الله سبحانه قادر على أن يُحوّل طبيعة الشّيطان حتّى يحسّ بعذاب النّار، ذلك أنّ الشّيطان قد يتشكّل بأشكال تحكم عليه طبيعتها لا طبيعته، فهو يسكن في الأماكن التي لم يُذكر اسم الله تعالى فيها، ويدخل البيوت التي لم يسمّ صاحبها عند دخوله إليها كما جاءت بذلك الأحاديث الصّحيحة.

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩]. (٢) انظر تفسير القرطبي [ج ٧ ص ١٧١].

ومع ذلك لم تُحرق هذه الأشياء التي يتّصل بها، وقد ثبت أنّ الشّيطان تفلّت على النّبي ﷺ في صلاته يريد أن يُفسدها فخنقه النّبي ﷺ وأحسّ ببرد لسانه على يده الشّريفة كما جاء في بعض الرّوايات، فلو بقي الشّيطان على طبيعته النّارية لأحرقت ما مسّته يده، وآدم مع أنّه خُلق من طين إنّما جُعلت لطبيعته خصائص تخالف خصائص الطّين ما دامت روحه فيه، فلا يمكن غرس شجرة في جسم الإنسان كما تُغرس في الطّين هكذا!.

(٢) يجوز أن يجعل الله تعالى من النّار نفسها نوعا أقوى من النّار التي خُلق منها إبليس فيحسّ بعذابها إذا دخلها، والنّار نفسها درجات بعضها أشدّ من بعض.

(٣) ليس كلّ العذاب في النّار إحراقا للجسم وإيلاما له بسببها، ففيها حيّات وعقارب ومقامع من حديد يُضرب بها المعذّبون فيها، وفيها سلاسل وقيود، وفيها شجرة الزّقوم التي قال الله تعالى فيها ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الدّخان: ٤٣ - ٤٥]. وقوله تعالى ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصّافّات: ٦٤ - ٦٥].

ولمّا كانت ألوان العذاب كثيرة ومتعدّدة فإنّه يجوز أن يجعل الله منها للشّيطان ما يحقّق الغرض من تعذيبه، ومهما يكن من شيء فإنّ قوانين الآخرة غير قوانين الدّنيا، وما دام الله سبحانه قد حكم بالعذاب على الشّيطان فسيتحقّق العذاب بالصّورة التي يراها الخالق سبحانه بعدله وحكمته[١]].

جواز لعن إبليس أثناء الصّلاة

جاء قول النّبي ﷺ عند مسلم من حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه «إنّ عَدُوَّ الله إبْليسَ جَاءَ بشِهَابٍ مِنْ نَارٍ ليَجْعَلَهُ في وَجْهي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بالله منْكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَالله لَوْلا دَعْوَةُ أَخينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ به وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدينَةِ[٢]». ولأحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه «فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِه بَيْنَ إصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ[٣]».

ومعنى قوله «أَعُوذُ بالله منْكَ»: أي أستتر وألتجيء في كفايته إياي منك، وأصل اللّعن في قوله «أَلْعَنُكَ بلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ»: الطّرد والبُعد ومعناه أسأل الله أن يلعنه بلعنته، وفيه دليل على جواز الدّعاء على غيره بصيغة المخاطبة، وقوله «التّامة» يحتمل وجهين:

(أحدهما) أنّها الكاملة الموجبة عليه العذاب سرمدا.

---

(١) انظر فتاوى الشّيخ عطية صقر [ج ١ ص ٣٠٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤٢].

(٣) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١١٧١٩].

(والثّانى) المستحقة عليه كما فى قوله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. أى حقت ووجبت، ولم يقصد ﷺ مُخاطبة الشّيطان فلم يكن مُتكلّماً فى الصّلاة، وإنّما كان مُتعوّذا بالله تعالى كما جاء فى قوله «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ».

أمّا قوله «وَاللهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ» ففيه جواز الحلف من غير استحلاف؛ لتفخيم ما يخبر به الإنسان وتعظيمه والمبالغة فى صحّته وصدقه، ومقصوده: أنّ مِلْك الجنّ والتّصرّف فيهم بالقهر ممّا خُصّ به سليمان وسبب خصوصيّته دعوته التى استجيبت له حيث قال ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥].

(٢) العفريت من الجنّ

ذُكر مُسمّاه فى كتاب الله مرّة واحدة فى قوله تعالى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[النّمل: ٣٩]. وجاء فى قراءة رُويت عن أبى بكر رضي الله عنه قَالَ «عِفْرِيَةٌ». وحُكى عن ابن عطيّة «قَالَ عِفْرٌ» بكسر العين. و[عِفْرِيتٌ] على وزن [فعْليتٌ] والتّاء فيه زائدة من [عِفْرٌ وعِفْرِيَةٌ وَعِفْرِيتٌ].

[والعفريت المذكور فى الآية كان أحد الملأ الكبار من جلساء سليمان الذى يبدو أنّه بعطاء خاص من ربّه تعالى كان يرى الجنّ ويصطفى الأخيار منهم لمجالسه، فكان يراهم فيها فى الوقت الذى لا يراهم غيره من الجلساء، وكان يسمع أحاديثهم وأسئلتهم فى حين لا يسمعها الآخرون(١)].

والعفريت هو الخبيثُ المنكَرُ والمحتال الذى ينفّذ أمره فى دهاء ومكر وخبث، ويُطلق على المتمرّد من الجنّ والإنس أيضا. وقيل عفريت: أى رئيس، والعفريت من الرّجال الخبيث الذى يعفّر أقرانه، وتَعَفْرَتَ الرَّجُلُ إذا تخلّق بخُلُق الإذاية، والعفريت من الشّياطين الخبيث المارد، وهو من أقوى الجنّ. (قال) أبو عبيدة: [الْعِفْرِيتُ] من كلّ شىء: [الْمُبَالِغُ] يقال: فُلانٌ عِفْرِيتٌ نِفْرِيتٌ، وفى الحديث «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْعِفْرِيَةَ النِّفْرِيَةَ، الَّذِى لاَ يُرْزَأُ فِى أَهْلٍ وَلاَ مَالٍ». وَالْعِفْرِيَةُ فيه الدَّاهِيَةُ(٢)]. وورد فى اسم العفريت المذكور فى الآية أسماء عدّة نذكر منها عن وهب بن منبّه: [كَوْذَنٌ]. وما ذُكر عن السُّهَيلىّ أنّ اسمه [ذَكْوَانٌ]. وجاء عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه [صَخْرُ الْجِنِّىّ(٣)].

وجاء مسمّاه فى قوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَىَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَىَّ الصَّلاَةَ فَأَمْكَنَنِى اللهُ مِنْهُ فَدَعَتُّهُ». وفى رواية «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَىَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَىَّ صَلاَتِى فَأَمْكَنَنِى اللهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى

(١) انظر معارج التّفكّر [ج ٥ ص ٥٢٩]. (٢) انظر مختار الصّحاح [ص ١٨٥]. (٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٣ ص ٢٠٣].

سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ . قال فَرَدَّهُ الله تعالى خَاسِئًا[١]». أى ذليلاً صاغراً مطروداً مبعداً، وقوله «تفَلَّتَ عَلَيَّ» أى تعرّض لى بغتة، . وجاء فى رواية شعبة «عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ لِيَقْطَعَ الصَّلاَةَ عَلَيَّ[٢]».

وفهم أهل العلم من هذه النّصوص أنّه كان حين عرض لـه غير متشكّل بغير صورته الأصلية، وقالوا [إنّ رؤيـة الشّيطان على صورته التى خُلِق عليها خاصّ بالنّبى ﷺ أمّا غيره من النّاس فلا يرونه على صورته لقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾[٣]]. واستدلّ الخطّابى بهذا الحديث [على أنّ أصحاب سليمان عليه السّلام كانوا يرون الجنّ فى أشكالهم وهيئاتهم حال تصرّفهم[٤]].

(٣) الشّيطان الرّجيم

الشّيطان رُوحٌ شرّيرٌ مُغْوٍ ومُتَمَرِّدٌ مُفْسِدٌ، أخبر القرآن بأنّه [عَدُوٌّ مبين] كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف:٥]. وخبره حقّ وصدق والواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى أبان عداوته من زمن آدم وبذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال الخلق، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال فى التّنزيل الحكيم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأنعام:١٤٢]. وهذا غاية فى التّحذير ومثله فى القرآن كثير[٥]].

والشّياطين هم كفرة الجنّ وفسقته، وولد إبليس ومردته، وهم أعتاهم وأغواهم، ينفذون بين يديه فى الإغواء والتّضليل، وأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للنّاس لقوله ﷺ من حديث جابر «يَبْعَثُ الشَّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً[٦]». وجاء فى رواية «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ. قَالَ الأَعْمَشُ: أُرَاهُ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ[٧]». أى يضمّه إلى نفسه

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤١].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢١٠].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٦١].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٥٣٠].

(٥) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٢٠٩].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٨ / ٢٨١٣].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٣].

ويعانقه ويمدحه لإعجابه بصنعه وبلوغه الغاية التى أرادها منه.

مسمّى الشّيطان فى تعريف اللّغة

والشّيطان واحد الشّياطين على التّكسير ونونه أصلية وقيل زائدة: فإن جعلته فَيْعَالاً من قولهم [تَشَيْطَنَ] الرَّجُلُ صَرَفْتَهُ، وإن جعلته من [تَشَيَّطَ] لم تَصْرِفْهُ لأنّه فَعْلَانُ، ويأتى تفصيل [القولين[1]] على النّحو التّالى:

(الأوّل) أنّه مُشتقّ من الشَّطْنِ بمعنى المُبْعَد عن رحمة الله، ووزنه: فيعال من [شَطَنَ] يَشْطُنُ: إذا بَعُدَ، ويقال فيه شَاطِنٌ وتَشَيْطَنَ، وشَطَنَتْ دَارُهُ أى بَعُدَتْ؛ وبِئْرٌ شَطُونٌ: أى بَعِيدَةُ الْقَعْرِ. والشَّطَنُ: الْحَبْلُ، سُمِّى به لبُعْد طَرَفَيْه وامتداده، وسُمِّى الشَّيْطَانُ [شَيْطَانًا] لبُعْده عن الْحقّ وتمرّده عليه، وذلك أنّ كُلَّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجنّ والإنس والدّواب شيطان كما فى قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[الأنعام:١١٢]. فجعل من الإنس شياطين كما جعل من الجنّ شياطين. وركب عمر رضي الله عنه [بِرْذَوْنًا[2]] فَطَفِقَ يتبخترُ به فجعل يضربه فلا يزداد إلاّ تبختُرا فنزل عنه وقال «مَا حَمَلْتُمُونى إلاَّ عَلَى شَيْطَانٍ».

(والثّانى) بمعنى المُهْلَك بعذاب الله تعالى، مأخوذ من [شَاطَ] يشيط شياطا إذا هلك هلاكا، وشاط إذا احترق، وشيطت اللّحم إذا دخنته ولم تنضجه، واشتاط الرّجل إذا احتدّ غضبا واشتاط إذا هلك. وسُمِّىَ كلّ متمرّد بذلك لبُعد غوره فى الشّر، فالمتمرّد هالك بتمرُّده، ويجوز أن يكون قد سُمِّىَ بفعلان لمبالغته فى إهلاك غيره، أمّا الرّجيم فمعناه [الْمَرْجُومُ] فهو فعيل بمعنى مفعول.

ثمّ جاء فى كون الشّيطان «مرجوما» قولان:

(الأوّل) أنّ كونه مَرْجُومًا لكونه مَلْعُونًا من قِبَلِ الله تعالى كما فى التّنزيل الحكيم ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[الحجر:٣٤]. واللّعن يُسَمَّى رجما، وحكى الله عن والد إبراهيم عليه السّلام ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦]. قيل عنى به الرّجم بالقول.

(الثّانى) أنّ الشّيطان إنّما وُصف بكونه مَرْجُومًا لأنّ الله تعالى أمر الملائكة برمى الشّياطين بالشّهب والثّواقب، طردًا لهم من السّموات ثمّ وصف بذلك كلّ شرّير متمرّد.

أمّا قول الله تعالى ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الصّافات:٦٥]. فقد جاء فى تفسيره

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١ ص ٧١ - ٧٢].

(٢) الْبِرْذَوْن يُطلق على غير العربى من الخيل والبغال من الفصيلة الخيلية عظيم الخِلْقَة غليظ الأعضاء قوى الأرجل ضخم الحوافر وجمعه بَرَاذين.

ثلاثة أوجـه:

(أحدها) أنّه شبّه طَلْعَهَا في قُبْحه برءُوس الشّياطين لأنّها مَوْصُوفَةٌ بالقُبح، ورءوس الشّياطين متصوّرة في النّفوس وإن كانت غير مرئيّة، ومن ذلك قولهم لكلّ قبيح هو كصورة الشّيطان، وقد تقرّر في اللّسان أنّ من قال «فُلانٌ شَيْطَانٌ». أراد أنّه خبيث أو قبيح.

(الثّاني) أنّ العرب تُسَمّي بعض الحيّات شيطانا لقول الزّجّاج: [الشّياطين حيّاتٌ لها رءوس وأعْرَاف وهي من أقبح الحيّات وأخبثها وأخفّها جسما[1]].

(الثّالث) أنّه نبت قبيح يسمّى رءوس الشّياطين.

ومّما جاءت به السُّنّةُ من مسمّى لبعض الشّياطين:

(١) ما روى عن هذا الذي كان يحول بين عثمان بن أبي العاص وبين صلاته وقراءته يُلْبِسَها عليه فاشتكي ذلك للنّبي ﷺ فقال له «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فإذا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ باللهِ منهُ وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاثًا، قالَ فَفَعَلْتُ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنّي[2]». وهو بالحاء المهملة وبفتحها عند الجَيَّاني وبكسرها عند الصَّدفيّ، وفي القاموس المحيط [ص١٠٥]: خَنْزَبٌ [بالفتح] شيطانٌ، والْخُنْزُوبُ [بالضَّمّ] والْخِنْزَابُ [بالكسر]: الْجَرِىءُ عَلَى الفُجُورِ، ويُسمّى الشّيطان «خِنْزَبًا» لأنّه يتراءى غليظا قصيراً.

(٢) ما جاء في المستدرك عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النّبي ﷺ «إنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَانًا يُسَمَّى [الْوَلْهَانُ] فَاحْذَرُوهُ وَاتَّقُوا وَسْوَاسَ الْمَاءِ[3]». وجاء هذا المسمّى في اللُّغة من وَلَهَ يَلِهُ وَلْهًا وَلَهًا فَهُوَ وَالِهٌ وَوَلْهَانُ: اشتدّ حزنُهُ حتّى كاد يذهب عَقْلُهُ. [أو: أَوْلَهَهُ الْحُزْنُ: حَيَّرَهُ وَأَذْهَبَ عَقْلَهُ[4]].

ما تضمّنته الآيات المباركات من لفظة «شيطان»

تضمّنت الآيات الكريمات في كتاب الله تعالى لفظة [الشَّيْطَان]: ٨٨ (ثمان وثمانين) مرّة نورد تفصيلها على النّحو التّالي:

(١) جاء مسمّى [الشَّيْطَانُ] فيها (٦٨ مرّة) منها: (٣٤) بالضّم كما في قوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. و(١٠) بالفتح كما في قوله جلّ شأنه ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف ٢٢]. و(٢٤) بالكسر كما في قوله سبحانه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: ٧٦].

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ١٥ ص ٦٥] وفتح الباري [ج ١٠ ص ٢٤١].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٣].
(٣) أخرجه الحاكم [٥٩٢] وأورده الذّهبي في التّلخيص.
(٤) انظر المعجم العربي لاروس [ص ١٣٣٣].

(٢) وذُكر لفظ [الشَّيَاطِينُ] بالجمع (١٧) مرّة منها (٤) بالضّم كما فى قوله تعالى ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[البقرة:١٠٢]. و(٨) بالفتح كما فى قوله جل شأنه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[البقرة:١٠٢]. و(٥) بالكسر كما فى قوله جلّ شأنه ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[الأنبياء:٨٢].

(٣) ثمّ تأتى كلمة [شَيْطَانًا] مرّتين الأولى: فى قوله تعالى﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[النّساء:١١٧]. والثّانية: فى قوله تعالى﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزّخرف:٣٦].

(٤) وتنفرد كلمة [شياطينهم] بورودها مرّة واحدة فى التّنزيل الحكيم كما فى قوله تعالى﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[البقرة:١٤[(١)]].

ويتعلّق الجانب الوصفى عن هذه المخلوقات بأمرين:

(الأوّل) أنّهم يروننا من حيث لا نراهم

وقد جاء بيان ذلك فى قوله تعالى﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]. أى أنّ الذى يراكم هو إبليس وقبيله الذين هم أصحابه وجنده، (قال) اللّيث [هو وقبيله] أى هو ومن كان من نسله، وفى رؤيتهم للإنس أمران:

(الأوّل) أنّهم يرون الإنس لأنّ الله تعالى خلق فى عيونهم إدراكًا لم يخلق فى عيون الإنس كما فى قوله تعالى﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾.

(الثّانى) أنّ رقّة أجسامهم ولطافتها لا تمكّن الإنس من رؤيتهم، أمّا رؤيتهم للإنس فسببها كثافة أجسام الإنس.

أمّا رؤية الجنّ بعضهم بعضا فإنّها تقوم على أنّ الله تعالى يقوّى شعاع أبصار الجنّ ويزيد فيه، ولو زاد الله فى قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضا، ولو أنّ الله تعالى كثّف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم، فعلى هذا فإنّ رؤية الإنس للجنّ تكون موقوفة إمّا على زيادة كثافة أجسام الجنّ أو على زيادة قوّة أبصار الإنس [(٢)].

أمّا قوله تعالى﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. ففيه الدّلالة على أنّهم لا يُرَوْنَ لأنّ الله خلقهم خَلْقًا لا يُرَوْنَ فيه لعدم قدرتهم على تغيير خلقهم والانتقال فى الصّور، وإنّما يُرَوْنَ إذا نُقلوا عن صورهم الّتى خلقهم الله تعالى عليها بواحد من أمرين:

(الأوّل) إنّما يجوز أن يعلمهم الله تعالى ضربا من ضروب الأفعال إذا فعله كان

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم [ص ٣٨٢].

(٢) انظر تفسير الفخرالرّازى [١٤ / ٥٨].

قادرا على التّصوير والتّخييل.

(الثّانى) أو أن يسوق الله تعالى إليهم كلاما إذا تكلّموا به نقلهم من صورة إلى صورة.

(الثّانى) انتقالهم إلى غير صورهم

يستطيع الشّيطان أن ينتقل عن صورته التي هو عليها إلى صورة الإنس أو إلى صورة أخرى كما جاء في بعض الرّوايات على النّحو التّالى:

(أ) تمثّل الشّيطان فى صورة سُراقة بن مالك

لمّا عزمت قريش المسير إلى [بدر] ذكرت ما بينها وبين بنى بكر من الحرب [فكاد ذلك أن يُثنيهم عن الخروج لملاقاة المسلمين، فتبدّى لهم [إبليس] في صورة سُراقة بن مالك الْمُدلّجى وكان من أشراف بنى كنانة، فقال لا غالب لكم اليوم من النّاس، وإنّى جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا والشّيطان جارٌ لهم لا يفارقهم، ثمّ جاءهم في جند من الشّياطين ومعه راية في صورة رجال من بنى مُدلّج وألقى في قلوبهم أنّهم لن يُهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم[1]].

فلمّا دنا العدوّ وتواجه القوم وحَمِيَ الوطيسُ واشتدّ القتال «نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَثُمَائَة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْه فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبّه: اللَّهُمَّ أَنجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ..».

«..فَمَا زَالَ ﷺ يَهْتِفُ بِرَبّه، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاءُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِه وَقَالَ: يَانَبِيَّ اللهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قوله:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٩ ـ ١٠]. فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلاَئِكَةِ[2]». وقوله «كَذَاكَ مُنَاشَدَتَكَ» من معنى الفعل من الكفّ.

وعندما استدارت رَحَى الحرب وتلاحمت الصّفوف، أخذ رسول الله ﷺ ملْءَ كَفِّه من الحصباء فرَمَى بِهَا وُجُوهَ الْعَدُوِّ، فَلَمْ تَتْرُكْ رَجُلاً مِنْهُمْ إِلاَّ مَلأَتْ عَيْنَيْه، وشُغِلُوا

(١) انظر دلائل النّبوّة للبيهقى [٢ / ٣٥٤].

(٢) أخرجه مسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٢٦٩٠] والتّرمذى [٣٠٨١].

بالتُّراب في أعينهم وشُغلَ الْمُسْلمُونَ بقتلهم، فأنزل الله تعالى في شأن هذه الرّمية قوله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال: ١٧].

وجاء في الآية عن حكيم بن حزام قال «لـمّا كَانَ يومُ بدرٍ أمرَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَخَذَ كَفًّا من الْحَصَى بيَده، ثُمّ خرجَ فاستقبلَ القومَ فقالَ: شَاهَت الْوُجُوه، فانهزمْنا فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾. وعن ابن عبّاس أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال لعلي «نَاوِلْنِي كَفًّا من حَصًى، فَنَاوَلَهُ فرمَى به وُجُوهَ الْقَوْم، فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ من الْقَومِ إلاَّ امْتَلأَتْ عَيْنَاهُ من الْحَصْبَاء فنزلَتْ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾(١)». وفي الآية الكريمة أثبت الله تعالى ابتداء الرّمي لنبيّه ﷺ ونفى عنه الإيصال الذى لم يحصل برميته، «فالرّمي» يُراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيّه ﷺ الحذف ونفى عنه الإيصال.

ثمّ جاء النّصر المؤزّر وأنزل الله جنده وأيّد رسوله والمؤمنين ومنحهم أكتافَ المشركين أسراً وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، ولـمّا رأى إبْليسُ مَا تَفْعَلُ الْمَلائكَةُ بالْمُشْرِكينَ يومَ بَدرٍ أشْفَقَ أنْ يَخْلُصَ الْقَتْلُ إِلَيْه، فَتَشَبَّثَ به الْحَارِثُ بْنُ هشَامٍ وَهُوَ يَظُنُّهُ «سُرَاقَةَ بْنَ مَالك» فوكَزَ في صَدْرِ الْحَارث فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ خَرجَ هَارِبًا حَتّى أَلْقَى نَفْسَهُ في الْبَحْرِ وَرَفَعَ يدَيْه وَقَالَ: اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَظْرَتَكَ إِيَّايَ!! وَخَافَ أَنْ يَخْلُصَ إِلَيْه الْقَتْلُ، فَأَقْبَلَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: يَامَعْشَرَ النَّاسِ! لاَ يَهْزِمَنَّكُمْ خذْلاَنُ سُرَاقَةَ إِيَّاكُمْ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى ميعَادٍ من مُحَمَّدٍ ﷺ(٢)».

فأوردهم اللّئيم المورد الذى خيّل إليهم أنّ فيه النّصر لهم، ثمّ أسلمهم بعد ذلك للهزيمة والانكسار عندما رأى كتائب الملائكة وقد أيّد الله بها رسوله الأكرم ﷺ والمؤمنين فنكَص على عقبيه كما في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنفال: ٤٨].

يقول المفسّرون: إنّ إبليس في مقولته هذه صَدَقَ وكَذَبَ في آن واحد:

(١) صدق في قوله ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ عند رؤيته لجبريل يمشي بين يدى النّبي ﷺ ومعه ألف من الملائكة مردفين، يُرتّبهم ويُسوّيهم ويَصُفُّهم للحرب لما ذكره مالك عن طلحة ابن عبيد الله أنّ رسول الله ﷺ قال «مَا رُئِيَ الشّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فيه أصْغَرُ، وَلاَ أَحْقَرَ وَلاَ

(١) قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٨٤ و ٨٧]: رواه الطّبراني ورجاله رجال الصّحيح.

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٣ ص ١٨٤].

أدْحَرُ، وَلاَ أَغْيَظُ مِنْهُ فِى يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا أُرِىَ مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلاَّ مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ، قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ[1]» . أى يرتّبهم ويصفّهم للحرب، وقيل إنّه رأى أثر النّصرة والظّفر فى حقّ النّبى ﷺ فعلم أنّه لو انتظر لنزلت عليه صاعقة من السّماء.

(٢) وكذب فى قوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾. لمّا رأى الملائكة ينزلون من السّماء فخاف أن يكون الوقت المعلوم الذى أنظر إليه قد حضر فقال ما قال إشفاقا على نفسه وهروبا من الموقف الصّعب الذى وجد نفسه فيه، وقالت طائفة إنّما خاف بطش الله تعالى به فى الدّنيا كما يخاف الفاجر والكافر أن يُقتل أو يُؤخذ بجُرمه، لا أنّه خاف عقابه فى الآخرة، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانا ولا نجاة. و(فيه قال) الْكُلْبِىُّ [خاف أن يأخذه جبريل فيعرّفهم حاله فلا يطيعونه].

(قال) قتادة وابن إسحاق [صدق عدوّ الله فى قوله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾. وكذب فى قوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾. والله ما به مخافة لله تعالى ولكن علم أنّه لا قوّة له ولا مَنَعَةَ فأوردهم مورد الخسار وأسلمهم للهزيمة والهلاك، وكذلك عادة عدوّ الله تعالى بمن أطاعه وسلك سبيله وغيّه].

وكان لتغيير صورة إبليس إلى صورة سُراقة عدّة نتائج منها:

(أوّلا) أنّ هذا كان معجزة عظيمة للنّبى ﷺ لقول كفّار قريش عند رجوعهم إلى مكّة: أنّ سُراقة قد هزم! فلمّا بلغ سُراقة ذلك قال [والله ما شعرت بمسيركم حتّى بلغتنى هزيمتكم]. فعند ذلك تبيّن للقوم أنّ هذا الشّخص ما كان سُراقة بل كان شيطانا، خصوصا أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ فِى كُلِّ مَنْزِلٍ فِى صُورَةِ [سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ] لاَ يُنْكِرُونَهُ، وإذا كان قد أُضيف إلى الشّيطان هذا العمل فى واقعة بدر على وجه الخصوص وتغيّرت صورته فيها إلى صورة بشر فإنّ هذا التّغيير لم يقع عليه فى غير هذه المرّة.

(ثانيا) أنّ الله تعالى لمّا غيّر صورة الشّيطان إلى صورة البشر فما بقى إنسانا، وإنّما رجع إلى صورته الأولى بعدما فرّ من ميدان المعركة، لأنّ الإنسان إنّما كان إنسانا بجوهر نفسه النّاطقة، ونفوس الشّياطين مُخالفة لنفوس البشر فلم يلزم من تغيير الصّورة تغيير الحقيقة.

(ثالثا) رغم كثرة الكفّار فى العدد الذى كان يُؤهّلهم للغلبة والنّصر إلاّ أنّ إبليس قال لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. فبنى هذه المظنّة على واحد من أمرين:

(١) أخرجه مالك مُرسلا [٩٣٧] وهو متصل عن أبى الدرداء عند الحاكم فى [المستدرك]. وقوله «أدْحرُ»: أى أبعد عن الخير - انظر تفسير القرطبى [ج ٨ ص ٢٦].

(١) أنّه لـمّـا رأى الرّعب قد تملّك قلوب الكفّار لما شاهدوه من تزايد قوّة المسلمين ونصرة الله تعالى لهم أراد إبليس أن يزيل الخوف والرّعب من قلوبهم.

(٢) أو أنّه أراد بهذا القول أن يؤمّنهم من شرّ بنى بكر خصوصا وقد تصوّر بصورة زعيم منهم وقال لهم ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. والمعنى: إنّى إذا كنت وقومى ظهيرا لكم فلا يغلبكم اليوم أحدٌ من النّاس [(١)].

وإذا كان الشّيطان قد تمثّل للمشركين عند خروجهم إلى بدر فى صورة سُراقة بن مالك فكذلك فعل بالرّاهب الذى قتل المرأة وولدها [أمره بالزّنا ثمّ بقتلها، ثمّ دلّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثمّ أمره بالسّجود له، فلمّا كفر فرّ عنه وتركه(٢)]. وفيه أنزل الله تعالى قوله ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السّياق لا يختصّ بالذى ذُكرت عنه هذه القصّة، بل هو عامّ فى كلّ من أطاع الشّيطان فى أمره له بالكفر لينصره ويقضى حاجته، فإنّه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة فى النّار ويقول لهم ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

(٢) حضور الشّيطان اجتماع المشركين فى دار النّدوة

لمّا اجتمعت قريش فى [دار النّدوة] ليتشاوروا فى أمر النّبى ﷺ [تبدّى لهم إبليس اللّعين فى صورة شيخ كبير عليه كساء غليظ من صوف أو وبـر فوقف على باب الدّار وقالوا من الشّيخ؟ فقال شيخ من أهل نجد سمع بالذى تواعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا! قالوا أجل.

وجعلوا يبحثون فى كيفيّة الإيقاع بالرّسول ﷺ وطرحوا كلّ الوسائل الممكنة لذلك، إلى أن انتهوا إلى رأى أبى جهل الذى يقضى بقتله، على أن يتولّى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعا ليتفرّق دمه بينها ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلّها فيرضوا بالدّية وينتهى الأمر، وهنا يقف اللّعين المتنكّر فى صورة الأعرابى ليقول بلسان الباطل [القول ما قال الرّجل هذا الرّأى لا أرى غيره!، فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون عليه(٣)].

ويذكر الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عبّاس فى قول الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. قال «تشاورت قريش ليلة بمكّة فقال بعضهم: إذا

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١٥ ص ١٨٠].

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره [٢٨ / ٤٩ ـ ٥٠] موقوفا عن على بن أبى طالب وابن مسعود وابن عبّاس.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم [١٩٩٤] والبيهقى فى الدّلائل [٢ / ٢٠٢] وابن سعد فى الطّبقات [١ / ١٠٩] عن محمّد بن عمر الواقدى: وأورده البخارى فى الضّعفاء الصّغير ترجمة [٣٣٤].

أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون [النّبى ﷺ] وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيّه ﷺ على ذلك، فبات علىٌّ رضي الله عنه على فراش النّبى ﷺ تلك الليلة، وخرج النّبى ﷺ حتّى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النّبى ﷺ».

«فلمّا أصبحوا ثاروا إليه، فلمّا رأوا عليا ردّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى، فاقْتَصُّوا أثره، فلمّا بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا فى الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[(١)]». وجاء القرآن مسجّلا ذلك فى قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠].

(٣) تصوّر الشّيطان بصورة الكلب الأسود

والكلب الأسود شيطان الكلاب، والجنّ تتصوّر بصورته كثيرا ويدلّل على هذا قوله ﷺ من حديث أبى ذرّ رضي الله عنه «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ[(٢)]». أى خالص السّواد الذى ليس فيه شائبة بياض، ولـمّا كان ذلك فإنّ للكلب الأسود فى الشّرع حكمين:

(الأوّل) قتل الأسود البهيم منها لأنّه شيطانها كما فى قوله ﷺ «لَوْلا أَنَّ الْكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كُلِّهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ[(٣)]». وجاء فى رواية مسلم عن جابر رضي الله عنه قال «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَتْلِ الْكِلاَبِ، حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْدُمُ مِنَ الْبَادِيَةِ بِكَلْبِهَا فَنَقْتُلُهُ، ثُمَّ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِى النُّقْطَتَيْنِ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ[(٤)]». والبهيم الخالص السّواد، وأمّا النّقطتان فهما نقطتان معروفتان بيضاوان فوق عينيه وهذا مُشاهد معروف، وقوله ﷺ فى حديث أبى ذرّ رضي الله عنه عن الكلب الأسود البهيم «إِنَّهُ شَيْطَانٌ». ومعلوم أنّه مولود من الكلب.

وإنّما جاء ذلك على طريق التّشبيه له بالشّيطان لخُبثه ولكونه أضرّ الكلاب وأعقرها، وهو والْكَلْبُ أسرع إليه منه إلى جميعها، ومع هذا فهو أقلّها نفعا وأسوؤها حراسة وأبعدها من الصّيد وأكثرها نُعاسا. فهو نظير قول النّبى ﷺ فى الإبل «فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ[(٥)]».

(الثّانى) أنّ مرور الكلب الأسود يقطع الصّلاة لقوله ﷺ من حديث أبى ذرّ رضي الله عنه «فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلاَتَهُ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الأَسْوَدُ[(٦)]».

---

(١) رواه أحمد [٣٢٥١] وفى إسناده نظر. (٢) أخرجه مسلم [٥١٠] وأبو داود [٧٠٢] والتّرمذى [٣٣٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٧٣] والتّرمذى [١٤٨٦] وأبو داود [٢٨٤٥]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٧٢] وأبو داود [٢٨٤٦]. (٥) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٦٢٩]. (٦) من حديث صحيح أخرجه النّسائى [٧٤٩].

وفيه [خصّ الكلب الأسود بقطع الصّلاة لأنّه أقرب إلى فساد المزاج وداء الكلب ولكونه أشدّ ضررا من غيره وأشدّ ترويعا عند هياجه، فكأن المصلّى إذا رآه اشتغل به عن صلاته فانقطعت عليه لذلك، وحمل بعضهم قوله ﷺ «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»: على ظاهره وقال إنّ الشّيطان يتصوّر بصورة الكلاب السّود لأنّ السّواد أجمع للقوى الشّيطانيّة من غيره ولما فيه من قوّة الحرارة(١)].

(٤) بعض الحيوانات ترى الشّيطان على صورته

وبعض الحيوانات ترى الشّيطان إمّا على صورته الحقيقيّة أو يتمثّل لها في صورة أخرى لقوله ﷺ عند البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا(٢)». وجاء عن جابر رضي الله عنه «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكِلاَبِ وَنَهِيقَ الْحَمِيرِ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لاَ تَرَوْنَ(٣)».

وأورده البخارى في الأدب المُفرد بلفظ «أَقِلُّوا الْخُرُوجَ بَعْدَ هُدُوءٍ [وعند أبى داود: بَعْدَ هَدْأَةِ الرِّجْلِ] فَإِنَّ للهِ دَوَابَّ [فِي تِلْكَ السَّاعَةِ] يَبُثُّهُنَّ، فَمَنْ سَمِعَ نُبَاحَ الْكَلْبِ أَوْ نُهَاقَ حِمَارٍ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ تَرَوْنَ(٤)».

(قال) الخطابى [يريد «بهَدْأَةِ الرِّجْلِ» انقطاع الأرجُل عن المشى في الطريق ليلا، وأصل الهدوء السّكون]. وروى الطبرانى عن أبى رافع مرفوعا «إِنَّهُ لاَ يَنْهَقُ حَتَّى يَرَى شَيْطَانًا أَوْ يَتَمَثَّلَ لَهُ شَيْطَانٌ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا اللهَ وَصَلُّوا عَلَيَّ».

ومن المتّفق عليه عند أئمة الحديث ما جاء من قوله ﷺ «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَسَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا(٥)». وما رواه أحمد من حديث أبى هريرة «إِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الْحَمِيرِ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا(٦)». (قال) عياض [وفائدة الأمر بالتّعوّذ لما يُخشى من شرّ الشّيطان وشرّ وسوسته فَيُلْجأُ إلى الله تعالى فى دفع ذلك].

و[الدِّيَكَةُ] بكسر الدّال وفتح الياء: جمع ديك كقِرَدَة وقرد، والمشروع للمسلم عند سماعه صياحها أن يسأل الله من فضله استبشارا لما رأته من الملائكة المقرّبين رجاء تأمينهم على دعائه وشهادتهم له بالإخلاص والاستغفار له، وللدّيكة خصيصة ليست لغيرها من

(١) انظر المفهم للقرطبى [ج ٢ ص ١٠٩].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ومسلم [٢٧٢٩].
(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥١٠٣] والبخارى فى الأدب المفرد [١٢٣٤].
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المُفرد [١٢٣٣].
(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ومسلم [٢٧٢٩] وأبو داود [٥٥١٠٢].
(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٣٦] وأبو داود [٥٢٥٧] والتّرمذى [١٤٨٤].

معرفة وقت اللّيل، فإنّها تقسّط أصواتها تقسيطا لا يكاد يتفاوت، وتُوالى صياحها قبل الفجر وبعده ولا تكاد تُخطىء سواء طال النّهار أم قصُر.

وأخرج أبو داود وأحمد وصحّحه ابن حبّان عن زيد بن خالد رفعه «لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاَةِ[1]». ولفظ أبى داود «يُوقظُ». قاله رسول الله ﷺ لَمَّا صَرَخَ الدِّيكُ فلعنه رجل كما أخرج البزّار، وزاد أحمد فى روايته عن أبى النّضر «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَبِّ الدِّيكِ وَقَالَ: إِنَّهُ يُؤَذِّنُ للصَّلاَةِ». ومعنى «يَدْعُو» يصرخ عند طلوع الفجر فطرة فطره الله تعالى عليها، ويُؤخذ منه أن كلّ من استفيد منه الخير لا ينبغى أن يُسبّ ويُذمّ.

(٥) الحيّة الرّقطاء شيطان

والحيَّة الرّقطاءُ شيطَانٌ لَعينٌ تشكّلَ بهيئتها وتبدّى لمن رآه فى صورتها لقوله ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه «إِنَّ بالْمَدِينَةِ نفَراً منَ الْجنِّ قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلاَثًا، فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدَ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ[2]». وزاد مالك فى روايته «فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ». ومعناه أنّه إذا لم يذهب بالإنذار علمتم أنّه ليس من عوامر البيوت، ولا ممّن أسلم من الجنّ بل هو شيطان، فلا حرمة فى قتله ولن يجعل الله تعالى له سبيلا للانتصار عليكم بثأره بخلاف العوامر ومن أسلم.

والحيَّةُ الرّقْطَاءُ رتبة من الزّواحف كالثّعبان والأفعى، بها رُقْطَةٌ ظاهرة وهى لون مؤلّف من نُقَط صغار من بياض وسواد أو من حُمرة وصُفرة وغيرهما، يقال: «تَحَوَّتِ الْحَيَّةُ» أى تجمّعت واستدارت والله سبحانه المستعاذ من شرّها.

(٦) مواضع النّجس أحبّ الأماكن إلى الشّيطان

وأحبّ الأماكن إلى الشّيطان مواضع النّجس والقذر كالحشوش والحمّامات والمزابل ومبارك الإبل، والأماكن التى يُشرك فيها بالله تعالى، ومن الآثار التى جاءت بتأكيد ذلك:

بقول النّبى ﷺ «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِى آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الْخَلاَءَ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللهِ[3]». فإذا أتى المخلى بالتّسمية احتجب عن أبصارهم فلا يرون عورته، وهو المعنى الذى جاء فى حديث أنس «إِذَا وَضَعَ أَحَدُهُمْ ثَوْبَهُ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللهِ». ولمّا سُئل ﷺ عن الصّلاة فى مبارك الإبل قال «لاَ تُصَلُّوا فِى مَبَارِكِ الإِبِلِ فَإِنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ[4]». وعند التّرمذى «صَلُّوا فِى مَرَابِضِ الْغَنَمِ وَلاَ تُصَلُّوا فِى أَعْطَانِ الإِبِلِ[5]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢١٥٧٣] وأبو داود [٥١٠١].
(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٨٧٤٩].
(٣) أخرجه فى صحيح الجامع [٣٦١١] وأورده فى المشكاة [٣٥٨].
(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٩٣].
(٥) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٤٨] وابن ماجه [٦٢٩].

وجاء عند أحمد بلفظ «صَلُّوا فِى مَرَابِضِ الْغَنَمِ وَلاَ تُصَلُّوا فِى أَعْطَانِ الإِبِلِ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ[1]». والمراد بأعطان الإبل مباركها، (قال) ابن حزم [كلّ مَعْطَن مبْرَك وليس كَلّ مبْرَك عَطَنًا، لأنّ الْعَطْنَ هو الموضع الذى تُنَاخُ فيه عند ورودها الماء فقط، والمبرك أعمّ لأنّه الموضع المتخذ له فى كلّ حال[2]]. وظاهر الرّوايات أنّ الإبل لتمرّدها ونفارها تعملُ عمل الشّياطين لأنّها كثيرة الشّراد فتشوّش قلب المصلّى فتشغله عن الخشوع فى الصّلاة، وربّما نفرت وهو فيها فتؤدّى إلى قطعها، فهى مُشبّهة بالشّياطين فى النّفرة والتّشويش.

ويؤيّده ما جاء من أنّ الشّياطين مُقارنة لها لما رواه الحاكم عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا «مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلاَّ عَلَى ذِرْوَتِه شَيْطَانٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ إِذَا رَكِبْتُمُوهَا كَمَا أَمَرَكُمْ[3]». ورواه عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ «فَوْقَ ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ وَإِذَا رَكِبْتُمُوهُنَّ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، لاَ تُقَصِّرُوا عَنْ حَاجَةٍ[4]».

(فإن) قيل ما معنى قول النّبى ﷺ فى الإبل «فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ». وهى مولودة من النُّوق! فالجواب: أنّه إنّما قال ذلك على طريق التّشبيه لها بالجنّ فى صعوبتها وصولتها وهياجها، وبالشّياطين فى نفرتها وتشويشها، ويتأيّد هذا أيضا بما ذكره أبو عبيد «لَمَّا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الإِبِلِ قَالَ: أَعْنَانُ الشَّيَاطِينِ لاَ تُقْبِلُ إِلاَّ مُوَلِّيَةً وَلاَ تُدْبِرُ إِلاَّ مُوَلِّيَةً، وَلاَ يَأْتِى نَفْعُهَا إِلاَّ مِنْ جَانِبِهَا الأَشْأَمِ[5]». وأَعْنَانُ كُلِّ شَىْءٍ: نواحيه، وإنّه أراد أنّ الإبل تكون على [أخلاق] الشّياطين وطبائعها، وهو شبيه بقوله ﷺ عند ابن ماجه «وَتُصَلُّوا فِى أَعْطَانِ الإِبِلِ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ[6]». أمّا ما جاء من قوله ﷺ فى وصف الإبل أنّها «أَعْنَانُ الشَّيَاطِينِ» فإنّه أراد أنّها على أخلاق الشّياطين.

(قال) أبو عبيد [وقوله «لاَ تُقْبِلُ إِلاَّ مُوَلِّيَةً وَلاَ تُدْبِرُ إِلاَّ مُوَلِّيَةً»: فهذا عندى كالمَثَل الذى يقال فيها «إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَدْبَرَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ». وذلك لكثرة آفاتها وسرعة فنائها، أى أنّها من شأنها إذا أقبلت أن يعتقب إقبالها الإدبار، وإذا أدبرت أن يكون إدبارها ذهابا وفناء مستأصلا[7]]. والذى يُقرِّب هذا المعنى قوله ﷺ «وَلاَ يَأْتِى نَفْعُهَا إِلاَّ مِنْ جَانِبِهَا الأَشْأَمِ». يعنى الشِّمَال، يعنى أنّها لاَ تُحْلَبُ وَلاَ تُرْكَبُ إِلاَّ مِنْ شِمَالِهَا، ويقال

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٦٧٤٣] وابن ماجه [٦٣٠] والنّسائى [٧٣٤].

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٢ ص ١٥٣].

(٣) أخرجه الحاكم [١٦٥٨] وافقه الذّهبى على شرط مسلم.

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك [١٦٦٠] ووافقه الذّهبى فى التّلخيص على شرط مسلم.

(٥) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث [٣١٣].

(٦) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٦٢٩] وأورده فى المشكاة [٧٣٩].

(٧) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٢ ص ٦٣٣ - ٦٣٤].

لليد اليسرى الشُّؤمى ومنه قول الله تعالى ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩] . يريد أصحاب الشّرك والضّلال.

وجاء في المسند عن جابر رضي الله عنه قال «أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، حَتَّى إِذَا دُفِعْنَا إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ بَنِي النَّجَّارِ إِذَا فِيهِ جَمَلٌ لاَ يَدْخُلُ الْحَائِطَ أَحَدٌ إِلاَّ شَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ فَدَعَا الْبَعِيرَ، فَجَاءَ وَاضِعًا مِشْفَرَهِ إِلَى الأَرْضِ حَتَّى بَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَاتُوا خِطَامًا، فَخَطَمَهُ وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ، قَالَ ثُمَّ الْتَفَتَ ﷺ إِلَى النَّاسِ فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ عَاصِيَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ[1]».

والحائط هو [البستان] أمّا المِشْفر فهو شَفَة البعير الغليظة، والخِطام ما يوضع على أنف الجمل ليُقاد به. ومن دلالات هذا الحديث:

(١) أنّ شدّة هياج الجمل وتمرّده وثورته سرعان ما ذهبت عندما دعاه ﷺ فجاء واضعا شفتيه إلى الأرض ساكنا وخاضعا له ﷺ.

(٢) أنّ ارتباط ذلك بقوله ﷺ «إِلاَّ عَاصِيَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ»: ليؤكّد أنّ الإبل لكثرة آفاتها إنّما اقترن فعلها مجازا بفعل الشّيطان الذين سمّاه رسول الله ﷺ في الحديث «بِعَاصِي الْجِنِّ» والله تعالى أعلم.

(٧) النّياحة على الميت من نعيق الشّيطان

إذا كان رسول الله ﷺ قد بكي على عثمان بن مظعون كما بكي عند موت ولده إبراهيم وقال «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ[2]». فإنّ ذلك يفسّر البكاء المباح والحزن الجائز وهو ما كان بدمع العين ورقّة القلب من غير سخط لأمر الله تعالى، وعلى هذا أجمع علماء الأمّة رضي الله عنهم أجمعين.

ويُرخّص في البكاء من غير نوح ما أورده الشّيخان وغيرهما عن أسامة بن زيد أنّ ابنة النّبي ﷺ أرسلت إليه حين قُبض ابنٌ لها قال: «فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ﷺ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ[3]».

وقوله «وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ»: أي تتحرّك نفس الصّبي وتضطرب ولا تثبت على حال،

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٤٢٦٩] وابن أبي شيبة [١١٧٦٨]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٣٠٣] ومسلم [٢٣١٥]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٢٨٤] ومسلم [٩٢٣].

بل كلّما صار إلى حال لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقرّبه من الموت . و[الْقَعْقَعَةُ] : حكاية صوت الشّيء اليابس إذا حُرِّكَ ، ويُبيّن رسول الله ﷺ في الحديث أنّ الدّمعة تكون من أثر الرّحمة ، وأنّ الذى ينبغى من الدّمع من حزن القلب بغير تعمّد من صاحبه ولا استدعاء لا مؤاخذة عليه ، وإنّما المنهيّ عنه الجزع وعدم الصّبر ، كما يُرغّب الحديث فى الشّفقة على خلق الله والرّحمة لهم والتّرهيب من قساوة القلب وجمود العين وجواز البكاء من غير نوْح ونحوه .

ومعنى قول سعد للنّبى ﷺ «مَا هَذَا يَارَسُولَ اللّهِ ؟» : أنّه ظن أنّ جميع أنواع البكاء حرام وأنّ دمع العين حرام ، كما ظنّ أنّ النّبى ﷺ نسى فذكّره ، فأعلمه رسول الله ﷺ أنّ مجرّد البكاء ودمع العين ليس بحرام ولا مكروه ، بل هو رحمة وفضيلة ، وإنّما المحرّم النوْح والبكاء والنّدب المقرون بهما أو بأحدهما لقوله ﷺ من حديث ابن عمر عند مسلم «أَلاَ تَسْمَعُونَ ! إِنَّ اللّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا [وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِه الشّريف] أَوْ يَرْحَمُ[1] » .

ويجوز أيضا البكاء بصوت إذا غلب على الباكى الحزن ولم يبلغ إلى الحدّ المنهى عنه لما رُوى عن عائشة رضى الله عنها «أَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذ لَمَّا مَاتَ حَضَرَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، فَوَالّذِى نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِه إِنِّى لأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ مِنْ بُكَاءِ أَبِى بَكْرٍ وَأَنَا فِى حُجْرَتِى ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللّهُ تعالى﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2] » .

ففى تفريقها بين بكاء عمر وأبى بكر وهى فى الحجرة دليل على أنّهما كانا يبكيان بصوت يُسمع لشدّة حزنهما على سعد ولم يقدرا على كتمه ، ولكنّه لم يبلغ إلى الحدّ المنهيّ عنه ولذلك لم ينكر عليهما النّبى ﷺ ذلك .

وإذا كان التّصريح قد جاء بالبكاء على الميت فإنّ نهيه ﷺ قد ورد صريحا عن الصّراخ والعويل والدّعوى بالويل والثّبور ، واعتبر أنّ ذلك كلّه من نعيق الشّيطان المنهيّ عنه عندما حذّر النّسوة من النّياحة على الميّت بقوله ﷺ «ابْكِينَ وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ الشَّيْطَانِ » . ثمّ قال : «إِنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ فَمِنَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنَ الرَّحْمَةِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ فَمِنَ الشَّيْطَانِ[3] » .

وروى مسلم عن عبيد بن عمير عن أمّ سلمة رضى الله عنها قالت «لَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ : غَرِيبٌ وَفِى أَرْضِ غُرْبَة ، لأَبْكِيَنَّهُ بُكَاءً يُتَحَدَّثُ عَنْهُ ، فَكُنْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْبُكَاءِ عَلَيْه ، إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ تُرِيدُ أَنْ تُسْعِدَنِى ، فَاسْتَقْبَلَهَا النَّبِىُّ ﷺ وَقَالَ : أَتُرِيدِينَ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٢٤] .
(٢) انظر الفتح الرّبانى [ج ٤ ص ١٤١] .
(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٢٧] .

أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللهُ منْهُ؟ مَرَّتَيْنِ، فَكَفَفْتُ عَنِ الْبُكَاءِ فَلَمْ أَبْكِ[1]». والمراد «بالصَّعيد»: عوالي المدينة وأصل الصَّعيد ما كان علي وجه الأرض وارتفع، أمَّا قولها رضى الله عنها «تُسْعِدُني» أي تساعدها في البكاء والنوح وتشجّعها عليهما.

ويستدلّ من الرّوايتين على ما يلي:

(١) أنّ التّحذير إنّما يكون مّما يصدر من اليد واللّسان وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله «وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ الشَّيْطَانِ». وهو النّياحة والنّدب.

(٢) أنّ النّياحة تكون سببا في دخول الشّيطان بيتا قد أخرجه الله منه بحسن إسلام صاحبه وطاعته لربّه وخالقه لقوله ﷺ للمرأة عندما حاولت أن تجامل أمّ سلمة في البكاء والنّوح: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللهُ منْهُ؟».

وكما تثبت الأحاديث التّصريح بالبكاء على الميّت إذا خلا مّما لا يجوز في الشّرع فإنّها تقف بنا أمام التّوجيهات التّالية:

(أوّلا) النّهي الصّريح عن النّياحة وهي رفع الصّوت بالبكاء وتعديد محاسن الميّت والتّغالي فيها، وهي من ناحت المرأة نوحًا ونواحا: بكت عليه بجزع وعويل، وهي من الأمور التي نهى عنها النّبي ﷺ لحديث أمّ عطيّة قالت «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ[2]». وجاء قوله ﷺ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ[3]».

ولقد أعلن رسول الله ﷺ براءته من كلّ أفعال الجاهلية تلك التي ترتكبها المرأة وغيرها عند المصيبة ومن ذلك قوله ﷺ «أَنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ حَلَقَ وَسَلَقَ وَخَرَقَ[4]». فالحلق يكون للشّعر، أمّا السّلق فهو رفع الصّوت بالصّريخ والعويل، ويفسّر ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند ابن ماجه «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُتْبَعَ جِنَازَةٌ مَعَهَا رَانَّةٌ[5]». والرَّنَّة: الصّوت بالعويل، يقال: رنَّت المرأة إذا صاحت، أمّا الخرق المذكور فهو شقّ الثّياب، وكلّها من أفعال الجاهليّة التي نُهِيَ عنها رسول الله ﷺ في قوله «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ، وَضَرَبَ الْخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ[6]».

وفي الأحاديث الدّلالة على حرمة البكاء على الميّت إذا صحبه نياحة وندب، أو ضجر، أو ضرب خدّ، أو شقّ جيب، أو خمش وجه، أو نشر شعر، أو صراخ وعويل، ونحو

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٢٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٢١٥] وأبو داود [٣١٢٧].

(٣) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٢٩٦] والبخاري [٣٨٥٠] بمعناه.

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣١٣٠] وابن ماجه [١٣٠٠] والنّسائي [١٨٦٤].

(٥) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [١٢٩٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٢٩٨] وذكره الألباني في الإرواء [٧٧٠].

ذلك مما يدلّ على عدم الرّضا بقضاء الله تعالى وقدره، وهو ما سمّاه رسول الله ﷺ «نَعيقَ الشَّيْطَانِ». وبيّن فى الصّحيح أنّ ذلك «مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ».

(ثانيا) نهى المرأة عن أن تندب الميّت بصوتها العالى المرتفع، وقد دلّت الأحاديث على التّغليظ فى أمرها إذا لم تتب قبل موتها، وأنّها مطرودة من رحمة الله تعالى لقوله ﷺ من حديث أبى مالك الأشعرى عند مسلم «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ[1]».

وجاء عند أبى داود بلفظ «النِّيَاحَةُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّ النَّائِحَةَ إِذَا مَاتَتْ وَلَمْ تَتُبْ قَطَعَ اللهُ لَهَا ثِيَابًا مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعًا مِنْ لَهَبِ النَّارِ[2]». وفيه دليل على تحريم النّياحة وهو أمر مجمع عليه، وفيه صحة التّوبة ما لم يمت المكلّف ولم يصل إلى الغرغرة.

(ثالثا) تحذير المستمعة إلى النّائحة من اللّعن وهى التى تعضّد النّوح وترّغب فيه، وتشجّع عليه لحديث أبى سعيد الخدرى «لَعَنَ النَّبِى ﷺ النَّائِحَةَ وَالْمُسْتَمِعَةَ[3]».

فكما أنّ المغتاب والمستمع شريكان فى وزر الغيبة وإثمها فإنّ «المستمعة» ملعونة كذلك لكونها شريكة للنّائحة فى إثمها ومعصيتها، وعليها مثل أوزارها لاستماعها إليها، وخصّ المرأة بالذّكر لأنّ النّوح والإصغاء إليه يكون من النّساء غالبا وإلاّ فالرّجل كالمرأة فى هذه المخالفة.

(رابعا) اعتبار ولىّ الأمر شريكا فى إثم النّياحة ووزرها إن لم ينصح أهله بترك هذه المخالفة، وأمره لهم باتباع الهدى الذى جاء به رسول الله ﷺ ومنعهم من ذلك بكلّ طريق ممكن، ولأنّه يجب عليه أن يعلّمهم أحكام الدّين، ويأمرهم وينهاهم، وأن يقوم عليهم بحقّ الله تعالى وحقّ عباده لقوله ﷺ «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا[4]».

ونعيق الشّيطان يلحق ضرره وأذاه بالميّت وهو فى قبره لقوله ﷺ من حديث عمر رضي الله عنه «الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِى قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ[5]». وفى رواية مسلم «مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[6]».

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٣٤] والتّرمذى [١٠٠١].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٢٩٥].

(٣) أخرجه أبو داود [٣١٢٨] وأورده الألبانى فى الإرواء [٧٦٩] وقال سنده ضعيف.

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٩٣] ومسلم [١٨٢٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٩٢] ومسلم [٩٢٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٩١] ومسلم [٩٣٣].

وجاء في رواية «إنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِه عَلَيْه[1]». وهذا كلّه محمول على من أوصى بالبكاء والنّوح أو لم يُوص بتركهما، [فأمّا من وصّى بتركهما فلا يعذّب بهما إذ لا صنع له فيهما ولا تفريط منه، وحاصل هذا القول إيجاب الوصيّة بتركهما ومن أهملهما عُذّب بهما[2]].

(٨) تصفيد الشّياطين في رمضان

اقتضت حكمة الله تعالى إذا دخل رمضان أن تُصَفَّدَ فيه الشّياطين لمنعهم من أذى المؤمنين وتعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشّهوات، وجعل ذلك من علامات دخول شهر الصّوم وتعظيم حرمته لقوله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ: فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّة، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ[3]». ورواه البخاري من طريق ابن أبي أنس رضي الله عنه عن أبي هريرة بلفظ «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ[4]».

وجاءت هذه النّصوص عند الأئمة على وجهين:

(الأوّل) أنها على ظاهرها وأنّ تصفيد الشّياطين في رمضان يكون على حقيقته ليمتنعوا من إيذاء المؤمنين والتّهويش عليهم والتّحريش بهم.

(الثّاني) أن تكون على المجاز إشارة إلى كثرة الثّواب والعفو والمغفرة من الله تعالى لعباده في هذا الشّهر الكريم، وأنّ الشّياطين يقلّ إغواؤهم وإيذاؤهم فيه للمؤمنين وتسلّطهم عليهم فيصيرون كالمصفّدين بالأغلال.

ويقصد «بتَصْفيد» الشّياطين فيه: شدّهم وتوثيقهم بالأغلال من صَفَدَ يَصْفِدُ صَفْداً فهو صَافِدٌ: أَوْثَقَهُ وشَدَّهُ، وَصَفَّدَ: مبالغة في صَفَدَ وجمعه أصفاد ومنه قول الله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]. كما جاء عند النّسائي بلفظ «وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِين[5]». من الغُلّ وجمعه: أغلال وهي القيد في اليد والطّوق في العنق، ومنه قول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

والمراد بالشياطين «بَعْضُهُمْ» وهم «الْمَرَدَةُ» منهم، كما جاء في رواية النّسائي «وَيُصَفَّدُ فِيه كُلُّ

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٢٨٧] ومسلم [٩٢٨].

(٢) انظر نووي مسلم [ج ٣ ص ٥٠٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٧٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٨٩٩].

(٥) من حديث صحيح أخرجه النّسائي [٢١٠٥].

شَيْطَان مَرِيد[١]» . وفى رواية الترمذى «صُفِّدَت الشَّياطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ[٢]» . وفيها الدّلالة على أنّه لا يلزم من تصفيد جميعهم أن لا يقع شر فى هذا الشّهر ولا معصية ، لأنّ الواقع يشهد بأنّ المعاصى والشّرور ما تزال تُرتكب فى رمضان وغير رمضان ، فلو كانت الشّياطين مُصفّدة لمَا وَقَع الشّر ! والجواب على ذلك من أوجه :

أحدها - إنّما تُغلّ عن الصّائمين الصّوم الذى حُوفظ على شروطه ورُعيت فيه آدابه . أمّا من لم يحافظ على صومه ولم يراع فيه كلّ الآداب والتى منها عفّة اللّسان والنّظر وحفظ الجوارح عن المعصية فلا يُغلّ عن فاعله الشّيطان ومن ذلك قوله ﷺ «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلّهِ حَاجَةٌ فِى أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ[٣]» .

والثّانى - أن يكون هذا الإخبار عن غالب الشّياطين والمردة منهم ، وأمّا مَن ليس مِن المردة فقد لا يُصفّد .

والثّالث - أنّا لو سلّمنا أنّها صُفّدت عن كلّ صائم فلا يلزم من تصفيد جميع الشّياطين ألاّ يقع شرٌّ لأنّ لوقوع الشّر أسبابا أُخَر غير الشّياطين من أهمّها :

(١) شرارة النّفس وخباثتها وما سبق إبليس شيطان آخر ، فمعصيته ما كانت إلاّ من قبل نفسه

(٢) العادات القبيحة والبدع السّيئة والانحطاط الأخلاقى الذى يحيط بالكثير من النّاس ، وكذلك الشّياطين الإنسيّة التى تجرّ الخَلق إلى الهلاك وتقودهم إلى الهوى الذى يبتعد بصاحبه عن الطّريق السّوى الأقوم .

وقيل إنّ الحكمة من تقييد الشّياطين وتصفيدهم :

(أوّلا) كى يكون النّاس بمأمن من تسويلهم الشّر ودفعهم إلى الغواية والإثم ، فلا ينزغوا بينهم ولا يُوسوسوا إليهم ، وأمارة ذلك تنزّه أكثر المنهمكين فى الطّغيان عن المعاصى ورجوعهم بالتّوبة إلى الله تعالى فى هذا الشّهر الكريم .

(ثانيا) إغلاق أبواب الشّر فى هذا الشّهر ووأد الفتن بين النّاس وتجفيف منابع الفجور وغياب الفاحشة والبهت ، والإقبال على الخالق جلّ وعلا ، وهذا أمر محسوس فإنّ وقوع ذلك فى رمضان أقلّ منه فى غيره .

كما يأتى قوله ﷺ «فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» :

(١) كناية عن تنزّل رحمة الله تعالى وإزالة الغلق عن مصاعد أعمال العباد : تارة

---

(١) من حديث صحيح أخرجه النّسائى فى السّنن الكبرى [٢٤١٨] .

(٢) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٦٨٢] وابن ماجه [١٣٣٩] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٥٧] .

ببذل التّوفيق وأخرى بحسن القبول.

(٢) أمّا غلق أبواب جهنّم في قوله «وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ» فهو كناية عن تنزّه أنفس الصُّوَّمِ عن رجس الفواحش والتّخلص من البواعث عن المعاصي بقمع الشّهوات.

(٣) كما أنّ تصفيد الشّياطين في رمضان يُعبّر عن كسر شهوات النّفوس التي بسببها تتوصّل الشّياطين إلى الإغواء والإضلال، ويشهد بهذا قول النّبي ﷺ «الصَّوْمُ جُنَّةٌ». كما يأتي ذلك إشارة إلى رفع العُذر عن المكلّف كأنّه قال له [قد كُفّت الشّياطين عنك فلا تعتلّ بهم في ترك الطّاعة أو فعل المعصية[1]].

(الباب الخامس)

قهر الصّحابة رضوان الله عليهم للشّيطان

وعن أحوال الصّحابة وقهرهم للشّيطان اللّعين نذكر الوقائع التّالية:

(أ) عمّار الذي أجاره الله من الشّيطان

عمّار بن ياسر رضي الله عنه من الصّحابة الأجلاء الذين عُذّبوا لأجل الإسلام واستشهدوا في سبيله، أسلم هو وأبوه قديما وقتل أبو جهل أُمَّهُ فكانت أوّل شهيد في الإسلام حتّى قال فيهم رسول الله ﷺ «أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وَآلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ[2]». وجاء عمّار ذات مرّة يستأذن على رسول الله ﷺ فقال «ائْذَنُوا لَهُ مَرْحَبًا بِالطَّيِّبِ الْمُطَيَّبِ[3]».

وكان عَمَّارُ مِمّن أجارهم الله تعالى من الشّيطان على لسان نبيّه ﷺ لما رواه البخاري عن علقمة رضي الله عنه قال «قَدِمْتُ الشَّامَ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا! فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِي، قُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ».

«.. فَقُلْتُ إِنِّي دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا فَيَسَّرَكَ لِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: أَوَ لَيْسَ عِنْدَكُمُ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ وَالْوِسَادِ وَالْمِطْهَرَةِ؟ أَفِيكُمُ الذي أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ يَعْنِي عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ[4]».

وجاء في رواية «قَالَ: أَلَيْسَ فِيكُمْ - أَوْ مِنْكُمْ - الَّذِي أَجَارَهُ اللهُ تعالى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ يَعْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ، يَعْنِي عَمَّارًا رضي الله عنه، قُلْتُ بَلَى[5]».

---

(١) انظر فتح الباري [ج ٤ ص ١٣٧] والمُفْهم للقرطبي [ج ٣ ص ١٣٦].

(٢) أخرجه الحاكم [٥٧٥٥] وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) حديث صحيح لغيره أخرجه التّرمذي [٣٨٠٧] وابن ماجه [١١٩] والحاكم [٥٧٥١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٧٤٢] ومسلم (٨٢٤] مختصرا.

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٧٤٣].

وجاء عند التّرمذى عن خيثمة بن أبى سبرة قال «أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَسَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُيَسِّرَ لِى جَلِيسًا صَالِحًا، فَيَسَّرَ لِى أَبَا هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ جِئْتُ أَلْتَمِسُ الْخَيْرَ وَأَطْلُبُهُ، قَالَ: أَلَيْسَ فِيكُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ مُجَابُ الدَّعْوَةِ؟ وَابْنُ مَسْعُودٍ صَاحِبُ طَهُورِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَعْلَيْهِ، وَحُذَيْفَةُ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَعَمَّارُ الَّذِى أَجَارَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ؟ وَسَلْمَانُ صَاحِبُ الْكِتَابَيْنِ؟[1]». (قال) قتادة «وَالْكِتَابَانِ الإِنْجِيلَ وَالْفُرْقَانَ».

وقوله «أَجَارَهُ اللهُ»: أى حَمَاهُ وأَنْقَذَهُ وجعله فى جواره من [أَجَارَ يُجِيرُ إِجَارَةً]: الشّخص ـ بمعنى عصمه من شرّ الشّيطان ووسوسته، وحفظه من كيده وصلفه وعدوانه. و[اسْتَجَارَ ـ يَسْتَجِيرُ ـ اسْتِجَارَةً]: استغاث به والتجأ إليه. واسْتَجَارَهُ: سأله أن يُؤَمِّنه ويحفظه، ومنه قول الله تعالى ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. أى يَمْنَعُ ولا يُمْنَعُ منه، وقيل: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُؤَمِّنُ من يشاء، أمّا قوله ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾: ولا يؤمّنُ من أخافه، كقوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجنّ: ٢٢]. أى لا يدفع عذابه عنّى أحد إن استحفظته، وهذا لأنّهم قالوا للنّبى ﷺ اترك ما تدعو إليه ونحن نُجيرُك.

وتحمل الأحاديث الدّلالة على أنّ عَمَّارًا قد أجاره الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ من الشّيطان، وقد استند العلماء فى خصوصيّة عَمَّار بذلك إلى واحد من ثلاثة أمور:

(الأوّل) قوله ﷺ عَنْ عَمَّار أنّه مُلِىءَ إيمانا إلى مُشَاشه لما أخرجه الحاكم بإسناد صحيح من حديث عائشة «إِنَّ عَمَّارًا مُلِىءَ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ[2]». ورواه البزّار بلفظ «مَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ لَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ فِيهِ مَا خَلاَ عَمَّارًا، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مُلِىءَ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ[3]». وقوله «مُشَاشِه»: رؤوس العظام وأصولها التى لا مُخّ فيها وجمعه: مُشَاش.

(الثّانى) ماروى عن عائشة من قول النّبى ﷺ «مَا خُيِّرَ عَمَّارٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَرْشَدَهُمَا[4]». أى أنّه كان يَخْتَارُ أَصْلَحَهُمَا وأَصْوَبَهُمَا فيما تبيّن ترجيحه، وإلاّ فاختار أيسرهما بالنّظر إلى غيره، فكونه يختار أرشد الأمرين دائما يقتضى أنّه قد أُجِيرَ من الشّيطان الذى من شأنه الأمر بالغى والضّلال.

(الثّالث) ما جاء عن صَرْعه ﷺ للشّيطان وظَفَره به لما جاء عن على ﷺ قال «كُنَّا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى سَفَرٍ فَقَالَ لِعَمَّارٍ: انْطَلِقْ فَاسْتَقِ لَنَا مِنَ الْمَاءِ! فَانْطَلَقَ فَعَرَضَ لَهُ

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٨٢٠] والحاكم [٥٧٦٨] ووافقه الذّهبى فى التّلخيص.

(٢) أخرجه الحاكم [٥٧٦٩] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

(٣) انظر مجمع الزّوائد [ج ٩ ص ٢٩٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٨٠٨] وابن ماجه [١٤٧] والحاكم [٥٧٥٤].

شَيْطَانٌ فِي صُورَةِ عَبْدٍ أَسْوَدَ فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ قَاعِدًا، فَصَرَعَهُ عَمَّارُ فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي وَأُخَلِّي بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَاءِ فَفَعَلَ ثُمَّ أَبَى [صَنَعَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ] وفى الرَّابِعَةِ صَرَعَهُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَتَرَكَهُ فَوَفَّى».

«فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنَ عَمَّارٍ وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي صُورَةِ عَبْدٍ أَسْوَدَ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَظْفَرَ عَمَّارًا بِهِ». قَالَ عَلِيٌّ: «فَتَلَقَّيْنَا عَمَّارًا نَقُولُ: ظَفِرَتْ يَدَاكَ يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: أَمَا وَاللهِ لَوْ شَعَرْتُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ لَقَتَلْتُهُ وَلَكِنْ كُنْتُ هَمَمْتُ أَنْ أَعَضَّ بِأَنْفِهِ لَوْلاَ نَتْنِ رِيحِهِ(1)».

ويتصل بصرع عمّار للشّيطان ما ذكره الهيثمي عن الحسن «كَانَ عَمَّارٌ يَقُولُ: قَاتَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْجِنَّ وَالإِنْسَ، أَرْسَلَنِي إِلَى بِئْرِ بَدْرٍ، فَلَقِيتُ الشَّيْطَانَ فِي صُورَةِ الإِنْسِ، فَصَارَعَنِي فَصَرَعْتُهُ فَجَعَلْتُ أَدُقُّهُ بِفِهْرٍ مَعِي أَوْ حَجَرٍ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَمَّارُ لَقِيَ الشَّيْطَانَ عِنْدَ الْبِئْرِ فَقَاتَلَهُ، فَمَا عَدَا أَنْ رَجِعْتُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ذَاكَ الشَّيْطَانُ(2)». وقوله «بِفِهْرٍ»: أى بحجر صُلب.

وذكر ابن سعد فى «الطّبقات» من طريق الحسن «قَالَ عَمَّارُ: نَزَلْنَا مَنْزِلاً فَأَخَذْتُ قِرْبَتِي وَدَلْوِي لأَسْتَقِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ سَيَأْتِيكَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنَ الْمَاءِ. فَلَمَّا كُنْتُ عَلَى رَأْسِ الْمَاءِ إِذَا رَجُلٌ أَسْوَدُ كَأَنَّهُ مَرِسٌ فَصَرَعْتُهُ». فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ «ذَاكَ الشَّيْطَانُ(3)». وقوله «مَرِسٌ»: من الْمَرَاسَةِ وهى الشّدّةُ. يقال: «فَلاَنٌ ذُو مِرَاسٍ»: أى ذُو جَلَدٍ وقُوّةٍ.

(٣) عمر رضي الله عنه يصارع الشّيطان

ذكر أبو عبيد فى «غريب الحديث» ما هو قريب من رواية صرع عمّار للشّيطان ولكن هذه المرّة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال «فى حديث عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْجِنِّ لَقِيَهُ فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تُصَارِعَنِي؟ فَإِنْ صَرَعْتَنِي عَلَّمْتُكَ آيَةً إِذَا قَرَأْتَهَا حِينَ تَدْخُلُ بَيْتَكَ لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ. فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَاكَ ضَئِيلاً شَخِيتًا كَأَنَّ ذِرَاعَيْكَ ذِرَاعَا كَلْبٍ، أَفَهَكَذَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْجِنُّ كُلُّكُمْ؟ أَمْ أَنْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ؟ فَقَالَ إِنِّي مِنْهُمْ لَضَلِيعٌ فَعَاوِدْنِي! فَعَاوَدَهُ، قَالَ: فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ الإِنْسِيُّ، فَقَالَ تَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَإِنَّهُ لاَ يَقْرَأُهَا أَحَدٌ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ إِلاَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ خَبَجٌ كَخَبَجِ الْحِمَارِ(4)». و«الضَّلِيعُ» فى قوله «إِنِّي مِنْهُمْ لَضَلِيعٌ»: الْعَظِيمُ الْخَلْقِ.

---

(١) صحيح وأخرجه ابن سعد [٣ / ١٧٩].

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزّوائد [٩ / ٢٩٦].

(٣) انظر فتح البارى [ج ٧ ص ١٦].

(٤) أورده فى غريب الحديث برقم [٦٠٨ / ٤].

وجاءت رواية الدّارمي في سننه عن الشّعبيّ بلفظ «فَإِنْ صَرَعْتَنِي عَلَّمْتُكَ شَيْئًا يَنْفَعُكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّكَ لاَ تَقْرَؤُهَا فِي بَيْتٍ إِلاَّ خَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَلَهُ خَبَجٌ كَخَبَجِ الحِمَارِ[1]».

ويتأيّد هذا بما ورد عن أبي عاصم الثّقفي عن الشّعبي عن ابن مسعود قال «خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الإِنْسِ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ» ثمّ ذكر الحديث. قال: «فَقِيلَ لِعَبْدِ الله أَهُوَ عُمَرُ؟ فَقَالَ: وَمَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ إِلاَّ عُمَرُ». أمّا قوله في الحديث «ضَئِيلاً شَخِيتًا»: هُمَا جميعًا النَّحِيفُ الْجِسْمِ الدَّقِيقُ. و«الْخَبَجُ»: هُوَ الضُّرَاطُ، وهو «الحَبَجُ» أيضا.

(٣) «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ»

لـمّا أعزّ الله الإسلام بعمر بن الخطّاب رضي الله عنه جعل الحقّ على لسانه غضبة تؤجّج الخوف في قلوب أعداء الدّين، ونصرة تدعم الإيمان في قلوب المستضعفين، وغلظة على من انتهك حرمات المؤمنين وتعمّد أذى المخلصين الصّادقين، وما حظى صحابى جليل من فضائل الدّين السّامية وكريم الأخلاق العالية، مثلما حظى أمير المؤمنين عمر عندما اكتسب فضيلة السّبق إلى الإسلام وحبّ الله تعالى له بقوله ﷺ «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[2]». قال: «فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى الله تَعَالَى عُمَرُ رضي الله عنه».

كما ثبت قوله ﷺ «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[3]». وفي لفظ «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِعُمَرَ[4]». وأبان رسول الله ﷺ فضل ما جعله الله لعمر من أوصاف الأنبياء وخلال المرسلين فقال «لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ[5]».

ومن فضائل عمر مفارقة الشّيطان للطّريق الذى يسير فيه رضى الله عنه لقوله ﷺ من حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ[6]». وقد وقع في حديث حفصة رضى الله عنها بلفظ «إِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَلْقَى عُمَرَ مُنْذُ أَسْلَمَ إِلاَّ فَرَّ لِوَجْهِهِ[7]».

(قال) في المُفهم [والظّاهر بقاء هذا اللّفظ على ظاهره ويكون معناه أنّ الشّيطان

---

(١) انظر الفائق للزّمخشرى [٢ / ٣٢٥] والنّهاية لابن الأثير [٢ / ٦] وغريب الحديث [٤ / ٢١٤].
(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٦٩٠] والحاكم [٤٥٤٢].
(٣) أخرجه الحاكم [٤٥٣٩] وافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.
(٤) أخرجه الحاكم [٤٥٤٠] وافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.
(٥) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٦٩٥] والحاكم [٤٥٥١].
(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٨٣] ومسلم [٢٣٩٦].
(٧) نقلا عن فتح البارى [ج ٧ ص ٥٨].

يهابه ويُجانبه لما يعلم من هيبته وقوّته في الحقّ فيفرّ منه إذا لقيه، ويكون هذا مثل قوله في الحديث الآخر «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفْرَقُ مِنْكَ يَاعُمَرُ». ويعني بالشّيطان جنس الشّياطين، ويُحتمل أن يكون ذلك مثلاً لبعده عنه وأنّه لا سبيل له عليه والأوّل أولى[1]].

وروى التّرمذى عن بُريدة رضي الله عنه قال «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَعْضِ مَغَازِيه، فَلَمَّا انْصَرَفَ جَاءَتْ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَتْ: يَارَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ نَذَرْتُ إِنْ رَدَّكَ اللهُ سَالِمًا أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ وَأَتَغَنَّى، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي وَإِلاَّ فَلاَ. فَجَعَلَتْ تَضْرِبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ: فَأَلْقَت الدُّفَّ تَحْتَ اسْتِهَا ثُمَّ قَعَدَتْ عَلَيْه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ، إِنِّي كُنْتُ جَالِسًا وَهِيَ تَضْرِبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ، فَلَمَّا دَخَلْتَ أَنْتَ يَاعُمَرُ أَلْقَت الدُّفَّ[2]».

وجاء عند أحمد بلفظ «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفْرَقُ مِنْكَ يَاعُمَرُ، أَنَا جَالِسٌ هَهُنَا وَدَخَلَ هَؤُلاءِ فَلَمَّا أَنْ دَخَلْتَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ[3]». وقوله «لَيَفْرَقُ مِنْكَ» من «فَرِقَ فَرَقًا»: جَزِعَ واشتدّ خَوْفُهُ، و«الْفَرِقُ» من الرّجال الشّديدُ الْفَزَعِ جِبِلَّةً.

ورُوى عن عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا فَسَمِعْنَا لَغَطًا وَصَوْتَ صِبْيَانٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تَزْفِنُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا، فَقَالَ: يَاعَائِشَةُ تَعَالَيْ فَانْظُرِى، فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ الْمَنْكِبِ إِلَى رَأْسِه، فَقَالَ لى: أَمَا شَبِعْتِ ؟ أَمَا شَبِعْتِ ؟. قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ: لاَ. لأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ ﷺ ؟. إِذْ طَلَعَ عُمَرُ، قَالَتْ: فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا، قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ. قَالَتْ فَرَجَعْتُ[4]».

وقوله «تَزْفِنُ»: أى ترقص وتلعب والصِّبيانُ حولَها ينظرونَ إليها ويتفرّجون عليها، فدعا رسول الله ﷺ عائشة لمشاهدة ذلك بقوله «تَعَالَيْ فَانْظُرِى»: أىْ هَلُمِّي وتَقَدَّمى، حتّى إذا جاء أمير المؤمنين عمر «فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا» من الارفضاض، أى: انفضّوا وتفرّقوا عن الحبشيّة التى تغنّى هيبة من عمر رضي الله عنه.

بقيت الإشارة إلى تلك اللّمحة الجميلة التى تربط بين أمّ المؤمنين عائشة ومدى حبّها لرسول الله ﷺ لمّا قال لها: «أَمَا شَبِعْتِ أَمَا شَبِعْتِ؟»: بمعنى هل اكتفيت بما

---

(١) انظر المُفْهِم للقرطبى [ج ٦ ص ٢٥٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٦٩٩].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٢٨٨٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٧٠٠].

شاهدت؟ تقول عائشة «فجعلتُ أقولُ لا. لأ نظرَ منزلتي عندَهُ» أي لا! ولكن ليس لعدم الشبع من النظر إليها، بل كان قصدي من هذا القول لأنظر إلى منزلتي وغاية مرتبتي ومحبتي عنده ﷺ، وكأنّ ظرفيّة الحدث قد واتتها لتعرف مدى غيْرةَ وحبّ رسول الله ﷺ لها، ومكانتها في قلبه العطوف الكريم، فرضي الله عنها وأرضاها.

ويروي البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال «استأذنَ عُمرُ علي رسُول الله ﷺ وعندَهُ نسوةٌ من قُريْش يُكلِّمنهُ ويستكثرنهُ عاليةً أصْواتُهنّ، فلمّا استأذنَ عُمرُ قُمنَ يبتدرْنَ الحجاب، فأذنَ لهُ رسُولُ الله ﷺ وهُو يضْحكُ، فقالَ عُمرُ أضحكَ اللهُ سنَّكَ يارسُولَ الله؟ قالَ: عجبْتُ منْ هؤلاء اللاّتي كُنّ عنْدي، فلمّا سمعْنَ صوتَكَ ابتدرْنَ الحجاب، قالَ عُمرُ: فأنْتَ يارسُولَ الله كُنْتَ أحقَّ أنْ يهبْن. ثُمّ قالَ أيْ عدُوّات أنفُسهنّ، أتهبْنني ولاَ تهبْنَ رسُولَ الله ﷺ؟ قُلْنَ: نعمْ أنْتَ أفظُّ وأغْلظُ منْ رسُول الله ﷺ. فقالَ رسُولُ الله ﷺ والّذي نفْسي بيده ما لقيكَ الشّيْطانُ قطُّ سالكًا فجًّا إلاّ سلكَ فجًّا غيْرَ فجِّكَ(١)».

ومن الدّلالات التي تشير إليها الأحاديث:

(١) أنّه لا سبيل للشّيطان على عمر رضي الله عنه لا أنّ ذلك يقتضي وجود العصمة، إذ ليس فيه إلاّ فرار الشّيطان منه أن يشاركه في طريق يسلكها، ولا يمنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته.

(٢) كما تشير إلى صلابة عمر رضي الله عنه في الدّين واستمرار حاله على الجدّ الصّرْف والحقّ المحض وإغلاظه على الكافرين والمنافقين لما وقع في حديث حفصة عند الطّبراني في «الأوسط» بلفظ «إنَّ الشّيْطانَ لاَ يلْقى عُمرَ منْذُ أسْلَمَ إلاّ فرَّ لوجْهه(٢)».

(٣) أنّ رسول الله ﷺ ضرب بعمر رضي الله عنه مثلاً لبُعد الشّيطان وإغوائه منه وأنّه في جميع أموره سالك طريق السّداد خلاف ما يأمر به الشّيطان.

وفي قوله «إلاّ سلكَ فجًّا غيْرَ فجِّكَ». (قال) النّووي [وهذا الحديث محمول على ظاهره أنّ الشّيطان متى رأى عمر سالكا فجًّا هرب هيبة من عمر وفارق ذلك الفجّ وذهب في فجّ آخر لشدّة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا(٣)].

الشّيطان لا يخاف إلاّ المؤمن

يُستفاد ممّا سبق ذكره من روايات وآثار صحيحة أنّ الشّيطان لا يخاف إلاّ المؤمن التّقي، وأنّ مداخله إلى الإنسان الغافل متعدّدة وكثيرة، ومسالكه متنوّعة ووفيرة، تحتاج إلى فهْم ودراية وبصيرة، فهو في سبيل إغوائه وإضلاله للإنسان يبذل جهده ويبعث في كلّ

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٩٤] ومسلم [٢٣٩٦]. (٢) انظر فتح الباري [ج ٧ ص ٥٨]. (٣) انظر نووي مسلم [ج ٨ ص ١٨٠].

سبيل عساكره وجنده، وقد سجّل القرآن الكريم توعُّده بذلك بقوله ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾.

إنّه يتحرّك بجنوده الرّاجل منهم والرّاكب فى كافة الاتجاهات، من الإمام والخلف ومن اليمين والشّمال ليستفزّهم بصوته ويجلب عليهم بخيله ورجله ابتلاء وامتحانا لقوله تعالى ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ومع هذا الكيد وهذا الاستفزاز فإنّنا لا نراه أمام المؤمنين الصّادقين إلاّ هزيلا ضعيفا، لا يستطيع أن يغرّر بهم أو يكيد لهم أو أن يجد سبيلا للاستحواذ على قلوبهم وقد قال تعالى ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النّساء: ٧٦].

ورغم أنّ النّصوص القرآنيّة قد تضمّنت العديد من الحقائق التى تبيّن مدى سيطرة الشّيطان على حياة الإنسان، وتحكّمه فى إرادته والحكمة الرّبانيّة من الابتلاء بزلاّته ووساوسه، إلاّ أنّها فى الوقت نفسه أشارت إلى بعض العوامل المهمّة والتى منها:

(١) أنّ الشّيطان ليس له سلطان على إرادة المسلم إلاّ من سلّم قياد نفسه له وتبعه مُختارًا فى طريق الغواية، ويحمل العديد من النّصوص القرآنية الدّليل على هذه الحقيقة منها قول الله تعالى:

* ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢].
* ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[سبأ: ٢٠].
* ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النّحل: ٩٩].

ودلالة هذه الآيات أنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل للشّيطان اللّعين سُلطانا على المسلم وأنّ سُلطانه لا يكون إلاّ على الذين يتولونه ويجعلونه موجّها لهم ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الضّلال والغواية، وبهذا يظهر معنى قول الله سبحانه ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النّساء: ١٤١].

(٢) أنّ وظيفة الشّيطان اللّعين فى حياة الإنسان لا تتعدّى الوسوسة فى صدره إذ ليس له قدرة على أكثر من ذلك، ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة فى صورة خواطر تزيّن له الإثم وترسم لـه المعصية والانحراف عن سواء السّبيل، ودليل ذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: أى غرّهم بالأمانى الكاذبة والآمال الخادعة فى وساوسه وتسويلاته.

(٣) أنّ الله تعالى جعل كيد الشّيطان مُؤثّرا فى حياة الإنسان لإقامة التّوازن بين

دوافع الخير ونوازع الشّر فيه، وليطرح الإنسان عليه قسما من مسئولية الخطيئة التى يقع فيها فيجد لنفسه عذرا بأنّ فعل الشّر ليس من فطرته، وإنّما كان ذلك بغواية الشّيطان الملازم له فيلجأ إلى الله مُستغفرا ممّا علق به من الأدناس والمعاصى مستعيذا بربّه تعالى من هذا الشّيطان الرّجيم لما روى عن أبى موسى عن أبى بكر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «عَلَيْكُمْ بلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَالاسْتِغْفَارُ فَأَكْثِرُوا مِنْهُمَا، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالْمَعَاصِي وَأَهْلَكُونِي بلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَالاسْتِغْفَارُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُمْ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالأَهْوَاءِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فَلاَ يَسْتَغْفِرُونَ[1]».

ومنطوق الحديث يُبيّن أنّ أعدى عدوّ للمرء شيطانه ثمّ مُطلق هواه الذى يدعوه إلى اللّذة الحاضرة من غير فكر فى العاقبة، ويحثّه على نيل الشّهوات عاجلا وإن كانت سببا لأعظم الألام عاجلا وآجلا، ولذلك جاء ذمّه فى القرآن فى أكثر من آية منها قول الله تعالى:

* ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[الكهف: ٢٨].
* ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[طه: ١٦].

والمؤمن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه وسلطانه، فإنّ الشّيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمّة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحسّ منه بقوّة عزم وشرف نفس وعلوّ همّة لم يطمع فيه إلا اختلاسا وسرقة. إنّه يُطيف به لينظر كيف يدخل عليه حتّى يفسد قلبه ويخرّب عليه دينه فلا يجد مدخلا إلاّ من باب الهوى فيسرى معه سريان السمّ فى الأعضاء.

وما قارن الشّيطان شيئا إلاّ أفسده وما خالط الهوى طاعة إلاّ أتلفها، فإن وقع فى العلم أخرجه إلى البدعة والضّلالة، وإن وقع فى الزّهد أخرج صاحبه إلى الرّياء، وإن وقع فى الحكم أخرج صاحبه إلى الظّلم، وإن وقع فى القسمة خرجت من العدل إلى الجَوْر، وإن وقع فى العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة لله تعالى.

كما أنّ من أعظم القُربات فى مواجهة الشّيطان والهوى توحيد المرء لربّه واستغفاره لخالقه ومولاه، وليس أجمع من الشّهادة الحقّ التى تأتى منه تصديقا وإقرارا بالتّوحيد الخالص لله تعالى، وليس أثقل فى الميزان ولا أرجح فى الثّواب ولا أعظم فى الأجر من قول المسلم «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ». وفى رواية «خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ[2]». وإخلاصها أن تحجزه عمّا حرّم الله عليه، فإن أصاب ذلك رجح ثوابُها وعظُم أجرُها أمام ثقل

---

(١) ذكره فى كتاب الإبداع [ص ٦٠] وقال رواه ابن أبى عاصم وغيره.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٥٧٠] ومسلم [٣١].

السّموات والأرض وكانت له حجابا من النّار لقوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَفِي قَلْبِه وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ(١)».

وفي الحديث يشير رسول الله ﷺ إلى التّفاوت في الإيمان القائم بالقلب من وزن الشّعيرة والبُرَّة والذَّرة وأنّ التّصديق فيه يكون على قدر العلم والجهل، فمن قلّ علمه كان تصديقه ذرَّة، والذى فوقه من العلم يكون تصديقه بمقدار بُرَّة أو شعيرة، إلاّ أنّ أصل التّصديق الحاصل في قلب كلّ واحد منهم لا يجوز عليه النّقصان ويجوز عليه الزّيادة بزيادة العلم والمعاينة.

أمّا من لزم الاستغفار وجعله دأبه فإنّ الله تعالى يجعل له من كلّ همّ فرجا ومن كلّ ضيق مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب لقول النّبى ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه رفعه «قَالَ إِبْلِيسُ: يَارَبِّ لاَ أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى وَعِزَّتِى وَجَلاَلِى لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى(٢)».

ومن قوله ﷺ عند مسلم «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِى وَرَجَوْتَنِى غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِى، يَا ابْنَ آدَمَ: لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِى غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِى، يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِى لاَ تُشْرِكُ بِى شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً(٣)». و«القُرَابُ»: من قارب يُقارب مُقاربة أى بما يقارب قدرها من الثّواب العظيم والعطاء الجزيل.

وقبل أن نعرض لتلك المعركة التى أعلنها الشّيطان على أهل التّوحيد وقد انبثقت عواملها من خليقة الشّر الكامنة فيه، وانطلقت عناصرها من حسده وكبريائه وحقده على دعوة الحقّ، وأنّه قد استصدر بها من الله تعالى إذنا فأذن فيها سبحانه لسابق علمه كما فى التّنزيل الحكيم أنّ ﴿كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ والله عزّ وجلّ لم يترك المسلم فى هذه المعركة خاليا من عناصر المواجهة حيث جعل له من الإيمان جُنَّةً ووقايَةً، ومن الذّكر عُدَّةً واحْتِرَازًا، ومن الاستعاذة سلاحًا وقُرْبَةً.

وقبل أن نتعرّف على هذا كلّه كان لابدّ من الإشارة إلى مركز الصّراع فى هذه المعركة ذلك الذى جعله الله تعالى محلا للإيمان والتّقوى والصّلاح وهو {القلب} تلك المعجزة الإلهية التى أبدعها تعالى فى خلق هذا الإنسان.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٤] ومسلم [١٩٣]. (٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١١٨٣].
(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢١٣٩٧] والتّرمذى [٣٥٤٠].

(الكتاب الثالث)

الإعجاز الإلهى وقلب الإنسان

من الإعجاز الإلهى فى خلق الإنسان أن جعل لهذا «القلب» وهو العضو العضلى الأجوف فى الصّدر وظيفتين:

(الأُولى) وظيفة [عضوية] تتعلّق باستقبال الدّم من الأوردة ودفعه فى الشّرايين إلى جميع أجزاء الجسم لتحقيق نبض الحياة فيه.

(والثّانية) وظيفة [معنوية] يمثل القلب من خلالها رمزية الإيمان والاعتقاد عند النّاس لسرعة الخواطر إليه وتردّدها عليه كما يتعلّق ذلك بركائز الأخلاق وضوابط السّلوك فيه.

وهاتان الوظيفتان تترجمان المعنى الصّحيح لقوله ﷺ من حديث النّعمان بن بشير «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ(1)». ولقد جاءت تسمية النّبىﷺ له «بالْمُضْغَة» وهى قدر ما يُمضغ من الشّىء، أى قطعة صغيرة من اللّحم ويعنى بذلك صغير جرمها وعظيم قدرها. وعبّر بها هنا عن مقدار القلب فى الحجم والرُّؤية، وفيه يجمع ﷺ بين أهمية الجانب العضوى الملموس الذى يُمثّل قوام حياة الجسد، والجانب المعنوى الرّوحى الذى يُمثّل قوام العقيدة والإيمان، فإذا صلح قلب الإنسان صلح أمره كلّه، وإذا فسد فسد أمره كلّه.

ولقد جاءت الإشارة إلى القلب فى القرآن الكريم بالإفراد والجمع ومع عدد من الضّمائر المختلفة [١٣٢] مرّة، وجميع النّاس إلى اليوم يعتقدون بأنّ القلب هو مجرّد مضخّة تضخّ الدّم الفاسد إلى الرّئتين لتنقيته وتتلقى الدّم المؤكسد منها لتضخّه إلى مختلف أجزاء الجسم وأوّلها المخ الذى لو تأخر ضخّ الدّم إليه لثوان معدودة لهلك صاحبه فى الحال.

وفى ظلّ سيادة هذا الاعتقاد نجد أنّ القرآن الكريم قد نزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بالتّأكيد على أنّ للقلب وظائف أُخرى منها أنّه هو الذى يكسب الأعمال خيرها وشرّها، وهو مكان الاطمئنان والأمن، أو الانزعاج والخوف والرّعب، وهو محلّ الشّهادة أو إنكارها، ومحلّ الخير أو الإثم، ومحلّ الهداية أو الزّيغ، وهو محلّ الفَهم والفقه، أو سوء الفَهم واللّبس، وهو محل الرِّقّة واللّين، أو القسوة والغلظة، وهو محلّ اليقين أو الرّيبة، والإيمان أو الكفر، واليقظة أو الغفلة، وهو محلّ التّعقُّل ووزن الأمور أو تضييعها، ومحلّ البصيرة أو العمى، ومحلّ السّلامة أو الحقد، ومحلّ القصد والعمد، أو العشوائيّة

---

(١) قطعة من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢] ومسلم [١٥٩٩/١٠٧] وأبو داود [٣٣٢٩].

والارتجال، وهو سبب الانفتاح على أى من الخير أو الشّر، أو الانغلاق على أى منهما، وهو محلّ الخشية والإنابة، أو التبجُّح فى المعصية والغى، ومحلّ التذكُّر والفطنة، أو النّسيان والغفلة، ومحلّ المحبّة والرّحمة والرّأفة، أو الكراهية والغلّ والقسوة، ومحل الهداية أو الضّلال، ومحل غير ذلك من الصّفات التى تشكّل شخصيّة الإنسان، لأنّ أعمال العبد إمّا أن تُطهّر قلبه وتزكّيه أو تتجمّع عليه كالرّان الأسود فتطمسه.

والقرآن الكريم يصوّر عمل القلب كأداة للإدراك العقلى المستند إلى الملاحظة والمشاهدة فى قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]. فالآية تستنكر عجز الجاهلين عن تشغيل عقولهم فى فهم ما لاحظوه وشاهدوه من آيات وعبر، وقد تكون الحواسّ من سمع وبصر سليمة لكنّ القلب أو العقل الذى يتلقّى إحساساتها ومشاعرها أعمى وهو ما جاء التّعبير عنه فى قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. فالقلب هو مَلكة المعرفة النّورانية أو الحدسيّة التى يعبّر عنها فى التّنزيل الحكيم بانشراح الصّدر ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزّمر: ٢٢]. وهذه الملَكة النّورانية المعرفيّة لها أهميّة كبرى فى تحصيل المعارف، ومن غضب الله على العبد أن يحرمه هذا النّو رلقول الله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

كما ينطوى القلب على الضّمير الأخلاقى الذى يميّز بين الخير والشّر من خلال وظيفتين:

(الأُولى) إدراكيّة تمييزيّة وإليها ترتكن أعمال الخير والبرّ وتنطلق إرادات الهداية والتقوى ولذلك كان القلب حاويا للإيمان ومقوّماته من قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

(والثّانية) إراديّة تعريفيّة وإليها تنتسب أعمال الشّر عندما تكتظ تلك الحاوية بالعقائد الزّائفة من الشّك الرّيبة وهى المشار إليها فى قوله تعالى ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التّوبة: ٤٥].

وقد يُصاب القلب بالمرض فى إحدى مَلَكَاته أو جميعها وقد يُصاب بالعجز الكلّى أو الشّلل التّام فينخسف المرء إلى مستوى البهيمة إذ لا يبقى منه إلاّ جسده ويكون بلا أداة للإدراك العقلى، وقد صوّر القرآن هذا الشّلل الذى يصيب القلوب والأعين والآذان فى قول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

وفى الآية الكريمة يضيف الخالق سبحانه العقل إلى القلب لأنّه محله وغايته كما أنّ

الأذن محلّ للسّمع ووسيلته، والمقصود بعمى القلوب عدم إدراكها للحقّ واعتبارها بالمواعظ والآيات البالغات، ومن حكمته تعالى أن جعل البصر النّاظر فى العين، والبصر النّافع فى القلب، وأهل الضّلال يرون فلا يدركون ويسمعون فلا يعتبرون، وعندما أدرك أهل الفطرة السَّويَّة هذه الحقيقة قالوا إنّ لكلّ إنسان أربعَ أعين، عينان فى رأسه لدُنياه، وعينان فى قلبه لآخرته، فإن عميَت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضرّه عماه شيئا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا.

كما تشير الآية إلى أنّ اعتبار القلب وتدبُّره لا يتكاملان إلاّ بمشاهدة العين واستماع الأذن، لأنّ من عاين وسمع ثمّ لم يتدبّر ولم يعتبر لم ينتفع أبدا بما رأى أو سمع، ولو فكّر فيما رأى أو سمع لانتفع، فالآية تنفى العمى عن أبصارهم لكونهم يبصرون وتثبته لقلوبهم حيث لم ينتفعوا بما يبصرون أو يسمعون.

ورغم أنّ الكلّ يعرف أنّ القلب لا يكون إلاّ فى الصّدر، والمتعارف عليه كذلك أنّ العمى مكانه حَدَقَة العين، إلاّ أنّه عندما أُريد إثبات هذا العمى للقلب على خلاف المتعارف أُحتيج إلى زيادة فى التّوكيد وزيادة فى إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التّحديد فى قوله تعالى﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. ولو كانت هذه القلوب مُبصرة لجاشت بالذّكرى، وتأثّرت بالعبرة، وجنحت إلى الإيمان بخالقها سبحانه خشية العاقبة الماثلة فى مصارع الغابرين.

ثمّ يأتى الحديث عن القلب كمعجزة إلهيّة من خلال التّبويب التّالى:

(الباب الأوّل)

الوظيفة العضوية والمعنوية للقلب

(أ) الوظيفة العضوية للقلب

يعجب المرء لتلك الحقيقة التى يقرّرها رسول الله ﷺ بدقّة فائقة، عندما يبيّن أنّ فساد القلب يترتّب عليه فساد الجسد كلّه إذا ما أخلّ بوظيفته التى هيّأه الخالق لها، ذلك لأنّ القلب يقوم بضخّ الدّم غير النّقى من البطين الأيمن إلى الرّئتين حيث يتمّ تنقيته وأكسدته، ويعود الدّم المؤكسد النّقى من الرّئتين إلى البطين الأيسر الذى يضخّه إلى كلّ أجزاء الجسم فيمدّ تريليونات الخلايا المكوّنة لجسم الإنسان بغاز الأوكسجين والغذاء، فإذا ما اضطربت هذه الوظيفة أو اختلّت وفسدت وصل هذا الفساد إلى سائر خلايا الجسد.

ومن المؤكّدات العلمية أنّ القلب طالما كان سليما استقامت الدّورة الدّموية، ونالت كلّ خليّة حيّة فى الجسد حظّها من الدّم الذى يحمل له الغذاء والأوكسجين الذى يتمّ به

احتراق المواد الغذائية وانطلاق الطّاقة فيه، وإذا اختلّت وظيفة القلب اختلّت معه الدّورة الدّموية واختلّ وصول الغذاء والأوكسجين إلى خلايا الجسم كلّه فيفسد.

وفى الوقت الذى لم يستطع فيه واحد فى الجزيرة العربية أن يتعرّف على حقيقة الدّورة الدّموية فى جسم الإنسان ودور القلب فيها أو يعلم عنها شيئا، يُخْبِرُ رَسُولُ الله ﷺ بتلك العلاقة التى لم يدركها علم الإنسان المكتسب حتّى قام العالم المسلم [ابنُ النَفيس] باكتشاف الدّورة الدّموية الصّغرى فى القرن الهجرى السّابع، وظلّت فكرته مطمورة منسيّة لأكثر من ثلاثة قرون حين حاول بعض الغربيّين نسبتها لأنفسهم فأحيوها وطوروها وأضافوا إليها، وفى هذا دلالة عظمى على صدق نبىّ الإسلام ورحمة الله للعالمين محمّد ﷺ وعلى أنّ مصدر ذلك هو وحى السّماء.

كيف تعمل الدّورة الدّموية ؟

كلّما زاد فهم المرء لطبيعة وظيفة القلب وقدرته الفذّة على مواءمة عضلته لمواجهة الظّروف المتغيّرة فى حياته، ومدى اعتماده فى استمرار هذه الحياة على تلك العضلة الكمّثريّة الشّكل الموجودة فى القفص الصّدرى، زاد إيمانه بالقدرة الخارقة التى أبدعت صنع هذا الإنسان، وازداد يقينه بأنّ الذى وهبه الحياة بهذا القلب قد خلق فسوّى وقدّر فهدى.

لقد ربط الخالق جلّ شأنه حياة الإنسان بتلك المضغة التى لا يزيد حجمها عن حجم قبضة اليد ولا يزيد وزنها فى الفرد البالغ عن ثلث كيلو جرام، وتقوم بحوالى سبعين نبضة فى الدّقيقة، والتى تبلغ حوالى مائة ألف نبضة فى اليوم لتضخّ خمسة لترات من الدّم فى كلّ دقيقة، أى بمعدّل [٧٢٠٠ لترا] فى اليوم الواحد عبر شبكة معقّدة من الشّرايين والأوردة والشّعيرات الدّموية يبلغ طولها آلاف الكيلو مترات لتُوصّل الدّم النّقى إلى كلّ خليّة حيّة فى الجسم وتنزع منها الدّم غير المؤكسد.

ويشغل القلب نسبة معقولة من فراغ التّجويف الصّدرى متّخذا له درعا من قفص الضّلوع المحيط به، ويبعد عن العمود الفقرى من الخلف بمقدار بوصة واحدة، ويرتكز القلب عند معظم النّاس على الحجاب الحاجز ويتحرّك معه فى الشّهيق والزّفير، غير أنّه عند طُوال القامة ونُحاف البنية يلامس الحجاب الحاجز جزءا صغيرا من القلب، كما يختلف وزن القلب وحجمه بحسب حجم كلّ شخص ولكنّه يتراوح عادة فى الشّخص البالغ بين نصف رطل فى النّساء النّحيفات وثلاثة أرباع الرّطل فى الرّجال الكبار.

وأشار علماء الطّب إلى أنّ القلب يعمل كمضخّة تدفع الدّم داخل أنابيب دقيقة تسمّى الأوعية الدّموية، عندما يحمل هذا الدّم الأكسجين والغذاء إلى الخلايا ويتخلّص من المواد الضّارة بواسطة جهاز التّرشيح الموجود فى الكُلى، ويرجع الدّم ثانية إلى

القلب ليدفعه إلى الرّئة حيث يتخلّص من ثانى أكسيد الكربون ويتزوّد بكميّة نقيّة من الأكسجين، ثمّ يرجع مرّة أخرى إلى القلب ليبدأ رحلة جديدة إلى الخلايا.

وتختلف كميّة الدّم داخل الدّورة باختلاف حجم كلّ إنسان ولكنّها تصل إلى حوالى ستّة لترات في الشّخص البالغ، ويسير الدّم بسرعة هائلة من القلب فى طريقه لتغذية الخلايا ولكنّه يُبطىء عند العودة، والشّبكة التى تحمل «الدّم النّقى» تسمّى «الشّرايين» وهى تتفرّع إلى أنابيب أصغر حتّى تصل إلى الشّعيرات الدّموية ذات الجُدُر الرّقيقة التى يُمكن لخلايا الجسم أن تمتصّ من خلالها الغذاء. أمّا الشّبكة التى تعود بالدّم ثانية إلى القلب فتُسمّى «بالأوردة» ويمكن التّمييز بينهما بسهولة، فالدّم «الشّريانى» أحمر قانٍ بسبب تشبُّعه بالأكسجين، أمّا الدّم «الوريدى» فلونه «أزرق داكن» لقيام هذه الأنسجة بامتصاص معظم ما يحتويه من الأكسجين.

ويمكن مقارنة القلب بمجموعة متجاورة من أربع غرف، الغرفتان الأماميّتان كبيرتان ذات حوائط سميكة، إلاّ أنّ اليسرى منهما أسمك جُدُرا من اليمنى، وهاتان الغرفتان هما «البُطين الأيمن» و «البُطين الأيسر» وخلفهما تقع الغُرفتان الأخريان ولكنّهما أصغر حجما وأرَقّ جُدرا وهما ما يُعرَفان «بالأُذين الأيمن» و «الأُذين الأيسر».

ويُبطَّن جدر القلب من الدّاخل غشاء رقيق يزداد سمكه بين الأُذينين والبُطينين ليكوّن جدارا سميكا تخترقه فتحات تصل بين كلّ أذين والبطين الذى يجاوره، وعلى هذه الفتحات توجد صمامات تسمح بمرور الدّم فى اتجاه واحد، وبذلك تمنع تسرّب الدّم إلى الأُذينين عند انقباض القلب كى يدفعه إلى الرّئتين وإلى «شريان الأَوُرْطى» وهو الشّريان الرّئيسى الذى يغذّى جسم الإنسان بالدّم النّقى الخارج من القلب.

والجُدُر المحيطة بهذه الغرف هى عضلة القلب التى يسبّب انقباضها وانبساطها «دفع الدّم» وهو ما نعبّر عنه بدقّات القلب، ويحيط بهذا العضو غشاء واق يسمّى «التّامور» وهو أسمك من الأغشية الواقية المحيطة بالأعضاء الأخرى، وينبثق من قمّة البُطين الأيسر ثمّ ينحنى كقوس حاد ليمرّ إلى أسفل من خلف القلب، إذ هو جذع الشّجرة الشّريانية كلّها المعروف بالأبهر أو الأَوُرْطَى.

وأوّل ما ينبثق من جذع الأورطى هى الشّرايين التّاجيّة التى تتفرّع بدورها إلى شبكة كبيرة لتغذّى عضلة القلب، إذ تحتاج هذه العضلة للغذاء أكثر من أى عضو آخر، وقد سُمِّيت الشّرايين التى تغذّى القلب «بالشّرايين التّاجيّة» لأنّها تحيط بالقلب وتغطّيه بما يشبه التّاج، كما ينبثق من البُطين الأيمن شرْيان أصغر حجما هو «الشّريان الرّئوى» الذى يخترق قوس الأورطى وهو الشّرْيان الوحيد الذى يحمل الدّم المستعمل من القلب إلى الرّئة حتّى يتنقّى ويتشبّع بالأكسجين.

وحتّى يتمّ التّوازن بين هذين الوعاءين الكبيرين الخارجين من القلب توجد ستّة أوعية :

(١) يدخل اثنان منهما الأُذين الأيمن ، أولهما يصل إلى قمّته حاملا الدّم من الرّأس والذّراعين ، والثّاني يدخل قاعدته حاملا الدّم من السّاقين وباقي أعضاء الجسم السّفلي .

(٢) وتصل أربعة أوعية إلى الأُذين الأيسر ، اثنان من كلّ رئة يحمل كلّ منها دما نقيا ليدفعه البطين الأيسر لكافة أنحاء الجسم .

كما اقتضت حكمة الله البالغة أن يعمل القلب طيلة حياة الإنسان إلاّ فترة ما بين النّبضات التي تقدّر بجزء من الثّانية وهو ما يزيد قليلا عن الوقت الذي يعمل فيه القلب ، وهي من القِصَر بحيث لا تسمح بارتخاء [عضلة القلب] كباقي عضلات الجسم ، وفي العادة تستغرق دورة العمل في القلب جزءاً يسيراً من الثّانية ، ولهذا يتراوح النّبض ما بين [٧٠ و ٨٠] دقّة في الدّقيقة الواحدة ويزيد عن ذلك عند الإجهاد العنيف والإثارة الشّديدة .

ومع ذلك فإنّ الدّقة التي يحسّها الإنسان عندما يضع يده على صدره لا تمثّل إلاّ جزءا من نشاط القلب يتكرّر بانتظام طيلة الحياة ، كما يتكرّر التّنفّس بانتظام ليمدّ الدّم بالأكسجين ، وعندما ترتخي [عضلة القلب] بين الدّقات يمتلىء الأُذينان بالدّم ، فيصبّ الدّم الأزرق القاتم في الأُذين الأيمن ، ويصبّ الدّم الأحمر اللامع الذي تشبّع حديثا بالأكسجين من الرّئة في الأُذين الأيسر ، وعندما تمتلىء هاتان الغرفتان بالدّم تنقبض عضلاتهما فتتفتّح الصّمامات ويتدفّق الدّم إلى البُطينين .

وبعد ما يزيد عن خُمس الثانية تنقبض عضلات البُطين مُغلقة الصّمامات المؤدّية إلى الأُذينين ، وتلك هي القوّة الدّافعة التي نحسّها كدقّات القلب وتسمّى بفترة الانقباض وهي أقوى في البُطين الأيسر منها في البُطين الأيمن ، إذ يحتاج المرء إلى قوّة أكبر لدفع الدّم إلى جميع أجزاء الجسم عمّا يحتاجه لدفع الدّم إلى الرّئتين ، وفي كلّ انقباضة قويّة يدفع القلب ثلاث أوقيّات من الدّم في الأورطي ، وهذه كمية تعادل ١,٥٪ من مجموع حجم الدّم في الجسم ، وبذلك فإنّ [٦٠ ـ ٧٠] نبضة في الدّقيقة تكفي لمرور جميع الدّم في القلب والدّورة الدّموية ٦٠ مرّة في السّاعة الواحدة .

وليس للقلب دخل بنوع الدّم الذي يوصّله بكلّ أمانة ونظام لمختلف أجزاء الجسم ، فهو يمتصّ ما يصل إليه ويدفعه ثانية بصرف النّظر عمّا يكون قد طرأ على هذا السّائل من تغييرات أو نقص في بعض عناصره ، فهناك [عضوان آخران] مهمتهما الرّقابة المحكمة على نوع الدّم وتخليصه من الشّوائب والمحافظة على التّركيب الطّبيعي له :

(أولهما) ـ الكُلْيَتَان

الكُلْيَتَان ـ بالضَّمِّ ـ لَحْمَتَان مُنْتَبِرَتَان حَمراوان لازقتان بعظم الصُّلب عند الخاصرتين في قُطْرَيْن من الشَّحْم وهي من القَوْس ما بين الأبهر والكبد، وهما كُلْوَتَان أو كُلْيَتان وجمعها: كُلْيَاتٌ وكُلًى. والكُلْيَةُ هي المسئولة عن تطهير الدّم من كلّ شوائبه فيما عدا ثاني أكسيد الكربون، إذ يتمّ فيها اختبار تركيب الدّم لامتصاص ما يلزم من عناصر واستبعاد الزّائد منها في البول.

وتتكوّن كلّ كُلْيَة من حوالي مليون وحدة ترشيح يدخل الدّم فيها جميعا فيرشّح كلّ شيء فيما عدا زلاليّات الدّم، وفي الجزء الأوّل من القنوات الكُلَوية يتم امتصاص الماء ثانية ومعه الأملاح اللاّزمة لتكوين الدّم الطّبيعي، أمّا الزّائد من الماء والأملاح فيصل إلى الحالب والمثانة ويخرج في هيئة بول.

وتتوقّف سلامة الصّحة على استمرار قدرة الكُلَى على ترشيح الماء وامتصاصه ثانية إذ ترشح الكُليتان في الشّخص العادي ما يقرب من ١٨٥ كوبا من الماء في مدى ٢٤ ساعة، ويمتصّ الدّم جميع هذه الكميّة ثانية فيما عدا ما يقرب من لترين هما مقدار البول الذي يخرج من الجسم يوميا، وبالطّبع تزداد كميّة البول إذا شرب الشّخص كمية من السّوائل أكثر من اللاّزم.

وجهاز التّرشيح من الدّقة بحيث أنّ الكُلَى هو العنصر الوحيد في الجسم الذي له تصميم لضبط ضغط الدّم داخل أوعيتها، فهناك صمامات لزيادة أو انقاص اندفاع الدّم للمحافظة على درجة معتدلة من الضّغط داخل الأوعية الهشّة الرّقيقة الخاصّة بعمليات التّرشيح والامتصاص.

وبعد أن يدخل الدّم الكُلَى ويساهم في هذه العمليات تحمله «الأوردة» ثانية إلى القلب في طريقه إلى الرّئة ليستمدّ كميّة طازجة من الأكسجين، وبالرّغم من دقّة وظائف الكُلْيَة فإنّ لها قدرة فذّة على العمل بحيث إنّه عند الضّرورة تقوم كُلْيَةٌ واحدة بعمل الاثنتين كما في الرّئتين، فإنّ استئصال كُلْيَة واحدة أو فشلها بسبب مرض أو حادث لا يعوق النّشاط العادي للإنسان.

(والثّاني) ـ الرّئتان

[هما عضوا التّنفّس اللّتان تتولّيان التّخلّص من ثاني أكسيد الكربون واستبداله بالأكسجين عندما تستقبلان ثلاث أُوقيّات من الدّم مع كلّ دقّة من دقّات القلب، وتقوم بتوزيعها على آلاف الأوعية المنتشرة في نسيجها الإسفنجي لتتعرّض للهواء الذي نستنشقه، وبذلك يتخلّص الدّم من ثاني أكسيد الكربون ويتجدّد بالأكسجين

ويرجع ثانية إلى القلب، وللرّئة قدرة فذّة فى ذلك إذ تستطيع رئة واحدة أن تقوم بكامل العبء فى سهولة ويسر لكافة مطالب الحياة العادية إذا تعطلت الأخرى لسبب من الأسباب[1)].

(٢) الوظيفة المعنوية للقلب

للقلب فى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ مدلول آخر يتعلّق بالعواطف، والمفاهيم والأفكار، والعقائد، وركائز الأخلاق، وضوابط السّلوك، وهى قضايا ليس مقرّها القلب العضلى، وإنّما ترتبط ارتباطا مباشرا بتلك اللّطيفة الرّبانية التى أودعها الله تعالى فيه وتجمع كلّ معانى الإدراك، والعلم والمعرفة، والإيمان واليقين، وجعلها الخالق سبحانه محلّ نظره من الإنسان واعتباره، كما فى قوله ﷺ «إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ[2]».

(قال) فى المُفهم [ونظرُ الله تعالى هو رُؤيته للموجودات، واطّلاعه عليها لا يخصّ موجودا دون موجود، بل يعمُّ جميعَ الأشياء؛ إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السّماء، ثمَّ قد جاء فى الشّرع نظر الله تعالى بمعنى: رحمته للمنظور إليه، وبمعنى قبول أعماله ومجازاته عليها، وهذا هو النَّظر الذى يخصّ به بعض الأشياء وينفى عن بعضها كما فى قول الله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧٧].

فقوله هنا «إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» أى: لا يثيبكم عليها ولا يقرّبكم إليه بها ومن ذلك قوله تعالى﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].

ويستفاد من هذا الحديث عدّة فوائد:

(إحداها) صرف الهمّة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته ويتأتى ذلك بتحقيق علومه وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره من مذموم الصّفات، واتصافه بمحمودها، فإنّه لـمّا كان القلب هو محلُّ نظرِ الله تعالى فحقّ العالم بقدر اطّلاع الله تعالى على قلبه أن يفتّش عن صفات قلبه وأحوالها، لإمكان أن يكون فى قلبه وصف مذموم يمقته الله تعالى بسببه.

(الثّانية) أنّ الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مُقَدَّمٌ على الأعمال بالجوارح لتخصيص

---

(١) انظر كتاب [أنت وقلبك] تأليف: D.M.MARVIN طبعة دار الهلال (ص ١٧ ـ ٢٦ ملخّصا).

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٤ / ٢٥٦٤] وأحمد [٧٨١٤] وابن ماجه [٣٣٥٩].

القلب بالذكر مُقدَّما على الأعمال، وإنّما كان ذلك لأنّ أعمال القلوب هي المصحِّحة للأعمال؛ إذ لا يصحُّ عمل شرعي إلاّ من مُؤمن عالم بمن كلّفه به مخلص له فيما يعمله. ثمّ لا يكمل ذلك إلاّ بمراقبة الحقّ فيه وهو الذى عبّر عنه ﷺ بالإحسان حيث قال «أنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ[1]». وقد تقدّم قوله ﷺ «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».

(الثّالثة) أنّه لـمّا كانت القلوب هى المصحّحة للأعمال الظّاهرة وأعمال القلب غيب عنّا فلا يقطع بمغيب أحدٍ لما يرى عليه من صور أعمال الطّاعة أو المخالفة، فلعلّ من يحافظ على الأعمال الظّاهرة يعلم الله تعالى من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصحّ معه تلك الأعمال، ولعلّ من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله أنّ فى قلبه وَصْفًا محمودا يغفرُ له بسببه، فالأعمال أمارات ظنيّة لا أدلّة قطعيّة، يترتّب عليها عدم الغلوّ فى تعظيم مَنْ رأينا عليه أفعالا صالحة وعدم الاحتقار لمن رأينا عليه أفعالا سيِّئة، بل تُحتقر وتُذمُّ تلك الحالة السيِّئة لا تلك الذّات السيِّئة، فتدبّر هذا فإنّه نظرٌ دقيق.

وحاصل هذه الثّلاثة [أنّ الإثابة والتّقريب ليسا باعتبار الأعمال الظّاهرة، وإنّما هى باعتبار ما فى القلب من تعظيم الله وخشيته ومراقبته، وأنّ المقصود بنظر الله تعالى هو مجازاته ومحاسبته على ما فى القلب دون الصّور الظّاهرة من مال وجاه وهو مقصود قوله ﷺ «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».[2]]

كما تشير إلى أهميّة الاعتناء بحال القلب وصفاته، ولا يكون ذلك إلاّ بتحقيق علومه وتصحيح مقاصده وعزائمه، وتطهيره عن كلّ وصف مذموم، وتحليته بكلّ نعت محمود، فصلاح القلب مُقدَّم على عمل الجوارح لكونه المصحّح للأعمال الشّرعية التى لا تكمل ولا تُقبل إلاّ بمراقبة الله تعالى وخشيته والإخلاص له سبحانه.

ولمّا كان القلب من أشرف ما منح الله تعالى للإنسان باعتباره موضع فكره وعقله، والمسيطر على جوارحه وتصرّفاته، والموجّه لمداركه ومشاعره، جعله الله خالص ما فى البدن وخالص كلّ شيء قلبه ولُبّه، والقلب فى الأصل مصدر قلبت الشّيء أقلبه قلبًا إذا رددته على بدأته، وقلبت الإناء: إذا رددته على وجهه.

ثمّ لـمّا نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشّريف التزمت فيه تفخيم قافه تفريقًا بينه وبين أصله، وما سُمّى القلب «قَلْبًا» إلاّ لتغيّره وسرعة تقلُّبه فى الأمور لما رواه أحمد عن أبى موسى رضي الله عنه من قوله ﷺ «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨] وأبو داود [٤٦٩٥].

(٢) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٦ ص ٥٣٨].

رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ، يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ[1]». وكما قيل:

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ   فَاحْذَرْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وعن المقداد بن الأسود قال «لاَ أَقُولُ فِي رَجُلٍ خَيْراً وَلاَ شَرًّا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُخْتَمُ لَهُ بعدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قيلَ وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلاَبًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا[2]». ولهذا المعنى كان ﷺ يُكثر من قول «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ[3]». وفي رواية «يَامُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ[4]». وقوله ﷺ «مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ»: أى مغيرها من شأن إلى آخر كالهداية بعد الضلالة، وعكسه «صَرِّفْ قُلُوبَنَا» أى على طاعتك فلا تزغها بعد الهدى.

وعن أنس قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَامُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ. فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ[5]».

وكما استعاذ رسول الله ﷺ من شرّ قلب لا يخشع بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ[6]». استعاذ كذلك من كلّ شرّ هو قابع فيه أو متسلّط عليه أو ملازم له فقال «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَشَرِّ بَصَرِي، وَشَرِّ لِسَانِي، وَشَرِّ قَلْبِي[7]». وقال «وَاهْدِ قَلْبِي وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي[8]».

و«السَّخِيمَةُ»: الغشّ والغلّ والحقد، ولمّا سُئل رسول الله ﷺ «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ الصَّادِقُ اللِّسَانِ، الْمَخْمُومُ الْقَلْبِ». قالوا: «هَذَا الصَّادِقُ اللِّسَانِ قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الْمَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ النَّقِيُّ الَّذِي لاَ غِلَّ فِيهِ وَلاَ حَسَدَ[9]». وجاء في سنن ابن ماجه بلفظ «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ[10]».

لذلك استحبّ النبي ﷺ لنقاء القلب أن يكون كالثّوب الأبيض المنَقّى من الدّنس

---

(1) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩٥٥٠] وأورده في صحيح الجامع [٢٣٦٥] والمشكاة [١٠٣].

(2) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٧٠٦] وأورده في الصّحيحة [١٧٧٢].

(3) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٤].

(4) أخرجه ابن ماجه [١٦٦] وأحمد [١٧٦٤٧] بإسناد صحيح.

(5) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢١٤٠].

(6) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٤٨٢].

(7) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٤٩٢] وأبوداود [١٥٥١].

(8) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٥٥١] وأبو داود [١٥١٠].

(9) أورده أبوعبيد في غريب الحديث [رقم ٢٨٠ / ٢].

(10) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٤٢١٦].

كما في قوله «وَأَنْقِ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ[1]». وقوله ﷺ «اللَّهُمَّ بَرِّدْ قَلْبِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ[2]».

تميُّز الإنسان بين المخلوقات بقلبه

وفارق بين قلب هذا الإنسان الذى اختاره الله تعالى لخلافته فى الأرض وجنس الحيوان الذى خصّه بهذا العضو المسمّى بالقلب وأودع فيه المعنى الذى تنتظم به المصالحُ المقصودة من ذلك النّوع، فتجد البهائم وقد أدركت مصالحها ومنافعها وميّزت بين مفاسدها ومضارّها مع اختلاف أشكالها وصُورها، إذ منها ما يمشى على بطنه، ومنها ما يمشى على أربع، ومنها ما يطير بجناحيه.

ثمّ خصّ الله تعالى من بين سائر الحيوان نوعَ الإنسان ـ الذى هو المقصود الأوّل من الكونين والمعنيُّ فى العالمين ـ بهذا القلب المخصوص المشتمل على هذا المعنى المخصوص الذى به تميّز الإنسان، ووقع بينه وبين سائر الحيوانات الفرقان، وهو المعنى الذى به يفهم القلب المفهومات، ويحصل به على معرفة الكليّات والجزئيّات، ويعرف به فَرْقَ ما بين الواجبات والجائزات والمستحيلات.

وإذا فهمت أنّ الإنسان إنّما شرّفه الله تعالى على سائر الحيوان بهذا القلب، وأنّ هذا القلبَ لم يشرف من حيث صورته الشّكلية فإنّها موجودة لغيره من الحيوانات البهيميّة بل من حيث هو مقرٌّ لتلك الخاصيّة الإلهيّة؛ علمت أنّه أشرفُ الأعضاء وأعزُّ الأجزاء، إذ ليس ذلك المعنى موجودا فى شىء منها.

ثمّ إنّ الجوارح مسخرةٌ له ومطيعة، فما استقرّ فيه ظهر عليها وعملت بمقتضاه إن خيرا فخير وإن شرّا فشر، وعند هذا ينكشف لك معنى قوله ﷺ «إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ». ولمّا ظهر ذلك وجبت العنايةُ بالأمور التى ينصلحُ بها القلب ليتّصف بها، وبالأمور التى تُفسد القلب ليتجنّبها، ومجموع ذلك [كما ذكره القرطبى[3]] علوم وأعمال وأحوال:

(أمّا العلوم فهى ثلاثة):

(الأوّل) العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه وتصديق رسله فيما جاؤوا به.

(والثّانى) العلم بأحكامه عليهم ومراده منهم.

(والثّالث) العلم بمساعى القلوب من خواطرها وهمومها ومحمود أوصافها ومذمومها.

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٨] والنّسائى [٦١].

(٢) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٤٧] والنّسائى [٤٠١].

(٣) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٤ ص ٤٩٦].

[وتتمثّل أعمال القلوب] : فى التّحلّى بالمحمود من الأوصاف والتّخلّى عن المذموم منها ، ومنازلة المقامات والتّرقّى عن مفضول المنازلات إلى سنىّ الحالات .

[وأمّا الأحوال] : فمراقبة الله تعالى فى السّر والعلن والتّمكّن من الاستقامة على السُّنن وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ حين قال «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» .

القلب والعقل

قد يُعبّر بالقلب عن العقل المُفكّر ويستعمله القرآن بمعنى العقل كثيرا ، لأنّه المغذى للعقل ولجميع أعضاء الجسم ، وبدونه لا تكون الحياة ، وقد أضاف الله تعالى الغقل إلى القلب باعتباره محلّه ، كما أضاف السّمع إلى الأذن والإبصار إلى العين لقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج :٤٦] .

وفى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق :٣٧] . قال المفسّرون : أى [عقل] . وعبّر عن العقل بالقلب [لأنّه محل استقراره ، ولأنّ القلب محل العقل فى قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب ، والصّدر محل الفؤاد[١]] . وروى البخارى فى الأدب المُفرد عن عياض بن خليفة أنّه سمع على بن أبى طالب رضي الله عنه بصفّين يقول «إِنَّ العقلَ فِى الْقَلْبِ وَالرَّحْمَةَ فِى الكَبِدِ ، والرَّأفَةَ فِى الطِّحَالِ ، والنَّفسَ فِى الرِّئَةِ[٢]» .

و(قال) أهل اللّغة : «العقل» ما يكون به التّفكير والاستدلال وتصوّر الأشياء على حقيقتها كقوله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[البقرة :٧٥] . أى أدركوه على حقيقته وعلموه علما ثابتا . ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾[الملك : ١٠] . أى ندرك الأمر على حقيقته . (أو) هو آلة الإدراك والتّمييز الذى يستطيع إذا صفا أنّ يميّز بين الحسن والقبيح ، والخير والشّر ، والحقّ والباطل . ومن معانيه «المنع» ، وسُمّى عقل الآدمى بذلك لأنّه يمنع صاحبه عن التورّط فى المهالك ويحبسه عنها من عَقَلَ عَقْلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها .

والعقل ضدّ الحمَق من حَمِقَ فُلاَنٌ حَمَقًا : قلّ عقله ، وعقَل الشّىءَ : فَهِمَهُ وأدركه ، كما يُطلق العقل اصطلاحا على ما يوصّل إلى ثمرة معرفة عواقب الأمور بقمع الشّهوات الدّاعية إلى اللّذّات التى تعقبها النّدامة ، وكذا العلوم المستفادة من التّجربة ، فإنّ من حنّكته التّجارب يقال عنه أنّه [عاقلٌ] ومن لم يتّصف بذلك يقال عنه [غبى جاهل] .

(قال) الرّاغب [العقل يُقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم ، ويقال للذى يستنبطه

---

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١ ص ١٨٩] . (٢) أخرجه البخارى فى الأدب المُفرد [٤٥٧] . وصِفّين بكسرتين وتشديد الفاء : موضع على شاطىء الفرات من الجانب الغربى من الرقّة ، وكانت موقعة صِفّين سنة ٣٧ هـ.

الإنسان بتلك القوّة [العقل]، ولهذا قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [العقل عقلان: مطبوع ومسموع، فلا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموع، كما لا ينفع ضوء الشّمس إذا لم يكن للعين ضوء].

[ويشير القرآن الكريم إلى أنّ [القلب] مناط كلّ من العقل والبصيرة كما في قوله تعالى ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ولقد أثبتت دراسات القلب أنّه عضو حيوى بشكل هائل وفعّال في جسم الإنسان، وأنّه يعمل على تواصل دائم مع مخّه عبر [أربعين ألف] خليّة عصبيّة تم اكتشافها مؤخرا فيه وكذلك في الغشاء البريتوني (PERITONEUM). المحيط به والمعروف باسم [الصّفاق] وأنّه يُفرز كمّا كبيرا من الهرمونات إلى تيّار الدّم الذى يضخّه إلى مُختلف أجزاء الجسم وأوّلها المخّ.

كذلك ثبت أنّ المخطّط الكهربائى للقلب هو أكبر بمائة ضعف من المخطّط الكهربائى للمخّ. وفي كلّ نبضة ينبضها يولّد طاقة مغناطيسيّة تفوق الطّاقة المغناطيسيّة للمخّ بخمسة آلاف ضعف، وبها يتواصل مع المخّ ومع باقى أجزاء الجسم، فالقلب يتحدّث مع المخّ وينسّق معه جميع أنشطته.

وكما ينشط المخّ بمراكز ذاكرته وحسّه بواسطة التّغذية الرّاجعة عبر كلّ من الشّبكات العصبيّة والدّمويّة، فكذلك القلب الذى يعمل كجهاز تخزين للمعلومات عن طريق التّغذية الرّاجعة عبر كلّ من الأعصاب والدّم كما أثبت الدّكتور بول برسال في مؤلّفه المعنون (شيفرة القلب ـ The Heart Code) وقد ثبت بالتّجربة أنّ أحد الأعراض النّاتجة عن العمليّات الجراحيّة بالقلب هو فقد شيء من الذّاكرة، ولذلك استنتج العلماء أنّ القلب هو مستودع الذّكريات الحياتيّة للإنسان.

والخلايا العصبيّة التى اكتُشفت مُؤخّرا في القلب تشابه تماما نظائرها في المخّ، ممّا أثارهذا التّساؤل الذى يدورحول قدرة القلب على التّفكير والشّعور والعاطفة والانفعال وتخزين المعلومات القريبة والبعيدة في ذاكرة تشبه ذاكرة المخّ؟. وجاءت إجابة أطبّاء القلب بكلّ من جامعة [ييل الأمريكيّة ومعهد هارتمان بولاية كاليفورنيا] بأنّ القلب جهاز فائق التّعقيد، وأنّ من صور هذا التّعقيد وجود جهاز عصبى معقّد بالقلب يشبه المخّ تماما له ذاكرة قصيرة وطويلة الأمد.

وقد اتّضح ذلكِ بجلاء عند نقل قلب من إنسان إلى إنسان آخر فيأخذ القلب المنقول معه من الذّكريات والمواهب، والعواطف والمشاعر، والهوايات والسّجايا، والتّفصيلات الخاصّة بالشّخص الذى أُخذ منه القلب، وبذلك ثبت بالملاحظات الدّقيقة أنّ القلب هو أكثر أجزاء الجسم تعقيدا وأكثرها دقّة وغموضا، وأنّه يتحكّم في المخّ أكثر من تحكُّم المخّ فيه، ويرسل إليه من المعلومات أضعاف ما يتلقى منه في علاقة عجيبة بدأت الدّراسات

الطبيّة المتقدّمة فى الكشف عنها، ويُشبّهها أطبّاء القلب بجهاز إرسال إذاعى بين القلب والمخّ يعمل بواسطة عدد من الحقول المغناطيسيّة التى يصدر أقواها من القلب إلى المخّ فيسبق القلب المخّ فى ردّات فعله.

كلّ ذلك يثبت سبق القرآن الكريم بالتّأكيد على هذه المعارف التى لا تُكتشف إلاّ فى العقدين الحالى والماضى، ممّا يبيّن لكلّ ذى بصيرة أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشريّة، بل هو كلام الخالق جلّ وعلا الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله محمّد ﷺ وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العليّة، وفى نفس لغة وحيه اللّغة العربيّة، حتّى يبقى القرآن الكريم شاهدا على الخلق أجمعين إلى يوم الدّين].

القلب والفؤاد

وإذا كان التّعبير القرآنى قد جاء عن القلب «بالعقل» الذى يحصل به التّمييز والإدراك، عبّر عنه كذلك «بالفؤاد» كما فى قول الله تعالى﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. وقوله تعالى﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠]. ويعنى فى الموضعين: «قلبك». كما يراد «بالفؤاد» فى قول الله تعالى﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [سورة النّجم: ١١]: حبّة القلب وسويداؤه والجمع: أفئدة ومنه قول الله تعالى﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾[الأنعام: ١١٠].

وعن الأفئدة فى قول الله تعالى﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[إبراهيم: ٤٣]. (قال) السّدّىّ: يعنى قلوبهم التى خرجت من «صدورهم» فنشبت فى حلوقهم، كما يأتى تأكيد القلب بالفؤاد فى قول الله تعالى﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ١٠]. والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدّهش فكادت تكشف أمر علاقتها به لولا أن ربط الله على قلبها الذى هو محل «فؤادها» بالصّبر ورباطة الجأش.

ويُنظر إلى حقيقة «الفؤاد» على أنّه علاقة غيبيّة بين العقل والقلب تهب الإنسان قدرا من الإدراك الذى لا يقوى العقل وحده على استيعابه، كما لا يتكوّن «فؤاد» الإنسان إلاّ بعد تمام تكوُّن جميع أعضاء جسمه ومختلف وسائل الحسّ فيه، ولذلك يأتى ترتيبه فى «القرآن الكريم» بعد كلّ من السّمع والبصر كما جاء ذلك فى قول الله تعالى﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]. وتقديم كلّ من السّمع والبصر على الفؤاد يشير إلى أنّ الرّابطة بين العقل والقلب لا تتمّ إلاّ بعد اكتمال بناء كلّ أعضاء الجسم حتّى تقوم هذه العلاقة الغيبيّة اللّطيفة بين العقل والقلب تلك التى يعبّر عنها بالفؤاد.

القلب والصّدر

كما أطلق القرآن مسمّى «الصّدر» بالإفراد والجمع وبالإسناد إلى عدد من الضّمائر بمعنى القلب [٤٤] مرّة منها قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه:٢٥]. وقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشّرح:١]. ومعناه في الآيتين: [قلبك]. والمراد من «الشّرح» على أحد الأقوال: ما يرجع إلى الإيمان والمعرفة والطّاعة. ومن الشّرح: «التّوسعة». ومعناه الإراحة من الهمّ. والعرب تسمّى الغمّ والهمّ «ضيق صدر» كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧].

والصّدر مُقَدَّمُ كلّ شىء، وصدر الإنسان هو الجزء الممتد من أسفل العنق إلى فضاء الجوف، وسُمّى القلب «صَدْرًا» لحلوله به واقترانه بلفظه، ويقصد بذات الصّدور: أسرار النّفوس ومكنون خباياها، وفى التّنزيل الحكيم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر:٣٨]. وقول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التّغابن:٤]. وذات الصّدور ما فيها، أى بما فى القلوب وما تحمله من خير وشرّ.

ويحكم علاقة القلب بالصّدر «لفظا ومعنى» آية وحديث:

أمّا الآية فقول الله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزّمر:٢٢]. وهى تؤكّد أنّ المقصود بالصّدر هو «القلب» عندما تشير إلى أمرين:

(أوّلهما) أنّ من كان على هُدى من ربّه تعالى فشرح قلبه ليس كمن طبع عليه وأقساه بالغفلة عن ذكره تعالى.

(والثّانى) أنّ انشراح الصّدر يأتى مقدّمة لخشوع القلب ورقّته وسكونه.

ولمّا كان البحث يدور حول علاقة القلب بالصّدر لغة ومعنى فقد أشار الفخر الرّازى فى تفسيره إلى الحكمة من ذكر {الصّدر} فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. ولم يذكر القلب معلّلا ذلك بأنّ «محل الوسوسة» هو «الصّدر» على ما جاء فى قول الله تعالى ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ بإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعى الخير وهى «الشَّرْحُ».

فلا جَرَمَ أن خصّ ذلك الشّرح بالصّدر باعتباره «حِصْنُ الْقَلْبِ» الذى إذا وجد الشّيطان فيه مسلكا أغار منه عليه وبثّ فيه من الهموم والغموم ما يكون سببا فى حرجه وضيقه ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

[فمن يقدر الله له الهداية وفق سنّته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ويتّجه إليه

بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾. فيتسع له ويستقبله في يسر ويتفاعل معه ويطمئن إليه ويستروح به ويستريح له، ومن يقدّر له الضّلال وفق سنّته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. فهو مُغلق مطموس يجد العسر والمشقّة في قبوله ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. وهي حالة نفسيّة تجسّم في حالة حسيّة من ضيق النفس وكربة الصّدر والرّهق المضنى في التّصعُّد إلى السّماء، وبناء اللّفظ ذاته ﴿يَصَّعَّدُ﴾ كما هو في [قراءة حفص] فيه هذا العسر والقبض والجهد، فيتناسق هذا المشهد الشّاخص مع الحالة الواقعة مع التّعبير اللّفظي المناسب في إيقاع واحد فريد ومتجانس[(١)]].

(قال) الزّجاج [الحرج أضيق الضّيق]. والمعنى أنّ الكافر من ضيق صدره كأنّه يريد أن يصّعّد في السّماء بحثا عمّا يستنشقه من الهواء وذلك من شدّة تسلّط الشّيطان عليه.

كما يبيّن أهل العلم أنّ من أعظم أسباب شرح الصّدر:

(١) التّوحيد الخالص لله تعالى والتّمسّك بهدى نبيّه ﷺ وبحسب كمال ذلك وقوّته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، أمّا الشّرك والضّلال فهما من أعظم أسباب ضيق الصّدر وانحراجه.

(٢) ومنها نورالإيمان الذى يقذفه الله تعالى في قلب العبد فإنّه يشرح الصّدر ويوسّعه ويُفرح القلب ويُؤنسه، فإذا فُقدَ هذا النّور من قلب العبد ضاق وحرج وصار في أضيق سجن وأصعبه، ولمّا قالوا «يَارَسُولَ الله أَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ؟ قَالَ: إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَتَحَ، قَالُوا يَارَسُولَ الله وَمَا عَلاَمَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُود، وَالتَّجَافِى عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، والاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه[(٢)]». فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب تحصيل نصيبه من هذا النّور.

(٣) ومنها العلم الذى كلّما اتّسع مجاله في فكر الإنسان انشرح صدره واتّسع، فأهل العلم النّافع الموروث عن رسول الله ﷺ هم أشرحُ النّاس صدرًا وأوسعُهم قلوبًا وأحسنُهم أخلاقًا وأطيبُهم عيشًا.

(٤) ومنها الإنابة إلى الله تعالى ومحبّته بكلّ القلب، والإقبال عليه والتّنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من محبّته لخالقه سبحانه، وكلّما كانت المحبّة أقوى وأشدّ كان الصّدر أفسح وأشرح.

[كما أنّ من أعظم أسباب ضيق الصّدر الإعراض عن الله تعالى وتعلّق القلب بغيره

(١) انظر في ظلال القرآن [ج ٣ ص ١٢٠٣].

(٢) أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود [٨٠٢٧] وذكره السّيوطى في الدّر المنثور [٣ / ٤٤].

سبحانه والغفلة عن ذكره وشكره، فإنّ من أحبّ شيئا غير الله عُذّبَ به في حياته، فما في الأرض أشقى ممّن أحبّ غير الله، ولا أكسف بالاً ولا أنكد عيشًا ولا أتعب قلبًا ممّن ابتعد عن طاعة خالقه ومولاه، فهما محبّتان لا ثالث لهما:

(الأولى) محبّة هي جنّة الدّنيا وسرور النّفس ولذّة القلب ونعيم الرّوح وغذاؤها ودواؤها بل حياتها وقُرّةُ عينها، وهي محبّة الله وحده بكلّ القلب والميل إليه والإرادة له حتّى تكون المحبّة كلّها له وإليه بلا منازع أو شريك، فكانت هذه المحبّة هي النّتاج الخالص لقوله تعالى ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

(والثّانية) محبّة هي عذاب الرّوح وغمّ النّفس وسجن القلب وضيق الصّدر، وهي سبب الألم والنّكد والعَناء، وهي محبّة ما سواه سبحانه وهو ما ذكره الخالق بقوله تعالى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

(٥) ومن أعظم أسباب انشراح الصّدر دوام ذكره تعالى على كلّ حال وفي كلّ موطن، فللذّكر تأثير عجيب في سعادة الصّدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

(٦) ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه وأنواع الإحسان، فإنّ الكريم المحسن أشرح النّاس صدرا وأطيبهم نفسا وأنعمهم قلبا، والبخيل الذى ليس فيه إحسان أضيق النّاس صدرا وأنكدهم عيشا وأعظمهم همّا وغمّا، وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصّحيح مثلا للبخيل والمتصدّق كمثل «رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ حَتَّى يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ[1]». فهذا مَثَلُ انشراح صدر المؤمن المتصدّق وانفساح قلبه، ومثلُ ضيّق صدر البخيل الشّحيح وانحصار قلبه.

(٧) ومنها الشّجاعة التى تُضفى على صاحبها انشراح الصّدر واتّساع القلب، أمّا الجبان فهو أضيق النّاس صدرا وأحصرهم قلبا لا فرحة له ولا سرور ولا لذّة له ولا نعيم، أمّا سرور الرّوح ولذّتها ونعيمها وابتهاجها فمحرّم على كلّ جبان، كما هو مُحرَّم على كلّ بخيل وعلى كلّ مُعرض عن الله سبحانه غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه مُتعلّق القلب بغيره، وإنّ هذا النّعيم والسّرور يصير فى القبر رياضا وجنّة، وذلك الضّيق والحصر ينقلب فى القبر عذابا وسجنا، فحال العبد فى القبر كحال القلب فى الصّدر نعيما وعذابا وسجنا وانطلاقا.

(٨) ومنها بل من أعظمها إخراج دَغَلِ القلب من الصّفات المذمومة التى تُوجب ضيقه

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٢ ص ٢٣ - ٢٧ بتصرّف].

وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البُرء والسّلامة، فإنّ الإنسان إذا أتى الأسباب التى تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادّتان تعتوران على قلبه وهو للمادّة الغالبة عليه منهما.

(٩) ومنها ترك فضول النّظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنّوم، فإنّ هذه الفضول تستحيل آلاما وغُموما وهموما فى القلب تحصره وتحبسه وتضيّقه فيتعذّب بها فى حياته، بل غالب عذاب الدّنيا والآخرة منها:

* فما أضيقَ صدرَ من ضرب فى [كلّ آفة] من هذه الآفات بسهم وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله وما أشدّ حصرَ قلبه !!.

* وما أنعم عيش من ضرب فى [كلّ خصلة] من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همّته دائرة عليها حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قول الله تعالى﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[الانفطار:١٣]. ولذاك نصيب وافر من قوله تعالى﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[الانفطار: ١٤]. فبين شرح الصّدر وضيقه مراتب مُتفاوتة لا يحصيها إلاّ الله تعالى[(١)]].

أمّا [الحديث] فهو المروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِى مَكَانِهِ(٢)». وقوله ﷺ من رواية مسلم «فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفَرَجَ صَدْرِى، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِى صَدْرِى، ثُمَّ أَطْبَقَهُ(٣)». ثمّ يأتى البيان المعبّر عن القلب بالصّدر فى قول النّبى ﷺ «فَشَرَحَ صَدْرِى إِلَى كَذَا وكذا، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِى فَغَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حُشِىَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً(٤)».

فجاءت الرّوايات معبّرة عن القلب «بالصّدر» لكونه حصنه الذى يُحيطه وبوتقته التى تُكنّه ومن ذلك قوله ﷺ «التَّقْوَى هَهُنَا: وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(٥)». وفى رواية مسلم «وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ». فعندما اعتبر النّبى ﷺ أنّ القلب محلا للتّقوى أشار إلى صدره المكتنف لهذا القلب ثلاث مرّات.

والجوارح بحكم انقيادها للقلب وتبعيّتها له فإنّها تنصلح بصلاحه وتفسد

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٨٧] ومسلم [٢٦١ / ١٦٢] واللّفظ له.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٤٢] ومسلم [٢٦٣ / ١٦٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٤ / ١٦٤] والتّرمذى [٣٣٤٦].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٢ / ٢٥٦٤].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٦٤].

بفساده، وقد يتأثّر القلب ذاته بأعمالها للارتباط القائم بين الظّاهر والباطن ويدلّ عليه قوله ﷺ «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ[1]». أى إذا صلح «القلب» بالإيمان والعلم والعرفان «صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»: بالأعمال والأخلاق والأحوال. وإذا فسد «القلب»: بالجحود والشّك والكفران والنّكران «فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»: بالفجور والإثم والعصيان.

وفى هذا كلّه الدّلالة على أنّ القلب إذا فسدت عبوديّته بالغفلة والوسواس، تأثّرت بذلك جوارحه المؤتمرة بأمر قلبه المرتهنة بتوجيهه كما فى قوله ﷺ «إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ صُقِلَ مِنْهَا، فَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْظُمَ فِي قَلْبِه[2]». وهو ما يفسره قوله ﷺ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُو قَلْبُهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَهُ اللّهُ تعالى فى كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤][3]».

وأصل الرَّين فى اللُّغة الطّبع والدَّنس. قال أبو عبيد «كُلُّ مَا غَلَبَكَ وَعَلاَكَ فَقَدْ رَانَ بِكَ وَرَانَكَ وَرَانَ عَلَيْكَ». وقوله «صُقِلَ قَلْبُهُ»: أى صفّى قلبه ونظّفه وجلاّه، لأنّ التّوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب وسواده.

ويأتى هذا الاتصال القائم والوثيق بين قوله ﷺ «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً». وقوله «الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ». ليُشعر بأنّ أكل الحلال يُنوِّر هذا القلب ويُصلحه، وأنّ أكل الحرام والشُّبهة يُفسده ويُقسّيه ويُظلمه، وقد عايش بعض أهل الورع والتّقوى حقيقة ذلك حتّى قال أحدهم [استسقيت جنديا فسقانى شربةَ ماء فعادت قسوتها على قلبى أربعين صباحا!]. وقيل فى ذلك أنّ الأصل المصحّح للقلوب والأعمال هو أكل الحلال، حتّى يُخاف على آكل الحرام والمتشابه ألاّ يُقبل له عمل ولا تسمع له دعوة، ألا تسمع قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

وإذا كانت التّقوى خصلة عظيمة وحالة شريفة آخذةٌ بمجامع علوم الشّريعة وأعمالها وموصّلةٌ إلى خيرى الدّنيا والآخرة، فإنّ هؤلاء المُتّقين هم الذين يجعلون بينهم وبين ما يخافون من المكروه وقاية تقيهم منه من قوله ﷺ «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». أى اجعلوا هذه الأمور وقاية بينكم وبين النّار.

وعلى هذا فالمُتّقِ شرعا هو الذى يخافُ الله تعالى ويجعل بينه وبين عذابه وقاية من

---

(١) قطعة من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢] ومسلم (١٠٧ / ١٥٩٩).

(٢) أخرجه الحاكم [٦] وقال هذا حديث صحيح وأورده الذّهبى فى التّلخيص سنداً ومتنا.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧٩٣٩] وابن ماجه [٤٤٤١].

طاعته وحاجزا عن مخالفته، وإذا كان الخوف هو أصل التّقوى، فالخوف إنّما ينشأ عن المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته وعظيم سلطانه وعقابه، والخوفُ والمعرفةُ محلُّهما القلب، والقلبُ محلُّه الصّدر، فلذلك أشار رسول الله ﷺ إلى صدره وقال «التّقْوى هَا هُنَا[1]».

وآكل الحرام المسترسل في الشّبهات ليس بمُتَقٍ على الإطلاق، وقد عضّد ذلك قوله ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا، وَإنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ الْمُؤْمنِينَ بمَا أَمَرَ به الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ يَقُولُ «يَارَبِّ. يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ[2]».

ولمّا شرب أبو بكر رضي الله عنه جرعة لبن من شبهة استقاها فأجهده ذلك حتّى تقيَّأها، فقيل له: أَكُلُّ ذلك في شربة؟ فقال «وَاللهِ لَوْ لَمْ تَخْرُجْ إلاَّ بِنَفْسِي لأَخْرَجْتُهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ[3]».

(يقول) القرطبي في المُفهم مُعلِّقًا على ما سبق [وعند هذا: يعلم الواحد منّا قدر المصيبة التي هو فيها، وعظم المحنة التي ابتُلي بها، إذ المكاسب في هذه الأوقات قد فسدت، وأنواع الحرام والشّبهات قد عمّت، فلا يكاد واحد منّا اليوم يتوصّل إلى الحلال، ولا ينفكّ عن الشّبهات، فإنّ الواحد منّا - وإن اجتهد فيما يعمله - فكيف يعمل فيمن يعامله، مع استرسال النّاس في المحرّمات والشّبهات، وقلّة من يتّقي ذلك من جميع الأصناف والطّبقات، مع ضرورة المخالطة والاحتياج للمعاملة..].

[.. وعلى هذا فالخلاص بعيد والأمر شديد، ولولا النّهي عن القنوط واليأس لكان ذلك الأولى بأمثالنا من النّاس، لكنّا إذا دفعنا عن أنفسنا أصول المحرّمات واجتهدنا في ترك ما يمكننا من الشّبهات، فإنّ عفو الله مأمول، وكرمه مرجوّ، فلا ملجأ إلاّ هو، ولا مفزع إلاّ إليه، ولا استعانة إلاّ به، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[4]].

والذى يساعد العبد على حضور قلبه واشتغاله بطاعة ربه عزّ وجلّ قهره لشهواته وغلبته لهواه؛ وإلاّ فقلب قد قهرته الشّهوة وأسره الهوى، ووجد الشّيطان فيه مرتعًا خصبًا كيف يتخلّص من وساوسه وأفكاره؟ وكيف يتحرّر من سيطرة الشّيطان عليه. لذلك انقسمت القلوب في مواجهتها للشّيطان إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) من حديث أخرجه مسلم [٣٢ / ٢٥٦٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٥] والتّرمذى [٢٩٩٢].

(٣) رواه الطّبراني في الكبير [١٩ / ١٣٦].

(٤) انظر المُفهم للقرطبي [ج ٤ ص ٤٩٨].

(الأول) القلب السليم

وهو الذى سَلِمَ من أن يكون لغير الله تعالى بل قد خلصت عبوديته له إرادة ومحبّة، وتوكّلا وإنابة، وخشية ورجاء، وخَلُصَ عمله لله، فأحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، ولا يكفيه هذا حتّى يَسْلَمَ من الانقياد والتّحكيم لكلِّ ما عدا رسوله الأكرم ﷺ فيعقد قلبه معه عقدا مُحكما على الائتمام به وحده، والاقتداء به وحده، دون كلِّ أحد فى الأقوال والأفعال، وهذا القلب محشوٌّ بالإيمان استنار بنوره، وانقشعت عنه حُجب الشّهوات والوساوس، وأقلعت منه ظُلمات الجهالة والضّلال، وقد جاء ذكر هذا القلب فى أكثر من موضع قرآنى منه:

(١) قول الله تعالى﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٣٣]. وهو الْمُقبل على الطّاعة، الموالى لخالقه، المتواضع لجلاله، التّارك لهوى نفسه.

(٢) وفى قول الله تعالى﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشّعراء:٨٩]. إشارة إلى البراءة من الشّك والشّرك والكفر، كما يأتى قول الله تعالى﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرّعد:٢٨]. للتّأكيد على الاستئناس بربّه والسّكون إليه والرّاحة والطّمأنينة بتوحيده تعالى وعبادته وذكره.

(٣) وقوله تعالى﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الانفال:٢]. للدّلالة على الخوف والوَجل وقوّة اليقين وحسن التّوكّل على الله تعالى.

ثمّ يأتى قول الله تعالى﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحجّ:٣٢]. للإشارة إلى أمرين:

(أوّلهما) أنّ تعظيم الأمر والنّهى لا تنبعث حقيقته ولا يتأكّد أثره إلاّ من تقوى القلوب وما وقر فيها من إجلال وتعظيم لشعائر الله تعالى، واجتناب عذابه بفعل المأمور به وترك المحذور والبُعد عنه.

(والثّانى) أنّ محل التّقوى هو هذا القلب الذى أودع الله تعالى فيه سرّه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول «التَّقْوَى هَا هُنَا، وأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ[(١)]». وإشارته ﷺ بيده إلى صدره الشّريف تعنى أنّ محلّ مادّتها من الخوف الحاصل عليها هو هذا القلب الذى بين جَنَبات الصّدر، وأنّ التّقوى تحصلُ بما يقع فى القلب من عظيم خشية الله وخوفه ومراقبته وإجلاله ومحبّته.

ومن علامات صحّة هذا القلب أنّه لا يزال يضرب على صاحبه حتّى يُنيب إلى الله تعالى ويُخبت إليه ويتعلّق به تعلّق المحبّ المضطر إلى محبوبه، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم

---

(١) قطعة من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٢/ ٢٥٦٤].

ولا سرور إلاّ برضاه وقُربه والأُنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن ويأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكّل، وبه يثق، وإيّاه يرجو، وله يخاف، فذكره قوّته وغذاؤه، ومحبّته والشّوق إليه حياته ونعيمه، والالتفات إلى غيره والتّعلّق بسواه داؤه والرّجوع إليه دواؤه.

(قال) ابن القيّم [القلب السّليم هو الذى سلم من الشّرك والغلّ والحقد والحسد والشّح والكبر وحبّ الدّنيا والرّئاسة، فسلم من كلّ آفة تُبعده عن الله تعالى، وسلم من كلّ شُبهة تُعارض خَبَرَه، ومن كلّ شهوة تُعارض أمْرَه، وسلم من كلّ إرادة تُزاحم مُراده، وسلم من كلّ قاطع يقطعه عن الله تعالى، ولا تتمّ له سلامته حتّى يسلم من خمسة أشياء:

(١) من شرك يُناقض التّوحيد (٢) وبدعة تُخالف السُّنّة (٣) وشهوة تُعارض الأمر (٤) وغفلة تُناقض الذّكر (٥) وهوى يُناقض الإخلاص. وهذه الخمسة حُجُب عن الله تعالى وتحت كلّ واحدة منها أنواع كثيرة تتضمّن أفرادا لا تنحصر[١]].

العوامل المحقّقة لسلامة القلب

ذكر العلماء أنّ من العوامل التى تؤدّى إلى سلامة القلب:

أولا - إخلاص العمل لله وحده وهو مشمول قوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. ومنه قوله تعالى﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩]. ويأتى قوله ﷺ من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه «ثَلاَثُ خِصَالٍ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَداً: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ وُلاَةِ الأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ[٢]». أى لا يبقى فيه غلّ ولا يُحمل على الغلّ مع هذه الثّلاثة. وفى معناه قال ابن الأثير [هذه الخصال الثّلاث تُستصلح بها القلوب فمن تمسّك بها طهُر قلبه من الخيانة والدَّغل والشّرّ[٣]].

ثانيا - رضا المسلم عن ربّه تعالى فى كلّ ما قَضَى وقدَّر، وتستحيل سلامة القلب مع السّخط وعدم الرّضا، فكلّما كان العبد أشدّ رضى كان قلبه أسلم، فالخَبَث والدَّغل قرين السّخط وسلامة القلب ورضاه قرين الرضى.

ثالثا - تلاوة القرآن الكريم وهو من أعظم الأدواء لأمراض القلوب إذا ما صادفت قلبا يقبل الحقّ ويرفض الباطل وقد قال تعالى﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾[يونس: ٥٧]. وقوله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) انظر الجواب الكافى لابن القيّم [ص ١٥١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٤٨٢].

(٣) انظر النّهاية فى غريب الحديث [ج ٣ ص ٣٨١].

[الإسراء : ٨٢] . فسبحان من جعل فى تلاوة كتابه الكريم الشّفاء التّام من جميع الأدواء القلبيّة وأدواء الدّنيا والآخرة، فإذا أحسن العليل التّداوى به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول واعتقاد لم يقاومه الدّاء أبدا.

رابعا - حسن الظّن بالمسلمين وهو من أهمّ وسائل سلامة القلب وفى ذلك جاء عن سعيد ابن المسيّب رضي الله عنه أنّه قال [كَتَبَ إِلَيَّ بَعْضُ إِخْوَانِي مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ ضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ مَا يُغْلِبُكَ، وَلاَ تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلاً، وَمَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهَمِ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ].

خامسا - النّصيحة لإخوانه سرًّا بدون توبيخ أو تشهير، وذلك فيما يعتقد أنّه مُخالف لهدى الكتاب والسُّنّة، ويمكن أن تكون هذه النّصيحة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ولكن دون تجريح وفى ذلك جاء وصف الله تعالى لمن حبسهم العذر عن الجهاد بقوله ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة : ٩١]. ومنه قول شعيب لقومه ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[الأعراف :٩٣].

والنّصح إخلاص العمل من الغشّ ومنه التّوبة النّصوح، (قال) نفْطَويْه [نصَح الشّىء إذا خلص] ونَصَح له القول أى أخلصه له، وقيل [النّصيحة مأخوذة من نُصح الرّجل ثوبه إذا خاطه، فشبّهوا فعل النّاصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بما يسدّه من خلل الثّوب[1]]. والنُّصح لا يخرج عن دائرة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، والنّصيحة كلمة يعبّر بها عن جملة هى [إرادة الخير للمنصوح له]. وأصل النُّصح فى اللُّغة الخلوص.

وفى صحيح مسلم عن تميم الدّارى جاء قوله ﷺ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ - ثَلاَثًا - قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ[2]». وفى تفصيله قال العلماء:

(١) أنّ النّصيحة لله تعالى تتمثّل فى إخلاص الاعتقاد فى الوحدانيّة، ووصفه بصفات الألوهيّة، وتنزيهه عن النّقائص، والرّغبة فى محابّه والبعد من مساخطه.

(٢) والنّصيحة لرسوله ﷺ تتمثّل فى التّصديق بنبوّته، والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبّته ومحبّة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سُنّته، وإحياؤها والتّفقُّه فيها والذبّ عنها والدُّعاء إليها، والتّخلّق بأخلاقه الكريمة ﷺ.

(٣) النّصح لكتاب الله تعالى والتّصديق به والعمل بما فيه وقراءته وحفظه التّفقّه فيه والدّفاع عنه وتعليمه وإكرامه والتّخلّق به ونشر تعاليمه.

(٤) النّصح لأئمّة المسلمين بترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحقّ وتنبيههم فيما

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٣١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٢٨١] ومسلم [٥٥] وأبو داود [٤٩٤٤].

أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم وتوقيرهم، والقيام بواجب حقهم.

(٥) النّصح لعامّة المسلمين بترك معاداتهم وإرشادهم وحبّ الصّالحين منهم والدّعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافّتهم.

سادسا - الدّعاء بسلامة القلب وهو ما أرشدنا إليه قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]. ولذلك كان النّبي ﷺ كثيرا ما يقول في دُعائه «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا [أَوْ مُنِيبًا]، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، واغْسِلْ حَوْبَتِي، وأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، واهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي[١]».

والسّخيمة هي الضّغينة والغلّ والحقد.

(الثّاني) القلب الميّت

القلب الميّت هو القلب الخالي من الإيمان وجميع الخير، لكونه قلب لا يعرف ربّه ولا يعبده بأمره، بل هو واقف مع شهواته ولذّاته ولو كان فيها سخط ربّه وغضبه، فلا يبالي إذا فاز بشهوته وحظي بمراده، فهو متعبّد لغير الله تعالى حبّا وخوفا، رضا وسخطا، تعظيما وذلاّ، إن أحبّ أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، فهواه آثر عنده وأحبّ إليه من رضا خالقه ومولاه، فالهوى إمامه والشّهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدّنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحبّ العاجلة مخمور[٢]. وقد وصف الله تعالى هذا القلب بأوصاف عشرة ذكرتها الآيات البيّنات:

(١) بالإنكار (٢) والحميَّة (٣) والانصراف (٤) والقساوة (٥) والموت (٦) والرّين (٧) والمرض (٨) والضّيق (٩) والطّبع (١٠) والختم:

* فقال في الإنكار ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: ٢٢].
* وقال في الحميَّة ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦].
* وقال في الانصراف ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التّوبة: ١٢٧].
* وقال في القساوة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: ٢٢].
* وقال في الموت ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].
* وقال في الرّين ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].
* وقالفي المرض ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥١٠] وأحمد [١٩٩٧].

(٢) انظر إغاثة اللّهفان [ص ١٥].

* وقال فى الضّيق ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[الأنعام: ١٢٥].
* وقال فى الطّبع ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[التّوبة: ٨٧].
* وقال فى الختم ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾.

وقلب وُصِم بصفة من هذه الصّفات فهو قلب مُظلم استراحت شياطين الجنّ من عناء مقاومته، لسيطرتها عليه واستحواذها على مداخله ودروبه، ولأنّها اتخذته بيتا ووطنًا ومأوى. فمثل هذا القلب لا هدف للشّيطان فيه سوى زيادة رصيده من الأمراض والشّكوك والخيالات والأوهام، ولـمّا قيل لابن عبّاس رضي الله عنهما [إنَّ الْيَهُودَ تَزْعُمُ أَنَّهَا لاَ تُوَسْوِسُ فِي صَلاَتِهَا؟. قَالَ: وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْقَلْبِ الْخَرِبِ]. فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَمٌ مُمْرِضٌ، ومعاشرته سُمٌّ مُفْرِطٌ، ومجالسته هَلاَكٌ مُحدق.

(الثّالث) القلب المريض

هو قلب له حياة وبه علّة ومرض، فله مادّتان تمدّه هذه مرّة وهذه أخرى وهو لـما غلب عليه منهما، ففى هذا القلب من محبّة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتّوكّل عليه ما هو مادّة «حياته». وفيه من محبّة الشّهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعُجب، وحبّ العلوّ، والفساد فى الأرض، ما هو مادّة «فساده» وهلاكه، فهو قلب مُمتحن بين داعيين:

(الأوّل) يدعوه إلى الله ورسوله والدّار الآخرة بما استنار فى قلبه من نور الإيمان.

(والثّانى) يدعوه إلى العاجلة وبهرجها بما احتواه قلبه من ظلمة الشّهوات وعواصف الأهوية التى تداخلت في نور إيمانه كما فى قول الله تعالى﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران: ١٥٤]. وقول الله تعالى ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[الحجّ: ٥٣].

[وهذا القلب هو المعرّض دائما لغارات الشّيطان والمستهدَف فى مُخططاته، والمقصود فى طموحاته، فينجح معه مرّة ويفشل أخرى، لأنّ الحراسة عليه إمّا ضعيفة وإمّا غافلة ساهية، والمعصوم من عصمه الله تعالى من الغفلة والزّلل، فمثل هذا القلب يميل إلى داعى [الإيمان والدّين] مرّة، وإلى داعى [الهوى والشّيطان] أخرى، فهو قلب للشّيطان فيه مطمع ومطمح، وله معه صَوْلات وجَوْلات.

إنّ أسلحة الشّيطان التى يحاربه بها مستمدّة من العبد ذاته، وهى الكامنة فى شهواته وخبالاته وشبهاته، فيأخذها ويصول بها على القلب الذى ربّما يحسم المعركة عندما يواجه الشّيطان بأسلحته الإيمانية التى تصدّ هذا الاكتساح وتُوقفه، أو أن

تقضي عليه وتكتسب الجولة، والحرب دول وسجال والملوم من أذنَ لعدوه بالدّخول إلى ساحته وفتح له بابه ثمّ مكّنه من سلاحه الذى يقاتله به[1]].

ومرض القلب نوعان:

(الأوّل) نوع لا يتألّم به صاحبه في الحال كمرض الجهل ومرض الشّبهات والشّكوك ومرض الشّهوات والغوايات، وهذا النّوع هو أعظم النّوعين ألما وشدّة، إلاّ أنّ فساد القلب يحول دون الإحساس بهذا الألم، ولأنّ سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك هذا الألم، وإلاّ فألمه حاضر فيه حاصل له، فهو متوار عنه باشتغاله بضدّه، فكأنّه في عماية عنه.

(الثّاني) مرض مُؤلم له في الحال كَالْهَمّ والْغَمّ، والْحَزَن والغيظ، والأسى والسّخط، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضادّ تلك الأسباب وما يدفع موجبها مع قيامها، فكما أنّ هذا القلب يتألّم بما يتألّم به البدن ويشفى بما يشفى به البدن، فكذلك البدن يتألّم كثيرا بما يتألّم به القلب ويشقيه ما يشقيه.

ومن حكمة الله البالغة أن جعل شفاء القلوب على نوعين من الغذاء:

(أوّلهما) غذاء روحي معنوي خارج عن الطّعام والشّراب وهو غذاء الإيمان من الطّاعة والرّضا والإذعان والسُّرور والفرح والابتهاج واللّـذة والعُلوم والمعارف.

(والثّاني) ما يحتاجه المرء من الطّعام والشّراب الحسّي وللقلب منه خلاصته وصفوه ولكلّ عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

ومن أنفع الأغذية غذاء الإيمان ومن أنجع الأدوية دواء القرآن وكلّ منهما فيه الغذاء والدّواء، وبهذا كان [سماويًا عُلْويًّا]، وبالغذاء المشترك كان [أرضيّا سُفْليّا]، وقوامه بهذين الغذاءين وله ارتباط بكلّ واحدة من الحواسّ الخمس وغذاء يصل إليه منها.

[ومقصود ذلك أنّ من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطّبيعيّة، ومنها ما لا يزول إلاّ بالأدوية الشّرعيّة الإيمانيّة، والقلب له حياة وموت ومرض وشفاء. فإن غلب عليه مرضه التحق بالميّت القاسي، وإن غلبت عليه صحّته التحق بالسّليم الصّحيح المعافى[2]].

واقتضت حكمته أن يجمع بين هذه القلوب الثّلاثة في قوله تعالى﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى

(١) انظر الوابل الصيّب [ص ٢٢ - ٢٤].

(٢) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١٨].

ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

فجعل سبحانه القلوب فى هذه الآيات ثلاثة [١]:

(١) القلب الذى فيه مرض.

(٢) والقلب القاسى العاتى.

(٣) والقلب (النّاجى) وهو القلب المؤمن المُخبت إلى ربّه تعالى، وهو المطمئن إليه الخاضع له، وليس بين هذا القلب وبين قبول الحق ومحبّته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحقّ، كامل الانقياد والقبول له.

فما يُلقيه الشّيطان فى الأسماع من الألفاظ وفى القلوب من الشُّبه والشّكوك: فتنة للأوّل والثّانى وقوة للقلب الثّالث، لأنّه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم أنّ الحقّ فى خلافه، فيُخبت للحقّ ويطمئنّ إليه وينقاد له، ويعلم بطلان ما ألقاه الشّيطان فيزداد إيمانا ويقينا بالحقّ ومحبّة له، وكفرا بالباطل وكراهة له، فلا يضرّه ما يلقيه الشّيطان أبدا، وهذا ما يُبيّنه رسول الله ﷺ فى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال:

«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ [٢]».

فشبّه رسول الله ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير وهى طاقاتها شيئا فشيئا، وقسّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

(القسم الأول)

هو قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشربها كما يشرب الإسفنج الماء فتُنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كلّ فتنة تُعرض عليه حتّى يَسْوَدّ وينتكس، وهو معنى قوله «كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا» أى مكبوبا منكوسا، فإذا اسودّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مَرضَان خطيران يرميان به إلى الهلاك:

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١٦]

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٤] وأحمد [٢٣١٧٣].

(الأوّل) اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يَعرف معروفا ولا يُنكر منكرا، وربَما استحكم عليه هذا المرض حتّى يرى المعروف منكرا، والمنكر معروفا والسُّنّة بدعة والبدعة سُنَّة، والحقّ باطلاً والباطل حقّا.

(والثّاني) تحكيمه هواه على ما جاء به النّبي ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له.

(والقسم الثّاني)

هو قلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وتلألأ فيه مصباحه، فإذا عُرضت عليه الفتنة أنكرها وردَّها فازداد نوره إشراقا وقوّة، والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ومنها:

(١) فتن الشّهوات وهى التى تُوجب فساد القصد والإرادة.

(٢) فتن الشّبهات وهى التى تُوجب فساد العلم والاعتقاد.

ولقد قسَّم رسول الله ﷺ القلوب إلى أربعة كما فى حديث أبى سعيد رضي الله عنه قال «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فيه مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غُلافِه، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤمنِ، سِرَاجُهُ فيه نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصَفَّحُ: فَقَلْبٌ فيه إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فيه كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فيه كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ[١]».

فهو يشير إلى أربع تعريفات للقلب:

(أوّلها) القلب «الأَجْرَدُ» أى المتجرّد ممّا سوى الله ورسوله، وأشار بتجرّده إلى سلامته من شُبهات الباطل وسهوات الغيّ والسّدور، وبحصول «السِّرَاجِ فِيهِ» إلى إشراقه واستنارته بنور العلم واليقين والإيمان.

(والثّاني) القلب «الْمَرْبُوطُ» على غلافه وهو قلب الكافر لأنّه داخل فى غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، ولا يخرج منه ظلام الكفر والجحود كما جاء قوله تعالى حاكيا عن اليهود ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[البقرة:٨٨]. وهو جمع أغلف وهو الدّاخل فى غلافه، كَقُلْف وأَقْلَفْ.

وهذه الغشاوة هى الأَكِنَّةُ التى ضربها الله تعالى على قلوبهم عقوبة لهم على ردّ الحقّ والتّكبّر عن قبوله، فهى أَكِنَّةٌ على القلوب ووَقْرٌ فى الأسماع، وعَمًى فى الأبصار، وهى الحجاب المستور عن العيون كما بيّنه قول الله تعالى﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١١٠٧١].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦].

(والثالث) القلب «المَنْكُوسُ» ـ وهو المكبوب ـ إشارة إلى قلب المنافق الذى عرف ثمّ أنكر وأبصر ثمّ عمى كما فى قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النّساء: ٨٨]. أى نكسهم وردّهم فى الباطل الذى كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شرّ القلوب وأخبثها فإنّه يرى الباطل حقّا ويوالى أصحابه، والحقّ باطلا ويعادى أهله.

(والرّابع) هو القلب الذى تمدّهُ مادّتان:

(١) مادّة الإيمان بالله تعالى والتّصديق برسوله ﷺ.

(٢) ومادّة النّفاق التى يستذله بها الشّيطان اللّعين.

وهو لما غلب عليه منهما، ويشير به إلى القلب الذى لم يتمكّن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه حيث لم يتجرّد للحقّ المحض الذى بعث الله به رسوله الأكرم ﷺ بل فيه مادّة منه ومادّة من خلافه، فتارّة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارّة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم بعد ذلك يكون للغالب [(١)].

ويتعلّق بأحوال القلوب الإشارة إلى آيتين كريمتين من كتاب الله تعالى:

(الأولى) قوله سبحانه:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

فعندما يجعل الله تعالى للإنسان قلبا واحدا فلابدّ له من منهج واحد يسير عليه، ولابدّ له من تصوّر كلّى واحد للحياة والكون والنّفس يستمدّ منه قيَمه وأخلاقه وإلاّ تمزّق هذا القلب وتفرّق ونافق والتوى ولم يستقم على اتجاه.

وهذا ما يقرّره النّص القرآنى الكريم فى قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾. فلا يملك المرء فى مقابله أن يستمدّ آدابه وأخلاقه من مَعين ثمّ يستَمد شرائعه وقوانينه من معين آخر، فهذا الخليط لا يُكَوِّنُ إنسانًا له قلب إنّما يكون مَزْقا وأشلاء ليس لها قوام واحد يجمعها.

وكذلك صاحب العقيدة فإنّه لا يملك أن تكون له عقيدة حقّا، ثمّ يتجرّد من مقتضياتها وقيمها الخاصّة فى موقف واحد من مواقف حياته كلّها، صغيرا كان هذا الموقف أم كبيرا،

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١٢].

إنّه لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرّك حركة أو ينوى نيّة أو يتصوّر تصوّرا غير محكوم فى هذا كلّه بعقيدته، إن كانت هذه العقيدة تمثّل حقيقة واقعة فى كيانه، لأنّ الله تعالى لم يجعل له سوى قلب واحد تعمره عقيدة واحدة، وتصوّره المستمدّ من هذه العقيدة متلبّس بكلّ ما يصدر عنه فى كلّ حالة من حالاته على السّواء.

أمّا تفسير الآية ففيها قولان:

(الأوّل) هو مَثَل ضُربَ للمُظَاهر الذى يقول لزوجته [أَنْتِ عَلَىَّ كَظَهْرِ أُمِّى] أى كما لا يكون للرّجل قلبَان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أُمًّا لـه حتّى تكون له أُمَّان.

(والثّانى) كان المنافق يقول لى قلب يأمرنى بكذا وقلب يأمرنى بكذا، فالمنافق ذو قلبين، فنزلت الآية لتبيّن أنّ الكفر والإيمان بالله تعالى لا يجتمعان فى قلب واحد كما لا يجتمع فى الجوف قلبان.

وهذا القلب قطعة من اللّحم صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرَة خلقها الله تعالى فى الآدمى، وجعلها محلا للعلم فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع فى أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخطّ الإلهى ويضبطه فيه بالحفظ الرّبّانى حتّى يحصيه ولا ينسى منه شيئا.

والقلب دائما بين لَمَّتَين[1] لَمَّة من المَلَك ولَمَّةٌ من الشّيطان كما فى حديث التّرمذى عن ابن مسعود رضي الله عنه باعتباره محل الخَطَرَات والوَسَاوس، ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطّمأنينة، ومعنى الآية أنّه لا يجتمع فى القلب كفر وإيمان، وهدى وضلال، وإنابة وإصرار، وهذا نفى لكلّ ما توهّمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز، فلا أحد بقلبين وإنّما هو قلب واحد، إمّا فيه إيمان وإمّا فيه كفران، وعلى هذا النّحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نَسِىَ شيئا أو وَهِمَ.

وقوله «جَوْفِه» من جَوَّفَ يُجَوِّفُ تَجْوِيفًا: الشَّىْءَ جعل له جَوْفًا أو غَوْرًا، والتّجويف هو الفراغ فى داخل الشّىء ومنه «التّجويف البريتونى» وهو تجويف البطن وهو مبطّن بغشاء رقيق اسمه البريتون يغطّى الأحشاء ويبطّن جدار البطن وجمعه «تجاويف». وبذلك جاء التّعبير عن محلّ القلب بالجوف الذى هو محلّه أو قُرِنَ به لمقاربته إيّاه.

إنّ قول الله تعالى﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾. يبيّن أنّ منهج المسلم فى حياته منهج واحد [فالقلب الواحد لا يعبد إلهين، ولا يخدم سيّدين ولا ينهج نهجين ولا يتّجه اتجاهين فى آن واحد، وما يفعل شيئا من هذا إلاّ أن يتمزّق ويتحوّل إلى أشلاء ورُكَام[2]].

---

(١) اللَّمَّةُ هنا الهَمَّةُ والخطرة تقع فى القلب.

(٢) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢١ ص ٢٨٢٤].

(الثّانية) قوله سبحانه:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[الأنفال: ٢٤].

يعرض لنا القرآن من خلال الآية الكريمة صورة رهيبة مخيفة لتلك القدرة القاهرة اللّطيفة التى تحول بين المرء وقلبه، وتستحوذ على هذا القلب وتحتجزه وتصرّفه كيف شاءت وتقلّبه كما تريد وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذى بين جنبيه.

إنّها صورة يتمثّلها القلب فى النّص القرآنى إلاّ أنّ التّعبير البشرى يعجز عن تصوير إيقاعها فى هذا القلب ووصف هذا الإيقاع فى العصب والحسّ، إنّه أمر يستوجب اليقظة الدّائمة والحذر المستمر والاحتياط الواعى:

* اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته.
* والحذر من كلّ هاجسة فيه وكلّ ميل مخافة أن يكون انزلاقا.
* والاحتياط المستمرّ من المزالق والهواتف والهواجس.

ويجمع ذلك كلّه التّعلُّق الدّائم بالله سبحانه مخافة أن يُقَلّب هذا القلب فى سهوة من سهواته أو غفلة من غفلاته أو دفعة من دفعاته، ولقد كان رسول الله ﷺ وهو النّبى المعصوم يكثر من دعاء ربّه بقوله «اللّهُمّ مُقَلّبَ القُلُوب ثَبّتْ قَلْبِى عَلَى دِينِكَ(١)». فكيف الحال بالنّاس وهم غير مرسلين ولا معصومين [(٢)].

وقيل فى معنى الآية الكريمة:

(١) أنّ نصّها يقتضى أنّ الله تعالى خلق الكفر والإيمان، فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذى أمره به فلا يكتسبه إذا لم يُقدره عليه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر، وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر، وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضلّهم وخذلهم إذ لم يمنعهم حقّا أوجبه لهم فتزول صفة العدل، وإنّما منعهم سبحانه ما كان له أن يتفضّل به عليهم لا ما وجب لهم.

(قال) السُّدّىُ [يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يُؤمن إلاّ بإذنه ولا يكفر أيضا إلاّ بإذنه «أى بمشيئته وإرادته». والقلب بيد الله تعالى متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل فيأتى معنى الآية: بادروا إلى الاستجابة قبل ألاّ تتمكّنوا منها بزوال العقل]. (أو) يحول بين المرء وعقله حتّى لا يدرى ما يصنع.

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٦٤٥٥].

(٢) انظر فى ظلال القرآن [ج ٩ ص ١٤٩٥].

(٢) كما يتبيّن من النّص أنّه تعالى خالق لجميع أفعال العباد خيرها وشرّها وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث «لاَ وَمُقَلِّبَ الْقُلُوبِ[١]». ومعناه أنّ الله يتصرّف في قلوب عباده بما شاء لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة. (قال) الرّاغب: تقليب الشّيء تغييره من حال إلى حال، والتّقليب التّصريف، وتقليب الله القلوب صرفها من رأى إلى رأى وهو معنى قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[الأنعام: ١١٠]. أى نصرّفها بما شئنا، كما أنّ في نسبة تقلّب القلوب إلى الله تعالى إشعار بأنّه يتولّى قلوب عباده ولا يكلها إلى أحد من خلقه.

وفي دعائه ﷺ «يَامُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ[٢]». إشارة إلى شمول ذلك للعباد حتّى الأنبياء ورفع توهّم من يتوهّم أنّهم يستثنون من ذلك. [وخصّ ﷺ نفسه بالذّكر إعلاما بأنّ نفسه الزّكيّة إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه فافتقار غيرها ممّن هو دونه أحقّ بذلك[٣]]. وجاء في تفسير الآية الكريمة عند الفخر الرّازى وجوه:

(الأوّل) أنّ الله تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت ويعني بذلك أن تبادروا في الاستجابة فيما ألزمكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت الذى لابدّ منه ويحول بينكم وبين الطّاعة والتّوبة.

(الثّاني) أنّ الله تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمنّاه ويريده بقلبه، فإنّ الأجل يحول دون الأمل فكأنّه قال: بادروا إلى الأعمال الصّالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقّع طول البقاء فإنّ ذلك أمر غير موثوق به.

(الثّالث) أنّ المراد من القلب في الآية «العقل» فكأنّ المعنى أنّه يحول بين المرء وقلبه، فبادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون، فإنّكم لا تأمنون زوال العقول التى عند ارتفاعها يبطل التّكليف، وجَعْلُ القلب كناية عن العقل جائز كما جاء في قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[سورة ق: ٣٧]. أى لمن كان له عقل.

(الرّابع) أنّ معنى قوله تعالى ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أنّ الله حائل بين المرء وقلبه وأنّ قربه تعالى من عبده أشدّ من قرب قلب العبد منه، ومقصوده التّنبيه على أنّه تعالى لا يخفى عليه شيء في باطن العبد وممّا في ضميره، ونظيره قوله جلّ شأنه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[سورة ق: ١٦[٤]].

إنّ القول الكريم يقف بنا أمام صورة تهزّ القلب ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه كلّه

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٦١٧].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٦٣٩٩].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٣٨٩].

(٤) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١٥ ص ١٥٣].

حين يخلوا إليها لحظات، ناظرا إلى قلبه الذى بين جنبيه وهو فى قبضة القاهر الجبّار سبحانه ولا يملك منه شيئا وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير به وضيئا بين النّاس.

(الباب الثّانى)

القلب والحواسّ الخمس

(أ) صلاح الجسد بصلاح القلب

شاءت إرادة الخالق جلّ وعلا أن يكون قلب هذا الإنسان من أشرف أعضاء البدن ومنبع الرّوح الحيوانى والحرارة الغريزيّة التى بها قوام الحياة، واعتبره أهل العلم معدن العقل والعلم والحلم، ومصدر الشّجاعة والكرم والصّبر، وباعث الحبّ والإرادة والرّضا، وكذا سائر صفات الكمال الإنسانى التى أودعها الله تعالى فى خلقه، فجميع الأعضاء الظّاهرة والباطنة وقواها المؤثّرة فى حواسّ هذا الإنسان، إنّما هى مجنّدة لأمره محشودة لخدمته حيث يتربّع فى وسطها كالملك المهيمن على كلّ آلات البدن بحكمة وقوّة وتصرّف واقتدار وهو ما اقتضته حكمة العليم الخبير سبحانه.

وكما جعل الله تعالى صلاح الجوارح قائما على صلاح القلب، فكذلك جعل فسادها من فساده لقوله ﷺ «أَلاَ وَإِنَّ فى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ[(١)]». لذلك كان بين كلّ واحد من هذه الحواسّ رابطة قويّة وإدراكا سريعا ينفذ إلى القلب من خلال الأوردة والشّرايين كما شاء الخالق جلّ وعلا، فالعين باعتبارها طليعة القلب ورائده الذى يكشف له المرئيّات إذا أبصرت شيئا نقلته بالآلة التى فيها إلى القلب، وكذلك السّمع إذا أحسّ صوتا أدّاه إليه كذلك، ثمّ يأتى اللّسان ترجمانا لما يصل إلى السّمع بفصاحة وبيان.

وممّا يترجم الأثر الإيمانى المباشر للقلب على جوارح المؤمن ما رواه أحمد فى مسنده عن أبى ذرّ رضي الله عنه من قوله ﷺ «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَان، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا[(٢)]». ورغم اختلاف الحواسّ فى التّكوين والأداء وأنّ قوّة كلّ حاسّة فيها مخالفة لقوّة الحاسّة الأخرى، إلاّ أنّها جميعا تتّصل بالقلب اتصالا مباشرا على ضرب واحد من الامتزاج والتّوافق عن طريق واحد من أمرين:

(الأوّل) من خلال الأوردة والشّرايين التى تربط بين القلب وكلّ هذه الحواسّ فى دائرة واحدة متّصلة ومتناسقة، فما من عرقٍ ولا عُضوٍ إلاّ وله اتّصال وثيق بالقلب الذى

---

(١) قطعة من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٠] ومسلم [١٥٩٩].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٢٠٧] والبيهقى [١٠٨] وحسّنه الهيثمى [١٠ / ٢٣٢].

يبعث إلى كلّ عضو منها ما يناسبه ويُشاكله، فلا يصل إلى العين إلاّ ما يكون منه حسّ البصر، ولا إلى الأذنين إلاّ ما تدرك به المسموعات، ولا إلى الأنامل إلاّ ما يكون منه حسّ اللّمس، ولا إلى الأنف إلاّ ما يكون به حسّ الشّمّ، ولا إلى اللّسان إلاّ ما يكون به حسّ التّذوّق.

(الثّاني) عن طريق القوّة المعنويّة التي تنبعث من القلب إلى هذه الحواسّ فلا تحتاج في وصولها إليها إلى مجار مخصوصة أو أعصاب تكون حاملة لها، فإنّ وصول هذه القوى إلى الحواسّ والأعضاء لا تتوقّف إلاّ على قبولها واستعدادها.

ولهذا كان الرّأى الصّحيح أنّ القلب هو أوّل الأعضاء تكوينا فى الجسم وأنّه مصدر القوّة العاقلة فيه، وإن كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا: بل العقل فى الرّأس وليس فى القلب! والصّواب أنّ مبدأ ذلك ومنشأه من القلب وهو ما دلّ عليه التّنزيل الحكيم بقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[الحجّ: ٤٦]. وقوله جلّ شأنه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]. ولم يقصد هنا تلك المُضْغَة من اللّحم المشتركة بين المخلوقات، بل المراد ما فيه من العقل والفكر واللُّب والفقه كما فى قوله سبحانه:

*﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٨].

*﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤].

*﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرّوم: ٢٨].

*﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزّمر: ٩].

وللقلب ارتباطه القوى بالحواسّ الخمس والتى منها حاسّة اللّمس وحاسّة الشّم وكذلك حاسّة التّذوّق، إلاّ أنّ ارتباطه بحاسّتى السّمع والبصر أشدّ من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواسّ وانفعاله عنهما أشدّ من انفعاله عن غيرهما، وفى الكثير من الآيات الكريمة يقترن القلب بحاسّتى السّمع والبصر أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يقرن إلاّ بهما أو بإحداهما كما فى قوله تعالى:

* ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النّحل: ٧٨].

* ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾[الأحقاف: ٢٦].

وكلّها تؤكّد على أنّ تأثّر المرء بما يراه ويسمعه أعظم من تأثّره بما يلمسه ويتذوّقه ويشمّه، ولأنّ هذه الثّلاثة وهى السّمع والبصر والعقل هى طرق العلم عند الإنسان، ويتعلّق بذلك أمران:

(الأوّل) أنّ تعلّق القلب بالسّمع وارتباطه به أشدّ من تعلّقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثّر بما يسمعه من الملذوذات أعظم ممّا يتأثّر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعا ورؤية، ولهذا كان الصّحيح من القولين أنّ حاسّة «السّمع» أفضل من حاسة «الْبصَر»، لشدّة تعلّقها بالقلب وعظم حاجته إليها وتوقّف كماله عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقّف الهدى على سلامتها.

(الثّاني) رجّحت طائفة حاسّة «الْبصَر» لكمال ما تدركه وامتناع الكذب فيه وزوال الرّيب والشّك به، ولأنّه عين اليقين، فغاية مدرك حاسّة «السّمْع» علم اليقين، وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ولأنّ متعلّقها رؤية وجه الله عزّ وجلّ في دار النّعيم ولا شيء أعلى وأجلّ من هذا التّعلّق.

(وحَكَمَ) ابن تيمية بين الطّائفتين حُكْمًا حَسَنًا فقال [إنّ الْمُدْرَكَ بحاسّة «السّمْع أعَمّ وأشْمَل، والْمُدْرَكُ بحاسة «الْبَصر» أتَمّ وأكْمَل، فللسّمع العموم والشّمول، والإحاطة بالموجود والمعدوم والحاضر والغائب، والحسّي والمعنوي، وللبصر التّمام والكمال، وإذا عُرف هذا فهذه الحواسّ الخمس لها أشباح وأرواح وأرواحها حظّ القلب ونصيبه منها[1]].

(٣) عبوديّة القلب والجوارح

ليس شيء في الوجود أشرف من العبوديّة الحقّة لله سبحانه ولا أسمى للمؤمن من أن يُوصف بأنّه «عَبْدٌ لله» تعالى، ولهذا قال جلّ شأنه عن نبيّه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وكانت أشرف أوقاته وأكرمها في الدّنيا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ وقال تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الحديد: ٩].

ويأتي اشتقاق لفظة «العبوديّة» من العبادة وهي «الخضوع لله على وجه التّعظيم والانقياد والطّاعة». وفي قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. (قال) الزّجاج [أي نطيع الطّاعة التي نخضع معها لله تعالى]. فمعنى العبادة في اللّغة: الطّاعة مع الخضوع ومنه «طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ» إذا كان مذللا. يقال: «فلان عابد» أي خاضع لربّه تعالى مستسلم منقاد لأمره سبحانه وهو معنى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[البقرة: ٢١]. أي أطيعوا ربّكم، وتعبّد الرّجُلُ: تنسّكَ.

و[العبادة] اصطلاحا: هي الطّاعة والتّذلّل لله بالفعل. [أو] هي نهاية ما قدر عليه من الخضوع والتّذلّل للمعبود بأمره. و(قال) في التّعريفات [هي فعل المكلّف على خلاف هوى

---

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ٤١٠].

نفسه تعظيما لأمر ربه تعالى]. وقيل: العبادة إخلاص العمل بكلّيته لله تعالى وتوجيهه إليه من قوله سبحانه﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البيّنة: ٥[1]].

والعبودية فى تعريف الشّرع نوعان:

(الأول) العبوديّة العامة

وهى وصف ملازم للإنس والجنّ والملائكة ولكلّ حيّ لأنّهم جميعا خلقه وعبيده، فهو بمقتضى خلقه لهم هو مالكهم، وبمقتضى سلطانه عليهم دواما، وإمداده لهم بالبقاء دواما، وبمقتضى خضوعهم لمقاديره دواما، فهم عبيده دواما عبوديّة جبرية لا يستطيع أحد منهم الخروج عنها طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، فالكفّار والفجّار عبيد لله تعالى بالقهر كما فى قوله ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾[الفرقان: ١٧]. فسمّاهم الله [عباده] مع ضلالهم لكنّها تسمية مقيّدة بالإشارة.

(الثانى) العبوديّة الخاصّة

وهى عبوديّة الطّاعة والمحبّة واتّباع الأوامر كما فى قول الله تعالى﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[الزّخرف: ٦٨]. وقوله تعالى﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾[الزّمر: ١٧-١٨]. فالخلق كلّهم عبيد «ربوبيّته» سبحانه، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد «إلهيّته»، ولا يجىء فى القرآن الكريم إضافة العباد إليه مطلقا إلاّ لهؤلاء.

وأمّا وصف عبيد «ربوبيّته» بالعبودية: فلا يأتى إلاّ على أحد خمسة أوجه:

(أولها) إمّا منكّرًا كقوله جلّ شأنه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم: ٩٣].

(والثّانى) معرّفًا باللاّم كقوله تعالى﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[غافر: ٣١].

(والثّالث) مقيّدًا بالإشارة كما فى قوله ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

(الرّابع) أن يذكروا فى عموم عباده فيندرجوا مع أهل طاعته فى الذّكر كقوله تعالى ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[الزّمر: ٤٦].

(الخامس) أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله تعالى﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزّمر: ٥٣]. وقد يقال:

---

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ١٠٥ - ١٢٢].

إنّما يقال: إنّما سمّاهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربّهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطّاعة.

وإنّما انقسمت العبوديّة إلى عامة وخاصّة لأنّ أصل معنى اللّفظة الذّلُ والخضوع، يقال طريقٌ مُعَبَّدٌ» إذا كان مُذَلَّلاً بوطء الأقْدَام، لكنّ [أولياءه] خضعوا له وذلّوا طوعا واختيارا، [وأعداؤه] خضعوا له قهْراً ورَغْمَا انقيادا لأمره سبحانه.

وللعبوديّة مراتب بحسب العلم والعمل:

فأمّا مراتبها العلمية فمرتبتان:

(إحداهما) العلم بالله سبحانه وهى على خمس مراتب:

(١) العلم بذاته (٢) وصفاته (٣) وأفعاله (٤) وأسمائه (٥) وتنزيهه عمّا لا يليق به سبحانه.

(والثّانية) العلم بدينه وهو على مرتبتين:

(١) دينه الأمرى الشّرعى وهو الصّراط المستقيم الموصّل إليه.

(٢) دينه الجزائى المتضمّن ثوابه وعقابه وقد دخل فى هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله صلوات الله عليهم أجمعين.

وأمّا مراتب العبوديّة العملية فمرتبتان:

(الأولى) مرتبة أصحاب اليمين وتقوم على أداء الواجبات وترك المحرّمات مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات وترك بعض المستحبّات.

(الثّانية) مرتبة السّابقين المقرّبين ويقومون فيها بالواجبات والمندوبات وترك المحرّمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم فى معادهم، متورّعين عمّا يخافون ضرره، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلاّ الخالق جلّ وعلا.

ورَحَى العبوديّة تدور على «خمس عشرة» قاعدة من استكملها فقد استكمل مراتب العبوديّة، وكلّها موزّعة على القلب واللّسان والجوارح، فلكلّ منها عبوديّة تخصّه وتقوم على الأحكام التّكليفيّة الخمسة وهى:

*(الواجب) وهو ما يُثاب على فعله ويُعاقب على تركه.

*و(المستحب) وهو ما يستحقّ بفعله الثّواب ولا يستحقّ بتركه العقاب.

*و(الحرام) وهو ما يُذمّ فاعله ويُمدح تاركه.

*و(المكروه) وهو ما طلب الشّارع من المكلّف الكفّ عن فعله وهو نوعان:

(١) المكروه كراهة تحريم وهو المقابل للواجب ويُطلب تركه طلبا جازما لكونه أقرب إلى الحرام.

(٢) والمكروه كراهة تنزيه وهو ما يُطلب تركه طلبا غير جازم فلا يُذمّ فاعله خلافا للمكروه كراهة تحريميّة فإنّه يُذمّ فاعله.

* و(المباح) وهو ما خيّر الشّارع المكلّف بين فعله وتركه.

ثمّ يأتى الحديث عن عبوديّة القلب والجوارح مفصّلا على النّحو التّالى:

أولا - عبوديّة القلب

فمن [عبوديّة القلب] ما هو متّفق على وجوبها ومختلف فيها:

(١) فمن [المتّفق] على وجوبه:

الإخلاص، والتّوكّل، والمحبّة، والصّبر، والإنابة، والخوف، والرّجاء، والتّصديق الجازم، والنّية فى العبادة، وهذا قدر زائد على الإخلاص، فإنّ الإخلاص هو إفراد المعبود سبحانه عن غيره، ونيّة العبادة لها مرتبتان:

(إحداهما) تمييز العبادة عن العادة.

(والثّانية) تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

وكذلك الصّدق، والفرق بينه وبين الإخلاص: أنّ للعبد مطلوبا وطلبا، فالإخلاص: [توحيد مطلوبه] والصّدق: [توحيد طلبه] فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسما، والصّدق: بذل الجهد، والإخلاص: إفراد المطلوب، واتّفقت الأمّة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

(٢) أمّا [المختلف فيه] كالرّضا: فإنّ فى وجوبه قولين للفقهاء، فمن أوجبه قال: السُّخْطُ حرام ولا خلاص عنه إلاّ بالرّضا، وما لا خلاص عن الحرام إلاّ به فهو واجب، ومن قال غير مستحب قال: لم يجىء الأمر به فى القرآن ولا فى السُّنّة، بخلاف الصّبر فإنّ الله تعالى أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه.

* وكذلك التّوكّل عليه كما فى قوله تعالى﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤].

* وأمرَ بالإنابة إليه فقال تعالى﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾[الزّمر: ٥٤].

* وأمر بالإخلاص له فى قوله تعالى﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البيّنة: ٥].

* وقوله تعالى﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[غافر: ٦٥].

* وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزّمر: ١١].
* وقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزّمر: ١٤].
* وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرّعد: ٢٢].

ورغّب في الخوف منه بقوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وبيّن أنّ الصّدق من الإيمان في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التّوبة: ١١٩]. وذكر في كتابه أنّ محبّته ومحبّة رسوله ﷺ من أفرض الواجبات بل هي قلب كل العبادة التي أمر بها ومخّها وروحها فقال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٣) أمّا (المحرّمات) التي عليه فالكبر والرّياء والعجب والحسد والغفلة والنّفاق، وهذه كلها قسمان:

(الأوّل) كفر كالشّك والنّفاق والشّرك وتوابعها.

(والثّاني) معصية وهي نوعان كبائر وصغائر:

[فمن الكبائر] الرّياء والعُجب، والكبر والفخر والخيلاء، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسّرور بأذى المسلمين، والشّماتة بمصيبتهم، ومحبّة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنّي زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدّ تحريما من الزّنا وشرب الخمر وغير ذلك من الكبائر، ولا صلاح للقلوب ولا للأجساد إلاّ باجتنابها والتّوبة منها، وإلاّ فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنّما تنشأ من الجهل بعبوديّة القلب وترك القيام بها، فوظيفة [إيّاك نعبد] تقع على القلب قبل الجوارح، فإذا جَهلَهَا العبد وترَك القيام بها امتلأ بأضدادها، وبحسب قيامه بها يتخلّص من أضدادها، وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقّه، وقد تكون كبائر بحسب قوّتها وغلظتها وخفّتها ودقّتها، ومن [الصّغائر] شهوة المحرّمات وتمنّيها.

وتتفاوت درجات الشّهوة بحسب تفاوت درجات المشتهي وحكمه، فشهوة الشّرك [كفر]، وتغليب البدعة [فسق]، وشهوة الكبائر [معصية]. فإن تركها لله مع قدرته عليها أُثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لنزوله منزلته في أحكام الثّواب والعقاب وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشّرع،

ولهذا قال ﷺ «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قَالُوا هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ إِنَّهُ كَانَ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ[١]». فأنزله النّبي ﷺ منزلة القاتل

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٨٨].

لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم [ولذلك نظائر كثيرة في أحكام الثّواب والعقاب . وقد عُلم بهذا مُستحب القلب ومباحه[2]] .

(ثانيا) عبودية اللّسان

اللّسان جسم لحمي مستطيل متحرّك يكون في تجويف الفم يحرّك الطّعام، ويستعمل للتّذوّق والبلع والنّطق ويُكيّف الصّوت وينوّعه فيكتمل به الكلام الذي لا تتمّ نعمته إلاّ به كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد : ٨ - ٩] . كما يُظهر «قدرات اللّسان» في الفصاحة والبيان قول موسى ﷺ ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص : ٣٤] . أي أقدر عنّي على الكلام الظّاهر الواضح الفصيح الذي هو أداته ووسيلته ومنه قول الله تعالى ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم : ٢٢] أي [لغاتكم ولهجاتكم[1]] .

ولقد اقتضت حكمة الخالق جلّ وعلا [أن يجعل لسان المرء بريده ورسوله الذي يؤدّي عنه ما يريد ، ثمّ جعل هذا الرّسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز أو مكشوف كالأذن والعين والأنف ، لأنّ تلك الأعضاء لـمّا كانت تستقبل من الخارج جُعلت بارزة ظاهرة ، أمّا اللّسان فلكونه من أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ، فضرب عليه الفم والشّفتين تستره وتصونه ، وجعله من ألطف الأعضاء وألينها وأشدّها رطوبة فلا يتحرّك إلاّ بواسطة الرّطوبة المحيطة به ، فلو كان بارزا لصار عُرضة للحرارة واليبوسة والجفاف المانع له من التّصرّف ولغير ذلك من الفوائد[3]] .

واللّسان هو وسيلة البيان والإظهار والإيضاح والكشف عن المقصود عند النّاس من قوله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرّحمن : ٣ - ٤] : أي الكلام الذي يُبيّن به ما في قلبه ويحتاج إليه من أمور دنياه ، فهو منفصل به عن سائر الحيوانات . [أو] هو النّطق الفصيح المعرّب المظهر عمّا في الضّمير .

ولـمّا كانت الشّفتان هما الضّابطتان لحركة اللّسان وأداته المُحكمة لنُطقه وتيسير وظيفته جاء التّلازم بينهما في قوله تعالى ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ . ومن هنا اعتبرت جارحة اللّسان النّاطق بالكلام المتواطىء عليه أساس في الحياة والتّعايش الإنساني دينا ودُنيا ، فبكلمة التّوحيد يدخل المرء في ملّة الإسلام وبنقضها يخرج منها ، ولو نظرت إلى [الكلام] وما بُني عليه من أحكام لوجدت من ذلك عجبا في الطّهارة والصّلاة وكلّ أركان الإسلام ، والجهاد

---

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ١١٤] .

(٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٧٣] .

(٣) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ١٩١] .

والبيوع والنّكاح والطّلاق والحدود والقضاء.. إلخ، بل أُفردت أبواب فى الفقهيّات كلّها لما يلفظ به هذا اللّسان فى أبواب القذف والرّدة والأيمان والنّذوروالشّهادات والإقرار وفى أصل التّوحيد، كذلك يدور على اللّسان البحث والتأليف والكتابة والتّصنيف.

وكم من كلام أوجب ردّة فقتلا، أو أوجب قذفا فجلدًا، أو سُلبت بسببه حقوق فرُدَّت مظالم إلى أهلها، أو إقرار أوجب بمفرده حُكما، ولذلك قالوا [إقرار المرء على نفسه أقوى البيّنات]. ولهذا تكاثرت نصوص الوحيين الشّريفين فى تعظيم شأن اللّسان ترغيبا وترهيبا، فاللّسان صالح للخير وصالح للشّر فمن أطلق للسانه العنان سلك به الشّيطان فى كلّ ميدان فيُوقعه فى الغيبة والكذب والبهتان والظّلم والعدوان.

وفارق بين الكلام والكلمة، [فالكلام] إظهار ما فى الباطن على الظّاهر لمن يشهد ذلك بنحو من أنحاء الإظهار]. وفى اصطلاح النُّحاة [المعنى المركّب الذى فيه الإسناد والتّمام وعُبّر عنه بأنّه ما يتضمّن من الكلام إسنادا مُفيدا مقصودا لذاته[1]].

أمّا [الكلمة] فتُطلق على اللّفظة الواحدة وعلى الجملة وعلى الكلام الكثير من قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وهو قول الكافر يوم البعث، وقوله تعالى ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾. وقد فسّرها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهى كلمة التّوحيد والبراءة من الشّرك، وقيل [الكلمة قضاء الله وحُكمه السّابق فى اللّوح] وهو معنى قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصّلت: ٤٥]. أى قضاؤه بتأجيل الحُكم بين النّاس إلى يوم القيامة.

والكلمة فى تعريف القرآن إمّا [طيّبة] وإمّا [خبيثة] فقال تعالى فى الأُولى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤]. وهى [شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله ﷺ]. وكذلك كلّ ما يعبّر عن الحقّ والخير والعدل والإصلاح من الكلمات تعتبر كلمة طيّبة، وقال تعالى فى الثّانية ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾. وهى كلمة الشّرك بالله تعالى وكذلك كلّ ما يعبّر عن الباطل والشّر والظّلم والفساد.

وأُطلقت الكلمة على المسيح عيسى بن مريم - عليهما السّلام - فى قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النّساء: ١٧١]. وكلمته هى قوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وكذلك قوله تعالى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وجمع الكلمة [كلمات] كما فى قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وهى أحكام الدِّين وتكاليفه، وقوله جلّ شأنه ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]. أى لشرائعه وأحكامه، مثل قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ

---

(١) انظر مجمع المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٥٤] والتّوقيف [ص ٦٠٧].

لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[يونس: ٦٤ [(١)].

وعندما يتمثّل قول المرء فى الكلمة المعبّرة عن مكنون القلب باللّسان فلابدّ وأن تخضع للحقائق التّالية:

(١) أنّ الكلمة تدلّ دلالة واضحة على قائلها الذى خرجت منه، وتكشف عن حقيقة إيمانه وتبيّن طبيعة معدنه، فالمؤمن إذا ظهرت المصلحة في الكلام تكلّم وهو يريد بذلك وجه الله تعالى، وإذا استوى الكلام وتركُهُ فى المصلحة، فالسُّنّة الإمساك عنه، فلربما يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه والسّلامة لا يعدلها شىء وفى ذلك جاء قوله ﷺ «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنيه(٢)».

(٢) أنّ الكلمة أرضها خصبة فبمجرّد أن تلقى فيها فإنّها تزيد ولا تنقص وتنمو من غير توقّف، فيقوى أصلها ويشتدّ ساقها وتطول فروعها وتمتدّ ويكثر ثمرها ويعظم أثرها وفى ذلك قال الله تعالى﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾[إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

(٣) أنّ الكلمة نبت وفىٌّ لغارسه، فإنّ أوّل من يجنى ثمار الكلام هو المتكلّم وقد تبقى منه بقيّة لعقبه وذرّيته ومن ذلك قوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

ولذلك جاء عن أهل الصّلاح قولهم [لسانُكَ سَيْفٌ قاطعٌ يبدأُ بك، وكلامُك سهْمٌ نافذ يرجعُ إليك، فاقتصد فى المقال وإيّاك وما يغيّر صدور الرّجال. وأنت سالم ما سكتَّ فإذا تكلّمت فلَك أو عليْك. وإن من الكلام ما هو أشدّ من الحجر، وأنفذ من الإبر، وأمرٌّ من الصّبر، وأحرّ من الجمر، وإنّ من القلوب مزارع فازرع فيهاالكلمة الطيّبة فإن لم تنبت كلّها نبت بعضها. أمّا الصّمت فإنّه يُكسبك صفو المحبّة ويُؤمّنك سُوء المغبّة ويُلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار].

وعندما يُقارن المرء نفسه بهذا الذى خلقه الله تعالى أبكما أصمّ وقد حُرِم نعمة الكلام والتّعبير فإنّه يُدرك مدى الرّحمة التى خصّه الله بها من خلال هذه الجارحة التى يُعبّر بها عن مكنون قلبه ومتطلّبات حياته، فالأصمّ من انسدّت خروق مسامعه، أمّا الأبكم فهو الذى لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل الأبكم والأخرس واحد ومنه يقال

---

(١) انظر القاموس القويم للقرآن الكريم [ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٢٦] والرّوض النّضير [٣٢١].

[رَجُلٌ أَبْكَمٌ وبَكِيمٌ] : أي أخْرَسُ بيِّن الخَرَس والبَكَم . و(قيل) الأبكم هو الذي يُولد أخرس فكلّ أبكم أخرس ، وليس كلّ أخرس أبكم ، وإذا كان هذا قد جاء وصفا حسّيا لما ابتلى الله به بعض البشر لتمحيص إيمانهم ، فإنّ الآيات قد وصمت هؤلاء الذين كذّبوا بآيات الله بالبكم والصّمم كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ : يقسم الخالق سبحانه بنفسه على تحقيق البعث والجزاء على الأعمال مثلما أنّ النّطق باللّسان واقع من المخاطبين ، وفي ذلك تنويه بنعمة النّطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عمّا يريده ويبغيه ، ومن المعلوم أنّ هذه النّعمة لا يستشعرها المسلم إلاّ إذا استعمل النّطق بما هو خير ، أمّا إذا نَطَق بالشّر فهو الوبال الذى حذّر منه رسول الله ﷺ ولذلك كثرت وصاياه بحفظ اللّسان والتّحكّم فيه :

فجاء قوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ[1] » . فلسان العاقل يكون وراء قلبه فإذا أراد أن يقول شيئا رجع إلى القلب ، فإن كان له قال وإلاّ فلا كما في قول النّبى ﷺ «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ[2] » . ولمّا سُئل رسول الله ﷺ أيّ المسلمين أفضل قال «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ[3] » . ومعناه من لم يُؤذ مسلما بقول أو فعل ، وخصّ اليد بالذّكر لأنّ معظم الأفعال بها .

وحركة اللّسان بالكلام لا تكون متساوية الطّرفين ، بل إمّا راجحة وإمّا مرجوحة ، لأنّ للّسان شأنا ليس كسائر الجوارح ، فأكثر ما يكبّ النّاس على مناخرهم في النّار حصائد ألسنتهم : و«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا فَيَهْوِى بِهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا[4] » . وعن أبي سعيد رفعه «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكَفِّرُ اللِّسَانَ ، تَقُولُ : اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا[5] » .

ومن العجيب أنّ الإنسان يهون عليه التّحفّظ والاحتراز من أكل الحرام والظّلم والزّنا والسّرقة وشُرب الخمر وغير ذلك ، ويصعب عليه التّحفّظ من حركة لسانه حتّى ترى الرّجل يُشار إليه بالدّين والزّهد والعبادة وهو يتكلّم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالا ،

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٢٩٨٢] وأورده في صحيح التّرغيب [٢٨٦٥] .

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٢٢] .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (٦٦ / ٤٢] والتّرمذى [٢٦٢٨] .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٧٧] والتّرمذى [٢٣١٤] وابن ماجه [٣٢٢١] .

(٥) رواه أحمد بإسناد حسن [١١٨٤٧] والتّرمذى [٢٤٠٧] وأورده في المشكاة [٤٨٣٨] .

يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل مُتورّع عن الفواحش والظُّلم ولسانه يفرى فى أعراض الأحياء والأموال ولا يبالى ما يقول !!.

ثمّ لك الخيَارُ فى واحد من أمرين إمّا مقولة الصّدق والخير، وإمّا الصّمت والسّكوت كما فى قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيراً أوْ لِيَصْمُتْ[١]». وجاء قوله ﷺ عن أنس رضي الله عنه «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا تَجَمَّلَ الْخَلائِقُ بِمِثْلِهِمَا[٢]».

والصّمت والسّكوت لغةً الإمساك عن النّطق وهما أخصّ من الصّوم لغة لا شرعا لأنّ بينهما وبينه تباينا، والصّمت هو السُّكوت مُطلقا سواء كان قادرا على الكلام أم غير قادر، ونُقل عن ابن عابدين قوله [السّكوت ضمّ الشّفتين، فإن طال يُسَمّى صمتا[٣]]. و(قال) آخرون [السُّكوت مختصّ بترك الكلام من قولهم: رجل سكّيت وساكوت: كثير السُّكوت]. و(قال) الرّاغب [لـمّا كان السُّكوت ضربا من السُّكون استُعير له فى قول الله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[الأعراف: ١٥٤].

ومن القواعد الفقهيّة [أنّه لا يُنسبُ لسَاكت قَولٌ]. لكن استثنى بها مسائل عديدة اعتبر السُّكوت فيها تقريرا ومن ذلك: سَكوتَ البِكر عند استئذانها فى النّكاح، وقبول التّهنئة بالمولود والسُّكوت على ذلك يعتبر إقرارا بالنّسب، و(قال) الزّركشى [السُّكوت بمجرّده ينزل منزلة التّصريح بالنّطق فى حقّ من تجب له العصمة، ولهذا كان تقريره ﷺ من شرعه، وكان الإجماع السُّكوتى حُجّة عند كثيرين، أمّا غير المعصوم فالأصل أنّه لا ينزل منزلة نُطقه إلاّ إذا قامت قرائن تدلّ على الرّضا فينزل منزلة النّطق[٤]].

والتّحقيق: أنّ كلّ ما يتلفّظ به اللّسان إمّا أن يكون ممّا يُرضى الله ورسوله، أو أن يكون سببا فى سخط الله ورسوله، فإن كان الأوّل فهو الرّاجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، ثمّ تأتى نتائج هذا كلّه فى قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِى نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ[٥]». والمناخر جمع مَنْخر وهو ثَقْب الأنف، وخصّهما بالكبّ لأنّهما أوّل الأعضاء سُقوطا. (قال) أبو عبيد [الحصائد ما قاله اللّسان وقطع به على النّاس، وفى تهذيب اللّغة: أراد بالحصائد ما قالته الألسنة، شُبّه بما يُحْصَدُ من الزّرع إذا جُزّ[٦]].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٧] وافقه البخارى [٦٠١٨] والتّرمذى [٢٥٠٠]. (٢) حديث حسن أخرجه فى صحيح الجامع [٤٠٤٨] وأورده فى الصّحيحة [١٩٣٨]. (٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [ج ٢٥ ص ١٣١] ومعجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٢ ص ٣٩٢]. (٤) انظر المفردات [ص ٢٣٦] والموسوعة الفقهيّة [ج ١٣ ص ١٤٠]. (٥) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٦١٦] وابن ماجه [٣٢٢٤] وأورده فى الإرواء [٤١٣]. (٦) انظر غريب الحديث [٤ / ٢٦] وتهذيب اللّغة [٤ / ٢٢٩].

ومن أوّل العبوديّات الخمس لجارحة اللّسان :

(١) الوجوب ويشمل النّطق بالشّهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقّف صحّة صلاته عليه، وتلفّظه بالأذكار الواجبة فى الصّلاة التى أمر الله بها رسوله ﷺ كما أمر بالتّسبيح فى الرُّكوع والسُّجود، وأمَرَ بقول «رَبَّنا وَلَكَ الْحَمْدُ» بعد الاعتدال، وأَمَرَ بالتّشهّد والتّكبير.

ومن [واجبه] أيضا ردّ السّلام وفى ابتدائه قولان، ومن واجبه الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وتعليم الجاهل وإرشاد الضّال، وأداء الشّهادة المتعيّنة وصدق الحديث.

(٢) وأمّا [مستحبّه] فتلاوة القرآن الكريم ودوام الذّكر لله تعالى والمدارسة للعلم النّافع وتوابع ذلك.

(٣) وأمّا [مُحَرَّمه] فهو النّطق بكلّ ما يغضب الله سبحانه ورسوله، كالنّطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ﷺ الدّعوة إليها وتحسينها وتقويتها، والقذف وسبّ المسلم وأذاه بكلّ قول، والكذب وشهادة الزّور، والقول على الله تعالى بغير علم وهو أشدّها تحريما، وإتيان هذا كلّه يتنافى وقوله ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِه وَيَده[١]».

(٤) و[مكروهه] التّكلّم بما تَرْكُه خير من الكلام به مع عدم العقوبة عليه.

(ثالثا) عبوديّة الجوارح

والعبوديّة المطلقة للجوارح لا تتحقّق إلاّ بالالتزام الكامل بأمر الله تعالى والسّير على نهجه وصولا إلى المحبّة التى تُؤهله لعفو ربّه ورضاه، فلا تتحرّك له جارحة إلاّ فى الله ولله، لما ورد فى قول النّبى ﷺ عن ربّ العزّة جلّ ثناؤه «وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتى يَمْشِى بِهَا[٢]». وزاد عبد الواحد فى روايته «وَفُؤَادَهُ الَّذى يَعْقِلُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذى يَتَكَلَّمُ بِهِ». وفى حديث أنس رضي الله عنه «وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا».

والمتأمّل فى هذا الحديث ليجد أنّ فضل الله تعالى قد جمع كلّ جوارح الإنسان فى بوتقة إيمانيّة واحدة للدّلالة على توفيقه تعالى لعبده فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء، وأنّ مساعى الإنسان كلّها إنّما تكون بهذه الجوارح.

وقد قيل عندما استشكل كيف يكون البارى جلّ وعلا سمع العبد وبصره! أنّ المعنى :

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٨٤] ومسلم [٤١] وأبوداود [٢٤٨١].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٥٠٢].

كنت سمعه وبصره في إيثاره أمرى، فهو يُحبّ طاعتى ويُؤثر خدمتى كما يُحبّ هذه الجوارح التى تخدمه، فلا يصغى بسمعه إلاّ إلى ما يرضينى، ولا يرى ببصره إلاّ ما أمرته به، وهو عندما يُسَخِّرُ جوارحه للطّاعة فلا يسمع بأذنيه إلاّ ذكرى، ولا يلتذّ بلسانه إلاّ بتلاوة كتابى، ولا يأنس فى وحدته إلاّ بمناجاتى، ولا ينظر بعينيه إلاّ فى عجائب ملكوتى، ولا يمدّ يده إلاّ فيما فيه رضاى ومحبّتى.

ولقد اتفّق مّن يُعتدّ بقوله أنّ هذا مجاز وكناية عن نصرة الله تعالى للعبد وتأييده وإعانته، حتّى كأنّه سبحانه يُنزل نفسه من عبده منزلة الأعضاء التى يستعين بها، ولهذا وقع فى رواية «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي». (قال) الخطّابى: [هذه أمثال والمعنى توفيق الله تعالى لعبده فى الأعمال التى يُباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبّة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللّهو بسمعه، ومن النّظر إلى ما نهى الله تعالى عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحلّ له بيده، ومن السّعى إلى الباطل برجله(1)].

عند ذلك وكما جاء فى الحديث يتحقّق للمرء الأمران معا:

* «الْقُرْبُ» الذى يعيش من خلاله حلاوة «البُعد» عن معصية الله تعالى.

* و«الْحُبُّ» الذى يُسخّر العبد فيه الجوارح «لطاعة» خالقه سبحانه ومولاه.

ومن الأدعية التى تجمع استعاذة نبيّنا ﷺ من شرّ الجوارح وتأكيدها لتحصيل مرتبة العبوديّة الحقّة للخالق جلّ شأنه ما رُوى عن شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ قال «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ به؟ فَأَخَذَ ﷺ بِكَتِفِي فَقَالَ قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي(2)». يَعْنِى فَرْجَهُ.

فبدأ رسول الله ﷺ «بالسّمع» لكونه حاسّة التّلقّى فلا يسمع به ما يكرهه الله من كلام الزّور والبهتان وغيره من العصيان، ثمّ تعوّذ من شرّ «البصر» حتّى لا يرى شيئا لا يرضاه ربّه تعالى من النّظر إلى الحرام، ومن شرّ «اللّسان» حتّى لا يقوده لغطه إلى النّار، ومن شرّ «القلب» كذلك فلا يعتقد اعتقادا فاسدا، ولا يكون فيه نحو أحد حقد أو حسد أو تصميم على فعل مذموم، أو أن ينشغل بغير الله وبغير أمره، أو أن يغلب عليه «مَنِيُّهُ» فيقع فى الزّنا أو مقدّماته من النّظر واللّمس والعزم وغير ذلك.

وعليه فإنّ العبوديّات الخمس على الجوارح تترتّب على [خمس وثلاثين] مرتّبة أيضا إذ الجوارح والحواسّ سبعة على كلّ واحدة منها خمس عبوديّات أوّلها:

---

(1) انظر فتح البارى [ج 11 ص 352].

(2) حديث صحيح أخرجه أبو داود [1551] والترمذى (3492) والنّسائى [5470].

(أ) عبودية السّمع

السّمع قوّة في الأذن تُدرَك بها الأصوات، أو هو حاسّة في الأذن والأعصاب التي تربطها بمركز الإحساس بالمخّ لتدرك بها الأصوات. (قال) في التّوقيف [السّمع قوّة مُودعة في العَصَب المفروش في مقعر الصِّماخ به تدرك الأصوات بدليل وصول الهواء المتكيِّف بكيفية الصّوت إلى الصِّماخ[1]]. ومن السّمع الإصغاء والإنصات كقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[الأعراف: ٢٠٤].

واستدلّ بقول الله تعالى﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾، مَنْ فضّل السّمع عن البصر لتقدّمه عليه في أكثر من آية. (قال): والسّمع يدرك به من الجهات السّت وفي النّور والظُلمة، ولا يدرك بالبصر إلاّ من الجهة المقابلة وبواسطة من ضياء وشعاع، ثمّ تأتي الآيات بتوحيد السّمع في قوله تعالى﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾لأنّه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال: سَمِعْتُ الشَّيْءَ أَسْمَعُهُ سَمْعًا وسَمَاعًا، فالسّمع مصدر سمعت، والسّمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها فسمّيت بالمصدر.

وفي ومضة من ومضات الإعجاز العلمي الباهر يشير الخالق تبارك وتعالى إلى:

تكوين حاسّة السّمع في الإنسان

عندما يأتي ذكر السّمع قبل الأبصار في أربع عشرة آية قرآنيّة منها قول الله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]. وذلك تأكيدا على الأهميّة الفائقة لنعمة السّمع على غيرها من الحواسّ مع إدراكنا لأهميّة كلّ حاسّة وهبها الله تعالى للإنسان، وتقريراً للحقيقة التي تبيّن أنّ الجنين يسمع في بطن أمّه قبل أن يُبصر وكذلك الوليد فإنّه يسمع قبل أن يُبصر.

ومن الثّابت عند أهل الاختصاص أنّ الجنين يستطيع السّمع في الشّهر الرّابع من عُمره وهو لا يزال في بطن أمّه وسط ظُلمات ثلاث، ويبدأ تكوّن الجهاز السّمعي لجنين الإنسان بتكوين الأُذن الدّاخلية من الطّبقة الخارجيّة للعلقة في حدود اليوم الثّاني والعشرين من عمر الجنين على هيئة تخانة على جانبي مُؤخّر المخ، وفي الأسبوع الرّابع تتحوّل هذه التّخانة إلى حُفرة ثمّ إلى حُوَيصلة تُعرف باسم [حويصلة السّمع] التي يتكوّن منها عُقدتا السّمع والتّوازن، وفي نفس الوقت يتكوّن غشاء طبلة الأُذن ثمّ تنقسم هذه الحويصلة السّمعية في الأسبوع الخامس إلى قسمين:

(١) أمامي ويشمل قناة قوقعة السّمع وكيسا صغيرا.

(٢) وخلفي ويشمل عددا من القنوات الهلاليّة بالإضافة إلى قربة صغيرة.

---

(١) انظر المفردات [ص ٢٤٢] والتّوقيف [ص ٤١٤].

وهذان القسمان يُكوّنان معا ما يُعرف باسم [التّيه الغشائى] الذى يُحاط بعد ذلك بالعظام التى تُعرف بالتّيه العظمى وتُملأ المسافة بينهما بالسّائل اللّيمفاوى ، وفى الأُسبوع السّادس من عمر الجنين يتكوّن كلّ من صوان الأُذن الخارجيّة وقناتها ، كما تستطيل قناة قوقعة الأُذن ، وتبدأ فى اللّف على ذاتها لدورتين ونصف الدّورة ، ويتكوّن بداخلها جهاز التّوازُن فى الأُسبوع السّابع وكذلك تغذية عُقدة التّوازُن ، وفى نفس الفترة تتكوّن عظام الأُذن الوسطى [المطرقة والسّندان والرّكاب] .

وفى الأُسبوع الثّامن من عُمر الجنين يتكوّن شريط داخل قناة القوقعة يقسّمها إلى جُزأين : [جزء سمعى وجزء دهليزى] ويتّصل كلّ من جهاز السّمع الدّاخلى وجهاز التّوازن بالعصب السّمعى / الدّهليزى الذى ينطلق من مُؤخرة المخ ، ويتم تكوين كلّ من الأُذن الداخليّة والوُسطى والخارجيّة فى الشّهرين التّاليين ، وبذلك يتمكّن الجنين من السّمع فى الشّهر الرّابع من عُمره فتبارك الله أحسن الخالقين [(١)] .

ولكى تُؤدّى حاسّة السّمع مهمّتها خلق الله تعالى الأُذُن على أحسن خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها :

(١) فجعلها مُجوّفة كالصّدَفة لتجمع الصّوت وتُؤدّيه إلى الصّماخ ، وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصّوت الدّاخل فتكسر حدّته ، ثمّ تُؤدّيه إلى الصّمَاخ[(٢)] ومن حكمة ذلك أن يطول الطّريق بالحشرة الضّالة فلا تصل إلى الصِّماخ حتّى يستيقظ أو ينتبه لإمساكها .

(٢) ثمّ اقتضت حكمة الخالق أن جعل ماء الأذن غاية فى المرارة فلا يُجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن ، بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة فى رجوعه .

هذا عن السّمع ، أمّا «السّماع» فهو مصدر [سَمِعَ يَسْمَعُ تَسَمُّعاً] ومن معانيه :

* «الإدْرَاكُ» يقال : «سمع الصّوت سماعا» : إذا أدركه بحاسّة السّمع فهو سامع ومنه السّمع بمعنى الاستماع .

* «الإجَابَةُ» كما فى أدعية الصّلاة ومنها «سَمِعَ اللّٰهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أى أجاب من حَمدَه وتقبّله منه .

* «الْفَهْمُ» فيقال «سَمِعْتُ كَلاَمَهُ» : إذا فهمت معنى لفظه .

* «القَبُولُ» ومنه سمع عذره إذا قبله ، و[سمع القاضى البيّنة] : أى قبلها وسمع الدّعوى ولم يردّها .

---

(١) انظر من أسرار القرآن للدكتور زغلول النّجار [١٦٣] . (٢) الصّماخ : قناة الأذن التى تُفضى إلى طبلته ، وقيل هو الأُذُن نفسها والجمع أصمخة مثل سلاح وأسلحة . [انظر المعجم الوجيز ص ٣٦٩] .

وفرّق بعض الفقهاء بين السّماع والاستماع فقالوا :

إنّ [الاسْتِمَاعَ] لا يكون استماعا إلاّ إذا توفّر فيه القصد . أمّا [السَّمَاعُ فإنّه قد يكون بقصد أو بدون قصد ، وغالب استعمال الفقهاء للسّماع ينصرف إلى استماع آلات الملاهى أى بالقصد[1]] . ومن عبوديّة السّمع :

[وجوب] الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع علوم الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة فى الصّلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة فى أصحّ قولى العلماء ومنه قوله تعالى﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف : ٢٠٤] .

و[يحرم] عليه استماع الكفر والبدع إلاّ حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة من ردّه ، أو الشّهادة على قائله ، أو زيادة قوّة الإيمان والسّنة بمعرفة ضدّهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرّه ولا يحبّ أن يُطلعك عليه ما لم يكن متضمّنا لحقّ من حقوق الله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعيّن نصحه وتحذيره ومن ذلك قوله تعالى﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[القصص : ٥٥] .

ويحرم عليه كذلك استماع أصوات النّساء اللاّئى تُخْشَى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه الحاجة من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء ، أو محاكمة ، أو مداواة أو نحوها ، وكذلك استماع الآلات الموسيقية ، ولا يجب عليه سدّ أذنيه إذا سمع الصّوت وهو لا يريد استماعه إلاّ إذا خاف السّكون إليه والإنصات ، فحينئذ يجب لتجنّب سماعها وجوب سدّ الذّرائع .

أمّا السّمع [المستحبّ] فكاستماع المستحبّ من علم الدّين والفقه والحديث وقراءة القرآن وذكر الله تعالى واستماع كلّ ما يحبّه الله وليس بفرض كما فى قوله جلّ شأنه ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزّمر : ١٨] .و[المكروه] : عكسه وهو استماع كلّ ما يُكره ولا يُعاقب عليه .

وماذا عن الزّحف السّماعى الجديد للموسيقى والغناء ؟

لاشكّ أنّ عبوديّة السّماع حلالها وحرامها فى زماننا الحاضر ترتبط ارتباطا مُباشرا بما يُعانيه المجتمع المسلم من غوغائيّة جديدة تمثّلت فى هذا المدّ الغزير من الموسيقى والغناء ، تلك التى يعتبرها أصحاب التّوجُّهات العِلمانيّة فى المجتمع اللّيبرالى من العوامل المؤثرة للحاق بتقدُّميَّة الغرب وازدهاره .

وتتأكّد دلالة ذلك من خلال ما تقدّمه الإذاعات المسموعة والمتخصّصة من الأغانى المبتذلة التى لا تتحدّث إلاّ عن الحبّ الضّائع بين الحبيبين ، أو التشوُّف لسرعة اللّقاء بعد الهجر

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٤ / ٨٥] .

والخصام، أمّا عن الشّاشات المرئيّة فحدّث ولا حَرَج عن تلك اللّقطات التى لا تقابل إلاّ بالخجل الذى يتوارى خلفه حياء البنات والأمهات لما تحمله أُلبومات الأغانى المصوّرة أو قُلِ [الهابطة] تلك التى تحمل الدّعوة الصّريحة إلى الفسق والفجور.

والأئمّة الأربعة على أنّ الغناء فُسوق وعصيان، ولمّا سُئل مالك رحمه الله عمّا يرخّص فيه أهل المدينة من الغناء قال [إنّما يفعله عندنا الفُسّاق]. ومذهب أبو حنيفة رحمه الله فى ذلك من أشدّ المذاهب وقوله فيه من أغلظ الأقوال، وقد صرّح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلّها كالمزمار والدُّف، وصرّحوا بأنّها معصية توجب الفسق وتردّه به الشّهادة. وأبلغ من ذلك أنّهم قالوا [إنّ السّماع فسق والتّلذُّذ به كفر] وهذا لفظهم، أمّا الإمام الشّافعى رحمه الله فقال فى كتاب أدب القضاء [إنّ الغناء لَهْوٌ مكروه يشبه الباطل والمُحال، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرَدُّ شهادته].

ثمّ يأتى [الإمام الغزالى] فى الإحياء بعلّة تحريم الغناء عندما يتمثّل المرء فى نفسه حال الاستماع صورة لامرأة لا يحلّ النّظر إليها، وكان ينزل ما يسمع على ما تمثّل فى نفسه من هيَام بها فهو حرام، فإذا كان المُغنِّى امرأة لا يحلّ النّظر إليها وتُخشى الفتنة من سماعها فهو حرام، والمستمع فى ذلك شريك القائل لمشاركته هواه ومجالسته إيّاه ووقوعه فى درب تصوّراته عمّا نهى عنه رسول الله ﷺ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فلا يجوز وصف المرأة بين يدى الرّجال بحال [[1]]. وتحدّث الإمام النّووى فى شرح المهذّب عن المنفعة المحرّمة من الغناء فتضمّن قوله أمورا :

(أحدها) أنّ منفعة الغناء بمجرّده منفعة محرّمة. (الثّانى) أنّ الاستئجار عليه باطل. (الثّالث) أنّ أكل المال به أكل بالباطل بمنزلة أكله عوضا عن الميتة والدّم، (الرّابع) أنّه لا يجوز للرّجل بذل ماله للمُغَنِّى ويحرم عليه ذلك، فإنّه بذل ماله فى مقابلة محرّم. (الخامس) أنّ الزّمر حرام [[2]]. و«الزَّمْرُ : الغناء باستخدام الآلة.

وفى قول الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾[لقمان : ٦]. قال ابن مسعود «هُوَ وَاللهِ الْغِنَاءُ[3]». وفى تفسيرها قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [هو الرّجل يشترى الجارية تغنّيه ليلا ونهارا[4]]. ويدخل فى هذا كلّ من اختار اللّهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللّفظ قد ورد بالشّراء فإنّ لفظ الشّراء يُذكر فى الاستبدال والاختيار وهو كثير فى القرآن، ويدلّ على هذا ما قاله قتادة رضي الله عنه [لعلّه أن يكون قد أنفق مالا[5]].

---

(١) انظر كتاب إحياء علوم الدّين [ج ٣ ص ٢٤٣]. (٢) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٢٢٢]. (٣) أخرجه الحاكم (٣٥٩٣] وافقه الذهبى فى التّلخيص صحيح. (٤) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٢٣١]. (٥) أخرجه الطّبرى فى تفسيره [٢١ / ٦١] وابن المنذر وابن مردويه كما فى الدّر المنثور [٥ / ١٥٩].

وأمّا غناء الْقَيْنَات فذلك أشدّ ما في الباب وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ومنه ما رُوى أنّ النّبى ﷺ قال «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى قَيْنَةٍ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(١)». والقَيْنَةُ هى المغنّيَةُ وجمعها قِيَانٌ تلك التى أصبحت الأن مجمعا للإثـم والفجور.

وجاء فى بيان تحريم رسول الله ﷺ الصّريح لآلات اللّهو والمعازف ما أخرجه البخارى في صحيحه عن أبى مالك أنّ رسول الله ﷺ قال «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ ـ إلى أن قال ـ فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ، وَيَضَعُ الْعَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٢)». ووجه الدّلالة منه أنّ المعازف هى آلات اللّهو كلها لا خلاف بين أهل اللّغة فى ذلك، ولو كانت حلالا لما ذمّهم على استحلالها ولما قَرَنَ استحلالها باستحلال الخمر والخزّ.

كما روى ابن ماجه فى سُننه عن أبى مالك أنّ رسول الله ﷺ قال «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ(٣)». وقد توعّد نبىّ الله ﷺ مستحلّى المعازف فيه بأن يخسف الله بهم الأرض ويمسخهم قردة وخنازير، وإن كان الوعيد على جميع هذه الأفعال فلكلّ واحد منها قسط فى الذمّ والوعيد، ويتأيّد هذا بما رُوى عن عائشة من قوله ﷺ «يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ، قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الْخَبَثُ(٤)».

ولقد أخبر النّبى الكريم ﷺ أنّ بعض العُصَاة من هذه الأمّة سيترسّمون خُطَى أهل الكُفر فى فسقهم شبراً بشبر ويتبعونهم فى مُجونهم وفُجورهم ذراعًا بذراع، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى كثير من الرّوايات منها قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، فَقِيلَ يَارَسُولَ اللهِ فَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ!(٥)». وقوله ﷺ من حديث أبى سعيد «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَارَسُولَ اللهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟(٦)».

وقوله «سَنَنَ»: أى طريق الذين قبلكم من اليهود والنّصارى، والمراد بالشّبر والذّراع التّمثيل بشدّة الموافقة لهم فى المعاصى والمخالفات، والذى يظهر أنّ التّخصيص إنّما وقع

---

(١) أخرجه ابن عساكر من حديث أنس كما فى كنز العمّال [٤٠٦٦٩]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٥٩٠] ووصله ابن حبّان [٦٧٥٤] والطبرانى [٣٤١٧]. (٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٦٣] وأورده فى المشكاة [٤٢٩٢] وابن حبّان [٦٧٥٨]. (٤) أخرجه فى صحيح الجامع [٨١٥٦] وأورده فى الصّحيحة [٩٨٧] والرّوض النّضير [٢ / ٣٩٤]. (٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٣١٩]. (٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٣٢٠] ومسلم [٢٦٦٩] وابن ماجه [٣٢٤٣].

«لجُحْرِ الضَّبِّ» لشدّة ضيقه ورداءته، ومع ذلك فإنّهم لاقتفائهم آثارهم واتّباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضّيق الرّديء لتَبعُوهُم [(١)].

ولقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمّة حتّى عُوقب العُصَاة منها بما عُوقب به اليهود من مسخ وغضب، وذلك مُقيّد في أكثر الأحاديث بأصحاب المعازف والغناء والرّقص والمجون وشاربي الخمر ومن ذلك:

* وقوله ﷺ من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه «لَيَبِيتَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَكْلٍ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ ثُمَّ لَيُصْبِحُنَّ قِرَدَةً وَخَنَازِير(٢)».

* وقوله ﷺ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه «فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ، إِذَا ظَهَرَتِ الْقِيَانُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ(٣)».

ومعنى «المسخ» في الأحاديث [أنّ القلب إذا اتّصف بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغا تامًّا، صار صاحبه على خُلُق الحيوان الموصوف به من القردة والخنازير وغيرهما، ثمّ لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتّى يبدو على صفحات وجهه بدوًا خفيًّا، ثمّ يقْوى ويتزايد حتّى يصير ظاهرا على الوجه، ثمّ يقْوى حتّى يقلبَ الصّورة الظّاهرة كما قَلَبَ الهيئة الباطنة، ومن له فراسة تامّة يرى على صور النّاس مَسْخًا من صور الحيوانات التي تخلّقوا بأخلاقها في الباطن.

فقلّ أن ترى مُختالا مكّارًا مُخادعا إلاّ على وجهه مَسْخَة قرد، وقلّ أن ترى رافضيًّا إلاّ وعلى وجهه مَسْخَة خنزير، وقلّ أن ترى شرهًا نهما نفسه نفس كلبيّة إلاّ وعلى وجهه مَسْخَة كلب، فالظّاهر مرتبط بالباطن أقوى ارتباط، فإذا استحكمت الصّفات المذمومة في النّفس قويت على قلب الصّورة الظّاهرة.

ولهذا خوّف النّبي ﷺ من سَابَقَ الإمام في الصّلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار لمشابهته للحمار في الباطن، فإنّ لم يستفد بمسابقة الإمام إلاّ فساد صلاته وبُطلان أجره، فإنّه لا يسلّم قبله، فهو شبيه بالحمار في البَلاَدَة وعدم الفطنة، فإذا عُرف هذا فأحقّ النّاس بالمسخ هؤلاء الذين ذُكرُوا في هذه الأحاديث فهم أسرع النّاس مَسْخًا قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن، وعقوبات الله جارية على وفق حكمته وعدله(٤)].

(٢) عبوديّة النّظر

النّظر إلى الشّيء إبصاره وتأمّله بالعين، من نَظَرَ يَنْظُرُ نَظرًا فهو: نَاظِرٌ. ومنه قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. والنّظر في اللّغة طلب ظهور الشّيء بحاسّة البصر أو غيرها من الحواسّ، كما يقال لمَعَانٍ منها [الاعتبار والرّؤية،

(١) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٥٧٤]. (٢) أورده في صحيح الجامع [٥٣٥٤] والصّحيحة [١٦٠٤].
(٣) أورده في صحيح الجامع [٤٢٧٣] والصّحيحة [٢٢٠٣]. (٤) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٢٥٧].

والنّظر: تقليب العين حيال المكان المرئى طلبًا لرؤيته، والرّؤية هى إدراك المرئى[1]].

أمّا الْبَصَرُ [فهو القوّة المودعة فى العَصَبين المجوّفين اللّذين يلتقيان ثمّ يفترقان فتتأدّى إلى العين بها الأضواء والألوان والأشكال. يقال: أبصرته بالعين إبصارا، وبَصُرت بالشّىء بالضّم[2]]. كما يُطلق البصر مجازا على الإدراك للمعنويّات، كما يُطلق على العين ذاتها لأنّها محل الإبصار ومنه «البصيرة» وهى قوّة الإدراك والحُجّة والفطنة وجمعها «بصائر».

والبصر ضدّ العمي وهو فى اللُّغة ذهاب البصر كلّه، يقال «عَمِيَ يَعْمَى عَمًى فهو أَعْمَى»: إذا فقد بَصَرَهُ فلا يرى شيئا، والأنثى عمياء، ولا يقع هذا النّعت على العين الواحدة لأنّ المعنى يقع عليهما جميعا، كما يُطلق على «فقد البصيرة». يقال «عمى فُلانٌ عَنْ رُشْده وعَمِيَ عَنْ طَرِيقه». ومن ذلك قول الله تعالى﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦[3]].

ومن حكمة الله تعالى فى الخلق أن جعل البصر فى مُقدّمة الرّأس ليكون كالطّليعة والحرَس الكاشف للبدن، وركّبَ كلّ عين من طبقات لكلّ طبقة منها وصف ومقدار ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة منها أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطّلت العين عن الإبصار، ثمّ جعل سبحانه فى داخل العين خَلْقًا عجيبا وهى مُقْلَتُهُمَا التى تجمعُ بين السّواد والبياض.

فبقدر العدسة يُبصر المرء به ما بين المشرق والمغرب، وجَعَله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو ملكها، وتلك الطّبقات والأجفان والأهداب خدَم له وحُجّابٌ وحُرّاس، ثمّ جعل ماء العينين ملْحًا ليحفظها فإنّها شَحْمَةٌ قابلة للفساد، فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا فتبارك الله أحسن الخالقين.

تكوين حاسّة الإبصار فى الإنسان

ثمّ انظر إلى إبداع الله تعالى فى خلقه عندما تبدأ حُوَيصلة الإبصار فى التّخلّق فى نهاية الأسبوع الثّالث من عمر الجنين كامتداد صغير من مُقدّمة المخ، ثم تنفصل عنها فى الأسبوع الرّابع حين تظهر عدسة العين فى أواخر الأُسبوع الرّابع وأوائل الخامس، وفى الأُسبوع الخامس تأخذ شكل المخروط وتتّصل مباشرة بعصب الإبصار.

وتشمل الطبقة الخارجيّة كلا من قزحيّة العين والجسم الهدبى، وتفقد خلايا عدسة العين أنويتها لتصبح كاملة الشّفافية، ويظهر كلّ من الصّلبة والقرنية ومشيمة العين والجفون ورموش العين والملتحمة فى الأسبوع السّابع من عُمر الجنين، كما تتكوّن الغُدد الدّمعية فى الأسبوع التّاسع كامتداد من الملتحمة تفتح عليها وتصب فى القناة الدّمعية بالأنف.

(١) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٢٦]. (٢) انظر النّهاية [١ / ١٣١] وأساس البلاغة [ص ٤١]. (٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [٣٠ / ٢٩٦].

أمّا الجفون فإنّها لا تُشقّ إلاّ فى الشّهر السّابع من عمر الجنين بينما تكون قد اكتملت والتصقت فى الشّهر الثّالث، وتكون شبكيّة العين قد نمت إلى أربع طبقات وتُستكمل إلى تسع بتمام الشّهر السّابع، ويكون العصب البصرى قد تصالب فى مساره حتّى يصل إلى مُؤخّرة المخ، فانظر كيف أبدع الله خلق هذا الإنسان على هذا النّسق البديع وجعل له السّمع والبصر والفؤاد فكانت من أعظم نعمه عليه ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ثمّ انظر كيف أبدع الخالق سُبُحانه شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثمّ جمّلهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة، فهما يتلقيان عن العينين الأذى والقَذَا والغُبار ويكنّانهما من البارد والحار المؤذيّين، ثمّ غرس فى أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالا وزينة ولمنافع أُخَر وراء الجمال والزّينة، ثمّ أودعهما ذلك النّور الباصر والضّوء الباهر الذى يخرق ما بين السّماء والأرض، وقد أودع الخالق جلّ شأنه هذا السّر العجيب فى هذا المقدار الصّغير بحيث تنطبع فيه صورة السّموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها[1]] فهذا ﴿ خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ولذلك كان من [الواجب] فى عبوديّة هذا الخلق العظيم النّظر فى المصحف وكُتب العلم عند تعيّن تعلّم الواجب منها، والنّظر إذا تعيّن لتمييز الحلال من الحرام فى الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التى يؤدّيها إلى أربابها ليميّز بينها ونحو ذلك، أمّا [الحرام فيه] النّظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا وبغيرها إلاّ لحاجة، كنظر الخاطب والشّاهد والحاكم والطّبيب وذوى المحرم.

كما يُستحب عند أهل العلم النّظر فى كتب العلم والدّين والتى يزداد بها المسلم إيمانا وعلما، والنّظر فى المصحف ووجوه العلماء والصّالحين والوالدين، والنّظر فى آيات الله المشهودة ليستدلّ بها على توحيده ومعرفته وحكمته، و[المكروه عندهم] فضول النّظر الذى لا مصلحة فيه، فإنّ له فضولا كما للّسان فضولا، وكم قاد فضولهما إلى فضول عَزّ التّخلّص منه وأعيى دواؤه. أمّا [المباح] فالنّظر الذى لا مضرّة فيه فى العاجل والآجل ولا منفعة. وأمّا [الحرام] منه فالنّظر إلى العورات وهى قسمان:

* عورة وراء الثّياب.
* وعورة وراء الأبواب.

ولقد جاء تحريم النّظر إلى [عورة ما وراء الثّياب] قاطعا كما فى قوله ﷺ «لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ[2]». وأمّا ضبط العورة فى حقّ الأجانب فإنّ عورة الرّجل مع الرّجل ما بين السّرة والرّكبة، وكذلك المرأة مع المرأة، وأمّا نظر الرّجل

(١) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ١٨٩]. (٢) أخرجه مسلم [٣٣٨] والتّرمذى [٢٧٩٣].

إلى المرأة فحرام فى كلّ شىء من بدنها .

وكذلك يحرم عليها النّظر إلى كلّ شىء من بدنه سواء كان نظره أو نظرها بشهوة أم بغيرها وهذا التّحريم فى حقّ غير الأزواج . [أمّا الزّوجان فلكلّ واحد منهما النّظر إلى عورة صاحبه جميعها إلاّ الفرج نفسه ، فإنّه يُكره النّظر إليه من غير حاجة وليس بحرام[1]] .

أمّا لو نظر فى العورة التى [وراء الأبواب] فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شىء وذهبت هَدْرًا بنصّ رسول الله ﷺ فى الحديث «مَنِ اطَّلَعَ فِى بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ[2]» . وعند أبى داود «فَفَقَئُوا عَيْنَهُ فَقَدْ هَدَرَتْ عَيْنُهُ» . وهذا إذا لم يكن للنّاظر سبب يُباح النّظر لأجله كعورة له هناك ينظرها أو ريبة هو مأمور أو مأذون له فى الاطلاع عليها .

(٣) عبودية التّذوُّق

التّذوُّق من «ذَاقَ الطَّعَامَ» : اختبر طَعْمَهُ . وذَاقَ الشَّىْءَ : جرّبه واختبره فهو ذائق وذوّاق أى جيّد الذّوق ، وهو [حاسّة تُميّز بها خواصّ الأجسام الطّعميّة بواسطة الجهاز الحسّى فى الفم ومركزه اللّسان ومنه : تذوّق طعم الشّىء[3]] . ثمّ تأتى الإشارة إلى التّذوُّق المعنوى وهى حاسّة يصدر عنها انبساط النّفس أو انقباضها لدى النّظر فى أثر من الآثار أو أمر من الأمور ومن ذلك قولهم [أذَاقَهُ اللهُ الخَوْفَ] : أى أنزله به ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النّحل : ١١٢] .

وسبحان من جعل الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذّوق والكلام وآلات الطّحن والقطع ما يُبهر العقولَ عَجَائِبُهُ ، فجعل ماء الفم عذبا حُلوا ليدرك به طعومَ الأشياء على ما هى عليه ، إذ لو كان على غير هذه الصّفة لأحالها إلى طبيعته ، كما أنّ من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرّة على ذات المرارة كما قيل [[4]] :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ * يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلاَلاَ

و[الواجب] فى التّذوُّق تناول الطّعام والشّراب عند الاضطرار إليه خشية الموت ، فإن تركه حتّى مات مات عاصيا قاتلا لنفسه ، ومن اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتّى مات دخل النّار . ومن هذا : تناول الدّواء إذا تيقّن النّجاة به من الهلاك على أصح القولين .

والتّذوّق [الحرام] فكتذوّق الخمر والسّموم القاتلة ، والتّذوُّق [الممنوع] منه للصّوم الواجب ، أمّا [المكروه] كتذوّق المشتبهات والأكل فوق الحاجة ، وتذوّق طعام الفجأة وهو

(١) انظر نووى مسلم [ج ٢ ص ٢٦٦] . (٢) أخرجه مسلم [٢١٥٨] وأبو داود [٥١٧٢] . (٣) انظر المعجم العربى الأساسى [ص ٤٩٠] . (٤) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ١٩١] .

الطّعام الذى تفجأ آكله ولم يرد أن يدعوك إليه، كأكل أطعمة المرائين فى الولائم وغيرها والدّعوات ونحوها.

ومن التّذوّق [المستحبّ] أكل ما يُعينُك على طاعة الله عزّ وجلّ ممّا أذن الله فيه، والأكل مع الضّيف ليطيّب له الأكل فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدّعوة الواجب إجابتها والمستحبّ، أمّا التّذوّق [المباح] فهو ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

(٤) عبوديّة الشّم

والأنف هو الجارحة التى أودع الله فيها حاسّة الشّم التى تُدرك بها أنواع الرّوائح الطّيبة والخبيثة والنّافعة والضّارة، وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب ليتروّح به، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل أعلى الأنف أدقّ من أسفله، لأنّ أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة، وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدُّد العينين فى المنفعة وهو واحد ولم يكن عضوين كالأذنين والعينين اللّتين اقتضت الحكمة تعدّدهما، فإنّه ربّما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطّل منفعة هذا الحسّ جملة، فتبارك من قدّر فأبدَع وخلَق فسوّى [(١)].

أمّا تعلّق العبوديّات الخمس بحاسة الشّمّ فمنه:

(١) الشّم [الواجب] وهو كلّ شمّ تعيّن طريقا للتّمييز بين الحلال والحرام كالشّم الذى تُعلم به خباثة العين أو طيبها، وهل هى سمّ قاتل أو لا مضرّة فيه، أو يميّز به بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك.

(٢) أمّا الشّم [الحرام] فهو المتعمّد لشمّ الطّيب فى الإحرام وشمّ الطّيب المسروق والمغصوب، وتعمّد شمّ الطّيب من النّساء الأجنبيّات خشية الافتتان بما وراءه.

(٣) أمّا [الشّم المستحبّ] فهو شّم ما يُعينُك على طاعة الله، ويقوّى الحواسّ ويبسط النّفس للعلم والعمل، ومن هذا هديّة الطّيب والرّيحان إذا أُهديت لك، لقوله ﷺ «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدُّهُ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ(٢)».

أمّا [المكروه منه]: كشّم طيب المعاندين وأصحاب الشُّبهات.

والشّم [المباح]: هو ما لا تبعة فيه، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلّق له بالشّرع.

(٥) عبوديّة اللّمس

اللّمس قوّة مُثبتة فى جميع البدن تُدرك بها الحرارة والبرودة والرّطوبة واليُبوسة ونحوها عند الاتصال به. (قال) ابن دريد: أصل اللّمس باليد ليعرف مسّ الشّيء، ثمّ كثر حتّى صار اللّمس لكلّ طالب. و(قالوا): هو إدراك بظاهر البشرة ويعبّر به عن

(١) انظر مفتاح دار السّعادة [ج ١ ص ١٩٠]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٥٣].

الطّلب ، وأمّا ما يتعلّق بالأحكام الخمسة بهذه الحاسّة : فاللّمس [الواجب] كلمس الزّوجة حين يجب جماعها . و[المستحبّ] إذا كان فيه غضّ بصره وكفّ نفسه عن الحرام وإعفاف أهله . و[المكروه] لمس الزّوجة في الإحرام للّذة ، وكذلك في الاعتكاف وفي الصّيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا [المكروه] أيضا لمس بدن الميت لغير غاسله لأنّ بدنه قد صار بمنزلة عورة الحيّ تكريما له ، ولهذا يستحبّ ستره عن العيون وتغسيله في قميصه في أحد القولين ، ولمس فخذ الرّجل إذا قلنا : أنّها عورة . و(المباح) : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينيّة .

و[الحرام] منه : لمس ما لا يحلّ من الأجنبيات ، وإذا كان الإسلام يطارد الحرام أينما وُجد ويترصّد المنكر حيثُما كان ليقضي عليه ، فلمس المرأة باليد يحرّك كوامن النّفس ، ويفتح أبواب الفساد ويسهّل مهمّة الشّيطان ، من أجل ذلك توعّد الله تعالى من يفعل ذلك بصارم عقابه وشديد عذابه ، فجاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «لأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لاَ تَحِلُّ لَهُ(١) » . وإذا كان هذا في مجرّد المسّ بغير شهوة فما بالك بما فوقه !

والشّاهد على ذلك قوله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «والْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ» . فمن تساهل في مُصافحة النّساء واحتجّ بطهارة قلبه وسلامة نيّته ، وأنّه لا يتأثّر بذلك فإنّه يُنادي على نفسه بنقص الرّجولة ، وأنّه كاذب في دعواه الطّهارة والسّلامة ، وهذا أطهر ولد آدم ﷺ وأخوفهم لربّه تعالى يقول «لاَ أَمَسُّ أَيْدِي النِّسَاءِ(٢) » . وفي رواية «إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاءَ(٣) » . وجاء عند أحمد بلفظ «إِنِّي لَسْتُ أُصَافِحُ النِّسَاءَ(٤) » .

ويمتنع رسول الله ﷺ عن مصافحة النّساء حتّى في وقت البيعة الذي يقتضي المصافحة ، فكيف يُباح لغيره من الرّجال مصافحة النّساء مع الشّهوة الغالبة والفتنة غير المأمونة والشّيطان الذي يجري فيهم مجرى الدّم من العروق ! . وقد قالت عائشة «وَلاَ وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلاَّ بِقَوْلِهِ : بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ(٥) » . وجاء عند التّرمذي «مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ إِلاَّ امْرَأَةً يَمْلِكُهَا(٦) » .

---

(١) رواه الطّبراني والبيهقي وأورده المنذري في التّرغيب [٣ / ٣٩ رقم ١٦] وقال «رجال الطّبراني ثقات رجال الصّحيح» . و«المخْيَطُ» : هو ما يُخاطُ به كالإبرة والمسلّة وغيرهما .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط كما في صحيح الجامع [رقم ٧٠٥٤] .

(٣) رواه مالك في الموطأ [٢ / ٩٨٢] وابن ماجه [٢٣٤١] .

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن [٢٧٤٦٦] .

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٨٩١] ومسلم [١٨٦٦] .

(٦) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٣٠٦] وأبو داود [٢٩٤١] وابن ماجه [٢٣٤٢] .

(٦) عبوديّة اليدين

من أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه التي فيها من العجائب الدّالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضها، إذ لو فكر في نفسه لزجره وردّه ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، ومنه قول الله تعالى ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. ومن الخلق المبهر في الإنسان هاتان اليدان اللّتان هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه ومعاده:

* فطوّلهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرّض الكفّ ليتمكّن به من القبض والبسط، وقسّم فيه الأصابع الخمس كلّ إصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنتين.

* ثمّ وضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع، فجاءت على أحسن هيئة صلحت بها للقبض والبسط ومباشرة الأعمال.

* ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بعميق أفكارهم هيئة أخرى لتلك الأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا، فتبارك من شاء لسوّاها وجعلها قطعة واحدة فلم يتمكّن العبد بذلك من قضاء مصالحه وإنجاز متطلّباته.

* ولو بسط المرء أصابعه لكانت طبقًا يضع عليه ما يريد، وإن ضمّها وقبضها كانت آلة للدّفاع عن النّفس، وإن جعلها بين الضّم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها ويمسك فيها ما يتناوله. ،ثمّ ركّب الأظفار على رءوسها زينة لها وعمادا ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدّقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره، فسبحان من خلق فصوّر وقضى فقدّر.

ويُطلق مسمّى اليد على ما بين المنكب إلى أطراف الأصابع، وقد يُفصّل كلّ عضو منها فيقع تحت اسم خاص به كالْعَضُد والذّرَاع والرُّسْغِ والْكَفّ والأصَابِع، فاسم اليد يشتمل على هذه الأشياء كلّها، وإنّما يُترك العموم في الأشياء ويُصار إلى الخصوص بدليل [(١)].

واليدُ من كلّ شيء «مَقْبضُهُ». واستعيرت اليد للنّعمة والإحسان فقيل «يديت إليه» أي أسديت إليه. ومنه قوله ﷺ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَد السُّفْلَى». أي المعطية خير من الآخذة. كما استُعيرت للتّدليل على عمل الإنسان من خير أو شرّ من قول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾. وتُجمع اليد على أَيادٍ وأَيْدٍ وقيل: «يَدِيٌّ»: ويُعبّر بها عن المِلْك فيقال: هو في يدي أي ملكي وحوزتي. و«يد مغلولة»: عبارة عن إمساكها ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[الإسراء: ٢٩].

ومن أحكام العبوديّة لهذه الجارحة التّكسُّب المقدور للنّفقة على نفسه وأهله وعياله، وهو أمر واجب وفي وجوبه لقضاء ديْنه خلاف، والصّحيح وجوبه ليمكّنه من أداء دينه.

---

(١) انظر المصباح المنير [ص ٦٨٠].

ومن [البطش الواجب]: إعانة المضطر ورمى الجمار ومباشرة الوضوء والتيمم.

أمـا [الحرام] فقتل النّفس التى حرّم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب ما لا يحلّ ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللّعب المحرّم بالنّص كالنّرْد، أو ما هو أشدّ تحريما منه عند أهل المدينة كالشّطْرنْج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسُّنّة تصنيفا أو نسخا إلاّ مقرونا بردّها، وكتابة الزّور والظّلم والحكم الجائر، والقذف والتّشهير بالنّساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرّة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم، ولا سيّما إن كسبت عليه مالا ومن ذلك قول الله تعالى﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩].

أمّا [المكروه]: فكالعبث واللّعب الذى ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة فى كتابته ولا منفعة فيه فى الدّنيا والآخرة.

[والمستحب] ككتابة كلّ ما فيه منفعة فى الدّين أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده: بأن يعين صانعا أو يصنع لأخرق أو يفرغ من دلوه فى دلو المستسقى أو يحمل له على دابّته، أو يمسكها حتّى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك، ومنه لمس الرّكن بيده فى الطّواف وفى تقبيله بعد اللّمس قولان.

أمّا [المباح]: فهو ما لا مضرّة فيه ولا ثواب.

(٧) عبوديّة القدم

القدم (مؤنّثة وتذكّر) وجمعها: أقدام، وهى ما يطأ الأرض من رِجْل الإنسان، وأُشير إلى تسميتها فى قوله تعالى﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾[٩٤: النّحل]. وفيه استعارة إلى مستقيم الحال يقع فى شرّ عظيم ويسقط فيه، لأنّ القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، والعرب تقول للسّاقط فى ورطة: زَلّتْ قَدَمُهُ. ومن ذلك قوله تعالى﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[الأنفال:١١]. وهو عائد على ربط القلوب فيكون تثبيت الأقدام هو النّصر والمعونة فى موطن الحرب والجهاد ومنه قول الله تعالى﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[البقرة:٢٥٠].

ثمّ يأتى قوله تعالى﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[يونس:٢]. كناية عن السّعى فى العمل الصّالح فكنّى عنه بالقدم كما يُكنى عن الإنعام باليد وعن الثّناء باللّسان.

أمّا الرِّجْلُ وجمعها أَرْجُلٌ [مؤنثة] فهى من أصل الفَخذ إلى القدم. وقد جاء فى القرآن﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة:٦]. وقوله تعالى﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]. ومنها: رَجِلَ وتَرَجَّلَ: مشى على رجليه ولم يركب من قول الله تعالى﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾[البقرة:٢٣٩]. و[الرِّجال] جمع راجل أو رَجُل من قولهم: رَجِل الإنسانُ يَرْجَلُ رَجَلاً إذا عدم وسيلة الانتقال ومشى على قدميه فهو رَجِلٌ وراجِلٌ.

و[الواجب] فى عبوديّة القدم المشى إلى الجمعة والجماعات فى أصحّ القولين للأدلّة الكثيرة، والمشى حول البيت للطّواف الواجب، والسّعى بين الصّفا والمروة بنفسه أو وسيلته، والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دُعى إليه، والمشى إلى برّ والديه وصلة رحمه، والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلّمه، والمشى إلى الحجّ إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر، أمّا [الحرام]: فالمشى إلى معصية الله تعالى ومخالفة أمره وهو من رَجْلِ الشّيطان لقوله سبحانه ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[الإسراء:٦٤]. وفى تفسيره (قال) مقاتل: [استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكلّ راكب أو ماش فى معصية الله تعالى فهو من جند إبليس(١)].

(الباب الثّالث)

من مفسدات القلب

الفساد التّلَفُ والعَطَبُ من [أَفْسَدَ الشّيْءَ يُفْسِدُهُ إِفْسَادًا]: جعله فاسدا، ومنه فسدت الأمور: اضطربت وأدركها الخلل. وجاء فى التّنزيل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ .أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التّنازع بالاختلاف الواقع بين الشّركاء، ومن المفسدة الضّرُّ ومنه قوله تعالى﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة:٦٠]. والإفساد لغة ضدّ الإصلاح وهو جعل الشّىء فاسدا خارجا عمّا ينبغى أن يكون عليه، وشرعا جعل الشّىء فاسدا سواء وُجد صحيحا ثمّ طرأ عليه الفساد. (قال) فى «الموسوعة» [أفسده أخرجه عن صلاحيته المطلوبة وهو بهذا المعنى يكون مرادفا للإتلاف(٢)].

والفساد صفة تُوجب وقوع الضّرر فى الأفعال الصّادرة عن موضع تلك الصّفة، ولمّا كان الأثر الخاصّ [بالقلب] هو معرفة الله تعالى وذكره وتوحيده وتحقيق العبوديّة الخالصة لها.

فإذا وقع فى القلب من الصّفات ما صار مانعا من هذه الآثار كانت تلك الصّفات أمراضا مُفسدة للقلب والبدن فى وقت واحد، وعندما يلتزم المسلم طريق الحقّ فإنّ الشّيطان اللّعين يترصّده كقاطع الطّريق الذى يُفسد عليه حياته، فيبتليه بأمراض تقطع

---

(١) انظر مدارج السّالكين لابن القيّم [ج ١ ص ١٢٢].

(٢) انظر الموسوعة الفقهيّة [١ / ١٨٠].

عن قلبه محبّة الله تعالى والأنس به، وتحُول بينه وبين ذكر ربّه سبحانه، وتعوقه عن الطّاعات، وتُحدث لـه عللا إن لم يتداركها المرء فإنّها تفسد قلبه .

[ومن هـذه الأمراض] :

(أولا) ـ كثرة الاختلاط

الاختلاط من خَلَطَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ خَلْطًا : أى ضَمَّهُ إليه ، وخَالَطَ الْقَوْمَ مُخَالَطَةً : أى دَاخَلَهُمْ . وخَالَطَهُ خلاطًا : مَازَجَهُ . وخَالَطَهُ الدَّاءُ : خَامَرَهُ . [يقال : رجل خليط إذا اختلط بالنّاس كثيرا والجمع : الخلطاءُ مثل شريفٌ وشرفاءُ . والْخُلْطَةُ : الاختلاطُ ، والخلْطَةُ : الْعِشْرَةُ . ومن هنا قال ابن فارس : الخليطُ المجاور والخليطُ الشّريكُ(١)] .

وتكمن خطورة الاختلاط الذى يخشاه الإسلام على دين المرء فى أمرين :

(الأوّل) المعاناة من رفقة قُرناء السّوء التى تُشتّت فكر المرء فى أودية الرّغبات والمطالب ، وتُخضع النّفس للإرادات الباطلة والأهواء ، فلا يجنى من هذه الرّفقة إلاّ الضّياع والهوان .

(الثّانى) امتلاء القلب من حقد النّاس وفتنهم ومشاكلهم حتّى يسودَّ فلا يجلب ذلك إلاّ العداوة والبغضاء .

فكم جلبت خلْطَةُ النّاس من نقمة ، ودفعت من نعمة ، وأنزلت من محنة ، وعطّلت من منحة ، وأحلّتَ من رزيّة ، وأوقعت فى بليّة ، وهل آفة النّاس إلاّ النّاس ؟ وهل كان عَلَى ـ أبى طالب ـ عند الوفاة أضرّ من قرناء السّوء أمثال أبى جهل وعبد الله بن أبى أميّة ، فلم يزالوا به حتّى حالوا بينه وبين كلمة التّوحيد التى توجب له سعادة الأبد ! . يقول له النّبى ﷺ «يَاعَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ !» . فتقولُ رِفْقَةُ السُّوءِ «يَا أَبَا طَالِب أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب(٢)» . ومات الرّجل على غير الإسلام حتّى قال النّبى ﷺ «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ(٣)» .

والإعراض عن أهل الباطل واعتزالهم أمر يدعو القرآن إليه ويحضّ عليه كما فى قوله تعالى﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام:٦٨] . وفيه دليل على أنّ مجالسة أهل الكبائر لا تحلّ .

كما حبّب القرآن الكريم العُزلة للمسلم عند فساد النّاس والزّمان وعند الخوف من الفتنة فى الدّين والوقوع فى الحرام والشّبهات فقال تعالى﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم

---

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢ / ٢٨٩] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٤] وافقه البخارى [١٣٦٠] .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠] وافقه البخارى [٦٢٠٨] .

مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الذاريات: ٥٠]. وقال تعالى﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] .والرُّكون السّكون إلى الشّيء والرّضا به والطمأنينة إليه فيكون معنى الآية الكريمة: لا تودُّوهم ولا تُطيعوهم ولا تميلوا إليهم.

وعن تغيّر الأحوال في آخر الزّمان يروى ابن ماجه عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «سَيَأْتي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فيهَا الصَّادقُ، وَيُؤْتَمنُ فيهَا الْخَائنُ، وَيُخَوَّنُ فيهَا الأَمينُ، وَيَنْطقُ فيهَا الرُّوَيْبضَةُ! قيلَ وَمَا الرُّوَيْبضَةُ ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافهُ فى أَمْرِ الْعَامَّة[1]». و[الرُّوَيْبضَةُ]: تصغير رابضة وهو العاجز الذى لم يبحث عن معالى الأمور وقعد عن طلبها.

ويُروى عن عبد الله بن عمرو «قَالَ لى رَسُولُ الله ﷺ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقيتَ في حُثَالَة منَ النَّاسِ؟» قَالَ «قُلْتُ يَارَسُولَ الله كَيْفَ ذَلكَ؟ قَالَ: إِذَا مَرجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا» وَشَبَّكَ أَصَابعَهُ. «قَالَ: قُلْتُ مَا أَصْنَعُ عنْدَ ذَاكَ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ: اتَّق اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَخُذْ مَا تَعْرفُ وَدَعْ مَا تُنْكرُ، وَعَلَيْكَ بخَاصَّتكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهم[2]». وجاءت الرّواية عند أبى داود بلفظ «فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عنْدَ ذَلكَ جَعَلَنى اللهُ فدَاكَ؟ قَالَ الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلكْ عَلَيْكَ لسَانَكَ، وَخُذْ بمَا تَعْرفُ، وَدَعْ مَا تُنْكرُ، وَعَلَيْكَ بأَمْرِ خَاصَّة نَفْسكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّة[3]».

ولقد رغّب رسولُ الله ﷺ في العُزلة لمن لم يأمن على نفسه عند الاختلاط لما رواه أبو سعيد من قوله ﷺ «يُوشكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَال الْمُسْلم غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الْجبَال وَمَوَاقعَ الْقَطْر يَفرُّ بدينه منَ الْفتَن[4]». ولمّا سُئل رسول الله ﷺ عن أكمل المؤمنين إيمانا قال «الَّذى يُجَاهدُ بنَفْسه وَمَاله، وَرَجُلٌ يَعْبُدُ رَبَّهُ في شعْب[5] منَ الشّعَاب وَقَدْ كَفَى النَّاسَ شَرَّهُ[6]». وفى رواية «يَتَّقى اللهَ وَيَدَعُ النَّاسَ منْ شَرِّه». وهو محمول على من لا يقدر على الجهاد فيُستحبّ فى حقّه العزلة ليسلم ويسلم غيره منه.

الوحدة خير من جليس السّوء

وإذا كان قد جاء فى الأثر الكريم «إنَّ الْوحْدَةَ خَيْرٌ منْ جَليسِ السُّوء[7]». فإنّ مكابدة

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٧٧] وأورده فى الصّحيحة [١٨٨٧].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٥٠٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٣٤٣] وأورده فى الصّحيحة [٢٠٥] وصحيح الجامع [٥٦٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٩٥].

(٥) [الشّعْب] هو الطّريق فى الجبل وما اندرج بين الجبلين وسيل الماء.

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٩٤].

(٧) أخرجه الحاكم من حديث أبى ذرّ مرفوعا [٥٥٤٩].

العُزلة أيسر من مُداراة الخُلطة، ولو لم يكن في العُزلة إلاّ السّلامة من الغيبة والنّجاة من رُؤية المنكر الذى لا يُقدر على إزالته لكان ذلك من أنجع الوسائل فى مواجهة الفتن لقوله ﷺ عند مسلم «إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ[1]».

(قال) الخطّابى: [أنّ العُزلة والاختلاط يختلفان باختلاف مُتعلّقاتهما، فتُحمل الأدلّة الواردة فى الحضّ على الاجتماع على ما يتعلّق بأمور الدّين، والضّابط فيها أن يخالط النّاس فى الخير كالجمعة والجماعة والأعياد، والحجّ، وتعلّم العلم، والجهاد، والنّصيحة، ونصرة الحقّ، والتّعاون على البرّ والتّقوى.

والمطلوب إنّما هو ترك فضول الصُّحبة لما فى ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمّات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الطّعام والمعاش، فيُقتصر منه على ما لابدّ له منه، فهو أروح للبدن والقلب معا والله أعلم[2]].

(قال) القشيرى فى «الرّسالة» [طريق من آثر العُزلة أن يعتقد سلامة النّاس من شرّه لا العكس، فإنّ الأوّل ينتجه استصغاره نفسه وهى صفة «التّواضع»؛ والثّانى شهوده مزيّة له على غيره وهذه صفة «المتكبّر»]. أمّا فضل الاختلاط بالنّاس فإنّه يتحقّق بمشاهد الخير ومجالس العلم والذّكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، ويقوم ذلك على الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وقمع النّفس عن الإيذاء والصّبر على الأذى، وحسبنا ما جاء عن نبيّنا الأكرم ﷺ فى استحباب مُجالسة الصّالحين ومُجانبة قرناء السّوء من رواية أبى موسى رضي الله عنه:

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً[3]». وفى الحديث:

١ - إرشاد إلى الرّغبة فى صُحبة العلماء ومُجالستهم فإنّها تنفع فى الدّنيا والآخرة، والحثّ على مصاحبة أهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، وهو المختار الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه العظام.

٢ - وينهى كذلك عن مجالسة الأشرار وأهل البدع ومن يغتاب النّاس أو يكثُر فجوره وشرّه ونحو ذلك من الأخلاق المذمومة، وقد وجاء قوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ[4]». ويعنى قوله «عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ»:

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٦٥] وأحمد [١٥٢٩].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٣٤٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٢٨].

(٤) حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٣٣] والتّرمذى [٢٣٧٨].

أنه على عادة صاحبه وطريقته وسيرته فليتأمل وليتدبّر من يخالل، فمن رضي دينه وخلقه خالله وصادقه، ومن لا تجنّبه فإنّ الطّباع سرّاقة.

وإذا كان الإنسان بطبعه يتأثر بالحيوان الذى يتعامل معه فإنّه يتأثّر كذلك بطبائع من يجالسه ويؤانسه ويؤاكله إذا توحدّت التّوجّهات والإرادات والأمزجة وليس أدلّ على ذلك ممّا رواه الشّيخان من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «رأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِق، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاَءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ والإبلِ، وَالْفَدَّانِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ والسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ(٤)». و«الْفَدَّانِينَ» هم الأعراب أهل الجفاء من رُعاة الإبل الذين يعيشون بالبادية، وهم الذين تعلوا أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحُروثهم ونحو ذلك.

[ووجه ذمّهم] شغلهم بما هم فيه عن أمر دينهم، أمّا ذكره الجمل والفرس في الحديث فإنّهما يمشيان رافعي رؤوسهما إلى أعلى فيؤثّر ذلك في صاحبه كبْرا وعُجبا. والشّاة ساكنة متواضعة خافضة الرّأس لأسفل بحثا عن طعامها حتّى سمّيت [بالحيوانات الكانسة]، فيؤثّر ذلك في صاحبها سُكونا وتواضُعا، يتبيّن من كلّ ما سبق أنّ الجليس يتأثّر بجليسه فإذا كان الجليس سيّئا كان خطرا على جليسه، وخطر جُلساء السّوء متنوّع ومتعدّد الصّور ومنها:

(١) أنّ جُلساء السُّوء يزيّنون لك الباطل ويحبّبونه إليك وتدبّر في ذلك قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فهذا الجليس السّوء يوحي إلى جليسه زخرف القول، فيسمّي له الأشياء بغير مسمّياتها الصّحيحة.

(٢) أنّ جلساء السُّوء يصرفونك عن الخير ويزهّدونك فيه ويؤخذ هذا من قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

(٣) أنّ جُلساء السُّوء يُغرّرون بجلسائهم ويمنونهم الأماني الخادعة الكاذبة ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

(٤) أنّ جلساء السُّوء يحبّون لجلسائهم الزّيغ والغواية والفسوق والضّلال ودليل ذلك قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: ٢٧]. فمن أراد لنفسه النّجاة ولأهله السّلامة من الفتن فلا يُجالس أهل الفواحش والشّهوات ولا أهل البدع والنّفاق، لأنّهم يريدون أن يميل معهم عن الحقّ ميلا عظيما.

(٥) أنّ مجالسة أهل السُّوء لا ثمرة لها إلا التّلاعُن والتّباغُض والتّخلّى يوم القيامة كما فى قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف :٣٨]. كما أنّ معرفة قرناء السُّوء لا تقوم إلاّ على العداوة والبغضاء كنتاج حتمى كما فى قوله تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف :٦٧].

وجليس السّوء قد يكون إنسانا شاخصًا، وقد يكون كتابا تافها مشحونا بالتُّرّهات والضّلالات وداعيا للبدع والمنكرات، وقد يكون مجلّة أو جريدة حوت تلك الصّور الماجنة الخليعة وتضمّنت المقالات العارية الفاضحة، وقد يكون برنامجا تافها يعرض تلك القاذورات عن طريق الأرضيّات أو الفضائيّات، والجلوس مع كلّ هذه الأشياء السّيّئة السّمعة إمّا أن يحرق الثّياب وأوّلها [ثوب التّقوى] وإمّا أن تجد منه ريحا خبيثة كما جاء الخبر بذلك من سيد الأصفياء وقدوة الأتقياء محمّد ﷺ.

(ثانيا) ـ التّمنّى

التّمنّى نوع من الإرادة يتعلّق بالمستقبل ويدخل فيه عند الجمهور الغِبْطَة وهى أن يتمنّى الرّجل أن يكون له مثل حال صاحبه وإن لم يتمنّ زوال حاله، وهو المقصود من قوله ﷺ «لاَ تَحَاسُدَ إلاَّ فى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللّهُ القُرآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِىَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّهُ مَالاً فَهُوَ يُنفِقُهُ فى حَقِّهِ فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِىَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ(١)». أى [لا غبطة أعظم وأفضل من الغبطة فى هذين الأمرين وهو ما يستحبّ من التّمنى(٢)].

وقد يتضمّن التّمنى معنى «الْوُدّ» من [وَدِدْتُهُ وُدًّا ووِدَادًا]: تمنّى حصول ما يَوَدُّهُ وَيُحبُّهُ، كما فى قوله ﷺ «وَالّذى نَفْسى بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أنّى أغْزُو فى سَبِيلِ اللّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أغْزُو فَأُقْتَلُ(٣)». وقوله «لَوَدِدْتُ»: من الودادة وهى إرادة وقوع الشّىء على وجه مخصوص يريده ومنه قول الله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

و«الْوُدُّ»: محبة الشّىء وتمنّى حصوله ومنه قول الله تعالى ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران :٦٩]. وقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النّساء :٤٢]. أى تمنوا لو لم يبعثهم الله تعالى وكانت الأرض مستوية عليهم.

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٥٢٨].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٥ ص ١٦٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦] ومسلم [١٨٧٦].

أمّا «الأَمَـلُ» فـهو [رجاء ما تحبّه النّفس من طول عمر وزيادة مـال وهو قريب المعنى من التّـمنى، وقيل الفـرق بينهـمـا أنّ الأمل ما تقـدّم له سـبب والتّـمنّى بخـلافـه ولا ينفكّ الإنسـان من أمل، فإن فـاتـه ما أمله عـوّل على التّـمنّى، فـالأمل هو إرادة الـشّـخص تحـصـيل شىء يمكن حصوله، فإذا فاته تمنّاه(١)].

ثمّ يأتى تعريف «الرَّجَاء» بأنّه تعليق القلب بمرغوب فى المستـقبل، والفرق بينـه وبين التّمنّى أنّ التّمنّى يُصاحبه الكَسل ولا يسلك صاحبه طريق الجدّ، وضدّه صـاحب الرّجاء إذ يبعث على صالح الأمل ولولا الرّجاء لما وجد العمل.

و«التَّلَهُّفُ»: نوع من التّمنّى يتعلّق بالماضى من تَلَهَّفَ: حَزِنَ وتَحَسَّرَ، فهو لَهِفٌ ولَهْفَانُ ومنه قوله تعالى ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران:١٥٣]. وقوله تعالى ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾[الزّمر:٥٦].

ويصادف التّمنّى نوعين من النّاس:

(الأوّل) صاحب الهمّة العالية التى تحوم أمانيه وآمالـه حول ما وقر فى قلبه من حقائق الدّين وفروضه، وتصديق ذلك بالعمل الذى يقرّبه إلى الله تعالى ويُدنيـه من جواره ويُدخله فى دائرة رحمته.

(الثّانى) هذا المفرّط فى أمانيه الكاذبة الذى يعيش أوهاما يبنى عليها الأمال الكبار، ويسوّف فى أداء الفروض والطّاعات، فهو كما يتمنّى أمل الدّنيا بكسبها وتحصيلها فإنّه يضيّع الرّغبة فى أمر الآخرة بخسارتها وفواتها.

(فالأوّل) يعيش حقائق الإيمان ومقوّماته ولا تخرج أمانيه عن دائرة الإسلام بحال.

(أمّا الثّانى) وهو فى أضغاث الأحلام يتمثّل صورة مطلوباته فى نفسه وقد فاز بتحقيقها والتذّ بالظّفر بها، وبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فجأة فإذا يده والأرض سواء بسواء، لقد أدرك أنّ أمانيه ما كانت إلاّ خداعا وغرورا وسرابا.

وربّما ينطبق على الاثنين معنى الأثر المروى عن الحسن البصرى «ليس الإيمان بالتّمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل، وإنّ قوما ألهتهم أمانىّ المغفرة حتّى خرجوا من الدّنيا ولا حسنة لهم، يقولون نحن نحسن الظّن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظّن لأحسنوا العمل».

والحديث عن التّمنّى ينقسم إلى قسمين:

---

(٤) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٤٠].

(الأول) ما يستحب من التمنّى

وهو الأمر الذى مدحه رسول الله ﷺ وربّما جعل أجره فى بعض الأشياء كأجر فاعله ودليل الجمهور فى ذلك قوله ﷺ «إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ. يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ(١)».

(قال) ابن عطيّة: وأمّا التّمنى فى الأعمال الصّالحة فذلك هو الحسن، وأمّا إذا تمنّى المرء على الله تعالى من غير أن يقرن أمنيته بشىء من عَرَضِ الدّنيا فذلك جائز. ومن ذلك:

(١) تمنّي رسول الله ﷺ الشّهادة فى سبيل الله كما فى حديث أبى هريرة «لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَى(١)». وهو يدلّ على تمنّى الخير وأفعال البرّ والتّرغيب فيها، والدّعوة إليها، كما يُؤكّد فضل الشّهادة على سائر الأعمال لأنّه ﷺ تمنّاها دون غيرها وذلك لرفيع درجاتها، وعظيم منزلتها، وسموّ مكانتها لقوله ﷺ عند البخارى «إِلاَّ الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ(٢)».

(قال) النّووى: [اختُلف فى سبب تسميته «شَهِيداً» فقيل لأنّه حىٌّ ولأنّ روحه شهدت وحضرت دار السّلام، وأرواح غيره إنّما تشهدها يوم القيامة، وأنّ الله تعالى وملائكته يشهدون له بالجنّة، وقيل لأنّه شهد عند خروج روحه ما أعدّه الله تعالى له من الثّواب والكرامة(٣)].

(٢) وقوله ﷺ «لَوْ كَانَ لِى مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا يَسُرُّنِى أَنْ لاَ تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاَثُ لَيَالٍ وَعِنْدِى مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ(٤)». وفيه الحثّ على الإنفاق فى وجوه الخير، وأنّ النّبى ﷺ كان فى أعلى درجات الزّهد فى الدّنيا بحيث أنّه لا يحبّ أن يُبقى بيده شيئا إلاّ لإنفاقه فيما يستحقّه، وفيه جواز استعمال «لَوْ» عند تمنّى الخير.

(٣) وتمنّى ﷺ فى حجّة الوداع أنّه لو كان تمتّع وحلّ ولم يسُق الهدى وكان قد قَرَنَ لقوله من حديث جابر رضي الله عنه «إِنِّي لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِى مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلاَ أَنَّ مَعِي الْهَدْىَ لَحَلَلْتُ(٥)». فأعطاه الله تعالى ثواب الْقِرَانِ بفعله،

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦] ومسلم [١٨٧٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨١٧] ومسلم [١٨٧٧] والتّرمذى [١٦٦١].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٣١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٤٥] ومسلم [٩٤ و٩٩٢].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٣٠] ومسلم [١٢١٦].

وثواب التَّمتُّع الذى تمنّاه ﷺ بنيّته وقصده فجمع له ربّه تعالى بين الحُسنيين.

(٤) وعن عائشة قالت «أرِقَ النَّبِىُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِى يَحْرُسُنِى اللَّيْلَةَ! إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ السِّلاَحِ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ سَعْدٌ: يَارَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ أَحْرُسُكَ، فَنَامَ النَّبِىُّ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا غَطِيطَهُ(٦)». فشاء الله تعالى أن يحقق ما تمنّاه رسوله ﷺ وذلك قبل نزول قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ومعنى قوله «غَطِيطَهُ» هو صوت النّائم المرتفع.

والتّمنى المحمود إنّما يقوم على طاعة الله تعالى والرّغبة فيما عنده وأن يطلب صاحبه الإعانة على تحقيقه منه سبحانه ولا يعجز فى ذلك ولا يكسل ولا يفتر لقول النّبى ﷺ «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ(١)».

ويأتى «التّمنّى» فى قول النّبى ﷺ «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ(٢)». بمعنى تشَهّى حصولِ الأمر المرغوب فيه وحديثُ النّفس بما يكون وما لا يكون، وعلى المرء إذا سأل ربّه تعالى حوائجه ليكثر من سُؤاله، فإنّ فضل الله كثير وخزائنه لا تنفد، (قال) أبوعبيد: [وقد جاء فى هذا الحديث الرّخصة عن النّبى ﷺ فى التّمنّى، وهى فى التّنزيل نَهْىٌ من قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النّساء: ٣٢]. ولكلٍّ وجهٌ غيرُ وجه صاحبه، فأمّا التّمنّى المنهىّ عنه فأنْ يتمنّى الرّجُلُ مالَ غيره أن يكون ذلك له، ويكون ذاك خارجا منه على جهة الحسد من هذا له والبغى عليه وقد رُوى فى بعض الحديث فيما أنزل الله عزّ وجلّ على موسى عليه السّلام «ألاّ تتمنى مالَ جارِكَ ولا امرأة جارِكَ». فهذا المكروه الذى فسّرناه(٣)].

قال [وأمّا المباح فأنْ يسألَ الرّجلُ ربّه أمنيته من أمر دنياه وآخرته، فجعل التّمنى هاهنا «المسألةَ» وهى «الأمنيةُ» التى أُذنَ فيها، لأنّ القائل إذا قال (ليت الله يرزقنى كذا وكذا) فقد تمنّى ذلك الشّىء أن يكون له، ألا تراه سبحانه يقول فى قرآنه ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النّساء: ٣٢]. وهو تأويلُ الحديث الذى فيه الرّخصة(٤)]. وجاء قوله ﷺ فى المسند من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّى فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْ أُمْنِيَتِهِ(٥)». وذكره فى الأدب المُفرد بلفظ «فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى مَا يُعْطَى».

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٣١] ومسلم [٢٤١٠]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٦٤] وابن ماجه [٣٣٧٩]. (٣) أخرجه فى صحيح الجامع [٤٣٧] وأورده فى الصّحيحة (١٢٦٦) وفى غريب الحديث [٢٠٢/٢]. (٤) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٢ ص ٢٤٤]. (٥) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٢ ص ٢٤٥]. (٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٨٦٧٤] والبخارى فى الأدب المُفرد [٧٩٤].

(الثانى) ما يكره من التمنى

من التّمنّى المنهى عنه ما يتعلّق فيه البال بما كان من عَرَض الدّنيا وزينتها وزخارفها، ويدعو إلى الحسد والتّباغض، ومنه ما يُسوِّل به الشّيطان إلى الإنسان من أمانى كاذبة وآمال خادعة وتصوّرات باطلة كما فى قوله تعالى ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وقوله ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النّساء: ١٢٠]. أى يُمنّيهم بأباطيله وترّهاته من المال والجاه والرّياسة وأنّه لا بعث ولا عقاب.

ويأتى القرآن محذّرا من مثل هذا التّمنى كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[النّساء: ٣٢]. (قال) المهلّب: بيّن الله تعالى فى هذه الآية ما لا يجوز تمنّيه وذلك مما كان من عرض الدّنيا وأشباهها ومنها:

(١) تمنّى الرّجل ما عند الآخر من عَرَض دنيوى على أن يذهب ما عند الآخر، وهو المسلك الذى ذمّه الله تعالى فى كتابه بقوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النّساء: ٥٤]. فالحسود عدو لنعمة الله تعالى وتسخّط على قضائه غير راض بقسمته ورزقه.

(٢) كما يدخل فى ذلك خطْبَةُ الرّجل على خطْبَة أخيه وبيعه على بيعه وهو الأمر المنهى عنه كما فى قول النّبى ﷺ «لاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلاَ يَخْطُبْ بَعْضُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ بَعْضٍ[(١)]».

(٣) كما لا يحلّ لأحد أن يتمنّى مثل ما عند غيره من مال حتّى لا يقع فى شَرَك التّمنّى كهؤلاء الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]. فلمّا خسف الله تعالى به وبداره الأرض أصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾[القصص: ٨٢]. ولذلك قيل لا يتمنّى أحدكم المال وما يدريه لعلّ هلاكه يكون فيه، إلاّ أن يكون مالا صالحا فى يد الرّجل الصّالح.

(٤) وتمنّى الموت لضُرٍّ نزل به من مرض أو فاقة أو محنة أو نحو ذلك من منغّصات الدّنيا ومكدّراتها منهى عنه لورود الأمر الصّريح بذلك كما فى قوله ﷺ «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به، فَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِى، وَتَوَفَّنِى إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِى[(٢)]».

وعن قيس بن أبى حازم قال «دَخَلْنَا عَلَى خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ وَقَدِ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤١٢] والتّرمذى [١٢٩٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨٠] وافقه البخارى [٦٣٥١] والتّرمذى [٩٧١].

فى بَطْنه، فَقَالَ: لَوْلاَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِه[1]». وعن أنس قال «لَوْلاَ أَنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لاَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَتَمَنَّيْتُ[2]». وفى رواية أبى عبيد «لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ[3]».

وفى الأحاديث إشارة إلى تغبيط المحسن بإحسانه وتحذير المسىء من إساءته، فكأنه يقول: من كان مُحسنا فليترك تمنّى الموت وليستمرّ على إحسانه والزّيادة منه، ومن كان مُسيئا فليترك تمنّى الموت وليُقلع عن الإساءة لئلاّ يموت على إساءته فيكون على خطر عظيم. ويتعلّق بذلك ثلاثة أمور:

(١) أنّ الدُّعاء بتمنّى الموت ليست فيه مصلحة ظاهرة بل فيه مفسدة وهى طلب إزالة نعمة الحياة وما يترتّب عليها من الفوائد لا سيّما لمن يكون مؤمنا، فإنّ استمرار الإيمان من أفضل الأعمال.

(٢) أنّ حكمة النّهى عن طلب ذلك أنّ فى طلب الموت قبل حلوله نوع من عدم الرّضى والاعتراض والمراغمة لقدر الله سبحانه، وإذا كانت الآجال لا تزيد ولا تنقص فإنّ تمنّى الموت لا يُؤثر فى زيادتها أو نقصانها.

(٣) أنّ حاصل ما فى الأحاديث الحثّ على الصّبر والاستعانة بالله تعالى، لأنّ تمنّى الموت غالبا ما ينشأ عند وقوع أمر يختار معه صاحبه الموت على الحياة، فإذا نُهى عن تمنّى الموت فكأنّه أُمر بالصّبر على ما نزل به.

ويشير القرآن إلى خطورة الأمانى الكاذبة والآمال الواهية فى حياة المسلم كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[الحديد: ١٤]. أى غرّتكم الأباطيل وخدع الشّيطان وطول الأمل، وقد قيل إنّ للباقى بالماضى معتبرا، وللآخر بالأوّل مزدجرا، والسّعيد من لا يغترّ بالطّمع، ولا يركن إلى الخدع، ومن ذكر المنيّة نسى الأمنية، ومن أطال الأمل نسى العمل وغفل عن الأجل.

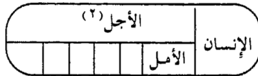
ومن أخطر ما يواجه التّمنّى والأمل فى حياة الإنسان انقطاع الأجل لما فى حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال «خطَّ النَّبىُّ ﷺ خطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خطًّا فى الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِى فى الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِى فى الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِى هُوَ خَارِجٌ: أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٨١] والفقه البخارى [٦٣٤٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٣٣] ومسلم [٢٦٨٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٣٥].

الصّغارُ هي الأعْرَاضُ، فَإنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهشَهُ هَذَا، وَإنْ أَخْطَأهُ هَذَا نَهشَهُ هَذَا[1]». ونقل رسمه على النّحو التّالي:



فالإشارة بقوله «هَذَا الإنْسَانُ» إلى النّقطة الدّاخلة. وبقوله «وَهَذَا أجَلُهُ مُحيطٌ بِه» إلى المربّع. وبقوله «وَهَذَا الّذِى هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ» إلى الخطّ المستطيل المنفرد. وبقوله «هَذِه الْخُطُوطُ» هى مذكورة على سبيل المثال لا أنّ المراد انحصارها فى عدد معيّن، ويؤيّده قوله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «إذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الأَقْرَبُ[3]». فإنّه أشار به إلى الخطّ المحيط به، ولا شكّ أنّ الخطّ الذى يحيط به أقرب إليه من الخارج عنه، أمّا قوله «الأَعْرَاضُ» فهى جمع عَرَض بفتحتين وهو ما يُنْتَفَعُ به فى الدّنيا فى الخير وفى الشّر، واستشكلت هذه الإشارات الأربع مع أنّ الخطوط ثلاثة فقط، وأُجيب بأنّ للخطّ الدّاخل اعتبارين:

(أوّلهما) أنّ المقدار الدّاخل من الخطّ هو عمر الإنسان.

(والثّانى) أنّ الخارج من الخطّ هو أمله.

والمراد «بالأَعْرَاضِ»: الآفات العارضة له [فإن سلم من هذا لم يسلم من هذا، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك فاجأه الأجل لا محالة، والحاصل أنّ من لم يمت بالعلّة والسّبب مات بانقضاء الأجل، وفى الحديث إشارة إلى الحضّ على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل، وعبّر بالنّهش وهو لدغ ذات السّم مبالغة فى الإصابة والإهلاك[4]].

وطول الأمل مُتعلّق بحبّ المرء للدّنيا لقوله ﷺ «لاَ يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فى اثْنَتَيْن: فى حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ[5]». والمراد بالأمل محبّة طول العمر، ثمّ سمّاه [شَابًّا] إشارة إلى قوّة استحكام حبّه للمال، أو أنّه يأتى من باب المشاكلة والمطابقة، وهو المعنى الذى أكّده رسول الله ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه «يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَتَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمْرِ[6]». ثمّ يأتى قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤١٧] والتّرمذى [٢٤٥٤] وابن ماجه [٣٤٢٨].

(٢) نقلا عن فتح البارى [ج ١١ ص ٢٤١].

(٣) قطعة من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤١٨].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٤٢].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٢٠] ومسلم [١٠٤٦] والتّرمذى [٢٣٣٨].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٢١] ومسلم [١٠٤٧] والتّرمذى [٢٣٣٩].

عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الْعَيْشِ وَالْمَالِ[(١)]». وفيه مجاز واستعارة ومعناه: أنّ قلب الشّيخ كامل الحبّ للمال محتكم فى ذلك كاحتكام قوّة الشّابّ فى شبابه.

والحكمة في التّخصيص بهذين الأمرين [أنّ أحبّ الأشياء إلى ابن آدم نفسه، فهو راغب في بقائها دومًا فأحبّ لذلك طول العمر وأحبّ المال كذلك، ذلك لأنّ المال من أعظم الأسباب في دوام الصّحة التى ينشأ عنها غالبا طول العمر، فكلّما أحسّ بقرب نفاد ذلك اشتدّ حبّه له ورغبته في دوامه[(٢)]].

وليس أسوأ ممّا ابتُلى به اليهود من [التّمنى الكاذب] لمّا قالوا ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[البقرة:١١١]. ثمّ قالوا إفكا وخداعا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]. فكذّبهم الله تعالى وألزمهم الحجّة فقال ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ولهذا كشف الله تعالى كذبهم بقوله ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٩٥]. إظهارا لضلالهم وظلمهم وعداوتهم، وأيضا لو تمنوا اَلْمَوْتَ لماتوا كما في قوله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ فِى النَّارِ[(٣)]». وقيل [إنّ الله تعالى صرفهم عن إظهار التّمنّى وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيّه ﷺ فهذه ثلاثة أوجه فى تركهم التّمنّى[(٤)]].

(٣) ـ كثرة الطعام

عندما يُتخم المرء بالطّعام ولا يستمرؤه ويجعل من معدته بيتا للدّاء، فإنّه بذلك يكون قد تسبّب فى فساد القلب والبدن معا، فالشّبع المفرط يُضعف الصّحة، والجوع المفرط يوهن القوى، وهذا كلّه مستفاد من قول الله تعالى ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

فأرشد الخالق تبارك وتعالى عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطّعام والشّراب عوضا لما يتحلّل منه وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن فى الكميّة والكيفيّة، فمتى جاوز ذلك كان إسرافا، كما أنّ عدم الأكل والشّرب أو الإسراف فيه كليهما مانع من الصّحة وجالب للمرض كذلك. ولمّا كانت الصّحة والعافية من أعظم نعم الله على عبده وأجزل عطاياه إليه وأوفر فيوضاته عليه، استُحبّ للمسلم أن يراعى فى غذائه ثلاثة عناصر:

(أحدها) كثرة نفعها وتأثيرها فى الصّحة والقوّة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٤٦] وابن ماجه [٣٤٣٠] والصّحيحة [١٩٠٦].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٤٥].

(٣) من حديث أخرجه أحمد [٢٢٢٥] وإسناده صحيح.

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٣٣].

(والثّاني) خفّتها على المعدة وعدم ثقلها عليها .

(الثّالث) سرعة هضمها .

وهذا أفضل ما يكون من الغذاء واليسير منه أنفع من الكثير من غيره ، فأنفع الطّعام ما توسّط فيه وتناول منه قدر الحاجة وكان معتدلا في كميّته وكيفيّته ، وحسبنا قول رسول الله ﷺ «مَا مَلأَ آدَميٌّ وِعَاءً شَرًّا منْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلاً ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِه ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِه ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه[1] » .

وفي قوله ﷺ «وِعَاءً شَرًّا منْ بَطْنِه» : جعل البطن وعاء كالأوعية المتّخذة ظروفا لحوائج البيت توهينا لشأنه ، ثمّ جعله شرّ الأوعية لأنّها تستعمل فيما هي له ، والبطن خلق لأن يتقوّم به الصُّلْبُ بالطّعام ، وامتلاؤه يُفضي إلى الفساد دينا أو دنيا فيكون شرّا منها ، وملء الأوعية دوما لا يخلو من طمع أو حرص على الدّنيا وكلاهما شرّ على الفاعل . ويُستفاد من الحديث أنّ للغذاء ثلاث مراتب :

(أوّلها) مرتبة الحاجة ويستكفي فيها المرء بلُقيمات يُقمن صُلبه فلا تسقم صحّته ولا تضعف همّته .

(والثّانية) مرتبة الكفاية كما حدّدها الحديث فيكفي المرء من خلالها لُقَيْمَات يُقمن صلبه فلا تسقط قوّته ولا تضعف معها ، فإن تجاوزها فليأكل في ثُلُث بطنه ويدع الثّلث الآخر للماء والثّالث للنَّفَس ، وهذا من أنفع المراتب للبدن والقلب .

والبطن إذا امتلأ من الطّعام ضاق عن الشّراب ، فإذا ورد عليه الشّراب ضاق عن النَّفَس وعرض له الكرب والتّعب ممّا يُؤدّي إلى فساد القلب وكسل الجوارح عن الطّاعات وتحرّكها في الشّهوات التي يستلزمها الشّبع [[2]] .

(والثّالثة) مرتبة التُّخْمَة التي تمتلىء فيها بطن المرء بالطّعام فتُصيبه بالعلل الصّحيّة والأمراض .

والشّبع المفرط أمر حذّر الإسلام منه كما حذّر من خُطورة الشَّرَه والنَّهَم ، فأكل المسلم في معًى واحد والكافر في سبعة أمعاء لقوله ﷺ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ[3] » . والمعًى : بكسر الميم مقصور والجمع فيه للمقارنة وتحديد الاقتصاديّة الصّحيحة في دُنيا الإيمان الحقّ بتعاليم هذا الدِّين .

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢٣٨٠] وابن ماجه [٢٧٢٠] وأحمد [١٧١٨٦] .

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٨] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٣٩٤] ومسلم [٢٠٦١] .

واختُلف في معنى الحديث على قولين :

(الأوّل) ليس المراد به ظاهره وإنّما هو مَثَلٌ ضُرب للمُؤمن وزُهده في هذه الدّنيا وقناعته بالقليل من العيش وما أُوتي من الكفاية ، وكأنّه لتقلّله منها يأكل في معًى واحد لقناعته ورضاه بالقليل . [أمّا الكافر فلشدّة حرصه عليها ورغبته فيها وحرصه على جمع حطامها واستكثاره منها فإنّه يأكل في سبعة أمعاء ، فليس المراد فيه حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل[1]] . كما يحمل الحديث التّأكيد على أنّ الزّهد في الدّنيا محمود لكونه من أخلاق المؤمنين ، أمّا الحرص عليها وجمع عَرَضها فإنّه مذموم لكونه من طباع الكافرين .

(الثّاني) ما حكاه القاضي عياض عن أهل الطّب والتّشريح [أنّ أمعاء الإنسان سبعة : المعدة ثمّ ثلاثة أمعاء بعدها متّصلة بها هي البوّاب ثمّ الصّائم ثمّ الرّقيق وهي كلّها رقاق ، ثمّ ثلاثة غلاظ : الأعور والْقَوْلُونُ والمستقيم ، فيكون المعنى أنّ الكافر لكونه يأكل بشراهة لا يشبعه إلاّ ملء أمعائه السّبعة والمؤمن يشبعه ملء معًى واحد[2]] .

أمّا عن قوله ﷺ «وَإِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ» . فقد رُدَّ بأنّ الحديث خرج مخرج الغالب وليست حقيقة العدد مُرادة وأنّ تخصيص السّبعة للمُبالغة في التّكثير كما في قوله تعالى ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان : ٢٧] . والمعنى :

* أنّ من شأن المؤمن التّقلّل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة ولعلمه بأنّ مقصود الشّرع من الأكل ما يسدّ الجوع ويمسك الرّمق ويعين على العبادة ، ولخشيته أيضا من حساب ما زاد على ذلك .

* أمّا الكافر فبخلاف ذلك كلّه لأنّه لا يقف مع مقصود الشّرع بل هو تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام ، فصار أكلُ المؤمن إذا نُسبَ إلى أكل الكافر كأنّه بقدر السُّبْع منه .

كما بيّن العلماء الكرام أنّ شهوات الطّعام سبع : شهوة الطّبع ، وشهوة الرّغبة ، وشهوة المشاهدة ، وشهوة التّذوُّق ، وشهوة النّهم ، وشهوة الشّم ، وشهوة الجوع وهي الضّروريّة التي يأكل بها المؤمن ، أمّا الكافر فيأكل بالشّهوات السّبع .

وقالوا أنّ النّاس في ذلك على ثلاث طبقات :

(الأولى) طائفة تأكل كلّ مطعوم من حاجة وغير حاجة وهذا فعْلُ أهل الجهل لما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ

(١) انظر فتح البارى [ج ٩ ص ٤٤٩] .

(٢) انظر المصدر السّابق [ج ٩ ص ٤٥٠] .

أَكْثَرَهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[(١)]».

و[الْجُشَاء] ريح تُحتبس فوق المعدة فتطلب الصّعود بخلاف الرّيح التى تُحتبس تحت المعدة وهو من جنس العُطَاس الذى هو ريح تُحتبس فى الدّماغ ثمّ تطلب لها منفذا فتخرج من الخياشيم فيحدث الْعُطَاسُ، وتفصيل ذلك:

(١) أنّ الرّيح الخارجة من الدّبر هى ريح تُحتبس تحت المعدة ينتقض الوضوء بخروجها.

(٢) إذا احتبست الرّيح فوق المعدة وطلبت صُعودا، فيكون «الجشاء» الذى يخرج من الفم عند امتلاء المعدة وهو [التَّكَرُّعُ]، وفى القاموس: «جَشَأَتْ الْمَعِدَةُ» أى دفعت ما بها من غاز، وَالْجُشَاءُ: الصّوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة. وهو من تَكَرَّعَ يَتَكَرَّعُ تَكَرُّعًا، وأَكَلَ كَثِيراً فَأَخَذَ يَتَكَرَّعُ.

(٣) وإذا احتبست الرّيح فى الدّماغ ثمّ تطلب لها منفذا فتخرج من الخياشيم فيحدث العُطاس.

(الثّانية) طائفة تأكل عند الجوع بقدر حاجتها إليه وحسب لما ورد من قوله ﷺ «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ[(٢)]».

(والثّالثة) طائفة يُجَوِّعُونَ أنفسهم يقصدون بذلك [قمع شهوة النّفس وإذا أكلوا أكلوا ما يسدّ الرَّمَقَ[(٣)]].

والمعدة [مقرّ الطّعام والشّراب بعد أن ينحدر من الْمَرِىء وقبل أن ينحدر إلى الأمعاء وجمعها: [معدٌ]. ولمّا قال بعض الحكماء أنّ «الْمَعِدَةَ بَيْتُ الدَّاء» وصفوها بأنّها عضو عصبى مجوّف كالقَرْعَة فى شكلها، مركّبة من ثلاث طبقات، ومؤلّفة من شظايا دقيقة عصبية تسمّى «باللّيف» إحدى طبقاتها بالطّول، والأخرى بالعرض، والثّالثة بالوَرْب، وفمُ المعدة أكثر عصبا، وقعرها أكثر لحما، وفى باطنها خمل.

والمعدة محصورة فى وسط البطن وأميَلُ إلى الجانب الأيمن قليلا، خُلقت على هذه الصّفة لحكمة لطيفة من الخالق الحكيم سبحانه، وهى بيت الدّاء وفيها ينْضَجُ الغذاء وينحدر منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء، ويتخلّف منه فيها فضلات قد عجزت القوّةُ الهاضمةُ عن تمام هضمها، إمّا لكثرة الغذاء أو لرداءته أو لسوء ترتيب فى استعماله أو لمجموع ذلك، وهذه الأشياء بعضها ممّا لا يتخلّص الإنسان منه غالبا فتكون المعدة بيت الدّاء لذلك، وكأنّه يُشار بذلك إلى الحثّ على تقليل الغذاء ومنع النَّفْس من اتّباع

(١) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢٤٧٨] وابن ماجه [٢٧٢١] وأورده فى الصّحيحة [٣٤٣].

(٢) حديث حسن أخرجه النّسائى [٢٥٥٨] وابن ماجه [٢٩٢٠].

(٣) انظر فتح البارى [ج ٩ ص ٤٥١].

الشّهوات والتّحرُّز عن الفضلات[1]].

ويأتى علم التّشريح الحديث ليؤكّد أنّ [المعدة تقع على جانبى خط المنتصف لأعلى البطن حيث يوجد الجزء الأكبر منها يسار المنتصف والجزء الأصغر يمينه، وتعتبر أكثر أجزاء القناة الهضميّة اتساعا، حيث تبلغ هذه السّعة من لتر ونصف إلى لترين، فعند وصول الطّعام والشّراب للمعدة يحدث استرخاء لعضلات الجزء العلوى منها كى تستوعب كميّة الطّعام والشّراب التى تصل إليها.

ثمّ يبدأ الجزء السّفلى بعد ذلك فى عمليّة مزج الطّعام والشّراب مع السّوائل المختلفة التى تُفرزها المعدة لكى تقوم بدورها فى عمليّة الهضم، وتبلغ كميّة العُصارة الهضميّة التى تُفرزها المعدة حوالى لترين ونصف يوميا وتحتوى على المواد الأتية:

(١) حامض الهيدروليك الذى يساعد على قتل الميكروبات التى تصل المعدة عن طريق الفم وكذلك يساعد على هضم البروتينات.

(٢) مادّة «الببسين» التى تساعد على هضم البروتينات.

(٣) انزيم «اللّيبيز» الذى يختصّ بهضم الدّهون.

(٤) مادّة مخاطيّة تتولّى تغطية الغشاء المخاطى المُبطّن للمعدة وتوفّر له الحماية من تأثير المواد المهيّجة.

(٥) العامل الذّاتى الذى يلعب دورا جوهريا فى امتصاص فيتامين ب ١٢ من الأمعاء والذى يدخل فى تكوين كرات الدّم الحمراء.

وبعد فترة تتراوح بين ٤ إلى ٨ ساعات من وصول الطّعام للمعدة يتمّ خلالها هضمه جُزئيا، وتقوم المعدة بإخراج الطّعام الممزوج والمهضوم إلى [الإثنى عشر] الذى يُمثّل بداية الأمعاء الدّقيقة، وتتوقّف فترة بقاء الطّعام بالمعدة على عدّة عوامل تشمل نوع الطّعام، حيث تكون حركة الدّهون والبروتينات أكثر بُطئًا، وكذلك الحالة العصبيّة والعضليّة لجدار المعدة وأيضا مدى انشغال وازدحام الأمعاء الدّقيقة بطعام سابق ما زال يمرّ بمرحلة الهضم والامتصاص[2]].

وعندما أشار المسلمون الأوائل إلى بديع صنع الله تعالى فى خلق الإنسان تحدّثوا عن مدخل غذائه ومستقرّه ومستخرجه، وذكروا أنّ [المعدة تمثّل القوّة المنضجة لغذائه والهاضمة لطعامه والدّافعة به إلى الأعضاء عن طريق القلب بعدما يستحيل دما نقيًّا يحمل روح الحياة، فيدخل الغذاء إلى المعدة من طرق ومجار محدّدة ثمّ يندفع منها إلى

---

(١) انظر زاد المعاد[ج ٤ ص ١١٨].

(٢) انظر كتاب أمراض الجهاز الهضمى للدّكتور عماد تركى [ص ١٢] - طبعة دار الهلال.

الأعضاء من طرق ومجار أخرى، هذا وارد إليها وهذا صادر عنها للدّلالة على الحكمة البالغة والنّعمة السّابغة التى أحاط بها الخالق سبحانه هذا الإنسان.

لذلك كان من أخطر الأشياء التى تضرّ بالأفعال الطّبيعية للمعدة عند الأطباء:

(١) إدخال الطّعام على البدن قبل هضم الأوّل.

(٢) الزّيادة عن القدر الذى يحتاج إليه البدن.

(٣) تناول الأغذية القليلة النّفع البطيئة الهضم.

ومن تدبّر أغذية النّبى ﷺ وما كان يأكله وَجَدَهُ لم يجمع قط بين لبن وسمك، ولا بين لبن وحامض، ولا بين غذائين حارّين ولا باردين، ولا لزجين ولا قابضين، ولا مُسهلين ولا غليظين، ولا مُرخيين ولا محوّلين إلى خلط واحد، ولا بين مختلفين كقابض ومسهّل، ولا بين سريع الهضم وبطيئه، ولا بين شوى وطبيخ، ولا بين طرىّ وقديد، ولا بين لبن وبيض. ولا بين لحم ولبن. ولم يكن يأكل طعاما فى وقت شدّة حرارته، ولا شيئا من الأطعمة المالحة، وكلّ هذه الأنواع ضار مولّد لأنواع من الخروج عن قواعد الصّحة والاعتدال[١]].

كما أنّ المفسد للقلب من الطّعام نوعان:[٢]

(أحدهما) ما يفسده لعينه وذاته كالمحرّمات وهى نوعان:

(١) محرّمات لحقّ الله تعالى كالميتة والدّم ولحم الخنزير وذى النّاب من السّباع والمخلب من الطّير.

(٢) ومحرّمات لحقّ العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أُخذ بغير رضى صاحبه إمّا قهرا وإمّا حياء وتذمّما.

و(الثّانى) ما يُفسده بقَدْره وتعدّى حدّه، كالإسراف فى الحلال والشّبع المفرط، فإنّ الشّبع المفرط يُثقل الإنسان عن الطّاعات، ويُشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتّى يظفر الشّيطان بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصريفها ووقاية ضررها والتّأذّى بثقلها.

ومن أكل كثيرا شرب كثيرا فنام كثيرا فخسر كثيرا، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى[٣]». فدلّ على أنّ المراد بالمؤمن من يقتصد

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٢ ص ٢٢٣].

(٢) انظر مدارج السّالكين لابن القيّم [ج ١ ص ٤٥٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٤١] ومسلم [١٠٣٤] والترمذى [٢٤٦٣].

في مطعمه، وأمّا الكافر فمن شأنه الشَّرَهُ فيأكل بالنَّهم كما تأكل البهيمة.

وامتلاء المعدة وتناول كميّات كبيرة من الطّعام يُؤدّى إلى عسر الهضم الذى يشعر المرء من خلاله بآلام حادّة فى أعلى البطن يُصاحبها شعور بضيق فى التّنفُّس ورغبة فى التّجشُّؤ وإحساس بالغثَيان، كما يُؤدّى ذلك إلى الإصابة بالبكتريا الحلزونية والذى أصبح من المؤكّد عند الأطبّاء أنها تتسبّب فى التهاب المعدة الحادّ والمزمن وقرحة المعدة والإثنى عشر.

كما يرجع الشّعور بالتُّخمة والامتلاء إلى بطء حركة الطّعام بالمعدة وتناول الدُّهون بكميّة كبيرة. [كما يتسبّب ذلك فى الإصابة بالحموضة التى تنتج من ارتداد حامض المعدة إلى المرىء، وقد يُصاحبها ارتجاع بعض محتويات المعدة إلى الحَلْق مصحوبة بطعم لاذع مثل طعم الخلّ، ولقد اعتبر الأطبّاء أنّ تناول الوجبات بحجم كبير من أهم العوامل التى تساعد على هذا الارتداد الذى كثيرا ما يُسبّب آلاما مزمنة فى الحَلْق بالإضافة إلى الرّائحة الكريهة التى تلمّ بالأنف(1)].

خطر اسمه الشَّرَهُ والْبِطْنَةُ

ومن أخطر ما يصيب المرء فى حياته الشَّرَهُ إلى الطّعام وغيره، من شَرِهَ يَشْرَهُ شَرَهًا: إذا اشتدّ حِرْصُهُ عليه واشْتِهَاؤُهُ له فهو شَرِهٌ، ولا يؤدّى ذلك إلاّ إلى التُّخَمَة التى تصيب الإنسان من أكل الطّعام الوخيم أو من امتلاء المعدة، وقد قيل:

* الْبِطْنَةُ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ، ومن الهَلاك إدْخَالُ الطّعَام على الطّعام قبل الانهضام، ولو سُئِلَ أهل القبور عَمّا عَجّلَ بأَعْمَارِهِمْ لَقَالُوا التَّخَمُ.

* وكان الرّجل فى العصر الأوّل لَيُعَيَّرُ بِالْبِطْنَةِ كَمَا يُعَيَّرُ بالذَّنْبِ يَعْمَلُهُ، فَمَنْ كَانَتْ بِطْنُهُ أكْثَرَ هَمّه كَثُرَ فِى الْحَيَاة غَمُّهُ.

* وكما جاء فى الخبر [فإنّ الله لم يخلق وعَاءً إذَا مُلِىءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، وحَتْفُ الْمَرْءِ مِنْ شِبَعِه، وَمَا كَانَ لبَطِينٍ عَزْمٌ فِى حَيَاته، فَالشِّبَعُ يُثْقِلُ الْبَدَنَ وَيُزِيلُ الْفِطْنَةَ وَيَجْلِبُ النَّوْمَ ويُضْعِفُ عَنِ الْعِبَادَةِ ويُبَلِّدُ الذِّهْنَ(2)].

* ويروى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال [مَابَطُنَ قَوْمٌ قَطُّ إلاّ فَقَدُوا بَعْضَ عُقُولِهِمْ، ومَا مَضَتْ عَزْمَةُ رَجُلٍ بَاتَ بَطِينًا].

* وعن الأحنف قال [جَنِّبُوا مَجْلِسَنَا ذِكْرَ النِّسَاءِ وَالطّعَامِ، فَإِنّى أَبْغَضُ الرَّجُلَ أنْ

(1) انظر كتاب [أمراض الجهاز الهضمى] للدّكتور عماد تركى [ص ٦٢ - ٦٩ بتصرّف].

(2) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب [ص ٦٨٣ - ٦٩٠].

يَكُونَ وَصَّافًا لِبَطْنِهِ وَفَرْجِهِ ، وَإِنَّ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَتْرُكَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ] .

* وقال بعض الحكماء [مَدَارُ صَلاحِ الأُمُورِ فِي أَرْبَعٍ : الطَّعامِ لا يُؤكل إِلاَّ عَلَى شَهْوَةٍ ، وَالمرْأَةُ لا تَنْظُرُ إِلاَّ إِلَى زَوْجِهَا ، والْمَلِكُ لا يُصْلِحُهُ إِلاَّ الطَّاعَةُ ، والرَّعِيَّةُ لا يُصْلِحُهَا إِلاَّ الْعَدْلُ] .

* وجاء عن أبى الدّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله [بِئْسَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ قَلْبٌ نَخِيبٌ ، وَنَعْظٌ شَدِيدٌ ، وَبَطْنٌ رَغِيبٌ] . والرّغيب : واسع الجوف وهو كناية عن كثرة الأكل وشدّة النّهم ، والنّخيب : الجبان الذى لا فؤاد له .

* وقال جعفر :[كُنَّا نَأْتِي فَرْقَدًا السَّبَخِيَّ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ فَيُعَلِّمُنَا : إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانًا شَدِيدًا ، فَشُدُّوا الأُزُرَ عَلَى أَنْصَافِ الْبُطُونِ ، وَصَغِّرُوا اللُّقَمَ وَشَدِّدُوا الْمَضْغَ ، وَمُصُّوا الْمَاءَ مَصًّا ، وَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَحُلَّنَّ إِزَارَهُ فَتَتَّسِعَ أَمْعَاؤُهُ ، وَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ لِيَأْكُلَ فَلْيَقْعُدْ عَلَى أَلْيَتَيْهِ وَلْيَلْزَقْ بَطْنَهُ بِفَخِذَيْهِ ، وَإِذَا فَرَغَ فَلاَ يَقْعُدْ وَلْيَجِيءْ وَلْيَذْهَبْ ، وَاحْتَمُوا فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانًا شَدِيدًا(١)] .

* وقال أحدهم لابنه [يَابُنَيَّ عَوِّدْ نَفْسَكَ الأَثَرَةَ وَمُجَاهَدَةَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ ، وَلاَ تَنْهَشْ نَهْشَ السِّبَاعِ ، وَلاَ تَخْضِمْ خَضْمَ الْبَرَاذِينِ ، وَلاَ تُدْمِنِ الأَكْلَ إِدْمَانَ النِّعَاجِ ، وَلاَ تَلْقَمْ لَقْمَ الْجِمَالِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَكَ إِنْسَانًا وَفَضَّلَكَ ، فَلاَ تَجْعَلْ نَفْسَكَ بَهِيمَةً وَلاَ سَبُعًا ، وَاحْذَرْ سُرْعَةَ الْكِظَّةِ(٢) وَسَرَفَ الْبِطْنَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الشِّبَعَ دَاعِيَةُ الْبَشَمِ(٣) وَأَنَّ الْبَشَمَ دَاعِيَةُ السَّقَمِ ، وَأَنَّ السَّقَمَ دَاعِيَةُ المَوْتِ ، فَمَنْ مَاتَ بِهَذِهِ الْمِيتَةِ فَقَدْ مَاتَ مِيتَةً لَئِيمَةً ، وَهُوَ مَعَ هَذَا قَاتِلُ نَفْسِهِ وَقَاتِلُ نَفْسِهِ أَلأَمُ مِنْ قَاتِلِ غَيْرِهِ] .

[يَابُنَيَّ : وَاللهِ مَا أَدَّى حَقَّ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ذُو كِظَّةٍ ، وَلاَ خَشَعَ للهِ تَعَالَى ذُو بِطْنَةٍ ، وَالصَّوْمُ مَصَحَّةٌ ، وَالْوَجَبَاتُ عَيْشُ الصَّالِحِينَ ، أَىْ بُنَيَّ : لِمَ صَفَتْ أَذْهَانُ الأَعْرَابِ وَصَحَّتْ أَبْدَانُ الرُّهْبَانِ مَعَ طُولِ الإِقَامَةِ فِى الصَّوَامِعِ ، حَتَّى لَمْ تَعْرِفِ النِّقْرِسَ وَلاَ وَجَعَ الْمَفَاصِلِ وَلاَ الأَوْرَامَ ، إِلاَّ لِقِلَّةِ الرُّزْءِ(٤) وَخِفَّةِ الزَّادِ ، وَكَيْفَ لا تَرْغَبُ فِي تَدْبِيرٍ يَجْمَعُ لَكَ صِحَّةَ الْبَدَنِ وَذَكَاءَ الذِّهْنِ وَصَلاَحَ الْمِعَى(٥) وَكَثْرَةَ المَالِ وَالْقُرْبَ مِنْ عَيْشِ الْمَلاَئِكَةِ .

[أَىْ بُنَيَّ : لِمَ صَارَ الضَّبُّ أَطْوَلَ شَيْءٍ ذَمَاءً(٦) إِلاَّ لأَنَّهُ يَتَبَلَّغُ بِالنَّسِيمِ ، وَلِمَ قَالَ رَسُولُ

---

(١) انظر عيون الأخبار [ج ٩ ص ٢١٥] .
(٢) الْكِظَّةُ الامتلاء من الطّعام .
(٣) الْبَشَمُ من بَشِمَ الطعام بَشَمًا : أكثر منه حتّى اتّخم وسئمهُ فهو بَشِمٌ .
(٤) الرُّزْءُ ما يصيبه الإنسان من الطّعام .
(٥) المِعَى (بالمد والقصر) : المصارين .
(٦) الذَّمَاءُ بقية النّفَس والحركة ، والمراد : أطول شىء حياة .

الله ﷺ إنَّ الصَّوْمَ وِجَاءٌ إلاَّ لِيَجْعَلَهُ حِجَازًا[1] دُونَ الشَّهَوَاتِ. أىْ بُنَىَّ: قَدْ بَلَغْتُ تِسْعِينَ عَامًا مَا نَغَضَ لِى سِنٌّ، وَلاَ انْتَشَرَ[2] لِى عَصَبٌ، وَلاَ عَرَفْتُ ذَنِينَ أَنْفٍ[3] وَلاَ سَيَلاَنَ عَيْنٍ، وَلاَ سَلَسَ بَوْلٍ، مَا لذَلكَ عِلَّةٌ إلاَّ التَّخْفِيفَ مِنَ الزَّادِ، فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ الْحَيَاةِ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَوْتَ فَلاَ يُبْعِدُ اللهُ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ[4]].

{الصّيام والتأهيل الصّحى للمعدة}

والصّيام من أنجع الوسائل التى تحول دون الأذى والتّضرُّر من كثرة الطّعام وتعمل على تهذيب شهوتى البطن والفرج ودليل ذلك قول النّبى ﷺ عن الله تعالى فى حديث الصّوم «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِى[5]». وعندما يترك العبد شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو يترك محبوبات النّفس وتلذُّذاتها إيثارا لمحبّة الله تعالى ومرضاته، وهو سرّ بين العبد وربّه لا يطّلع عليه سواه سبحانه.

وللصّوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظّاهرة والقوى الباطنة وحميّتها عن التّخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرّديئة المانعة لها من صحّتها، فالصّوم يحفظ على القلب إيمانه وعلى الجوارح صحّتها ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشّهوات، فهو من أكبر العون على حفظ الصّحة.

والصّوم فى اللُّغة مُطلق الإمساك والتّرك، فمن أمسك عن شىء ما قيل له [صائم]، وهو فى الشّرع [إمساك مخصوص] يتمثّل فى ترك الأكل والشّرب والجماع من الفجر إلى غروب الشّمس بنيّة التّقرُّب إلى الخالق جلّ وعلا تحقيقا لأركان الدّين القويم.

ويأتى الصّيام بعد فرض رمضان من باب التّطوُّعات التى تقرّب إلى الله تعالى، والتّطوّع فى الأصل «تكلُّف الطّاعة» من قول الله تعالى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]. والتّطوُّعُ: فعل الطّاعة. [أو] هو اسم لكلّ خير يباشره المسلم عن طوع واختيار من غير إيجاب موجب. [أو] هو فعل المطلوب طلبا غير جازم، ويلى ذلك ما ينشئه الإنسان ابتداء والأصل فيه قول النّبى ﷺ للرّجل الذى يسأل بعدما عرف فرائض الإسلام «هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا؟». فقال له «إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا[6]».

وإذا كان صيام رمضان خلال الشّهر يُؤهل المعدة تأهيلا صحيّا يتناسب ومنعها عن

---

(١) حجَازًا مانعا وحائلا.

(٢) انتشر لى عصب: انتفخ.

(٣) الذّنين والذّنان: المخاط الرّقيق يسيل من الأنف.

(٤) انظر عيون الأخبار [ج ٩ ص ٢١٧ - ٢١٩].

(٥) من حديث أخرجه البخارى [١٨٩٤] وابن ماجه [١٣٣٦].

(٦) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٨٩١] ومسلم [١١].

استرسالها لحكم الطّبيعة فيما يضرّها فى معاشها ومعادها، فإنّ الشّرع قد جعل من [صوم التّطوّع] امتدادا طبيعيا لهذا التّأهيل، فكلّ عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله إلاّ الصّوم فإنّ الله يجزى به أضعافا مضاعفة لقول النّبى ﷺ «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الصِّيَامُ لى وَأَنَا أَجْزِى بِه(١)».

أى لا يعلم مقدار ثوابه إلاّ الله تعالى، وفيه إشارة إلى تعظيم ذلك العطاء وتفخيمه، وقد شاء الله تعالى أن يجعل من الصّوم وقاية للعبد وسترا له من النّار لقوله ﷺ «الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ(٢)». ومعنى كونه «جُنَّةٌ» أى يقى صاحبه ما يُؤذيه من الشّهوات، وتتضمّن كتب السُّنَّة المطهّرة دعوة النّبىّ ﷺ إلى الصّيام التّطوّعى فى أكثر من مناسبة:

* فكان رسول الله ﷺ يرغب فى صيام ستّة أيّام من شوّال كما فى حديث ثوبان «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ(٣)».

* وكان يأمر بصيام الأيّام البيض ثلاثَ عشرَةَ وأربعَ عشرَةَ وخمسَ عشرَةَ من كلّ شهر عربى ويقول «مَنْ صَامَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْرِ(٤)».

* وجاء فى رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما «وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا(٥)». وتترجّح أنّها أيّام البيض بكونها وسط الشّهر ووسط الشّىء أعدله.

* كما حبّب نبىّ الإسلام ﷺ فى صيام يوم عرفة وقال «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّى أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِى قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِى بَعْدَهُ(٦)».

* أمّا صيامُ يوم عاشوراء فكانَ النّبى ﷺ يتحرّى صومهُ على سائر الأيام، ولمّا قدم المدينة وجد اليهود تصومه وتعظّمه، فقال «نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ». فصامه وأمر بصيامه وذلك قبل فرض رمضان، فلمّا فُرض صيام رمضان قال «مَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ(٧)».

* وروى النّسائى عن أمّ المؤمنين عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَحَرَّى صِيَامَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ(٨)». أى يقصدهما ويراهما أحرى بالصّيام وأولَى، ولمّا قيل يارسول الله إنّك تصوم الاثنين والخميس قال ﷺ «ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٨٩٤] ومسلم [١١٥١] وابن ماجه [١٣٣٥].

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٣٣٦] والنّسائى [٢٢٣٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٦٤] وأبو داود [٢٤٣٣] وابن ماجه [١٤٠٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٤٤٩] وابن ماجه [١٣٩٦].

(٥) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٩٧٦] ومسلم [١١٥٩] وأبو داود [٢٤٢٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٦٢] وابن ماجه [١٤١٦] وأورده فى الإرواء [٩٥٢].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠٠٢] ومسلم [١١٢٥] وأبو داود [٢٤٤٢].

(٨) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٢٣٥٩] وابن ماجه [١٤٢٥].

الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ(١)». وخير ما رغب فيه رسول الله ﷺ صيام يوم في سبيل الله تعالى لقوله من حديث أبي سعيد رضي الله عنه «ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلاّ باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا(٢)». وكان يقول «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا(٣)».

(رابعا) ـ كثرة النوم

كثرة النّوم من المهلكات التى تُميت القلب وتُثقل البدن وتُضيّع الوقت وتُورّث طول الغفلة والكسل. ومن تدبّر نوم النّبى ﷺ ويقظته وجده من أعدل الأحوال وأنفعها للقلب والبدن، ولم يكن يأخذ من النّوم فوق القدر الذى يحتاج إليه ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان ﷺ يفعله على أكمل الوجوه فينام إذا دعته الحاجة إلى النّوم على شقّه الأيمن، ذاكرا لله تعالى حتّى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البطن من الطّعام والشّراب، وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خدّه أحيانا.

(قال) الرّاغب [النّوم هو استرخاء أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصّاعد إليه(٤)]. وقيل: هو أن يتوفّى الله النّفس من غير موت، فالنّوم موت خفيف والموت نوم ثقيل]. وفى [المصباح (٥)] النّوم غشية ثقيلة تهجم على القلب فتقطعه عن المعرفة بالأشياء ولذلك قيل إنّه آفة لكون النّوم أخو الموت كما خبر ذلك فى قوله ﷺ «النَّوْمُ أَخُ الْمَوْتِ وَلاَ يَمُوتُ أَهْلُ الْجَنَّةِ(٦)». والنّوم حالة تُؤثّر في البدن يتبعها غور الحرارة الغريزيّة إلى باطنه لطلب الرّاحة تغيب خلالها الإرادة والوعى كليًّا أو جزئيًّا وتتوقّف فيها الوظائف البدنية جزئيًّا ومنه [الْمَنَامُ] و[الْمَنَامَةُ]: موضع النّوم، و[النَّؤُومُ]: الكثير النّوم. يقالُ: رَجُلٌ نَؤُومٌ وَامْرَأَةٌ نَؤُومٌ، وهو نوعان:

(الأول) النّوم الطّبيعى

وهو إمساك القوى النّفسانيّة عن أفعالها وهى قوى الحسّ والحركة الإرادية، ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن استرخى، واجتمعت الرّطوبات والأبخرة التى كانت تتحلّل وتتفرّق بالحركات واليقظة فى الدّماغ الذى هو مبدأ هذه القوى فيتخدّر ويسترخى وذلك هو النّوم الطّبيعى.

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٢٣٥٧] وأحمد [٢١٦٥٠].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٥٣] والنّسائى [٢٢٤٧] وابن ماجه [١٤٠٥].
(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٤٤٨] والنّسائى [٢٣٨٧] وابن ماجه [١٤٠٠].
(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٤١].
(٥) انظر المفردات [ص ٥١٠] والتّوقيف [ص ٧١٣].
(٦) أخرجه فى صحيح الجامع [٦٨٠٨] وأورده فى الصّحيحة [١٠٨٦] عن جابر رضي الله عنه.

أمّا النُّعاس فهو فتور يعترى حواسّ الإنسان فيقارب النّوم ولا يفقد معه عقله فهو ناعس وجمعه «نُعَّس» وعلامته سماع كلام الحاضرين وإن لم يفهمه، وقيل هو أوّل النّوم الذى يستثقل صاحبه ويزول معه ذهنه بسبب انحلال أعصاب الدّماغ بالرّطوبات الصّاعدة إليه من المعدة، وقد ذكر النُّعاسُ فى كتاب الله تعالى مرّتين:

(الأولى) هى قول الله تعالى﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٤].

و(الثّانية) قوله تعالى﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[الأنفال: ١١]. ومقصود ذكره هنا التّعريف به دون الإشارة إلى سبب تنزيله.

والنُّعاس ما كان من العين فإذا صار فى القلب كان نوما، وفرّق العلماء بين النُّعاس والسِّنة فقالوا: السِّنَة من الرأس والنُّعاس فى العين والنّوم فى القلب،و«السِّنَةُ» أوّل النّوم ومنه الوَسْنَانُ وهو الذى يقوم من النّوم وهو لا يعقل، قال السُّدِّىُّ: «السِّنَةُ» ريح النّوم الذى يأخذ فى الوجه فينعس الإنسان، وهو فتور يعترى الإنسان ولا يفتقد معه عقله، بخلاف النّوم لكونه المستثقل الذى يزول معه الذّهن فى حقّ البشر[(١)].

(الثّانى) النّوم غير الطّبيعى

وهو الذى يكون لعَرَض أو مَرَض [وذلك بأن تستولى الرّطوبات على الدّماغ استيلاء لا تقدر اليقظة على تفريقها منه، أو تصعد الأبخرة الرّطبة الكثيرة كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشّراب فتثقل الدّماغ وترخيه فيتخدّر، ويقع إمساك القوى النّفسانية عن أفعالها فيكون النّوم(٢)].

وللنّوم فائدتان جليلتان:

(إحداهما) سُكون الجوارح وراحتها ممّا يعرض لها من التّعب فيريح الحواسّ من تعب اليقظة ويزيل الإعياء والكلل.

(والثّانية) هضم الغذاء ونضج الأخلاط لأنّ الحرارة الغريزيّة فى وقت النّوم تغور إلى باطن البدن فتُعين على ذلك، ولهذا يبرد ظاهره ويحتاج النّائم إلى فضل دثار ليتوقّاه.

النّوم غير المستحب

ثمّ يأتى الحديث عن النّوم غير المستحب مُفصّلاً على النّحو التّالى:

١ - [أردأ النّوم]: عندما يكون على الظَّهْر رافعا إحدى رجليه على الأُخرى ومحلّه فيما إذا لم يُأمن من كشف العورة لما أخرجه مسلم من حديث جابر رفعه «لاَ يَسْتَلْقِيَنَّ

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٣ ص ٢٧٣].

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٢٤٠].

أَحَدُكُمْ ثُمَّ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الأُخْرَى[1]». ولا يخفى أنّ الذى يفعل ذلك لا يأمن من الانكشاف ولا سيّما حين الاستلقاء، ولأنّه يجلب النّوم والنّائم لا يستطيع أن يتحفّظ.

فكأنّه أشار إلى أنّ من فعَل ذلك ينبغى له أن يتحفّظ لئلاّ تنكشف عورته ولذلك جاء فى رواية عبّاد بن تميم عند مسلم أيضا «أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللّه ﷺ مُسْتَلْقِيًا فى الْمَسْجِد وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الأُخْرَى[2]». وفيه قال العلماء [أحاديث النّهى عن الاستلقاء رافعا إحدى رجليه على الأخرى محمولة على حالة تظهر فيها العورة أو شىء منها، وأمّا فعله ﷺ فكان على وجه لا يظهر منها شىء، وهذا لا بأس به ولا كراهة فيه على هذه الصّفة].

(قال) النّووى [ويحتمل أنّه ﷺ فعله لبيان الجواز، وأنّكم إذا أردتم الاستلقاء فليكن هكذا، وأنّ النّهى الذى نهيتكم عن الاستلقاء ليس هو على الإطلاق، بل المراد به من ينكشف شىء من عورته أو يقارب انكشافها واللّه تعالى أعلم[3]].

٢ ـ [ومنه] أن ينام مُنبطحا على وجهه وهو الأمر المنهى عنه كما فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال «رَأَى رَسُولُ اللّه ﷺ رَجُلاً مُضْطَجِعًا عَلَى بَطْنه فَقَالَ: إِنَّ هَذه ضجْعَةٌ لا يُحبُّهَا اللّهُ عَزَّ وجَلَّ[4]». وجاء عند أبى داود بلفظ «إِنَّ هَذه ضجْعَةٌ يُبْغضُهَا اللّهُ[5]». وجاء قوله ﷺ عند ابن ماجه «يَاجُنَيْدبُ إِنَّمَا هَذه ضجْعَةُ أَهْلِ النَّارِ[6]».

وأورد البخارى فى الأدب المُفرد عن أبى أُمامة رضي الله عنه «أَنّ رَسُولَ اللّه ﷺ مَرَّ برَجُلٍ فى الْمَسْجد مُنْبَطحًا لوَجْهه فَضَرَبَهُ برجْله وَقَالَ: قُمْ، نَوْمَةٌ جَهَنَّميَّةٌ[7]». ووصف رسول اللّه ﷺ هذه الضّجعة بذلك لكونها تخالف طبيعة الإنسان ولأنّ النّوم المعتدل يمكّن القوى الطّبعية فيه من أفعالها ويريح القوّة النّفسيّة ويكثر من جوهر حاملها.

٣ ـ وقالوا عن [نوم النّهار] أنّه يورّث الأمراض الرُّطوبيّة والنّوازل ويفسد اللّون ويورّث الطّحال ويُرخى العصب ويُضعف الشّهوة إلاّ فى الصّيف وقت الهاجرة، وأردؤه: نوم أوّل النّهار، والأردأ منه النّوم آخره بعد العصر.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٤/ ٢٠٩٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٠٠] وافقه البخارى [٥٩٦٩] وأبو داود [٤٨٦٦].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٣٢٩].

(٤) حديث حسن أخرجه أحمد [٧٨٤٩] والتّرمذى [٢٧٦٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤٠].

(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٠١٦] وأورده فى المشكاة [٤٧١٩].

(٧) أخرجه البخارى فى الأدب المُفرد [١١٨٨].

٤ ـ [ونـوم الصُّبْحَة] : وهو نوم أوّل النّهار الذى يمنع الرّزق لكونه يأتى فى وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها وهو وقت قسمة الأرزاق ، فنومه حرمان إلاّ لعارض أو ضرورة وهو مضرّ جدا بالبدن ، ورأى عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه ولداً له نائما نومة الصّبحة فقال [«قم ! أتنام فى السّاعة التى تقسّم فيها الأرزاق ؟»[1]] .

(استحباب النّوم على ذكر وطهارة)

يستحب للمسلم عندما ينام أن يبيت على ذكر وطهارة لقوله ﷺ من حديث البَراء بن عازب رضي الله عنه «إذا أتيْتَ مَضْجَعَكَ فتوضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاة ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شقِّكَ الأيْمَن وَقُلْ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِى إلَيْكَ[2]». وجاء عند مسلم بلفظ «إذا أخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاة ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَي شقِّكَ الأيْمَنِ ثُمَّ قُل اللَّهُمَّ إنِّى أَسْلَمْتُ وَجْهِى إلَيْكَ» . ويتضمّن هذا الحديث ثلاث سُنن ثبتت عن النّبى ﷺ قولا وفعلا وهى :

(ا) ـ النّوم على طهارة

الطّهارة فى اللّغة مُطلق النّظافة حسّية أو معنوية والتّنزُّه عن الأقذار ، يقال طَهُرَ الشَّيْءُ [بفتح الهاء وضمّها] يَطْهُرُ [بالضّم] طَهَارَةً فيهما . والاسم : الطُّهْرُ (بالضّم) وطَهَّرَهُ تطهيرا ، وتَطَهَّرَ بالماء من قوله ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النّمل:٥٦] .أى يتنزّهون عن الأدناس ، وشرعا النّظافة من النّجاسة : حقيقيّة [كالخبث] وحكمية وهى [الحدث] ، أو يقال هى «صفة حكمية» يستباح بها ما منعه الحدث أو حكم الخبث ، أمّا الطّهَارَةُ اصطلاحا فهى رفع ما يمنع الصّلاة وما فى معناه من حدث أو نجاسة بالماء أو رفع حكمه بالتّراب ، والطّهارة عند الأئمة على ثلاثة أقسام :

(الأوّل) طهارة من الخبث المتعلّق بالبدن أو الثّوب أو المكان .

(والثّانى) طهارة من الأدران النّابتة من البدن كشعر العانة والإبط والأظفار .

(الثّالث) طهارة من الحَدَثين الأصغر والأكبر .

أمّا الطّهارة من النّجاسات المتعلّقة بالبدن والثّوب والمكان فهى المدار الأوّل للتّنقية والتّنظّف الذى يتحقّق للمسلم من خلاله راحة النّفس وسعادتها وخلاصها من عناء شبح محسوس وخليقة ظاهرة هى التّلوُّث بالنّجس والتّضرُّر من الخبث .

ولمّا عيّن الشّرع هيئات الطّهارة ومُوجباتها جاء الحَدَث عند الأئمّة على قسمين والطّهارة على ضربين :

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٤ ص ٢٤١] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١١] ومسلم بنحوه [٢٧١٠] .

(١) فجعل الطّهارة الكُبرى وهي [الغُسل] بإزاء الحدث الأكبر لأنّه أقلّ وقوعا وأكثر فتورا وأحوج إلى تنبيه النّفس بعمل يُعيد للجسد رونقه ، ويخلُف عليه ما تحلّل من قوّته .

(٢) ثمّ جعل الطّهارة الصُّغرى وهي [الوضوء] بإزاء الحدَث الأصغر لأنّه أكثر وقوعا وأقلّ تأثيرا ، والأمور التي فيها معنى الحدَث متعدّدة ومعلومة في شرع الدّين وأحكامه .

لذلك استحبّ الشّرع الشّريف للمسلم أن ينام على الطّهارتين الحسّيّة والمعنويّة التي تحقّق له تمام وضوئه قبل النّوم لقوله ﷺ للبراء بن عازب رضي الله عنه «فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ». والأمر فيه للنّدب ، فإن كان مُتوضّئًا كفاه لأنّ المقصود هو النّوم على طهارة .

وقد ورد في هذا المعنى حديث معاذ بن جبل رفعه «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرٍ وَطَهَارَةٍ فَيَتَعَارُّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ(١)» . ومعنى قوله «يَتَعَارُّ» : أي يستيقظ من النّوم وأصل التَّعارّ السّهر والتّقلّب على الفراش .

ومن فوائد النّوم متوضئًا :

* أن يبيت المسلم على طهارة لئلاّ يبغته الموت فيكون على هيئة كاملة .

* كما يُؤخذ منه النّدب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب لأنّه أوْلى من طهارة البدن لما قيل [لاَ تَبِيتَنَّ إِلاَّ عَلَى وُضُوءٍ ، فَإِنَّ الأَرْوَاحَ تُبْعَثُ عَلَى مَا قُبِضَتْ عَلَيْهِ] . وهو قريب المعنى من قوله ﷺ «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ(٢)» . وفي رواية جابر رضي الله عنه «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ(٣)» .

* ويتأكّد الوضوء قبل النّوم في حقّ المحدث ولا سيّما الجُنُب فيكون أنشط للعَوْد ، وقد يكون مُنشّطا للغُسل فيبيت على طهارة كاملة .

(٣) ـ النّوم على الشّقّ الأيمن

وأنفع النّوم أن يكون على الشّقّ الأيمن وهو الثّابت من فعل رسول الله ﷺ وقوله كما في حديث عائشة رضي الله عنها «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ حَتَّى يَجِيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤْذِنَهُ(٤)» . وقوله ﷺ من حديث البراء رضي الله عنه «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ(٥)» . وجاء عند أبي داود والنّسائي بلفظ «إِذَا

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤٢] والنّسائي في عمل اليوم واللّيلة [٨٠٦] .
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٧٨] وأحمد [١٤٤٨٠] وصحيح الجامع [٨٠١٥] .
(٣) أخرجه في صحيح الجامع [٨٠٤٢] وابن ماجه [٣٤٢٧] .
(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣١٠] ومسلم [٧٣٦] .
(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣١١] ومسلم [٢٧١٠] .

أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ طَاهِرًا ـ وَأَنْتَ طَاهِرٌ ـ فَتَوَسَّدْ يَمِينَكَ[1]». وخصّ رسول الله ﷺ الشّق الأيمن لعديد من الفوائد منها :

(*) استقرار الطّعام بهذه الهيئة فى المعدة استقرارا حَسَنًا .

(*) أنّ المعدة تكون أميَل إلى الجنب الأيسر فيكون ذلك أسرع إلى الانتباه .

(*) أنّ القلب متعلّق إلى جهة اليمين فلا يثقل بالنّوم .

(*) أنّها الهيئة التى نصّ الأطبّاء على أنّها الأصلح للبدن .

ثمّ للنّائم بعد ذلك [أن يتحوّل إلى الشّق الأيسر قليلا ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد ، ثمّ يستقرّ نومه على الجانب الأيمن ليكون الغذاء أسرع انحداراً من المعدة . فيكون النّوم على الجانب الأيمن بداءة نومه ونهايته ، وكثرة النّوم على الجانب الأيسر مضرّ بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه فتتدفّق إليه المواد[2]] .

(٣) ـ الذّكر قبل النّوم

لمّا كان النّائم مُحتاجا إلى من يحرس نفسه ويحفظها ممّا يعرض لها من الآفات ، وكان ربّه وخالقه تعالى هو المتولّى لذلك وحده ، عَلَّمَ النّبىُّ ﷺ النّائم أن يقول كلمات التّفويض والالتجاء والرّغبة والرّهبة ليستدعى بها كمال حفظ الله تعالى له وحراسته لنفسه وبدنه ، وأرشده إلى أن يستذكر الإيمان وينام عليه ويجعل التّكلّم به آخر كلامه .

لذلك أُمر المسلم إذا أتى مضجعه أن يتوضّأ وضوءه للصّلاة وينام على شقه الأيمن ثـمّ يقول «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْلَمْتُ نَفْسى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِى أَنْزَلْتَ ، وَنَبِيِّكَ الَّذِى أَرْسَلْتَ[3]» . وفى رواية «وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ كَلاَمِكَ ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ[4]» . وعن أنس «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِىَ لَهُ وَلاَ مُؤْوِىَ[5]» .

وعن حذيفة قال «كَانَ النَّبِىُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا . وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ[6]» . ومراده الرّجوع إليه ليجازى العامل بمقتضى عمله خيراً أو شرّاً ، وأتى بهذه

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤٧] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١١٣] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١٣] .

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١١] ومسلم [٢٧١٠] .

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٥] وأبو داود [٥٠٥٣] والتّرمذى [٣٣٩٦] .

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١٢] ومسلم [٢٧١١] والنّسائى [٧٧٧] .

ليحمل استحضارها المرء على التيقُّظ للإقبال على مولاه يقظة ونوما، فلا يُفضى به نومه لتكاسل أو تباطؤ عمّا طُلب منه، ولا تيقظه لغفلة عمّا طلب منه من دوام مراقبة وحضور.

وفى قوله «وَإِذَا قَامَ قَالَ الْحَمْدُ لله الَّذى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا»: (قال) الزّجاج [النّفس التى تُفارق الإنسان عند النّوم هى التى للتّمييز، والتى تفارقه عند الموت هى التى للحياة وهى التى يزول معها التّنفُّس.

وسُمّى النّوم «موتا» لأنّه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها]. ويُحتمل أن يكون المراد بالموت هنا السّكون كما قالوا: ماتت الرّيح أى سكنت، فيُحتمل أن يكون إطلاق الموت على النّائم بمعنى إرادة سُكون حركته لقول الله تعالى﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[يونس:٦٧].

وقد يُستعار مُسَمّى الموت للأحوال الشّاقة كالفقر والذّل والسُّؤال والهرم والمعصية والجهل. (قال) القرطبى فى المُفهم [النّوم والموت يجمعهما انقطاع تعلق الرّوح بالبدن وقد يكون ذلك «ظاهرا» وهو «النّوم». ولذا قيل «النَّوْمُ أَخُو الموت»، و«باطنا» وهو «الموت». فإطلاق الموت على النّوم يكون مجازا لاشتراكهما فى انقطاع تعلّق الرّوح بالبدن[1]].

والحكمة فى إطلاق «الموت» على النّوم أنّ انتفاع الإنسان بالحياة إنّما هو لتحرّى رضا الله تعالى عنه، وقصد طاعته، واجتناب سخطه وعقابه، فمن نام زال عنه هذا الانتفاع، فكان كالميت، فحمد الله تعالى على هذه النّعمة وزوال ذلك المانع، ويأتى هذا التّأويل موافقا للحديث المروى الآخر الذى جاء فيه «وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ به عِبَادَكَ الصَّالحينَ». وينتظم معه قوله ﷺ «وَإِلَيْهِ النُّشُورُ». أى وإليه المرجع فى نيل الثّواب بما يكتسب فى هذه الحياة.

ومن الأحكام المتّصلة بالنّوم:

(١) يكره النّوم على سطح غير مُحَجَّر لقوله ﷺ من حديث ابن شيبان «مَنْ بَاتَ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَيْسَ - عَلَيْه - لَهُ حِجَارٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ[2]». و«الْحِجَارُ»: السّتر والحجاب، وقوله «بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ»: يريد أنّه إن مات فلا يُؤاخذ أحد بدمه.

(٢) وكان من هدى النّبى ﷺ يضع يده اليمنى تحت خدّه لحديث حفصة زوج النّبى ﷺ «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِى عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[3]». وجاء حديث ابن ماجه عن ابن مسعود

(١) نقلا عن فتح البارى [ج ١١ ص ١١٨]. (٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤١] والبخارى فى الأدب المفرد [١١٩٢]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤٥] وأورده فى الصّحيحة [٣٧٥٤].

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَضَعَ يَدَهُ - يَعْنِي الْيُمْنَى - تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ - أَوْ تَجْمَعُ - عِبَادَكَ».

(٣) يُستحب نفض فراش النّوم قبل الدّخول فيه لئلاّ يكون قد دخله ما يُؤذي وهو لا يشعر لقوله ﷺ من حديث أبي هريرة «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ لْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ[1]». والمراد بداخلة الإزار ما يلي الجسد من طرفَيّ الإزار.

(قال) في المُفهم [وهذا الحديث يتضمّن الإرشاد إلى مصلحتين:

(إحداهما) معلومة ظاهرة وهي أنّ الإنسان إذا قام عن فراشه لا يدري ما دبَّ عليه بعده من الحيوانات ذوات السُّموم، فينبغي له إذا أراد أن ينام عليه أن يتفقّده ويمسحه لإمكان أن يكون فيه شيء يخفى من رطوبة وغيرها فهذه مصلحة ظاهرة.

(أمّا الثانية) فهي عدم إدراكنا لاختصاص النّفض بداخلة الإزار وإنّما ظهرت مصلحة ذلك للنّبي ﷺ بنور النُّبوّة وإنّما الذي علينا نحن الامتثال، ويقع لي أنّ النّبي ﷺ علم أنّ فيه خاصّية طبّية تنفع من ضرر بعض الحيوانات كما قد أمر بذلك في العائن أن يغتسل للمَعين، ويدلّ على ذلك ما زاده التّرمذي في هذا الحديث «فَلْيَأْخُذْ صَنِفَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ ثَلاَثًا». فحذا بها حذوَ تكرار الرُّقى[2]].

(٤) كما يستحبّ التّكبير والتّسبيح والتّحميد عند إرادة النّوم لما رُوي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ فَاطِمَةَ شَكَتْ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَلَمْ تَجِدْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ. قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْتُ أَقُومُ فَقَالَ مَكَانَكَ. فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، فَقَالَ أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا - أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا - فَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ[3]». ومن دلالات هذا الحديث:

(١) أنّ رسول الله ﷺ أحالهما على «الذِّكْر» ليكون عوضا عن الدُّعاء عند الحاجة، أو لكونه ﷺ أحبّ لابنته ما أحبّ لنفسه من إيثار الفقر وتحمّل شدّته بالصّبر عليه تعظيما لأجرها وثوابها.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣٢٠] ومسلم [٢٧١٤] وأبو داود [٥٠٥٠].

(٢) انظر المُفهم للقرطبي [ج ٧ ص ٤٣ - ٤٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣١٨] ومسلم [٢٧٢٧].

(٢) وفيه ما كان عليه السّلف الصّالح من شَظَف العيش وقلّة الشّيء وشدّة الحال وأنّ الله تعالى حماهم الدّنيا مع إمكان ذلك صيانة لهم من تبعاتها .

(٣) وفيه أنّ من واظب على هذا الذّكر عند النّوم لم يُصبه إعياء لأنّ فاطمة رضى الله عنها شكت التّعب من العمل فأحالها ﷺ على ذلك ، بل يُحتمل أن يكون من واظب عليه لا يتضرّر بكثرة العمل ولا يشقّ عليه ولو حصل له التّعب .

(٤) وفيه بيان إظهار غاية التّعطّف والشّفقة على البنت والصّهر ، ونهاية الاتحاد برفع الحشمة والحجاب حيث لم يزعجهما عن مكانهما فتركهما على حالة اضطجاعهما ، وبالغ ﷺ حتّى أدخل رجله بينهما ومكث بينهما حتّى بيّن لهما ما هو الأوْلى بحالهما من الذّكر عوضا عمّا طلباه من مساعدة الخادم [(١)] .

كثرة النّوم لا نجابه إلاّ بصلاة اللّيل

إذا كانت حكمة الله قد شاءت أن يجعل من اللّيل سكنا ولباسا فإنّه يرتبط فى حياة المؤمنين القانتين بتلك المعانى السّامية التى تترجم حقيقة الواقع الإيمانى القائم بينهم وبين خالقهم تبارك وتعالى ، وما جاء ذكر اللّيل فى موضع قرآنى من كتاب الله إلا وقد ارتبط بوصف كريم معتمد لمنهجية تلك العلاقة التى تبيّن أحوالهم قنوتا وطاعة ، وسجوداً وتلاوة ، وخشوعاً وإنابة ، ووصالاً وضراعة ، وتذلّلا واستكانة ، فهم كما قال الله تعالى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[الفرقان : ٦٤] . عندما أدركوا أنّ جنّة المؤمن وسعادته فى دموع المناجاة واستغفار الأسحار وسجود المحراب .

لقد استشربوا هذا الوصال من نبيّهم ﷺ لمّا قام اللّيل لربّه تعالى حتّى تورّمت قدماه ملبيّا دعوته ملتزمًا بأمره ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[المزمل : ٢] . لتتحقّق لهم أسمى درجات العبوديّة لله وأكملها من السّجود بليلٍ والنّاس نيام ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان :٢٦] . وقوله ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] . ومعناها عند الجمهور : أنّ الله تعالى جعل التّهجّد نفلاً فى حقّك زيادة لدرجاتك ، وشكراً منك لمولاك على ما أولاك ، أمّا فى حقّ الأمّة فشرع تكفيراً للذّنوب ومحواً للسّيئات .

واللّيل آية من آيات الله ، وطاعة المؤمنين فيه سرّ من أسراره ، ومغفرة الله لهم فضل من كريم عطائه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الإسراء :١٢] . ومن آيات اللّيل الرّاحة والسّكون والهدوء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الرّوم : ٢٣] .

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٢٨-١٢٩] .

ومن آيات اللّيل التنزُّل بالقرآن فيه ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدّخان: ٣]. وهى ليلة القدر التى هى خير عند ربّنا تعالى من ألف شهر، ومن آيات اللّيل كذلك تنزُّل ربّنا سبحانه في الثّلث الأخير منه بالرّحمة والمغفرة والإجابة والعفو لما رواه الشّيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ(١)».

وقوله ﷺ «يَنْزِلُ رَبُّنَا»: فإنّه يمضي فيه ما قاله السّلف الصّالح من الإيمان بالنّزول وإمرار النّصوص كما وردت من إثبات النّزول لله عزّ وجلّ على الوجه الذى يليق بجلاله سبحانه من غير تكييف ولا تمثيل كسائر صفاته، وهو الطّريق الأسلم والأقوم عند أئمة العلم والفضل.

ومن آيات اللّيل تلك السّاعة التى لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً إلاّ أعطاه إياه لحديث جابر رضي الله عنه عند مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ فِى اللَّيْلِ لَسَاعَةً لاَ يُوافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْراً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ(٢)».
(قال) النّووى [فيه إثبات ساعة الإجابة كلّ ليلة ويتضمّن الحثّ على الدّعاء فى جميع ساعات اللّيل رجاء مصادفتها].

ولمّا سُئلت عَائشَةُ رضى الله عنها عن كَيْفِيَّةِ صَلاَةِ النَّبِيِّ ﷺ باللَّيْلِ؟ قَالَتْ «كَانَ يَنَامُ أَوَّلَهُ، وَيَقُومُ آخِرَهُ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ وَثَبَ، فَإِنْ كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ اغْتَسَلَ، وَإِلاَّ تَوَضَّأَ وَخَرَجَ(٣)». وحكمة ذلك أن يحقق راحة جسده ليتأهّل لما بعد ذلك من قيام وذكر وصلاة.

والذى ثبت عن النّبى ﷺ فى صلاة اللّيل أنّه كان لا يزيد فيها عن إحدى عشرة ركعة لحديث عائشة رضى الله عنها قالت «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يُوتِرُ مِنْهَا بِوَاحِدَةٍ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهَا اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ(٤)».

ولمّا كان السّلام بين كلّ ركعتين أخفّ على المصلّى من الأربع فما فوقها كان هدى النّبى ﷺ فى صلاتها أن تكون مثنى مثنى لقوله من حديث ابن عمر «صَلاَةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ وَاجْعَلْ آخِرَ صَلاَتِكَ وِتْراً(٥)».

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٢١] ومسلم [٧٥٨] وأبو داود [٤٧٣٣].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٥٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٤٦] ومسلم [٧٣٩] مطوّلا.
(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٣٦] وأبوداود [١٣٣٦] والتّرمذى [٤٤٠].
(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٣٧] ومسلم [٧٤٩] والترمذى [٤٣٧].

وكانت صلاة رسول الله ﷺ باللّيل ثلاثة أنواع وقد صحّت عنه جميعها :

(أحدها) وهو أكثرها صلاته قائما .

(والثّاني) أنّه كان يصلّي قاعدا ويركع قاعدا .

(والثّالث) أنّه كان يقرأ قاعداً فإذا بقي يسير من قراءته قام قائما [(١)] .

ويأتي فضل قيام اللّيل في المرتبة الرّابعة بعد المكتوبة والرّواتب وما تشرع فيه الجماعة كالعيد والكسوف والتّراويح وبهذا قال الجمهور ، وعند أحمد وبعض الشّافعية أنّه يلي المكتوبة في الفضل لما فيه من المشقّة والبُعد عن الرّياء والسّمعة والانقطاع عن الشّواغل والخُلوة مع الباري سبحانه ومناجاته دون النّاس .

كما أنّ تطوُّع اللّيل أفضل من تطوُّع النّهار لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال «أَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلاَةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ(٢)» . وفيه الدّليل لما اتّفق عليه العلماء من أنّ تطوُّع اللّيل أفضل من تطوُّع النّهار ويدعم حجّة من قال : إنّ صلاة اللّيل أفضل من السّنن الرّاتبة .

ولمّا كان آخر اللّيل وقت صفاء الخاطر عن الأشغال المشوّشة ، وجمع القلب وهدء الصّوت ونوم النّاس ، وأبعد من الرّياء والسّمعة ، كان من أفضل أوقات الطاعة ما كان فيه الفراغ وإقبال الخاطر لقوله ﷺ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَفْشَى السَّلاَمَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ(٣)» .

وتأتي صلاة اللّيل والتّهجُّد في الأسحار ليتجلّى هذا الاتصال بالله تعالى في صورة من التّعبُّد بهيجة بهيّة ، فتحيا بها القلوب ، وتُشحذ بها فاتر الهمم قربة إلى الله سبحانه ، ومنهاة عن الإثم وتكفيراً للسّيّئات ، ومطردة للداء عن الجسد المريض ، وفي ذلك جاء قول النّبي ﷺ من حديث بلال رضي الله عنه «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَقُرْبَةٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ مِنَ الْجَسَدِ(٤)» .

وكما قال وهب بت منبّه [قيام اللّيل يشرف به الوضيع ، ويُعزّ به الذّليل ، وصيام النّهار يقطع عن صاحبه الشّهوات ، وليس للمؤمن راحة إلاّ الجنّة(٥)] .

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ١ ص ٣٣١] .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٠٨٥٧] ومسلم [١١٦٣] وأبو داود [٢٤٢٩] .

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٢٨٠٣] وعبد الرّزاق في مصنّفه [٢٠٨٨٣] .

(٤) أخرجه في صحيح الجامع [٤٠٧٩] وأورده في المشكاة [١٢٢٧] .

(٥) أخرجه ابن أبي الدّنيا في التّهجُّد [٢٦] والمروزي في قيام اللّيل [٥٠] .

(الكتاب الرابع)
ما يصيب الإنس من شياطين الجنّ
(الباب الأوّل)
تدرّج الشّيطان فى الإغواء

لا يفتر الشّيطان الموكّل بالإنسان من أن يأمره بالمعصية ويزيّن له فعلها ويحضّه على ارتكابها بكلّ الوسائل، فهو يريد أن يظفر به فى واحدة من عدّة عقبات بعضها أصعب من بعض، لا ينزل به من العقبة الشّاقة إلى ما دونها إلاّ إذا عجز عن الظّفر به فيها وهو المعنى الوارد فى قوله تعالى﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[البلد: ١١]. وفيه تشبيه ذنوب العبد التى تضرّه بثقلها وتؤذيه بشدّتها بالعقبات التى يضعها الشّيطان أمامه ليحول دون تحقيق إيمانه الكامل بربّه تعالى والإنابة إليه والتّوكّل عليه.

وهذه العقبات لو تخطّاها الإنسان بصبر وعزيمة لاستطاع أن يجعل منها حافزا قويًا يحضّه على تخطّى الصّعاب وترغيبا مؤثّرا يدفعه للنّجاة من شرّ الشّيطان وكيده، وذكر العقبة هنا يُضرَبُ مثلا لمجاهدة النّفس والشّيطان وفيه قال الحسن رضي الله عنه [عقبة الله شديدة وهى مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه من شياطين الإنس والجنّ].

وفى قوله تعالى﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[البلد: ١٢]. تحفيز للمسلم إلى اقتحام عقبات الشّيطان وتخطّيها مهما تطلّب ذلك من جهد وتعب وإصرار، فكم من عقبة يضعها اللّعين الماكر أمام المؤمن الذى لو نجح فى اقتحامها لانتصر فى معركته الطّاحنة مع الشّيطان وهو ما نفرد له بالتّعريف على النّحو التّالى :

(العقبة الأولى)
الكفر بالله تعالى

الْكُفْرُ هو العقبة الأولى التى يريد الشّيطان أن يظفر بها من المسلم، وقصده من ذلك تغطية ما حقّه الإظهار، أمّا الْكُفْرَانُ فهو ستر نعمة المنعم سبحانه بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر: جُحود الوحدانيّة أو النّبوّة أو الشّريعة. والكُفران فى جحود النّعمة أكثر استعمالا، والكفر فى الدّين أكثر[1] والْكَفُورُ: فيهما جميعا، يقال للّيل: [كافر] لأنّه يستر الأشياء بظُلمته، ويقال للذى لبس درعا وفوقها ثوبا: [كافر] لأنّه سترها. وقال بعض العلماء الكفر أربعة أنواع :

(١) كفر إنكار. (٢) وكفر جحود. (٣) وكفر عناد. (٤) وكفر نفاق.

وهذه الأربعة من لقى الله تعالى بأحدها لم يغفر له، ومنه كُفْرُ النّعمة : كَفَرَ بها

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٥٠].

أى جحدَها ولم يشكرها ولم يشكر من قدّمها له أو كان سببا فيها، بل أنكر فضله كما فى قوله تعالى﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[العنكبوت: ٤٧].

وكَفَرَ بالله وكَفَرَ الله: أنكر وجوده، وكفر برسول الله ونبيّه ﷺ: لم يصدّقه، وكفر بكتاب الله: لم يُصدّق أنه من عند الله، وكفر بالإيمان: أى لم يعمل بما يستلزمه، وكَفَرَ الرَّجُلَ حَقَّهُ: حرمه إياه وأنكره عليه ظُلما وبغيا، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم: ٢٢]. أى تبرأتُ من إشراككم إياى مع الخالق جلّ وعلا. وأكفره: حمله على الكفر مثل كَفَّره «بالتضعيف»، ومنه قول الله تعالى﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[عبس: ١٧]. أى ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه وإنعامه عليه، وقيل [ما] استفهام توبيخ بمعنى أى شيء دعاه إلى الكُفر!.

وكَفَّرَ اللهُ تعالى السَّيِّئات أى سترها ومحاها ولم يعاقب عليها، من قوله سبحانه ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣]. والكَفُورُ: صيغة مبالغة أى شديد الكفر من قوله تعالى﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الفرقان: ٥٠]. أى إلاّ كُفْراً، والكافر غير المؤمن. وهى كافرة، والجمع كُفّارٌ وكافرون و كَفرةٌ من قوله تعالى﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[الفرقان: ٥٥]. ومنه الكَفَّارُ: كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٦[1]].

والتّفصيل التّالى يشير إلى نوعين من الكفر:

(الأول) الكفر الأكبر

وهو الكفر الموجب للخلود فى النّار ويتضمّن ستّة أنواع [[2]]:

(١) كفر التّكذيب والإنكار:

وهو اعتقاد كذب الرُّسل وهذا القسم قليل فى الكفّار، فإنّ الله تعالى أيّد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات ما أقام به الحجّة وأزال به المعذرة كما فى قوله جلّ شأنه عن فرعون وقومه:﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النّمل: ١٤]. وقوله تعالى لنبيّه ﷺ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإن سُمِّىَ هذا الكفر [تكذيب] أيضا فصحيح، إذ هو تكذيب باللّسان رغم أنّ القلب أدرك الحقّ واستيقنه.

(٢) كفر الإباء والاستكبار:

ومنه كفر إبليس فإنّه لم يجحد أمر الله تعالى ولا قابله بالإنكار، وإنّما تلقّاه بالإباء

(١) و (٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٥٠].

والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرّسول وأنّه جاء بالحقّ من عند الله ولم يُؤمن به إباءا واستكبارا، وهو الغالب على كفر أعداء الرّسل كما حكى الله عن فرعون وقومه بقولهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[المؤمنون ٤٧].

(٣) كفر الإعراض :

وهو من يعرض بسمعه وقلبه عن الرّسول ﷺ لا يُصدّقه ولا يُكذّبه ولا يُواليه ولا يُعاديه ولا يُصغى إلى ما جاء به كما فى قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف :٣]. ومن ذلك قول أحدهم للنّبى ﷺ [والله أقولُ لكَ كَلمةً : إنْ كُنْتَ صَادقًا فأنْتَ أَجَلُّ فِى عَيْنِى مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَأَنْتَ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ أُكَلِّمَكَ(١)]. بل إنّ نبيّنا الأكرم ﷺ أرفع وأعلى فى المكانة والمنزلة وأرقى فى الدّرجة عند ربّه تعالى، ولكن الظّالمين بآيات الله يجحدون.

(٤) كفر الشّك :

وفيه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه بل يشكّ فى أمره، وهذا لا يستمر شكّه إلاّ إذا ألزم نفسه الإعراض عن النّظر فى آيات صدق رسول الله ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها كما فى قول الله تعالى ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾[سورة ص :٨]. وأمّا مع التفاته إليها ونظره فيها فإنّه لا يَبقى معه شكّ لأنّها مستلزمة للصّدق ولا سيّما بمجموعها فإنّ دلالتها على الصّدق كدلالة الشّمس على النّهار.

(٥) كفر النّفاق :

النّفاق فعل المنافق وهو الدّخول فى الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر، مشتقّ من نافقاء اليربوع. وقد يُطلق على الرّياء لأنّ كليهما إظهار غير ما فى الباطن، وأساس النّفاق الذى بُنى عليه هو الكذب وأن يقول الرّجل بلسانه ما ليس فى قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنّهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح : ١١].

وفى «التّعريفات» : النّفاق إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكفر بالقلب، ولا يُطلق هذا الاسم على من يُظهر شيئا ويُخفى غيره ممّا لا يختصّ بالعقيدة، والمنافق كافر فى قلبه وظاهر حاله أنّه مُؤمن يعمل أعمال المؤمنين، وهذا هو النّفاق الأكبر الذى يُوجب الخلود فى الدّرك الأسفل من النّار، وهو أن يظهر إيمانه بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو فى باطنه مُنسلخ من ذلك كلّه مُكذّب به، لذلك كان المنافقون أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنّهاية [ج ١ ص ١٣٥] من قول حبيب بن عمرو أحد أشراف ثقيف.

والنّفاق [مُغاير للتُّقية] لأنّها إظهار المؤمن عند الخوف على نفسه ما يأمن به من أمارات الكفر أو المعصية مع كراهته لذلك في قلبه واطمئنانه بالإيمان ، كما أنّ هناك فارق بين المنافق الذى يُبطن ما لا يُظهر ، وبين من اكتسب خصلة من خصال النّفاق فكان شبيها بهم فيها حتّى يدعها ومن ذلك قوله ﷺ «مِنْ عَلاَمَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلاَثَةٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ[١]» . فيكون نفاقه في حقّ من حدّثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من النّاس لا أنّه منافق، والحديث يحمل معنى التّحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف أن تُفضي به إلى النّفاق لكونها حقيقة فيه .

(الثّانى) الكفر الأصغر

هو الكفر الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النّار، ومنه الطّعن في النّسب والنّياحة على الميّت كما في قوله ﷺ «اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ[٢]» . وقوله ﷺ في السُّنَن «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[٣]» .

وقوله ﷺ في حجّة الوداع «وَيْحَكُمْ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ[٤]» . ونهى المسلم أن يرمى أخاه بالكُفر فقال «إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا[٥]» . ونهى عن مقاتلته المقاتلة المعروفة بغير حقّ فقال «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ[٦]» . وجاء عند مسلم بلفظ «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ» .

وفي تأويل قول الله تعالى﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ . قال طاوس وغيره [ليس بكفر ينقل عن الملّة ولكنه كفر دون كفر] . وعن ابن عبّاس في رواية [أى ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يُضاهي أفعال الكفّار] .

وعن عطاء قال [هو كُفر دون كُفر ، وظُلم دون ظُلم، وفسق دون فسق] . ومنهم من أوّل الآية على ترك الحكم بما أنزل الله تعالى جاحدا له، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح، فإنّ نفس جحوده كفر سواء حكم أو لم يحكم، ومنهم من تأوّلها على الحكم بمخالفة النّص تَعَمُّدًا من غير جهل به ولا خطإ في التّأويل، والصّحيح أنّ الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكُفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم :

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٩] وافقه البخارى [٣٣] والتّرمذى [٢٦٣٢] . (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٥٠] ومسلم [٦٧] والتّرمذى [١٠٠١] . (٣) ضعّفه البخارى من قبل إسناده وصحّحه أحمد شاكروأخرجه التّرمذى (١٣٥) وأبو داود [٣٩٠٤] وابن ماجه [٥٢٨] وأورده الألبانى فى الإرواء [٢٠٠٦] والمشكاة [٥٥١] . (٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢١] ومسلم [٦٥] وابن ماجه [٣٢٠٠] . (٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١٠٤] ومسلم [٦٠] والتّرمذى [٢٦٣٥] . (٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٨] ومسلم [٦٤] والتّرمذى [٢٦٣٥] .

(١) فإنّه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعَدَل عنه عصيانا مع اعترافه بأنّه مستحقّ للعقوبة فهذا كفر أصغر.

(٢) وإن اعتقد أنّه غير واجب وأنّه مُخَيَّر فيه مع تيقُّنه أنّه حكم الله تعالى فهذا كفر أكبر.

(٣) وإن جهله وأخطأه فهذا مخطىء له حُكم المخطئين.

والقصد أنّ المعاصى كلّها من نوع الكفر الأصغر فإنّها ضدّ الشُّكر الذى هو العمل بالطّاعة، فالسّعى إمّا شُكر وإمّا كُفر، وإمّا ثالث: لا من هذا ولا من هذا [(١)].

والشّيطان إذا ظفر بهذه العقبة بردت نار عداوته واستراح وسواسه، فإن اقتحم المسلم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة وهداية وسلم معه نور الإيمان طلبه على :

(العقبة الثّانية وهى)

البدعة المستحدثة فى الدّين

البدعة ما أُحدث على خلاف الحقّ المتلقّى عن رسول الله ﷺ من علم أو عمل أو حال، بنوع شبهة أو استحسان وجعله دينا قويما وصراطا مستقيما، وفى «لسان العرب»: المبتدع الذى يأتى أمرا على شَبَه لم يكن بل ابتداه هو، وأَبْدَعَ. وَابْتَدَعَ. وَتَبَدَّعَ: أتى ببدعة ومنه قول الله تعالى﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد:٢٧]. أى أحدثوها ولم تكن مفروضة عليهم.

وفى تعريف الشّاطبى للبدعة [أنّها طريقة فى الدّين مُخترعة تضاهى الشّرعية، يقصد بالسّلوك عليها المبالغة فى التّعبّد لله تعالى(٢)]. وفى القاموس [الْمُحْدَثُ فى الدّين بعد الإكمال أو ما استُحدث بعد النّبى ﷺ من الأهواء والأعمال، وبذلك ينجلى معنى البدعة لغة وأنّها كلّ ما أُحدث على غير مثال سابق].

أمّا شرعا ففيها طريقتان :

(الأولى) أن تكون باعتقاد خلاف الحقّ الذى أرسل الله به رسوله الأكرم ﷺ.

و(الثّانية) التّعبُّد بما لم يأذن به الله سبحانه من الأوضاع والأمور الْمُحدَثة فى الدّين والتى لا يقبل الله منها شيئا.

والبدعتان فى الغالب متلازمتان وقَلَّ أن تنفكّ إحداهما عن الأخرى، والبدعة إمّا أن تكون بدعة حقيقية أو إضافية، ويأتى تفصيل كلّ واحدة منهما عند علماء الاصطلاح على النّحو التّالى [(٣)]:

---

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧]. (٢) انظر الاعتصام للشّاطبى [١ / ٣٧] والمغرب فى تعريب المعرّب [ص ٣٧]. (٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [٨ / ٣٢] والاعتصام للشّاطبى [١ / ٢٨٦-٢٨٧].

(أولا) البدعة الحقيقيّة

وهى ما كان الابتداع فيها من جميع وجوهها، فهى بدعة محضة لم يدلَّ عليها دليل شرعى لا من كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا فى الجملة ولا فى التّفصيل، ولهذا سُمّيت بدعة حقيقيّة، لأنَّها شيء مخترع على غير مثال سابق، فهى بعيدة عن الشّرع خارجة عنه مدخولة عليه.

ومن أمثلة البدعة الحقيقيّة:

(١) التّقرُّب إلى الله تعالى بالرّهبانيّة وترك الزّواج مع وجود الدّاعى إليه وفقد المانع الشّرعى كرهبانيّة النّصارى المذكورة فى قوله تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]. فكان التَّرَهْبُنُ بعد البعثة المحمّدية لغوا باطلا وكفرا محضا، كما أنّ الآية لا تتعلّق بهذه الأُمّة إذ لا رهبانيّة فى الإسلام فهى منسوخة فى ديننا بمثل قول النّبى ﷺ «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي[١]».

(٢) تحكيم العقل فى مجال التّشريع بالتّحسين والتّقبيح ورفض النّصوص فى دين الإسلام وقد قال تعالى فى التّنزيل ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

(٣) الطّواف بغير البيت الحرام كالأضرحة ووضع الهياكل على القبور وتعليق الشّموع والمصابيح عليها، إلى غير ذلك من المخترعات التى لم يقم دليل عليها لا باعتبار جملتها ولا باعتبار تفصيلها، فهى بدع حقيقيّة لا يصحّ التّقرّب بها إلى الله تعالى، ومن تقرّب بها فقد تقرّب إلى الله بما لم يشرّع [[٢]].

(ثانيا) البدعة الإضافية

والبدعة الإضافية هى التى لها شائبتان:

(إحداهما) لها من الأدلّة مُتعلّق فلا تكون من تلك الجهة بدعة.

(والأُخرى) ليس لها مُتعلّق إلاّ مثل ما للبدعة الحقيقيّة.

ولمّا كان العمل الذى له شائبتان لم يتخلّص من أحد الطّرفين اختير له مسمّى «الْبِدْعَةُ الإِضَافِيَّةُ» أى أنّها بالنّسبة إلى إحدى الجهتين «سُنَّة» لأنّها مستندة إلى دليل، وبالنّسبة للجهة الأخرى «بِدْعَة» لأنّها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل أو غير مستندة إلى شيء [[٣]].

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٠١] والنّسائى [٣٢١٧] وأحمد [٣٢١٧].

(٢) انظر كتاب الإبداع فى مضارّ الابتداع للشّيخ علي محفوظ [ص ٥٨].

(٣) الشّائبةُ وجمعها شوائِبُ: الشّيْءُ الغريبُ يختلطُ بغيره. ويقال ما فيه شائبة، أى ليس فيه شبهة.

وبمعنى آخر فإنّ الفرق بينهما :
(١) من جهة المعنى : أنّ الدّليل عليها من جهة الأصل قائم.
(٢) ومن جهة الكيفيّة أو الأحوال أو التّفاصيل فالدّليل غير قائم.

وهذا النّوع من البدع الإضافية هو مثار خلاف بين المتكلّمين فى البدع والسّنن ولها أمثلة كثيرة نذكر منها :

(١) أنّ الأذان فى ذاته مشروع، وباعتبار ما عرض له من التّطريب والتّغنى به و إخراج كلماته عن أوضاعها العربيّة وكيفيّتها الشّرعية محافظة على توقيع هذه الألحان فبدعة قبيحة.

(٢) أنّ الأذان من حيث هو قربة لله تعالى وإعلام بالإسلام، وباعتبار كونه للعيدين أو للكسوفين فإنّه بدعة.

(٣) أنّ الاستغفار فى ذاته سُنَّةٌ وباعتبار هيئته عقب الصّلاة من رفع الصّوت واجتماع المستغفرين فى المسجد فهو بدْعَة.

(٤) والأذان يوم الجمعة أبعد صعود الخطيب المنبر فهو فى ذاته مشروع، وبالنّظر إلى مكانه داخل المسجد فَمُبْتَدَعٌ.

(٥) أنّ قراءة القرآن والذّجر باعتبار ذاتهما مشروعان، وباعتبار ما عرض لهما من رفع الصّوت فأمام الجنازة غير مشروع، وكذا وضعهما فى ذلك الموضع غير مشروع، فرفع الصّوت بهما مُبْتَدَعٌ من جهتين، من جهة موضعه ومن جهة كيفيّته.

(٦) أنّ الذّكر بعد الصّلاة فإنّه من جهة كونه قرآن وذكر ودعاء فمشروع، ومن جهة ما عرض له من رفع الصّوت على الوجه المعروف وفى المسجد فغير مشروع.

(٧) الصّلاة والسّلام على النّبى ﷺ عقب الأذان مع عدم رفع الصّوت بهما فمشروعان باعتبار ذاتهما، ولكنّهما بدعة باعتبار ما عرض لهما من الجهر وجعلهما من جملة ألفاظ الأذان [[1]].

إلى غير ذلك من كلّ عمل له شائبتان بحيث يكون مشروعا باعتبار، وغير مشروع باعتبار آخر، ونخلص من ذلك إلى مسألتين:

(الأولى) أنّ من يُنكر البدعة الإضافيّة إنّما ينكرها بالاعتبار الثّانى، فإنّ الاعتراض عليه منشؤه عدم الدّراية بحقيقة البدعة وبما يقصده المنكر لها.

(الثّانية) أنّ صاحب البدعة الإضافيّة يتقرّب إلى الله تعالى بمشروع وغير مشروع كما

---

(١) انظر كتاب الإبداع فى مضار الابتداع [ص ٥٨ ـ ٥٩].

هو واضح من الأمثلة السّابقة، والتّقرُّب يجب أن يكون بمحض المشروع إذ لا يقرَّب العبد إلى الله تعالى إلاّ العمل بما شرّع وعلى الوجه الذى شرَّع، فكما يجب أن يكون العمل مشروعا باعتبار ذاته، يجب أن يكون مشروعا باعتبار كيفيّته كما يفيده قوله ﷺ عند الشّيخين «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَاهَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ[1]».

ولذلك كان من أهمّ أسباب ظفر الشّيطان بالمسلم فى عقبة البدعة:

(١) أنّها أحبّ إليه لمناقضتها أحكام الدّين ودفعها لما بعث الله به رسوله ﷺ ولكون المبتدع قد خَلَط عملا صالحا وآخر سيّئا.

(٢) وأنّ صاحبها لا يتوب منها بل يرى أنّ كلّ ما يعمله حسن، ولا توبة لمن لا يعرف لنفسه ذنبا، ولهذا قال سُفيان الثّورى [إنّ البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية لأنّ البدعة لا يُتاب منها والمعصية يُتاب منها].

(٣) أنّ المبتدع لا يرجع عن البدعة بل يدعو الخلق إليها وبذلك يتّخذ لنفسه دينا لم يشرعه الله ورسوله بل زيّن له سوء عمله فرآه حَسَنًا.

(٤) ولتضمّنها القول على الله تعالى بغير علم ومُعاداة صريح السُّنّة ومُعاداة أهلها ومُحاربة هديها والبُعد عن مسلكها وطريقها.

كما أنّ الأدلّة التى تشير إلى ذمّ البدع تتأكّد من عدّة وجوه:

أوّلها - أنّ الشّريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزّيادة ولا النّقصان لقوله تعالى﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣]. فالمبتدع لو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كلّ الوجوه لم يكن ليبتدع، فكأنّه ببدعته يقول أنّ الشّريعة لم تتمّ وأنّه بقيت فيها أشياء يجب أو يستحبّ استدراكها، وقد قال الإمام مالك [من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنّ محمّداً ﷺ خان الرّسالة].

الثّانى - أنّ المبتدع مُعَاندٌ للشّرع ومُشَاقّ له لأنّ الشّارع قد عيّن لمطالب العبد طرقا خاصة على وجوه خاصّة وقصر الخلق عليها بالأمر والنّهى والوعد والوعيد وأخبر أنّ الخير فيها، وأنّ الشّر فى تعدّيها لأنّ الله تعالى يعلم ونحن لا نعلم، والمبتدع رادٌّ لهذا كلّه فإنّه يزعم أنّ ثَمَّ طُرقا أُخر ليس ما حصره الشّارع بمحصور ولا عيّنه بمتعيّن، كأنّ الشّارع يعلم وهو أيضا يعلم بل ربّما يفهم من استدراكه أنّه عليم بما لم يعلمه الشّارع الحكيم، فإن كان هذا هو مقصود المبتدع فهو بلا شكّ كفر بالشّريعة والشّارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين.

(١) .أخرجه البخارى [٢٦٩٧] ومسلم [١٧١٨].

(الثّالث) أنّ المبتدع قد أنزل نفسه منزلة المضاهيء للشّارع حيث شرّع معه وفتح للاختلاف بابا وردّ قصد الشّارع في الانفراد بالتّشريع.

(الرّابع) أنّه اتّباع للهوى لأنّ العقل إذا لم يكن تبعا للشّرع لم يبق إلاّ الهوى والشّهوة، والآيات الدّالة على ذلك كثيرة منها قول الله سبحانه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٥٠]. وهذا يبين أنّه هدى وهوى، فهذا المبتدع اتبع الهوى وقدّمه وترك الهدى وأخّره، [وهدى الله هو القرآن وسنّة نبيّه ﷺ، فإذا ثبت أنّ الأمر دائر بين الشّرع والهوى تزلزلت قاعدة حكم العقل المجرّد[١]]. كما يأتي الدّليل على ذمّ البدع من ناحية النّقل من عدّة وجوه:

(١) ما جاء في القرآن الكريم ممّا دلّ على ذمّ البدع ومن ابتدع في دين الله تعالى في الجملة ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٠٥]. قال قتادة: يعني أهل البدع، وفي تفسير قول الله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[آل عمران:١٠٦]. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّة وتَسْوَدُّ وُجوهُ أهل الْبدْعَة].

(٢) ما جاء في الأحاديث المنقولة عن النّبي ﷺ عندما حثّ كلّ مسلم أن يتمسّك بهدى السُّنَّة وأن يَعَضّ عليها بالنّواجذ كما في قوله ﷺ «أُوصيكُمْ بتَقْوَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَة وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُم عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتلافًا كثيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجذ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُور، فَإِنَّ كُلَّ بدْعَة ضَلاَلَةٌ[٢]». وجاء بلفظ «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَديث كتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّد ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَة ضَلاَلَةٌ[٣]». وفي لفظ للنّسائي «وَكُلُّ بدْعَة ضَلاَلَةٌ وَكُلُّ ضَلاَلَة في النَّار». وعند مسلم «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَة كَانَ عَلَيْه منَ الإِثْم مثْلُ آثَام مَنْ تَبعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلكَ منْ آثَامهمْ شَيْئًا[٤]».

كما حذّر رسول الله ﷺ من أن يُحدثَ المرءُ في الدّين ما ليس منه وهو منطوق قوله عند مسلم «مَنْ عَملَ عَمَلاً لَيْس عَلَيْه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ[٥]». ورواه أبوداود بلفظ «مَنْ صَنَعَ أَمْرًا عَلَى غَيْرِ أَمْرِنَا فَهُوَ رَدٌّ[٦]». وجاء عند البخاري قوله «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ

(١) انظر الاعتصام للشّاطبي [ج ١ ص ٣٥] بتصرّف.
(٢) حديث صحيح بمجموع طرقه أخرجه التّرمذي [٢٦٧٦] وابن ماجه [٤٠] وأبوداود [٤٦٠٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٦٧] والنّسائي [١٥٧٧].
(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٤] وأبو داود [٤٦٠٩] والتّرمذي [٢٦٧٤].
(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧١٨/١٨] وأحمد [٢٥٠٠٨].
(٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٠٦].

فيه ـ مِنْهُ ـ فَهُوَ رَدٌّ[1]» . ومُحدثات الأمور ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التى كان السّلف الصّالح على غيرها ، من قوله ﷺ «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» . والمُحدَثات جمع مُحدَثة [بالفتح] وهى ما لم يكن معروفا فى كتاب ولا سُنّة ولا إجماع ، وعلى هذا المعنى تلتقى المُحدثات مع البدعة على المعنى الثّانى وهو مقصود قول النّبى ﷺ «وَشَرّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» .

فالبدعة فى عرف الشّرع [مذمومة] بخلاف اللّغة ، فإنّ كلّ شىء أحدث على غير مثال يُسَمّى [بدعة] سواء كان محمودا أو مذموما ، وكذا القول فى المحدثة وفى الأمر المحدث كما فى حديث عائشة رضى الله عنها « مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» . كما أنّ قول النّبى ﷺ فى حديث العرباض رضي الله عنه «فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» بعد قوله «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» يدلّ على أنّ الْمُحْدَثَ يسمّى بدعة ، كما أنّ قوله «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» : يعتبر واحدة من الكلّيات الشّرعية منطوقا ومفهوما :

(١) أمّا منطوقها فكأن يقال [حُكم كذا بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة] . فلا تكون من الشّرع لأنّ الشّرع كلّه هُدى .

(٢) وأمّا مفهومها فإنّ ما أُحدث ولا دليل له من الشّرع بدليل خاصّ ولا عامّ فهو بدعة .

وقد أخرج أبو نعيم عن الشّافعى قوله [البدعة بدعتان : محمودة ومذمومة ، فما وافق السُّنّة فمحمود ، وما خالفها فهو مذموم] . وما أخرجه البيهقى فى مناقبه قال «المحدثات ضربان : ما أُحدث يُخالف كتابا أو سُنّة أو أثرًا أو إجماعا فهذه بدعة الضّلال ، وما أُحدث من الخير لا يخالف شيئا من ذلك فهذه مُحدثة غير مذمومة» . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال «قَدْ أَصْبَحْتُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَإِنَّكُمْ سَتُحْدِثُونَ وَيُحْدَثُ لَكُمْ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُحْدَثَةً فَعَلَيْكُمْ بِالْهَدْىِ الأَوَّلِ[2]» .

والبدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتّى ينسلخ صاحبها من الدّين كما تنسلّ الشّعرة من العجين ، إذ مفاسد البدع لا يقف عليها إلاّ أرباب البصائر أمّا الْعُمْيَانُ فهُم فى ظلمة العمى ضالّون وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النّور : ٤٠] .

وللعلماء فى تعريف مسمّى البدعة قولان :

(الأوّل) أنّه ليس فى البدع ما هو مُستحسن بل كلّ البدع ضلالة فمن ظنّ أنّ بدعة من البدع حَسَنَة فإنّها لا تخلو من أمرين :

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٦٩٧] ومسلم [١٧ / ١٧١٨] وابن ماجه [١٤] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٢٦٧] .

* إمّا أنّها ليست بدعة وظنّها هو أنّها بدعة.

* وإمّا أنّها ليست حَسَنَة، وظنّ هو أنّها حسنة.

فأمّا أن تكون بدعة وحسنة فهذا مستحيل لتناقض ذلك مع قول النّبى ﷺ «فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ». فعندما تكون «البدعة فى الدّين» تتأكّد «الضّلالة عن الهدى[1]».

(الثّانى) أنّ كلّ ما أُبْدِعَ ليس منهيّا عنه بل المنهىّ عنه بدعة تضادّ سُنَّة ثابتة وترفع أمرا من الشّرع مع بقاء علّته، وقد يجب الإبداع فى بعض الأحوال إذا تغيّرت الأسباب، ولذلك أطلق العلماء مسمّى «البدعة» على المعنى الذى يتناول الحسن منها والقبيح، أو ما يقبله الشّرع منها وما لا يقبله، فقسّموا ذلك إلى أقسام ثمّ قاسوا كلّ قسم منها على حُكم من الأحكام الخمسة المعروفة و[هى] الوجوب والنّدب والإباحة والتّحريم والكراهة، ليأتى حُكم العلّة على ضوء اندراجها تحت مسمّى البدعة، وخلُص من قال بذلك إلى تقسيم البدعة إلى الأقسام الخمسة المذكورة.

واستكمالا لهذا المبحث فإنّنا نورد فيما يلى تعريفًا عن:

«السُّنَّة النّبويّة»

السُّنَّةُ فى تعريف اللُّغة هى السّيرة والطّريقة، وقيل: الصّورة والمثال، والجمع [سُنَنٌ] وأغلب استعمال «السُّنَّة» فى الطّريقة المحمودة المسلوكة فى الدّين ومنه قول الله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾[آل عمران:١٣٧]: أى طرق وعادات لأقوام مَضَوْا قبلكم، ومنه قوله ﷺ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[2]».

والسُّنَّةُ عند الفقهاء لها [معان عدّة[3]] منها:

* أنّها اسم للطّريقة المسلوكة فى الدّين من غير افتراض ولا وجوب، كما تُطلق على الفعل إذا واظب عليه رسول الله ﷺ أو دلّ دليل على وجوبه.

* وأنّها ما طُلب فعله طلبا مُؤكّدا غير جازم فهى بهذا المعنى [حكم تكليفى يقابلها الواجب والفرض والحرام والمكروه والمباح].

* وأنّها ما يستحق الثّواب بفعله ولا يعاقب على تركه، كما تُطلق أيضا على دليل من أدلّة الشّرع.

وتعرف السُّنَّة فى الاصطلاح بأنّها [الطّريقة المسلوكة الجارية فى الدّين من غير

---

(١) انظر الأربعين النّوويّة بشرح ابن العثيمين [ص ١٠٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٧].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٩٧ - ٣٠٠].

افتراض ولا وجوب سواء سلكها رسول الله ﷺ وغيره ممن هو علم في الدين، فهي في «العبادات»: النوافل والمستحبات، وفي «الأدلة»: ما صدر عن رسول الله ﷺ غير القرآن من قول وفعل وتقرير، وعند [الأصوليين] ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير].

ويُعطي الحاكمُ النيسابوري وغيرُه من الحُفّاظ:

* حديث عمر رضي الله عنه «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى[1]». مثالا على «القول».

* وقول عائشة رضي الله عنها «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لاَ يُفْطِرُ، وَكَانَ يُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لاَ يَصُومُ[2]». مثالا على «الفعل».

* وحديث ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ قال «لاَيُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ[3]». مثالا على «التقرير».

وأجمعوا أنّ السُّنَّةَ مُبيّنة للكتاب الكريم ومُفصّلة لمجمله، وهي تخصيص لعامّه وتقييد لمطلقه، كما أنّها دليل شرعي مستقلّ للأحكام الشّرعيّة، وبيان لقوله جلّ شأنه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النّحل: ٤٤].

وأوجب سبحانه وتعالى طاعة ما أمر به النّبيّ ﷺ فقال ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النّجم: ٣-٤]. وفي تفسير الآية قال ابن حزم [هو وحيٌ مرويٌّ منقولٌ ومقرّر، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ المبيّن عن الله عزّ وجلّ مراده كما في قوله تعالى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣].

لذلك نصّ القرآن الكريم على وجوب طاعة رسول الله ﷺ فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النّساء: ٥٩].

وقالوا الرَّدُّ إلى [الرّسول] أي إلى سنّته ﷺ بالاحتكام إليها بعد وفاته، كما افترض الإيمان وجوب أن يقبل المسلم جميع ما ورد عن النّبي ﷺ في أمر الدّين ووجوب اتّباعه فقال تعالى ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

والله تعالى تكفّل بحفظ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة كما تكفّل بحفظ كتابه الكريم فقال

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٤] ومسلم [١٩٠٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٥٧] وافقه البخاري [١٩٧١] وابن ماجه [١٣٩٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤١١٩] ومسلم [١٧٧٠].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر : ٩] . لأنّ السُّنَّة مبيّنة للكتاب ولا غنى للمبيّن عن بيانه كما فى قول الله تعالى﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة : ١٩] .

فَالسُّنَّة النّبويّة المطهّرة مصدر لأحكام الشّرع تلى القرآن الكريم رتبة ، فهو أصل وهى فرع ، والأصل مُقدَّم على الفرع ، وكذلك البيان الشّارح مُؤخَّر عن البيان المشروح [(١)] .

والسُّنّة المرويّة عند جمهور العلماء قسمان :

(الأوّل) سُنَّة الآحاد وهى عند الجمهور الخبر الذى لم يبلغ رواته حدّ التّواتر قلّوا أو كثروا . وعند الأحناف ما ليست بمتواترة ولا مشهورة [(٢)] .

(الثّانى) السُّنّة المشهورة وهى الخبر المتواتر المتتابع المتّصل بنا عن رسول الله ﷺ قطعا ويقينا بحيث لم يتوهّم فيه شبهة الانقطاع ، وعبروا عنه بأنّه الخبر الذى بلغت رُواته فى كلّ عصر من العصور الثّلاثة الأولى مبلغا من الكثرة تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، وقد مثّلوا لها بقول النّبى ﷺ «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ(٣)» . ولفظه عند مسلم «وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ» .

كما أفاد العلماء أنّ سُنن العبادات نوعان :

(الأوّل) سُنَنُ الْهَدْيِ ومنها :

(١) السُّنَن المؤكّدة كالأذان والإقامة والمضمضة والاستنشاق على رأى .

(٢) والسُّنَن الرّواتب وهى السُّنَن التّابعة لغيرها ، أو التى تتوقّف على غيرها ، أو على ما له وقت معيّن كالعيدين والضّحى والتّراويح ، كما يُطلقها الفقهاء على الصّلوات المسنونة قبل الفرائض وبعدها لأنّها لا يشرع أداؤها وحدها بدون تلك الفرائض .

(الثّانى) سُنَن الزَّوَائِد وهى التى تكون إقامتها حسنة ولا يتعلّق بتركها كراهة ولا إساءة كأذان المنفرد والسّواك .

فإن قطع المسلم عقبة البدعة وخلص منها بنور السُّنَّة واعتصم معها بحقيقة المتابعة والمراقبة وما مضى عليه السّلف الأخيار ووفّقه الله لقطع هذه العقبة طلبه العدوّ على :

(العقبة الثّالثة)

وهى الكبائر

الكبيرة فى اللُّغة الإثم وجمعها كبائر ، [قال] الرّاغب : [هى متعارفة فى كلّ ذنب تعظُم

---

(١) انظر المستدرك على الصّحيحين للإمام الحاكم [ج ١ ص ١٦ - ١٧ المقدّمة] .

(٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٩٩] و [ج ٣ ص ٢١١] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٥١٤] ومسلم (١٧١١) والتّرمذى [١٣٤١] واللّفظ له .

عقوبته]. وفى الاصطلاح [هى ما كان حراما محضا وشرعت عليه عقوبة محضة بنص قاطع فى الدّنيا والآخرة. [أو] هى ما يترتّب عليها حدّ أو توعّد عليها بالنّار أو اللّعنة أو الغضب، وهذا من أمثل الأقوال(١)].

والذّنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنصّ القرآن وهدى السُّنّة وإجماع السّلف وبالاعتبار، قال الله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النّساء: ٣١]. وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النّجم: ٣٢]. ومن مكفّرات ذلك قوله ﷺ «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ(٢)».

فمن أكبر الكبائر كما فى قول النّبى ﷺ «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ(٣)». ولمّا سألوا النّبى ﷺ عن المُوبقات السّبع قال «الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ(٤)». وسمّيت هذه الأثام «بالموبقات» لأنّها سبب لإهلاك «مرتكبها». والمراد بها هنا «الكبيرة» كما سمّاها الخالق سبحانه فى التّنزيل الحكيم ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشّورى: ٣٧].

واختلف العلماء من الصّحابة والتّابعين فى الكبائر وقالوا إنّها من أربع إلى سبع ومن سبع إلى تسع فما فوق ذلك، وأشاروا إلى أنّ كلّ ذنب غلّظ الشّرع التّوعّد عليه بالعقاب وشدّده، أو عظّم ضرره فى الوجود فهو كبيرة وما عداه صغيرة. ولمّا قيل لابن عبّاس رضي الله عنهما: الْكَبَائِرُ سَبْعٌ ؟ قال: هى إلى السَّبْعين أَقْرَبُ. (أو) قال [هى إلى السَّبْعمائة أَقْرَبُ منها إلى السَّبْع، غير أنّه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار]. و(قال): «كُلُّ شَىْءٍ عُصِىَ اللهُ بِهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، من عمل شيئا منها فليستغفر اللهَ، فَإِنَّ اللهَ تعالى لا يُخلِّدُ فى النّار من الأُمّة إلاّ من كان راجعا عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذّبا بالقدر(٥)».

وقيل: [الصّغائر ما دون الحدّين، والكبائر ما تعلق بها أحد الحدّين، والمراد بهما: عقوبتا الدّنيا والآخرة. فكلّ ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدُّنيا كالزّنا وشُرب الخمر والسّرقة والقذف. أو عليه وعيد فى الآخرة: كأكل مال اليتيم والشُّرب فى آنية الذّهب والفضّة، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته للأمانة، ونحو ذلك فهو من الكبائر.

---

(١) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ١٣٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦ / ٢٣٣] والتّرمذى [٢١٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٦٥٣] ومسلم [٨٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٧٦٦] ومسلم [٨٩] وأبو داود [٢٨٧٤].

(٥) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ٣٢١].

ولمّا سُئل ابن أبى طلحة رضي الله عنه عن الكبائر قال: [هى كلّ ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة أو عذاب]. وعن سفيان الثّورى قال [الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد. والصّغائر: ما كان بينك وبين الله تعالى لأنّ الله كريم يعفو]. وقيل: [الكبائر: ذنوب المستحلّين مثل ذنب إبليس، والصّغائر: ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السّلام، أمّا المستحلّ فذنبه دائر بين الكفر والتّأويل، فإن كان عالما بالتّحريم فكافر، وإن لم يكن عالما به فمتأوّل أو مقلّد، وأمّا المستغفر: فإنّ استغفاره الكامل يمحو كبائره وصغائره، فلا كبيرة مع الاستغفار[2]].

و(قال) ابن الصّلاح [كلّ ذنب كَبُرَ وعَظُمَ يصحّ معه أن يُطلق عليه اسم «الكبيرة» ووُصف بكونه عظيما على الإطلاق، قال: فهذا حدّ الكبيرة، ثمّ إنّ للكبائر أمارات منها: «إيجاب الحدّ»، ومنها «الإيعاد» عليها بالعذاب بالنّار ونحوها فى الكتاب والسُّنّة، ومنها وصف فاعلها «بالفسق نصّا»، ومنها «اللّعن»: [كلعن الله سبحانه من غيّر مَنَار الأرض[3]]. وهو ما يُوضع بين الشّيئين لتبيين الحدود وتمييزها.

ولعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فى الكبائر قولا حسنا من طريق الاستنباط وقد سُئل عن الكبائر فقال [اقرأ من أوّل سورة النّساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله تعالى ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[النّساء: 31]. فكلّ ما نهى الله تعالى عنه من أول السّورة إلى ها هنا فهو من الكبائر[4]].

[فأشبه هذا استدلالا قولَ ابن عبّاس رضي الله عنه فى استنباط «ليلة القدر» أنّها ليلة «سبع وعشرين» عندما عدّ كلمات «سُورَةَ الْقَدْرِ» حتّى انتهى إلى قول [هِيَ] فكان سبعا وعشرين كلمة، والله تعالى أعلم بحقيقة هذين القولين[5]].

وعن أبى طالب المكيّ قال [الذى عندى فى جملة ذلك مجتمعا من المتفرّق «سبع عشرة» تفصيلها:

(1) أربعة من أعمال القلوب وهنّ الشّرك بالله تعالى، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله تعالى، والأمن من مكر الله تعالى.

(2) وأربعة فى اللّسان وهنّ شهادة الزّور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسّحر.

---

(1) انظر مدارج السّالكين [ج 1 ص 327].

(2) انظر مدارج السّالكين [ج 1 ص 323].

(3) انظر نووى مسلم [ج 1 ص 363].

(4) أخرجه الحاكم [195] وافقه الذّهبى فى التّلخيص على شرط الشّيخين.

(5) انظر المذاهب الأربعة للجزيرى [ج 5 ص 459].

(٣) وثلاثة فى البطن وهى شرب الخمر والسُّكر من الأشربة، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الرّبا وهو يعلم.

(٤) واثنتان فى الفرج وأن يعمل عمل قوم لوط فى الأدبار.

(٥) واثنتان فى اليدين وهما القتل والسّرقة.

(٦) وواحدة فى الرّجلين وهى الفرار من الزّحف.

(٧) وواحدة فى جميع البدن وهى عقوق الوالدين].

فهذه الكبائر الموبقات التى من اجتنبها كفّرت عنه السّيئات وثبتت له النّوافل من الفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام لقول الله تعالى﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النّساء: ٣١].

ولمّا قال العلماء إنّ الكبائر ما نهى الله عنه من الذّنوب العظام، كانت [صغائر السّيئات] مُقدّمات لها وتوابع ممّا يجتمع فيه الصّالح والفاسق مثل النّظرة واللّمسة وأشباهها، ودليل ذلك قول النبى ﷺ «إنَّ اللّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنى أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ[(٢)]». وفيه الدّلالة على أنّ الصّغائر تكون من جنس المقدّمات والكبائر من جنس المقاصد والغايات.

وعلى ذلك فإنّ المنهى عنه فى الحديث قسمان:

(أحدهما) ما هو مُشتمل على المفسدة بنفسه وفعله مُنْشِئٌ للمفسدة فهذا كبيرة كقتل النّفس والسّرقة والقذف والزّنا.

(والثّانى) ما كان من مقدّمات ذلك وتوابعه، كالنّظر واللّمس والحديث والقُبلة الذى هو مُقدّمة الزّنا فهو من الصّغائر.

ويُورد الحليمى فى «المنهاج» تفصيلا لذلك فيقول [ما من ذنب إلاّ وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصّغيرة كبيرة بقرينة تُضَمُّ إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة كذلك، إلاّ الكفر بالله تعالى فإنّه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة].

[أمّا غيره فينقسم إلى فاحش وأفحش: كقتل النّفس بغير حقّ فإنّه (كبيرة) فإن قتل أصلا، أو فرعا، أو ذا رَحم، أو بالحَرَم، أو بالشّهر الحرام فهو فاحشة، والزّنى «كبيرة»: فإن كان بحليلة الجار، أو بذات رحم، أو فى شهر رمضان، أو فى الحرَم، فهو فاحشة، وشرب الخمر من «الكبائر»: فإن كان فى شهر رمضان نهارا، أو فى الحرَم، أو جاهر به فهو فاحشة].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٧] وافقه البخارى [٦٢٤٣] وأبو داود [٢١٥٢].

وخلاصة القول: أنّ المعتمد من الكبائر ما ورد [مرفوعا] بغير تداخل من وجه صحيح وهي [السّبعة المذكورة] في الحديث، والانتقال عن الهجرة، والزّنى، والسّرقة، والعُقوق، واليمين الغموس، والإلحاد في الحرم، وشرب الخمر، وشهادة الزّور، والنّميمة، وترك التّنزّه من البول، والغُلول، ونكث الصّفقة، وفراق الجماعة.

فتلك عشرون خصلة تتفاوت مراتبها بالنّسبة إلى ما يكثُر ضرره ويعظُم عقابه، والمُجمَع على عدّه من ذلك أقوى من المختلف فيه، إلاّ ما عضّده القرآن الكريم أو الإجماع، فيلحق بما فوقه، ويجتمع من المرفوع ومن الموقوف ما يُقاربها، وفي تحديد النّبي ﷺ الكبائر في الحديث «بسبْع» إعلام بالمذكورات أولا ثمّ أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزّائد، أو أن الاقتصار قد وقع بحسب المقام بالنّسبة للسّائل أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك[1]].

ونعرض فيما يلي لبعض هذه الكبائر على نحو مفصّل:

(أ) الشّرك بالله تعالى

والشّرك بالله كُفر بالخالق العظيم وجحود ظاهر واعتداء صريح على مقام الألوهيّة المقدّس، فلا يصدر إلاّ عن سفيه جاهل بنفسه وبكلّ ما حوله من المظاهر الدّالة دلالة واضحة على أنّ الله تعالى واحد لا شريك له، والشّرك بالله أن يجعل لله تعالى ندًّا وشريكًا، والنِّدُّ: المِثْلُ والنّظيرُ وجمعه أندادٌ ومنه قوله تعالى﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]. أي أكفاء وأمثالا ونظراء، والنِّدُّ في القاموس [الشّبيه والنّظير. (أو) المشاركُ والمِثْلُ لكنّ المِثْلَ أعمّ، فكلُّ مثلٍ ندٌّ وليس كلّ ندٍّ مثْلاً[2]].

فمن جعل لله ندًّا من خلقه وشريكا فيما يستحقّه عزّ وجلّ من الإلهيّة والرّبوبية فقد كفر بإجماع الأمّة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال «سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لله ندًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». وفي رواية «أَنْ تَدْعُوَ لله ندًّا وَهُوَ خَلَقَكَ[3]».

والشّرك أكبر من كلّ ذنب وأعظم من كلّ كبيرة وهو الذي لا يُغفر وما دونه يُغفر كما جاء في قول الله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النّساء:٤٨]. وفي الآية دليل على أنّ كلّ ما سوى الشّرك مغفور، ومعنى قوله تعالى﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: أي اختلق ذنبا غير مغفور. يقال «افْتَرَى فُلَانٌ الْكَذِبَ» إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفرى بمعنى القطع، ومن ذلك قوله ﷺ عن ربّه تعالى «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ

(١) انظر فتح الباري [ج ١٢ ص ١٩٠ - ١٩١].

(٢) انظر المطّلع [ص ٢٤٦] والمفردات [ص ٤٨٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٥٢٠] ومسلم [٨٦] وأبو داود [٢٣١٠].

فَاجْتَالَتْهُمْ عنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا[١] ». وقوله «فَاجْتَالَتْهُمْ»: أى استخفوا بهم فذهبوا بدينهم وأزالوهم عمّا كانوا عليه من التّوحيد والعبادة وحبسوهم عن شرعهم وصدّوهم عن الهدى والرّشاد.

والشّرك الذى يكفر به صاحبه نوعان:

(الأوّل) شرك فى الإلهيّة وهو أن يجعل لله تعالى نِدًّا أى مثلا فى عبادته، أو محبّته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشّرك الذى لا يغفره الله تعالى إلاّ بالتّوبة منه لقوله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨]. وقوله ﷺ «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ[٢]». وفى رواية «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَبَشَّرَنِي: أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ[٣]».

(الثّانى) الشّرك فى الرّبوبية، فإنّ الله تعالى هو المالك المدبّر، والمعطى المانع، والخافض الرّافع، والمعزّ المذلّ، فمن شهد بعكس ذلك فقد أشرك فى ربوبيّته، فهو سبحانه المستحق للعبادة لذاته، لأنّه المألوه المعبود الذى تَأْلَهُهُ القلوب وترغب إليه النّفوس وتفزع له المخلوقات فى الشّدائد والملمّات، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبوديّة الحقّة له سبحانه.

والشّرك على ثلاث مراتب:

(الأولى) اعتقاد شريك لله تعالى فى أُلوهيّته وهو الشّرك الأعظم، وهو المراد بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النّساء: ٤٨]. وقوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[الزّخرف: ١٥]. وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النّبى ﷺ «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ[٤]».

(الثّانية) اعتقاد شريك لله تعالى فى الفعل وهو قول من قال إنّ موجودا ما غير الله تعالى يستقلّ بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونه إلهاً ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

(الثّالثة) الإشراك فى العبادة التى أمر الخالق سبحانه بفعلها له بأن يفعلها لغيره وهو المشار إليه فى قوله تعالى:

* ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢٦٤].
* ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[النّساء: ٣٨].

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٦٥]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٣]. (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٤] واللفظ البخارى [٧٤٨٧]. (٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٠٦].

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٦].

ومن الرّياء إظهار الجميل ليراه النّاس لا لاتباع أمر الله تعالى كمن يُرى النّاس أنه يصلّى طاعة وهو يصلّى تقيّةً كالفاسق يُرى أنه يصلى عبادة وهو يُصلّى ليقال إنه يُصلّى، وحقيقة الرّياء طلب ما فى الدّنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة فى قلوب النّاس، ومن ذلك قوله ﷺ من حديث جندب «مَنْ يرَاءِ يرَاءِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ»[1].

وعن أبى سعيد رضي الله عنه قال «خَرجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّال. فَقَالَ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدى مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّال ؟ قَالَ: قُلْنَا بَلَى. فَقَالَ الشِّرْكُ الْخَفِىُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ[2]». وعن شدّاد بن أوس رضي الله عنه قال «كُنَّا نَعُدُّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ الرِّيَاءَ الشِّرْكُ الأَصغَرُ[3]». وجاء فى رواية «مَنْ صَلَّى وَهُوَ يُرائى فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ وَهُوَ يرائى فَقَدْ أَشركَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ وَهُوَ يرائى فَقَدْ أَشْرَكَ».

وعلى ذلك فإنّ الرّياء يأتى على ثلاثة وجوه:

(الأوّل) أن يعقد فى أصل فعله لغير الله تعالى ويريد به أن يعرف أنّه لله تعالى، فهذا من قبيل النّفاق والتّشكُّك فى الإيمان.

(الثّانى) أن يدخل فى الشّىء لله تعالى فإذا اطّلع عليه غير الله نَشِطَ، فهذا إذا تاب يزيد أن يُعيد جميع ما عمل.

(الثّالث) أن يدخل فى العمل بالإخلاص ويخرج به لله تعالى ليُعرف بذلك ويمدح عليه فيسكنُ إلى مدحهم، فهذا هوالرّياء الذى نهى الله تعالى عنه.

فما كُلّفَ المؤمن بإظهاره من العمل فلا يدخل فيه إلاّ بالإخلاص، وما لم يُكَلَّفْ بإظهاره فينبغى ألاّ يطّلع عليه إلاّ الله جلّ جلاله، وما هو بعاقل من أحبّ أن يُعرف مكانه من عمله وقد قال تعالى﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البيّنة: ٥].

والتّقرّب إلى الله تعالى إنّما يكون بالإخلاص فى دين الله باعتباره القاعدة الأصيلة التى يقوم عليها الإسلام لقول الله تعالى﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ .وحدّ الإخلاص هو الذى لا يبالى صاحبه لو خرج كلّ قدر له فى قلوب النّاس من أجل صلاح قلبه مع الله عزّ وجلّ ولا يحبّ أن يطلع النّاس على مثاقيل الذّر من عمله.

وفى معنى قول الله تعالى﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[هود: ٧]. قال الفضيل

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤١٠].

(٢) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٣٤٠٨].

(٣) أخرجه الحاكم [٨١٠٣] وافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.

[أخلصه وأصوبه، فإنّ العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل حتّى يكون خالصا صوابا. والخالص أن يكون لله، والصّواب أن يكونَ على السُّنَّة]. ثمّ قرأ قول الله تعالى﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]. والمعنى ذاته يتضمّنه قول الله عزّ وجلّ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النّساء: ١٢٥].

فإسلام الوجه إخلاص القصد والنيّة لله سبحانه. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وإحياء سُنَّته، ومن معانيه أيضا [إفراد الحقّ سبحانه بالقصد في الطّاعة، وتصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وأن لا يطلب المسلم على عمله شاهدا غير الله سبحانه ولا مجازيا سواه]. وكما قيل: الإخلاص شيء في القلب يدعو إلى حسن النّية، وصفاء الطّويّة، وإتقان العمل لله تعالى.

وإذا خرجت النّيــة من دائرة قصد الفعل إلى دائرة الإخلاص لله عزّ وجلّ ازداد المرء بها عند الله درجة ورفعة كما في قوله ﷺ لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي فَتَعْمَلَ عَمَلاً ـ تُرِيدُ ـ تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً[١]».

كما يأتي في ذلك قول النّبي ﷺ من حديث الضّحّاك بن قيس رضي الله عنه «يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إِلاَّ مَا خَلَصَ لَهُ[٢]». وجاء عند أبي داود والنّسائي بإسناد حسن عن أبي أمامة «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ[٣]».

وفي الأحاديث الإشارة إلى مقامين عظيمين:

(أحدهما) مقام الإخلاص لله تعالى وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إيّاه واطّلاعه عليه وقربه منه، لأنّ استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله تعالى وإرادته بالعمل وهو المعنى الذي جاء في قوله ﷺ من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ[٤]».

(والثّاني) مقام المشاهدة وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله بقلبه، وهو أن يتنوّر القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان، حتّى يصير الغيب كالعيان، وتلك هي حقيقة مقام الإحسان في قوله ﷺ «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٢٨] وأبو داود [٢٨٦٤].

(٢) رواه البزّار والبيهقي وأورده المنذريّ في التّرغيب [ج ١ ص ٥٥].

(٣) حديث حسن أخرجه النّسائي [٣١٤٠] وأورده الألباني في الصّحيحة [٥٢].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١١٢٠] وصحيح الجامع [٢٨٢٥].

(٣) السّـــحر

يُطلق السّحر فى اللّغة على كلّ شيء خَفى سببه ولَطُفَ ، وهو الذى يؤثّر فى بدن المسحور وعقله وذلك خلافا لرأى المعتزلة ومن ذهب مذهبهم من الذين ينكرون حقيقة السّحر وقولهم هذا مرجوح، وما ذهب إليه الجمهور من أهل العلم سلفا وخلفا من وقوع السّحر حقيقة هو الرأى الصّحيح الذى يؤيّد النّقل والعقل والواقع.

والمراد بالسّحر الوارد فى الحديث «الأقوال والأفعال» التى تنافى أُصول الدّين وتتعارض مع الأخلاق الشّرعيّة، ولهذا عرّفه الفقهاء بأنّه كلام مُؤلّف يُعظّم به غير الله تعالى وتُنسب إليه مقادير الكائنات، ولا ريب فى أنّه بهذا المعنى «كبيرة» من «الكبائر» بل قد يكون ردّة ظاهرة بصرف النّظر عمّا يترتّب عليه من الآثار، لأنّ الذى يُعَظّمُ غير الله بما هو مختصّ «بالله وحده» كافر ،وقد نُقل عن بعض فاسدى الأخلاق الذين يحترفون السّحر أنّه يسبّ الإله ويسجد لما يسمّيه قرينه، ومنهم من يُهين الملائكة بالسّبّ، ومنهم من يصف الخالق سبحانه بما لا يليق به، وكلّ هذا ردّةٌ صريحة وكفر شنيع بلا نزاع، وهو من أكبر الجرائم سواء ترتّب عليه الأثر المطلوب أم لا.

وفى قوله تعالى﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة:١٠٢]. إثبات لحقيقة السّحر وحقيقة ضرره خلافا لمن قال بغير ذلك، فإذا كان للسّحر حقيقة وتأثير فإنّ الحقيقة العظمى التى يجب أن تستقرّ فى وجدان المؤمن وفى عقله وقلبه ويقينه أنّ السّحرة والسّحر لا يضرّان أحدا إلاّ بإذن الله، وما كفرت الشّياطين إلاّ بتعلّم السّحر وتعليمه وتحريفهم الكلم عن مواضعه وحسبنا فى ذلك قول الله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

وقد جاء القرآن بذمّ السّحر كما فى قوله تعالى﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩]. أى حيث كان وأين أقبل، وقال تعالى﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[يونس٧٧]. أى إنّهم بعملهم هذا لا يظفرون بمطلوب ولا ينجون من مكروه.

ثمّ يأتى قوله ﷺ «اجْتَنِبُوا الْمُوبِقَاتِ الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرِ[١]» : ليبيّن أنّ من موّه وضَلّ وأضَلّ بسحره فقد ذهب إيمانه وكان بالله تعالى مشركا، وكذلك جاء قوله ﷺ «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ[٢]». ناهيا عن ارتكاب هذا الإثم الذى كلّما زاد المرء من تعلّمه وفعله زاد إثمه وبهتانه.

(قال) النّووى [عمل السّحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع وقد عدّه رسول الله ﷺ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٤] ومسلم [٨٩] مطوّلا.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٩٠٥] وابن ماجه [٣٠١٧] وأورده فى الصّحيحة [٧٩٣].

من للوبقات السّبع، ومن السّحر ما يكون كفرا، ومنه ما لا يكون كفرا بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلاّ فلا[1]]. وقد أفردنا لمادّة «السّحر» ضمن كتابنا [**جوامع البيان فى الوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشيطان**] بحثا متكاملا تعرّضنا من خلال أبوابه لتعريفه وبيان حقيقته وأنواعه، وحكم العمل به، والتّوقّى منه، والتّحرّز من أضراره.

(٣) قتـل النّـفس

هو من الموبقات المهلكات التى نهى الإسلام عنها لما يسبّبه من إزهاق الأرواح وإعدام الوجود، وقتل النّفس التى حرّم الله جريمة من أسوأ الجرائم وأقبحها أثرا في المجتمع الإنساني، ويكفي في شناعتها واستنكارها قول الله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النّساء: ٩٣]. والقتل العمد هو الضّرب قصدا بما لا يطيقه بدن الإنسان حتّى إن ضربه بحجر عظيم فهو عمد ومُوجبه الإثم والقصاص إلاّ أن يعفوَ الوليُّ.

وظاهر الآية يشير إلى أنّ قاتل النّفس خالد فى النّار كالكافر تأكيدا لشأنها وتعظيما لحرمتها من قول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥١]. والقتل إزهاق الرّوح بالضّرب أو بغيره. [لكن إذا اعتبر بفعل المتولى له يقال: «قَتْلٌ». وإذا اعتبر بفوات الحياة يقال: «مَوْتٌ». مأخوذ من قَتَلَهُ قَتْلاً: أَمَاتَهُ. وأصله إزالة الرّوح كالموت[2]].

والله تعالى جعل الحساب على قتل النّفس من أوّل القضاء يوم القيامة:

لقوله ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى الدِّمَاءِ[3]». وقوله ﷺ عن أبي الدرداء رضي الله عنه «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا[4]». وأمر الدّين قائم على حرمة دم المسلم وماله وعرضه لقوله ﷺ «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ[5]». وفي رواية مسلم «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا[6]».

كما أنّ وزر من قتل نفسا بغير حقّ حرّمها الله تعالى يُماثل وزر من قتل النّاس جميعا لأنّه لا فرق بين نفس ونفس، ومن حرّم قتلها واعتقد ذلك فكأنّما أحيا النّاس جميعا

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٣٦٥].

(٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٦٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨٦٤] ومسلم [١٦٧٨].

(٤) حديث صحيح وانفرد به أبو داود [٤٢٧٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٦٤] وابن ماجه [٣١٩٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٤٤٧] ومسلم [١٦٧٩].

كما جاء بذلك قول الله تعالى ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

والله عزّ وجلّ جعل جناية قتل النّفس بعد الشّرك وقرنه به حتّى تدرك النّفوس فظاعة هذه الجريمة وعظيم خطرها وشدّة عقابها يوم القيامة فى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

(٤) أكل الرّبا

وأكل الرّبا كبيرة من الكبائر التى حرّمها الخالق جلّ شأنه فى التّنزيل لما يترتّب عليه من استذلال المحتاجين واستنزاف أموالهم وأخذها بلا عوض، والاستيلاء عليها من غير الطّريق المشروع، فجعل الله تعالى عاقبة أكل الرّبا الخراب والهلاك والدّمار لقوله تعالى ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقد توعّد الله تعالى الذين يأكلون الرّبا ولا يتوبون بأشدّ أنواع الوعيد والتّخويف وهى الحرب فى الدّنيا والعذاب يوم القيامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وأصل الرّبا الزّيادة، يقال «رَبَى الشَّىءُ يَرْبُو». أى زاد وربا، والاسم الرّبا، وأَرْمَى الرَّجل وأربى: أى تعامل بالرّبا أو أخذ أكثر ممّا أعطى أو استدان بالزّيادة، (قال) فى الفتح [وأصل الزّيادة إمّا فى نفس الشّىء، وإمّا فى مقابلة كدرهم بدرهمين، ويُطلق الرّبا على كلّ مبيع محرّم ولا خلاف بين المسلمين فى تحريمه وإن اختلفوا فى تفاصيله].

والرّبا فى اصطلاح الفقهاء [زيادة أحد البدلين المُتجانسين من غير أن يُقابل هذه الزّيادة عوض، وربا «النّسيئة» أن تكون الزّيادة فى مُقابلة تأخير الدّفع، أمّا ربا «الفضل» أن تكون الزّيادة المذكورة مُجرّدة عن التّأخير[1]].

ولعن رسول الله ﷺ «آكلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَشَاهدَيْه وَكَاتبَهُ[2]». وقال فى حجّة الوداع «أَلاَ إنَّ كُلَّ رِبًا منْ رِبَا الْجَاهلِيَّة مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالكُمْ لاَ تَظْلمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ[3]». وممّا جاء فى تغليظ أمر الرّبا قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ منَ الرِّبَا إلاَّ كَانَ عَاقبَةُ أَمْرِه إلَى قلَّة[4]». أى إلى نَقْصٍ وعوز.

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢٢ / ٤٩]

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٩٨] وابن ماجه [١٨٦١] وأبو داود [٣٣٣٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١٦٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٨٦٢] والتّعليق الرّغيب [٣ / ٥٢].

والبلاغ القرآني واضح في تحريم الرّبا والنّهي عن التّعامل به كما في قوله :

* ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾[آل عمران:١٣٠].

* ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾[النّساء:١٦١].

ومن أبشع ما يلقاه المرابون من عذاب جهنّم ما رآه رسول الله ﷺ في رُؤياه وحكاه للصّحابة الكرام كما في رواة البخاري قال «فانطَلَقنَا فأتَيْنا عَلَى نَهرٍ أحْمَر مثْلَ الدّم، وإذَا في النّهرِ رَجُلٌ سَابحٌ يَسْبحُ، وإذَا عَلَى شَطّ النَّهرِ رَجلٌ قَدْ جَمعَ عَنْدَهُ حجَارَةً كثيرةً، وَإذَا ذَلكَ السَّابحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلكَ الَّذى قَدْ جمعَ عَنْدَهُ الْحجَارَةَ فَيفْغرُ لَهُ فَاهُ فَيلْقمهُ حَجرًا فَينْطَلق يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجعُ إلَيْه، كُلَّمَا رَجعَ إلَيْه فغرَ لَهُ فَاهُ فَألْقمَهُ حَجرًا» الحديث. ثمّ يخبر رسول الله ﷺ الصّحابة بحال هذا الرّجل فيقول «وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذى أَتَيْتَ عَلَيْه يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ فَإنَّهُ آكلُ الرّبَا[1]».

وقوله «فَيَفْغرُ لَهُ فَاهُ فَيَلْقَمُهُ» : أي يفتحه، ومن دلالات الحديث :

(١) إنّما عوقب آكل الرّبا بسباحته في النّهر الأحمر وإلقامه الحجارة لأنّ أصل الرّبا يجرى في الذّهب والذّهب أحمر.

(٢) أمّا إلقام الملَك له الحجر فإنّه إشارة إلى أنّه لا يغنى عنه شيئا وكذلك الرّبا فإنّ صاحبه يتخيّل أنّ ماله يزداد والله من ورائه ماحقه وهو ما بيّنه سبحانه في قوله ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة:٢٧٦].

وكفى بالرّبا إثما عندما شبّه رسول الله ﷺ آكله بمن زنى بأمّه في قوله «إنَّ أبْوَابَ الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ حُوبًا أدْنَاهُ كَالَّذى يأْتِي أُمَّهُ فِي الإسْلاَمِ[2]».

(٥) أكل مال اليتيم

إنّ جناية أكل مال اليتيم أفظع من التّعامل بالرّبا وأشدّ ضراوة منها، لما يترتّب عليها من أضرار بليغة بالحقوق التي أوجبها الشّرع لليتيم، ولهذا نهى الله تعالى عنها ووصمها أبلغ توصيم في كتابه بقوله ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾[النّساء:٢]. وقال سبحانه ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا

(١) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٠٤٧].

(٢) حديث صحيح أورده في صحيح الجامع [١٥٣١].

﴿أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء:٦].

والله عزّ وجلّ يُبيّن في كتابه أنّ أكل مال اليتيم من أشنع أنواع الحرام حتّى كأنّه يأكل من جمر جهنم كما في قوله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

وفيها يسمّي الله تعالى أخذ المال على كلّ وجوهه «أكْلاً» وخصّ «البطون» بالذّكر لكشف نقصهم والتّشنيع عليهم بضدّ مكارم الأخلاق، كما سمّى «الْمَأْكُول» نارا بما يؤول إليه ولأنّ «الْحَرَام» يُوجب النّار فسمّاه الله تعالى باسمه.

ويبيّن رسول الله ﷺ أنّ أكل مال اليتيم من السّبع المهلكات كما في رواية مسلم عن أبي هريرة «قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَمَا هُنّ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتّولّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ[1]». وبذلك دلّ الكتاب والسُّنّة على أنّ أكل مال اليتيم من الكبائر العظام الّتي لا تحلّ لمسلم أبدا، والواجب شرعا أن يرعى «الْوَصيُّ» مال اليتيم ويحافظ عليه وينمّيه، ولا يبيح لنفسه شيئا منه إلاّ عند الحاجة الماسّة فيأخذ ما يحتاج إليه من غير إسراف ولا تبذير.

وقد أجمعت الآراء على أنّ مال اليتيم لا يحلّ للوصيّ ولا يأخذ منه شيئا حتّى تبقى صلات المحبّة والمودّة قائمة بين النّاس لما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: لاَ أَجِدُ شَيْئًا وَلَيْسَ لِي مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ لَهُ مَالٌ؟ قَالَ كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مَالاً، قَالَ وَأَحْسَبُهُ قَالَ وَلاَ تَقِي مَالَكَ بِمَالِه[٧٧]». أي لا تحفظ مالك بصرف ماله في حاجتك.

(٦) التّولي يوم الزّحف

من أفحش الأمور التي اعتبرها رسول الله ﷺ من الكبائر التّولي يوم الزّحف لكونه فعل يدلّ على الجبن والضّعف والخَوَر والهزيمة، والإسلام يُربّي المسلم على الثّبات والشّجاعة والعزّة، ولأنّ الفرار أمام الأعداء عند اللّقاء يسلب الأمّة عزّتها وكرامتها وشرفها، ويجعل النّصر والعلوّ لأعداء الإسلام والدّين، والمؤمن الحقّ إمّا أن يعيش عزيزا كريما مُهابا، وإمّا أن يموت حرّا شهيدا شُجاعا وقد قال تعالى﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران:١٦٩].

لهذا أمر الله تعالى بالثّبات أمام الأعداء مهما كانت عدّتهم وقدرتهم، ونهى عن الفرار

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٨٧٢].

من الزّحف واعتبره كبيرة مُوبقة من أعظم الكبائر التى تجلب غضبه ومقته، وتحبط الأعمال وتودى بصاحبها فى نار جهنّم وبئس القرارفقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

وقال الجمهور من العلماء: إنّما ذلك إشارة إلى يوم الزّحف الذى يتضمّنه قوله تعالى ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾. وحُكم الآية باق إلى يوم القيامة أنّ التّولى يوم الزّحف كبيرة ومن ذلك قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وفيها يأمر الخالق جلّ شأنه بالثّبات عند قتال الأعداء وهو الأمر المتوافق مع ما جاء فى الآية الكريمة التى قبلها من النّهى عن الفرار عنهم، فالْتقى الأمر والنّهى على سواء، وهذا تأكيد على الوقوف للعدوّ والتّجلّد له وصدّه.

وللعلماء فى قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

(الأوّل) اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإنّ ذكره يُعين على الثّبات عند الشّدائد.

(الثّانى) اذكروه بألسنتكم واثبتوا بقلوبكم، فعند اللّقاء يضطرب اللّسان ولا يسكن القلب، فأمر بالذّكر حتّى يثبت القلب على اليقين، ويثبّت اللّسان على الذّكر ويقول ما قاله أصحاب طالوت فى التّنزيل الحكيم ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلاّ عن قوّة المعرفة واتّقاد البصيرة وهى الشّجاعة المحمودة فى النّاس.

(الثّالث) اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم فى ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التّوبة: ١١١].

وفى الآيات أمر للمجاهدين بالصّبر والثّبات أمام الأعداء لأنّ التّولى فيه إضعاف لصفوف المسلمين وتثبيط لعزائم المقاتلين، كما أنّ فيه صدّ عن سبيل الله عزّ وجلّ وتقوية للعدوّ الباغى وكفى بذلك إثما وعارا فى الدّنيا والآخرة [(١)].

(قال) قتادة [افترض الله جلّ وعزّ ذكره على عباده، أشغلَ ما يكونون عند الضّراب بالسّيوف، وحُكم هذا الذّكر أن يكون خفيًّا لأنّ رفع الصّوت فى مواطن القتال ردىء مكروه إذا كان الذّاكر واحدا، فأمّا إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن، لأنّه يفتّ فى أعضاد العدوّ(٢)]

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٨ ص ٢٣].

(٢) انظر المصدر السّابق [ص ٢٤].

(٧) اللُّواط

اللُّواط جريمة من أبشع الجرائم التى ابتدعها العصاة من قوم نبى الله لوط عليه السّلام ثمّ أشعلها الشّيطان فتنة ضارية فى المجتمعات الإنسانيّة لتحمل إليها نذير الرّعب والدّمار لما فيه من عدوان ظاهر وخروج عن سُنن الله الطّبيعية ولذلك سمّاه الله تعالى فى التّنزيل «فاحشة» كالزّنى فقال ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

ويصف النّص القرآنى الكريم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]: الوقوع فى جريمة الشّذوذ الجنسى بوصف [المُنْكَر] وهو واحد [المناكير] أى كلّ ما أستنكرته الفطرة السّليمة ومجّته، وحكمت العقول الصّحيحة بفساده، واستقبحه كلّ من القلب واللّسان والشّريعة المنزّلة لخطره على حياة الإنسان وافتقاده لاحترام نفسه، وهذا المنكر سمّاه القرآن الكريم فى مقام آخر باسم [الفاحشة] و«الفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ» هو كلّ ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال، و[الفَحشُ]: هو كلّ شىء جاوز حدّه.

والشُّذوذ الجنسى بمختلف أشكاله وألوانه وصوره مُحرَّمٌ فى القرآن والسُّنَّة تحريما قاطعا، والاتّفاق قائم على أنّه من الفواحش العظام بل إنّه أشدّ خطرا من جريمة الزّنا رغم قُبحها وقذارتها، لأنّ الشّذوذ مُحَرَّمٌ عقلا وطبعا وشرعا، وحُرمته لا تزول أبدا، ولذلك فكلّ من يُبيحه يعتبر مرتدّا عن شريعة الله تعالى، وواقعا فى حدّ من أخطر حدوده، وإنّه كبيرة من الكبائر العظام لما فيه من قطع النّسل والخروج عن طور الآدميّة والدّليل على السّقوط والدّناءة وفقد الرّجولة.

ولذلك وردت الأحاديث التى تنفّر المسلمين من الوقوع فيه وتحذّرهم من عواقبه الوخيمة وتهوّل من شناعته وتبيّن لهم خطره حتّى قال فيه رسول الله ﷺ «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِه[١]». ثمّ تأتى اللّعنة من رسول الله ﷺ على الواقع فى هذه الجريمة النّكراء ثلاث مرّات فيقول «لَعَنَ اللّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ[٢]».

وأئمّة المسلمين على أنّ حدّ اللّواط هو الرّجم بالحجارة حتّى يموت الفاعل والمفعول به بكرا كان أو ثيّبا، ولا يعتدّ فيه بالإحصان وشرائطه المذكورة فى حدّ الزّنى أو يُقتلان

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٤٦٢].

(٢) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٢٠٩٣] وأورده فى المشكاة [٣٥٧٧].

بالسّيف حدًّا واحتجوا على ذلك بأنّ التّلوُّط نوع من أنواع الزّنى لأنّه إيلاج فرج فى فرج بشهوة ولذّة، ويكون اللاّئط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلّة الواردة فى الزّانى المحصن والبكر الزّانى لقول النّبى ﷺ فى الذى يعمل عمل قوم لوط «اُقْتُلُوا الأعْلَى وَالأسْفَلَ اُرْجُمُوهُمَا جَمِيعًا(١)». وفى رواية أبى موسى «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ، وَإِذَا أَتَتْ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ».

وقالوا إنّ هذا الفعل زنى يتعلّق به حدُّ الزّنى بالنّص:

(١) فأمّا من حيث الاسم فلأنّ الزّنى فاحشة وهذا الفعل فاحشة بنصّ قول الله تعالى فى شأن قوم لوط ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

(٢) أمّا من حيث المعنى فإنّ للزّنى فعل معنوى له غرض وهو إيلاج الفرج فى الفرج على وجه محظور لا شبهة فيه، لقصد اللّذة وسفح الماء.

وقد وُجد ذلك كلّه فى اللّواطة، فإنّ القُبُلَ والدُّبُرَ كلّ واحد منهما فرج يجب ستره شرعا، وهو عورة فى الصّلاة وخارجه ويحرم النّظر إلى واحد منهما، وكلّ واحد منهما مُشتهى طبعا مُتلذّذ بلمسه ورؤيته ونكاحه.

والمحلّ إنّما يصير مُشتهى طلبا لمعنى الحرارة واللّين، وذلك لا يختلف بالقُبُل والدُّبر، ولهذا أوجب الشّارع الاغتسال بنفس الإيلاج فى الموضعين ولا شُبهة فى تمحيص الحُرمة هنا لأنّ المحلّ باعتبار الملك، ويتصوّر هذا الفعل مملوكا فى القُبُل ولا يتصوّر الملك فى الدُّبر فكان تمحيص الحُرمة هنا أبيَن وأظهر حيث لا تُوجد شبهة ملك بحال.

وكذلك [يأتى معنى سفح الماء هنا أبلغ منه فى قُبُل المرأة لأنّ المحلّ هناك يُنبت الولد فيُوهم أن يكون الفعل حَرْثًا وإن لم يقصد الزّانى ذلك ولا توهُّم فى اللّواطة، فكان تضييع الماء هنا أبيَن، وليس هذا القول على سبيل القياس فالحدّ فى القياس لا يثبت، ولكن هذا إيجاب الحدّ بالنّص، وما كان اختلاف اسم المحلّ إلاّ كاختلاف اسم الفاعل والله تعالى أعلم(٢)].

و(قال) أبو يوسف ومحمّد [إنّ اللّواطة قضاء للشّهوة وربّما وصلت عند بعض الرّجال إلى شهوة النّساء من غير تفريق، فهى شهوة فى محلّ مُشتهى على وجه الكمال، لذلك يجب إقامة حدّ الزّنى عليهما فيُجلد البكر ويُرجم الثيّب المُحصن المستوفى لشروط الإحصان]. ولأنّ الله تعالى سمّى قوم لوط لارتكابهم هذه الفعلة الشّنيعة: (مُفسدين) والمفسد عقابه القتل والعذاب الأليم كما فى قول الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى

(١) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٢٠٩٢] وأورده فى الإرواء [٦/ ١٧].

(٢) انظر الفقه على المذاهب الأربعة للجزيرى [ج ٥ ص ١٤٠].

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠][(١)]». ثمّ جاء قول الله تعالى فى سياق البيان القرآنى ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

والبيّنة على اللّواط عند الأئمّة الثّلاثة مثل البيّنة على إثبات الزّنا فلا يثبت إلاّ بشهادة أربعة من الرّجال العدول يرون الميل فى المكحلة، وخالف الحنفيّة فى ذلك وقالوا [أنّ بيّنة اللّواط غير بيّنة الزّنا لأنّ ضرره أخفّ منه، وجنايته أقلّ من جنايته حيث لا يترتّب على اللّواط اختلاط الأنساب ولا هتك الأعراض، فتثبت البيّنة بشاهدين فقط، فلا يلحق بالزّنا إلاّ بدليل ولم يوجد دليل من الكتاب ولا من السّنّة فبقى الحكم على الأصل[(٢)]].

واللّواط يستوجب لعنة الله تعالى وغضبه ولعنة الملائكة والنّاس أجمعين لأنّه فعل شاذّ يتنافى مع العقل السّليم والذّوق المستقيم، ويدلّ على أنّ صاحبه قد خلع جلباب الحياء والمروءة، وتخلّى عن صفات أهل الرّجولة، وتجرّد حتّى من عادات البهائم، ولذلك كان اللّواط من أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمّته لقوله من حديث جابر رضي الله عنه «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ[(٣)]».

من الدّلالات العلميّة للنّصّ القرآنى الكريم

ونشير هنا إلى بحث علمى أورده الدّكتور زغلول النجّار ضمن مقالاته المتتابعة فى [جريدة الأهرام القاهريّة[(٤)]] قال فيه:

[لقد انتشر الشُّذوذ الجنسى فى عالم اليوم انتشار النّار فى الهشيم حتّى يقدّر تعداد الشّواذ من الجنسين فى بلد كالولايات المتّحدة بنحو ١٠٪ من مجموع السّكان البالغ قرابة ٣٢٠ مليون نسمة، وإن حاولت الجهات الرّسمية إنكار هذه النّسبة العالية وإنقاصها إلي نحو ٢,٣٪ فقط مع الاعتراف بأنّ هذه هي نسبة الذين يعلنون عن أنفسهم بذلك، وأنّ هناك من الشّواذ من لا يستطيع الإعلان عن نفسه، وهذه النّسب التى تصل إلى أكثر من ٤ ملايين من الشّواذ الذّكور ومليونين من الشّواذ الإناث قد تضاعفت اليوم أضعافا كثيرة خاصّة بعد رفع الشّذوذ الجنسي من قائمة الأمراض العقليّة فى سنة ١٩٧٠م.

وتعطى بعض الدّراسات المنشورة من مثل دراسة كنساى [Alfred Kinsaw]. ما يلى:

(١) انظر الفقه على المذاهب الأربعة [ج ٥ ص ١٤١].

(٢) انظر الفقه على المذاهب الأربعة [ج ٥ ص ١٣٩].

(٣) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٢٠٩٣] وأورده فى المشكاة [٣٥٧٧].

(٤) انظر سلسلة مقالات الدّكتور زغلول النّجار [من أسرار القرآن ٢١٩ / ب].

(١) أنّ ١٠٪ من مجموع الذّكور البيض والذين تتراوح أعمارهم بين ١٦-٥٥ سنة كانوا شواذ طوال الثّلاث سنوات السّابقة للدّراسة والتى غطت الفترة من أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات .

(٢) أنّ نحو ٥٪ من مجموع الإناث البيض اعترفوا اعترافا علنيّا بأنهنّ شواذ جنسيّا .

(٣) أنّ ٥٠٪ فقط من الذّكور أعلنوا أنّهم لم يمارسوا الشّذوذ الجنسى ولا يجدون فى أنفسهم ميلا إليه .

وفى دراسة أُخرى بعنوان الشّذوذ الجنسى وابتزاز الأطفال جنسيّا [Tim - Sexual Abuse]. othy j.Dailey(2005): Homosexuality and Child Issue No,247.

[ذُكر أنّ نسبة الشّواذ جنسيّا فى الولايات المتحدة تتراوح بين ١٪ - ٣٪ من مجموع تعداد السّكان المقدّر بنحو [٢٦٠ مليون] فى منتصف التّسعينات من القرن الماضى ، ومن هذه الأعداد ٤٦٪ من الشّواذ الذّكور ، و٢٢٪ من الشّواذ الإناث تعرضوا لتحرّش جنسى شاذ أثناء طفولتهم فى مقابل ٧٪ فقط من غير الشّواذ الذّكور ، و١٪ فقط من الإناث غير الشّاذات .

وهذا الشّيوع المذهل جعل الشّذوذ الجنسى أمرا مقبولا فى معظم الدّول الغربيّة كنظام بديل للحياة العاديّة للشّخص إذا كان بين البالغين وبدون إكراه ، إلى الحدّ الذى تعترف به الحكومات وتشرّع له الدّساتير وتحميه القوانين وترحّب به الكنائس بل تسمح بزواج الأمثال وتصرّح لهم بالتّبنى وتنفق عليهم الدّولة فى حالات البطالة أو العجز عن العمل ، وتكوّنت آلاف الجمعيّات والمنظمات التى ترعى شئون الشّواذ جنسيّا وتحمل قضاياهم وتخصّص العديد من الجامعات منحا دراسيّة لهم .

وتبقى الفطرة السّليمة فى بعض الأفراد الذين حرّموا على أبنائهم وبناتهم الذّهاب إلى المدارس صونا لهم من الوقوع فى هذه الرّذائل من أقرانهم أو معلميهم وفضّلوا تعليمهم فى البيوت إلى أن يتمكّنوا من الدّفاع عن أنفسهم ، وينتشر الشّذوذ الجنسى بين الرّهبان والرّاهبات وغيرهم من الذّكور والإناث المنخرطين فى أديان لا تسمح لهم بالزّواج ، وبين المسجونين والمسجونات ، وبين البحّارة والكشّافة عند فقدان الجنس الآخر وانعدام التّربية الصّحيحة] .

إنّ الوصف القرآنى للشّذوذ الجنسى بأنّه [مُنكَر وبأنّه [فاحشة من الفواحش] ووصف الواقعين فيه «بالمجرمين» و«الفاسقين» و«المفسدين» يدلّ على مدى خطر هذا السّلوك البشع

على المجتمعات الإنسانيّة أفرادا وجماعات، وهذا ما أثبتته جميع الدّراسات المكتسبة والتى تلخّص أضرار هذه الجريمة النّكراء فيما يلى:

أولا - من الأضرار الصّحية للشّذوذ الجنسى

تؤدى هذه الرّذيلة الفتّاكة إلى الإصابة بكلّ الأمراض التى تصيب الزّناة وبغيرها من الأمراض التى يصعب علاجها بل يستحيل فى كثير منها حتّى يُفضى إلى الموت بعد معاناة طويلة وتشوّهات خلقيّة عديدة وآلام مبرحة، وتتّضح خطورة ذلك من خلال النّتائج المعلنة والمأخوذة عن بحث للدّكتور فرانك جوزيف والمعنون:

Joseph,Frank(2000-2003):'Homosexality and Clergy" Everyone Should Know these Statistics on Homosexuals,Internatoinsl Organization Of Heterosexual Rights.

(١) إنّ الشّواذ جنسيّا يمثلون ٦٠٪ من مرضى المرض الجنسى المعروف باسم الزّهرى (Syphilis) ومن ٣ إلى ٤٪ من مرضى السّيلان (Gonorrhea).

(٢) إنّ الشّواذ جنسيّا يحيون حياة غير صحيّة ولذلك يمثّلون غالبيّة المصابين بالأمراض الجنسيّة الخطيرة مثل الوباء الكبدى (Heoatitis-B). الذى يحمل الشّواذ نسبا بين ٢٦-٨٠٪ من مرضاه، ومرض أمعاء الشّواذ (The Gay Bowel Syndrome) الذى يهاجم الأمعاء ويصيبها بإصابات خطيرة، وأمراض كلّ من السُّل (Tuberculosis) والحمّى المضخّمة للخلايا (Cytomegalovirus) وأمراض نقص المناعة (AIDS) الذى لم ينتشر فى بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكيّة إلاّ عن طريق الشّذوذ الجنسى، ويمثّل الشّواذ فيه أكثر من ٥٠٪ من المصابين بهذا المرض الخطير.

(٣) إنّ ٢٥٪-٣٣٪ من الشّواذ جنسيّا مدمنون للخمور و٦٤٪ مدمنون على المخدرات.

(٤) إنّ الشّذوذ الجنسى يؤدّى بصاحبه فى النّهاية إلى التّعاسة والشّعور بالنّقص والسّادية التى قد تنتهى بقتل الشّريك فى الجريمة بنسبة ٣٧٪ من الحالات، وأنّ ٥٠٪ من المنتحرين هم من المنحرفين جنسيّا.

(٥) يصاب الشّواذ بأمراض يصعب علاجها كالزّهرى والسّيلان وأمراض نقص المناعة مثل مرض الإيدز [AIDS] بل يستحيل العلاج فى كثير منها حتّى يفضى إلى الموت بعد المعانة الطّويلة والتّشوُّهات الخلْقية العديدة والآلام المبرحة القاتلة، وكذلك أمراض الوباء الكبدى والسُّل والحمّى المضخّمة للخلايا وكلّها لا تنتشر إلاّ عن طريق الشّذوذ الجنسى الذى يُعرّض من يمارسه إلى الإصابة بالعديد من الأوبئة الخطيرة والطّفيليات التى لا تتوافر إلاّ فى أقذر الأوساط البيئيّة.

ثانيا ـ من الأضرار الاجتماعية للشّذوذ الجنسى

من الأضرار الاجتماعية التى تؤدّى بالمجتمع إلى تلك الهوّة السّحيقة التّعيسة من الانهيار الخلقى بسبب الشّذوذ :

(١) نقص تعداد السّكان لقناعة الشّواذ بإشباع شهواتهم الدّنيئة دون وعى لضرورة الإنجاب وهى ظاهرة سائدة اليوم فى أغلب الدّول الغربيّة .

(٢) ارتفاع معدّلات العنف والجريمة من مثل جرائم الاعتداء على الأطفال واغتصاب الكبار والإيذاء البدنى والقتل للشّركاء فى هذه الرّذائل ، ففى دراسة د . فرانك جوزيف التى سبقت الإشارة إليها جاء ما يلى :

* أنّ الشّواذ جنسيًا معرّضون للقتل أكثر (١٠٠) مرّة فى الذّكور و(٥٣٤) مرّة فى الإناث من غيرهم ، وعادة ما يتمّ ذلك بواسطة شركائهم فى هذه الجريمة البشعة ، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى أنّ ٥٠٪ من حوادث قتل النّساء فى بلد مثل الولايات المتّحدة الأمريكيّة هى للشّاذات جنسيّا .

* أنّ الشّواذ جنسيًّا معرّضون للانتحار أكثر ٢٥ مرّة من غيرهم ، وللقتل عن طريق حوادث الطُّرق أكثر ١٩ مرّة من غيرهم .

* إنّ ٣٣٪ من الشّواذ يعترفون بالاعتداء على كلّ من الأطفال الصّغار والكبار ، وهناك مجموعات عديدة مكوّنة من آلاف الشّواذ جنسيًّا فى بلد مثل الولايات المتّحدة منها مجموعة تسمّي نفسها باسم ـ (the north american man and boy love ass ـ ciation) وهى مجموعة متخصّصة فى الاعتداء جنسيًّا على الأطفال الصّغار ، وتمثّل أكثر من ٣٣٪ من تلك الحوادث البشعة ، ويعترف ٥٣٪ منهم باقتراف هذه الجريمة مع من هم دون التّاسعة عشرة من العمر .

* إنّ ٥٩,٦٪ من الشّواذ جنسيًّا فى دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكيّة هم من خريجى الجامعات ، و٤٩٪ منهم يحتلّون مراكز تخصّصية وإداريّة بارزة فى مجتمعاتهم .

(٣) تدمير مؤسسة الأسرة وإشاعة الفواحش فى المجتمعات الإنسانيّة ومحاربة الأديان التى تجرّم فحشه .

(٤) يتسلّل الشّواذ جنسيًّا فى مختلف المجتمعات لإفساد غيرهم من أجل زيادة أعداد المفسدين فى الأرض نصرة لشذوذهم وانحرافاتهم ، ولزيادة المطالبة بحقوق لهم وهم فى ذلك يصيبون الأبرياء بما يحملو ن من مسبّبات المرض .

(٥) الشّذوذ الجنسى يصيب الواقع فيه بالشّعور بالدُّونية الشّديدة أو بالوقاحة وقلّة

الحياء والاستهتار بكلّ المعتقدات والآداب والقيم الأخلاقية، وبالعديد من الاضطرابات والعُقد النّفسية والقلق وتشتّت الفكر والاكتئاب، والشّراسة، والكراهية، وغيرها من الأمراض العصابيّة، والعجز الجنسى المؤقت أو الدّائم، ولذلك يخدعون أنفسهم بتسمية أنفسهم بالفرحين وهم على النّقيض من ذلك.

(٦) إنّ حياة الشّواذ جنسيًّا هى حياة غير مستقرّة وتربية الأطفال بينهم تدمير لفطرتهم السّليمة، ومن ثمّ فهو تدمير لمستقبل الأمّة التى تسمح لمثل هذه الفواحش بالشّيوع بين أبنائها، ويحزننا أن يأتى أحد الأفلام المصرية اليوم ليدعو علنا إلى هذا الفُحش بدعوى [حريّة التّعبير].

ثالثا ـ من الأضرار الاقتصاديّة للشّذوذ الجنسى

(١) إنّ تفشّى الأمراض المستعصية بين الشّواذ جنسيًّا يضعف من إنتاجيتهم ويستهلك من أموال الدّولة جزءا كبيرا لعلاجهم.

(٢) كذلك فإن تفشّى الأمراض المستعصية بين الشّواذ جنسيًّا قد يُعجز أعدادا منهم عن العمل ممّا يجعلهم حملا على ذويهم وعلى الدّولة التى تؤويهم.

(٣) أنّه نتيجة لعدم الاستقرار بين زواج الأمثال لمنافاته للفطرة فإنّ المحاكم سوف تتكدّس أمامها قضايا الجريمة بمختلف أشكالها وأحجامها وقضايا الطّلاق وما تقتضيه من إنفاق يعجز كثير من الأفراد والدّول على تحمّلها.

(٤) إنّ العنف الذى يسود مثل هذه العلاقات المشينة وما ينتج عنه من إصابات بدنيّة ونفسيّة ودمار لا يستطيع مواجهته أى مجتمع معاصر ولا أى نظام أمنى من مثل الشّرطة وغيرها[١]].

هذا قليل من الكثير الذى من أجله حرّم القرآن الكريم كما حرّمت السُّنّة النّبويّة المطهّرة جريمة الشّذوذ الجنسى بمختلف أشكاله وألوانه وصوره، ومن هنا كان الإعجاز العلمى والتّشريعى واللّغوى والتّاريخى فى قوله تعالى﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت:٢٨].

[والحديث عن هذه المسألة يتطلّب الإشارة إلى أمرين خطيرين]:

[أولهما] ـ حرمة إتيان النّساء فى أدبارهن

وهو أمر اتّفقت كلمة علماء المسلمين على حرمته وأنّ من أتى امرأته فى دُبُرها

(١) انظر سلسلة مقالات [من أسرار القرآن ٢١٩ / ب].

وترك القُبُلَ فإنّه بهذا العمل الشّنيع يكون آثما ومستوجبا للعقاب الأخروى حيث ارتكب فعلا ممنوعا شرعا، وأتى أمرا غير مسموح به بل منهى عن الوقوع فيه أو الالتجاء إليه للأحاديث الكثيرة التي تحرّم إتيان المرأة في دُبُرها لقول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِى دُبُرِهَا[1]». وجاء فى رواية «إِنَّ الَّذِى يَأْتِى امْرَأَتَهُ فِى دُبُرِهَا لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2]».

والقرآن الكريم واضح فى تحديد مكان النّكاح وهو القُبُل لكونه محلّ الحرث والمكان الذى ينبت منه الولد فقال ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة:٢٢٣]. أى مُقبلات ومُدبرات ومُستلقيات، يعني بذلك موضع الولد، وفيه قال ﷺ إِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِى صِمَامٍ وَاحِدٍ[3]».

و[الجَبِّيَةُ] المكبوبة على وجهها، والمراد بالصِّمام القُبُلُ. فموضع الزّرع من المرأة هو قُبُلُها الذى يُزرع فيه المنىّ لابتغاء الولد، وفيه إباحة وطئها فى قُبُلها إن شاء من بين يديها وإن شاء من ورائها وإن شاء مكبوبة، أمّا الدُّبُر فليس هو بحرث ولا موضع زرع.

(قال) القرطبى [هذه الأحاديث نصٌّ فى إباحة الحال والهيئات كلّها إذا كان الوطء فى موضع الحَرْث، أى كيف شئتم من خلف ومن أمام وباركةً ومُستلقيةً ومُضطجعةً، فأمّا الإتيان فى غير المأتى فما كان مُباحا ولا يُباح، وذكْرُ الحرث يدلّ على أنّ الإتيان فى غير المأتى مُحرَّم، و«حرث» تشبيه لأنّهنّ مزدرع الذّرية، فلفظ «الحرث» يعطى أنّ الإباحة لم تقع إلاّ فى الفرج خاصّة إذ هو المزدرع[4]].

وكذلك جاء الأمر واضحا وصريحا فى قوله تعالى ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. أى فجامعوهنّ وهو أمر إباحة، و«مِنْ» بمعنى «فى» أى فى حيث أمركم الله تعالى وهو [الْقُبُل] أى من الوجه الذى أُذن لكم فيه، وعليه فإنّ اتّفاق العلماء الذين يُعْتَدُّ بهم قائم على تحريم وطء المرأة فى دُبُرها حائضا كانت أو طاهرا للأحاديث الكثيرة المشهورة والتى منها «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِى دُبُرِهَا[5]». واللّعنة الطّرد والخروج من رحمة الله تعالى .

{من الفتاوى المتعلّقة بهذه الجريمة البشعة}:

سُئل فضيلة الشّيخ أحمد هريدى مُفتى الدّيار المصرية بالطّلب المقيّد برقم ٢٧٢-١٩٦٤م

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٥٧٣].

(٢) أورده فى صحيح الجامع [١٦٩١] والمشكاة [٣١٩٤].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٣٥].

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ٣ ص ٩٣].

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٠١٥٨].

فيمن يأتي امرأته من الخلف، وطلب السّائل بيان الحكم الشّرعي في ذلك فأجاب فضيلته بما يلي:

[إنّ إتيان الرّجل زوجته في دُبرها أمر منكر وحرام شرعا، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا[1]». وفي لفظ «لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا». إلاّ أنّ إتيان الرّجل زوجته في دُبرها لا يوجب تحريمها شرعا، ويجب على الزّوج أن يُقلع عن هذه العادة المرذولة. كما يجب على الزّوجة أن تعصيه إذا طلب منها ذلك ولا تمكّنه من نفسها ليفعل بها هذا الأمر المُنكر إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق سبحانه، فإذا أصرّ الزّوج على هذا الطّلب واستحالت العشْرَة بسبب امتناع الزّوجة عن مجاراته، كان للزّوجة أن ترفع أمرها للقضاء ليفرّق بينهما بسبب هذا الضّرر الذي فيه امتهان لكرامتها، وبهذا علم الجواب عمّا جاء بالسّؤال والله تعالى أعلم[2]].

[والثّاني] ـ الاستمناء باليد

الاستمناء باليد ذنب كبير وإثم عظيم نهى عنه الشّارع الحكيم وحذّر منه لما يترتّب عليه من الأمراض الصّحية والاجتماعية، وهو أمر مرذول وعادة قبيحة تلحق ضررا فاحشا بالأجسام والعقول، وينشأ من الفراغ والتّوقان وعدم القدرة على الزّواج، وقد أمر الله تعالى مَنْ هذا شأنه بالاستعفاف والصّبر والإحتمال فقال سبحانه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النّور:٣٣]. أي ليصبروا على قوّة الشّهوة وكبح جماحها حتى يغنيهم الله من فضله ويسهّل لهم طريق النكاح المشروع.

وقد ذهب جمهور الأئمة إلى تحريم الاستمناء باليد، [فقال] في سبل السّلام تعليلا لذلك [لأنّه لو كان مباحا لأرشد الشّارع إليه لأنّه أسهل من الصّوم وعدم ذكره دلّ على تحريمه]. واستدلّوا على التّحريم بقول الله تعالى﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[المعارج:٣١]. أي الكاملون في العدوان، ويندرج الاستمناء باليد في ما [وراء ذلك] لأنّه من شأن العادين على حدود الله تعالى الخارجين عن الفطرة الإنسانية، وقال ابن قدامة في المغني من المعجم [من استمنى بيده فقد ارتكب محرّما].

وقال بعض العلماء إنّه كالفاعل بنفسه وهي معصية أحدثها الشّيطان وأجراها بين النّاس لتهوين عزيمة الشّباب وإضعافهم ونشر الأمراض الخطيرة بينهم، ولو قام الدّليل على جوازها لأعرض عنها كلّ ذي مُروءة لدناءة فعلها وحقارة لذّتها، والمروى عن

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٠١٥٨].

(٢) انظر مختصر فتاوى دار الإفتاء [ص ٢٦٧].

الشّافعى فى الجديد تحريم هذا الفعل، وفى «شرح الدّر» فى باب الحدود أنّ الاستمناء بالكف حرام عند الحنفية لحديث «نَاكِحُ الْيَدِ مَلْعُونٌ».

والواجب فيه التّعزير على الفاعل حسب ما يراه الإمام زاجرا له عن المنكر، وممّا يساعد على التخلّص من هذا الفعل الرّدىء:

(١) المبادرة بالزّواج عند الإمكان ولو بصورة مبسّطة لا إسراف فيها ولا تعقيد.

(٢) الاعتدال فى المأكل والمشرب حتّى لا تثور الشّهوة.

ولقد أشار النّبى ﷺ إلي هذين الأمرين فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه «يَامَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[١]». أى أنّه يؤدى ما يؤديه الخصاء فهو شبيه به.

(٣) البعد عن كلّ ما يُهيّج الشّهوة كالاستماع إلى الأغانى والنّظر إلى الصّور الخليعة والأفلام الرّخيصة الماجنة.

(٤) تخيّر الأصدقاء ذوى الاستقامة والانشغال بالطّاعة والعبادة والمحافظة على الصّلوات فى أوقاتها ومدارسة القرآن الكريم والخوف من الله تعالى.

(٨) الزّنــــــى

الزّنى من الكبائر العظام التى حرّمها الله تعالى لكونه سببا فى اختلال الأنساب، وغصب الأبضاع، والاعتداء على الحُرمات، وهيجان الفتن، ولما يترتّب عليه من مضارّ أخلاقيّة ودينيّة وجسمانيّة وأسريّة، وقد سمّاه الخالق سبحانه فاحشة فقال تعالى﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢]. والفاحشة ما عظُم قبحه من الأقوال والأفعال ويُوجب الحدّ فى الدّنيا والعذاب فى الآخرة، وتُطلق [الفاحشة] على الزّنا «كناية» كما فى قوله تعالى﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾[النّساء:١٥].

والزّنى هو وطء المرأة من غير عقد شرعى، يقال [زَنَى يَزْنِى زِنًى وَزِنَاءً فهو زَانٍ] أى فَعَل الفجور والفُحش المحرّم. ويشمل تعريف الزّنى ما يُوجب الحدّ وما لا يُوجبه، فالذى يُوجب الحدّ منه وطء مُكلّف مسلم فرج آدمى لا ملك له فيه بلا شبهة عمدا، وهو المعنى الأخصّ للزّنى. (قال) ابن عرفة فى حدوده [الزّنى الشّامل للّواط تغييب حشفة آدمى فى فرج آخر دون شبهة عمدا[٢]].

أمّا ما لا يُوجب الحدّ منه فهو المبيّن فى قول النّبى ﷺ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٠٤٦] وأحمد [٤٢٧١].

(٢) انظر شرح حدود ابن عرفة [ص ٦٣٦].

وَتَشْتَهِى، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ(١)». وفيه الإشارة إلى مقدّمات ذلك وتوابعه كالنّظر واللّمس والحديث والقبلة وكلّها من مُقدِّمات الزّنى، فهى من الصّغائر إن كذّبها الفرج، وإن صدّقها كان ذلك من مُوجبات الحدّ.

وقد حذّر القرآن من مُقاربة أسباب الزّنى فى قول الله تعالى﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢] : أى لا تقتربوا من الزّنى بمباشرة أسبابه القريبة والبعيدة فضلا عن مباشرته، لأنّ قربانه داع إلى مباشرته، وفيه أمر بالابتعاد عن جميع مُقدّمات الزّنى من التّبرّج والمبالغة فى إبداء الزّينة، والاختلاط مع غير المحارم فى غير ضرورة، والخلوة غير الشّرعية، والخضوع المتكلّف فى القول، وعدم غضّ البصر، والنّهى عن مجرّد الاقتراب من هذه الجريمة البشعة هو أبلغ من النّهى عن الوقوع فيها.

ورسول الله ﷺ حكَمَ على الزّانى بانتزاع الإيمان من قلبه كما يخلع الإنسان قميصه من عنقه عند تلبّسه بهذا الفعل الشّنيع، فإن مات وهو مُتلبّسٌ بجنايته مات على ملّة غير ملّة الإسلام فقال «لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ(٢)».

كما أحلّ ﷺ دم الزّانى وعقابه قتلا بالرّجم فقال «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِى، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ(٣)». وفى رواية «رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ(٤)». ومن أعظم الجرم وأفظعه أن يزنى المرء بحليلة جاره فإنّ فى ذلك العمل المنكور جريمتين:

(الأولى) الاعتداء الصّريح على عرض إنسان غافل لا يتوقّع من جاره إلاّ الذّبّ عنه وعن حريمه ويأمن بوائقه ويطمئنّ إليه، وقد أُمر بإكرامه والإحسان إليه، فإذا قابل هذا كلّه بالزّنى بامرأته وإفسادها عليه مع تمكّنه منها على وجه لا يتمكّن غيره منه كان ذلك من أقبح الآثام وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ(٥)». وأىّ بائقة أعظم من الزّنى بامرأة الجار.

(والثّانية) انتهاك حرمة الجوار بارتكاب أشنع الذّنوب وأحقرها وليس أعظم إثما من «أَنْ تُزَانِىَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ(٦)». ومعنى «تُزَانِىَ»: أى تزنى بها برضاها، وذلك يتضمّن أمورا ثلاثة أخطر من بعضها البعض:

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٧] وافقه البخارى [٦٣٤٣] وأبو داود [٢١٥٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨١٠] ومسلم [٥٧] والنسائى [٤٨٨٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨٧٨] ومسلم [١٦٧٦] وأبو داود [٤٣٥٢].

(٤) من حديث أخرجه أبو داود [٤٣٥٣] والنسائى [٤٠٥٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠١٦].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٥٢٠] ومسلم [٨٦] وأبو داود [٢٣١٠].

(١) الزّنى الذى هو أشدّ قُبحا وأعظم جُرما مع امرأة الجار.

(٢) إفسادها على زوجها وهدم منزل زوجيتها واستمالة قلبها إلى الزّانى.

(٣) خيانة الزّانى لجاره بغدر استئمانه على زوجه وأهله.

والإسلام بتشريعه حدّ الزّنى، وعنايته التّامة بإقامته، واهتمامه الزّائد بتنفيذه أمام طائفة من المؤمنين، ونزول الآيات الكثيرة بشأنه، والنّهى عن اقتراف مقدّماته وأسبابه، والاقتراب منه كالاختلاط والغناء والرّقص والتّمثيل وخلافه، فإنّه يحمى كيان الأسر من الانهيار ويصون الأخلاق من التّشرذم والضّياع كما في قول الله تعالى:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النّور: ٢ - ٣].

* فالزّانى إن كان بكرا فإنّه يُضرب بالسّوط مائة جلدة لحديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْمُرُ فِيمَنْ زَنَى وَلَمْ يُحْصَنْ جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ[١]». حتّى يُفتضح أمره على مرآى من أصحابه وجيرانه، فيحتقر فى نفوسهم، وتسقط منزلته بينهم، ويأخذوا منه حذرهم، لخبث نفسه وسوء سريرته، وشناعة فعله، وشدّة خطره، وهذه عقوبته فى الدّنيا ولعذاب الآخرة إن لم يتب أشدّ وأبقى.

* أمّا عقوبة الزّانى المحصن فتكون رجمًا بالحجارة لقول النّبى ﷺ «خُذُوا عَنِّي: قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً: الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَرَمْيٌ بِالحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ[٢]». وعن جابر رضي الله عنه «أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَحَدَّثَهُ أَنَّهُ قَدْ زَنَى فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَ، وَكَانَ قَدْ أُحْصِنَ[٣]».

وفى [عقوبة الرّجم] معنى إسقاط منزلة الزّانى والزّانية وتجريدهما من الإنسانيّة الفاضلة وانتفاء القيم الرّفيعة عنهما، وجعل الشّرع ذلك أمام طائفة من المؤمنين ليكون الخزى والعار أبلغ وأكمل فى حقّهما، وليرتدع من تسوّل له نفسه الوقوع فى ذلك الذّنب بعد أن رأى عاقبته ونهايته.

وكما جاء فى الصّحيح فإنّه ليس أشدّ من الزّناة عذابًا في نار جهنّم يوم القيامة ورسول الله ﷺ يشهد ذلك فى رؤياه التى رواها البخارى عن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه قال «فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ. قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨٣١] ومسلم [١٦٩٨]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٩٠] وأبو داود [٤٤١٥]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨١٤] ومسلم [١٦٩١].

رجَالٌ وَنساءٌ عُـراةٌ ، وإذَا هُمْ يأْتيـهِمْ لَهَـبٌ مِن أَسْفَلِ منْهُمْ ، فإذَا آتاهُمْ ذَلكَ اللّهَبُ ضَوْضَـوْا » . الحديث . ثمّ قال ﷺ في الحديث « وَأَمّا الرِّجَالُ وَالنّسَاءُ الْعُرَاةُ الّذينَ فِي مثْلِ بنَاءِ التَّنُّور فَـهُمُ الزُّنَاةُ والزَّوَاني [١] » . وقـوله « ضَـوْضَـوْا » : أي رفعوا أصـواتهم مخـتلطة . (قـال) في النّهاية : الضَّوْضَاةُ أصوات النّاس ولغطهم . ومن الدّلالات التي يحملها الحديث :

(١) أنّ العري والتّكشّف في هذه الجريمة كان من عادتهم فاستحقّوا أن يُفضحوا بالهتك في الآخرة عُرَاةً مكبّلين .

(٢) لمّا كان من شأن الزّناة طلب التّخفّي والخلوة والاستتار فناسب ذلك أن يكون عذابهم داخل التّنّور وهو الفرن الذي يُخبزُ فيه تشبيها لما كان عليه حالهم عند اقتراف هذه الفعلة . وأنّ الحكمة في إتيان العذاب من تحتهم لكون جنايتهم من أعضائهم السّفلى ، ثمّ هم حال الفعل خائفون حذرون كأنّ تحتهم النّار الموقدة .

ومن الدّلالات العلميّة التي تضمّنتها النّصوص القرآنية والنّبوية التي تمنع من مجرّد الاقتراب من مقدمات الزّنى ما اكتشفه العلم من الأضرار الصّحية الخطيرة النّاجمة عن الصّلات غير المشروعة بكلّ صورها وما يتولّد عنها من أمراض فتّاكة تدمّر الجسد تدميرا ، ومن هنا كـانت حكمـة تحريم الإسلام للزّنى وجعله من الكبائر المهلكات والتي جاء التّحذير منها في قوله ﷺ من حديث ابن عمر « يا معشر المهاجرين : خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن [منها] : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا [٢] » .

ولـمّا كانت [خلايا التّناسل] من أثمن الخلايا في جسم الإنسان باعتبارها الحاملة للمخزون الوراثي من لدن أبينا آدم عليه السّلام وحتّى قيام السّاعة ، كان من أهمّ الواجبات الإنسانيّة وجوب المحافظة عليها وعدم التّفريط فيها بوضعها في غير مواضعها الشّرعية ، كذلك جعل سبحانه المناطق الجنسيّة من أكثر مناطق الجسد حساسية وعرضة للأمراض الطّاعنة إذا لم يُحافظ عليها بعناية شديدة ، ومن أخطر ما يُصيبها الصّلات غير المشروعة بكلّ صورها وأشكالها وهيئاتها وما يتولّد عنها من أمراض فتّاكة تدمّر الجسد تدميرا لا هوادة فيه ولا رحمة .

ولذلك أشار العلماء إلى كثير من الآثار السّلبيّة المدمّرة التي تمكّنت من المجتمعات غير النّظيفة أخلاقيًّا وما ألحقته من دمار للقيَم والمُثل نتيجة لانتشار الشُّذوذ الجنسي وما سبّبه من أضرار صحيّة واجتماعيّة ونفسيّة ، عندما أسهب الباحث الإسلامي الدّكتور زغلول النّجار في عرضه لتلك الأمراض التي تصيب الزّناة في مقتل بلا رحمة وأوّلها هذا الوباء الذي اكتسح العالم من جراء هذه الفعلة الشّنعاء والذي يُطلق عليه :

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٠٤٧] .

(٢) من حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٣٢٦٢] وأورده في الصّحيحة [١٠٦] .

(۱) أمراض نقص المناعة [الإيدز]

[Acquired ImmunE Deficiency Syndrome A.I.D.S]

وهو من أحدث وأخطر الأمراض التى تنتقل بواسطة العلاقات الجنسية المحرّمة ويسبّبه ما يعرف باسم : Human Immnodeficiency Virus = (H.I.V) ويعرف بأنّه فيروس انقلابى Retrovirus وهو من مسبّبات الأمراض التى لم تكتشف إلاّ فى سنة ۱۹۸۳ وهذا الفيروس الانقلابى لا يحيا إلاّ فى سوائل الجسم مثل الدّم والليمف والإفرازات التّناسلية، وهو لا يستطيع العيش خارج جسم الإنسان لمدد طويلة ولذلك فإنّه لا ينتقل إلاّ بالممارسات الجنسية غير المشروعة أو عن طريق نقل الدّم.

ومن أخطار فيروس نقص المناعة كُمُونُه فى داخل الجسم وعدم ظهور أعراضه إلاّ بعد فترات تطول إلى عشر سنوات، وإن كان بعض المرضى قد يموتون بعد شهور قليلة من بداية ظهور أعراض المرض، ويتسبّب هذا الفير وس فى تدمير الجهاز المناعى للجسم ويتركه عرضة للإصابة بالأمراض الوبائية ويهاجم كلاّ من الجهاز الهضمى والتنفّسى والعصبى ، كما يهاجم الأجنّة فى بطون أمّهاتها المصابة بفيروس المرض، كما يصيب المريض بالإسهال المزمن الذى يؤدى إلى جفاف الجسم وهزاله.

كما ينتقل المرض إلى الجهاز التّنفسى فيصيبه بالتهابات عديدة قد تنتهى بالتّدرُّن الرّئوى [السّل Tuberculosis] ويتسبّب مرض نقص المناعة فى العديد من سرطانات الجلد وأمراضه، ويهاجم الجهاز العصبى المركزى ممّا يؤدّى إلى أمراض عصبيّة ونفسيّة مُختلفة، وقد يصل إلى المخّ فيصيبه بالالتهابات والأورام التى تنتهى بالخَرَف أو الموت، هذا فضلا عن الإصابة بالعُقم عند الجنسين وبالآلام المبرّحة فى مختلف أنحاء الجسم .

ولا يوجد علاج حقيقى لهذا المرض بعد أن أنفقت الولايات المتحدة وحدها ما يعادل [۱۱۸ بليون دولار] على مدى عشرين سنة فى محاولة للوصول إلى مصل مضادّ لهذا الفيروس أو واقٍ للأجنّة فى أرحام الأمّهات المصابات به دون جدوى، وتقدّر منظمة الصّحة العالمية عدد المصابين بهذا المرض العضال فى سنة ۲۰۰۰م بما يتراوح بين ۳۰ مليونا و ٤٠ مليون فرد، وقد تضاعف هذا العدد فى هذه الأيام أضعافا كثيرة.

(۲) مرض الزُّهــرى [VENEREAL DISEASE]

ويظهر هذا المرض على هيئة قروح جلديّة خاصّة فى الأعضاء التّناسليّة وحولها، وفى الشّفاه وبين الأصابع وفى الأغشية المخاطيّة بالجسم، ويصاحب ذلك بآلام فى المفاصل وبالصّداع الشّديد خاصّة عند النّساء اللاتى يضطرب عندهنّ الحيض، ويسقط الشّعر من بُقع متفرّقة من الرّأس والحاجبين، وتتشقّق الأظافر، ويتطوّر هذا المرض ليصل إلى

الأجهزة الدّاخلية بالجسم مثل الكبد والجهاز الهضمى والعُقد البلعميّة فيلهبها، ويؤدّى إلى انتشار الأورام المدمّرة للأنسجة، وإلى ظهور التّدرُّنات الجلديّة المختلفة والتهاب المفاصل والعضلات وتشوّه العظام، وتدمير الجهاز العصبى والمخّ.

وقد يُصاب المريض باليرقان والاستسقاء فى البطن، وإلى عدد من الالتهابات فى أماكن مختلفة من الجسم تنتهى بكوارث من مثل فقدان البصر وغيره من الحواسّ وتشوّهات القلب والأوردة والشّرايين التى قد تُفضى بالمصاب إلى القبر بعد معاناة وآلام لا تُطاق، وقد تنتقل هذه الأمراض إلى النّسل، فليس هناك احتمال لولادة طفل سليم من أمّ مصابة بمرض الزُّهرى أو من أب يحمل مسبّبات هذا المرض.

(٣) مرض السّيلان [GONORRHEA]

ويصيب هذا المرض الجهاز البولى - التّناسلى بالتهابات شديدة تؤدّى إلى إفراز قيح مُخاطى مع البول، وقد تنتقل جرثومة هذا المرض بلمس المريض أو لمس بعض ملابسه أو حاجياته، وهذا المرض قد ينتهى بالمريض إلى العُقم الكامل بعد سلسلة من الالتهابات المؤلمة فى الجهاز البولى التّناسلى وقد تنتقل إلى بقيّة أجهزة الجسم.

وتعانى المرأة المصابة بهذا المرض من مضاعفاته الجسديّة والنّفسية أضعاف معاناة الرّجل خاصّة عندما تصل الإصابة إلى الجلد وتؤدّى إلى إصابات عديدة به، أو إلى العينين فتصيبهما بالعمى، أو إلى الأجنّة فى بطون الأمهات المصابات فيؤدّى ذلك إلى تشوّهات خلقيّة عديدة، ومن أخطار هذا المرض [كمونه] بمعنى عدم ظهور الأعراض الخارجيّة له مباشرة وجراثيمه كامنة فى داخل جسد المصاب ينقلها إلى غيره دون علمه.

(٤) مرض التّقرُّحات الفيروسيّة [HERPES]

ويُعرف هذا المرض أيضا باسم الحُمّة الحلئيّة [HERPESVIRU] ويُصيب الجهاز البولى التّناسلى بالتهابات مصحوبة بنزول سوائل بيضاء أو صفراء كريهة الرّائحة تلطّخ الملابس الدّاخلية للمصابين، وتُؤدّى إلى زحف البثور النّاتجة عن هذه الالتهابات لتنتشر على الجلد وتتحوّل بالهرش إلى جروح شديدة الإيلام.

وفيروسات المرض تنتقل بالعدوى ومن أخطارها أنّها تهاجم الأعصاب وتتسبّب فى تدميرها، فإذا وصلت إلى النّخاع الشّوكى تسبّبت فى التهاب السّحايا، وإذا وصلت إلى المخّ قد تؤدّى إلى الموت، ولا يوجد لهذا المرض علاج ناجع إلى اليوم حيث إنّ كلّ الأدوية المقترحة تخفّف من الآلام النّاتجة عنه فقط على المدى الطّويل من التّداوى دون القضاء تماما على فيروسه الذى يظلّ كامنا بجسم المصاب، وقد تؤدّى إلى سرطانات الجهاز البولى التّناسلى مثل سرطانات الرّحم والبُرستاتة وغيرها.

ومن أخطار هذا المرض أنّه سريع الانتقال بالعدوى من إنسان لآخر بشكل مباشر، لأنّه لا يصيب إلاّ الإنسان، فإذا وصلت فيروساته [HS,V(1),HS,V(2)] إلى الجلد فإنّها تتكاثر بسرعة مذهلة، ومن أخطاره أيضا قدرة فيروساته على الاختباء فى داخل جسم المصاب فلا يصلها تأثير المضادات الحيويّة بسهولة، ومن أخطار هذا المرض كذلك إمكانيّة إصابة الأجنّة فى بطون الأمهات المصابات أثناء عبورها لمنطقة عنق الرّحم فيُولد المولود فاقد البصر أو مشوّه الخلقة أو مدمّر المخّ.

ومع الفوضى الجنسيّة التى تجتاح عالم اليوم خاصة بين المراهقين تحت مسمّى [الحريّة الشّخصية] والتى ساعدت على استعارها البحوث الطبيّة بتوفير وسائل وأدوية منع الحمل والسّماح بالإجهاض فى أغلب الدّول غير الإسلاميّة ممّا شجّع على ممارسة الجنس فى سنّ مبكّرة، فلا يكاد الشّاب أو الشّابة يصل إلى سنّ العشرين إلاّ ويكون قد أُصيب بأحد الأمراض الجنسيّة التى انتشرت مؤخّرا كانتشار النّار فى الهشيم، والمصاب بها يدخل فى دوّامة من العلل الجسديّة ومن أبرزها العُقم وأمراض نقص المناعة والأورام السّرطانية والأمراض النّفسيّة والتى من صورها القلق والتوتّر النّفسى والاضطراب السّلوكى والعوارض العصابيّة والانهيارات النّفسية وغيرها.

(٥) مرض النّمو البلعمى الالتهابى

ويظهر على هيئة حويصلة أو عدد من الحويصلات فى جلد المناطق التناسليّة يتجمّع داخلها سوائل سرعان ما تتقيّح، ثمّ تتحوّل إلى تورّمات مؤلمة ناتجة عن التهاب وتضخّم الغدد البلعميّة، ويكون التّورُّم عادة فى شكل عقد متفرّدة تتجمّع لتصبح كتلة واحدة تشكّل خرّاجا أو عددا من الخرّاجات تتحوّل إلى ناسور يفرز صديدا نتنا مختلطا بالدم، وقد يتحوّل إلى تشوّهات خلقيّة عديدة.

ويصاحب هذا المرض عادة بشىء من ارتفاع درجة حرارة الجسم، والتّعرُّق، والغثيان، والرّغبة فى التّقيؤ، وآلام فى الظّهر والمفاصل، وانسداد فى الشهيّة، ونقص فى الوزن، وشعور بالانحلال العام فى الجسم، خاصّة إذا وصلت الالتهابات إلى السّحايا الدّماغية أو تحوّلت إلى عدد من الأورام السّرطانيّة[(١)]].

وبالإضافة إلى هذه الأمراض الخطيرة فإنّ هناك أكثر من سبعين مرضا وعارضا مرضيا آخر تنقلها العلاقات الجنسية غير المشروعة، وأغلب هذه الأمراض تسبّبها فيروسات وأنواع من البكتريا والفطريّات والطّفيليّات التى وهبها الخالق سبحانه القدرة على مقاومة المضادّات الحيوية التى تعالج بواسطتها، وقد قال تعالى فى بلاغه القرآنى:

---

(١) نقلا عن مقال للأستاذ الدكتور زغلول النجّار [أهرام ٣ / ٧ / ٢٠٠٦ ص ١٨].

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة : ٢١ - ٢٢].

وإذا كانت جريمة الزّنى تدمّر الجسد تدميرا كاملا بلا أدنى رحمة، فإنّها تدمّر كذلك كل القيم والأخلاق فى المجتمعات التى تنتشر فيها فتغيب الفضائل، وتسود الفواحش. ويتلاشى الحياء، وينتهى الوفاء، وتنقلب الموازين، ويعمّ الفساد ويُمحى التّراحم بين النّاس، فلا يتحاكمون إلاّ بالكذب والسّفالة.

والزّناة لا يتعاملون إلاّ بالوقاحة والخديعة، والدّناءة، ولا يعيشون إلاّ بالغدر والجريمة، ولا تتحكّم فيهم إلاّ الشّهوات الدّونية، ولا تحرّكهم إلاّ رغباتهم الحيوانية، ونفوسهم الوضيعة، وأفكارهم السّاقطة، وعقولهم المنحطّة وقلوبهم الميّتة، التى تتحكّم فيها شياطين الإنس والجنّ تحكما شاملا، ومجتمع هذا شأنه مآله إلى الدّمار والخسار مهما امتدّ به الأجل وطال.

ومع انتشار جريمة الزّنى كذلك تتفكّك العلاقات الأسرية، وتهون الأعراض وتختلط الأنساب، وتشتعل العداوات، وتزداد الخلافات، ويكثر أبناء الحرام وينتشرون بين النّاس، وترتفع معدّلات الجريمة، وتضيع الحقوق، وتكثر الأمراض النّفسية والعضوية، وتنتشر بين النّاس أسباب البغضاء والكراهية، وتتلاشى من قلوبهم الغيرة والحميّة وينمحى الإحساس بالعار، والشّعور بالذّنب، فتكثر المعاصى وتنتشر الفتن.

ويضاف إلى ذلك ما يكون من آثار جريمة الزّنى من الأضرار الاجتماعية والاقتصادية على مستوى الأفراد والجماعات ما لا يكاد العقل يتصوّره من ظهور البغايا والعاهرات واللّقطاء والمشبوهين، ومن هنا كانت روعة التّشريع الإسلامى بتحريم مجرّد الاقتراب من مقدّمات الزّنى كما فى قوله جلّ شأنه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢].

(٩) قذف المحصنات

لمّا كان من مقاصد الشّرع الحكيم حفظ أعراض المسلمين وصون كرامتهم، ووضع السّياج المنيع لحماية شرفهم، فقد اعتبر أنّ قذف المحصنات المؤمنات الغافلات من أعظم الكبائر التى نهى عنها الخالق عزّ وجلّ فى قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النّور: ٢٣].

والقذف فى اللّغة هو الرّمى بالزّنى فى معرض التّعبير، كما يُطلق القذف على ما يُراد به السّبّ، وهذا إذا ذكر كلّ منهما منفردا، فإذا ذكرا معا لم يدلّ أحدهما على الآخر

ومنه قوله ﷺ عند مسلم في حديث المُفلس «وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا[1]».

والقذف في اصطلاح الفقهاء نسبة من أُحصن إلى الزّنى واللّواط صريحا أو دلالة. و(قال) ابن عرفة [القذف الأعم نسبة آدمي غيره لزنى أو قطع نسب مسلم، قال والأخصّ لإيجاب الحدّ نسبة آدمي مكلّف غيره حرًّا عفيفًا مسلمًا بالغًا، أو صغيرة تطيق الوطء لزنى أو قطع نسب مسلم[2]].

وإنّما سُمّيَ اتهام المسلم المحصَن «قَذْفًا» لأنّ النّاطق بكلمة «الزِّنَى» يقذفها كما يقذف الحجر في حالة غضب لا يدرى من أصابته في طريقها، وقد وصف الله تعالى النّساء في سورة النّور بأوصاف ثلاثة:

(١) «بالمحصنات» وهنّ المصونات اللاّتى جُعل عليهن حصن منيع.

(٢) و«بالغافلات» أى الخاليات الذّهن عن التّفكير في المنكر فضلا عن التّوجه إليه.

(٣) و«بالمؤمنات» اللاّتى آمَنَّ بالله تعالى والتزمن بأحكام دينه وحدوده.

واسم «الإحصان» يقع على المتزوّجة وعلى العفيفة وإن لم تتزوّج لقول الله تعالى في مريم﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء: ٩١]. وهو مأخوذ من [منع الفرج فإذا تزوّجت منعته إلاّ من زوجها وغير المتزوّجة تمنعه على كلّ أحد[3]].

وكان من مقتضى حكمته سبحانه أنّ سنّ التّشريع الزّاجر للنّفوس الجامحة التى قد يدفعها الغضب إلى أن تُصيب النّاس في كرامتهم وتخدش شرفهم وتنكّس رءوسهم، ومن أجل ذلك فرض الله تعالى حدّ القذف الرّادع الكفيل بصيانة الأعراض وحفظ الكرامات، وإنّما خصّ القذف بالرّمى بالزّنى لما فيه من هتك السّتر وافتضاح السّوءات وانتهاك الحُرمات، ويجلب العار الذى يؤدّى إلى سفك الدّماء.

ولقد رتب الشّرع على قذف المحصن أو المحصنة ثلاث عقوبات تضمّنها النصّ الإلهى الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وهى:

(١) جلد القاذف ثمانين جلدة ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾.

(٢) وردُّ شهادته أبدا ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

(٣) والحكم على القاذف بالفسق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النّور: ٤].

ولقد ذكر الله تعالى في الآية الكريمة فظاعة أمر هذه الجريمة وشنّع على من وقع

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨١].

(٢) انظر شرح حدود ابن عرفة [ص ٦٤٢].

(٣) انظر المذاهب الأربعة للجزيرى [ج ٥ ص ٢١٢].

فيها، وشرح عظيم خطرها وشديد وعيدها، وأى وعيد أشدّ من اللّعنة فى الدّنيا والآخرة وهو الطّرد من رحمته تعالى واستحقاق العذاب الأليم، وتقرير ذنبه بشهادة جوارحه عليه بما يُخزيه ويقطع حُجّته ويسدّ عليه باب التّنصّل من ذنبه أمام الأشهاد يوم القيامة.

(١٠) شرب الخمر

شرب الخمر كبيرة من الكبائر التى حرّمها الشّارع الحكيم لما لها من أسوأ الأثر فى حياة الإنسان الصّحيّة والخُلُقيّة، ولما يترتّب عليها من المفاسد التى تُؤدّى إلى ذهاب العقل الذى هو مناط التّكليف والاختيار بين البديلات، حتّى سمّاها بعض السّلف «بأُمّ الخبائث».

وجاء حكم القرآن باجتناب الخمر لكونها رجس من عمل الشّيطان فى قوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]. فوصف الله تعالى فيها الخمر:

(١) بأنّها [رِجْسٌ] وهو القذر والنّتن ويُطلق على ما يُستقبح فى الشّرع وفى نظر الفطر السّليمة، والرّجس والنّجس مُتقاربان لكنّ الرّجس أكثر ما يقال فى [المستقذر طبعا]، والنّجس أكثر ما يقال فى [المستقذر عقلا وشرعا]. فإذا ما قالوه مع الرّجس أتبعوه إيّاه بقولهم [رِجْسٌ نَجِسٌ].

كما أشار القرآن الكريم إلى أنّ الخمر جماع كلّ إثم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢١٩]. والإثم ما يجب التّحرّز منه شرعا وطبعا ويُعبر به عن الانسلاخ عن صفاء العقل ومنه سُمّى الخمر إثما لأنّها سبب الانسلاخ من العقل.

(٢) ثمّ قرن «الخمر» بالميسر والأنصاب والأزلام، وأشار إلى أنها من أعمال الوثنية والشّرك، فكأنّها ملازمة لهذه المنكرات.

(٣) وقرنها «بعمل الشّيطان» لأنّ الشّيطان نجس خبيث والخبيث لا يدعو إلاّ إلى الخبيث، وهكذا سمّاه رسول الله ﷺ فى قوله «اللّهُمّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجِسِ الْخَبِيثِ الْمُخَبِّثِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[١]».

(٤) ثمّ جاء النّهى عنها بلفظ «الاجتناب» فقال﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ وهو أبلغ من لفظ التّحريم والتّرك لأنّه يُفيد الأمر بأن يكون التّارك فى جانب بعيد عن الشّىء لخطورته وفظاعته، وهو يقتضى الاجتناب المطلق الذى لا يُنتفع معه بشىء بوجه من الوجوه لا

(١) ذكره أبو عبيد فى غريب الحديث [١٣٨] وأورده الألبانى فى الضّعيفة [٢١٨٩].

بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك والأمر فيه على الوجوب.

والخمر ما أسكر من «عصير العنب» وتُطلق عند الجمهور على كلّ ما يُسكر، ولو من غير العنب، والخمر يُذكّر ويُؤنث، فيقال هو الخمر وهي الخمر، وجاء في تسمية الخمر «خمرا» ثلاثة أقوال وهي كلّها موجودة فيها:

(أحدها) أنّها تُخَمِّرُ العقل أي تُغَطّيه وتستره مِنْ خَمَّرَ الشَّيْءَ أي غَطَّاهُ، أخذا من خمار المرأة الذي تستر به رأسها.

(والثّاني) أنّها تُخَمَّرُ نفسها لئلاّ يقع فيها شيء يفسدها، وخُصَّتْ بذلك لدوام جودتها وشدّة سورتها تحت الغطاء ومنه قوله ﷺ «خَمِّرُوا الآنِيَةَ». أي غطُّوها.

(والثّالث) لأنّها تُخَامِرُ العقل وتلابسه من خَامَرَ الشَّيْءَ أي خَالَطَهُ وتَغَلّبَ عليه.

والخمر من الكبائر التي لُعنت على لسان رسول الله ﷺ بل لُعن معها كلّ من له صلة بها من قريب أو بعيد، ومعنى اللّعن الطّرد من رحمة الله تعالى والحرمان من رضوانه عزّ وجلّ. فجاء الحكم فيها على لسان نبيّه ﷺ بقوله «لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ(١)».

وشارب الخمر تنتفي عنه صفة الإيمان فلا يدخل الجنّة ولا يجد ريحها لقوله ﷺ «وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ(٢)». أي ولا يشرب الشّارب الخمر، وكذلك مدمنها لقوله ﷺ «ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ وَقَاطِعُ الرَّحِمِ وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ(٣)». وقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ(٤)».

ولذلك أجمع المسلمون على تحريم شرب الخمر وأجمعوا كذلك على وجوب الحدّ على شاربها سواء شرب قليلا أو كثيرا، ويأتي قول النّبي ﷺ «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ(٥)». كما يأتي قوله ﷺ «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا(٦)»: ليُلحق بالخمر كلّ ما يُغطي العقل:

* فالحشّيش حرام يُحَدُّ متناوله كما يُحَدُّ شارب الخمر لإفساده العقل والصّحة حتّى يصير في الرّجل تخنّث ودياثة وغير ذلك من الفساد، ومثله الأفيون والقات وكذلك الهيروين، ولذلك قال بعض علماء الحنفيّة [إنّ من قال بحلّ الحشيش زنديق مبتدع].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٧٤] وابن ماجه [٢٧٤١] وزاد «وآكِلِ ثَمَنِهَا».

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٧٧٢] ومسلم [٥٧].

(٣) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٧٣٩٢] وافقه الذّهبي صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٧٣٨٩] وافقه الذّهبي صحيح.

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠٠٣] وأبو داود [٣٦٧٩].

(٦) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٨٨] وابن ماجه [٣٢٦٣].

وهذا يأتى دلالة على ثبوت حُرمتها، وأنه لـمّا كان الكثير من المواد يُخامر العقل ويُغطّيه ويُحدث من الطّرب واللّذة عند متناوليها ما يدعوهم إلى تعاطيها والمداومة عليها، كانت داخلة فيما حرّمه الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الخمر والسّكر.

* وشرب البيرة من الأمور المتّفق على حُرمتها وهى «خمير خبز الشّعير» والقاعدة فى ذلك أنّ «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ[1]». وما جاء من قوله ﷺ عن عائشة رضى الله عنها «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَا أَسْكَرَ مِنْهُ الْفَرَقُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ[2]». (قال) الخطّابى: «الْفَرَقُ»: مِكْيَلَةٌ تَسَعُ سِتَّةَ عشر رطلا.

وفى هذا أبنى البيان أن الحرمة شاملة لجميع أجزاء الشّراب المسكر، وأنّ القليل منه يدعو إلى الكثير، بل أثبتت التّجارب العلمية أن [البيرة] تسبب تضخّما فى القلب وتمدّدا فى صماماته وقد قال الله تعالى﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟﴾[البقرة: ١٩٥]. ولا يرتاب مُرتاب فى أنّ تعاطى هذه المواد «حرام» لأنّها تؤدّى إلى مضارّ جسيمة تُفسد العقل وتفتك بالبدن.

وجمهور الأئمة على أنّ عقوبة شرب الخمر «الجلد» وهى من الحدود المقرّرة شرعا والثّابتة بكتاب الله تعالى، وقال بعضهم أنّ الجلد من باب التّعزير، ومع ذلك فقد اختلفوا فى مقداره فقال أهل الظّاهر: حدّه «أربعون جَلْدَة» لأنّه هو الثّابت عن النّبى ﷺ بحديث أنس قال «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ فِي الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ[3]».

[قالوا] ويكفى هذا الحدّ ولو تكرّر منه الشّرب، وقال الشّافعى: للإمام أن يبلغ به ثمانين وتكون الزّيادة على الأربعين تعزيرات على تسبّبه فى إزالة عقله، وفى تعريض نفسه للقذف وأنواع الإيذاء التى يمكن أن تحدث منه، وترك الصّلاة وغير ذلك لقول أمير المؤمنين على رضي الله عنه «جَلَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ[4]». وزاد أبو داود «وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ».

وقال الأئمّة الثّلاثة [أنّ حدّ الخمر «ثمانون جلدة» لأنّ عمر قدّره بثمانين جلدة حيث رأى أنّ الخمر قد فشت فى بعض الجهات فشدّد العقوبة لزجر الشّاربين ووافقه الصّحابة على ذلك، فالزّيادة ليست من الحدّ وإنّما هى تعزير للإمام أن يفعله[5]].

(١١) شهادة الزّور

ورد فى الصّحيح أنّ شهادة الزّور كبيرة من الكبائر لاستباحتها الدّماء والفروج والأموال.

(١) حديث حسن أخرجه أبو داود [٣٦٨١] والتّرمذى [١٨٦٥]. (٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٨٧] والتّرمذى [١٨٦٦] وابن حبّان [١٣٨٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٧٧٣] ومسلم [١٧٠٦] والتّرمذى [١٤٤٣]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٠٧] وابن ماجه [٢١٠٠] وأبو داود [٤٤٨٠]. (٥) انظر المذاهب الأربعة للجزيرى [ج ٥ ص ١٠].

وقد جاء النّهي عنها بعدما قرنها بالشّر في قول الله تعالى ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]: أي ابتعدوا عن الرّجس الذي هو الأوثان وابتعدوا عن شهادة الزّور. وجاء عن نبيّنا ﷺ التّحذير الشّديد منها في قوله ﷺ «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ[١]».

والشّهادة خبر قاطع من المشاهدة والمعاينة، وفي «التّعريفات» [إخبار عن عيان بلفظ «الشّهادة» في مجلس القاضي بحقّ للغير على آخر، أمّا «الزّور» فهو الباطل والكذب في هذه الشّهادة[٢]]. وسُمّي «زُوراً» لأنّه أُميل عن الحقّ ومنه قول الله تعالى ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي تميل وتنحرف من الازورار، والزّور الميل، وكلّ ما عدا الحقّ فهو كذب وزور، والزّور هو الباطل وهو مشتقّ من [تزوّر السّور] لا من تزوير الكلام لأنّ تزوير الكلام تحسينه.

(قال) القرطبي [تضمّن قول الله تعالى ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: الوعيد على شهادة الزُّور، وينبغي للحاكم إذا عثر على شاهد الزّور أن يعزّره ويُنادي عليه ليُعرف بين النّاس لئلاّ يغترّ بشهادته أحد[٣]]. أمّا كون شهادة الزّور جريمة خُلُقيَّة شائنة تنافي النّظم العمراني وتُفضي إلى الفوضى في نواحي الحياة، فهو أمر ظاهر لا يخفى على أحد، فهي شرّ مستطير يجب على النّاس أن يُنزّهوا أنفسهم عنه، ويأتي بيان النّبي ﷺ أنّها «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ» لكونها أسهل وقوعا على النّاس والتّهاون بها أكثر، والحامل عليها أمور كثيرة مثل العداوة والحقد والحسد، فاحتيج إلى بيانها والتّأكيد على حرمتها لخطورة وقوعها.

(١٢) اليمين الغموس

اليمين الغموس هي الحَلفُ على الشّيء مُتعمّداً وهو يعلم أنّه آثم كاذب ليرضي به أحدا، أو يعتذر لمخلوق، أو يقتطع به ما ليس من حقّه، وهو أعظم من أن يكون فيه كفّارة لكونه قد جمع بين الكذب والاستخفاف باليمين، والتّهاون بها واستحلال ما للغير أو ظلمه، فأهان ما عظّمه الله، وعظّم ما حقّره الله، فكان لا يستحقّ بها إلاّ الإثم الذي يُودي به إلى الغَمس في نار جهنّم.

كما عُرِّفت [اليمين الغموس] بأنّها اليمين الفاجرة الكاذبة عمداً في الماضي أو في الحال أو الاستقبال، سواء أكانت على النّفي أم على الإثبات كأن يقول [والله ما فعلت كذا] وهو يعلم يقينًا أنّه فعله، أو يقول [والله لقد فعلت كذا]. وهو يعلم كاذبًا أنّه لم يفعله [[٤]].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٢٦٥٤] ومسلم [٨٧]. (٢) انظر التّعريفات [ص ١١٤]. (٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٢ ص ٥٥]. (٤) انظر الموسوعة الفقهيّة [ج ٧ ص ٢٥٠ - ٢٥١].

ولا نزاع في أنّ هذه اليمين الفاجرة من الكبائر بشرط أن يترتّب عليها قطع حقّ أو إيذاء من لا يستحق الإيذاء أو إدانة برىء أو نحو ذلك لما رواه البخارى أنّ أعرابيا جاء إلى النّبىّ ﷺ فقال «يارسول الله ما الكبائر؟ قال الإشراك بالله، قال ثمّ ماذا؟ قال عقوق الوالدين، قال ثمّ ماذا؟ قال اليمين الغموس. قلت ما اليمين الغموس؟ قال الّذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب[١]».

كما جاء قول النّبى ﷺ عند البخارى «أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس[٢]». وسمّيت «غموسًا» لأنّها تغمس صاحبها فى الإثم ثمّ فى النّار، وغموس للمبالغة، وفى تفسير قول الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾[النحل: ٩٤]. (قال) الطّبرى [أى تغرّون بها النّاس فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين[٣]].

أمّا إذا لم يترتّب عليها شىء من ذلك فإنّها تكون صغيرة لا كبيرة، وقال بعض العلماء أنّ اليمين الغموس كبيرة مطلقا لأنّ الحالف بها قد انتهك حرمة اسم الله تعالى فجزاؤه العذاب الأليم إلاّ إذا تاب توبة نصوحا، وقد نهى الشّرع الشّريف عن اليمين الكاذبة وجعلها من الكبائر التى تستوجب غضب الله عزّ وجلّ وتُدخل صاحبها نار جهنّم إذا لم يتب منها قُبيل مماته أو يُكفّر عنها:

* لما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقّ لقى الله وهو عليه غضبان[٤]». قال عبد الله «ثمّ قرأ علينا رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ٧٧].

* وقوله ﷺ «من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النّار وحرّم عليه الجنّة. قالوا وإن كان شيئًا يسيراً يارسول الله؟ فقال وإن كان قضيبًا من أراك[٥]».

* وقوله ﷺ «من حلف بيمين آثمة عند منبرى هذا فليتبوّأ مقعده من النّار ولو على سواك أخضر[٦]».

واختُلف فى اليمين الغموس هل هى يمين منعقدة أم لا؟ فالذى أجاب عليه علماء الأمّة أنّها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد وليس لها كفّارة إلاّ التّوبة منها، و(قال)

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٢٠].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٦٧٥].
(٣) انظر جامع البيان لابن جرير الطّبرى [ج ١٤ ص ١٦٨].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٦٧٧] وأبو داود [٣٢٤٣] وابن ماجه [١٨٩٥].
(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٧] وابن ماجه [١٨٩٦].
(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٨٩٧] وأبو داود [٣٢٤٦] وأورده فى الإرواء [٢٦٩٧].

الشّافعي [هي يمين منعقدة لأنّها مُكتسبة بالقلب، معقودة بالخبر، مقرونة باسم الله تعالى، وفيها الكفّارة كغيرها من الأيمان(*)، فمتى أخرج كفّارتها سقط عنه إثمها والله تعالى أعلم]. وروى البيهقي عن ابن مسعود قال «كُنّا نَعُدُّ مِنَ الذَّنْب الّذى لا كفّارة لَهُ الْيَمينَ الْغَمُوسُ، فَقِيلَ مَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ قَالَ: اقْتِطَاعُ الرَّجُلِ مَا أَحَلَّهُ بِالْيَمِينِ الْكَاذِبَة(١)».

(قال) مالك [فَأَمَّا الّذى يَحلفُ عَلَى الشَّيْءِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّهُ آثمٌ، وَيَحْلفُ عَلَى الْكَذب وَهُوَ يَعْلَمُ ليُرْضِى به أحداً، أَوْ ليَعْتَذرَ بِهِ إِلَى مُعْتَذرٍ إِلَيْه، أَوْ لِيَقْطَعَ بِهِ مَالاً، فَهذَا أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَفّارَةٌ(٢)».

(١) أخرجه البيهقي بإسناد حسن [ج ١٠ ص ٣٨].

(٢) أدرجه في الموطأ بالحديث رقم [١٠٠٧].

(*) [الْيَمينُ]: من الألفاظ المشتركة التي جاءت في اللّغة على عدّة معان ثم استعملت في الحلف لأنّهم كانوا في الجاهلية إذا تحالفوا تصافحوا بالأيمان تأكيدا لما عقدوا عليه، فسُمّي القسم «يمينا» لاستعمال اليمين فيه، ولأنّ الحالف يتقوّى بيمينه على تحقيق ما قرنه بها من تحصيل أو امتناع، واليمين في اللّغة: القوّة. قال تعالى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥]. أى بالقوّة والقدرة منّا.

وكما تُطلق اليمين على { الجارحة } تطلق أيضا على { الجهة اليُمنى } ويقابلها اليسار، واليمين مؤنثة وتذكّر وتجمع أيضا على: أَيْمُن وأَيْمَان، فسُمّي القسم {يمينا} لاستعمال اليمين فيه، أى مطلق الحلف بأى شيء كان من غير تخصيص. ومن مسمّيات اليمين:

(١) {الْحَلِفُ}: من حَلَفَ الشَّخصُ يَحْلِفُ حَلْفًا وَحَلِفًا: أَقْسَمَ. قال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

(٢) {الْقَسَمُ}: وهو اليمين مُطلقا، يقال: أقسم الرّجل إذا حلف ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]. وقوله تعالى ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة: ١٠٧]. ومنه قول الله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. ومنه قوله تعالى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. (قال) الميداني: إنّها اليمين بعدد مخصوص وسبب مخصوص على وجه مخصوص. [انظر اللّباب شرح الكتاب ٣ / ١٧١]. وجاء في الإقناع [٣ / ١٨٣]: أنّها اسم للأيمان التي تُقسم على أولياء الدّم.

(٣) {الإيلاءُ}: وهو أن يحلف الزّوج ألاّ يباشر زوجته إمّا لأجل غير محدود وإمّا لأجل طويل معيّن ومنه قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. وهو مأخوذ من (آلى يُولي إيلاءً وتولية): إذا حلف على فعل شيء أو تركه. واصطلاحا: اليمين على ترك وطء المنكوحة مدّة مخصوصة. (أو) هو اسم ليمين يمنع بها المرء نفسه عن وطء منكوحة. (قال) ابن الحاجب: حلف الإيلاء في اللّغة هو اليمين مطلقا، وقيل: هو الامتناع ثمّ استعمل في امتناع خاص [انظر معجم المصطلحات ج ١ ص ٣٤٥].

وحرفا [الباء والواو] يستعملان في جميع ما يقسم به المسلم من أسماء الله تعالى وصفاته، وأمّا [التّاء] فلا تستعمل إلاّ في لفظ الجلالة [الله] فنقول [تالله]. وبالتّالي فإن من صيَغ القسم المشروعة [أقسم] و [أُقسمُ بالله] و [أحلف] و [أحلف بالله] و [عهد الله] و [القرآن] و [المصحف] و [حقّ الله] و [أشهد بالله] و [أعزم بالله] و [عَمْرُ الله] و [وايم الله: أى ويمين الله] و [والذى نفسى بيده]. قاله ابن قدامة في المغني [ج١٣ ص ٤٦٠]. وروى عبد الرّزاق عن معمر بن طاوس عن أبيه في الرّجل يقول

[عليَّ عهد الله وميثاقه، قال: يمين يكفِّرُها] - انظر صحيح مصنّف عبد الرّزاق [١٥٩٧٩].

و[اليمين شرعا]: عبارة عن تأكيد الأمر وتحقيقه بذكر اسم الله تعالى أو بصفة من صفاته عزّ وجلّ، أمّا تعريفه اصطلاحا: فهو الحلف باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته، أو تقوية أحد طرفي الخبر بذكر الله تعالى أو بصفة من صفاته، وعرّفها بعض الحنابلة بأنّها: توكيد حكم بذكر مُعظَّمٍ على وجه مخصوص. ومن ذلك قوله ﷺ عند أبي داود [٣٢٥١] والتّرمذي [١٥٣٥] في كراهية الحلف بغير الله تعالى «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وقوله «أشْرَكَ»: للمبالغة في الزّجر والتّغليظ في ذلك، والحكمة في النّهي عن الحلف بغير الله تعالى أنّ الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به، وحقيقة العظمة مختصّة بالله تعالى فلا يُضاهي به غيره.

وإذا كان التّعريف «باليمين الغموس» قد جاء على أنّه من الكبائر «العظام» التي نهى عنها رسول الله ﷺ وحذّر من عاقبتها فإنّه يجدر بنا أن نشير إلى قسمين آخرين من أيْمَان النّاس:

(أوّلهما) اليمين المنعقدة:

وهي التي يقصد إليها الحالف قصدا وينوي ما وراءها ممّا حلف عليه ويجب فيها الكفّارة عند الحنث بها، وهي تكون على فعل من المؤتنف أي المستقبل، واليمين المنعقدة هي من العقد وهو على ضربين:

(١) «حِسّيٌّ» كعقد الحبل. (٢) «حُكْميٌّ» كعقد البيع.

وهو ربط القول بالقصد القائم بالقلب، فيعزم بقلبه أولا متواصلا منتظما ثم يخبر عما انعقد من ذلك بلسانه، ومنه قوله تعالى﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٥]. وقوله جلّ شأنه ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾[المائدة:٨٩]. أي لا يؤاخذكم الله باللّغو غير المحقّ ولكن يؤاخذكم بتعقيد النّية وتأكيدها والتّصميم عليها. واليمين المعقودة التي وراءها قصد ونيّة فإنّ الحنث بها يقتضي الكفّارة كما في قول الله تعالى﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]. وفي ذلك جاء قوله ﷺ عند البخاري [٦٧٢١] ومسلم [١٦٥٢]: «إذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ». وفي هذه الكفارة ردٌّ لاعتبار العقد المنقوض وحفظ للأيمان من الاستهانة بها باعتبارها عقود.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعقود فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبرّ فَعَلَ الأبرّ وكفَّرَ عن يمينه، وإذا عقدها على غير ما هو من حقّه كالتّحريم والتّحليل نقضها وعليه التّكفير. وعن ابن عبّاس في قول الله تعالى﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٤]. قال [لا تجعلنّ عرضة يمينك ألا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير]. وكذا قال مسروق والشّعبي والنّخعي ومجاهد وطاوس وعكرمة ومكحول وغيرهم.

وممّا يُستشهد به لهذا التّفسير ما رواه التّرمذي [١٥٣٠] عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ». وعلى هذا يكون معنى الآية [لا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من عمل البرّ والتّقوى والإصلاح بين النّاس، فإذا حلفتم ألاّ تفعلوا فكفّروا عن أيمانكم وأْتوا الخير. فتحقيق البرّ والتّقوى والإصلاح أولى من المحافظة على اليمين]. وحتّى تكون اليمين مُنعقدة فلابدّ وأن تتوافر فيها شروط بعضها خاصّ [بالحالف نفسه]، وبعضها خاصّ [بالشّيء المحلوف عليه]. وبعضها خاصّ [بصيغة اليمين] وهو ما سيتوضّح أمره على النّحو التّالي:

(١) فيُشترط في الحالف الإسلام والعقل والبلوغ والتّلفُّظ باليمين مع القصد والاختيار.

(١٣) ترك الصّلاة متعمّدا

بقدر ما تكون العقيدة راسخة في النّفس، وبقدر ما يكون الإيمان يقظا في القلب تكون استقامة المسلم على أمر ربّه سبحانه، وحرصه على أداء فريضة الصّلاة التي منزلتها في الإسلام بمنزلة الرّأس من الجسد، فهي أساس الدّين وعروته، وعماده ودعامته، وركنه وشعيرته، ومظهره الحيّ الخالد الذي ينبغي على كلّ مسلم أن يقيمه ويحافظ عليه.

وفي قول الله تعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]. خطاب لكلّ حرّ وعبد، وذكر وأنثى، وحاضر ومسافر، وصحيح ومريض، وغني وفقير، أن يُحافظ على الصّلاة، ويداوم على إقامتها في أوقاتها بجميع أركانها وشروطها، وباستقراء الواقع الذي يعيشه هؤلاء الذين يتهاونون فيما أمر الله عزّ وجلّ به من فروض فإنّهم في تفريطهم وتركهم للصّلاة على ثلاثة أقسام:

---

(٢) ويُشترط في المحلوف عليه أن يكون أمرا مُستقبليّا، وأن يكون مُتصوّر الوجود حقيقة عند الحلف، بمعنى أن يكون غير مستحيل وجوده.

(٣) ويُشترط في صيغة الحلف التّلفّظ باليمين فلا تكفي النّيّة وحدها، وأن يكون الحلف باسم من أسماء الله تعالى أو بصفة من صفاته، وأن يكون خاليا من الاستثناء وهو قول الحالف [إن شاء الله تعالى] - (نظر بدائع الصّنائع للكاساني ج ٢ ص ١٠ - ١٢).

ويُعلم ممّا سبق أنّ حكم اليمين المنعقدة هو وجوب الكفّارة على صاحبها في حالة عدم الوفاء بها وهو ما حكم الله به في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النّحل: ٩١]. وكفّارة اليمين المنعقدة تكون بواحدة من ثلاث:

(١) إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم الأهل أو كسوتهم.

(٢) أو تحرير رقبة أي عتق رقبة مسلمة.

(٣) أو صيام ثلاثة أيّام متتابعات أو متفرّقات [إلاّ أنّه لا ينتقل إلى الصّيام إلاّ بعد العجز عن الإطعام أو الكسوة أو عتق رقبة مؤمنة] - (انظر بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٦٢٨).

(الثّاني) اليمين اللّغو

اللّغو هو ما لا يُحتاج إليه من الكلام الذي لا خير فيه ولا يُعتدّ به من (لَغَا في القول لَغْوًا): أخطأ وقال باطلا. (وَأَلْغَى الشَّيْءَ): أَبْطَلَهُ. وفي رواية البخاري [٩٣٤]: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ». ومعناه: بطلت فضيلة جمعتك ومنه: (اللّغو في اليمين): وهو ما لا يعقد عليه القلب ويصدر أثناء الحديث بغير قصد، واليمين (اللّغو) هو اليمين الذي لم يعقد النّيّة على تنفيذه وهو ما يصدر أثناء الحديث بغير قصد، قال ابن عبّاس: هو قول الرّجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: [لاَ وَاللهِ وَبَلَى وَاللهِ] وهو لا يريد بذلك قَسَمًا بالله تعالى وإنّما اعتاد عليه عند الكلام.

وعند البخاري [٦٦٦٣] عن عائشة قالت «نَزَلَ قَوْلُهُ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ لاَ وَاللهِ وَبَلَى وَاللهِ». وجاء عند أبي دلود [٣٢٥٤] بلفظ «هُوَ كَلاَمُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ: كَلاَّ وَاللهِ وَبَلَى وَاللهِ»، والله تعالى لا يُؤاخذ المسلمين بأيمان اللّغو التي ينطق بها اللّسان دون أن يعقد لها القلب بالنّيّة والقصد مع الحضّ على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللّغو بها، إذ أنّه ينبغي أن يكون لليمين بالله تعالى حُرمتها ووقارها فلا تنطق هكذا لغوا لقول النّبي ﷺ من حديث عمر عند البخاري [٢٦٧٩] ومسلم [٣ / ١٦٤٦]: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ».

(الأوّل) من أنكر فرضيّتها وجحد ركنيّتها

فهذا أجمع الأئمّة على كفره لإنكاره فرض الله واستخفافه بأمر معلوم من الدّين بالضّرورة، وحكمه عند جمهور العلماء [حكم المرتدّ] الذى يُقام عليه الحدّ، فتردّ شهادته ولا يقبل منه عدل ولا صرف، لانتفاء صفة الإسلام عنه، وعليه يُحمل عند جمهور العلماء قوله ﷺ «بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ(١)». وقوله ﷺ «الْعَهْدُ الَّذى بَيْنَنا وبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفرَ(٢)». وما رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبى ﷺ قال «لَيْس بَيْنَ الْعَبْدِ وَالشِّرْكِ إلاَّ تَرْكُ الصَّلاَة، فإذا تركَهَا فَقَدْ أَشْرَكَ».

وتأوّلوا قوله ﷺ «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَة(٣)». ونحوه على معنى أنّه مستحقّ بترك الصّلاة عقوبة الكافر وهى القتل، أو أنّه محمول على المستحلّ تركها، أو على أنّ تركها قد يؤول به إلى الكفر، أو على أنّ فعله فعل الكفّار، ولذلك اعتبر أصحاب النّبى ﷺ أنّ الصّلاة هى الرّكن الذى يُعتبر تركه كفراً، فجاحدها لا سهم له عند الله تعالى ولا حظّ له فى الدّين لقول عبدالله بن شقيق «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لاَ يَرَوْنَ شَيْئًا منَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاَة(٤)».

ولمّا كانت الصّلاة من أوّل فروض الإسلام العظيم، ومن آخر ما يُفقد من الدّين، فإنّها بذلك تعتبر أوّله وآخره، وكلّ شىء ذهب أوّله وآخره فقد ذهب جميعه لقوله ﷺ «لَتُنْقَضَنَّ(٥) عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بالَّتى تَليهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ(٦)». وفيه قال الإمام أحمد: كلّ شىء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه، ومن ذهب دينه فهو كافر حلال الدّم، ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «لاَ يَحلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وأَنّى رَسُولُ اللهِ إلاَّ بإحْدَى ثَلاَثٍ النَّفسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانى، وَالْمُفَارِقُ لدينه التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ(٧)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٢] والتّرمذى [٢٦١٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٤٦٢] وابن ماجه [٨٩١ - ٨٩٢] وأحمد [٢٢٨٣٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٨٩٠] وأحمد [١٤٩١٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٦٢٢].

(٥) قوله «لَتُنْقَضَنَّ» من نَقضَ الشّئَ نَقْضًا فأفسده بعد إحكامه، أى لتذهبّن روابط الإسلام عروة عروة وهذا كناية عن المخالفة والعصيان، وقوله «تَشَبَّثَ النَّاس» أى كلّما نقضوا عروة من آداب الدّين اتبعوا التى تعقبها، وهكذا يستمرّ النّقض ويدوم الإنكار والعصيان حتّى تنقطع أوامر العمل بفروض الإسلام، فأوّل العُرَى الْمُضَيَّعَةُ الحكم بالعدل وآخر الهدف الصّلاة.

(٦) أخرجه ابن حبّان فى صحيحه بإسناد قوى [٦٧١٥] والطّبرانى [٧٤٨٦].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨٧٨] ومسلم [١٦٧٦] وأبو داود [٤٣٥٢].

وقوله تعالى ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة : ٣١]. يُبيّن أنّ مدار الإسلام يقوم على التّصديق بالرّسالة والانقياد لأمر الله بالصّلاة، ثمّ جعل الضّدين لذلك مقابل التّصديق بالتّكذيب والصّلاة بالتّولّي في قوله ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة : ٣٢]. فكما أنّ المكذّب بالدّين كافر، [فانّ المتولّى عن الصّلاة كافر، وكما يزول الإسلام بالتّكذيب يزول أيضًا بالتّولّي عن الصّلاة، وفي معنى قوله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ قال قتادة : لا صدّق بكتاب الله ولا صلّى لله، ولكن كذّب بآيات الله وتولّى عن طاعته سبحانه(١)].

(الثّاني) من تركها تهاونًا وتفريطًا مع اعتقاده فرضيتها

اتّفق المسلمون على أنّ ترك الصّلاة كسلاً وتفريطًا وتهاونًا من أعظم الذّنوب وأكبر الكبائر، وأنّ إثم ذلك عند الله عظيم، وأنّ من ترك فريضة ربّه متكاسلاً فهو متعرّض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدّنيا والآخرة، فتاركها على هذا النّحو عند جمهور السّلف والخلف فاسق، وإن لم يتب ويُقم الصّلاة قُتل حدًّا بالسّيف لإصراره على تركها لما جاء في الخبر أنّه : «لاَ سَهْمَ فِي الإِسْلاَمِ لِمَنْ لاَ صَلاَةَ لَهُ(٢)». ومن رواية ابن عمر «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ صَلاَةَ لِمَنْ لاَ طُهُورَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ صَلاَةَ لَهُ، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلاَةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوْضِعِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ(٣)».

ولمّا كان قبول سائر الأعمال موقوفًا على أداء الصّلاة وإقامتها، فإنّ الله تعالى لا يقبل من تاركها صومًا ولا حجًّا ولا صدقةً ولا جهادًا، وهو المعنى الذى أشار إليه عون بن عبد الله عندما قال «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَ قَبْرَهُ سُئِلَ عَنْ صَلاَتِه أَوَّلَ شَيْءٍ سُئِلَ عَنْهُ، فَإِنْ جَازَتْ لَهُ نُظِرَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ عَمَلِه، وَإِنْ لَمْ تَجُزْ لَهُ لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِه بَعْدُ». وهو ما تؤكّده رواية أبي هريرة عن النّبي ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِه الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِه صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ(٤)». فكلّ مستخفّ بالصّلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به. [وحظّ المرء في الإسلام بقدر حظّه من الصّلاة، ورغبة المرء في الإسلام على قدر رغبته في الصّلاة(٥)].

(الثّالث) من أخّر الصّلاة عن وقتها من غير عذر

من ترك الصّلاة عمدًا حتّى خرج وقتها أوجب عليه العلماء قضاءها، ولا يُذهب هذا القضاء عنه إثم التّفويت بل قالوا إنّه مستحقٌّ للعقوبة إلاّ أن يعفو الله عنه، وإذا كان العلماء

(١) انظر كتاب الصّلاة لابن القيّم [ص ١٨] بتصرّف.
(٢) رواه البزّار [انظر التّرغيب والتّرهيب [ج ١ ص ٣٨٠].
(٣) رواه الطّبراني في الأوسط والصّغير وقال تفرّد به الحسين بن الحكم الحبرى.
(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٤١٣] وأبو داود [٨٦٤] والنّسائى [٤٦٤] وابن ماجه [١١٨٠].
(٥) انظر رسالة الصّلاة للإمام أحمد [رقم ١٩].

قد اعتبروا أنّ تأخير الصّلاة عن وقتها من الكبائر، فكيف يتسنّى للمسلم أن يُؤخر صلاة النّهار إلى اللّيل، أو صلاة اللّيل إلى النّهار، أو أن يجمع بين صلوات اليوم كلّها حتّى يؤدّيها آخر اللّيل، وقد جعل الله تعالى الصّلاة فريضة معلومة الوقت موقوتة الإقامة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النّساء:١٠٣].

كما نهى نبيّنا ﷺ عن أن تؤخّر الصّلاة عن وقتها لما في رواية مسلم «إِنَّمَا التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاَةَ حَتَّى يَجِيءَ وَقْتُ الأُخْرَى[١]». بل من الكبائر العظام كما قال عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه «الْجَمْعُ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ[٢]». وكما جاء في الخبر الصّحيح قوله ﷺ لأُمِّ أيمن: «لاَ تَتْرُكِي الصَّلاَةَ تَعَمُّداً، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِه[٣]». وما رواه الحاكم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال «مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الصَّلاَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْكَبَائِرِ[٤]».

وقالت طائفة من العلماء إنّ من تعمّد تأخير الصّلاة عن وقتها من غير عذر يجيز له تأخيرها فهذا لا سبيل له إلى استدراكها بعد فوات وقت جواز أدائها، ولا نزاع بينهم أنّ التّوبة النّصوح تنفعه لوعيد الله من فوت الصّلاة عن وقتها بوعيد التّارك لها في قوله جلّ شأنه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون: ٤ ـ ٥].

وقد فسّر النّبي ﷺ السّهو عنها بتأخيرها عن وقتها لقول سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه «لَمَّا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الآيَةِ قَالَ هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ وَقْتِهَا تَهَاوُنًا بِهَا[٥]». وفي قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال المفسّرون: لمّا قال تعالى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ بلفظة [عَن] عُلم أنّها في المنافقين، ولو قال [في صَلاَتِهِم] لكانت في المؤمنين والفرق بين السّهوين واضح:

* فالمؤمن يعتريه السّهو في صلاته بوسوسة أو حديث نفس، وذلك أمر لا يكاد يخلو منه غيره، فإذا سها تدارك سهوه في الحال جبراً بالسّجود وترغيماً للشّيطان.

* أمّا سهو المنافق فهو سهو التّرك والغفلة وقلّة الاهتمام، فهو لا يتذكّرها إهمالاً وينشغل عن أدائها بدنياه تفريطًا، وفي تعريفه لهذا السّهو قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [هُوَ الْمُصَلِّي الَّذِي إِنْ صَلَّى لَمْ يَرْجُ لَهَا ثَوَابًا وَإِنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخْشَ عَلَيْهَا عِقَابًا].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٨١] والترمذي [١٨٩٥] وأبوداود [٣٧٢٥].

(٢) رواه البيهقي من طريق قتادة عن أبي العالية.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٧٢٣٧].

(٤) أخرجه الحاكم عن ابن عبّاس [١٠٤٨] وقال وهذا الحديث قاعدة في الزّجر عن الجمع بلا عذر.

(٥) رواه البزّار عن عكرمة وقال رواه الحفّاظ موقوفا ولم يرفعه غيره.

كما تضمّنت الآية الكريمة ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]. المعنى ذاته حيث قال المفسّرون إنّ إضاعتها تكون بتفويت وقتها، وهى تتناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها، وروى ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز [لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت(١)].

وإذا كان لم يُفسح للمريض فى تأخير الصّلاة عن وقتها، بل أُمر أن يُصلّى على جنبه بغير قيام ولا رُكوع ولا سُجود إذا عجز عن ذلك، فكيف يتسنّى للصّحيح المعافى المقيم بلا عذر وهو يسمع النّداء بإقامتها أن يدعها حتّى يخرج وقتها ويصليها فى غير الوقت ؟ وهو الأمر الذى شبّهه ﷺ بمن فقد أهله وماله فيتوجّه عليه النّدم والأسف لتفويته الصّلاة فقال «الّذى تَفُوتُهُ صَلاةُ الْعَصرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ(٢)». وفى لفظ لابن حبّان «مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فكَأَنَّمَا وُتِرَ(٣) أَهْلَهُ وَمَالَهُ» وفيه أقوى دليل على أنّ من أخّر صلاته عن وقتها عمداً أنّها قد فاتته، وما فات فلا سبيل لإدراكه أبداً، ولو أمكن أن يُدرك ما سُمّى فائتاً.

فهذا الذى ترك صلاة العصر عمداً حتّى خرج وقتها لو أمكنه استدراكها باللّيل ما حبط عمله وما وُتر فيه كهذا الذى وُتر فى أهله وماله، فغاية جهد المرء مع الصّلاة أن يحافظ عليها بلا تضييع لأوقاتها، أو تفريط فى فروضها تنفيذاً لأمره تعالى ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[البقرة: ٢٣٨]. وقد جاء فى رواية المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النّبى ﷺ ذكر الصّلاة يوما فقال «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً وَبُرْهَاناً وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَىِّ ابْنِ خَلَفٍ(٤)».

فإن قطع المسلم هذه العقبة بعصمة من الله تعالى أو بتوبة نصوح تنجيه من التّفريط فى ركن من أركان الإسلام طلبه الشّيطان على :

(العقبة الرابعة)

وهى الصّغائر

جاء التّعبير عن الصّغائر بتعريفات متعدّدة تدلّ كلّها أنّها الذّنوب التى لا يسلم

---

(١) انظر تفسير الطّبرى [ج ١٦ ص ٩٨].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٥٧٦] وقال فى مجمع الزّوائد [١ / ٢٢٩] رجاله ثقات.

(٣) الْمَوْتُورُ من أُخذ أهله أو ماله وهو ينظر إليه وذلك أشدّ لغمّه فوقع التّشبيه بذلك لمن فاتته الصّلاة لأنّه يجتمع عليه غمّان: غمّ الإثم وغمّ فقد الثّواب كما يجتمع على الموتور غمّان: غمّ السّلب وغمّ طلب الثّأر: [انظر فتح البارى - ج ٣ ص ٣٧].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٨٠٥٠] والدّارمى [١٢٢٦] والطّبرانى فى الكبير [٣١١].

من الوقوع فيها إلاّ من عصمه الله تعالى وحفظه، فعرّفها القرآن الكريم «بالسّيِّئات» في قوله جلّ شأنه ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النّساء: ٣١]. وعرّفها «باللّمم» في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النّجم: ٣٢]: من الإلمام وهو الميل إلى الشّيء وطلبه من غير مداومة فلا يتعمّق فيه ولا يقيم عليه، يقال: أَلَمَّ بالذّنب: فَعَلَه، وألمّ بالشّيء قَرُبَ منه، ويعبّر به عن مقاربة الصّغيرة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما «في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ قال رسول الله ﷺ:

«إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا * وأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا[(١)]»

وهو بيت لأمية بن الصّلت أنشده النّبي ﷺ ومعناه: من شأنك غفران كثير من ذنوب عظام، وأمّا الجرائم الصّغيرة فلا تُنسب إليك، لأنّ أحدا لا يخلوا منها، وأنّها مُكَفَّرَةٌ باجتناب الكبائر، وقوله «إِنْ تَغْفِرِ»: ليس للشّكّ بل للتّعليل نحو إن كنت سلطانا فاعط الجزيل، أي لأجل أنّك غفّارٌ فاغفر جمًّا من جَمَّ جَمًّا وجُمُومًا: أي اجتمع وكَثُرَ فهو [جَمٌّ].

والجمهور على أنّ «اللّمم» ما دون الكبائر، وقيل: هو ما كان دون الزّنى الموجب للحدّ كالقبلة والغمزة والنّظرة، وكالكذب الذي لا حدّ فيه ولا ضرر، وقيل غير ذلك، والظّاهر الرّاجح هو قول الجمهور، وهو أصحّ الرّوايتين عن ابن عبّاس كما في البخاري من حديث طاوس عنه قال: ما رأيت أشبه باللّمم ممّا قال أبو هريرة عن النّبي ﷺ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ[(٢)]».

ويأتي تعريفُ اللّمم على وجهين:

(الأوّل) كلّ ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حدٌّ في الدُّنيا ولا عذابا في الآخرة فذلك الذي تكفّره الصّلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش كما في قول رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَى الْكَبَائِرُ[(٣)]».

(الثاني) هو الذّنب العظيم يلمّ به المسلم المرّة بعد المرّة فيتوب منه، وفيه قال ابن عبّاس «إنّه الذي يلمّ بالكبيرة ثمّ لا يعود إليها[(٤)]».

ومحقّرات الذّنوب هو الوصف الذي جاء به حديث سهل بن سعد مرفوعا للدّلالة على ما ينبغي أن يُتّقى منها «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٢٨٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٧٧٠٥] والبخاري [٦٢٤٣] ومسلم [٢٦٥٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥ / ٢٣٣] والتّرمذي [٢١٤].

(٤) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ٣١٧].

الذُّنوبِ مَتى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ[1]».

وجاء عند النّسائى وابن ماجه بلفظ «يَاعَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ طَالِبًا[2]». ورواه أحمد بلفظ «وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ». (قال) ابن بُطَال [المحَقَّرَاتُ» إذا كَثُرَتْ صارت كبارا مع الإصرار لما روى عن أبي أيوب رضي الله عنه قال «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَثِقُ بِهَا وَيَنْسَى الْمُحَقَّرَاتِ، فَيَلْقَى اللهَ تعالى وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَلاَ يَزَالُ مِنْهَا مُشْفِقًا حَتَّى يَلْقَى اللهَ آمِنًا[3]].

ولا يزال الشّيطان يُهَوِّنُ على المسلم أمر صغائر الذّنوب ومحقّراتها، حتّى يعتقد أنّه إذا ما اجتنب الكبائر فما عليه من شيء إذا غشى اللّمم منها حتّى يصرّ عليها ولم يدرك أنّه لا كبيرة مع التّوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع التّمادى والإصرار، وأنّ الوعيد الشّديد قد جاء على اليسير كما جاء على الكثير لقوله ﷺ من حديث أبى أمامة «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِه فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ يَارَسُولَ اللهِ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ[4]». وروى النّسائى وابن حبّان عن ثوبان من قوله ﷺ «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ[5]».

والذّنوب مهما كانت صغيرة إلاّ أنّها تتغلّظ وتكبر وتعظم فى حقّ من تكرّرت منه مرّات عديدة لتصبح عظيمة كبيرة وهو ما جاء التّحذير منه فى قول أنس عند البخارى «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنَّا كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ[6]». (قال) أبو عبد الله [يعنى بذلك المُهلكات]. وقوله «هِيَ أَدَقُّ» من الدّقّة إشارة إلى تحقيرها وتهوينها، وتستعمل فى تدقيق النّظر فى العمل والإمعان فيه، أى تعملون أعمالا تستهونونها لعدم نظركم إلى عظم المعصى بها [فَهِيَ] لذلك [أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ] استخفافا بها، وكما جاء فى الخبر [لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظم من عصيت]. وهو ما يندرج تحت معنى قوله ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وفى الحديث كمال مراقبة أصحاب النّبى ﷺ لله تعالى وكمال استحيائهم منه سبحانه، حتّى إنّهم يرون تلك الأمور التى استهوَن غيرهم الوقوع فيها مُهلكات لهم لعظم شهودهم جلال الله تعالى وعظمته والخوف من عذابه ورهبته، لذلك ينبغى على المؤمن

(١) أخرجه أحمد بسند حسن صحيح [٢٢٧٠٧] والجامع الصّغير [٢٦٨٦] والصّحيحة [٣٨٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٤٠] وأحمد [٢٤٢٩٦].

(٣) أخرجه أسد بن موسى فى الزّهد وأورده الحافظ فى فتح البارى [ج ١١ ص ٣٣٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٧] ولا يوجد عند غيره من السّتة.

(٥) حديث حسن أخرجه أحمد [٢٢٢٨٦] وابن ماجه [٣٢٦٤] وابن حبّان [١٠٩٠].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٩٢].

أن يكون عظيم الخوف من كلّ ذنب صغيرا كان أو كبيرا ، وكما قال ابن القيّم رحمه الله :

[فإنّ معظم النّار من مستصغر الشّرر، وربّ نظرة زرعت شهوة وربّ شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ، ودخلت امرأة النّار في هرّة لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ولُعنَ إبليسُ وأُهبطَ من منزل العزّ بترك سجدة أُمرَ بها ، وأُخرجَ آدمُ من الجنّة بلقمة تناولها ، وحُجبَ القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كفّ من دم ، وأُمرَ بقتل الزّاني أشنع القتلات بإيلاجه قدر الأنملة فيما لا يحلّ ، وأُمرَ بإيساع الظّهر سياطا بكلمة قذف أو بقطرة من خمر ، وإنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة الواحدة فيهوي بها في النّار سبعين خريفا ، ومَن أحدث قبل السّلام بطُل ما مضى من صلاته ، ومن أفطر قبل غروب الشّمس ذهب صيامه أدراج الرّياح ، فمَنْ أَسَاءَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ لَقِيَ رَبَّهُ بِذَلِكَ الْوَجْه ، فَالْعُمْرُ بِآخِرِه وَالْعَمَلُ بِخَاتِمَتِه ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه:١٣٢]. والعاقبة الجزاء وآخر كلّ شيء وخاتمته ، فمن الجزاء بالشّر قول الله تعالى ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران:١٣٧]. أي جزاؤهم أو خاتمتهم الأليمة أو نهايتهم ، وعن الجزاء بالخير جاء قول الله تعالى ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨]. أي الجزاء الكامل أو الخاتمة الحسنة والسّعيدة[1]].

فإذا أراد الله تعالى بعبده خيراً فتح له من أبواب [التّوبة] والنّدم والانكسار والتّقرّب إليه بدوام الذّل والافتقار ، فتتبدّل السّيئات حسنات حتّى يقول عدوّ الله [ليتني تَرَكْتُه وَلَمْ أُوقِعْهُ!]. وهذا معنى قول بعض السّلف [إنّ العبد ليعمل الذّنب يدخل به الجنّة ، ويعمل الحسنة يدخل بها النّار! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال :

(١) يعمل [الحسَنَة] فلا يزال يمُنُّ بها على ربّه تعالى ويتكبّر بها على خلقه ، ويرى نفسه فيها فيعجب بها ويستطيل ويقول فعلتُ وفعلتُ! فيورّثه من الْعُجْب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه .

(٢) يفعل [الذّنْبَ] فلا يزال نُصْبَ عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحييا من ربّه تعالى ناكس الرّأس بين يديه منكسر القلب له ، فيكون ذلك أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتّب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه حتّى يكون ذلك الذّنب سبب دخوله الجنّة ، ولذلك قالوا : رُبَّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذُلاًّ وَانْكِسَاراً خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا[2]].

إنّ استصغار المعصية ذنب ، كما أنّ استكثار الطّاعة ذنب ، والعارف بربّه من صغُرت حسناته في عينه وعظُمت ذنوبه في نفسه ، وكلّما صغُرت الحسنات في عين المسلم كبُرت عند

(١) انظر كتاب الفوائد لابن القيّم [ص ٥٧].

(٢) انظر الوابل الصّيب [ص ٤].

الله تعالى، وكلّما كبُرت وعظُمت في قلبه قلّت وصغُرت عند الله سبحانه.

وفارق بين من يرى ذنوبه وعيوب نفسه فيلجأ إلى الله تعالى وبين من يرى إمهال ربّه له فيستسلم لمعصيته وهواه لقوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «إنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ فَيَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا». أى نحّاه بيده بقصد دفعه عن أنفه. وفي رواية «يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهَا ذُبَابٌ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ[(١)]». وعند الترمذى «كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ قَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ».

والحديث يشير إلى أمرين:

(الأوّل) موقف المؤمن الذى تتملّكه المراقبة ويغلب عليه الخوف، لقوّة ما فى قلبه من الإيمان والرّهبة، فيخشى صغير عمله السّيىء حتّى يستعظم الذّنب الصّغير ويستصغر العمل الكبير.

(الثّانى) موقف الفاجر الذى يذهب خوفه ويستهين بمعصيته، لإدراكه أنّها أسهل من أن يطرد الذّباب الذى يعلو أنفه أو أن يشغل نفسه به.

كما يتبيّن من دلالات الحديث:

(١) أنّ الحكمة فى التّمثيل بالجلوس تحت الجبل أنّ غيره من المهلكات قد يسهل النّجاة منه بخلاف الجبل الذى إذا سقط على الشّخص فلا ينجو منه عادة.

(٢) أنّ تشبيه ذنوب الفاجر بالذّباب، فلكونه أخفّ الطّير وأحقره وهو ممّا يُعاين ويدفع بأقلّ الأشياء.

(٣) وأنّ فى ذكر الأنف مبالغة فى اعتقاده خفّة الذّنب عنده لأنّ الذّباب قلّما يهبط على الأنف وإنّما يقصد العين غالبا.

(٤) وأنّ فى إشارته بيده تأكيد للخفّة أيضا لأنّه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره [(٢)].

والله تبارك وتعالى علّق قبول التّوبة من الكبائر والصّغائر بأمرين:

(الأوّل) الاستغفار والنّدم والتّوبة.

(الثّانى) عدم الإصرار على الذّنب دون معاودة.

وهو ما يتضمّنهما قوله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٠٨] ومسلم [٢٧٤٤].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٠٨].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران:١٣٥].

وفيه يرتّب الخالق تبارك وتعالى بفضله وكرمه غفران الذّنوب لمن أخلص فى توبته ولم يصرّعلى ذنبه. وهو ما سيكون محل التّفصيل التّالى:

(الأمر الأول)

الاستغفار من الذّنب

الاستغفار فى اللّغة طلب المغفرة وهو استفعال من الغفران وأصله الغفر وهو إلباس الشّىء ما يصونه عمّا يدنّسه، يقال [غفر الله ذنوبه أى سَتَرَهُ وَعَفَا عنه، واصطلاحا طلب المغفرة بالدّعاء والتّوبة أو غيرها من الطّاعة، والغفران من الله للعبد: أنّ يصونه عن العذاب، والتّوبة ترك الذّنب على أحد الأوجه، وفى الشّرع ترك الذّنب لقبحه والنّدم على فعله والعزم على عدم معاودته له[(١)].

والاستغفار نوعان: استغفار [مُفرد] وآخر [مقرون بالتّوبة [(٢)]]:

(فالأوّل) إذا ذُكر مُفردا قصد به التّوبة بل هو التّوبة بعينها، مع تضمّنه طلب المغفرة من الله تعالى، وهو محو الذّنب وإزالة أثره ووقاية شرّه كما فى قول الله تعالى،

* ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل:٤٦].
* ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٩].

وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب كما فى قوله تعالى﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣]. فإنّ الله تعالى لا يعذّب مستغفرا.

(والثّانى) أن يقترن الاستغفار بالتّوبة كما فى قوله تعالى﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود:٣]. وقوله تعالى﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود:٦١]. ومن ذلك قوله ﷺ لعائشة «إنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِى الله ثُمَّ تُوبِى إِلَيْهِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ: النَّدَمُ والاسْتِغْفَارُ[(٣)]».

فالتّوبة تبدأ بالاستغفار الذى يترجم مدلولها ويبرهن على نيّة الصّدق فيها، فكلّ منهما يتداخل فى مسمّى الآخر عند الإطلاق. [فالاستغفار] هو طلب وقاية شرّ ما مضى. [والتّوبة] هى الرّجوع وطلب وقاية شرّ ما يخافه فى المستقبل من سيئات الأعمال، والاستغفار المقرون بالتّوبة يقف بنا أمام ذنبين:

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ١٥١].

(٢) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ٣٠٧].

(٣) أورده فى صحيح الجامع [١٤٣٣] والصّحيحة [١٢٠٨].

* ذنب قد مضى فالاستغفار منه طلب وقاية شرّه.

* وذنب يُخاف وقوعه فالتّوبة منه العزم على أن لا يفعله.

والرّجوع إلى الله يتناول النّوعين رجوع إليه ليقيه شرّ [ما مضى] ورجوع إليه ليقيه شرّ [ما يستقبل] من شرّ نفسه وسيّئات أعماله، وهما أمران لابدّ منهما:

(الأوّل) مفارقة الشّيء بالاستغفار.

(الثّاني) الرّجوع إلى غيره بالتّوبة.

فخُصّت «التّوبة» بالرّجوع و«الاستغفار» بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء الأمر بهما مرتّبا كما في قوله ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[هود:٣]. وفيه الرّجوع إلى طريق الحقّ بعد مفارقة الباطل، وأيضا فإنّ الاستغفار يأتي من باب إزالة الضّرر، ثمّ تكون التّوبة طلبا لجلب المنفعة:

* فالمغفرة أن يقيه شرّ الذّنب وضرره.

* والتّوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبّه.

وكلّ منهما يستلزم الآخر عند إفراده. [قال] العلماء: التّوبة واجبة من كلّ ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلّق بحقّ آدمي فلها ثلاثة شروط:

(أحدها) أن يقلع عن المعصية.

(والثّاني) أن يندم على فعلها.

(والثّالث) أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا، فإن فقد أحد الثّلاثة لم تصحّ توبته، وإن كانت المعصية تتعلّق بآدمي فشروطها أربعة:

(هذه الثّلاثة) وأن يبرأ من حقّ صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحلّه منها.

ومن أعظم ما كان يتقرّب به النّبي ﷺ إلى ربّه تعالى قوله «اللّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ(١)».

(قال) الحافظ: [قوله «وَأَبُوءُ بِذَنْبِي» اعتراف بوقوع الذّنب مطلقا ليصحّ الاستغفار منه لا أنّه عدّ ما قصّر فيه من أداء شكر النّعم ذنبا].

وفي الحديث جمع رسول الله ﷺ بين مشاهدة فضل الله تعالى ومنّته بقوله «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ» وبين مطالعة عيب النّفس والعمل بقوله «وَأَبُوءُ بِذَنْبِي»:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣٠٦] والتّرمذي [٣٣٩٣] والنّسائي [٥٥٣٧].

* فالإقرار بالفضل والمنّة يُوجب المحبّة والحمد والشّكر لولى النّعم سبحانه.

* ومطالعة عيب النّفس والعمل تُوجب الذّل والخضوع والانكسار والافتقار إليه والتّوبة من الذّنب كلّ وقت وحين.

وكما أحبّ الله تعالى أن يكافيء المحسنين أحبّ أن يتجاوز كذلك عن المسيئين لقول رسول الله ﷺ «لَوْلاَ أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ وَيَغْفِرُ لَهُمْ[1]» . وجاء عند مسلم بلفظ «لَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ[2]». وفيه بيان لعفو الله تعالى وتجاوزه عن المذنبين ليرغبوا في التّوبة والرّجوع إليه سبحانه، وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه رفعه «قَالَ إِبْلِيسُ: يَارَبِّ لاَ أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ». فَقَالَ تَعَالَى «وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي[3]».

* وللمفرّط في حقّ نفسه بالذّنوب والمعاصي أن يتأمّل القول الجليل من الرّبّ الرّحيم عندما يناديه «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً[4]». وقُرَاب الشّيء وقُرَابته: ما قارب قدره من السّعة والحجم.

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا «أَنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ» الحديث وفي آخره «قَالَ تَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ[5]».

(قال) النّووى [وهذه الأحاديث ظاهرة في الدّلالة لها، وأنّه لو تكرر الذّنب مائة مرّة أو ألف مرّة أو أكثر، وتاب فى كلّ مرّة قُبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحّت توبته[6]]. وعن أمير المؤمنين على رضي الله عنه قال [الاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ:

(١) النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى.

(٢) الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا.

(٣) أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةً.

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٣٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٤٨].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١١٨٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٤٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٥٨] وافقه البخارى [٧٥٠٧].

(٦) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٨٨].

(٤)أنْ تعْمَدَ إلى كُلِّ فريضَةٍ علَيْكَ ضَيَّعْتَها فتُؤَدِّى حقَّها .

(٥) أنْ تعْمَدَ إلى اللّحْمِ الّذى نَبَتَ علَى السُّحْتِ فتُذيبُهُ بالأحْزَانِ حتّى يَلْصَقَ الجِلْدَ بالعَظْمِ ويَنْشأَ بينَهُمَا لحْمٌ جَدِيدٌ . [والسُّحت هو كسب المال من الحرام] .

(٦) أنْ تُذيقَ الجِسْمَ ألَمَ الطّاعَةِ كمَا أذَقْتَهُ حَلاوَةَ المَعْصِيَةِ ، فعِنْدَ ذلِكَ تقُولُ بلسان قلبك : أَسْتَغْفِرُ اللهَ(١)] .

(الأمر الثّانى)

عدم الإصرار على الذّنب وعدم معاودته

الإصرار لغة مداومة الشّىء وملازمته والثّبوت عليه . [أو] هو الإقامة على الذّنب والعزم على فعل مثله ، [واصطلاحا : هو العزم بالقلب على الأمر وعلى ترك الإقلاع عنه ، وأكثر ما يستعمل الإصرار فى الإثم والذّنوب(٢)] . ومنه قوله تعالى فى قوم نوح ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[نوح :٧] . أى أصرّوا على الكفر فلم يتوبوا ولم يرتدعوا كذلك جاء قوله تعالى فى أصحاب الشّمال﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة :٤٦]. أى كانوا يصرّون على الذّنب العظيم الذى لا يتوبون منه . وقوله تعالى فى أبى جهل وأصحابه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾[الجاثية :٨] . أى يستمرّ مداوما على كفره مستعظما فى نفسه على الانقياد والطّاعة .

وقيل إنّ التّسويف من الإصرار وهو أن يقول [أتوبُ غدًا] وهذا من دعاوى النّفس والهوى والشّيطان ، فكيف يتوب غداً وغداً لا يملكه ، ولقد احتجّ العلماء بقول الله تعالى﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران :١٣٥] . على أمرين :

(الأوّل) أنّ من شروط قبول الاستغفار أن يقلع المستغفر عن الذّنب .

(الثّانى) أنّ فيه حجّة واضحة ودلالة قويّة قاطعة على أنّ الإنسان يُؤاخذ بما وطّن عليه بضميره وعزم عليه بقلبه من المعصية ، وهو الذى عليه عامة السّلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين .

وفى قوله تعالى﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يشير سبحانه إلى أنّ العقاب فيها على العزم قبل الفعل ، وكما فى حديث اللّذيْنِ التقيا بسيفيهما يتقاتلان فقال«هُمَا فِى النَّارِ» . فلمّا سُئِلَ رسول الله ﷺ عن ذلك أشار إلى كلّ منهما «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ(٣) » .

---

(١) انظر نهج البلاغة للشّريف الرّضى [ج ٤ ص ٩٨] .

(٢) انظر الموسوعة الفقهيّة [٥ / ٥٤] .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥٧] وافقه البخارى [٦٣٤٣] وأبو داود [٢١٥٢] .

[فعلّق سبحانه الوعيد فيه على الحرص الذى تقدّم الفعل وهو العزم[1]]. فالإصرار على المعصية معصية، ومن عقوبة الذّنب أنّه يوجب ذنبا أكبر منه حتّى يستحكم الهلاك، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها وطمأنينة إليها لما رواه أبو عبيد من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه «إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ[2]».

* فالأمر الأوّل وهو [الرّياء] فإنّ خطره معروف لكونه مرض المنافقين وآفة حياتهم.

* أمّا الثّانى وهو [الشّهوة الخفيّة] فذهب به بعضهم إلى شهوة النّساء وغير ذلك من الشّهوات، وهو ليس بمخصوص بشيء واحد ولكنّه فى كلّ شيء من المعاصى يضمره صاحبه ويصرّ عليه وإنّما هو الإصرار وإن لم يعمله.

تعريفات الكبائر والصّغائر

يندرج تحت مسمّى الكبائر كلّ من الإثم والمعصية والجُرْم، أمّا الصّغائر فتُطلق على الذّنب واللّمم، ويختلف كلّ واحد منها عن الآخر فى القصد والعقاب، فالإثم اسم للأفعال المبطّئة عن الثّواب والجمع آثام، من قول الله تعالى ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة:٢١٩]. أى فى تناولهما إبطاء عن الخيرات، وتَأَثّم: خرج من إثمه، وسُمّى الكذب إثما لكون الكذب من جملة الإثم، والآثم [بالمدّ] المتحمّل للإثم. [قال] الجرجانى: [الإثم ما يجب التّحرّز منه شرعا وطبعا، وقال غيره: الإثم الذّنب الذى يستحقّ العقوبة عليه ولا يصحّ أن يوصف به إلاّ الْمُحَرَّمُ[3]].

والأمر من الله قاطع فى النّهى عن الإثم كما فى قوله ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٢٠]. فظاهره ما كان عملا بالبدن ممّا نهى الله عنه، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالفته فيما أمرَ ونَهى، والله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النّساء:١٠٧]. ولا تَنَزّلُ الشّياطينُ كذلك إلاّ على ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. وجاء قوله تعالى فى وصف المؤمنين أنّهم ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشّورى:٣٧].

فمن كبائر الإثم:

* أكل أموال النّاس بالباطل ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٨].

* والفواحش ما ظهر منها وما بطن من الإثم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف:٣٣].

---

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٤ ص ٢١٥].

(٢) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث [٨٣٣/ ٥].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ص ٥٨].

* والإشراك بالله تعالى هو الإثم العظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

* والكذب على الله هو الإثم المبين ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠].

* وكتمان الشهادة من الإثم ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

* وإذا كانت جريمة الزّنى من الإثم العظيم فقد جعل سبحانه عقوبتها آثاما وهلاكا ووبالا، فكان العقاب من قرين الفعل لقول الله تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

* والتّناجي بالعدوان ومعصية الرّسول إثم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩]. وإذا جالت بالخاطر بعض الظّنون الرّديئة فإنّ ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وحذّر من المسارعة في الإثم والعدوان ونهى عن التّعاون فيه فقال تعالى ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]. وقال ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وجاء القرآن الكريم بأكثر من وصف وبيان للإثم فقال ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾. وقال ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وقال ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾. وقال ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. وقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. وأنّه تعالى ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾. ويبغض ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾. ويتوعّد بالعذاب كلّ ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾. وكذلك كلّ ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾. وكلّ ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

ويسأل الرّجل رسول الله ﷺ عن البِرِّ وَالإِثْم فيقول «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ[1]». (قال) النّووى [والبرّ فيه يكون بمعنى الصّلة، وبمعنى اللّطف والمبرّة وحُسن الصّحبة والعشرة والطّاعة، وهذه الأمور كلّها هى جماع حُسن الخُلق[2]].

(قال) الطّيبى: فُسِّرَ «الْبِرُّ» في الحديث بمعان شتّى منها: ما اطمأنّت إليه النّفس واطمأنّ إليه القلب، وبما يقرّبك إلى الله تعالى، كما فُسِّرَ بحُسْن الخُلق، ومنه احتمال الأذى، وقلّة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام، وكلّها متقاربة في المعنى كما في قوله ﷺ من حديث أبى ثعلبة رضي الله عنه «الْبِرُّ مَاسَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥٣] والتّرمذى [٢٣٨٩].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٣٥٣].

لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ[1]».

أمّا قوله «وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ» أى ما تحرّك منه وتردّد ولم ينشرح له الصّدر وحصل في القلب منه الشّكّ وخوف كونه ذنبا. [و] ما أثّر قبحه في قلبك أو تردّد في نفسك ولم تُرِدْ أن تظهره لكونه قبيحا، وهو الْمَعْنِيُّ بقوله «وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». أى [أعيانهم وأماثلهم، وذلك لأنّ النّفس بطبعها تحبّ اطلاع النّاس على خيرها، فإذا كرهت الاطلاع على بعض أفعالها فهو غير ما يتقرّب به إلى الله، أو غير ما أذن الشّرع فيه وعلم أنّه لا خير فيه ولا برّ فهو إذن إثم وشرّ[2]].

ويتأيّد هذا المعنى بما أورده أبو عبيد بلفظ «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالإِثْمُ مَا حَكَّ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ[3]». يقال: حَكَّ فى نفسك الشّىء إذا لم تكن منشرح الصّدر به وكان فى قلبك منه شىء ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه «الإِثْمُ حَوَّازُ الْقُلُوبِ». يعنى ما حَزّ فى نفسك وحَكّ فاجتنبه فإنّه الإثم، وجاء فى تهذيب اللّغة من حديث ابن مسعود أيضا «الإِثْمُ حَوَّازُ الْقُلُوبِ[4]». بتشديد الواو، أى يحوزها ويتملّكها ويغلب عليها.

الفرق بين الذّنب والإثم

الذّنب في تعريفه هو [مُطلق الجُرْم عمداً كان أو سهواً، بخلاف الإثم فاختصّ بما يكون عمداً، إذ أنّه ما يستحقّ صاحبه العقوبة، وهو عبارة أيضا عن الانسلاخ عن صفاء العقل ومنه سُمّيَ الخمر إثما لأنّها سبب الانسلاخ من العقل[5]].

وقالوا [إنّ الذّنب فى الأصل الأخذ بالذّنب، ويستعمل فى كلّ فعل يستوخم عقباه اعتبارا بذنبه ولهذا سُمّيَ الذّنبُ: «تَبِعَةً» اعتباراً بما يحصل من عاقبته[6]]. وفيه قال الخالق تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ * ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ * ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ * ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

الفرق بين الإثم والوزر وصفا

أصل الْوِزْرِ الثِّقل [أو] هو الحمل الثّقيل والذّنب العظيم ومنه قول الله تعالى لنبيّه ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[الشّرح:٢]. وهو هنا الذّنب، كما في قول الله تعالى﴿وَهُمْ

(١) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٢٨٨١] والمشكاة [٢٧٧٤].

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٦ ص ٢٥٩].

(٣) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [٢/٣٠٢].

(٤) انظر تهذيب اللّغة [ج ٣ ص ٣٨٥].

(٥) انظر الكلّيّات لأبى البقاء [ص ٤٠].

(٦) انظر بصائر ذوى التّمييز [٢/١٩-٢٠].

يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام: ٣١]. أى ذنوبهم وهى جمع وزر، وقوله ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾: مجاز وتوسّع وتشبيه بمن يحمل ثقلا، يقال منه [وَزَرَ - يَزِرُ - ووَزَرَ - يُوزَرُ] فهو وازِرٌ ومَوْزُورٌ، وأصله من الوَزَرِ وهو الجبل ومنه الحديث المروى عن على رضي الله عنه والذى جاء عن النبى ﷺ فى النّساء اللّواتى خرجن فى جنازة بقوله «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ(١)». والمعنى أنّهن لزمتهنّ الآثام فصرن مُثقلات بها.

ووضع الوزر [للقوّة] لأنّه من الإزار(٢) وهو ما يقوّى الإنسان ومنه الوزير لتحمّله المسئولية والمعاونة، لكن غلب استعماله لعمل الشّر، كما أنّ صاحب الوِزْرِ يتقوّى ولا يلين للحقّ، ووضع [الإثم] للّذة الحرام وإنّما خُصّ به فعل الشرّ الذى جُبل عليه.

والقرآن الكريم يعرض للوِزْرِ فى مواضع عديدة منها قوله ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾[طه: ١٠٠]. وقوله ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النّحل: ٢٥]. قال مجاهد [يحملون وزر من أضلّوه ولا ينقص من إثم المضلّ شىء]. وجاء عند مسلم من حديث أبى هريرة «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا(٣)».

وروى التّرمذى من حديث جرير بن عبد الله «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ شَرٍّ فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا(٤)».

ويتكرّر قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. بنصّه الكريم فى خمسة مواضع من القرآن العظيم كما فى: [الأنعام: ١٦٤] و[الإسراء: ١٥] و[فاطر: ١٨] و[الزّمر: ٧]. إلاّ أنّها جاءت فى أوّلها بلفظة [ألاّ] بدلا من [لاَ] فى [سورة النّجم: ٣٨].

وللعلماء فى مراد هذه الآية قولان:

(الأوّل) أنّ كلّ نفس مُعَاقَبَة بجُرمها مُؤَاخَذَة بإثمها فلا تُؤخذ بذنب غيرها ولا تحمل وزرا غير وزرها بدليل قول الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدّثر: ٣٨]. وقول الله سبحانه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]. فلا يُؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأنّ كلّ مُباشر للمعصية فعليه مغبّتها وعاقبتها.

(الثّانى) قد يُؤَاخَذ البعض فى الدُّنيا بجُرم البعض لا سيّما إذا لم ينه الطّائعون هؤلاء العاصين كما فى قوله سبحانه ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وفيها قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [أمر الله تعالى المؤمنين ألاّ يُقرّوا المنكر بين أظهرهم

---

(١) ذكره الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٣٠٨]. (٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ١ ص ٥٨].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٤] وأبو داود [٤٦٠٩]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٧] والتّرمذى [٢٦٧٥] وابن ماجه [١٦٩].

فيعمّهم العذاب]. ويتعضّد هذا:

* بما في صحيح مسلم عن أُمّ المؤمنين زينب بنت جحش قالت «يَارَسُولَ اللهِ أَنهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ[1]».

* وبقوله ﷺ عند الترمذى «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمَ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ[2]».

* وبقوله ﷺ عن ابن عمر رضي الله عنهما «إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ[3]».

فهذا يدلّ على أنّ الهلاك إذا عَمَّ فمنه ما يكون طُهْرَةً للمؤمنين، ومنه ما يكون نقمة على الفاسقين، ودليل ذلك قول النّبى ﷺ من حديث عائشة رضى الله عنها «نَعَمْ فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ[4]». وقوله ﷺ «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا، أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ[5]».

وإذا قيل إنّ الله تعالى أوجب ألاّ يُؤاخذ أحد بذنب أحد، وإنّما تتعلّق العقوبة بصاحب الذّنب، فلماذا يعمُّ العقاب الصّالح والطّالح؟ وفى الجواب عن هذا يقول ابن العربى [بيْدَ أنّ النّاس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفَرْض على كلّ من رآه أن يغيّره، فإذا سكت عليه فكلُّهم عاصٍ: هذا بفعْله وهذا برضاه، وقد جعل الله فى حُكمه وحكمته الرّاضى بمنزلة العامل فانتظم معه فى العقوبة، فيكون مقصود الآية: واتّقوا فتنة تتعدّى الظّالم فتصيب الصّالح والطّالح[6]].

المعصيـــة

المعصية فى اللّغة خلاف الطّاعة، يقال «عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ» إذا خالف أمره، وعصى فلان أميره يَعْصيه عَصيًا وَعصْيَانًا وَمَعْصِيَةً: إذا لم يطعه. وفى الاصطلاح [هى مخالفة الأمر قصداً، فالمعصية ضدّ الطّاعة. [أو] هى مخالفة الأمر بارتكاب ضدّ ما كُلِّف به[7]]. والعصيان هو المخالفة لمطلق الأمر لا المخالفة للأمر التّكليفى خاصّة، [والعاصى من يفعل محظورا لا

---

(1) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٨٠] وافقه البخارى [٣٣٤٦].

(2) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢١٦٨] وأبو داود [٤٣٣٨] وابن ماجه [٣٢٥٢].

(3) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧١٠٨] ومسلم [٢٨٧٩].

(4) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٨٤] والتّرمذى [٢١٧١].

(5) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٧٩] وافقه البخارى [٧١٠٨].

(6) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٢ ص ٨٤٧].

(7) انظر شرح الكوكب المنير لعبد العزيز الفتوحى [١ / ٣٨٥].

يرجو الثّواب بفعله، بخلاف المبتدع فإنّه يرجو به الثّواب في الآخرة، والعاصي والفاسق في الشّرع سواء[1]].

والمعصية إن أُريد بها الكفر فالخلود في جهنّم دائما، وإن أُريد بها الكبائر وتجاوز أحكام الله فالخلود فيها لمدّة ما لقوله تعالى ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[النّساء: ١٤]. ولذلك يسجّل القرآن قوله تعالى لنبيّه ﷺ والذي توافق ذكره في مواضع ثلاثة منه، وقد جمع بين الخوف من الوقوع في المعصية وعذاب يوم القيامة ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام:١٥].

* فأوّل من رفع راية العصيان ضد أوامر الله سبحانه هو إبليس اللّعين كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[مريم: ٤٤].

* وكان فرعون ممّن لهم السّبق في معصية الله تعالى ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١]. وقوله تعالى ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزّمل: ١٦]. وقوله تعالى ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾[النّازعات: ٢١].

* وما صُبّتْ لعنات الغضب والمذلّة على اليهود إلاّ لكفرهم بآيات الله وقتلهم النّبيين بغير الحقّ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١]. ورغم أنّ كلّ العوالم قالت لخالقها جلّ وعلا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾[البقرة:٢٨٥]. إلاّ اليهود فإنّهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة: ٩٣]. لذلك صبّ عليهم اللعنات وهو الحكم المنزّل فيهم إلى يوم الدّين:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النّساء: ٤٦]

(العقبة الخامسة)

وهي ترك السّنن والمستحبّات

من المسائل التي يدخل منها الشّيطان على الإنسان ويدفعه إليها دفعا اشتغاله بالمباحات التي لا حرج على فاعلها، فيشغله بها عن الاستكثار من الطّاعات والتّقرّب إلى ربّه تعالى بالنّوافل والمستحبّات، ثمّ إذا ما طمع في أكثر من ذلك استدرجه إلى ترك السّنن من الرّواتب والتّطوّعات.

ولقد أخبر الرّسول الكريم ﷺ أنّ العبد لا يزال يتقرّب إلى ربّه تعالى بالنّوافل حتّى

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٥٩].

يحبّه كما جاء في حديث أبي هريرة «وَمَا تقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِه، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِه، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه[1]».

وفي الحديث الدّلالة على ثلاثة أمور:

(الأوّل) أنّ الفرض هو أصل التّكليف، فإنّ من أدّى الفرض ثمّ زاد عليه النّفل وأدام ذلك تحقّقت منه إرادة التّقرّب إلى الله تعالى.

(الثّاني) أنّ التّقرّب يكون غالبا بغير ما وجب على المتقرّب من فروض، وإنّما يتحقق بكثرة النّوافل لكونها تأتي زائدة على الفريضة، ومن ذلك قوله ﷺ «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي لله كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلاَّ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّة[2]».

(الثّالث) أنّ من جملة ما شُرعت له النّوافل جبر الفرائض واستكمال نقصها كما صحّ في الحديث الذي رواه أبو داود «فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِه شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِه عَلَى ذَلِكَ[3]».

(الرّابع) أنّ العبد إذا تقرّب إلى الله تعالى بما يحبّه من النّوافل بعد الفرائض أحبّه الله، [فحبّ الله لعبده، بحسب فعل العبد لما يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحبّ نفسه، فكان حبّه للمؤمنين تبعا لمحبّتهم إيّاه سبحانه[4]].

والكراهة في قوله تعالى «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» لما يلقى المؤمن من الموت وصعوبته وشدّة كربه، وليس المعنى [أنّي أكره له الموت] لأنّ الموت يورده إلى رحمة الله تعالى ومغفرته، وعبّر بعضهم عن هذا بأنّ الموت حتم مقضي وهو مفارقة الرّوح للجسد، ولا تحصل غالبا إلاّ بألم عظيم جدا.

كما جاء في الصّحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت «مَا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[5]». وكان يقول حين قُبض «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ[6]». من قول الله عزّ وجلّ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق:١٩]. أي غمرة الموت وشدّته وما يترتّب عليها من الدّهشة والحيرة الذّاهبة بالعقل.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٥٠٢]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٢٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٨٦٤] والتّرمذي [٤١٣] والنّسائي [٤٦٤]. (٤) انظر الفتاوى لابن تيمية [ج ٨ ص ٨٩]. (٥) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٩٧٩] والنّسائي [١٨٢٩]. (٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٤٤٩] ومسلم [٢٤٤٣].

فلمّا كان الموت بهذا الوصف والله تعالى يكره أذى المؤمن أطلق على ذلك الكراهة ، ويحتمل أن تكون المساءة بالنّسبة إلى طول الحياة لأنّها تؤدّى إلى أرذل العمر وتنكس الخلق والرّدّ إلى أسفل سافلين.

كما يشير الحديث إلى أنّ التّقرُّب إلى الله تعالى لا يكون إلاّ بأمرين متلازمين :

(الأمر الأول) - أداء الفرائض

ويأتى الفرض فى [اللُّغة] بمعنى التّقدير والإلزام ، يقال فرض القاضى النّفقة أى قدّرها وحكم بها ، وسمّيت أحكام المواريث بعلم الفرائض لأنّها مقدّرات محكوم بها من الله تعالى ، وفرض الله عليه الصّلاة أى أوجبها فهى فريضة بمعنى مفروضة ، وفى [الاصطلاح] : هو ما ثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، أو المطلوب فعله طلبا جازما ، أو ما يُثاب فاعله ويُعاقب تاركه فى النّار ، وحكمه أنّه لازم اعتقادا وعملا فيُكفر منكره ويُفسق تاركه ويُعذّب بالنّار ، وينقسم الفرض إلى قسمين :

(١) فرض عين وهو ما يلزم كلّ مكلّف بعينه كالصّلوات الخمس والجمعة .

(٢) فرض كفاية وهو ما يُطلب فعله من المكلّفين ، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع مثل تغسيل الميِّت وتكفينه والصّلاة عليه ودفنه .

وأداء الفرائض من أحبّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى لقوله «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ» . ويدخل تحت هذا اللّفظ كلّ الفرائض :

(الظّاهرة) كالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ وغيرها من العبادات .

و(الباطنة) كالعلم بالله تعالى والحبّ له ، والتّوكّل عليه ، والخوف منه وغير ذلك .

كما يشير الحديث إلى مسألتين :

(الأولى) أنّ الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النّفل الذى يشترك معها فى تحصيل الثّواب ، لتأتى الفرائض أكمل أجراً وأحبّ إلى الله تعالى أداء ، وأقرب إليه محبّة وقبولا ، ويؤيّده ما فى رواية أبى أمامة رضي الله عنه «ابْنُ آدَمَ إِنَّكَ لَنْ تُدْرِكَ مَا عِنْدِى إِلاَّ بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ[1]» .

(الثّانية) أنّ الإتيان بالفرائض كاملة على الوجه المأمور به يحقّق الامتثال للأمر واحترام الآمر النّاهى وتعظيمه بالانقياد له وإظهار عظمة ربوبيّته وتحقيق ذلّ عبوديّته ، فيكون التّقرُّب بذلك من أعظم الأعمال عند الله تعالى ، وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله من حديث أبى ثعلبة الخشنى «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٣٥١] .

فلاَ تَعْتَدُوها ، وحَرَّمَ أشْياءَ فلاَ تَنْتَهِكُوها ، وسَكَتَ عَنْ أشْياءَ رَحْمَةً بكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيانٍ فلاَ تَسْألُوا عنْها[1] » .

ويُقسِّم الحديث الشّريف أحكام الدّين أربعة أقسام [فرائض - ومحارم - وحدود - ومسكوت عنه] . وذلك يجعل من الحديث أصلا كبيرا من أصول الدّين وفروعه ، وقيل إنه ليس في أحاديث رسول الله ﷺ حديث واحد أجمع لأصول الدّين وفروعه من حديث أبي ثعلبة ﷺ « وحُكِي » عن أبي وائلة المزني أنه قال [جمع رسول الله ﷺ الدّين في أربع كلمات] ثمّ ذكر حديث أبي ثعلبة .

فأمّا الفرائض فهي ما فرضه الله تعالى على عباده وألزمهم القيام به كالصّلاة والزّكاة والصّيام والحجّ والمواريث ، وغير ذلك من فروض الدّين وأركانه ، وقد اختلف العلماء هل الواجب والفرض بمعنى واحد أم لا ؟ فمنهم من قال هما سواء ، [وكلّ واجب بدليل شرعي بكتاب أو سُنّة أو إجماع أو غير ذلك من أدلّة الشّرع فهو فرض وهو المشهور عن أصحاب الشّافعي رحمه الله وغيرهم[2]] .

ومن العلماء من قال بل الفرض ما ثبت بدليل مقطوع به ، والواجب ما ثبت بدليل غير مقطوع به وهو قول الحنفية وغيرهم ، وأكثر النّصوص عن الإمام أحمد تُفرِّق بين الفرض والواجب ، فنقل جماعة من أصحابه عنه أنّه قال [لا يُسَمّى فرضا إلاّ ما كان في كتاب الله تعالى ، فمن أصحابنا من قال : مراده أنّ الفرض ما ثبت بالكتاب ، والواجب ما ثبت بالسُّنّة ، ومنهم من قال أراد أنّ الفرض ما ثبت بالاستفاضة والنّقل المتواتر ، والواجب ما ثبت من جهة الاجتهاد وساغ الخلاف في وجوبه] .

(الأمر الثّاني) - الاستكثار من النّوافل

النّفل [لغة] مُطلق الزّيادة ومنه قول الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢] . والنّافلة الزّيادة ، لأنّه دعا في إسحاق وزيد يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة أي زيادة على ما سأل ، ويقال لولد الولد [نافلة] لأنّه زيادة على الولد [[3]] . وشرعا اسم لما شُرع زيادة على الفرائض والواجبات وهو المسمّى بالمندوب والمستحبّ والتّطوُّع ، وفي « أنيس الفقهاء » [الزّيادة على الفرائض والتّطوّع] . وفي « تحرير التّنبيه [النّفل والتّطوُّع والمندوب والمستحبّ والمرغّب فيه والسُّنّة كلّها بمعنى واحد[4]] .

(١) حديث حسن رواه الدّارقطني [٤ / ١٨٣] والطّبراني في الكبير [٢٢ / ٢٢١] .
(٢) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب [ص ٤٥٨ - ٤٥٩] .
(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١١ ص ٣٠٥] .
(٤) انظر معجم الألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٣٣] .

والمراد بالنّوافل في الحديث ما كانت لاحقة بالفرائض أو مُشتملة عليها أو مُكمّلة لها، ويُقصد بها التّطوّعات من جميع العبادات كالسُّنن القبلية والبعدية للصّلوات الخمس والنّوافل والمستحبّات وقراءة القرآن، وهو من أعظم ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى، وكذلك الأذكار التّوقيتيّة والموظّفة وكفى في شرفها ما ورد في شأنها من قول الله تعالى﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢].

ومن النّوافل أيضا الزّهد والورع والتّوكُّل والرّضا وغير ذلك من سائر أحوال المؤمنين، فمحبّة الله تعالى للعبد تقع بملازمته والتّقرُّب إليه بالنّوافل والاستكثار منها كما في قوله «وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ». وفيه التّأكيد على أمرين :

(الأوّل) أنّه يُفيد بصيغة المضارعة تَوَاصُلَ النّفل مع الفرض في الأداء دون ما فصل بينهما، وأنّ النّافلة لا تقدّم على الفريضة لكونها زائدة عليها، ومن أدّى الفرض ثمّ زاد عليه النّفل وداوم على ذلك تحقّقت منه إرادة التّقرُّب إلى الله تعالى، فالمراد من التّقرُّب بالنّوافل أن تقع ممّن أدّى الفرائض لا من أخلَّ بها كما قال بعض الأكابر: [من شغله الفرض عن النّفل فهو معذور، ومن شغله النّفل عن الفرض فهو مغرور].

(الثّاني) أنّ ملازمة العبد لما افترضه الله تعالى ومداومته على إتيان النّوافل من صلاة وصيام وغيرها فإنّ ذلك يُفضي به إلى محبّة الله تعالى كما في قوله «حَتَّى أُحِبَّهُ».

ويشير تبارك وتعالى في الكثير من المواضع القرآنيّة إلى أهمّية المسارعة إلى الخير والمبادرة إلى أعمال الصّلاح والبرّ فقال جلّ شأنه:

* ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[البقرة:١٤٨].

* ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:١٥٨].

والثّابت عن النّبي ﷺ كثرة تنفُّله وتقربُّه إلى الله تعالى بالطّاعات والقُرُبات:

* فكان ﷺ يقوم من اللّيل إلاّ قليلا حتّى تتفطّر قدماه ويقول «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا(١)».

* وكان يحضّ على كثرة الرُّكوع والسّجُود لله تعالى فيقول «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلّهِ سَجْدَةً إلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً(٢)».

* ومن المؤكّدات التي واظب عليها رسول الله ﷺ اثنتا عشرة ركعة في اليوم واللّيلة وأخبر أنّ من أتى بهنّ «بَنَى اللّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ(٣)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٣٠] ومسلم [٢٨١٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٨٨] والتّرمذى [٣٨٨] وابن ماجه [١١٧٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٢٨] وأبو داود [١٢٥٠] والتّرمذى [٤١٥].

* وكان يقول «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا[1]». وترجمت أمّ المؤمنين عائشة ذلك بقولها «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُدًا عَلَى رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ[2]».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ[3]».

* ولمّا سُئل ﷺ عن صلاة أربع بعد أن تزول الشّمس قبل الظّهر قال «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ[4]».

* ويبيّن ﷺ أنّ أبواب الإيمان وشُعَبه «بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ[5]».

* وكان كثيرا ما يحثّ المسلمين على التّطوّع فى البيوت ويقول «اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا[6]».

* ويشير رسول الله ﷺ إلى أنّ الحاجز عن النّار يكون ببذل القليل من العطاء بقوله «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ[7]». وفى رواية «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

* وكان يحذّر المسلمين من التّنطّع فى الدِّين والمغالاة فيه وتجاوز حدوده ويقول «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». وَكَرَّرَهَا ثَلَاثًا.[8] وكان ﷺ يقول «أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ[9]». ولفظه عند مسلم «أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ».

* وينبّه ﷺ إلى أن تكون الأعمال كلّها قائمة على الإخلاص لله تعالى ويقول «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ[10]».

* ثم يُوصل رسول الله ﷺ ركائز الإيمان المطلق فى القلب عندما يجعلها المعيار

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٢٥] والتّرمذى [٤١٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٦٣] ومسلم [٧٢٤] وأحمد [٢٤١٥٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٧٨] ومسلم [٧٢٢] وأبو داود [١٤٣٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٤٧٨] وابن ماجه [٩٥٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٩] ومسلم [٣٥].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٨٧] ومسلم [٧٧٧] وأبو داود [١٠٤٣].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٦] وافقه البخارى بهذا المعنى [١٤١٧].

(٨) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٠] وأبو داود [٤٦٠٨].

(٩) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٨٢] ووافقه البخارى [١٩٧١].

(١٠) أخرجه النّسائى بإسناد حسن [٣١٤٠] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [١ / ٧٢].

الصّحيح للقبول عند الله تعالى فيقول «إنّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ[1]».

وحاصله أنّ الإثابة والتّقريب ليسا باعتبار الأعمال الظّاهرة، وإنّما هى باعتبار ما فى القلب من تعظيم الله وخشيته ومراقبته، وأنّ المقصود بنظر الله تعالى هو مجازاته ومحاسبته على ما فى القلب دون الصّور الظّاهرة من مال وجاه وهو مقصود قوله ﷺ «ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». وكأنّه ربط فى الحديث بين إخلاص القلب وقبول العمل.

(الباب الثّانى)

ملازمة الشّيطان للإنسان فى كلّ أحواله

وحتّى يتسنى للمسلم أن يسير على النّهج الذى رسمه الخالق له، كان لابدّ وأن يتعرّف على آلية عمل الشّيطان وخُطواته ومداخله على النّفس، حتّى يستطيع أن يتجنّب هذه المداخل ويخرج من برائنها كما فى قول الله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

إنّ فقه مداخل الشّيطان على الأنفس من أعظم أنواع الفقه إذا ما علم أنّه حادى ركب أهل النّار ودليلهم إليها، وأنّ الإنسان غير المعصوم إن استوفى كمالاته لم يبـق للشّيطان عليه مدخلا إلاّ من قِبَل شهواته الحسّية أو المعنويّة.

والنّاس فى معركتهم مع الشّيطان فريقان:

(الأوّل) فريق لم يجعل الله تعالى لعدوّه عليه سلطانا لدخوله فى حفظه وكَنَفه ورعايته فلا يتمكّن من التّسلُّط عليه ولا ينجح فى إغوائه، ولـمّا علم إبليس أنّ الله لا يسلم عباده إليه ولا يجعل له عليهم من سبيل كما فى قوله تعالى﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. فأقسم عدو الله متوعّدا بقوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٢ - ٨٣].

ولـمّا كان العبد قد ابتُلى بالغفلة والشّهوة والغضب، فإنّ الشّيطان عندما يغتال واحدا من هذا الفريق أو يتسلّط عليه فلا يكون ذلك إلاّ من أحد هذه الأبواب الثّلاثة، ومهما احترز العبد فلابد له من غفلة وشهوة وغضب، وعدوّ الله لا يخلص إلى المؤمن إلاّ غيلة على غرّة وغفلة، ليكون ذلك مدخلا للامتحان والابتلاء والاختبار كما جاء ذلك فى قوله تعالى﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٤ / ٢٥٦٤] وأحمد [٧٨١٤].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[سبأ: ٢٠ - ٢١].

فكلّ شيء منظور من الشّيطان ومُراقب حتّى يتحيّن فرصة الإيقاع والتّسلُّط ولن تكون الغَلَبة إلاّ لمن اعتصم بحبل الله المتين وسلك صراطه المستقيم واستمسك بهدى نبيّه الأمين ﷺ لما جاء في قوله عن ابن أبي فاكه رضي الله عنه:

«إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدمَ بأطْرُقه، فقعَدَ لَهُ بطَريق الإسْلام فَقَالَ: تُسْلِمُ وتذرَ دينكَ ودينَ آبَائكَ وآبَاءِ أبيكَ!. فعَصَاهُ فأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَريق الْهجْرَة فقَالَ: تُهَاجِرُ وتدعُ أرضكَ وسَمَائكَ! وإنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِر كَمَثَلِ الْفَرَسِ في الطِّوَلِ! فعصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قعدَ لَهُ بطَريق الْجهَاد فقَالَ: تُجَاهدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ والْمَال! فَتُقَاتِلُ فتُقْتَلُ، فتُنْكَحُ الْمرأَةُ ويُقَسَّمُ الْمَالُ؟. فعَصَاهُ فجَاهَدَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أنْ يُدْخلَهُ الْجنَّةَ، ومَنْ قُتلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أنْ يُدْخلَهُ الْجنَّةَ، وإنْ غَرقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أنْ يُدْخلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دابَّتُهُ كَانَ حقًّا عَلَى الله أنْ يُدْخلَهُ الْجنَّةَ[1]».

(الثّاني) هو الفريق الذي استذلّه الشّيطانُ وأغواه وسيطر على قلبه وفكره ومنّاه، فكان له من حياتهم نصيب مفروض، حتّى أصبحت كلّ التّصرُّفات خاضعة لأمره كما أنّ كلّ التّوجُّهات مرهونة بمكيدته وهو المراد من قوله كما في الآيات:

* ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النّساء: ١١٨].
* ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦].
* ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٣٩]
* ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢].

وقوله ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾: أي لأستميلنّهم ولأستأصلنّ الإيمان من قلوبهم كما يقال [احْتَنَكَ فُلانٌ فُلاناً]: استولى عليه واستماله، وهذا ما يفسره قول النّبي ﷺ «إنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أحَدَكُم عنْدَ كُلِّ شَيْءٍ منْ شَأْنه، حَتَّى يَحْضُرَهُ عنْدَ طَعَامه[2]». ولكنّ مشيئة الله حالت ألاّ يكون له على المؤمنين في ذلك من سبيل.

والدّروس المستفادة التي يجب أن نضعها للتّدبُّر والاعتبار لكشف هذا العدوّ الماكر كثيرة، وما سنعرضه من «المداخل» التي يستحوذ الشّيطان من خلالها على قلب

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي [٣١٣٤] وابن حبّان [١٦٠١] وصحيح الجامع [١٦٥٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠٣٣] ولا يوجد عند غيره من السّتة.

الإنسان وفكره، إنّما يأتي على سبيل المثال لا الحصر، ويبدأ ذلك مع الإنسان حينما يكون فى علم الله قبل الخلق والتّكوين.

مداخل الشّيطان للاقتناص والغواية

(المدخل الأوّل)

حضور الشّيطان وقاع الرّجل أهله

قضت السُّنَّةُ المطهّرة أن يتلفّظ المرء بالدُّعاء الوارد عند شروعه إتيان أهله لقوله ﷺ عند البخارى من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ[1]». أى لم يُسلَّط عليه، وجاء عند مسلم بلفظ «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا[2]». ورُوى من طَريق علقمة عن ابن مسعود «وَكَانَ إِذَا غَشِيَ أَهْلَهُ فَأَنْزَلَ قَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ فِيمَا رَزَقْتَنِي نَصِيبًا[3]».

(قال) عياض [قيل المراد بقوله «لَمْ يَضُرُّهُ»: أنّ الشّيطان لا يصرعه ولا يطعنه عند ولادته، وليس المراد عصمته منه عن المعصية]. ويستفاد من الأحاديث:

(١) استحباب التّسمية والدّعاء والمحافظة على ذلك حتّى فى حالة التّلذّذ والوقاع.

(٢) كما أنّ فيه الاعتصام بذكر الله تعالى والتّحرُّز من شرّ الشّيطان، والتّبرُّك باسم الله والاستعاذة به من جميع الأسواء.

(٣) وفيه الاستشعار بأنّ الله تعالى هو الميسّر لذلك العمل والمُعين عليه.

(٤) وفيه الإشارة إلى أنّ الشّيطان ملازم لابن آدم منذ أن يولد لا ينطرد عنه إلاّ بذكر الله تعالى.

(٥) كما أنّه يحمل الإشارة إلى وقت الإتيان بهذا الذّكر وتحديد زمنه فى قوله ﷺ «إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ»: [أى عند الْهَمّ بذلك[4]].

وقوله «مَا رَزَقْتَنَا»: يدخل فيه الجماع لأنّ الرّزق ما ينتفع به البدن والجماع منه، لما فيه من إذهاب المواد المفسد بقاؤها للبدن. كما يقصد بقوله ﷺ «لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا» هذا الضّرر النّاشىء من تسلّط الشّياطين كالصّرْع النّفسى وإلقاء الوسوسة فى الصّدر فكلّ ذلك يندفع بقوله هذا الدّعاء عند إرادة الجماع.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٣] والتّرمذى [١٠٩٢] وأبو داود [٢١٦١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٣٤] وأحمد [١٨٦٧].

(٣) أورده الحافظ فى الفتح [ج ١ ص ٢٩٢].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٩ ص ١٣٧].

(المدخل الثانى)

نخس الشّيطان المولود حين يولد

إنّ ابتداء تسلُّط الشّيطان على الإنسان حين يولد إذ يطعنه بأصبعه في جنبيه فيستهلّ صارخا من مسّه إيّاه لقوله ﷺ «مَا مِنْ مَوْلُود يُولَدُ إلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَان إيَّاهُ إلاَّ مَرْيَم وَابْنَهَا، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرءُوا إنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1]». وفى رواية مسلم وأحمد «كُلُّ إنْسَان تَلِدهُ أُمُّهُ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ فِى حِضْنَيْهِ إلاَّ مَرْيَم وَابْنَهَا[2]». واللَّكْزُ الضَّرْبُ، بالْيَدِ وحِضْنَيْه: تثنية الحِضْنِ وهو من كُلِّ شَيْءٍ جَانِبُهُ وناحيتُهُ، وقيل الخاصرة.

(قال) القرطبى [هذا الطّعن من الشّيطان هو ابتداء التّسلُّط، فحفظ الله تعالى مريم وابنها منه ببركة دعوة أمّها حين قالت ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. ولم يكن لمريم ذرّية غير عيسى عليه السّلام، ومعناه أنّ كلّ مولود يطمع الشّيطان فى إغوائه إلاّ «مريم وابنها» فإنّهما كانا معصومين من الشّيطان الرّجيم].

ثمّ تأتى رواية أبي هريرة لتشير إلى «الْمَسّ» بدلا من «اللّكْز» كما فى قول النّبى ﷺ «كُلُّ بَنِى آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا[3]». وقد فسّر البيضاوى «الْمَسَّ» هنا بالطّمع فى الإغواء، واستهلال الصّبى صارخا من مسّ الشّيطان تخييل ليطمعه فيه، كأنّه يمسّه ويضرب بيده عليه ويقول [هَذَا مِمَّنْ أُغْوِيَهُ].

و[حاصله[4]] أنّ ذلك جُعل علامة فى الابتداء على من يتمكّن من إغوائه. و(قال) قتادة [كلّ مولود يَطْعُنُ الشّيطانُ فى جنبه حين يولد غير عيسَى وأُمّهُ، جُعل بينهما حجاب فأصابت الطّعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء[5]]. وهو معنى الحديث المروى عن أبى هريرة من قوله ﷺ «كُلُّ بَنِى آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِى جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعَيْهِ حِينَ يُولَدُ، إلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ فِى الْحِجَابِ[6]». والمراد بالحجاب المشيمة التى تنزل مع المولود، أو هو الثّوب الملفوف على الطّفل.

ويستفاد من الحديث:

(١) أنّ الشّيطان ينخس جميع ولد آدم حتّى الأنبياء والأولياء إلاّ من عُصِمَ من كيده

(١) أخرجه البخارى [٤٥٤٨] ومسلم [٢٣٦٦].
(٢) أخرجه مسلم [٢٦٥٨/٢٥] وأحمد [١٠٧١٩].
(٣) أورده فى صحيح الجامع [٤٥١٧].
(٤) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٦٠].
(٥) انظر تفسير القرطبى [ج ٤ ص ٦٨].
(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٦] وأحمد [١٠٧١٩].

ووسوسته كمريم وابنها عليهما السّلام.

(٢) لا يلزم من نخس الشّيطان اللّعين إضلال الممسوس وإغواؤه لكون ذلك خلاف الصّحيح، فكم تعرّض الشّيطان للأنبياء والأولياء والرّسل بأنواع الفساد والإغواء، ومع ذلك عصمهم الله تعالى ممّا يستهدفه الشّيطان ويتغيّاه كما فى قوله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

هذا [مع أنّ كلّ واحد من بني البشر قد وُكِّل به قرينُهُ من الشّياطين كما قال النّبى ﷺ، فمريم وابنها وإن عُصِمَا من نخسه فلم يُعْصَمَا من ملازمته لهما ومقارنته إيّاهما والله تعالى أعلم(١)].

(يقول) السُّهَيْلىُّ : [ولأنّ عيسى عليه السّلام لم يُخْلَقْ من مَنِىِّ الرّجال فأُعيذ من مغمزه، وإنّما خُلِقَ من نفخة روح القدس، وهذا لا يدلّ على فضل عيسى ﷺ على محمد ﷺ، ذلك لأنّ هذا المغمز هو موضع القدرة المحرّكة للشّهوة والمنىّ، وقد نُزِع من رسول الله ﷺ ذلك المغمز ومُلِىءَ قَلْبُهُ حكمة وإيمانا بعد أن غسله روح القدس بالثّلج والْبَرَد].

ولهذا جاء قول النّبى ﷺ فى حديث شقّ صدره «فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَغْمَزَ الشَّيْطَانِ وَعَلَقَ الدَّمِ(٢)». وجاء عند أحمد من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ «فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ وَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، ثُمَّ شَقَّ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذِهِ حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ(٣)». وهو ما يشير إلى معنى الحديث الذى أخرجه مسلم «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ(٤)». وقوله «فَصَرَعَهُ» أى طَرَحَهُ استعدادا للشّق عن قلبه الشّريف ﷺ.

(المدخل الثّالث)

قرين الإنس من الجنّ

يأتي ذكر القرين فى كتاب الله تعالى بمعنى المُلازم والمُصاحب الذى يقيّضه الله لمن يُعرِضْ عن ذكره ولا يستشعر وجوده ورقابته فى الضّمير، وعندما يتعامى الإنسان عن أمر ربّه ويتناسى فروضه يجد الشّيطان طريقه إليه فيلتزمه ويصبح له قرين نكد وسوء يوسوس له بالباطل كما فى قول الله سبحانه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٤ ص ٦٨].

(٢) أورده الشّبلى فى آكام المرجان [ص ١٩٥].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٤٤٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦١ / ١٦٢] وافقه البخارى [٣٨٨٧].

لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾[الزّخرف :٣٦] . وقرينه هنا هو شيطانه الذى ينهاه عن الطّاعة ويأمره بالمعصية ويمنعه من الحلال .

وقوله سبحانه ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ . من المقايضة والمبادلة ، وكأنّ الكافر بربّه قد قايض الخير بالشّر والهُدى بالضّلال ، عندما اختار الغفلة والعمى طريقا لغواية الشّيطان وسيطرته عليه بدلا من ذكر ربّه وطاعته ، وقوله تعالى ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾[فصّلت :٢٥] . يُبيِّن أسوأ ما يصنعه قرين السّوء بقرينه ، عندما يصدّه عن السّبيل القاصدة ثمّ لا يدعه يفيق حتّى يتبيّن ما فيه من الضّلال فيتوب ، إنّه بعدما يزيّن له السّوء ينتهى به إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران وحقّت عليهم كلمة العذاب .

وقوله تعالى ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ﴾ ، أى وهيأنا لهم ﴿ قُرَنَآءَ ﴾ جمع «قرين» وهو الملازم الملتصق بصاحبه ، وهؤلاء «القرناء» : هم من الجنّ المهيّئين للوسوسة فى الصدور وللإغواء والاستدراج إلى الإثم والغواية ، وهم شياطين من جنود إبليس .

أمّا قوله تعالى ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ . أى من أمر الآخرة أنّه لا جنّة ولا نار ولا بعث ولا حساب . وقوله ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ . أى مَن أمر الدّنيا وما هم عليه من الضّلالة ، وقال ابن زيد [زيّنوا لهم ما مضى من خُبث أعمالهم وما يستقبلون منها ، والمعنى على هذا : زيّنوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه[1]] .

ويقارن الإنسان مع القرين من الشّياطين قرين من الملائكة يزيّن له فعل الخيرات والصّالحات ، ويقبّح له فعل الآثام والمنكرات فتتعادل الكفّتان ، وإرادة الإنسان الحرّة هى المرجّحة ذات اليمين أو ذات الشّمال [[2]] .

ويأتى ذمّ قرين السّوء وتحقيره فى موضعين من كتاب الله تعالى :

(أوّلهما) ما جاء فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾[سورة النّساء :٣٨] . وفيه إضمار تقديره ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فكان قرينهم الشّيطان ، والقرين المُقَارِنُ أى المصاحبُ المقرونُ بآخر من : قَارَنَ يُقَارِنُ قِرَانًا وَمُقَارَنَةً : صاحبَهُ واقترنَ به ، وفيه قال عدى بن زيد :

عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينه　　فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدى

والمعنى [مَنْ قَبلَ من الشّيطان فى الدّنيا فقد قارنه ، ويجوز أن يكون المعنى : من قرن به الشّيطان فى النّار ﴿ فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ أى فبئس الشّيطان قرينا وهو نصب على التّمييز[3]] .

---

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١٠٥] .

(٢) انظر معارج التّفكّر للميدانى [ج ٥ ص ٥٥٦] .

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٥ ص ١٩٤] .

(والثانى) قول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[الزخرف:٣٨] . إنه القول الذى لا تُدْرَكُ حقيقته إلاّ إذا جاء وعدُ الله عندما يتمنى الكافر أن تتباعد المسافات بينه وبين قرينه بُعْدَ [المشرقين] على سبيل المبالغة فى بيان وتصوّر هذا البُعد لما رآه وشاهده فى هذا الموقف من المذلّة والهوان .

ويُعَقِّبُ القرآن الكريم على قول القرين الهالك بقوله ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ . إنّها كلمة التيئيس السّاحقة التى تُقَالُ للاثنين معا عند إسدال السّتار على الجميع ساعة أن يعلم كلاهما أنّ العذاب كامل، فلا تمنعه شركة ولا أن يتقاسمه شركاء فيهون، كما أخبر بذلك سبحانه فى قوله :

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[الزخرف:٣٩] .

إنّها الحقيقة التى تتكشّف للكافر عندما يُدرك خطورة ما أوقعه الشّيطان فيه من غواية وضلال، وأنّه كان بئس الصّاحب والقرين الذى أورده النّار وأورثه موقف البهت والخسار، وفيه قال أبو سعيد الخدرى [إذا بُعِثَ الْكَافِرُ زُوِّجَ بِقَرِينِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَلاَ يُفَارِقُهُ حَتَّى يَصِيرَ بِهِ إِلَى النَّارِ(١)] .

ثمّ تسجّل الآيات موقفا آخر عندما يتبرأ الشّيطان من صاحبه مُعلنا المفاصلة بينه وبينه كما فى قول الله سبحانه ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[سورة ق:٢٧] . ويستدلّ من النّص الكريم على أمرين :

(الأوّل) أنّ الشّيطان فى مثل هذا الموقف يتنصّل من صاحبه ويتخلّى عنه مُبيّنا أنه لم يفعل إلاّ أن دعاه فاستجاب له كما فى قول الله سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة إبراهيم:٢٢] .

(الثّانى) إنّه يدّعى أنّ دعوته له قد صادفت منه بُعداً عن الحقّ، وضلالة عن الهدى، وتجاوزا فى الظّلم، وفجورا فى العصيان، وتمرّدا عن الطّاعة وعدم الالتزام كما فى قول الله تعالى ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[سورة ق:٢٧] . فلا دخل له فى ذلك بل كان طاغيا باختياره فاسقا بإرادته .

ويعرض القرآن الصّورة التّالية التى تعكس مدى الغيظ المكبوت والتّحرّق العنيف على الانتقام الذى يُصيب هؤلاء الذين وقعوا فى التّهلُكة، وأسلموا أنفسهم لقياد الشّيطان وحزبه

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٩١] .

بعد الموداة والمخادنة والوسوسة والتّزيين عندما يذكر الحقّ سبحانه على ألسنتهم قولهم ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصّلت: ٢٩]. إنّه تمنّى الضّعفاء الموتورين وتشفّى المخدوعين الغافلين الذى لا يكون إلاّ بعد فوات الأوان، ثمّ يأتى الهدى النّبوى ليفسّر ما اشتملت عليه الآيات من أنّ الخالق سبحانه وكّل بالإنسان قرينين،

* قرين من [الملائكة] يكتب ويُسجّل.
* وقرين من [الشّياطين] يُغوى ويُزيّن.

ويدلّ على ذلك قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، قَالُوا وَإِيَّاكَ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ وَإِيَّاىَ وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَلاَ يَأْمُرُنِى إِلاَّ بِحَقٍّ[1]»:

(١) فقرين الملائكة هو ما جاء بيانه مفسّرا فى قول الله تعالى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ٢٣]. فالقرين هنا هو الذى قرن به فى الدّنيا من الملائكة يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره [هذا الذى كنت وكّلتنى به فى الدّنيا قد أحضرته وأتيتك به] وهو قول مجاهد، وتفسيره عند ابن قتيبة: [هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله الحاضر عندى] والتّحقيق أنّ الآية تتضمّن الأمرين معا أى الشّخص الذى وكّل به، وعمله الذى أحصاه عليه، ويفسّر هذا قول الله تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨][2].

(٢) أمّا قرين الجنّ فهو [الشّيطان الموكّل] بالإنسان ليغويه عن طريق الحقّ والهدى، وهو الذى يُحيل إليه الأمر يوم القيامة، وأنّه هو الذى أطغاه وأضلّه فيقول القرين ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾. أى لم تكن لى قوّة أن أضلّه أو أطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحقّ، كما قال إبليس لأهل النار ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفى القرآن الكريم مشاهد مُتعدّدة وكثيرة يتبرأ فيها [القَرِينُ الشَّيْطَانِيُّ] من [الْقَرِينِ الإِنْسَانِيِّ] على هذا النّحو، ليبيّن أنهّ رغم صُحبته لهذا الشّقى فإنّه لم تكن له يد فى أى ممّا كان منه من معصية وشرّ وكفران.

وقرين الجنّ هو ما جاء ذكره فى الصّحيح عن نبيّنا ﷺ من حديث ابن مسعود «مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِيَّاىَ

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٦٤٨] ومسلم [٢٨١٤].

(٢) انظر كتاب الفوائد [ص ١٠].

إلاَّ أنَّ اللهَ أعانَنى عَلَيْه فأسْلَمَ فلا يَأمُرُنى إلاَّ بخَيْر[1]».

وعندما تسأل عائشة رسول الله ﷺ «أَمَعِىَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ نَعَمْ. فَقَالَتْ: وَمَعَ كُلِّ إنْسَانٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: وَمَعَكَ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ: نَعَمْ وَلَكِنْ رَبِّى أَعَانَنِى عَلَيْه حَتَّى أَسْلَمَ[2]». وفيه إشارة إلى التّحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه فأعلمنا بأنّه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان وحتّى لا نقع فى فخاخه.

ويروى التّرمذى وابن حبّان عن ابن مسعود «إنَّ للْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بقَلْبِ ابْنِ آدَمَ لَمَّةً وَللشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إيعَادٌ بالْخَيْرِ، وَتَصْديقٌ بالْحَقِّ، وَرَجَاءُ صَالحِ ثَوَابِه. وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إيعَادٌ بالشَّرِّ، وَتَكْذيبٌ بالْحَقِّ، وَقُنُوطٌ منَ الْخَيْرِ، فإذَا وَجَدتّم لَمَّةَ الْمَلَكِ فَاحْمَدُوا اللهَ وَسَلُوهُ منْ فَضْله، وإذَا وَجَدتُّم لَمَّةَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعيذُوا بالله تَعَالَى وَاسْتَغْفرُوهُ». ثُمَّ قَرأَ قوله تعالى ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٨] الآية[3]».

وقوله «لَمَّةً» من الإلمام ومعناه النُّزول والقرب والإصابة، والمراد بها ما يقع فى القلب بواسطة الشّيطان أو الملك بابن آدم:

(١) فتأتى صورة تأثير الملائكة فى نشأة الخواطر الطّيّبة والرّغبة فى الخير وعمل البرّ.

(٢) ويأتى تأثير الشّياطين فيها بالوحشة وقلق النّفس والرّغبة فى الشّر.

والإيعاد فى اللَّمَّتَيْن من باب الإفعال، والوعيد فى الاشتقاق كالوعد، إلاّ أنّ الإيعاد اختص بالشّر عُرفا، يقال أوعد، إذا وعَدَ بشرٍّ إلاّ أنّه استعمله فى الخير للازدواج والأمن من الاشتباه بذكر الخير بعده، ونصّ حديث ابن مسعود جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل، ومن شعور وإرادة، وهذا قائم على أمرين:

(الأوّل) أنّ [لَمّة الْمَلَك] تسّمى [إلْهاماً] ولا تكون إلاّ إيعاداً بالخير وتصديقًا بالحقّ، وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد، فمبدأ العلم والإرادة الصّالحة من لَمَّة الْمَلَك.

(الثّانى) أنّ [لَمَّةَ الشّيْطَان] تسمّى [وَسْوَسَةً] وتكون تكذيبًا بالحقّ وإيعاداً بالشّر وهو ما كان من جنس إرادة الشّر وظنّ وجوده:

* إمّا مع رجائه إن كان هوى نفس.

* وإمّا مع خوفه إن كان غير محبوب لها.

واللَّمَّةُ [الشّيطانيّة] هى لسانه الذى يتكلّم بتلقينات القوّة الواهمة للنّفس وهذه القوّة عندما تتحوّل بفسادها إلى [شيطان أصغر] فلا تتحرّك إلاّ ضدّ الإنسان وإرادته وخلاف

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٩/ ٢٨١٤] وأحمد [٣٣٢٣] بلفظ «قَرِينُهُ منَ الشَّيَاطِينِ».

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٥] وأحمد [٢٤٧٢٦].

(٣) أخرجه التّرمذى موصولا [٢٩٨٨] وابن حبّان [٤٠] من قول ابن مسعود وإسناده صحيح.

رغباته ومقاصده، إنّ هذه اللّمّة الشّيطانيّة وتلك القوّة الواهمة تُشعران بوجود «نفس خبيثة شرّيرة» تنفث فى «قلب الإنسان» وتوسوس له فتستنطق جوارحه وتسخرها لأعمال الشرّ والعدوان.

[ومعلوم بنصّ القرآن أنّ الشّيطان «وَسْوَاسٌ خَنَّاسٌ» فإذا ذكر العبد ربّه خنس، ومن ذِكْرِ الله تعالى: تلاوة كتابه الكريم وفهمه، ومذاكرة علومه والتّفقّه فيها كما قال معاذ ابن جبل «وَمُذَاكَرَتُهُ تَسْبِيحٌ». ولهذا كان ترك ذكر الله تعالى سببا لحصول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة فى القلب(1)].

بقى أن نشير إلى «حكمة قراءة» ابن مسعود للآية وأنّ ذلك جاء بيانا لجماع ما يطلبه الشّيطان من الإنسان، فقوله تعالى ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أى يُخوّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم. وقوله ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أى بالبخل فى هذا الموضع خاصّة، ويُذكَر عن مقاتل والكُلَبىّ [كُلُّ فَحْشَاءٍ فِى الْقُرْآنِ فَهِىَ الزِّنَا إلاّ فِى هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّهَا الْبُخْلُ(2)]. والصّواب أنّها كلّ فاحشة، فهى صفة لموصوف محذوف فحذف موصوفها إرادة للعموم أى بالفعْلة الفحشاء، والخلّة الفحشاء ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه فى الآية وَعْدَ الشّيطان وأمره، وهما جماع ما يطلبه الشّيطان من الإنسان:

(1) وعده بالتّخويف من فِعْلِ الْخَيْرِ خشية الفقر بقوله تعالى ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾. فإذا خَوّفه من [فعل الخير] تركه ومضى.

(2) وأمره بالفحش والشّرّ فى قوله تعالى ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. فإذا أَمَرَهُ بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها.

ثمّ ذكر سبحانه وعده على طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهى المغفرة والفضل فى قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾. [فالمغفرة]: وقاية وحفظ من الشّر ومنه قوله ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11]. و[الفضل] إعطاء الخير ومنه قوله تعالى ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النّساء: 173(3)].

(المدخل الرّابع)

الاستحاضة ركضة من ركضات الشّيطان

الرَّكْضُ [فى اللّغة] الضّرْبُ بالرِّجْل والإصابة بها والمشى والجرى من قول الله تعالى ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42]. أى اضرب بها، ومنه قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: 12]. أى يفرّون كناية عن الخوف والفزع الشّديدين.

(1) انظر فتاوى ابن تيمية [ج 4 ص 34]. (2) انظر إغاثة اللّهفان لابن القيّم [ج 1 ص 104]. (3) انظر المصدر السّابق [ص 104 - بتصرّف].

وتأتي المرأة لتستفتي رسول الله ﷺ في أمر «الْحَيْضَة الشَّدِيدَة الْكَثِيرَة فيَقُولُ لها فاتَّخذي ثَوْبًا. قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ فتَلَجَّمِي، قَالَتْ إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا، فقال لها: سَآمُرُكِ بِأَمْرَيْنِ أَيُّهُمَا فَعَلْتِ فَقَدْ أَجْزَأَ عَنْكِ الآخَرِ، فَإِنْ قَوِيتِ عَلَيْهِمَا فَأَنْتِ أَعْلَمُ، فقال إِنَّمَا هَذِهِ رَكْضَةٌ مِنْ رَكَضَاتِ الشَّيْطَانِ فَتَحَيَّضِي سِتَّةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةً فِي عِلْمِ اللهِ ثُمَّ اغْتَسِلِي، فَإِذَا رَأَيْتِ أَنَّكِ قَدْ طَهُرْتِ وَاسْتَنْقَأْتِ فَصَلِّي أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ ثَلاثًا وَعِشْرِينَ لَيْلَة وَأَيَّامَهَا وَصُومِي وَصَلِّي فَإِنَّ ذَلِكَ يُجْزِئُكِ[1]». وجاء عند أحمد بلفظ «لَيْسَتْ بِالْحَيْضَة وَلَكِنَّهَا رَكْضَةٌ مِنَ الرَّحِمِ[2]».

وأصل الرَّكْضَة في الحديث الضَّرب بالرِّجل والإصابة بها، يُريد به الإضرار والأذى وهو مراد قوله ﷺ «إِنَّمَا هَذِهِ رَكْضَةٌ مِنْ رَكَضَاتِ الشَّيْطَانِ». ولمّا قيل «يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ فَاطِمَة بِنْت أَبِي حُبَيْش اسْتُحِيضَتْ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا فَلَمْ تُصَلِّي؟ فقال: سُبْحَانَ اللهِ إن هذا من الشَّيْطَان[3]». أي أنّ هذه الاستحاضة رَكْضَةٌ من رَكَضَاته.

وجاء في تفسير ذلك عند العلماء قولان:

(الأوّل) أنّ هذه الثَّجَّة وهي نزول الدّم بكثرة سبب في تسلُّط الشّيطان وتلبيسه عليها بواحد من أمرين:

(١) أنّ الشّيطان قد وجد سبيلا إلى التّلبيس عليها في أمر دينها ووقت طُهرها وصلاتها حتّى أنساها ذلك عادتها وصارت في التّقدير كأنّها ركضة منه.

(٢) أنّها ركضة نالتها من ركضاته على الحقيقة وأنّ الشّيطان ضربها حتّى انفجر عرقها. (قال) الصّنعاني [الأظهر أنّها رَكْضَةٌ منه حقيقة إذ لا مانع من حملها عليه[4]].

(الثّاني) أنّ جريان الدّم في غير أيّام الحيض يكون لعلّة المرض ويسيل من عرق في أدنى الرّحم يسمّى [العاذل] ولا انقطاع له إلاّ عند البُرء منه لقوله ﷺ «إِنَّ هَذِه لَيْسَتْ بِالْحَيْضَةِ وَلَكِنْ هَذَا عِرْقٌ، فَاغْتَسِلِي وَصَلِّي[5]». وفي رواية «فَإِذَا رَكَضَ ذَلِكَ الْعِرْقُ وَهُوَ جَارٍ فِيهِ سَالَ مِنْهُ». وجاء عند النّسائي بلفظ «إِنَّهُ عِرْقٌ عَانِدٌ». (قال) في النّهاية [شبّه به لكثرة ما يخرج منه على خلاف عادته، وقيل: العاند الذى لا يرقأ].

(المدخل الخامس)

مبيت الشّيطان على خيشوم الإنسان

ولا يختار الشّيطان للمبيت مع الإنسان إلاّ خيشومه حضّ النّبى ﷺ المنتهض من

(١) حديث حسن أخرجه التّرمذى [١٢٨] وأبو داود [٢٨٧] وابن ماجه [٥١٦]. (٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٨٥٣] والنّسائى [٢٠٩]. (٣) حديث صحيح انفرد به أبو داود [٢٩٦]. (٤) انظر سبل السّلام للصّنعانى [ج ١ ص ١٠٢]. (٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٣٤] وأبو داود [٢٨٨] والنّسائى [٣٥٨].

نومه أن يستنثر ثلاثا عند وضوئه لحديث أبي هريرة «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِه وَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاَثًا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِه(١)». والخيشوم هو أعلى الأنف بينه وبين الدّماغ وقيل المَنْخَر، وعلّة مبيت الشّيطان على الخيشوم تقوم على احتمالين:

(الأوّل) أن يكون ذلك مجازا لما يتكوّن فيه من الغبار والرّطوبات، وهى قاذورات توافق الشّيطان وتلائمه فيصبح محلا لمبيته، فينبغى للإنسان أن يقوم بتنظيفه على النّحو الذى أمر به رسول الله ﷺ.

(الثّانى) أن يكون ذلك على حقيقته باعتباره أحد منافذ الجسم فيكون مبيته على الأنف ليتوصّل منه إلى القلب إذا استيقظ، فمن استنثر منعه من التّوصّل إلى ما يقصد من الوسوسة والإغواء.

وظاهر الحديث أنّ هذا يقع لكلّ نائم ويُحتمل أن يكون مخصوصا بمن لم يحترز من الشّيطان بشىء من الذّكر لقوله ﷺ «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِىَ(٢)». وكما فى قوله ﷺ «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِىِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ(٣)». ويحتمل أن يكون المراد بنفى القرب فى قوله «وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ» أنّه [لا يقرب من المكان الذى يوسوس فيه وهو القلب فيكون مبيته على الأنف ليتوصّل منه إلى القلب إذا استيقظ(٤)].

أمّا قوله «فَلْيَسْتَنْثِرْ» فهو أكثر فائدة من قوله «فَلْيَسْتَنْشِقْ» لأنّ الاستنثار يقع على الاستنشاق بغير عكس، فقد يستنشق ولا يستنثر والاستنثار من تمام فائدة الاستنشاق، لأنّ حقيقة الاستنشاق جذب الماء بريح الأنف إلى أقصاه والاستنثار إخراج ذلك الماء، والمقصود من الاستنشاق تنظيف داخل الأنف، والاستنثار إخراج ذلك الوسخ مع الماء فهو من تمام الاستنشاق.

واستتمامًا للجانب الفقهى نشير إلى أنّ وظيفة الاستنشاق التّعبديّة قد تعلّقت بهذا الأنف الذى أبدعه الخالق سبحانه فى الوجه، فأحسن شكله وجمّل هيئته، وأودع فيه حاسّة الشّم التى تُدْرَكُ بها أنواع الرّوائح الطيّبة والخبيثة والنّافعة والضّارة، بل وتعتمد عليه الدّورة التّنفسيّة للإنسان، ولم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون كما فى الأذن لئلاّ يمسك الرّائحة فيضعفها ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مَصبًّا تنحدر إليه الإفرازات المخاطيّة لتجتمع فيه ثمّ تخرج منه.

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٩٥] ومسلم [٢٣٨] والنّسائى [٩٠]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٩٣] ومسلم [٢٦٩١] والتّرمذى [٣٤٦٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٥]. (٤) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٣٩٥].

واقتضت حكمة الله سبحانه أن جعل أعلى الأنف أدقّ من أسفله لتخرج منه تلك الفضلات بسهولة، ولأنّه يأخذ من الهواء ملأه ثمّ يتصاعد فى مجراه قليلا حتّى يصل إلى الرّئتين وصولا لا يضرّهما، وجعل فيه منخَرين وصل بينهما بحاجز ليكون ساترا بين ما ينحدر فيه من الإفرازات ومجرى النَّفس الصّاعد منه فلا يتأثّر أحدهما بالآخر، فإذا نزلت الإفرازات من أحد المنفذين بقى الآخر للتنفُّس، لذلك كانت حكمة استنشاق الأنف للماء واستنثاره عند كلّ وضوء، لتنظيف ما لان منه وطرح ما فيه من علائق وإفرازات ضمانا لصحّة الإنسان وحماية لصدره من الأدران والأسقام.

ولمّا سجّلت الآثار الصّحيحة أنّ الاستنشاق من سُنن الفطرة وهديها، جاء التّشريع من نبيّنا ﷺ ليُؤكّد بفعله له وأمره به أنّه من آكد سُنن الوضوء وفضائله لقول النّبى ﷺ «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لِيَسْتَنْثِرْ[1]». وحديث عبد الله بن زيد «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ مِنْ كَفٍّ وَاحِدَةٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثًا[2]». أى أنّه ﷺ جمع المضمضة والاستنشاق من كَفٍّ واحدة من الماء.

وفى القاموس «الْكَفُّ» مُؤنّث وجمعه كُفُوفٌ وأَكُفٌّ: راحة اليد مع الأصابع، وسمّيت بذلك لأنّها تَكُفُّ الأذى عن البدن. (قال) المحدث الدّهلوى [لم أجد فى رواية صحيحة تصريحًا بأنّ النّبى ﷺ توضأ بغير مضمضة واستنشاق وترتيب، فهى متأكّدة فى الوضوء غاية الوكادة، وهو طهارة مستقلّة من خصال الفطرة ضُمَّ إلى الوضوء ليكون ذلك توقيت له، ولأنّه من باب تعاهد المغابن بالتّنظيف والتّطهير[3]].

والاستنشاق لغةً هو جذب الماء ونحوه بريح الأنف إليه، واصطلاحا إيصال الماء إلى ما لانَ من الأنف ثمّ استنثاره، ومشروعية الاستنشاق تحصل بالاستنثار وهو طرح الماء الذى يجذبه المتوضىء بريح أنفه بعد استنشاقه لتنظيف ما بداخله، سواء أكان الاستنثار بإعانة اليد أم بغيرها، وحُكى عن مالك كراهة فعله بغير اليد لكونه أشبه بفعل الدّابة، فإذا استنثر بيده فالمستحبّ أن تكون اليسرى.

[قال] النّووى: [قال جمهور أهل اللُّغة والفقهاء والمحدثون الاستنثار إخراج الماء من الأنف بعد الاستنشاق، ويدلّ عليه لفظ حديث عبد خير عن على «ثُمَّ تَمَضْمَضَ ثَلَاثًا وَاسْتَنْثَرَ ثَلَاثًا[4]». وجاء عند البخارى «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ، فَلْيَسْتَنْثِرْ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٦٢] ومسلم [٢٣٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٩١] ومسلم [٢٣٥] وأبو داود [١١٩].

(٣) انظر حُجَّةُ الله البالغة [ج ١ ص ١٧٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١١] والتّرمذى [٤٩] والنّسائى [٩٢].

ثَلاَثًا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ[1]»].

وعلى هذا فالمراد بالاستنثار في الوضوء :

(١) تنظيف مداخل الأنف ومخارجه لما فيه من المعونة على القراءة في الصّلاة عند الاستيقاظ ولكون تنقية مجرى النَّفَس لازمة لتصحيح مخارج الحروف .

(٢) ويُزاد للمستيقظ من نومه بأنّ ذلك يكون مدعاة لطرد الشّيطان وإغلاق منافذه إلى القلب .

(٣) وأنّ ذلك يحول دون اجتماع المخاط والمواد الغليظة في الخيشوم التي تتسبّب في تبلّد الذّهن وفساد الفكر ، فيكون ذلك أمكن لتأثير الشّيطان بالوسوسة وصدّه عن تدبّر الأذكار .

وللأئمّة في حكم المضمضة والاستنشاق ثلاثة مذاهب :

(الأوّل) هما سُنَّة في الوضوء عند الحنفيين ومالك والشّافعي والأوزاعي واللّيث وغيرهم لقول الله تعالى ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ . وموضع الدّلالة في الآية أنّ الله تعالى إنّما أمر بغسل الوجه دون باطن الفم والأنف .

(الثّاني) والمضمضة عند أحمد في رواية وداود الظّاهري وابن المنذر سُنَّة في الوضوء ، أمّا الاستنشاق فهو عندهم واجب لحديث أبي هريرة «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لْيَسْتَنْثِرْ[2]» . وفرّقوا بينهما لأنّ المضمضة ثابتة بفعل النّبي ﷺ لا بأمره بخلاف الاستنشاق فإنّه ثابت بهما معا .

(الثّالث) أنّهما فرض في الوضوء والغسل وبه قال إسحاق وهو المشهور عن أحمد لأنّهما من تمام غسل الوجه فالأمر بغسله أمر بهما .

(والظّاهر) ما ذهب إليه الجمهور من أنّ الأمر في الأحاديث محمول على النّدب ، وفي التّرتيب بين المضمضة والاستنشاق وبين الأعضاء الأخرى ذكر الأئمة الأحكام التّالية :

(١) تقديم المضمضة على الاستنشاق شرط صحة عند الإمام أحمد وبعض الشّافعيّة ، وهو عند الحنفيّين ومالك والأوزاعي والثّوري وغيرهم مستحبّ .

(٢) اتّفاق الأئمّة الأربعة والجمهور على أنّ تقديمهما على غسل الوجه ليس بواجب لأنّهما من أجزائه ، وإنّما يستحبّ تقديمهما عليه ، لأنّ كلّ مَنْ وَصَفَ وضوء رسول الله ﷺ ذكر أنّه بدأ بهما .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٩٥] ومسلم [٢٣٨] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٧] .

(٣) كما يستحبّ تقديمهما على سائر الأعضاء وغير الوجه عند الإئمّة الثّلاثة والجمهور وهو رواية عن أحمد.

والأحاديث الكثيرة الدّالة على تقديمهما على غسل الوجه تدلّ على أنّه سُنَّة وهو متّفق عليه، والحكمة من تقديمهما على الفروض:

*: اختبار أوصاف الماء لأنّ لونه يُدْرَكُ بالبصر، وطعمه يُعْرَفُ بالفم، وريحه يميّز بالأنف، فجاء تقديمهما وهما مسنونان قبل الوجه المفروض غسله احتياطا للعبادة وتحقيقا لهدى السُّنَّة الحانية [(١)].

*: كما قُدِّمت المضمضة على الاستنشاق لشرف منافع الفم وعظم وظيفته التّعبديّة والجسميّة، كما أنّ داخل الفم والأنف ليسا من مسمّى الوجه فى لغة العرب، لأنّ الوجه ما تقع به المواجهة، فالأمر بغسل الوجه ليس أمراً بهما، ولا يقال إنّ إخراجهما من مسمّى الوجه لتسميتهما باسم خاص بهما، بل لعدم شموله لهما، وإنّ مداومة رسول الله ﷺ عليهما محمولة على الاستحباب كالأ وامر الواردة بهما جمعا بين الأدلّة.

أمّا عن كيفيّة المضمضة والاستنشاق فإنّهما يحصلان بإيصال الماء على أىّ صفة إلى الفم والأنف، والأفضل عند الأئمة الثّلاثة الوصل بينهما بأن يتمضمض ويستنشق بثلاث غرْفات، يتمضمض من كلّ واحدة ثمّ يستنشق منها لحديث عبد الله ابن زيد قال «رَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ مِنْ كَفٍّ وَاحِدَةٍ(٢) يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثًا(٣)». أى أنّه جمع ﷺ بين المضمضة والاستنشاق من كَفٍّ واحدةٍ ثلاثَ مرّاتٍ بثلاث غرْفَات ويدلّ عليه قوله فى صفة وضوء النّبى ﷺ «فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ ثَلاَثًا بِثَلاَثِ غَرْفَاتٍ مِنْ مَاءٍ(٤)».

(قال) التّرمذى [وقال بعض أهل العلم المضمضة والاستنشاق من كفّ واحدة يجزىء، وقال بعضهم تفريقهما أحبّ إلينا، وقال الشّافعى إنْ جَمَعَهُمَا فى كفّ واحدة فهو جائز، وإن فرّقهما فهو أحبّ إلينا(٥)]. واختار الأحناف الفصل بينهما بأن يتمضمض بثلاث غرْفَات ثمّ يستنشق بثلاث أخرى لما رُوى عن كعب بن عمرو «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ تَوَضَّأَ فَمَضْمَضَ ثَلاَثًا، وَاسْتَنْشَقَ ثَلاَثًا، يَأْخُذُ لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مَاءً جَدِيداً(٦)».

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٣١٢].

(٢) قال الأزهرى [الكفّ هى اليد إلى الكوع وجمعها أكُفّ وكُفُوفٌ، وقصد بها هنا الرّاحة مع الأصابع، وسُمّيَت بذلك لأنّها تَكُفُّ الأذى عن البدن].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٩١] ومسلم [٢٣٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٩٢].

(٥) انظر تحفة الأحْوَذى [ج ١ ص ٩٥].

(٦) أخرجه الطّبرانى فى الكبير [انظر نصب الرّاية - ج ١ ص ١٧٠].

والثّابت عن نبيّنا ﷺ أنه كان يتمضمض ويستنشق تارّة بغرْفة، وتارّة بغرْفتيْن، وتارة بثلاث، وكان يصل بين المضمضة والاستنشاق، فيأخذ نصف الْغرْفة لفمه، ونصفها الآخر لأنفه، أمّا الغرفتان والثّلاث فيمكن فيهما الوصل والفصل، إلاّ أنّ الوصل كان من هديه ﷺ لحديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه في وصف وضوء النّبى ﷺ «فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ ثَلَاثَ غَرَفَاتٍ[1]».

كما يُسَنُّ في المضمضة والاستنشاق:

(١) أن يكونا باليد اليمنى لحديث عَبْد خَيْرٍ «ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى فِى الإِنَاءِ فَتَمَضْمَضَ ثَلَاثًا وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا[2]». وفيه الدّلالة على أخذ الماء باليمين وللإجماع على أنّ تقديم اليمين في الوضوء سُنّة مَنْ خالفها فاته الفضل وتمّ وضوؤه.

(٢) أن يكونا ثلاثا لحديث عبد خير «ثُمَّ تَمَضْمَضَ ثَلَاثًا وَاسْتَنْثَرَ ثَلَاثًا[3]». وفيه دليل على ثبوت التّثليث فيهما.

(٣) مجّ الماء في المضمضة أى طرحه من الفم بعد إدارته.

(٤) الاستنثار باليسرى لما جاء في حديث علي رضي الله عنه «أَنَّهُ دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ وَنَثَرَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، فَفَعَلَ هَذَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ هَكَذَا طُهُورُ النَّبِيِّ ﷺ[4]».

(٥) المبالغة فيهما لغير الصّائم لقوله ﷺ «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ، وَبَالِغْ فِى الاسْتِنْشَاقِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ صَائِمًا[5]». أى أتمّه بجذب الماء إلى أعلى الأنف، وبامتخاطه في كلّ مرّة إلاّ أن تكون صائما، فلا تبالغ خشية دخول الماء إلى الحلق من الخيشوم فيفسد الصّوم. وتعنى المبالغة في المضمضة ترديد الماء في الحلق.

(المدخل السّادس)

مشاركة الشّيطان الإنسان طعامه وشرابه

يتمكّن الشّيطان من الطّعام والشّراب ما لم يذكر صاحبه اسم الله تعالى عليه، ومن غوايته للإنسان مشاركته له في كلّ شيء ما لم يُسَمِّ الله تعالى ويستعيذ به منه، فعهده الذى لا ينقضه ولا ينساه كما قال الرّسول الكريم ﷺ أنه يحضر أحدنا «عِنْدَ كُلِّ شَىْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ[6]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٨٦] ومسلم [٢٣٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١٢] والنّسائى [٩٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١١] وأحمد [١١٣٣] والدّارمى [٧٠١].

(٤) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٩١] والتّرمذى [٢٨] وابن خزيمة [١٤٧].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٤٢] والتّرمذى [٣٨].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠٣٣].

وتتأكد حقيقة أكل الشيطان وشربه بما رواه أبو داود عن حذيفة قال «كُنَّا إذَا حَضَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ (الحديث) وَقَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْه، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِه، فَأَخَذْتُ بِيَدِه، وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِه إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِى مَعَ يَدِهَا[1]». وجاء عند مسلم من حديث جابر «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِه وَعِنْدَ طَعَامِه، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِه قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ[2]».

ويستدل له بأنّ النبى ﷺ أخبر أنّ الشّيطان إنّما يتمكّن من أكل الطّعام إذا شرع فيه إنسان بغير ذكر الله تعالى، كما أنّ قوله ﷺ «لاَ تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِالشِّمَالِ[3]». ينبّه إلى اجتناب الأفعال التى تشبه أفعال الشّيطان ومقتضى هذا تحريم الأكل بها وهو الصّحيح، فإنّ الآكل بها إمّا شيطان وإمّا مُشبّه به.

أمّا قوله ﷺ من حديث ابن عمر «لاَ يَأْكُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشِمَالِه وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِه وَيَشْرَبُ بِهَا[4]». فقد حمله قوم وما كان مثله على المجاز، وقالوا إنّ الأكل بالشّمال أكل يحبّه الشّيطان ويدعو إليه، ومثله من المسائل التى يزيّنها للإنسان بالمخالفة للهدى الذى جاء به نبىّ هذه الأمّة ﷺ، فكذلك يدعو إلى الأكل والشّرب بالشّمال ويزيّنه. (قال) ابن عبد البرّ [وهذا عندى ليس بشىء ولا يعنى لحمل شىء من الكلام على المجاز إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما[5]].

وجاء فى شرح مسلم [والصّواب الذى عليه جماهير العلماء من السّلف والخلف من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين أنّ هذا الحديث وشبهه من الأحاديث الواردة فى أكل الشّيطان محمولة على ظاهرها وأنّ الشّيطان يأكل حقيقة إذ العقل لا يُحيله والشّرع لم يُنكره بل أثبته، فوجب قبوله واعتقاده والله تعالى أعلم[6]].

بركة التّسمية عند الهمّ بكل فعل

للتّسمية فى حياة المؤمنين أثر إيجابى فعّال يُمثّل التّرابط المتواصل بالله تعالى مع كلّ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٧] وأبوداود [٣٧٦٦] وأحمد [٣٨٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٨] وأبو داود [٣٧٦٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٩] وابن ماجه [٢٦٦٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠٢٠].

(٥) انظر آكام المرجان [ص ٤٤].

(٦) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٢١١].

قول وفعل وحركة واتجاه، فهى الشّعار المعلن والحقيقة القائمة عند الشّروع فى أعمال الطّاعة والعبادة، كما علا شأنها عندهم حتّى أصبحت رمزا يدلّل المرء من خلاله على أنّ البدء باسم الله تعالى يمثل:

[تمام الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى ومشيئته، وتحصيل توفيقه وبركته، وأنّه سبحانه الواجد الحقّ الذى يستمدّ منه كلّ موجود وجوده، ويبدأ منه كلّ مبدوء بدأه، فباسمه سبحانه يكون كلّ ابتداء، وباسمه تكون كلّ حركة وانتهاء].

[فلا يُذكر اسمه تعالى على قليل إلاّ كثّره، ولا على خير إلاّ أنماه وبارك فيه، ولا على آفة إلاّ أذهبها، ولا على شيطان إلاّ ردّه خاسئا مدحورا، فأعمال العبادة من وضوء، وغسل، وتيمّم، وصلاة، وقراءة للقرآن، وأداء للمناسك وغيرها يكمن سرّ قبولها عند الله تعالى فى البدء باسمه ورجاء توفيقه، وعندما تُوظّف التّسمية عند الخروج من البيت وعند دخوله، وعند ركوب وسائل الانتقال، وعندالعقد والنّحر والجماع، فإنّها تعمل على حفظ المرء وتحصينه من شرّ الشّيطان وكيده].

وللتّسمية فى أوّل الطّعام والشّراب وحمد الله فى آخره تأثير عجيب فى نفعه واستمرائه ودفع مضرّته، ورحم الله الإمام أحمد حين قال [إذَا جَمَعَ الطَّعَامُ أَرْبَعًا فَقَدْ كَمُلَ: إذَا ذُكِرَ اسْمُ اللّه فى أوّلِه وَحُمِدَ فِى آخِرِه، وَكَثُرَتْ عَلَيْه الأَيْدى، وَكَانَ مِنْ كَسْبٍ حَلاَل(١)].

ولقد سجّل القرآنُ الكريم فى كثير من مواضعه التّوجيهيّة هذا البيان الرّبّانىّ الذى يحضّ على البدء بالتّسمية للدّلالة على أهميتها وتأكيدها فى حياة المسلم فقال تعالى:

* ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[المائدة: ٤].

ونَهى سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إن كان التّرك للتّسمية عمداً لا نسيانا ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[الأنعام١٢١]. وفى سورة هود [٤١]: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وفى سورة النّمل [٣٠]: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولقد صحّ عن نبيّنا الأكرم ﷺ أنّه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله، فإنّ ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشّيطان، وإيكاؤه يطرد عنه الهوامّ، ولذلك أمر بذكر الله فى هذين الموضعين لهذين المعنيين، وتخمير الإناء تغطيته(٢)، وإيكاؤهُ شدّ رءوس الأوانى

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٤ ص ٢٣٢].

(٢) ذكر العلماء أنّ للأمر بالتّغطية فوائد منها: [الفائدتان] اللّتان وردتا فى هذه الأحاديث وهما: صيانته من الشّيطان، فإنّ الشّيطان لا يكشف غطاء ولا يحلّ سقاءً، وصيانته من الوباء، و[الفائدة الثّالثة]: صيانته من النّجاسة والمقذّرات، و[الرّابعة]: صيانته من الحشرات والهوامّ، فربّما وقع شىء منها فيه فشربه وهو غافل، أو فى اللّيل فيتضرّر به والله أعلم.[انظر نووى مسلم - ج ٧ ص ٢٠١].

بالخيط حتّى لا يتسرّب إليها شيء، ودليل ذلك قول النّبي ﷺ من حديث جابر «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ وَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ(١)».

وجاء في رواية جابر «أَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ(٢)». ومن رواية أنس «اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ(٣)». وقوله «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَلاَّ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ(٤)». وقوله ﷺ لعُمَرَ بن أبي سلمة عند البخاري «يَاغُلاَمُ سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ(٥)». وعن عائشة رضي الله عنها عند أبي داود مرفوعا «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا مَا فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللهِ، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ(٦)». وقال «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ فَكُلْ(٧)».

وعن أنس قال «مَنْ قَالَ - يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَهُدِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ(٨)». وعند البخاري «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا لَمْ يَضُرُّهُ(٩)». أي لم يضرّ الشّيطان الولد، وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وَجَعًا في جسده فقال له رسول الله ﷺ «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِسْمِ اللهِ ثَلاَثًا وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ(١٠)».

كما روى ابن ماجه والتّرمذى «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الْخَلاَءَ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللهِ(١١)». وروى النّسائى عن أبي المليح عن أبيه «إِذَا عَثُرَتْ بِكَ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٢٣] ومسلم [٩٧ / ٢٠١٢] وابن ماجه [٢٧٧٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٠] ومسلم [٢٠١].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٦٣] ومسلم [١٤٢٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٧] وأبو داود [٣٧٦٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٣٧٦] ومسلم [٢٠٢٢] والتّرمذى [١٨٥٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٧٦٧] والتّرمذى [١٨٥٧] وابن ماجه [٢٦٥٩].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٩٦٨] وافقه البخارى [٢٥٠٧].

(٨) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٨٦٣] وأبو داود [٥٠٩٥].

(٩) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤١] ومسلم [١٤٣٤] والتّرمذى [١٠٩٢].

(١٠) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٢] وأبو داود [٣٨٩١] والتّرمذى [٢٠٨٠].

(١١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٦٠٦] وابن ماجه [٢٤٥] وأورده فى الإرواء [٥٠].

الدَّابَةُ فَلا تَقُلْ تَعسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَتعَاظَمُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْبَيْت وَيَقُولُ بقُوَّتى صَرَعْتُهُ ، ولَكِنْ قُلْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يَتصَاغَرُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ(١)» .

(المدخل السّابع)

سيطرة الشّيطان على حواسّ الإنسان لينام عن الصّلاة

ويتحصّل ذلك إذا نام المرء على غير ذكر اللّه تعالى فيستغرقه الشّيطان فى النّوم حتّى ينسيه الفروض والطّاعات لحديث ابن مسعود ﷺ قال «ذُكِرَ عِنْدَ النَّبىِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ» . فقَالَ «بَالَ الشَّيْطَانُ فِى أُذُنِهِ» . وفى رواية «فِى أُذُنَيْهِ(٢)» .

واختُلف فى بول الشّيطان :

(١) فقيل هو على حقيقته (لقول) القرطبى [لا مانع من ذلك إذ لا إحالة فيه لأنّه ثبت أنّ الشّيطان يأكل ويشرب وينكح فلا مانع من أن يبول] . وهذا من مقتضى الإيمان بالغيب ، وخَصَّ الأُذُنَ لأنّها حالة الانتباه لما رواه ابن نصر عن ابن مسعود قال «حَسْبُ رَجُلٍ مِنَ الْخَيْبَةِ وَالشَّرِّ أَنْ يَنَامَ حَتَّى يُصْبِحَ وَقَدْ بَالَ الشَّيْطَانُ فِى أُذُنِه(٣)» .

و(قال) الطّيبى [خَصَّ الأُذُنَ بالذّكر وإن كانت العين أنسب بالنّوم إشارة إلى ثقل النّوم ، فإنّ المسامع هى موارد الانتباه ، وخَصَّ البول لأنّه أسهل مدخلا فى التّجاويف وأسرع نفوذا فى العروق ، فيورّث الكسل فى جميع الأعضاء(٤)] . ويقال لمن استخفّ بإنسان وخدعه [بَالَ فِى أُذُنِه] وأصل ذلك فى دابّة تفعل ذلك بالأسد إذلالا له ، و(قال) الحربى [معناه ظهر عليه وسَخر منه ، وقيل هو مَثَلٌ مضروب للغافل عن القيام بثقل النّوم كمن وقع البول فى أذنه فثقل أذنه وأفسد حسّه] .

(٢) ويُحتمل أن يُحمَل ذلك على التوسّع فيكون معناه : أنّ الذى ينامُ اللّيل كلّه ولا يستيقظ عند أذان المؤذّنين ولا تذكار المذكّرين فكأنّ الشّيطان سدّ أُذنيه ببوله ، وخصّ البول بالذّكر استهانة وإبلاغا فى التّفحيش به ، وليجتمعَ له مع إذهاب سَمعه استقذارُ ما صُرِف به سمعه ، ويُحتمل أن يكون معناه أنّ الشّيطان استولى عليه واستهان به ، حتّى قد اتّخذه كدورة المياه المعدّة لإلقاء البول فيها واللّه تعالى أعلم .

وقوله ﷺ فى حديث ابن مسعود ﷺ «مَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ» : يُراد به صلاة اللّيل أو

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٠٤٢٩] وأبو داود [٤٩٨٢] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٠] ومسلم [٧٧٤] وابن ماجه [١١٠٣] .

(٣) حديث موقوف صحيح الإسناد ورواه محمد بن نصر .

(٤) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٣٥] .

الصّلاة المكتوبة ويؤيّده ما أخرجه ابن حبّان في صحيحه «نَامَ عَنِ الْفَرِيضَة» وما ورد عند البخاري من قوله ﷺ في حديث الرُّؤيا «أَمَّا الَّذي يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَة(١)». والظّاهر أنّ المراد بها صلاة العشاء واللائق بأنّها هي التي نام عنها حتّى بال الشّيطان في أذنيه.

(قال) في الفتح [ويحتمل أن تكون الصّلاة المنفيّة في الحديث صلاة العشاء فيكون التّقدير: إذا لم يُصَلِّ العشاء فكأنّه يرى أنّ الشّيطان إنّما يفعل ذلك بمن نام قبل صلاة العشاء، بخلاف من صلاّها ولا سيّما في الجماعة]. ويقوّي ذلك ما ثبت من قول النّبي ﷺ «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَة فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَة فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ(٢)». لأنّ مسمّى قيام اللّيل يحصل للمؤمن بقيام بعضه فحينئذ يصدق على من صلّى العشاء في جماعة أنّه قام اللّيل ويؤكّد ذلك ما ورد في الحديث بقوله ﷺ «وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَة(٣)».

(المدخل الثّامن)

إصرار الشّيطان على تكفير الإنسان

عندما يجد الشّيطان الفرصة مهيّأة للإيقاع والتّكفير يسرع إلى الغافل عن ذكر ربّه بطرح السّؤال الأخطر عليه [اَللهُ خَلَقَكَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟] وفي ذلك دليل من دلائل النّبوة لإخباره ﷺ بوقوع ما سيقع فوقع لقوله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ(٤)». ويستفاد من الحديث:

(١) أنّ العلم باستغناء الله تعالى عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة، وأنّ استرسال الفكر في ذلك لا يزيد المرء إلاّ حَيْرَةً، ومَنْ كان هذا حاله فلا علاج له إلاّ اللّجوء إلى الله تعالى والاعتصام بحبله.

(٢) أنّ هذه الوساوس لمّا كانت من إلقاء الشّيطان ولا قوّة لأحد بدفعه إلاّ بمعونة الله تعالى وكفايته أَمَر بالالتجاء إليه والتّعويل في دفع ضرره عليه، وذلك معنى الاستعاذة على ما يأتي، ثمّ عقب ذلك بالأمر بالانتهاء عن تلك الوساوس والخواطر عن الالتفات إليها والإصغاء نحوها والاسترسال معها، بل يُعرض عنها ولا يُبالي بها، وليس ذلك نَهْيًا عن

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [١١٤٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٥٦] وأبو داود [٥٥٥].

(٣) انظر فتح الباري [ج ٣ ص ٣١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٧٦] ومسلم [٢١٤ / ١٣٤] وأبو داود [٤٧٢١].

إيقاع ما وقع نها ولا عن ألاّ يقعَ منه، لأنّ ذلك ليس داخلا تحت الاختيار ولا الكسب فلا يكلّف بها.

ويحمل قوله ﷺ «فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ[1]». وقوله «فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِه». أمرٌ بتذكّر الإيمان الشّرعى واشتغال القلب به لتمحى عنه تلك الشّبهات وتضمحل تلك التّرّهات، وهذه كلّها أدوية للقلوب السّليمة المستقيمة التى تعْرِضُ لها هذه النّزغات سريعا ولا تمكث فيها، فإذا استعملت هذه الأدوية على نحو ما أمر به بقيت القلوب على صحّتها وانحفظت لها سلامتها، ولمّا سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ[2]». وفى رواية «تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ». والصّريح والمحض: الخالص الصّافى. ويفسّر معناه بأمرين:

(الأوّل) أنّ هذه الإلقاءات والوساوس التى تلقيها الشّياطين في صدور المؤمنين تنفرُ منها قلوبهم ويعظم عليهم وقوعها عندهم، وذلك دليل صحّة إيمانهم وقوّة يقينهم وكمال معرفتهم بأنّها باطلة، ولولا ذلك لركنوا إليها ولقبلوها ولم تعظم عندهم ولا سمّوها وسوسة.

(الثّانى) أنّ مجرّد استعظامهم التكلّم بهذه الوساوس هو محض الإيمان، فإنّ استعظام هذا وشدّة الخوف منه ومن النّطق به، فضلا عن اعتقاده إنّما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالا محقّقا وانتفت عنه الرّيبة والشّكوك، فعبّر رسول الله ﷺ عن ذلك بأنّه [خالص] الإيمان و[محض] الإيمان وذلك من باب تسمية الشّىء باسم الشّىء إذا كان مجاورا له أو كان منه بسبب.

وعلى المسلم أن يجتهد فى دفع هذه الخواطر ويعلم أنّ الشّيطان يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوسوسة، وينبغى عليه الاشتغال بغيرها والاستعاذة من شرّها كما كان رسول الله ﷺ يستعيذ بربّه عزّ وجلّ من الشّيطان الرّجيم وشركه بقوله «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِه[3]». أى وسوسته وإغوائه وإضلاله وما يدعو إليه من الإشراك بالله تعالى، [وَرُوِيَتْ كلمة «شِرْكِه» بقراءتين:

(الأولى) بكسر الشّين وسكون الرّاء أى ما يدعو إليه من الكُفر والإشراك بالله.

(والثّانية) بفتحتين «بِشَرَكِه» أى من حبائله وشباكه ومصايده ودسائسه التى يتصيّد بها حزبه ويفتتن بها النّاس[4]].

---

(١) رواه البخارى [٣٢٧٦] ومسلم [١٣٥] وأبو داود [٤٧٢١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٢] وافقه البخارى [٣٢٧٦] بمعناه.

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٩٢] وأبو داود [٥٠٦٧].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٤٣٣].

(قال) النّووى [وإنّما يُوسوس الشّيطان لمن أيس من إغوائه لينكّد عليه بالنّزغ والوسوسة لعجزه عن إغوائه، أمّا الكافر فإنّه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقّه على الوسوسة والنّزغ بل يتلاعب به كيف أراد[1]].

(المدخل التّاسع)

عقد الشّيطان على قافية ابن آدم كلّما نام

لا يريد الشّيطان من نفس الإنسان إلاّ خُبْثًا ولا من جسده وإرادته إلاّ كَسَلاً وتهاونًا، ولذلك يعقد على قافيته «ثَلاَثَ عُقَد» كلّما نام حتّى يثبّط من همّته ويضعف من عزيمته ويحُول بينه وبين أدائه للفروض والطّاعات.

ويأتي دليل ذلك بما رُوى عن الصّحابى الجليل أبى هريرة رضي الله عنه من قول النّبى ﷺ «يَعْقدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَة رَأْسِ أَحَدكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَد، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَة مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ[2]». والقافية مُؤخّر العنق، وقافية كلّ شيء مُؤخّره.

(قال) أبو عبيد [فكأنّ معناه أنّ على قفا أحدكم ثلاث عُقَد للشّيطان، وإنّما قيل لآخر حرف من بيت الشّعر: قافية لأنّه خلف البيت كلّه، وهى كلمة تقفو البيت فهى قافية[3]].

ويأتي تخصيص القفا لأنّه محل الواهمة ومحل تصرّفها وهى أطوع القوى للشّيطان وأسرع إجابة لدعوته.

وعَقْدُ الشّيطان على القافية عند العلماء على قولين:

(الأوّل) أنّ العقد باق على حقيقته لما فى رواية ابن ماجه «يَعْقدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَة رَأْسِ أَحَدكُمْ باللَّيْلِ بحَبْلٍ فيه ثَلاَثُ عُقَد[4]». وهذا العقد الذى يعقده الشّيطان كأنّه من باب عقد السّواحر وهنّ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾: وذلك بأنّهنّ يأخذن خيطا فيعقدن عليه عقدة منه ويتكلّمن عليه بالسّحر فيتأثّر المسحور عند ذلك، فشبّه فعل الشّيطان بالنّائم بفعل السّواحر.

(الثّاني) يحتمل فيه أنّ العقد مجاز كأنّه شبّه فعل الشّيطان بالنّائم من منعه من الصّلاة كفعل السّاحر بالمسحور من منعه عن مراده، وقيل إنّه قول يقوله الشّيطان ينشأ عنه تأخير

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٤٣٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٦٩] ومسلم [٧٧٦] والنّسائى [١٦٠٦].

(٣) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٢ ص ٦٧٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١١٠٢] وأورده فى صحيح التّرغيب [٦٠٩].

النّائم عن القيام فى اللّيل، وقيل إنّه يحجب «الحسّ» عن النّائم حتّى لا يستيقظ، ومقصوده بذلك التّلبيس على النّائم وتثبيطه عن القيام بالعبادة وظاهره اختصاص ذلك بنوم اللّيل.

أمّا قوله «يَضْرِبُ» أى بيده على العقدة تأكيدا وإحكاما لها قائلا ذلك، وقيل معناه أنّه يحجب الحسّ عن النّائم حتّى لا يستيقظ من نومه ومنه قول الله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]. أى حجبنا حاسّة السّمع أن يلج آذانهم فينتبهوا.

ويأتى قوله ﷺ «عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ»: على الابتداء والخبر، وقد وقع فى بعض الرّوايات «عَلَيْكَ لَيْلاً طَوِيلاً» على الإغراء، والأوّل أولى من جهة المعنى لأنّه الأمكن فى الغرور من حيث إنّه يُخْبِرُهُ عن طول اللّيل ثمّ يأمره بالرُّقاد بقوله «فَارْقُدْ» وإذا نُصب على الإغراء لم يكن فيه إلاّ الأمر بملازمة طول الرُّقاد.

وذلك أنّ النائم كلّما أراد أن يقوم ليذكر الله تعالى أو يصلى غرَّه الشّيطان وخدعه بأن يقول له: [عليكَ ليلٌ طويل فارقد!]. فيريه أنّه لطول ما بقى عليه من اللّيل ما يُمكنه استيفاء واحته من النّوم وقيامه بعد ذلك لحزبه فيصغى لذلك ويرقد، ثمّ إن استيقظ ثانية فعَل به ذلك وكذلك ثالثة، فلا يستيقظ من الثّالثة إلاّ وقد طلع الفجر فيفوته ما كان قد أراد من القيام، وإنّما خصّ العقد بثلاث لأنّ أغلب ما كون انتباهُ النّائم فى السّحر، فإن اتفق له أن يستيقظ ويرجعَ للنّوم ثلاث مرّات لم تَنْقَضِ النّومةُ الثّالثةُ فى الغالب إلاّ والفجر قد طلع.

ويشير قوله «أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»: إلى شُؤم تفريطه وإتمام خديعة الشّيطان عليه إذ قد حملَهُ على أنّ فاته الحظ الأوفر من تحصيل الطّهارة والذّكر والصّلاة، ونام حتّى فاتته صلاة الصّبح، فقام محزون القلب كثير الهمّ، متحيّرا فى أمره ثقيل النّفس غير منشرح الصّدر، متكاسلا عن تحصيل مآربه، لتركه فعل الخير، وبعده عن الله تعالى وتمكّن الشّيطان اللّعين منه.

ويضيف رسول الله ﷺ فى هذا الحديث الخُبثَ للنّفس مع أنّه قد قال فى حديث آخر «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسى وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقَسَتْ نَفْسى (١)». ولا تعارض بينهما لأنّ الذى منعه النّبى ﷺ إنّما هو: أن يُطْلِقَ الإنسانُ على نفسه لَفْظَ الخُبث وهو مذموم فيذُمَّ نفسه ويُضيف الذّمَّ إليها وهو ممنوع فى مثل هذا، وأمّا لو أضاف الإنسان لفظ الخُبث إلى غيره ممّا يصدق عليه لم يكن مذمومًا ولا ممنوعًا [(٢)].

(١) رواه البخارى [٦١٨٠] ومسلم [٢٢٥١] من حديث سهل بن حنيف.

(٢) انظر المفهم للقرطبى [ج ٢ ص ٤١٠].

والمسلم إذا قام من نومه واستيقظ فذكر الله تعالى وتوضأ وصلى أصبح طيب النفس نشيطا لما يرد عليه من عبادات وصلوات وغيرها، لكونه يألف الأعمال الصالحة ويعتادها فتذهب عنه مشقتها ولا يستغنى عنها بحال لرجاء ثواب ما فعل ولانشراح صدره بما يستقبل والله تعالى أعلم.

كما أنه لا تعارض بين الحديث وما في رواية البخاري عن أبي هريرة مرفوعا «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ[1]».

* لإمكان حمل الحديث الأول على العقد المعنوى.

* وحمل الاقتراب في هذا الحديث على العقد الحسي أو العكس.

فيكون عقد الشيطان على قافية رأس كل واحد إلا من قرأ آية الكرسي عند نومه، كما أن في قوله ﷺ «فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»:

[الحث على ذكر الله تعالى والوضوء والصلاة عند الاستيقاظ من النوم، فإن ذلك يبعد الشيطان ولا يكون له على من فعل ذلك سبيل، ولا يتعين للذكر لفظ مخصوص بل يكفى كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى وأعظمه تلاوة القرآن وأفضله ما ورد عن النبي ﷺ من أدعية وأذكار[2]].

(المدخل العاشر)

تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس

التحرش من التعرض للتهييج والأذى ومنه [حَرَّشَ يُحَرِّشُ تَحْرِيشًا: أفسد وأغرى بَعْضَهُم بِبعض[3]]. ومن هذا المعنى يسعى الشيطان للتحريش بين الناس بالخصومات والشحناء والحروب والعداوة والفتن ونحوها، وهو الأمر الذى أشار إليه النبي ﷺ من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه «أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلاَدِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَسَيَرْضَى بِهِ[4]».

ومعناه أن الشيطان أيس من أن يتبدل دين الإسلام ويظهر الإشراك ويستمر ويصير

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٥].

(٢) انظر المنهل العذب المورود [ج ٧ ص ٢٣٠].

(٣) انظر المعجم العربى [ص ٣٠٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه الترمذى [٢١٥٩] وابن ماجه [٢٤٩٧].

الأمر كما كان من قبل، ولكن سيكون له القياد والطّاعة فيما تحتقرون من الأعمال التى هى دون الكفر من القتل والنّهب والكذب والغشّ والخيانة والتّبرّج والسّفور والمعاصى.

(قال) الطّيبى [قوله «فيمَا تَحْتَقِرُونَ» أى ممّا يتهجّس فى خواطركم وتتفوّهون عن هنّاتكم وصغائر ذنوبكم، فيؤدّى ذلك إلى تهييج الفتن والحروب كما فى قول النّبى ﷺ من حديث جابر «إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فى التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ(١)». والتّحريش هو الإغراء وتغيير القلوب والتّقاطع بين المسلمين.

وأعظم الشّياطين من أتباعه عنده أعظمهم فتنة للمسلم لقوله ﷺ من رواية جابر عند مسلم «إنَّ عَرْشَ إبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً(٢)». ومن تحريش الشّياطين وأذاهم للإنسان انتشارهم باللّيل لكون حركتهم فيه أمكن لهم منها فى النّهار ولكون الظّلام أجمع للقوى الشّيطانية من غيره وكذلك كلّ سواد.

فلذلك خيف على الصّغار فى ذلك الوقت منهم لقول النّبى ﷺ من حديث جابر «إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ - أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ(٣)». وفى لفظ «وَأَكْفِتُوا صِبْيَانَكُمْ عِنْدَ الْمَسَاءِ، فَإِنَّ لِلْجِنِّ انْتِشَاراً وَخَطْفَةً(٤)». أى ضمّوهم إليكم وامنعوهم الحركة فى ذلك الوقت، وكلّ شىء ضممته إليك فقد «كَفَتَّهُ». ومن ذلك قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. أى تضمّهم إليها ما داموا أحياء على ظهرها، فإذا ماتوا ضمّتهم إليها فى بطنها.

كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه «لاَ تُرْسِلُوا فَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبَعِثُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ(٥)». والفواشى كلّ شىء منتشر من المال مثل الغنم السّائمة والإبل وغيرها، وقوله «حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ»: يعنى شدّة سواد اللّيل وظلمته، وإنّما يكون ذلك فى أوّله حتّى إذا سكن فَوْرُهُ قلّت الظلمة. (قال) ابن الجوزى [إنّما خيف على الصّبيان فى تلك السّاعة لاعتبارين(٦)]:

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٢] والتّرمذى [١٩٣٧]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٣] ولا يوجد عند غيره من الجماعة. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٠] ومسلم [٩٧ / ٢٠١٢]. (٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣١٦] ومسلم [٢٠١٢]. (٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٢٣] ومسلم [٢٠١٣]. (٦) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٣٩٣].

(الأوّل) أنّ النّجاسة التى تلوذ بها الشّياطين موجودة مع الصّبية غالبـا.

(الثّانى) أنّ الذّكر الذى يُحْرِزُ منهم مفقود من الصّبيان كذلك، والشّياطين عند انتشارهم يتعلّقون بما يمكنهم التّعلّق به، فلذلك خيف عليهم من ذلك الوقت.

ومن تحريش الشّيطان كذلك إشارة البعض إلى البعض بالسّلاح وهو ما نهى عنه النّبى ﷺ كما فى حديث أبى هريرة «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ[1]». ولفظه عند مسلم «لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدَيْهِ فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ[2]». يعنى أنّه يغريه على تحقيق الضّرب به ويزيّن له ذلك، ومنه [نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْقَوْمِ نَزْغًا] أى حمل بعضهم على بعض بالفساد كما فى قول الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠].

وجاء فى رواية مسلم «يَنْزِعُ فِى يَدِهِ»، ومعناه يرمى فى يده ويحقّق ضربته ورميته، أمّا قوله «فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ». فهو كناية عن وقوعه فى المعصية التى تُفضى به إلى دخول النّار، وفى الحديث النّهى عمّا يُفضى إلى المحذور وإن لم يكن المحذور محقّقا سواء كان ذلك فى جدٍّ أو هزل، ومن تحريش الشّيطان بالنّاس كذلك نصبه رايته بالأسواق لما رواه أبو عثمان عن سلمان قال «لاَ تَكُونَنَّ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلاَ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ وَبِهَا يَنْصَبُ رَايَتَهُ[3]».

وروى الْبَرْقَانِيُّ فى صحيحه عن سلمان قال «لاَ تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ، وَلاَ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فِيهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ». وهو مجاز عن كونها محل المعاصى من التّطفيف والتّدليس، كما شبّه حديث سلمان فيه السّوق وفعل الشّيطان بأهلها ونيله منهم «بالمعركة» فى قوله «فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ» : لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل والضّلال، كالغشّ والخداع، والأيمان الكاذبة، والأفعال المنكرة، والعقود الفاسدة، والألفاظ الخارجة، والنَّجْش والبيع على بيع أخيه، والشّراء على شرائه، وبخس الكيل، ونقص الميزان، ويسوق لذلك أوليائه من شياطين الإنس.

وقوله «وَبِهَا يَنْصَبُ رَايَتَهُ» : إشارة إلى ثبوته هناك واجتماع أعوانه إليه للتّحريش بين النّاس وحملهم على هذه المفاسد ونحوها، فهى موضعه وموضع أعوانه. [والسّوق تذكّر وتؤنّث وسمّيت بذلك لقيام النّاس فيها على سوقهم وتجارتهم[4]].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦١٦] والتّرمذى [٢١٦٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٧٢] ومسلم [٢٦١٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٤٥١].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٢٤٤].

وذكر أبو عبيد في غريب الحديث قول مجاهد: «يَغْدُو الشَّيْطَانُ بقَيْرَوَانه إلى السُّوقِ فيَفْعَلُ كَذَا وكَذَا[1]». و«قَيْرَوَانه»: يعني أصحابه، وكلّ قافلة أو جيش فهو «قَيْرَوَانٌ». ثمّ يأتي قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ليحذّر من هيشات الأسواق وهرجها وضياع القيَم فيها «إيَّاكُمْ وهَوْشَاتِ اللَّيْلِ وهَوْشَاتِ الأَسْوَاقِ». وبعضهم يقول «هَيْشَاتُ السُّوقِ». أي اختلاطها ومنازعاتها وخصوماتها وارتفاع الأصوات واللّغط والفتن التي فيها، (قال): [والْهَوْشَةُ: الفتنة والْهَيْجُ والاختلاط ومنه يقال «قَدْ هَوَّشَ الْقَوْمُ»: إذا اختلطوا، وكذلك كلّ شيْءٍ خلطته فقد هَوَّشْتَهُ[2]].

ولمّا كان السّوق من أمكنة الغفلة حضّ رسول الله ﷺ المسلم أن يشتغل عند دخوله بذكر الله تعالى فلا يغفل عنه لما روى من قوله ﷺ «مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ[3]». (قال) الطّيبي [خصّه بالذّكر لأنّه مكان الغفلة عن ذكر الله والاشتغال بالتّجارة، فهو موضع سلطنة الشّيطان ومجمع جنوده، فالذّاكر هناك يحارب جند الشّيطان ويهزمهم فهو خليق بما ذُكر من الثّواب[4]].

(المدخل الحادي عشر)

الشّيطان وتعميق الفرقة بين المسلمين

تعني الفرقة الابتعاد عن الجماعة والخروج من الطّاعة، فكلّما تفرّق المسلمون شيَعاً وأحزابا تمكّن الشّيطان من تشتيت الأمّة وتهوين شأنها، وكلّما تشرذم النّاس وابتعدوا عن طريق الحقّ استطاع أن يقودهم إلى طريق الغواية والضّلال، ويأخذ بهم إلى مهاوي الرّذيلة والهلاك، والتّحذير من مُفارقة الجماعة قائم كما في قوله ﷺ «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ[5]».

وإذا كان الشّيطان من الواحد أقرب ومن الاثنين أبعد، فإنّه لا يستطيع بحال أن يخترق الثّلاثة الذين تقام بهم جماعة الصّلاة ولا أن يستحوذ عليهم لقوله ﷺ من حديث أبي الدّرداء «مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث [١٠٣٧].
(٢) انظر غريب الحديث لأبي عبيد [٥ / ٧٧٠] والفائق [٤ / ١١٩].
(٣) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [١٨٣١] والتّرمذي [٣٤٢٨] وقال هذا حديث غريب.
(٤) انظر تحفة الأحوذي [ج ٨ ص ٤٣١].
(٥) حديث صحيح بمجموع طُرقه أخرجه التّرمذي [٢١٦٥] والحاكم [٣٩٤].

عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّما يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ(١)». وزاد رزين في جامعه «وَإِنَّ ذِئْبَ الإِنْسَانِ الشَّيْطَانُ إِذَا خَلاَ به أَكَلَهُ». وجاء الحديث عند أحمد بلفظ «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاه الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ(٢)».

وقوله «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ» أي غلبهم وحوّلهم إليه لينسيهم ذكر الله تعالى ويتركوا الشّريعة والعمل بها، والشّيطان بعيد عن الجماعة ولا يستحوذ إلاّ على من فارقها، كما علّل ﷺ ذلك بقوله «فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ». أي البعيدة من الشّياه، ومراده أنّه يتسلّط على تارك الجماعة كما يتسلط الذّئب على الشّاة المنفردة عن القطيع لأنّ عين الرّاعي تحمي الغنم المجتمعة ولا ترى الشّاردة بحال.

(المدخل الثّاني عشر)

كلمة (لَوْ) تفتح عمل الشّيطان

من مداخل الشّيطان على العبد أن يُجْري على لسانه لفظة [لَوْ] معتقدا أنّه [لوْ] كان قد فعل كذا لكان [كَذَا] معترضا بذلك على الأمر الذي انقضى وفات، فيعارض بتوهّم التّدبير سابق المقادير. و[لَوْ] عند علماء اللّغة حرف لما كان سيقع لوقوع غيره أي يقتضي فعلا ماضيا كان يتوقّع ثبوته لثبوت غيره فلم يقع، وإنّما عبّر بقوله [لم كان سيقع] دون قوله [لما لم يقع] لأنّ [كان] للماضي، و[لَوْ] للامتناع، و[لما] للوجوب، و[السّين] للتّوقّع [(٣)].

ومحل النّهي عن التّلفّظ [بلَوْ] إنّما هو فيما إذا أطلقت معارضة للقدر مع اعتقاد أنّ ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور ودليل ذلك قوله ﷺ عند مسلم «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ(٤)». وجاء عند ابن ماجه بلفظ «فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَإِيَّاكَ وَاللَّوْ فَإِنَّ اللَّوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ(٥)». والمحفوظ في الرّوايات [لَوْ] بغير ألف ولام فيها فلمّا أقامها مقام الاسم صرفها فصارت عنده كالنّدم والتّمنّي.

وفي الأحاديث دليل على أنّ الشّيطان يوسوس إلى القلب معارضة القدر ثمّ يترجم

---

(١) حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود [٥٤٧] والنّسائي [٨٤٦].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٢٠٠٦] وذكره الهيثمي [٢ / ٢٣] وقال إسناده صحيح.

(٣) انظر فتح الباري [ج ١٣ ص ٢٣٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٦٤] وابن ماجه [٦٤].

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٨٨١٤] وابن ماجه [٣٣٧٩].

اللّسان بلفظة [لَوْ] ردّ القدر بعد وقوعه. والنّهى الوارد إنّما هو لمن قاله معتقدا ذلك حتما وأنّه لو فعل ذلك لم تصبه قطعا، أمّا من ردّ ذلك إلى مشيئة الله تعالى بأنّه لن يصيبه إلاّ ما كتب له فليس من هذا.

ويأتى بيان ذلك عند العلماء بالتّفصيل التّالى:

(١) أنّ النّهى مخصوص بالجزم بالفعل الذى لم يقع ومعناه: لا تقل لشىء لم يقع [لَوْ] أنّى فعلت كذا لوقع قاضيا بتحتّم ذلك غير مضمر فى النّفس شرط مشيئة الله تعالى.

(٢) وأنّ ما ورد من قول [لَوْ] محمول على ما إذا كان قائله مُوقنا بالشّرط المذكور وهو أنّه لا يقع شىء إلاّ بمشيئة الله تعالى وإرادته كقول أبى بكر رضي الله عنه «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ لأَبْصَرَنَا[١]». فجزم بذلك مع تيقّنه أنّ الله تعالى قادر على أن يصرف أبصارهم عنهما بعمى أو بغيره، لكن جرى على حكم العادة الظّاهرة وهو مُوقن بأنّهم لو رفعوا أقدامهم لم يبصروها إلاّ بمشيئة الله تعالى[٢]].

(قال) السّبكى: [وقد تأمّلت اقتران قوله «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» بقوله «وَإِيَّاكَ وَاللَّوْ». فوجدت الإشارة إلى محل [لَوْ] المذمومة وهى نوعان[٣]]:

(أحدهما) فى الحال ما دام فعل الخير ممكنا فلا يترك لأجل فقد شىء آخر فلا يقول [لو أنّ كذا كان موجودا لفعلت كذا]!. مع قدرته على فعله ولو لم يوجد ذاك بل يفعل الخير ويحرص على عدم فواته.

(والثّانى) من فاته أمر من أمور الدّنيا فلا يشغل نفسه بالتّلهُّف عليه لما فى ذلك من الاعتراض على المقادير وتعجيل التّحسُّر الذى لا يُغنى شيئا ويشتغل به عن استدراك ما لعلّه يُجدى.

فالذّم راجع فيما يؤول فى الحال إلى التّفريط وفيما يؤول فى الماضى إلى الاعتراض على القدر هو أقبح من الأوّل، فإن انضمّ إليه الكذب المتعمّد فهو أفدح مثل قول المنافقين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. وقولهم ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾. وكلّ ما فى القرآن من لفظة [لَوْ] التى هى من كلام الله تعالى كقوله ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾. وقوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾. ونحوهما فهو صحيح لأنّه تعالى عالم به.

والذى يُفهَم من ترجمة البخارى فى صحيحه وما ذكره من الأحاديث أنّه يجوز استعمال [لَوْ] و[لَوْلاَ] فيما يكون للمستقبل وما هو حقّ متيقّن كقوله ﷺ: «لَوْلاَ الْهِجْرَةُ

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٥٣] ومسلم [٢٣٨١].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٢٤٠].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٢٤٣].

لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ[1]». وقوله ﷺ «وَلَوْ كُنْتُ رَاجِمًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هَذِه[2]».
وقوله ﷺ «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ[3]». فهذا كلّه مستقبل لا اعتراض فيه على قدرٍ فلا كراهة فيه، لأنّه إنّما أخبر عن اعتقاده فيما كان يودُّ أن يفعل لولا المانع وعمّا هو فى قدرته، فأمّا ما ذهب فليس فى قدرته.

وفى قول النّبى ﷺ للرّجُل «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». النّهى بعدما أصابه ما قُدِّر له أن يقول «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؟». وأخبر أنّ ذلك ذريعة إلى عمل الشّيطان، فإنّه لا يجرّ عليه إلاّ الحزن والنّدم، وضيق الصّدر والسّخط على المقدور، واعتقاد أنّه كان يمكنه دفع هذا المقدور لو فعل ذلك، والذى يتعلّق «بِلَوْ» يضعف رضاه بقدر الله تعالى وتسليمه لقضائه ومشيئته وتصديقه بالمقدور.

والنّهى فى قوله «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا». على ظاهره وعمومه، لكنّه نهى تنزيه ويدل عليه قوله ﷺ «فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». أى أنّ الشّيطان يُلقى فى القلب معارضة الْقَدَرِ ويوسوس به. أمّا من قاله تأسُّفًا على ما فات من طاعة الله تعالى أو ما هو متعذّر عليه من ذلك ونحو هذا فلا بأس به.

ثمّ يقف النّبى ﷺ بالرَّجُلِ أمام التّسليم الكامل بقَدَرِ الله تعالى والإيمان المطلق بقضائه بقوله «وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ». وهل هناك أعظم من أن يعتقد المرء أنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، إنّه ﷺ يرشده فى هذه الحال إلى ما هو أنفع له، وهو التّسليم لما قدّرته المشيئة الإلهية وأنّ ما شاء الله كائن ولابدّ، وهو الأمر الذى بيّنته الآية الكريمة فى قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وفيها يُخبر سبحانه أنّ الأمر يرجع إليه وحده وليس إليهم، وأنّه لا تنفذ مشيئة أحد من الخلق ولا تتقدّم إلاّ أن تتقدّم عليها مشيئته جلّ شأنه.

ثمّ يأتى قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التّكوير: ٢٩]. ليؤكّد أنّ العبد لا يعمل خيرا إلاّ بتوفيق الله تعالى ولا شرًّا إلاّ بخذلانه، وفى ذلك جاء قول وهب بن مُنبه [قرأت ممّا أنزل الله تعالى على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر[4]]. ويتأيّد هذا فى التّنزيل بقول الله تعالى ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٤٥] ومسلم [١٠٦١] مطوّلا.

(٢) حديث أخرجه البخارى [٧٢٣٨] ومسلم [١٤٩٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٤٠] ومسلم [٢٥٢].

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٩ ص ٢٤٣].

يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. وفيها بيان أنّ الله تعالى هدى بالإسلام وأضلّ بالكُفر.

(المدخل الثّالث عشر)

رؤيا الشّيطان حلْم وأضغاث

الرّؤيا عند أهل العلم إدراكات علّقها الله سبحانه فى قلب العبد على يدى مَلَك أو شيطان يراها الإنسان فى منامه إمّا بحقيقتها وإمّا بعبارتها وإمّا بتخليط بينهما، ونظيرها فى اليقظة تلك الخواطر التى تأتى للإنسان على نسق قصّة أو تأتى مسترسلة غير محصّلة، ويتفرّع الحديث عن ذلك إلى التّفصيل التّالى:

أولا - الفرق بين الرُّؤية والرُّؤيا

المعروف من لسان العرب أنّ الرُّؤية بالتّاء هى الإبصار بالعين ومعاينتها للشّىء فى اليقظة وإدراكها له، وحقيقة الرّؤية إذا أُضيفت إلى الأعيان كانت بالبصر ومنه قول النّبى ﷺ «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ[1]». [قال] الرّاغب [الرّؤية إدراك الشّىء بحاسّة البصر، وتُطلق على ما يُدرك بالتّخيّل نحو أرى أنّ زيدا مسافرٌ، وعلى التّفكّر النّظرى نحو «إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ». وعلى الرّأى وهو اعتقاد أحد النّقيضين على غلبة الظّنّ[2]].

أمّا الرُّؤيا - بالضّم مهموزا وقد يخفّف - مصدر رأى فى المنام رُؤيا على وزن فُعْلى كالسُّقيا والبُشْرى فلمّا جُعلت اسما لما يتخيّله النّائم أُجريت مجرى الأسماء وتُجمع على [رُؤى]. (وقالوا) الرُّؤيا كالرُّؤية جُعلت ألِفُ التّأنيث فيها مكان تاء التّأنيث للفرق بين ما يراه النّائم واليقظان[3]].

وقال بعض العلماء إنّ الرُّؤيا قد تجىء بمعنى الرّؤية وحمَلَ عليه قوله تعالى﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠]. وفى تفسيرها قال ابن عبّاس رضي الله عنهما «هِىَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا النَّبِىُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ[4]». واستدلّ به على إطلاق لفظ [الرُّؤيا] على ما يُرى بالعين فى اليقظة، وجاء فى الحدود الأنيقة [ص٧٣]: الرُّؤيا رؤية ما يُتأوّل على الخير والأمر الذى يُسرّ به. (أو) هى ما يراه النّائم مُطلقا خيرا كان المرئىّ أو شرًّا، إلاّ أنّ الشّارع فرّق بينهما، فخصّ الرّؤيا بالخير وخصّ الْحُلْم بضدّه، وإن كان كلّ منهما يحدث فى النّوم وتفصيل ذلك:

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٨١] وافقه البخارى [١٩٠٩].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٦٩].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ١١٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٨٨٨] والتّرمذى [٣١٣٤].

(١) أنّ [الرُّؤْيـا] تأتي اسما للمحبوب فلذلـك تُضاف إلي الله جلّ وعلا كما جاء في قوله ﷺ «الرُّؤْيـا الصَّادقةُ منَ اللهِ» . وفى رواية «الرُّؤْيَا الصَّالحَةُ منَ اللهِ» .

(٢) ويأتى [الْحُلْمُ] ـ بضمّ الحاء وسُكون اللاّم ـ إذا رأى فى منامه رؤيا وتُجمع على [أحلام] فى القلّة و[حُلوم] فى الكثرة ، وإنّما جُمع وإن كان مصدرا لاختلاف أنواعه ، وهو فى الأصل عبارة عمّا يراه الرّائى فى منامه حَسَنا كان أو مكروها ، وأراد به النّبى ﷺ هنا ما يكره لقوله «وَالْحُلْمُ منَ الشَّيْطَان[١]» .

(قال) النّووى [أضاف الرّؤيا المحبوبة إلى الله تعالى إضافة تشريف ، بخلاف المكروهة وإن كانتا جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وبإرادته ، ولا فعل للشّيطان فيهما لكنّه يحضر المكروهة ويرتضيها ويسرّ بها[٢]] . (وعن) عيسى بن دينار قال [الرُّؤيا رُؤية ما يتأوّل على الخير والأمر الذى يسرُّ به ، والحُلم هو الأمر الفظيع المجهول يُريه الشّيطان للمؤمن ليحزنه وليكدّر عيشه[٣]] .

(٣) أمّا الأضغاث فهي ما كان من الأحلام مُلتبّسا مضطربا يصعب تأويله ولا يُنذر بشيء ، وإنّما سُمِّيَتْ ضغْثًا لما فيها من الأشياء المتضادّة من قول الله تعالى ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الأنبياء : ٥] .

ثانيا ـ حقيقة الرُّؤيا

المذهب الصّحيح الذى عليه أهل السُّنّة فى كيفيّة الرُّؤيا وحقيقتها أنّ الله تعالى يخلق فى قلب النّائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان ، وهو سبحانه يفعلُ ما يشاء وما يمنعه من فعله نوم ولا يقظة ، وكأنّه سبحانه جعل هذه الاعتقادات علَما على أُمور أُخَر يخلقها فى ثانى الحال أو كان قد خلقها .

فجعل الله تعالى للرُّؤيا مَلَك مُوكّل بها يُريها العبد فى أمثال تُناسبه وتُشاكله فيعرضها على المحل المدرِك من النّائم فيمثّل له صورا محسوسة . [فتارّة تكون تلك الصّور أمثلة مُوافقة لما يقع فى الوُجود ، وتارّة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة ، وفى الحالتين تكون مُبشّرة أو مُنذرة[٤]] . (قال) ابن الباقلانى [يخلق الله الرُّؤيا الصّالحة بحضرة المَلَك ويخلق الرّؤيا التى تقابلها بحضرة الشّيطان ، فمن ثمّ أُضيفت إليه لأنّه الذى يخيّل بها ولا حقيقة لها فى نفس الأمر[٥]] . و(قال) ابن العربى [ولا يُرى فى المنام إلاّ ما يصحّ إدراكه فى اليقظة ،

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٤] ومسلم [٢٢٦١] وأبو داود [٥٠٢٢] .

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٢٥] .

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٥٩١] والموسوعة الفقهيّة [٨ / ١٨٧] .

(٤) انظر كتاب المعلّم بفوائد مسلم للمازرى [٣ / ١١٥] .

(٥) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٨٧] .

ولذلك لا يُرى فى المنام شخصا قائما قاعدا بحال وإنّما تُرى الجائزات الخارقة للعادات أو المعتادات، وإذا رأى نفسه يطير أو يُقطع يده أو رأسه فإنّما رأى غيره على مثاله وظنّه من نفسه وهذا معنى أنّها أوهام[1]].

ولمّا قال بعض العلماء إنّ الرُّؤيا إدراكُ أمثلة مُنضبطة فى التَّخيُّل جعلها الله إعلاما على ما كان أو يكون! قيل فكيف يقال إنّ الرّؤيا إدراك مع أنّ النّوم ضدّ الإدراك لكونه من الأضداد العامّة كالموت فلا يجتمعُ معه إدراك؟ والجواب على ذلك أنّ الجزء المدرك من النّائم لم يحلّه النّوم فلم يجتمع معه، فقد تكون العين نائمة والقلب يقظان كما قاله النّبى ﷺ «إنّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي[2]».

وإنّما قال: منضبطة فى التَّخيُّل لأنّ الرّائى لا يرى فى منامه إلاّ من نوع ما أدركه فى اليقظة بحسّه، غير أنّه قد تتركّب المتخيّلات فى النّوم تركيبا يحصل من مجموعها صورة لم يوجد لها مثال فى الخارج تكون عَلَمًا على أمر نادر، كمن يرى فى نومه موجودا رأسه رأس الإنسان وجسده جسد الفرس مثلا وله جناحان، إلى غير ذلك ممّا يمكن من التّركيبات التى لا يوجد مثلها فى الوجود فيجعلها الله إعلاما على ما كان أو يكون.

ومهما وقع من هذه الرُّؤى على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، وتلك الاعتقادات تقع تارّة بحضرة المَلَك فيقع بعدها ما يسرّ، أو بحضرة الشّيطان فيقع بعدها ما يضرّ، فينسب ذلك إلى الشّيطان مجازا لحضوره عندها وإن كان لا فعل له حقيقة، وهذا معنى قوله ﷺ «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ[3]».

(قال) فى المُفهم [إنّ حقيقة الرّؤيا إنّما هى من إدراكات النّفس وقد غُيّب عنّا علم حقيقتها، وإذا لم يُعلم ذلك لعدم الطّريق الموصّل إليه كان أحرى، وأولى ألاّ نعلم ما غُيِّب عنّا من إدراكاتها بل نقول: إنّا لا نعلم حقيقة كثير ممّا قد انكشفت لنا جملته من إدراكاتها كحسّ السّمع والعين والأذن وغير ذلك، فإنّا إنّما نعلم منها أمورا جُمليّةً لا تفصيليّة وأوصافا لازمة أو عرَضية لا حقيقيّة، وسبيل العاقل ألاّ يطمع فى معرفة ما لم يُنْصَبْ له عليه دليل عقلى ولا حسّى ولا مركّب منهما إلاّ أن يُخْبِرَ بذلك صادقٌ، وهو الذى دلّ الدّليل القطعى على صدقه وهم الأنبياء فإنّهم دلّت على صدقهم دلائل المعجزات[4]].

ثالثا ـ علاقة الرُّؤيا بالنُّبوّة والوحى

شاءت إرادة الله تعالى أن تكون رُؤى الأنبياء [وَحْيٌ] كما فى قول إبراهيم عليه السّلام ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾[الصّافّات:١٠٢]. وقوله تعالى لنبيّه ﷺ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ

(١) انظر أحكام القرآن [ج ٣ ص ١٠٧٣]. (٢) رواه البخارى [٢٠١٣ ومسلم [٧٣٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٦] ومسلم [٢٢٦١]. (٤) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٦ ص ٦ ـ ٧].

ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[الفتح :٢٧] . وذلك لأنّ الأنبياء ليس للشّيطان عليهم فى التّخييل من سبيل ، ولا للاختلاط عليهم من دليل ، وإنّما قلوبهم صافية وأفكارهم صقيلة ، فما أُلقى إليهم ونَفَث به المَلَكُ فى قلوبهم وضرب المثل له عليهم فهو الحقّ من ربّهم سبحانه ، ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها «وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِى شَأْنِى وَحْىٌ يُتْلَى - وَلَكِنِّى كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِى اللهُ بِهَا(١)» .

فكان أوّل ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرُّؤيا الصّادقة ليكون ذلك تمهيدا وتوطئة لتلقى أمر السّماء فى اليقظة ، ولئلا يفجأه الملك بصريح النُّبوّة بغتة فلا تحتملها قواه البشريّة ، فكانت الرُّؤيا الصّادقة أوّل خصال النُّبوّة وتباشير الكرامة لنبيّنا ﷺ لقول عائشة رضى الله عنها «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْىِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِى النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ(٢)» .

ولقد بيّنت كتب الأصول والأحاديث [حقيقة الرُّؤيا وأنّ الله تعالى يضربها للنّاس وأنّ لها أسماء وكُنَى ، فمنها رُؤيا تخرج بصفتها ، ومنها رُؤيا تخرج بتأويلها وهو كنيتها كما جاء فى حديث مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال لعائشة «أُرِيتُكِ فِى الْمَنَامِ ثَلاَثَ لَيَالٍ ، جَاءَنِى بِكِ الْمَلَكُ فِى سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ فَيَقُولُ : هَذِهِ امْرَأَتُكَ ، فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكِ فَإِذَا أَنْتِ هِىَ ، فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ(٣)» .

ومعناه : أنّ رسول الله ﷺ رآها فى نومه على نحو ما رآها فى يقظته . (قال) ابن العربى [ولم يشكّ ﷺ فيما رآه لقوله [فَقَالَ لِىَ الْمَلَكُ] ولا يقول المَلَكُ إلاّ حقًّا ، ولكنّ الأمر احتمل عند النّبى ﷺ أن تكون الرُّؤيا باسمها أو تكون بكُنْيتها ، فإن كانت باسمها فتكون هى الزّوجة ، وإن كانت الرُّؤيا مُكنّاة فتكون فى أختها أو قرابتها أو جارتها أو من يسمّى باسمها ، أو غير ذلك من وجوه التّشبيهات فيها(٤)] .

ونقل ابن بَطّال عن أبى سعيد «أنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه ﷺ فى المنام ستّة أشهر ثمّ انتقل إلى وحى اليقظة مدّة ثلاث وعشرين سنة من حين بُعث إلى أن تُوفى رسول الله ﷺ» . ويشير قوله تعالى﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[النّساء :١٦٣] . إلى أنّ أوّل أحوال النّبيّين فى الوحى [بالرُّؤيا] وهو ما جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما فى قول الله تعالى﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال «كَانَتْ رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيًا(٥)» . كما روى

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٧٠] وافقه البخارى [٤٧٥٠] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٩٥٣] ومسلم [١٦٠] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٢٥] ومسلم [٧٩ / ٢٤٣٨] .

(٤) انظر أحكام القرآن [ج ٤ ص ١٦١٨] .

(٥) أخرجه الحاكم [٨٣٦٤] وقال صحيح على شرط مسلم .

أبو نعيم في الدّلائل بإسناد حسن عن علقمة «إنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْتَى بِهِ الأَنْبِيَاءُ فِي الْمَنَامِ حَتَّى تَهْدَأَ قُلُوبُهُمْ ثُمَّ يَنْزِلُ الْوَحْيُ بَعْدُ فِي الْيَقَظَةِ(١)».

وإذا كانت الرُّؤيا الصّادقة أو الصّالحة من الوحى كانت كذلك جزءا من ستّة وأربعين جزءا من النُّبوّة وهو ما جاء بيانه في قوله ﷺ من حديث أنس «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ(٢)». والمراد بها الحسنة صورة والصّالحة تأويلاً. وقوله ﷺ عند مسلم «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ(٣)». ولـمّا كانت هذه الرّواية هي الأكثر والأصحّ عند أهل الحديث فإنّها تقف بنا أمام ثلاثة أمور:

(أوّلها) أنّ الرُّؤيا لا تكون من أجزاء النُّبوّة إلاّ إذا وقعت من مسلم صادق صالح وهو الذى يناسب حاله حال النّبى ﷺ فأُكرمَ بنوع ممّا أُكرمَ به الأنبياء وهو الاطلاع على شيء من علم الغيب كما قال النّبى ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ(٤)». وفيه دليل على أنّ المسلم الصّالح الصّادق هو الذى يناسب حاله حال الأنبياء عليهم السّلام وأنّ رُؤياه تُنسب إلى أجزاء النُّبوّة ومعنى صلاحها استقامتها وانتظامها.

(الثّانى) أنّ الأحاديث الواردة التى عدّدت أجزاء النُّبوّة وإن اختلفت ألفاظها متّفقة على أنّ الرّؤيا الصّالحة من الرّجل الصّالح جزءٌ من أجزاء النُّبوّة، وهذه شهادة صحيحة من النّبى ﷺ لها بأنّها وحىٌ من الله تعالى وأنّها صادقة لا كذب فيها، ولذلك قال مالكٌ وقد قيل له [أيُفَسِّرُ الرّؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أيُلعَبُ بالوحى؟].

(الثّالث) إذا كانت الرُّؤيا الصّادقة جزءا من النُّبوّة فإنّ الكافر والكاذب والمخلّط -وإن صدقت رُؤياهم فى بعض الأوقات- لا تكون من الوحى ولا من النُّبوّة، إذ ليس كلُّ من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نُبوّة، وقد وقعت لبعض الكفّار وغيرهم -ممّن لا يُرضى دينه- منامات صحيحة صادقة كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين فى السّجن، ورُؤيا كسرى فى ظهور النّبى ﷺ، ومنام عاتكة عمّة رسول الله ﷺ وهى كافرة ونحوه كثير، لكن ذلك قليل بالنّسبة إلى مناماتهم المخلّطة والفاسدة.

ولـمّا ترجم البخارى [باب رُؤيا أهل السّجن]. (قال) المهلّب [إنّما ترجم البخارى بهذا

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ١٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٣] وابن ماجه [٣١٥٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٤] وافقه البخارى [٦٩٨٧] وأبو داود [٥٠١٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٧٩] وأبو داود [٨٧٦].

لجواز أن تكون رؤيا أهل الشّرك رؤيا صادقة كما كانت رؤيا الفتَيين صادقة، إلاّ أنّه لا يجوز أن تضاف إلى النّبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كلّ ما يصحّ له تأويل من الرّؤيا حقيقة يكون جزءا من النّبوة(١)]. وجاء في الفتح [وأمّا الكافر والفاسق والمخلّط فلا، ولو صدقت رؤياهم أحيانا فذاك كما يصدق الكذوب، وليس كلّ من حدّث عن غيب يكون خبره من أجزاء النّبوة كالكاهن والمنجّم(٢)].

وفي مواجهة اختلاف الآثار التي تُعدّد أجزاء النّبوّة التي تقابل الرّؤيا الصّادقة عندما ذُكر أنّ أقلّها جزء من خمس وأربعين جزءا كما في حديث أبي هريرة عند مسلم «وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ(٣)». وأنّ أكثرها سبعين كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءٍ مِنَ النُّبُوَّةِ(٤)».

وما ورد عن هذه الأعداد من تأويلات فإنّنا ننبّه على الأقرب منها وهي أربع:

(الأول) ما ذكره المازري من [أنّ رسول الله ﷺ أقام يُوحى إليه ثلاثة وعشرين عاما، عشر بالمدينة وثلاثة عشر بمكّة، وكان قبل ذلك بستّة أشهر يرى في المنام ما يلقيه إليه الملَك وذلك نصف سنة، ونصف سنة من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستّة وأربعين جزءا من النُّبوّة(٥)].

(الثّاني) المراد أنّ المنام الصّادق خَصْلَةٌ من خصال النُّبوّة كما جاء في الحديث «التُّؤَدَةُ وَالاقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ(٦)». أي أنّ النّبوّة مجموع خصال مبلغ أجزائها ستّة وعشرون، وهذه الثّلاثة الأشياء جزء واحد منها، وعلى مقتضى هذه التّجزئة فإنّ كلّ جزء من السّتة والعشرين ثلاثة أشياء في نفسه، فإذا ضربنا [ثلاثة في ستّة وعشرين] صحّ لنا أنّ عدد خصال النّبوّة من حيث آحادها ثمانية وسبعون.

(الثّالث) ما أشار إليه الطّبري وهو أنّ هذا الاختلاف راجعٌ إلى اختلاف حال الرّائي، فالمؤمن الصّالح تكون نسبة رؤياه من ستة وأربعين، وغير الصّالح من سبعين، ولهذا لم يشترط في رواية السّبعين في وصف الرّائي ما اشترطه في وصفه في رواية «ستّة وأربعين». فإنّه شرط فيها الصّلاح في الرّائي وسكت عن اشتراطه في رواية السّبعين.

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ٩ ص ١٢٤].

(٢) انظر فتح الباري [ج ١٢ ص ٣٧٩].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠٢٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٥] وابن ماجه [٣١٥٩].

(٥) انظر كتاب المُعلّم بفوائد مسلم [٣/ ١١٧].

(٦) ذكره في فتح الباري [١٢/ ٣٦٨].

(الرّابع) يُحتمل أن يكون سبب هذه التّجزئة فى طرق الوحى؛ إذ منه ما يُلقى فى القلب من قوله تعالى﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.ومنه ما سُمع من الله دون واسطة كما فى قوله تعالى ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.ومنه ما يكون بواسطة المَلَك من قوله تعالى﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾. ثمّ منه ما يأتيه المَلَكُ على صورته، ومنه ما يأتيه عل صورة آدمىٍّ يعرفه، ومنه ما يتلقّاه منه وهو لا يعرفه، ومنه ما يأتيه فى مثل صلصلة الجرَس، ومنه ما يسمعه من الملك قولاً مُفصّلاً، إلى غير ذلك من الأحوال التى كانت تختلف على النّبى ﷺ فى الوحى وحالاتها المختلفة، فتكون تلك الحالات إذا عُدّدت غايتها انتهت إلى سبعين.

(قال) ابن عبد البرّ [اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرُّؤيا ليس عندى اختلاف مُتضادّ متدافع والله أعلم، لأنّه يُحتمل أن تكون الرُّؤيا الصّالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدّين المتين، وحُسن اليقين، فعلى قدر اختلاف النّاس فيما وصفنا تكون الرُّؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلُصت نيّته فى عبادة ربّه تعالى ويقينه وصدق حديثه كانت رُؤياه أصدق وإلى النُّبوّة أقرب[1]].

ومن ذلك يُفهم أنّ المقصود بقوله «جُزْءًا منَ النُّبُوَّة» تحقيق أمر الرُّؤيا وأنّها ممّا كان الأنبياء عليه من الهُدى والرّشاد وأنّها جزء من أجزاء العلم الذى كان يأتيهم والأنباء التى كان ينزل بها الوحى عليهم، أو أنّ المنام الصّادق خصلة من خصال النُّبوّة. وقد استُشكل كون الرُّؤيا جزءا من النُّبوّة مع أنّ النُّبوّة انقطعت بموت النّبى ﷺ، فجاء جواب ذلك على أربعة معان:

(١) أنّ الرُّؤيا إذا وقعت من النّبى ﷺ فهى جزء من أجزاء النُّبوّة [حقيقة]. وإن وقعت من غير النّبى ﷺ فهى جزء من أجزاء النُّبوّة على [سبيل المجاز].

(٢) أنّ الرُّؤيا تجىء على [موافقة النُّبوّة] لا أنّها جزء باق من النُّبوّة.

(٣) أنّها جزء من [علم النُّبوّة] لأنّ النُّبوّة وإن انقطعت فعلمها باق إلى ما شاء الله.

(٤) إنّما أراد أنّها لـمّا أشبهت النُّبوّة من جهة الاطلاع على بعض الغيب لا ينبغى أن يتكلّم فيها بغير علم، ومن ذلك جاء قول مالك «أَيُتَلَاعَبُ بِالنُّبُوَّةِ؟».

(قال) ابن بَطّال [كون الرُّؤيا جزءا من أجزاء النُّبوّة ممّا يُستعظم ولو كانت جزءا من ألف جزء، ويمكن أن يُقال إنّ لفظ النُّبوّة مأخوذ من الإنباء وهو الإعلام لغة، فعلى هذا فالمعنى أنّ الرُّؤيا خبر صادق من الله تعالى لا كذب فيه، كما أنّ معنى النُّبوة نبأ صادق من الله تعالى لا يجوز عليه الكذب فشابهت الرُّؤيا النُّبوّة فى صدق الخبر.

---

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٩ ص ١٢٣].

و(ذُكر) عن المازرى [يُحتمل أن يُراد بالنُّبوّة فى هذا الحديث الخبر بالغيب لا غير وإن كان يتبع ذاك إنذار أو تبشير ، فالخبر بالغيب أحد ثمرات النُّبوّة ، والخبر بالغيب من النّبى لا يكون إلاّ صدقا ولا يقع إلاّ حقا ، وأمّا خصوص العدد فهو ممّا أطلع الله عليه نبيّه ﷺ لأنّه يعلم من حقائق النّبوّة ما لا يعلمه غيره[1]] . وعلى الجملة فإن الرُّؤيا الصّادقة من الله تعالى وأنّها من النُّبوّة ، وأنّ التّصديق بها حقّ ولها التّأويل الحسن ، وربّما أغنى بعضها عن التّأويل ، وفيها من بديع صنع الله تعالى ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه بربّه تعالى والصّادق فى صدقه .

رابعا ـ أقسام الرّؤى

ويأتى الحديث عن المرائي بالتّفصيل الذى بيّنه النّبى ﷺ كما فى قوله عند مسلم « وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ : فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ بِهَا نَفْسَهُ ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ[2] » . وجاء قوله ﷺ عند التّرمذى « الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ ؛ فَرُؤْيَا حَقٌّ ، وَرُؤْيَا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَمَنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ[3] » . وتفصيل ذلك :

(١) أنّ الرُّؤيا الحقّ هى المنتظمة التى خلصت من الأضغاث والأوهام وكان تأويلها موافقا لما فى اللّوح المحفوظ وهى من المبشّرات التى بقيت بعد ذهاب النُّبوّة كما فى قوله ﷺ « رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ[4] » . وقد سمّاها « الصّادقة » وفى أخرى « الصّالحة » . وهى المضافة إلى الله تعالى فى قوله « بُشْرَى مِنَ اللهِ » . أى مُبشّرة بخير ومُحذّرة عن شر . فإنّ التّحذير عن الشّر خير فتتضمّنه البشرى .

(٢) أمّا ما يُحدّث الرّجل بها نفسه فهى التى تكون عن أحاديث نفس متوالية وشهوات غالبة وهموم لازمة ، ويدخل فيها ما يلازمه المرء فى يقظته من الأعمال والعلوم والأقوال ينام عليها فيرى ذلك فى نومه .

(٣) أمّا رُؤيا التّحزين فيلحق بها التّهويل والتّخويف وأضغاث الأحلام ، كلّ ذلك يُدخله الشّيطان على الإنسان فى نومه ليُشوّش يقظته ، وقد تجتمع هموم النّفس وأُلقيات الشّيطان فى منام واحد فتكون أضغاث الأحلام لاختلاطها .

ثمّ يأتى الحديث عن الرّؤى تفصيلا على النّحو التّالى :

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٨٠] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩] .

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٢٨٠] وأبو داود [٥٠١٧] .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٧] ومسلم [٢٢٦٤] وابن ماجه [٣١٥٦] .

(القسم الأول)
الرُّؤيـا الصّادقة

والرُّؤيا الصّادقة حقّ تُخبر عن الحقّ وهي بشرى وإنذار ومُعاتبة لتكون عونا لما نُدب إليه، وتسميتها بذلك يرجع إلى حُسن ظاهرها وصدقها ومنها رُؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصّالحين، وقد تقع لغيرهم من النّاس وهي التي تكون في اليقظة على وفق ما وقعت في النّوم، وهمثل ذا النّوع من الرُّؤى جاء ذكره ضمن حكاية إبراهيم مع ولده إسماعيل إذ قال ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فكان ما كان من إبراهيم امتثالا ومن إسماعيل انقيادا حين قال ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وحين تيسّرا للعمل، وأقبلا على الفعل تنفيذا للمشيئة الإلهيّة، كان صدق الرُّؤيا ذبحا مكانها وهو الفداء في قوله تعالى ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾. وعند ذلك وضحت المعاني على حقيقتها، وجرت الألفاظ على نصابها لصوابها وكان النّداء من السّماء هو قول الله تعالى ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة الصّافات: ١٠٤-١٠٥].

والرُّؤيا الصّادقة تضاف إلى الله تعالى إضافة تشريف كما في قول النّبي ﷺ «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَرَاءَى بِي[(١)]». وفي الحديث يُسَمّى الشّارع الرُّؤيا الخالصة من الأضغاث صالحة وصادقة وأنّها من الله تعالى فلا يقال لها [حُلْم]، والتي تُضاف إلى الشّيطان لا يقال لها [رُؤْيَا]، ويتأكّد هذا بما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلاَ يَذْكُرْهَا لأَحَدٍ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ[(٢)]».

وصدق الرُّؤيا بحسب صدق الرّائي وأصدق النّاس رُؤيا أصدقُهم حديثا، وهي عند اقتراب الزّمان لا تكاد تخطىء كما جاء قوله ﷺ عند البخاري وغيره «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا[(٣)]». وذلك لبعد العهد بالنُّبوّة وآثارها في آخر الزّمان فيتعوّض المؤمنون فيه بالرُّؤيا، أمّا في زمن النُّبوّة فإنّ في ظهور نورها وجمال بهائها ما يُغني عن الرُّؤيا.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٩٥] ومسلم [٢٢٦١].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٥] والتّرمذي [٣٤٥٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩].

والرُّؤيا الصَّالحة من [المبشّرات] لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «إِنَّهُ لَمْ يبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ[(1)]». وجاء في موطأ الإمام مالك عن أبي هريرة «لَيْسَ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ[(2)]».

وعندما سأل أبو الدّرداء رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾[يونس: ٦٤]. «قَالَ لَهُ: مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ غَيْرُكَ مُنْذُ أُنْزِلَتْ، هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ[(3)]». ويحتمل أنّ المراد صلاحها باعتبارها في ذاتها أو باعتبار تأويلها. (قال) المهلّب [التّعبير بالمبشّرات خرج للأغلب فإنّ من الرُّؤيا ما تكون مُنذرة وهي صادقة يُريها الله للمؤمن رفقا به ليستعدّ لما يقع قبل وقوعه[(4)]]. وإذا توافقت رؤيا المسلمين لم تكذب وقد قال النّبي ﷺ لأصحابه لمّا أُروا ليلة القدر في العشر الأواخر «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ[(5)]». وفي رواية «مَنْ كَانَ مُلْتَمِسَهَا فَلْيَلْتَمِسْهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ».

الفرق بين الرُّؤيا الصّادقة والصّالحة

قسّمت السُّنّة الرُّؤيا الصّالحة إلى قسمين:

(أوّلهما) ما جاء بيانه مقيّدا على وجه التّخصيص ومنه قوله ﷺ عند البخاري «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ[(6)]». وجاء عند مسلم بلفظ «رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ[(7)]». وهذا يُقيّد ما أُطلق في غير هذه الرّواية كقوله ﷺ «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ[(8)]». ولم يُقيّدها بكونها حَسَنَة ولا بأنّ رائيها صالح.

(الثاني) ما وقع من حديث أبي قتادة من قوله ﷺ «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مِنَ اللهِ». وجاء بلفظ «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ». والرُّؤيا الصّالحة والصّادقة بمعنى واحد بالنّسبة إلى أمور الآخرة في حقّ الأنبياء، وأمّا رُؤيا غير الأنبياء فبينهما عموم وخصوص إن فسّرنا الصّادقة بأنّها التي لا تحتاج إلى تعبير، وأمّا إن فسّرناها بأنّها غير الأضغاث فالصّالحة أخصّ مُطلقا. وهناك من

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٦١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مالك [١٧٢٠].

(٣) حديث حسن أخرجه التّرمذي [٢٢٧٣].

(٤) انظر تحفة الأحوذي [ج ٦ ص ١٤٤].

(٥) أخرجه مسلم [١١٦٥] وافقه البخاري [٢٠١٥].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٣] ومسلم [٢٢٦٤] وابن ماجه [٣١٥٥].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٤].

(٨) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٧].

فصّل بين الأمرين فقال الرُّؤيا الصّادقة ما يقع بعينه أو ما يعبر في المنام أو يخبر به ما لا يكذب والصّالحة تسرّ [(١)].

ولمّا كان الصّدق من أعظم صفات الأنبياء يقظة ومناما فمن تأسّى بهم في الصّدق حصل من رؤياه على الصّدق كما في قوله ﷺ «وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا(٢)». وظاهره أنّه على إطلاقه لأنّ غير الصّادق في حديثه يتطرّق الخلل إلى رُؤياه وحكايته إيّاها.

الرّؤيا الصّادقة قد تكون منذرة

والرُّؤيا الصّادقة قد تكون مُنذرة من قِبَلِ الله تعالى لا تسرّ رائيها وإنّما يُريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأوّلها بنفسه وإلاّ سأل عنها من له أهلية التّعبير، ومن ذلك ما رُوى عن معدان بن أبي طلحة أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب قام على المنبر يوم الجمعة فحمد اللهَ وأثنى عليه ثمّ ذكر رسول الله ﷺ وذكر أبا بكر ثمّ قال «رَأَيْتُ رُؤْيَا لاَ أُرَاهَا إِلاَّ لِحُضُورِ أَجَلِي، رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا أَحْمَرَ نَقَرَنِي نَقْرَتَيْنِ فَقَصَصْتُهَا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ امْرَأَةِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: يَقْتُلُكَ رَجُلٌ مِنَ الْعَجَمِ (٣)».

ويتأيّد هذا بما أخرجه أحمد في مسنده عن جُويرية بن قدامة قال «حَجَجْتُ فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ الْعَامَ الَّذِي أُصِيبَ فِيهِ عُمَرُ، قَالَ: فَخَطَبَ فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا أَحْمَرَ نَقَرَنِي نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ فَمَا لَبِثَ إِلاَّ جُمُعَةً حَتَّى طُعِنَ(٤)».

وجاء عند مسلم عن أبي سلمة قال «إِنْ كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي. قَالَ فَلَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ فَقَالَ: وَأَنَا كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ(٥)». وجاء في رواية «كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا أُعْرَى مِنْهَا غَيْرَ أَنِّي لاَ أُزَمَّلُ». وقال «إِنْ كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ جَبَلٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَمَا أُبَالِيهَا(٦)». ومعنى «أُعْرَى مِنْهَا»: أي أنتفض كالمصاب بالْحُمَّى لخوفي من ظاهرها في ظنّي. وقوله «أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ جَبَلٍ» أي لما كان يتوقّع من شرّها.

و[ظاهر] الحصر في قول النّبي ﷺ من حديث أبي سعيد «وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا

---

(١) انظر فتح الباري [ج ١٢ ص ٣٧١].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٦٢].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٦٣] ورواه البخاري في التّاريخ الكبير [٢ / ٢٤٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤ / ٢٢٦١] وافقه البخاري [٧٠٤٤].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢ / ٢٢٦١] وافقه البخاري [٥٧٤٧].

هيَ مِنَ الشَّيْطَانِ[1]». أنّ الرُّؤيا الصّالحة لا تشتمل على شيء ممّا يكرهه الرّائى ويؤيّده مقابلة رؤيا البشرى بالحلم وإضافة الحلم إلى الشّيطان، وعلى هذا ففى قول أهل التّعبير ومن تبعهم أنّ الرُّؤيا الصّادقة قد تكون بشرى وقد تكون إنذارًا: لأنّ الإنذار غالبًا يكون فيما يكره الرّائى، ويمكن الجمع بأنّ الإنذار لا يستلزم وقوع المكروه كما تقدّم تقريره وبأنّ المراد بما يكره ما هو أعمّ من ظاهر الرّؤيا وممّا تعبر به.

(قال) فى المُفهم [ظاهر الخبر أنّ هذا النّوع من الرُّؤيا يعنى ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تحزين هو المأمور بالاستعاذة منه لأنّه من تخيّلات الشّيطان، فإذا استعاذ الرّائى منه صادقا فى التجائه إلى الله تعالى وفعل ما أُمر به من التّفل والتّحوُّل والصّلاة أذهب الله عنه ما به وما يخافه من مكروه ذلك ولم يصبه منه شيء[2]].

ومن مُجمل ما يتحصّله المسلم من الرُّؤيا الصّالحة ثلاثة أمور:

(الأوّل) أن يحمد الله عليها لقوله ﷺ «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا[3]». وحمد الشّيء الرّضى عنه والارتياح إليه، ويأتى حمد العبد لربّه تعالى فى هذا التّوقيت شكرا على أنّه جعل رُؤياه من البشارات الطّيّبة ورَزَقَهُ السّلامة من مكروهها وأبدله بالخوف طمأنينة وبالشّر خيرا من خلالها.

(الثّانى) أن يستبشر المرء بها وهو من الْبِشْرِ والسُّرور لأنّها تُظهر طلاقة وجه الإنسان وسروره لقوله ﷺ عند مسلم «فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ وَلاَ يُخْبِرْ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ[4]». وقوله «فَلْيُبْشِرْ»: من التّبشير وهو الإخبار بما يظهر أثره على البَشَرة وهو ظاهر الجلد لتغيّرها بأوّل خبر يَرِدُ عليك من قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. يقال وجهٌ بشيرٌ إذا كان حسنا بيّن البشارة.

(الثّالث) أن يتحدّث بها لكن لمن يحبّ دون من يكره وفى الحديث «وَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إِلاَّ لَبِيبًا أَوْ حَبِيبًا[5]». أى عاقلا فإنّه إمّا أن يعبر بالمحبوب أو يسكت عن المكروه، فالمحبّ لا يعبّر لك إلاّ بما يسرّك، وفى الصّحيح «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ[6]». واشترط فى رواية التّرمذى أن يكون المعبِّرُ على علم وأمانة

(1) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٥].

(2) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٧ ص ٩].

(3) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٥].

(4) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣ / ٢٢٦١].

(5) حديث صحيح لغيره أخرجه التّرمذى [٢٢٧٨].

(6) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤ / ٢٢٦١].

لقوله ﷺ «لاَ تُقَصُّ الرُّؤْيَا إلاَّ عَلَى عَالِمٍ أوْ نَاصِحٍ». وجاء عند أبى داود عن أبى رُزَين «ولاَ تَقُصُّهَا إلاَّ عَلَى وَادٍّ أوْ ذِى رَأْىٍ[1]». وحكمة ذلك أنه إذا حدّث بالرُّؤيا الحسنة من لا يحبّ قد يفسّرها له بما لا يحبّ إمّا بُغضًا وإمّا حَسَدًا فقد تقع عن تلك الصّفة أو يتعجّل لنفسه من ذلك حزنًا ونكدًا، فأمر بترك تحديث من لا يُحبُّ بسبب ذلك.

رؤيا النّبى ﷺ فى المنام حقيقة

خصّ الله تعالى النّبىﷺ بأنّ رؤية النّاس إيّاه فى المنام صحيحة وكلّها صدق، فمن رأى النّبىﷺ فإنّ رؤياه صادقة ليست بأضغاث ولا من تشبيهات الشّيطان الذى مُنع أن يُتصَوّر فى هيئته لئلاّ يكذب على لسانه فى النّوم لقوله ﷺ «مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِى، فَإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِى[2]». أى من رآنى فقد رأى حقيقتى على كمالها بغير شُبهة ولا ارتياب فيما رأى بل هى رُؤيا كاملة. وجاء فى رواية «مَنْ رَآنِى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ[3]». أى الحقّ الذى قصد إعلام الرّائى به ليستبشر بالخير كلّه، وليعلم أنّه قد رأى رؤية الحقّ التى هى من الله تعالى لا الباطل الذى هو الحلم، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل به.

ولمّا خرق الله تعالى العادة للأنبياء عليهم السّلام بالمعجزة استحال على الشّيطان كذلك أن يتصوّر بصورتهم أو يتمثّل بهيئتهم كما فى قوله ﷺ «فَإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِى»: أى لا يتشبّه بصورتى، وفى رواية مسلم «لاَ يَتَمَثَّلُ فِى صُورَتِى[4]». أى لا يتكوّن فى صورتى. وجاء عند البخارى بلفظ «فَإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَكَوَّنُنِى[5]». أى لا يتشبّه بصورتى، فالجميع راجع إلى معنى واحد وهو أنّ من رآه على صفته التى كان عليها فى الدّنيا فمنامه ذلك هو الصّحيح ورؤيته له حقٌّ فإنّ الشّيطان لا يتصوّر بصورته التى كان عليها.

و[يلزم] ممّا سبق أنّ من رآه على غير صفته التى كان عليها لا تكون رؤيته حقًّا ولا صدقا وتكون من باب أضغاث الأحلام، وأيضا لو تمكّن الشّيطان من التّمثّل فى شىء ممّا كان عليه أو نُسب إليه لما صدق فى ذلك مُطلقا لقوله ﷺ «فَإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِى». فإنّه إذا تمثّل ببعض صفاته وأحواله فقد تمثّل به.

والأولى أن ننزه رُؤية النّبى ﷺ أو رؤية شىء من أحواله أو ممّا يُنسب إليه عن تمكّن الشّيطان من شىء منه، ونفى جميع ذلك مُطلقا أبلغ فى الحُرمة وأليق بالعصمة، وكما عُصمَ ﷺ

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٢٠] وابن ماجه [٣١٧٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٩٤] ومسلم [٢٢٦٦] وابن ماجه [٣١٦٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٩٦] ومسلم [٢٢٦٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٨] وابن ماجه [٣١٦٢] مقتصرًا على جزء منه.

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٩٧].

من الشّيطان فى يقظته فى كلّ أوقاته، كذلك عُصمَ منه فى منامه ﷺ مع اختلاف حالاته.

والصّحيح فى معنى الحديث أن يُقال: إنّ مقصوده الشّهادة منه ﷺ بأنّ رؤيته فى النّوم على أى حال كان ليست باطلة ولا من أضغاث الأحلام، بل هى حقٌّ فى نفسها، وإنّ تصوير تلك الصّورة وتمثيل ذلك المثال ليس من قِبَلِ الشّيطان إذ لا سبيل له إلى ذلك، وإنّما ذلك من قِبَلِ الله تعالى وهذا مذهب الكثير من المحقّقين.

وعلى ذلك فإنّ الذى [تقرّر] عند الأئمّة والعلماء أنّ المُدرَك فى المنام أمثلةٌ للمرئيّات لا أنفس المرئيّات، غير أنّ تلك الأمثلة تارة تكون مطابقة لحقيقة المرئى، وقد لا تكون مطابقة، ثمّ المطابقة قد تظهر فى اليقظة على نحو ما أُدركت فى النّوم كما قد صحّ عنه ﷺ أنّه قال لعائشة «أُرِيتُكِ فِى سَرَقَةٍ من حَرِيرٍ فَإِذَا هِىَ أَنْتِ[1]». ومعناه أنّه رآها فى نومه على نحو ما رآها فى يقظته، والسَّرَقَةُ هى قطعة من جيّد الحرير حملت له صورتها فى المنام.

ويُستفاد من الأحاديث:

(١) أنّ الله تعالى خصّ نبيّه ﷺ بعموم رؤياه كلّها ومنع الشّيطان أن يتصوّر فى صورته لئلاّ يتذرّع بالكذب على لسانه فى النّوم.

(٢) ومع أنّ الله تعالى قد أمكن الشّيطان من التّصوُّر فى أى صورة أراد، فإنّه لم يمكّنه من التّصوُّر فى صورته ﷺ ليحمى دينه وشرعه من تصوُّره وإلقائه وكيده.

(٣) أنّ رؤية النّبى ﷺ بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثَال [فإنّ الصّواب أنّ الأنبياء لا تغيّرهم الأرض ويكون إدراك الذّات الكريمة حقيقة وإدراك الصّفات إدراك للمَثَل[2]].

(٤) أنّ المتحصّل عند العلماء من قوله ﷺ «مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَسَيَرَانِى فِى الْيَقَظَةِ، أَوْ لَكَأَنَّمَا رَآنِى فِى الْيَقَظَةِ، لاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِى[3]»:

(*) إنّه على التّشبيه والتّمثيل ويدل عليه قوله ﷺ «أَوْ لَكَأَنَّمَا رَآنِى فِى الْيَقَظَةِ». فهو تشبيه ومعناه أنّه لو رآه فى اليقظة لطابق ما رآه فى المنام، فيكون [الأوّل] حقًّا وحقيقة، و[الثّانى] حقًّا وتمثيلا، وهذا كلّه إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفته فهى أمثال، أو أنّ معناه سيرى فى اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة أو التّعبير.

(*) أو أنّه خاص بأهل عصره ﷺ ممّن آمن به قبل أن يراه، أو أنّه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصيّة لا مُطلق من يراه حينئذ ممّن لم يره فى المنام.

(١) قطعة من حديث رواه البخارى [٣٨٩٥] ومسلم [٢٤٣٨].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٤٠٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٦] وافقه البخارى [٦٩٩٣].

(*) أن يكون مقصود تلك الرُّؤيا معنى صورته التى هى دينه وشريعته فيعبَّر بحسب ما رآه الرّائى من زيادة أو نقصان أو إساءة أو إحسان ، وكذلك الحكم إذا رآى على خلاف الصّورة التى كان عليها ممّا يجوز عليه .

وإذا كان هذا [قد تقرّر] فإنّه يجوز أن يُرى النّبى ﷺ فى النّوم على صفته التى كان عليها فى الوجود ، ويكون من فوائد ذلك تسكين شوق الرّائى لكونه مُولعا بمحبّته وليعمل على مشاهدته ، وهذا هو الذى أشار إليه النّبى ﷺ لمّا قال «مَنْ رَآنى فِى الْمَنَامِ فَسَيَرَانى فى الْيَقَظَة» . أى من رآنى رؤية مُعظِّم لحرمتى ومُشتاق لمشاهدتى وصل إلى رُؤية محبوبه وظفر بكلّ مطلوبه وهو رؤية حبيبه المصطفى ونبيّه المُجتبى ﷺ .

{القسم الثانى}

الْحُلْمُ من الشّيطان

الحُلْمُ ما يُرَى فى المنام من الخيالات الفاسدة [أو] هو الأمر الفظيع المجهول يُريه الشّيطانَ للمؤمن ليُحزنه وليكدّر عيشه ، وأُضيف الحُلْمُ إلى الشّيطان لكونه على هواه ومراده ، وأنّه يناسب صفته من الكذب والتّهويل وغير ذلك . (قال) فى النّهاية [الحُلم عبارة عمّا يراه النّائم فى نومه من الأشياء ، لكن غلبت [الرّؤيا] على ما يراه من الخير والشّىء الحسن ، وغلب [الحُلْم] على ما يراه من الشّر والأمر القبيح] .

وظاهر قوله ﷺ «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ[1]» . أنّ التى تُضاف إلى الله تعالى لا يقال لها [حُلم] والتى تضاف للشّيطان لا يقال لها [رُؤيا] وهو تصرّف شرعى ، وإلاّ فكلٌّ يُسمّى رؤيا وقد جاء فى حديث آخر «الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ» : فأطلق على كلّ رُؤيا ، وإن كان كلٌّ من الرّؤيا والحُلم يحدُثان فى النّوم إلاّ أنّ الشّارع فرّق بينهما :

(*) فجعل الرُّؤيا اسما [للمحبوب] فلذلك تُضاف إلى الله تعالى .

(*) وجعل الحُلم اسما [للمكروه] فيُضاف إلى الشّيطان .

ودليل ذلك قول النّبى ﷺ عند مسلم من حديث أبى قتادة رضي الله عنه «وَالرُّؤْيَا السُّوءُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئًا فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلاَ تَضُرَّهُ وَلاَ يُخْبِرْ بِهَا أَحَداً[2]» . والرُّؤيا السّوء هى التى تحتمل سوء الظّاهر وسوء التّأويل لكونها نسبت إلى الشّيطان مجازا لحضوره عندها وإن كان لا فعل له حقيقة ، إلاّ أنّه يُسرُّ لها ويرتضيها وهذا معنى قوله ﷺ «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ» .

ولـمّا أشار رسول الله ﷺ إلى إمكانية وقوع الضّرر من تحزين الشّيطان للمسلم فيما

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١ / ٢٢٦١] وأبو داود [٥٠٢١] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣ / ٢٢٦١] والفقه البخارى [٥٧٤٧] .

يراه، وتخويفه بالخيالات الفاسدة والأمور القبيحة، جاء بيانه ﷺ شافيًا في تحقيق السلامة من كلّ مكروه يترتب على هذه الرؤيا، وحافظًا من كلّ بلاء يُمكن أن يتحقق من تأثيراتها المباشرة كما في قوله ﷺ من حديث أبي قتادة عند البخارى «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ(1)». وجاء عند الترمذى بلفظ «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ(2)». وزاد ابن ماجه «وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ».

وقوله «وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ»: يعنى به ما يُلقيه مّما يُهوّل أو يخوّف أو يُحزن به، وهذا النّوع هو المأمور بالاستعاذة منه لأنّه من تخيُّلات الشّيطان وتشويشاته، فإذا استعاذ الرّائى منه صادقا فى التجائه إلى الله تعالى ونفث عن يساره ثلاثا وتحوّل عن جنبه كما أمره النّبى ﷺ فى حديث ابن ماجه وصلّى، أذهب الله عنه ما أصابه وما يخافه من مكروه ذلك، ولم يصبه منه شيء ببركة صدق الالتجاء إلى الله تعالى، وامتثال أوامر رسوله ﷺ وعلى هذا فيكون قوله «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ»: إنّما يعنى به ما يكون سببه الشّيطان، وقيل بل الخبر بحكم عمومه يتناول ما يُسبّبه الشّيطان وما لا يُسبّبه ممّا يكرهه الرّائى ويكون فعل هذه الأمور كلّها مانعا من وقوع ذلك المكروه.

فكان من حاصل الأدب النّبوى الحكيم أن تُعالَج الرُّؤيا المكروهة كما فى الأحاديث بسبعة أشياء نأتى بها تفصيلا على النحو التّالى:

(أ) أن يستعيذ بالله تعالى من شرّ ما رأى

وذلك لمشروعيّة الاستعاذة عند كلّ أمر يُكره إمّا لصورته وإمّا لتأويله لقوله ﷺ فى الصّحيح «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَتَحَوَّلْ وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَسْأَلِ اللهَ مِنْ خَيْرِهَا وَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ شَرِّهَا(3)». وجاء عند مسلم «وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

ويحتاج المسلم مع الاستعاذة إلى صحّة التّوجُّه إلى الله تعالى ولا يكفى إمرار الاستعاذة على اللّسان، كما ورد فى صفة التّعوّذ من شرّ الرّؤيا أثر صحيح عن إبراهيم النّخعى قال «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ فِي مَنَامِهِ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَعُوذُ بِمَا عَاذَتْ بِهِ مَلَائِكَةُ اللهِ وَرُسُلُهُ مِنْ شَرِّ رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنْ يُصِيبَنِي فِيهَا مَا أَكْرَهُ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ(4)».

---

(1) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٨٥]. (2) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٧] ومسلم [٢٢٦١] وأبوداود [٥٠٢١]. (3) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٧٢] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [١٣١١]. (4) أثر صحيح أخرجه ابن أبى شيبة بأسانيد صحيحة [٢٩٥٤٦].

وممّا ورد في الاستعاذة من التّهويل في المنام عن مالك قال «بَلَغني أنَّ خالدَ بْنَ الْوَليد قالَ يَارَسُولَ اللهِ إنِّي أُرَوَّعُ في الْمَنَام؟ فَقَالَ قُلْ أعُوذُ بكَلمَات اللهِ التَّامَّات منْ شَرِّ غَضَبه وعَذَابه ، وشَرِّ عبَاده ، ومنْ هَمَزَات الشَّيَاطين وأنْ يَحْضُرُون[1]» . أي ومن أن يحضروني في أموري كالصّلاة وقراءة القرآن وغير ذلك لأنّهم إنّما يحضرون إمّا بالسّوء والنّزغات أو بالوساوس والخطَرات .

(٢) أن يستعيذ بالله من شرّ الشّيطان

يتضمّن التّوجيه النّبوي الاستعاذة من شرّ الشّيطان لكونه مصدر الرّؤيا المكروهة ، وأنّه يُخَيِّلُ بها إلى الرّائي لتحزينه والتّهويل عليه كما في قوله ﷺ «ولْيَتعَوَّذْ باللهِ منْ شَرِّ الشَّيْطَان وَشَرِّهَا وَلاَ يُحَدِّثْ بهَا أحَدًا فإنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ» . وجاء عند البخاري بلفظ «فَلْيَتَعَوَّذْ باللهِ منْ شَرِّهَا وَمنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفُلْ ثَلاثًا ولاَ يُحَدِّثْ بهَا أحَدًا فإنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ[2]» .

وظاهر الخبر أنّ هذا النّوع من الرّؤيا يعني ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تحزين هو المأمور بالاستعاذة منه لأنّه من تخييلات الشّيطان وتشويشاته ، فإذا استعاذ الرّائي منه صادقا في التجائه إلى الله تعالى ، وفَعَل ما أُمر به أذهب الله عنه ما به وما يخافه من مكروه ذلك ولم يصبه منه شيء ببركة صدق الالتجاء إلى الله تعالى .

(٣) أن ينْفُلَ حين يهُبُّ من نومه

ويشترط في هذا التّفل أن يتمّ عقب القيام من النّوم ، وأن يكون عن يساره ، وأن يأتي به ثلاث مرّات طردًا للشّيطان الذي حضر الرّؤيا المكروهة تحقيرًا له واستقذارًا منه ، وخصّت اليسار بذلك لأنّها الجهة المعدّة للمستقذر والمكروه ونحوه ، ثمّ يأتي التّفل ثلاثا زيادة في إهانة الشّيطان وإذلاله لما في حديث قتادة عند مسلم «فَلْيَبْصُقْ عَلَى يَسَارِه حينَ يَهُبُّ منْ نَوْمه ثَلاَثَ مَرَّات[3]» . (قال) ابن العربي [فيه إشارة إلى أنّه في مقام الرُّقية ليتقرّر عند النَّفْث دفعه عنها ، وعبّر عن ذلك في بعض الرّوايات بالبُصاق إشارة إلى استقذاره ، وقد ورد بثلاثة ألفاظ : النّفث والتّفل والبُصاق ، والنّفث نفخ لطيف بلا ريق أمّا التّفل والبصق فلا يكونان إلاّ بريق] .

ومطلوب هذا كلّه طرد الشّيطان وإظهار احتقاره واستقذاره ، كما استُدلّ به على أنّ للوهم تأثيرا بالغًا في النّفوس ، لأنّ التّفل وما ذُكر معه يدفع الوَهْم الذي يقع في النّفس من الرُّؤيا ، فلو لم يكن للوهم تأثير لما أرشد إلى ما يدفعه ، والوهم هو سبق القلب إلى

---

(١) أخرجه مالك بإسناد صحيح [١٧١٠] وأبو داود [٣٨٩٣] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٠٤٤] .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١ / ٢٢٦١] وافقه البخاري [٥٧٤٧] وأبو داود [٥٠٢١] .

الشّيء مع إرادة غيره. يقال «وَهَمْتُ وَهْمًا»: وَقَعَ في خَلَدي، والجمع أوهام. وقال أبو البقاء في «الكليّات ص٩٤٣» [الْوَهْمُ مرجوح طرفي المتردّد فيه، وهو عبارة عمّا يقع من جنس المعرفة من غير سبب موضوع للعلم وهو أضعف من الظّن].

(٤) أن لا يذكر ما رآه لأحد

إذا كانت الرُّؤيا على غير ما يستحبّ فلا ينبغي أن يذكرها لأحد، والأصل في ذلك قول النّبي ﷺ «فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلاَ يَقُصَّهُ عَلَى أَحَدٍ[١]». وفي رواية أبي سعيد بلفظ «وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا وَلاَ يَذْكُرْهَا لأَحَدٍ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ[٢]». وجاء عند التّرمذي «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيَتْفُلْ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ[٣]». أي وإن كان حبيبا أو على وجه التّعبير وغيره فيكون عدم ذكرها من أسباب الوقاية من شرّها، كما أنّ الحثّ على عدم التّحدُّث بها يحتمل أن يكون لمخافة تعجيل اشتغال سرّ الرّائي بمكروه تفسيرها لأنّها قد تُبطيء فإذا لم يُخبر بها زال تعجيل روعها وتخويفها.

(٥) أن يعقب هذه الرُّؤيا بالصّلاة والتّنفُّل

يُستحبّ لمن رأى في منامه ما يكره أن ينهض إلى الصّلاة لما فيها من التّوجُّه إلى الله تعالى واللُّجوء إليه، ولأنّ في التّحرُّم بها عصمة من الأسواء، وبها تكمل الرّغبة وتصحّ الطّلبة لقرب المصلّي من ربّه تعالى عند سجوده، فإنّ أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد كما في قوله ﷺ «فَمَنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ»[٤] وعند مسلم «فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ[٥]». ويستحبّ أن يقرأ فيها آية الكرسيّ أخذا من عموم قوله ﷺ «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ[٦]».

وفي اقتصار ذكره ﷺ في حديث مسلم على الصّلاة بقوله «فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ»: (قال) القرطبي في المُفهم: [لأنّه إذا صلّى تضمّن فعلُهُ للصّلاة جميعَ تلك الأمور، لأنّه إذا قام إلى الصّلاة تحوّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث وبصق، وإذا صلّى تعوّذ قبل القراءة ثمّ دعا وتضرَّع إلى الله تعالى فإنّه يكون في حال هي من أقرب الأحوال إلى الإجابة فيكفيه الله شرّها بمنّه وفضله[٧]].

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٠١٧]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٥]. (٣) من حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢٢٧٠] ومسلم [٢٢٦٣]. (٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٨] وأبو داود [٥٠١٧] والتّرمذي [٢٢٨٠]. (٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩] والتّرمذي [٢٢٧٠]. (٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٧٥]. (٧) انظر المُفهم [ج ٦ ص ١٩] وتفسير القرطبي [ج ٩ ص ١٢٨].

(٦) استحباب التّحوُّل عن جنبه

ويأتي الأمر بتحوُّل الرّائي عن جنبه الذى كان عليه ليتكامل استيقاظه وينقطع عن ذلك المنام المكروه، ويكون ذلك للتّفاؤُل بتحوّل الحال التى كان عليها وكذلك تغيير الموضع الذى كان محلا لما رآه من مكروه ودليل ذلك قوله ﷺ من رواية مسلم «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاَثًا وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلاَثًا وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِى كَانَ عَلَيْهِ[١]».

ويشبه ذلك تحوّل المرء عن مكانه الذى نَعَس فيه فى المسجد يوم الجمعة من قوله ﷺ «فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ[٢]». فيكون تحوُّل الجنب حين الرّؤية المكروهة تفاؤلا بتحوُّل الحال من الرُّؤيا القبيحة إلى الرُّؤيا الحسنة الصّادقة، أمّا معنى قوله ﷺ «فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ»: أى أنّ فعْلَ الأمور المذكورة مَانِعٌ من وقوع المكروه المترتّب على الرّؤيا، فيكون في محل الدّعاء الذى يدفع البلاء، والصّدقة التى تمنع ميتة السّوء، وأسباب ذلك كلّه مُعلّقة بقضاء الله تعالى وقدره.

(٧) الإعراض عمّا يشغل من رؤى مُحزنة

من المستحبّ للمسلم ألاّ يلتفت لما يراه من أضغاث ومكروهات فلا يلقي لها بالاً ولا يذكرها لما ورد في صحيح مسلم عن أبى سلمة رضي الله عنه قال «كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا أُعْرَى مِنْهَا غَيْرَ أَنِّى لاَ أُزَمَّلُ، حَتَّى لَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ» فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلُمَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلُمًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاَثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ». قال «إِنْ كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ جَبَلٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَمَا أُبَالِيهَا[٣]». وجاء قول أبى سلمة رضي الله عنه عند البخارى بلفظ «فَإِنْ كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنَ الْجَبَلِ فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فَمَا أُبَالِيهَا[٤]».

وقوله «أُعْرَى مِنْهَا غَيْرَ أَنِّى لاَ أُزَمَّلُ»: أى تُصيبنى العُرَوَاءُ وهى الرّعدة والمعنى: أنّى أُحَمّ بخوفى من ظاهرها فى ظنّى، من عُرِيَ الرَّجل يُعرى إذا أصابه عراء وهو نفض الحمّى، وجاء فى رواية البخارى «لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِى[٥]». أمّا التّزميل: فهو اللّفُّ والتّدثير،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٢] وأبو داود [٥٠٢٢] وابن ماجه [٣١٧٠].

(٢) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١١٩] والتّرمذى [٣٧٩] وأحمد [٤٧٤١].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦١].

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٧].

(٥) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤٤] ومسلم [٢٢٦١].

أى أنّها ما كانت تدوم عليه فيحتاج إلى أن يُدثَّر. وقوله «أثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ الْجَبَلِ» : أى لما كان يُتوَقَّعُ من شرّها، وقوله «فَمَا أُبَالِيهَا» : أى لا أُلقى لها بالا ولا أخطرها على فكرى ثقة بالله تعالى وعفوه ورحمته.

ولا يزول فكر هذه الرُّؤى عن المسلم إلاّ بالتزامه بما أمر به النّبى ﷺ من النّفث والتّعوّذ والصّلاة والتّصديق والامتثال، وفائدة هذا ألاّ يشغل الرّائى نفسه بما يكره فى نومه وأن يُعرض عنه ولا يلتفت إليه فإنّه لا أصل له وهذا هو الظّاهر من الأحاديث.

{القسم الثّالث}

أضغاث الأحلام

يتسلّط الشّيطان على الإنسان لشدّة عداوته له وإصراره على إفساد أموره بكلّ طريق، فهو يكيده بكلّ وجه ويُلبّس عليه رؤياه إمّا بتخليطه فيها وإمّا بغفلته عنها، والأضغاث: الأخلاط وواحدها [ضِغْثٌ]، يقال لكلّ مختلط وما كان منها ملتبِسا مضطربا يصعب تأويله ولا ينذر بشىء كما فى قول الله تعالى ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

وفى قوله تعالى ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]. [قال] القتبى [إنّها الرُّؤيا الكاذبة]. وقال غيره [الأضغاث ما لم يكن له تأويل وهى ما عرّفها رسول الله ﷺ بقوله «وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ[(١)]». وقوله عند ابن ماجه «مِنْهَا أَهَاوِيلٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ[(٢)]». ويلحق بها المُفزعات المُهوِّلات وأضغاث الأحلام إذ كلّ ذلك مذموم لأنّها من آثار الشّيطان وكلّ ما يُنسب إليه مذموم.

ولمّا كانت الأضغاث مخلوقة على شاكلة الشّيطان سمّاها الشّرع حُلْمًا وأضافها إليه، وأعلم النّاس بكيده وأرشدهم إلى دفعه لئلاّ يبلغ هدفه فى تخويفهم والتّهويل عليهم لقوله ﷺ من حديث جابر قال «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ وَهُوَ يَخْطُبُ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ عُنُقِى ضُرِبَتْ وَسَقَطَ رَأْسِى فَاتَّبَعْتُهُ فَأَخَذْتُهُ فَأَعَدْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِى مَنَامِهِ فَلاَ يُحَدِّثَنَّ بِهِ النَّاسَ[(٣)]».

ومن تهويل الشّيطان وإغاظته للمسلم تَلَعُّبُهُ به فى المنام وتخويفه ومن ذلك ما جاء عند مسلم أنّ رجلا جاء إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ «يَارَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ فِى الْمَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِى قُطِعَ! فَضَحِكَ رسولُ الله ﷺ وَقَالَ إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِى مَنَامِهِ، فَلاَ يُحَدِّثْ بِهِ

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩].

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٦٩] وأورده فى الصّحيحة [١٨٧٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٧٤].

النَّاسَ[1]». وجاء في رواية «لاَ يُحَدِّثَنَّ أَحَدُكُمْ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي مَنَامِهِ».

وتأتي الأضغاث على ثلاثة أنواع:

(الأوّل) تلاعب الشّيطان ليُحزِن الرّائي كأن يرى أنّه قُطِعَ رأسُه وهو يتبعه أو رأى أنّه واقع في هول ولا يجد من يستنقذه ونحو ذلك.

(الثّاني) أن يرى أنّ بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرّمات مثلا ونحوه من أعمال لا تجوز عقلا.

(الثّالث) أن يرى ما تتحدّث به نفسه في اليقظة أو يتمنّاه فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة أو ما يغلب على مزاجه ويقع كثيرا وعن الماضي قليلا.

وظاهر قوله ﷺ «فَمَنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ»: أنّ هذا النّوع من الرُّؤيا يعني ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تحزين وهو المأمور فيه:

(١) بالاستعاذة منه لأنّه من تخيّلات الشّيطان فإذا استعاذ الرّائي منه صادقا في التجائه إلى الله تعالى وفعَل ما أُمر به من التَّفْل والتّحوُّل والصّلاة أذهب الله عنه ما به وما يخافه من مكروه ذلك ولم يصبه منه شيء.

(٢) أنّ عدم التّحديث بتلعُّب الشّيطان يمنع عن المرء أذاه وشرّه والحيلولة دون تمكّنه منه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِي ﷺ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَأْسِي ضُرِبَ فَرَأَيْتُهُ يَتَدَهْدَهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمِدُ الشَّيْطَانُ إِلَى أَحَدِكُمْ فَيَتَهَوَّلُ لَهُ ثُمَّ يَغْدُو فَيُخْبِرُ النَّاسَ[2]». وقوله «يَتَدَهْدَهُ»: أي يتدحرج ويضطرب. وجاء عن جابر «إِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يُخْبِرِ النَّاسَ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي الْمَنَامِ[3]».

رابعا - من آداب الرّائي

الرّائي هنا هو كلّ مسلم صادق يأوي إلى فراشه أوّل اللّيل مستسلما لأمر الله تعالى ملتزما بالآداب المحمّدية التي سنّها رسول الله ﷺ والتي تتطلّب منه:

(١) أن يتحرّى الصّدق في القول والعمل لقوله ﷺ «وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا[4]». وإنّما كان ذلك لأنّ من كثُر صدقه تنوّر قلبه وقوي إدراكه فانتقشت فيه المعاني على وجه الصّحة والاستقامة.

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٨] والنّسائي في عمل اليوم واللّيلة [٩١٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه (٣١٧٣) وأورده في الصّحيحة [٢٤٥٣].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٨/١٤] وابن ماجه [٣١٧٥] واللّفظ له.

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣/٦] وأبو داود [٥٠١٩] والتّرمذي [٢٢٧٠] بنحوه.

وأيضا فإنَّ من كان غالبُ حاله الصّدق في يقظته استصحب ذلك في نومه فلا يرى إلاّ صدقا، وعكس ذلك الكاذب والمُخلِّط يفسدُ قلبه ويظلُم فلا يرى إلاّ تخليطا وأضغاثا. وهذا غالب كلّ واحد من الفريقين.

(٢) وأن لا يأكل إلاّ حلالا طيّبا وأن يحافظ على الأمر والنّهي، ومن كان كذلك فإنّ رُؤياه لا تكاد تكذب أبدا.

(٣) أن ينام على طهارة وذكر لقوله ﷺ من حديث البَراء بن عازب «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ وَقُلْ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ(١)». وقد ورد في هذا المعني حديث معاذ رفعه «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرٍ وَطَهَارَةٍ فَيَتَعَارُّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ(٢)». ومعنى قوله «يَتَعَارُّ»: يستيقظ من النوم وأصل التَّعارّ السّهر والتَّقلُّب على الفراش.

(٤) أن يأتي بالدّعاء المأثور عند النّوم ومنه قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ(٣)».

(٥) أن يقرأ عند نومه سور الكافرون والإخلاص والمعوّذتين لورود الصّحيح بذلك من حديث عائشة قالت «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا ثُمَّ قَرَأَ فِيهِمَا { قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ } و { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ } و { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ } ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(٤)». ومن ذلك قول النّبيﷺ لنوفل «اقْرَأْ { قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ }. ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ(٥)».

(٥) أن يسأل ربّه تعالى بقوله [بسم الله والحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله وآله: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من سيىء الأحلام، وأستجير بك من تلاعب الشّيطان في اليقظة والمنام، اللّهمّ إنّي أسألك رُؤيا صالحة صادقة نافعة حافظة غير منسيّة، اللّهمّ أرنى فى منامى ما أحبّ وترضى(٦)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١١] ومسلم [٢٧١٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٤٢] والنّسائى فى عمل اليوم واللّيلة [٨٠٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٢٠] ومسلم [٢٧١٤] وأبوداود [٥٠٥٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١٩] وأبو داود [٥٠٥٦].

(٥) حديث حسن أخرجه أبو داود [٥٠٥٥].

(٦) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٤٥١].

(٧) أن يلتزم بالآداب الإسلاميّة التى سنّها رسول الله ﷺ لمن رأى فى منامه ما يحبّ أو يكره لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةَ فَلْيُفَسِّرْهَا وَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى الرُّؤْيَا الْقَبِيحَةَ فَلاَ يُفَسِّرْهَا وَلاَ يُخْبِرْ بِهَا[١]». والتّأسى بهدى النّبى ﷺ فى ذلك من الأعمال التى يحبّها الله تعالى من عبده ويقبلها.

(٨) يُطلب من الرّائى أن يقصّ رؤياه على العابر ويذكر قصّتها تفصيلا ويتتبّع جزئياتها حتّى لا يترك منها شيئا لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ[٢]».

وقوله «فَلْيَقُصَّهَا» أى يبيّن قصّتها، وأصل القَصّ تتبّع الشّىء ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]. أى تتبّعى أثره، فالقاصّ يتبع الآثار فيُخبر بها، يقال: فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السّياقة له من قول الله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. أى نبيّن لك أحسن البيان.

خامسا - من الأحكام المتعلّقة بالرّؤى

(أ) رؤيا اللّيل والنّهار

لمّا قيل إنّ الرُّؤيا إدراك أمثلة منضبطة فى التّخيُّل جعلها الله تعالى إعلاما على ما كان أو يكون، [ذهب] بعض العلماء إلى القول بأنّ رُؤيا النّائم المستغرق لا تصحّ ولا يضرب له المثل فى منامه لكونه لا يدرك شيئا مع استغراق أجزاء قلبه، لأنّ النّوم يُخرج الحىّ عن صفات التّمييز والظّنّ والتّخييل كما يُخرجه عن صفة العلم، ولهذا أكثر ما تكون الرُّؤيا فى آخر اللّيل لقلّة غلبة النّوم.

و(قال) آخرون [بل يصحّ للنّائم مع استغراق أجزاء قلبه بالنّوم أن يكون ظانًّا ومتخيّلا وأمّا العلم فلا، لأنّ النّوم آفة تمنع من حصول الاعتقادات الصّحيحة، فإن كان بعض أجزاء قلبه لم يحلّ فيه النّوم فيصحّ، وبه يُضرب المثل وبه يرى ما يُتخيّل له ولا تكليف عليه حينئذ، لأنّ رُؤياه ليست على حقيقة وجود العلم ولا صحّة الميز، وإنّما بقيت فيه بقيّة يُدرك بها ضرب المثل[٣]]. ويتأيّد هذا بأنّ النّبى ﷺ كان ينام عينه ولا ينام قلبه، ومن ثمّ احترز القائل بقوله «المدرك» من النّائم ولذا قال «منضبطة فى التّخيُّل» لأنّ الرّائى لا يرى فى منامه إلاّ من نوع ما يدركه فى اليقظة بحسّه.

كان ذلك مقدّمة لبيان اختلاف العلماء فى رُؤيا الشّخص فى اللّيل هل تساوى رؤياه

---

(١) أخرجه فى صحيح الجامع [٥٤٨] وأورده فى الصّحيحة [١٣٤٠].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤٦] ومسلم [٢٢٦٩].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٧٠].

بالنّهار أم هما متفاوتان وهل بين زمان كلّ منهما تفاوت ؟ . ويُشار من خلال ذلك إلى حديث أبى سعيد الذى أخرجه أحمد مرفوعا وصحّحه الحاكم من قوله ﷺ «أَصْدَقُ الرُّؤْيَا بِالأَسْحَارِ[1]» . أى ما رُؤى بالأسحار لكونها وقت التنزُّل الإلهى والصّلاة المشهودة واقتراب الرّحمة والمغفرة وسُكون الشّياطين ، ولأنّ الغالب حينئذ أن تكون الخواطر مُجتمعة والدّواعى ساكنة ، ولأنّ المعدة خالية فلا تتصاعد منها الأبخرة المشوّشة للفكر[2]] .

(٣) الرُّؤيا إذا اقترب الزّمان

إذا اقتربت السّاعة وقُبض أكثر العلم ودُرست معالم الدّيانة بالهرْج والفتنة كان النّاس على مثل الفترة فى حاجة إلى مُذكِّر ومُجدِّد لما ذهب من الدّين كما كانت الأمم تُذَكَّرُ بالأنبياء ، لكن لـمّا كان نبيّنا ﷺ خاتم الأنبياء وصار الزّمان المذكور يشبه زمان الفترة عُوِّضُوا بما مُنعوا من النُّبوّة بعده [بالرُّؤيا الصّادقة] التى هى جزء من النُّبوّة الآتية بالتّبشير والإنذار ، ودليل ذلك قوله ﷺ من حديث أبى هريرة عند البخارى وغيره «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا[3]» . وجاء عند التّرمذى فى جامعه بلفظ «فِى آخِرِ الزَّمَانِ لاَ تَكَادُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا[4]» .

والمراد بتقارب الزّمان فى قوله «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ» نقص السّاعات والأيّام واللّيالى وهو سرعة مرورها . أمّا قوله «لَمْ تَكَدْ» : فيه إشارة إلى غلبة الصّدق على الرّؤيا وإن أمكن أنّ شيئا منها لا يصدّق ، والرّاجح أنّ المراد نفى الكذب عنها أصلا ، والحكمة فى اختصاص ذلك بآخر الزّمان أنّ المؤمن فى ذلك الوقت يكون غريبا كما فى الحديث «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا[5]» . و[حاصل] ما اجتمع من كلام الأئمّة حول معنى قوله «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ» . ثلاثة أقوال :

(الأوّل) لـمّا يذهب غالب العلم بأمور الدّيانة بذهاب غالب أهله ، وتتعذّر النُّبوّة فى هذه الأمّة يُعَوَّضُوا بالمرائى الصّادقة ليجدّد لهم ما قد دُرِس من هذا العلم .

(الثّانى) أنّ المؤمنين الصّادقين لـمّا يقلّ عددهم ويغلب الكفر والجهل والفسق على الموجودين يُؤنس المؤمن ويُعان بالرُّؤيا الصّادقة إكراما له وتسلية .

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١١١٧٩م] والحاكم [٨٣٥٠] وصحّحه ووافقه الذّهبى .

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٦ ص ١٤٦] .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩] والتّرمذى [٢٢٧٠] .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٩٩٠] والتّرمذى [٢٢٩١] وابن ماجه [٣١٧٨] .

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٥] وابن ماجه [٣٢٣٦] .

وعلى هذين القولين لا يختصّ ذلك بزمان مُعيَّن بل كلّما قرُب فراغ الدّنيا وأخذ أمر الدّين فى الاضمحلال تكون رُؤيا المؤمن الصّادق أصدق [(١)].

(الثّالث) أنّ ذلك خاصّ بزمان عيسى بن مريم وأوَّلُها أولاّها والله أعلم.

ثمّ ذهب بعض العلماء بالنّص إلى معنى آخر وهو اقتراب أجل الرّائى بطعن فى السّن أو بلوغ فى أوان الكُهولة وحُصول المشيب، فتكون رُؤياه أصدق وذلك لاستكماله غاية الحلم والأناة والقوّة النّفسيَّة وهو المقصود بقوله «إذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ».

(٣) الكذب على الله فى الحُلم

جاء فى هذه المسألة أحاديث صحيحة تثبت أنّ الكذب فى المنام كذب على الله تعالى أنّه أراه ما لم يره، والكذب على الله سبحانه أشدّ من الكذب على المخلوقين لقوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الزّمر: ٣٢]. وإنّما كان الكذب فى المنام كذبا على الله لما صحّ فى الخبر أنّ الرُّؤيا الصّادقة جزء من النُّبوّة والنُّبوّة لا تكون إلاّ وحيًا، والكاذب فى رُؤياه يدّعى أنّ الله تعالى أراه ما لم يره وأعطاه جزءا من النُّبوّة لم يُعطه إيّاه.

ويأتى بيان ذلك من قول النّبى ﷺ «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ (٢)». أى رأى فى النّوم ما لم يره بقوله «مَنْ تَحَلَّمَ»: إذا ادعى الرُّؤيا كاذبا، وجاء نصّه عند التّرمذى بلفظ «وَلَنْ يَعْقِدَ بَيْنَهُمَا» و[لَنْ] حرف ينصبُ المضارعَ وينفيه في المستقبل، وأورده ابن ماجه بلفظ «مَنْ تَحَلَّمَ حُلْمًا كَاذِبًا كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَيُعَذَّبُ عَلَى ذَلِكَ (٣)».

ولمّا كان اتصال إحدى الشّعيرتين بالأُخرى مستحيل غير ممكن فإنّه يُعذَّب ليفعل ذلك ولا يمكنه فعله فهو كناية عن دوام تعذيبه. [قال] ابن أبى جمرة: [إنّما سمَّاه حُلما ولم يسمّ رُؤيا لأنّه ادّعى أنّه رأى ولم ير شيئا فكان كاذبا والكذب إنّما هو من الشّيطان، وما كان من الشّيطان فهو غير حقّ فصدَّق بعض الحديث بعضا].

والكاذب على الله تعالى أعظم فرية ممّن كذب على الخلق أو على نفسه لقوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما «مِنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ (٤)». وجاء قوله ﷺ عند الحاكم «إِنَّ أَعْظَمَ الْفِرْيَةِ أَنْ يَفْتَرِيَ الرَّجُلُ عَلَى عَيْنَيْهِ يَقُولُ رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ (٥)». والفِرَى جمع فِرية وهى الكَذبة العظيمة التى يُتعجَّب منها، ومعنى نسبة الرُّؤيا إلى

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٤٢٤]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤٢] وأبو داود [٥٠٢٤]. (٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٧٧] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٢٣٥٩]. (٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤٣]. (٥) أخرجه الحاكم [٨٣٧١] وافقه الذّهبى فى التّلخيص على شرط البخارى ومسلم.

عينيه مع أنهما لم يريَا شيئا أنه أخبر عنهما بالرُّؤية وهو كاذب.

سابعا - التّعبير عن الرُّؤى

[التّعريف - شروط العابر - آداب التّعبير - توقيت التّعبير]

لـمّا قيل للإمام مالك أيعبرُ الرُّؤيا كلّ واحد؟ قال: [أبالنُّبوّة يُلْعَبُ]. ثمّ قال: لا يعبر بها إلاّ من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت، قيل فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنّها على ما تأوّلت عليه! قالَ: لا. ثمّ أكّد مع سائله العبارة الأولى بقوله «الرُّؤيَا جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ فَلاَ يُتَلاَعَبُ بالنُّبُوَّةِ[1]».

ولعلّ قوله «فَلاَ يُتَلاَعَبُ بالنُّبُوَّة» يقف بنا أمام أمرين مهمّين:

(أوّلهما) أنّه يتعيّن على الرّائى أن يعتنى برُؤياه ويسعى فى تفهُّمها ومعرفة تأويلها، فإنّها إمّا مُبشّرة له بخير، أو محذّرة له من شر، فإن أدرك تأويلها بنفسه وإلاّ سأل عنها من له أهليّة ذلك وهو اللّبيب الحبيب، ولذلك كان رسول الله ﷺ يسأل عمّن رأى رؤيا يَعْبُرْهَا له، فكانوا يقصُّون عليه ويَعْبُرُ. وقد سلك أصحابه ذلك المسلك فى حياته وبعد وفاته، وقد كان ﷺ يقتبس الأحكام من منامات أصحابه كما فعل فى رُؤيا الأذان وفى رُؤيا ليلة القدر وكلّ ذلك بناءً على أنّها وحى صحيح.

(والثّانى) أهميّة صدق التّعبير عن الرُّؤيا والشّروط التى ينبغى أن تكون متحقّقة فيمن يعبر بها على نحو يتوافق والهدى الذى جاء به رسول الله ﷺ فى هذا المقام، كما أراد أنّها لـمّا أشبهت النُّبوّة من جهة الاطلاع على بعض الغيب فلا ينبغى أن يُتكلّم فيها بغير علم. وهو الأمر الذى قادنا من خلال هذا البحث لأن نعرض لبعض ما يتّصل بتعبير الرُّؤى من خلال المراجع التى يسّرها الله تعالى لنا على النّحو التّالى:

(أ) - معنى التّعبير

يُقصد بالتّعبير تفسير ما يراه المرء فى النّوم ومعرفة أحواله وهو العبور من ظواهر الرُّؤيا إلى بواطنها. و[قيل]: هو النّظر فى الشّىء «فيعتبر» بعضه ببعض حتّى يحصل على فهمه [حكاه الأزهرى]. وبالأوّل جزم الرّاغب فى مُفرداته وقال أصله من [الْعُبُور] وهو التّجاوُز من حال إلى حال، والْعَبَارَةُ مشتقّة من [عُبُور النّهْرِ] فمعنى عَبَرْتَ النّهْرَ بَلَغْتَ شَاطِئَهُ، «فَعَابِرُ الرُّؤْيَا» يُخبر بما يؤول إليه أمرها، ويتأمّل جوانبها، ويتفكّر فى أطرافها، وينتقل من أحد الطّرفين إلى الآخر، والاعتبار والعبرة هى الحالة التى يتوصّل بها من معرفة المُشَاهَد إلى ما ليس بمُشَاهَد [[2]].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٨٠]. (٢) انظر القاموس المحيط [ص ٥٥٨] والكُلّيات [ص ٣١٢].

والتَعبير لغة مصدر عَبَّرَ يُعَبِّرُ [بتشديد الباء] مبالغة في التَّفسير والتَّبيين من عَبَرَ الرُّؤيا [بالتّخفيف] عَبْرًا وعَبارَةً : فسّرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها. وعبَّرها [بالتّشديد] : مبالغة فى ذلك ، وفى التّنزيل الحكيم ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف :٤٣] . واللاّم فى [لِلرُّءْيَا] للتّبيين أى إن كنتم تعبرون ، والتّعبير أخصّ من التّأويل ، وهو الوارد فى قوله تعالى ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف : ١٠٠] . والتّأويل لغة مصدر [أوّلَ] وأصل الفعل [آل الشّىءُ يؤول أولاً] : إذا رجع ، تقول : آل الأمر إلى كذا : أى رجع إليه ومعناه تفسير ما يؤول إليه الشّىء ومصيره .

ومّما أوّله رسول الله ﷺ فى الرُّؤى :

* ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من قوله ﷺ «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، قَالُوا : فَمَا أَوَّلْتَهُ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ الْعِلْمَ(١)» .

* وقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس عند الشّيخين «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ أَنَّهُ وُضِعَ فِى يَدَىَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَفَظِعْتُهُمَا وَكَرِهْتُهُمَا ، فَأُذِنَ لِى فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ(٢)» .

وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يسأل الصّحابة الكرام عمّن رأى البارحة رُؤيا ليَعْبُرَهَا له لما رواه البخارى وغيره عن سَمُرَة بن جُندب رضي الله عنه قال «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِه : هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا . قَالَ : فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ(٣)» . وجاء عند مسلم من حديث أبى هريرة «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ مِمَّا يَقُولُ لأَصْحَابِه : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ(٤)» .

وإنّما كان النّبى ﷺ يسألهم عن ذلك لما كانوا عليه من الصّلاح والصّدق ، فكان قد علمَ أنَّ رؤياهم صحيحة وأنّها يُستفاد منها الاطلاع على كثير من علم الغيب ، وليُبيّنَ لهم بالفعل الاعتناء بالرُّؤيا والتّشوُّف لفوائدها وليُعلّمَهم كيفيّة التّعبير وليستكثر ﷺ من الاطلاع على علم الغيب .

وفى قول سَمُرَةَ «مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِه» إخبار بتعظيم إجادة النّبى ﷺ فى تعبير الرُّؤيا وأنّ الإكثار من هذا القول لا يُشار به إلاّ إلى من تدرّب فيه ووثق فى إصابته ومنه قول صاحبى السّجن ليوسف عليه السّلام ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٣٢] ومسلم [٢٣٩١] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٣٤] ومسلم [٢٢٧٤] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤٧] .

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٩] وأبو داود [٤٦٣٢] .

أى من المجيدين فى عبارة الرّؤيا واستقرائها ، وسُؤاله لهم محمول على أنه ﷺ يعلمهم تأويلها وفضيلتها واشتمالها على ما شاء الله تعالى لعبده من الفضل والخير .

ولذلك اشترط النبي ﷺ فيمن يَعْبُرُ الرُّؤيا أن يكون عالما بها لحديث أنس عند الحاكم «إنَّ الرُّؤْيَا تَقَعُ عَلَى مَا تُعبَّر ، وَمَثَلُ ذَلكَ مَثَلُ رَجُلٍ رَفَعَ رِجْلَهُ فَهُوَ يَنْتَظِرُ مَتَى يَضَعُهَا ، فَإذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا فَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إلاَّ نَاصِحًا أَوْ عَالمًا(١)» . وفى رواية «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعبَّرْ ، فَإذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ ، وَلاَ يَقُصُّهَا إلاَّ عَلَى وَادٍّ أَوْ ذى رَأْى(٢)» .

وجاء فى المسند «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُخْبِرْ بهَا ، فَإذَا أَخْبَرَ بهَا وَقَعَتْ(٣)» . ومعنى قوله ﷺ «عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ» : أنّ الرّؤيا تصير كالشّىء المعلّق على رجل الطّائر فلا يستقرّ لها قرارا حتّى تُعَبَّر ، فإذا عُبِّرت استقرّت ووضحت ولحق حكمها برائيها وهو معنى قوله ﷺ «فَإذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ» . أى على الرّائى .

(٣) من يَعْبُرُ الرُّؤيا ؟

استحبّ رسول الله ﷺ فيمن يَعْبُرُ بالرُّؤيا إلى حقيقتها أن يكون مُتّصفا بكمالات العلم وهدى السُّنّة ، ومُتحليًا بالقيم النّبيلة والأخلاق العالية ومُتمتّعا برجاحة العقل والإخلاص والمحبّة ، فلا تُقَصُّ الرُّؤيا على غير شفيق أو ناصح ولا على من لا يُحسن التّأويل فيها ، وعندما أوّلَ نبىُّ الله يعقوب رؤيا يوسف خاف أن يحتال أخوته فى هلاكه ويحملهم الشّيطان على قصده بالسّوء فقال ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف : ٥] .

وهذه الآية أصل فى أن تُقَصَّ الرّؤيا على من يُحسن تأويلها وتعبيرها ، ذلك لأنّ يعقوب عليه السّلام لمّا أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه نهاه عن قصّ الرّؤيا عليهم خشية أن تَغِلَّ بذلك صدورهم فيُعملوا الحيلة للتّخلّص منه ، وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب بتأويل الرُّؤيا فإنّه علم من تأويلها أنّ يوسف سيظهر عليهم ولم يبال بذلك من نفسه ، فإنّ الرّجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه والأخ لا يودّ ذلك لأخيه .

وفي الآية أيضا ما يدلّ على جواز ترك إظهار النّعمة عند من تُخشى عائنته حسدا وكيدا لقوله ﷺ من حديث معاذ رضي الله عنه «اسْتَعِينُوا عَلَى إنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ فَإنَّ كُلَّ ذِى نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ(٤)» .

ثمّ يأتى فى السُّنّة أيضا ما يُؤكّد على تقوى العابر وخشيته ومن ذلك :

---

(١) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٨٣٤٣] وأورده فى الصّحيحة [١٢٠] وصحيح الجامع [١٦١٢] .

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٢٧٩] وأبو داود [٥٠٢٠] وأحمد [١٦١٢٧] .

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٦١٣٥] .

(٤) أورده فى صحيح الجامع [٩٤٣] وذكره فى الصّحيحة [١٤٥٣] .

* قوله ﷺ عند أبى داود «وَلاَ تَقُصُّهَا إلاَّ عَلَى وَادٍّ أَوْ ذِى رَأْى[1]».
* وقوله ﷺ عند الترمذى «وَلاَ يُحَدِّثْ بهَا إلاَّ لَبِيبًا أَوْ حَبِيبًا[2]».
* وقوله ﷺ عند الحاكم «لاَ تُقَصُّ الرُّؤْيَا إلاَّ عَلَى عَالِمٍ أَوْ نَاصِحٍ[3]».

[قال] ابن العربى: [أمّا العالم فإنّه يُؤوّلها له على الخير مهما أمكنه، وأمّا النّاصح فإنّه يُرشد إلى ما ينفعه ويُعينه عليه، وأمّا اللّبيب وهو العارف بتأويلها فإنّه يُعلمه بما يُعَوَّل عليه فى ذلك أو يسكت، وأمّا الحبيب فإن عرف خيرا قاله وإن جهل أو شكّ سكت[4]].

(٣) ـ من آداب العابر

وظيفة الأنبياء هى تلك التى يقوم بها أولئك الذين اختصّهم الله تعالى بتعبير الرّؤى وتفسير المنامات بعدما أدركوا أنّ لها اتصالا وثيقا بجزء من أجزاء النّبوّة كما فى الصّحيح، واستبان لهم من آيات الله الباهرات أنها أمر مّما اختص به الأنبياء والأولياء، فكانت الرُّؤيا للمؤمنين اختبارا وامتحانا، وكانت للأتقياء رفعة وسموّا، وكانت للسّائرين على النّهج فتحا وتكليفا:

* كانت ابتلاء مبينا لأبى الأنبياء إبراهيم لـمّا قال﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[الصّافات: ١٠٣].
* وما مكّن الله ليوسف فى الأرض إلاّ بما علّمه من تأويل الأحاديث كما فى قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١].
* وكانت نصرة وفتحا لنبيّ الإسلام ﷺ والمسلمين عند فتح مكة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[الفتح: ٢٧].

وكان رسول الله ﷺ بجلالة قدره وعظيم درجته وسموّ منزلته يقول لصحابته كلّما لقيهم بعد صلاة الغداة «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ». وسُؤالهم محمول على أنه ﷺ يعلّمهم تأويلها وفضيلتها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من أعمال الغيب، فكان من أهمّ الآداب الإسلاميّة التى ترسم خطى ونهج [المعبّر] عن الرُّؤى:

(١) أن يكون تفسيره للرُّؤى [بالخير] لما ذكر عن النّبى ﷺ «مَنْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ رُؤْيَا فَلْيَقُلْ لِمَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ خَيْرًا[5]». وكان يقول للرّائى قبل أن يعبرها له [خَيْرًا رَأَيْتَ] ثُمَّ

---
(١) من حديث صحيح أخرجه أبوداود [٥٠٢٠].
(٢) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٢٧٨].
(٣) من حديث صحيح أخرجه الحاكم [٨٣٤٣].
(٤) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٨٦].
(٥) أورده ابن القيّم فى زاد المعاد [ج ٢ ص ٤٥٩].

يَعْبُرْهَا لـه ، ويتأيّد هذا بما رواه أحمد في مسنده عندما حكى عبد الله بن سلاّم لرسول الله ﷺ رُؤياه التّي رأى فقال له «رَأَيْتَ خَيْرًا[(1)]» . وعن ابن سيرين قال [كان أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه إذا أراد أن يَعْبر رؤيا قال : إنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكَ يَكُونُ كَذَا وَكَذَا[(2)]] .

وأخرج الدّارمي بسند حسن عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت «كَانَت امْرَأَةٌ من أهْلِ الْمَدينَة لَهَا زَوْجٌ تَاجِرٌ يَخْتَلفُ - يَعْني في التّجَارَة - فأَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَتْ إنَّ زَوْجِي غَائِبٌ وَتَرَكَنِي حَامِلاً فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنَّ سَارِيَةَ بَيْتي قد انْكَسَرَتْ ، وَأَنّي وَلَدْتُ غُلاَمًا أَعْوَرَ ، فَقَالَ ﷺ خَيْرًا يَرْجِعُ زَوْجُك إنْ شَاءَ اللّهُ صَالحًا ، وَتلدينَ غُلاَمًا بَرًا ، فَجَاءَتْ وَرَسُولُ الله ﷺ غَائبٌ فَسَأَلْتُهَا فَأَخْبَرَتْني بالْمَنَام ، فَقُلْتُ : لَئنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاك لَيَمُوتَنَّ زَوْجُك ، وَتَلدينَ غُلاَمًا فَاجرًا ، فَقَعَدَتْ تَبْكي . فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ «مَهْ يَاعَائشَةُ» ! إذَا عَبَّرْتُمْ لِلْمُسْلِمِ الرُّؤْيَا فَاعْبُرُوهَا على خَيْرٍ ، فَإنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ عَلَى مَا يُعَبِّرُهَا صَاحِبُهَا[(3)]» .

وجاء عن أبي عبيد في حديث النّبي ﷺ «أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْهُ فَقَالَتْ إنِّي رَأَيْتُ في الْمَنَامِ كَأَنَّ جَائزَ بَيْتي انْكَسَرَ فَقَالَ خَيْرٌ . يَرُدُّ اللّهُ غَائبَك . فَرَجعَ زَوْجُهَا ثُمَّ غَابَ ؛ فَرَأَتْ مثْلَ ذَلكَ ؛ فَلَمْ تَجد النَّبيَّ ﷺ وَوَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَأَخْبَرَتْهُ فَقَالَ : يَمُوتُ زَوْجُك ! . فَذَكَرَتْ ذَلكَ للنَّبيِّ ﷺ فَقَالَ هَلْ قَصَصْتهَا عَلَى أَحَدٍ ؟ قَالَتْ نَعَمْ ، قَالَ هُوَ كَمَا قيلَ لَك[(4)]» . و«الْجَائز» هي الخشبة التي يوضع عليها أطراف الخشب .

(٢) للعالم بالتّعبير أن يسكت عن تعبير الرّؤيا أو بعضها عند رجحان الكتمان على الذّكر ، ومحلّه إذا كان في ذلك عموم ، فأمّا لو كانت مخصوصة بواحد مثلا فلا بأس أن يخبره ليعدّ الصّبر ويكون على أهبة الاستعداد من نزول الحادثة .

(٣) أنّ عابر الرُّؤيا قد يصيب وقد يخطيء لقوله ﷺ لأبي بكر عند تعبيره رؤيا الرّجل بحضرته ﷺ «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا[(5)]» . والظّاهر أنّه أراد الإصابة والخطأ في تعبيره لا لكونه التمس التّعبير في وجوده ﷺ ، ومعناه أخطأت في بعض تأويلك ، كما يُأخذ منه أنّ الذي أخطأ فيه لو بيّنه له ﷺ لكان الذي بيّنه له هو التّعبير الصّحيح ولا عبرة بالتّعبير الأوّل .

(٤) أنّ الرّؤيا ليست لأوّل عابر على الإطلاق وإنّما ذلك إذا أصاب وجهها ، أمّا

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٦٨٠] وابن ماجه [٣١٨١] .

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٢ ص ٤٦٠] .

(٣) أخرجه الدّارمي بسند حسن [٢٢٠٩] .

(٤) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث [٢٨١ / ٢] .

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٩] وأبو داود [٤٦٣٢] والتّرمذى [٣٣٩٣] .

قول البخارى فى تبويبه [الرُّؤيا لأوّل عَابِرٍ]. فمعناه : إذا كان العابر الأوّل عالما فعبّر فأصاب وجه التّعبير، وإلاّ فهى لمن أصاب بعده إذ ليس المدار إلاّ على إصابة الصّواب فى تعبير المنام ليتوصّل بذلك إلى مراد الله تعالى فيما ضربه من المثَل، فإذا أصاب الأوّل فلا ينبغى أن يُسأل غيره، وإن لم يُصب فليسأل الثّانى وعليه أن يُخبر بما عنده ويُبين ما جَهِلَ الأوّل والله تعالى أعلم.

وعلى ضوء ذلك فإنّ تعبير الرُّؤى يأتى على قسمين:

(الأوّل) ما تكون الرُّؤيا فيه مُنتسقة مُنتظمة فيسهل الانتقال فيها من الأمور المتخيلّة إلى الحقائق العقلية والرُّوحانيّة.

(الثّانى) ما تكون فيه الرُّؤيا مُختلطة ومُضطربة ومُشوّشة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمّى بالأضغاث.

ومن أمثلة القسم الأوّل ما رواه مسلم عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال «رَأَيتُ ذَاتَ لَيْلَة، فيمَا يَرَى النَّائمُ، كَأَنَّا في دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافعٍ، فَأُتينَا برُطَب منْ رُطَب ابْنِ طَاب، فَأَوَّلْتُ الرِّفْعَةَ لَنَا فِى الدُّنْيَا، وَالْعَاقبَةَ فِى الآخرَةِ وَأَنَّ دينَنَا قَدْ طَابَ[(١)]». ورُطَب ابن طَاب نوع من الرُّطَب معروف وهى مضاف إلى ابن طاب رجل من أهل المدينة،

وتأويل نبيّنا الأكرم ﷺ لرُؤياه فى دار عُقبة دليل على أنّ التّعبير قد يُؤخذ من اشتقاق كلماتها، فإنّه ﷺ أخذ من ـ عُقبة ـ حُسن العاقبة، ومن ـ رافع ـ الرِّفعة ، ومن ـ رطب ابن طاب ـ لذاذة الدّين وحلاوته، ومن ـ استطابة الرُّطب ـ كماله واستقرار أحكامه، وقد قال علماء أهل العَبَارة أنّ لها أربعة طرق:

(أحدها) ما يُشتقّ من الأسماء كما ذُكر فى حديث مسلم.

(وثانيها) ما يعتبر مثاله ويُميّز شكله كدلالة مُعلّم الكتّاب على القاضى.

(وثالثها) ما يعبّره المعنى المقصود من ذلك الشّىء المرئى كدلالة فعل السَّفْر على السَّفَر، وفعل السُّوق على المعيشة، وفعل الدّار على الزّوجة.

(ورابعها) التّعبير بما تقدّم له ذكر فى القرآن والسُّنّة أو كلام العرب وأمثالها، أو خبر معروف، أو كلمةٍ حكمة، وذلك كنحو تعبير الخشب بالمنافق لقول الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. وكتعبير الفأر بفاسق لأنّه ﷺ سمّاه فويسقا، وكتعبير القارورة بالمرأة لقوله ﷺ «رِفْقًا بِالْقَوَارِير». يعنى ضَعفَةَ النّساء.

وتتبّع أمثلة ما ذُكر أمر يطول [(٢)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٧٠].

(٢) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٦ ص ٣٤].

ثمّ يأتى قوله ﷺ «وأُحبُّ الْقَيْدَ وَأَكْرَهُ الْغُلَّ، وَالْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِى الدِّينِ[(1)]». ليجمع بين الأمرين المتناقضين من الرُّؤى للدّلالة على:

(١) استحباب القيد فى الرُّؤيا لكونه فى الرِّجْلَين وهو يُثبِّت الإنسان فى مكانه وكفّه عن المعاصى والشّرور وأنواع الباطل، فإذا رآه من هو على حال ما على رجله كان ذلك دليلا على ثبوته على تلك الحالة، وإذا رآه من هو من أهل الدّين والعلم كان ثباتا على تلك الحال، ولو رأى المريض قيدا فى رجليه لكان ذلك دليلا على دوام مرضه. أمّا إن كان مغلول اليدين دون العنق فهو حسن ودليل لكفّهما عن الشّر.

(٢) إنّما كرِه الغُلُّ فى الرّؤيا لأنّه لا يُجعَلُ إلاّ فى الأعناق نكاية وقهرا، فيسحب على وجهه ويُجرُّ على قفاه كما فى قول الله تعالى﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾[غافر: ٧١]. ومنه قوله تعالى﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[المائدة: ٦٤].

وعلى الجملة فرؤية الغُلّ مذموم شرعا وعادة. ورؤيته فى النّوم دليل على وقوع حالة سيِّئة بالرّائى تلازمه ولا ينفكّ عنها، وقد يكون ذلك فى دينه كواجبات فرّط فيها أو معاصٍ ارتكبها أو ديون لازمة، وقد يكون ذلك فى دنياه من شدائد تصيبه أو أنكاد تلازمه، والمعتبر فى أعظم أصول العبَارة النّظر إلى أحوال الرّائى واختلافها.

٤ ـ متى يعبر عن الرّؤيا ؟

دلّ هدى رسول الله ﷺ على استحباب تعبير الرُّؤيا بعد [صلاة الصّبح] الذى هو أوْلى من غيره من الأوقات لاختيار النّبى ﷺ لهذا التّوقيت كما جاء فى حديث سَمُرَةَ بن جُندب قال «كَانَ النَّبىُّ ﷺ إذا صَلَّى الصُّبحَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بوَجْهه فَقَالَ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا[(2)]». وعن أبى هريرة «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا[(3)]».

ويؤخذ من دلالات الأحاديث:

(١) استحباب السُّؤال عن الرُّؤيا والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أوّل النّهار لصفاء ذهن الرّائى واجتماع باله فى هذا الوقت قبل أن يتشعّب بأشغاله فى معايش الدّنيا، ولأنَّ عهد الرّائى قريب لم يطرأ عليه ما يُهوِّش الرُّؤيا عليه، ولأنّه قد يكون فيها ما يُستحبّ تعجيله كالحثّ على خير أو التّحذير من معصية ونحو ذلك [(4)].

(٢) وقوله «إذَا صَلَّى الصُّبْحَ»: فيه إشارة إلى الرّد على من قال من أهل التّعبير إنّ

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٦٣] وأبو داود [٥٠١٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٧٥] والتّرمذى [٢٢٩٤].

(٣) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٣٢].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٤٠].

المستحبّ أن يكون تعبير الرُّؤيا بعد طلوع الشّمس وقبل المغرب، فإنّ الحديث دالّ على استحباب تعبيرها قبل طلوع الشّمس ولا يخالف قولهم بكراهة تعبيرها فى أوقات كراهة الصّلاة.

(٣) ولمّا كان وقت الغداة من أوقات الطّاعة والذّكر استُحبّ فيه قصص الرُّؤيا وتعبيرها لكونه مرتبطا بالبركة والتّنزُّل ومن ذلك قول الله تعالى﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق:٣٩]. وهل هناك أعظم من وقت الغداة تنزُّلا للبركة وحضوراً للملائكة وقبولا للتّسبيح والحمد والذّكر.

(قال) المهلّب [تعبير الرُّؤيا عند صلاة الصّبح أوْلى من غيره من الأوقات لحفظ صاحبها لها، ولقرب عهده بها، وقبل ما يعرض له نسيانها، ولحضور ذهن العابر وقلّة شغله بالفكرة فيما يتعلّق بمعاشه وليعرف الرّائى ما يعرض له[1]].

(المدخل الرابع عشر)

الغضب من الشّيطان

الغضب قوّة ناريّة تسرى فى الجسد عند الانفعال لأمر معيّن يُسيطر من خلالها الشّيطان على أعصاب الإنسان ويتحكّم فى تصرّفاته. [أو] هو قوّة غضبيّة تأتى نتيجة الاستجابة لانفعالات تتميّز بالميل إلى الاعتداء يلازمها تغيُّرات تبدو على الوجه نتيجة نزغ الشّيطان ودخوله على الإنسان من باب الغضب لقوله ﷺ من حديث أبى سعيد الخدرى «أَلاَ وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِه[2] فَمَنْ أَحَسَّ بِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ[3]».

ويؤيّده ما أخرجه أحمد بلفظ «أَلاَ إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ فِى جَوْفِ ابْنِ آدَمَ، أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَالأَرْضَ الأَرْضَ[4]».

وقوله «الْغَضَبُ جَمْرَةٌ» أى حرارة غريزيّة وحدّةٌ جِبِلِّيَّةٌ مُشعلة جمرة نار مكمونة فى كانون النّفس كما يُوجد مثلها عند حرارة الطّبيعة فى أثر الحمّى، وقوله «فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ»: أى فليلتزق بها حتّى يسكن غضبه. [وإنّما أمره به لما فيه من الضّعة عن الاستعلاء وتذكار أنّ من كان أصله من التّراب لا يستحقّ أن يتكبّر[5]].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٤٦٠].

(٢) الْوَدَجُ عرق فى العُنُق ينتفخ عند الغضب، وهما وَدَجَانِ والجمع: أَوْدَاجٌ.

(٣) أخرجه التّرمذى [٢١٩١] وقال حسن صحيح.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده [١١٠٨٦] وإسناده حسن.

(٥) انظر تحفة الأحوذى [ج ٦ ص ٥١].

وعلّلوا ذلك بأنّ الغضب يحدث عند غليان دم القلب طلبا لدفع المؤذى عنه خشية وقوعه، أو طلبا للانتقام ممّن حصل له منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرّمة كالقتل، والضّرب، وأنواع الظّلم والعدوان، من القذف والسّب والفحش، ويكون لذلك وقع شديد على الإنسان، فيحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه وتتغيّر ملامحه وهو ما جاء التّعبير عنه فى قول الله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. أى أنّ هذا الغضب كان مدخولا عليه حتّى تمكّن منه، فلمّا رجع عنه سكن موسى وذهب الغضب، وأصل السُّكوت فى اللُّغة الصّمت، وسكت عنه الغضب أى فتَرَ أو زالَ.

وأشدّ الغضب ما يكون من نزغات الشّيطان التى تخرج بالإنسان عن اعتدال حاله فيتكلّم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوى الغلّ والحقد وغير ذلك، وهذه كلّها من آثار الغفلة عن ذكر الله والبُعد عن أحكام دينه وشريعته، كما أنّ أكثر ما ينشأ منه الغضب هو هذا الكِبْر لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله كِبْرُهُ على الغضب، اعتزازا بنفسه أو تعصّبا لرأيه، فالذى يتواضع حتّى تذهب عنه عزّة النّفس يسلم من «شرّ الغضب».

والغضب فى اللُّغة [الشّدَّة]. ومنه رجلٌ [غضبانٌ وغَضُوبٌ] أى كثير الغضب، و[غضب عليه غَضَبًا]: سخط عليه فهو غضبٌ، و[الغضوب]: الحيّة الرّقطاء لشدّة خُبثها وعداوتها، وفى القاموس [الغَضَبُ: اَستجابةٌ لانفعالات تتميّز بالميل إلى الاعتداء، وهو من المخلوق ممدوح ومذموم، فالمحمود: ما كان فى جانب الدِّين، والمذموم: ما كان فى خلافه[1]].

ويقف بنا رسولنا الأكرم ﷺ أمام وسائل ثلاث لمجابهة الشّيطان فى الدّخول علينا من باب الغضب:

(أولها) الاستعاذة بالله تعالى

جاء الأمر بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الشّيطان الرّجيم عندما يشتاط بنا الغضب ويتملّك أعصابنا لقوله تعالى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصّلت: ٣٦]. ومن آثار هذا الغضب الخروج عن الاعتدال وهو مقصود الشّيطان ومراده منه لقوله ﷺ عند أحمد «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ[2]».

ويرى النّبى ﷺ الرّجلين يتعاركان ويستبّان وقد انتفخت أوداج أحدهما واحمرّ وجهه فيقول «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، فَقَالُوا لَهُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ! فَقَالَ

(١) انظر المعجم الوجيز [ص ٤٥١] والتّوقيف [ص ٣٩] والتّعريفات للجرجانى [ص ١٤٢].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٧٩٠٨] وأبو داود [٤٧٨٤] عن عطيّة السّعدى.

وَهَلْ بِى جُنُونٌ؟[(١)]». وفى رواية «فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ». كما جاء فى حديث معاذ عند أحمد «حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ أَنْفَهُ لَيَتَمَزَّعُ مِنَ الْغَضَبِ[(٢)]».

وفى الأحاديث إشارة إلى أنّ الغضب إنّما يثير ناره ويشعل لهبه الشّيطان اللّعين لما يترتّب عليه من الأضرار فى الدّين والدّنيا، وإخراجه الإنسان عن اعتداله فيتكلّم بالباطل ويفعل المذموم، فلذا كان دواؤه قطع أسباب مادّته وهو وسواسه بالاستعاذة منه كما فى قول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة «إِذَا غَضِبَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ سَكَنَ غَضَبُهُ[(٣)]».

وأخلق بهذا المأمور أن يكون كافرا أو منافقا أو كان غلب عليه الغضب حتّى أخرجه عن حدّ الاعتدال، بحيث زجر النّاصح الذى دلّه على ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السّيىء!، وقيل [إنّه كان من جُفاة الأعراب وغلاظهم وظنّ أنّه لا يستعيذ بالله من الشّيطان إلاّ من كان به جنون، ولم يعلم أنّ الغضب نوع من شرّ الشّيطان ولهذا يخرج به عن صورته ويزيّن له فساد ماله كتقطيع ثوبه، أو الإقدام على من أغضبه بالأذى ونحو ذلك ممّا يتعاطاه من يخرج عن حدّ الاعتدال[(٤)]].

وقول الرّجل «وَهَلْ بِى جُنُونٌ» يقف بنا أمام مسألتين:

(الأولى) أنّ الغضب يدفع بالإنسان من الوضع السّيىء إلى الأسوأ، فهذا إنسان أحدث فيه الغضب ما أحدث ثمّ استجرّه الغضب لأن يردّ كلام رسول الله ﷺ جهلا منه لأنّه ربط بين الاستعاذة والجنون.

(الثّانية) أنّ الاستعاذة مطلوبة فى أحوال كثيرة منها حالات الغضب لأنّ للشّيطان دوره فى تأجيج نار الغضب من ناحية، ولأنّه بالغضب يستجرّ الشّيطان الإنسان إلى مواقف لا تُحمد عقباها دينا ودنيا.

وعند الغضب تتصارع النّفس الغضبيّة -التى يدفعها الشّيطان- مع النّفس المطمئنة التى تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، والعدوان بالعفو والاحتمال، فتأتى الاستعاذة من الغاضب مددا موصولا بالنّصرة للنّفس المطمئنة، حتّى تقوى على مقاومة نوازع النّفس الغضبيّة، فيتراجع سلطان الشّيطان ومدده فى مواجهة المدد الإيمانى للقلب لأنّه ليس للشّيطان ﴿سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ولـمّا كان الشّيطان على نوعين:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٢] ومسلم [٢٦١٠] وأبو داود [٤٧٨١].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢١٩٨٥] والتّرمذى [٣٤٥٢].

(٣) أورده فى الصّحيحة [١٣٧٦] وصحيح الجامع [٦٩٥].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٤٨٢].

(الأوّل) نوع يُرَى عيانًا وهو شيطان الإنس.

(والثّانى) نوع لا يُرَى وهو شيطان الجنّ.

فقد أمَر سبحانه وتعالى نبيّه الأكرم ﷺ أن يكتفى من شرّ شيطان الإنس بالإعراض عنه والعفو والدّفع بالتى هى أحسن، ومن شيطان الجنّ بالاستعاذة بالله منه، عندما جمع سبحانه بين النّوعين فى قوله ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصّلت: ٣٤ - ٣٦].

(١) فكان العفو والإعراض والدّفع بالإحسان أبلغ فى دفع شياطين الإنس.

(٢) وكانت الاستعاذة أبلغ فى دفع شرّ شياطين الجنّ [(١)].

(والثّانية) مجابهة الغضب بالوضوء

وقد أخبر النّبى ﷺ أنّ للوضوء أثرًا فعالًا فى إطفاء نار الغضب والحيلولة دون تمكّنه من المسلم لقوله ﷺ «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ(٢)». ولمّا كان الغضب جمرة من نار يوقدها الشّيطان فى قلب ابن آدم أُمِرَ أن يطفئها بالوضوء لما فيه من وقاية تمنع قوّة الغضب من السّيطرة على المسلم.

(الثّالثة) تغيير الوضع الذى عليه

لقد صحّ عن النّبى ﷺ أنّه أمر الغضبان بما يسكنه من أقوال وأفعال كالتّعوُّذ والوضوء وتبديل الهيئة التى كان عليها حال الغضب، وجاءت حكمة ذلك فى قوله ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه «أَلاَ إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَفَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ فَلْيَلْزَقْ بِالأَرْضِ(٣)». ويتحقّق ذلك بواحد من ثلاثة:

(١) إمّا أن يسارع إلى الصّلاة والسّجود فإنّ اللّجوء إلى الله تعالى وقت المحن حافظ من التّردّى والخسار كما فى قوله ﷺ «قُمْ يَا بِلاَلُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ(٤)».

(٢) أو أن يُسارع إمّا بالجلوس وإمّا بالاضطجاع لقوله ﷺ «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٢ ص ٤٦٢].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٧٩٠٨] والطّبرانى فى الكبير [٤٤٣].

(٣) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢١٩١] وأحمد [١١٠٨٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٩٨٦] وأحمد [٢٣٠٤٧].

قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ(١)». وقوله ﷺ للرّجل «إذَا غَضِبْتَ فَاجْلِسْ(٢)». (قال) الخطّابى [القائم متهيىء للحركة والبطش والانتقام والقاعد دونه فى ذلك، أمّا المضطجع فهو أبعد منه، فأمره بالتّباعد عنه حالة الانتقام وأمره بالقعود والاضطجاع، لئلاّ يبدو منه فى حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد(٣)].

(٣) كما يُطلب من الغاضب أن يُمسك عن الكلام لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ. قَالَهَا ثَلاَثًا(٤)». لأنّ الغاضب يصدر منه فى حال غضبه من القول ما يندم عليه فى حال زوال غضبه كثيرا من السّباب وغيره ما يعظم ضرره، فإذا سكت زال هذا الشّر كلّه عنه، وقوله «فَلْيَسْكُتْ» فيه الدّلالة على أنّ الغضبان مُكلّف حال غضبه بالسّكوت ويكون حينئذ مؤاخذا إذا تكلّم.

ويتبقّى لنا أن نتعرّف على نوعين من الغضب:

(أولهما) غضب الخالق جلّ وعلا على الكافرين:

ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى أفعاله فى المغضوب عليهم وإرادة العقوبة بهم فهو صفة فعل وإرادة من صفات ذاته العليّة كما فى قوله تعالى﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[آل عمران: ١١٢]. وقوله ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[النّساء: ٩٣]. أو يُقصد به نفس العقوبة ومنه قوله ﷺ فى الحديث «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ(٥)». فهو صفة فعل.

(والثّانى) الغضب من المخلوق وهو نوعان:

(أ) الغضب المحمود

وهو ما كان فى جانب الدّين وتمثّل فيه أمر الله من الشّدة وقد ذكرت الأحاديث بعض المواقف التى غضب فيها رسول الله ﷺ وكان مرجعها إلى أنّ ذلك كلّه كان فى أمر الله تعالى وأظهر الغضب فيها ليكون أوكد فى الزّجر عنها:

* فكان لشدّة حيائه ﷺ لا يواجه أحدا بما يكره بل تعرف الكراهة فى وجهه لما رواه أبو سعيد الخدرى قال «كَانَ النَّبِىُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِى خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٧٨٢] وصحّحه الألبانى فى الجامع [٦٩٤].
(٢) أورده فى صحيح الجامع [٦٩٦] والمشكاة [١٥١٤].
(٣) انظر سُنن أبى داود [ج ٤ ص ٢٦٦].
(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٥٥٦] وأورده البخارى فى الأدب المُفرد [١٣٢٠].
(٥) حديث ضعيف انفرد به التّرمذى [٦٦٤] وقال هذا حديث حسن غريب.

يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِه[1]».

* ولـمّا بلغه قول القائل [إنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ] شقّ عليه ﷺ ذلك وتغيّر وجهه تعبيرا عن الغضب فى الله تعالى، ولم يزد على أن قال «لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ[2]». ودخل بيت عائشة أم المؤمنين فرأى سترا فيه تصاوير فتلوّن وجهه ونزع السّتر وقال «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ[3]».

* وعندما شُكِيَ إليه من الإمام الذى يُطيل بالنّاس صلاته حتّى تأخّر بعضهم عن الصّلاة معه غضب ﷺ واشتدّ غضبه ووعظ النّاس وأمر بالتّخفيف وقال «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ[4]». وعند البخارى «فَلْيَتَجَوَّزْ» وفى رواية «فَلْيُخَفِّفْ».

* ورأى النُّخَامَةَ[5] فى قبلة المسجد فتغيّظ وحكّها بيده وقال «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ حِيَالَ وَجْهِهِ فَلَا يَتَنَخَّمَنَّ حِيَالَ وَجْهِهِ فِي الصَّلَاةِ[6]».

* وما انتقم رسول الله ﷺ ولا غضب لنفسه أبدا إلاّ أن تُنتهك حرمة لله تعالى لحديث عائشة رضى الله عنها «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[7]».

* وتقول «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ[8]». وعن أنس قال «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا؟[9]». وفى رواية «مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا، وَلاَ لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١١٩] ومسلم [٢٣٢٠] وابن ماجه [٣٣٨٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣١٥٠ و ٦٠٥٩] ومسلم [١٠٦٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١٠٩] ومسلم [٢١٠٧] وأبوداود [٤١٥٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٤] ومسلم [٤٦٦].

(٥) النُّخَامَةُ: الْبَلْغَمُ يخرجه الإنسان من حلقه.

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١١١] ومسلم [٥٤٧].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٢٧] وافقه البخارى [٦١٢٦] وأبو داود [٤٧٨٥].

(٨) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٩/٢٣٢٨].

(٩) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٧٦٨] ومسلم [٢٣٠٩].

كما تأتى مشروعيّة الملاطفة والمؤانسة بعد الغضب من نبيّنا ﷺ عندما جاءه أسيد ابن حضير ومعه عبّاد بن بشر فى أمر مخالفة اليهود واعتزالهم النّساء فى المحيض فقالا «يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، أَفَلاَ نَنْكِحُهُنَّ فِي الْمَحِيضِ؟ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَتْهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا فَظَنَنَّا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا(1)».

وقوله «فَتَمَعَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ»: أى «تغيّر» كما فى رواية مسلم وفى رواية النّسائى «فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَمَعُّرًا شَدِيدًا». وأصل التّمعّر: قلّة النّضارة وعدم إشراق اللّون ومنه المكان الأمعر وهو الجدب الذى ليس فيه خصب، وكأنّ تقوّل اليهود عندما عابوا مخالفة النّبى ﷺ لهم فى مؤاكلة الحائض ومشاربتها قد دفع بالصّحابيين الجليلين إلى المطالبة بالمخالفة التّامة لهم بأكثر من ذلك.

والذى تصوّراه أن تصل هذه المخالفة إلى حدّ المجامعة فى المحيض فى قولهما «أَفَلاَ نَنْكِحُهُنَّ فِي الْمَحِيضِ؟» ولهذا تغيّر وجه رسول الله ﷺ لمخالفة قولهما نصّ القرآن وما فيه من بيان حتّى غضب عليهما غضبا شديدا لقول الرّاوى «حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا»، ولأنّه لم يكن يتوقّع أن يسمع مثل هذا الكلام ممّن تحقق فى الدّين علمه وثبت فى المروءة قدمه كأسَيْد وعبّاد رضى الله عنهما.

فلمّا جاءت هديّة اللّبن مواجهة ومقابلة لهما حال خروجهما من عنده ﷺ أرسل وراءهما يردّهما، فلمّا رجعا إلى النّبى ﷺ سقاهما من هدية اللّبن تطييبا لخاطرهما وتخفيفا لما وجدا من أثر غضبه ﷺ منهما، وفى الحديث الدّلالة على مشروعية الغضب على من ارتكب ما لا يليق، وعلى أنّه لا ينبغى استمرار غضب المسلم، لكن محلّه إذا لم يكن هناك مقتضى للاستمرار.

(٢) الغضب المذموم

فرق بين أن يتجنّب المرء أسباب الغضب وأن يتجنّب الغضب نفسه، فنفس الغضب لا يتأتّى النّهى عنه لأنّه أمر فطرى لا يزول من جبلّة الإنسان فلا يدخل فى نهى لكون ذلك من تكليف المحال، أمّا ما كان من أسباب الغضب ومبرّراته فهو الأمر المراد تجنّبه لأنّ النّبى ﷺ جعل الذى يملك نفسه عند الغضب أعظم النّاس قوّة، ومن ذلك قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ(2)».

والصُّرَعَةُ»: ـ بضمّ الصّاد وفتح الرّاء ـ الذى يصرع النّاس كثيرا بقوّته والتّاء للمبالغة فى الصّفة، و[بسكون الرّاء] عكسه أى من يصرعه غيره كثيرا، وكلّ ما جاء بهذا الوزن

(1) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٠٢].

(2) حديث صحيح أخرجه أحمد [٧٢١٨] والبخارى [٦١١٤] ومسلم [٢٦٠٩].

فهو كذلك كهُمَزة ولُمَزة، والمقصود أنّ المستحق لهذا الاسم هو الذى يملك نفسه فيصرعها عمّا تدعوه إليه من هواها.

* وما روى عن أنس «أَنَّ النَّبىَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يَصْطَرِعُونَ فَقَالَ مَا هَذَا ؟ قَالُوا فُلاَنٌ مَا يُصَارِعُ أَحَدًا إِلاَّ صَرَعَهُ، قَالَ أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ ؟ رَجُلٌ كَلَّمَهُ رَجُلٌ فَكَظَمَ غَيْظَهُ فَغَلَبَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَ صَاحِبِه(١)».

* وعن أبى هريرة أنّ رجلاً قال للنّبى ﷺ أوصنى فقال ﷺ «لاَ تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لاَ تَغْضَبْ(٢)». وقوله «فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا». أى ردّد السّؤال يلتمس أنفع من ذلك، أو أبلغ أو أعمّ، فلم يزده عن ذلك. (قال) ابن حبّان بعد أن أخرج هذا الحديث [لا تعمل بعد الغضب شيئا ممّا نُهيت عنه لا أنّه نهاه عن شىء جُبِلَ عليه ولا حيلة فى دفعه(٣)].

ولقد جمع رسول الله ﷺ فى قوله «لاَ تَغْضَبْ» خيرى الدّنيا والآخرة ولأنّ الغضب يؤول إلى التّقاطع ومنع الرّفق، وربّما آلَ إلى أن يؤذى المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدّين، ولمّا سأل الرّجل النّبى ﷺ عمّا يحترز به عن القبائح، نهاه عن الغضب الذى هو أعظم ضررا من غيره فى السّلوك، وأنّه إذا ملك نفسه عند حصوله استطاع قهر أقوى أعدائه، ويُحتمل أن يكون قوله ﷺ للرّجل «لاَ تَغْضَبْ» من باب التّنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنّ أعدى عدوّ للشّخص شيطانه ونفسه، والغضب إنّما ينشأ عنهما فمن جاهدهما حتّى يغلبهما مع ما فى ذلك من شدّة المعالجة كان لقهر نفسه عن الشّهوة أقوى وأغلب[(٤)].

تأثير الغضب على الإنسان

خلق الله الغضب من النّار وجعله غريزة فى الإنسان وجزءًا من جبلّته، فمهما قصد أو نُوزع فى غرض كانت المتغيّرات الظّاهرة التى تطرأ عليه ثلاث:

(١) إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه اشتعلت نار الغضب وثارت حتّى يحمرّ الوجه والعينان من الدّم لأنّ البشرة تحكى لون ما وراءها.

(٢) وإن كان ممّن فوقه تولّد منه انقباض الدّم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفرّ اللّون حُزنا وأسى.

---

(١) أورده الحافظ فى الفتح [ج ١٠ ص ٥٣٥] وقال رواه البزّار بسند حسن.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٨٧٢٩] والبخارى [٦١١٦] والتّرمذى [٢٠٢٠].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٥٣٧ ـ بتصرّف].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٥٣٦].

(٣) وإن كان على النّظير تردّد الدّم بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفرّ ، ويترتّب من أثر الغضب تغيّر الظّاهر والباطن كتغيّر اللّون والرّعدة فى الأطراف .

وهذه الثّلاثة يجمعها خروج الأفعال على غير ترتيب واستحالة الخلقة حتّى لو رأى الغضبان نفسه فى حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، هذا كلّه فى الظّاهر أمّا الباطن فقبحه أشدّ من الظّاهر للمؤثّرات التّالية :

أوّلا ـ لأنّه يولّد الحقد فى القلب والحسد وإضمار السّوء على اختلاف أنواعه ، بل أوّل شىء يُقَبّحُ منه باطنه ، وتغيّر ظاهره ثمرة تغيّر باطنه ، ولهذا كلّه أثره السّلبى على الجسد .

ثانيا ـ أمّا أثره فى اللّسان فانطلاقه بالشّتم والفحش الذى يستحى منه العاقل ويندم قائله عند ذهاب الغضب عنه .

ومن تأمّل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللّطيفة من قوله ﷺ « لاتَغْضَبْ » من الحكمة واستجلاب المصلحة مع درء المفسدة ممّا يتعذّر معه إحصاؤه والوقوف على نهايته ، وهذا كلّه فى الغضب الدّنيوى لا الغضب الدّينى ، وقوله ﷺ لمن استوصاه « لاَ تَغْضَبْ » يحتمل أمرين :

(أحدهما) أن يكون مراده الأمر بالأسباب التى توجب حسن الخلق من الكرم والسّخاء ، والحلم ، والحياء ، والتّواضع ، والاحتمال ، وكفّ الأذى ، والصّفح ، والعفو ، وكظم الغيظ ، والبشر ، ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة ، فإنّ النّفس إذا تخلّقت بهذه الأخلاق وصارت لها عادة أوجب له ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه .

(والثّانى) أن يكون المراد لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به ، فإنّ الغضب إذا ملك شيئا من بنى آدم كان الآمر له والنّاهي ، ولهذا المعنى قال الله تعالى ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٤] . وكان ﷺ يأمر من اعتراه الغَضَبُ بتعاطى الأسباب التى تدفع عنه الغضب وتسكّنه ويمدح من مَلَك نفسه عند الغضب [(١)] .

ويبيّن قوله تعالى ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ . أنّ الغيظ أصل الغضب وكثيرا ما يتلازمان لكن فارق ما بينهما أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنّه يُخرج الإنسان عن اعتداله فيتكلّم بالباطل ويفعل المذموم .

والكظم فى [القاموس(٢)] : الإمساك على ما مرّ فى النّفس على صفح وغيظ ، وكظم الغيظ تجرّعه واحتمال سببه وصبره عليه ، يقال « كَظَمَ غَيْظَهُ » أى سكت عليه ولم يُظهره

(١) انظر جامع العلوم والحكم [ص ٢٣٧] .

(٢) انظر التّوقيف للمناوى [ص ٦٠٤] .

مع قدرته على إيقاعه بعدوّه. و[الْكَاظِمُ]: الممسك على ما فى نفسه عند الغضب من كَظَمَ السِّقَاءَ كَظْمًا، أى ملأه وسدّ فاه، و[الْكِظَامَةُ]: ما يُسَدُّ به مجرى الماء، وعلى غَيْظه: أمسك على ما فى نفسه منه صفحا أو مغيظا فهو كاظم ومنه قولهم «رجل كَظِيمٌ ومَكْظُومٌ» إذا كان ممتلئا غَمًّا وحُزْنًا، وفى التّنزيل الحكيم ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]. وجاء فى البلاغ القرآنى عن نبىّ الله يونس قوله ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ويأتى الهدى النّبوى ليؤكّد المباهاة والتّعظيم لمن كظم غيظه وتجرّعه واحتمل سببه وصبر عليه بقوله ﷺ «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ، دَعَاهُ اللّٰهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِى أَىِّ الْحُورِ شَاءَ[(١)]». وهو كناية عن إدخاله الجنّة المنيعة وإيصاله الدّرجة الرّفيعة، وهذا الثّناء الجميل والجزاء الجزيل إذا ترتّب على مجرّد كظم الغيظ فكيف إذا انضمّ العفو إليه أو زاد ذلك بالإحسان عليه!

وأورد البخارى فى الأدب المُفرد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللّٰهِ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّٰهِ[(٢)]». أى تجرّعها واحتمل سببها فصبر عليها وعفى وسامح وقد قال تعالى ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

ومن [معانى] الْعَفْوِ فى اللُّغة: الإِسْقَاطُ، ومنه قول الله تعالى ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والْعَفْوُ التّجاوز وترك العقاب، والاسْتِعْفَاءُ طلب العفو، وأعفاه من كذا: برّأه منه وأسقط عنه فلم يطالبه به، وفى الاصطلاح هو الصَّفْحُ وإسقاط اللَّوْم والذّنب.

والفرق بين العفو والذُّل أنّ العفو إسقاط حقّك جودا وكرما مع قدرتك على الانتقام فتؤثر التّرك رغبة فى الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذّل فإنّ صاحبه يترك الانتقام عجزا وخوفا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعلّ المنتقم بالحقّ أحسن حالا منه كما فى قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشّورى: ٣٩].

والله تعالى عَفُوٌّ يحبّ من يعفو عن عباده، ورحيم يحبّ من يرحمهم، وغفور يحبّ من يغفر لهم، وهو سبحانه يجازى عبده بحسب هذه الصّفات فيه وجودا وعدما، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن عامل خلقه بصفة عامله سبحانه بتلك الصّفة فى الدّنيا والآخرة. فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه كما فى قوله ﷺ «إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ

(١) حديث حسن صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٢١] وأبو داود [٤٧٧٧] وابن ماجه [٣٣٩٤].

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المُفرد [١٣١٨].

يُرْحَمْ[1]». وهو ما يفسّره قوله ﷺ عن ابن عمر «فَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ وَكُنْ كَيْفَ شِئْتَ، فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَى يَكُونُ لَكَ كَمَا تَكُونُ أَنْتَ لَهُ وَلِعِبَادِهِ[2]». والقرآن الكريم ذاخر بالإشارات الإيمانية التي تؤكّد أنّ العفو من شيم الأخلاق النّبيلة والصّفات القويمة ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التغابن: ١٤].

وفي قوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]. قال ابن الزّبير «مَا أَنْزَلَ اللّهُ [هَذِهِ الآيَةَ] إِلاَّ فِي أَخْلاَقِ النَّاسِ[3]». كما أنّه ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية:

(١) فأشارت أوّل ما أشارت إلى العفو عند المقدرة لما روى عن جابر رضي الله عنه «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾. سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عَنْهَا، فَقَالَ لاَ أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ إِنَّ اللّهَ تَعَالَى يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ[4]». ويدخل في قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: ترك التّشدّد في كلّ ما يتعلّق بالحقوق التي تُستوفي من النّاس وتُؤخذ منهم، والتّخلّق معهم بالخُلُق السّمح الحسن، وترك الغلظة والفظاظة، والدّعوة إلى الدّين الحقّ بالرّفق واللّين واللّطف.

(٢) وأمرت بالمعروف المستحسن من الأفعال فإنّ ذلك أقرب إلى قبول النّاس من غير نكير بقوله ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

(٣) وأن لا تكافيء السّفهاء الجاهلين بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم وأغضّ بما يسوءك منهم لقوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

والآية في مُجملها تأمر المسلم بتحرّي حُسْن المعاشرة مع النّاس وتوخّي بذل المجهود في الإحسان إليهم والمداراة منهم والإغضاء عن مساويهم [[5]]. وذكر الطّبري عن قتادة «في قوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾. قال أَخْلاَقٌ أَمَرَ اللّهُ بِهَا نَبِيَّهُ ﷺ وَدَلَّهُ عَلَيْهَا[6]». وللقرطبي في تفسير هذه الآية ثلاث مسائل [[7]]:

(الأولى) أنّ هذه الآية الكريمة من ثلاث كلمات تضمّنت قواعد الشّريعة فيما يتعلّق

---

(١) أخرجه البخاري [٧٣٧٦] ومسلم [٢٣١٨] والتّرمذي [١٩٢٢].

(٢) رواه ابن عدّي مرفوعا وعبد الرّزّاق عن أبي قلابة.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٦٤٣].

(٤) رواه الطّبري مُرسلا [٩ / ١٥٥٥٩] وابن مردويه موصُولا عن جابر.

(٥) انظر تفسير الطّبري [٩/١٤٧].

(٦) انظر تفسير الطبري [١٥٥٦٣].

(٧) انظر تفسير القرطبي [٧/ ٣٤٤].

بالمأمورات والمنهيّات، فقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرّفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المتّقين المطيعين.

ودخل في قوله ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾: صلة الأرحام وتقوى الله في الحلال والحرام وغضّ الأبصار والاستعداد لدار القرار، وفي قوله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. الحضّ على التّعلّق بالعلم والإعراض عن أهل الظّلم والتّنزّه عن منازعة السّفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرّشيدة].

ويبيّن رسول الله ﷺ أنّ من يعفو عن أخيه لم يزده بذلك إلاّ عزّا ورفعة كما في قوله من حديث أبي هريرة «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ[1]». (قال) النّووي وفيه وجهان:

(١) أنّه على ظاهره وأنّ من عُرِفَ بالعفو والصّفح سادَ وعَظُمَ في القلوب وزاد عزّة وكرامة ورفعة.

(٢) أنّ المراد أجره في الآخرة وعزّه هناك [[2]].

وقول النّبي ﷺ «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ[3]». فيه الحثّ على فضل المعروف وما تيسّر منه وإن قلّ حتّى طلاقة الوجه عند اللّقاء.

(الثّانية) قول الله تعالى ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾. أي بالمعروف، والعرف والمعروف والعارفة كلّ خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النّفوس. [أو] كلّ فعل حسن عكسه منكر كما في قول الله تعالى ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

ويروي حذيفة قول نبيّه ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ[4]».

وقوله ﷺ من حديث جابر «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ[5]».

ويبيّن القرآن الكريم أنّ المعروف هو السّمة الدّائمة والأخلاق الملازمة للمؤمنين في حياتهم:

(١) فقال في الوصية ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨٨].

(٢) انظر نووي مسلم [ج ٨ ص ٣٨٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٢٦].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣١٩٤] والتّرمذي وحسّنه [٢١٦٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [١٩٧٠].

(٢) وقال فى عشرة النّساء ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النّساء: ٢٥].

(٣) وجعل عماد الأسرة المسلمة ورعايتها قائمين على الأمر بالمعروف:

* فقال للأزواج ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النّساء: ١٩].

* وقال للزّوجات ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب: ٣٢].

(٤) والدّعوة إلى الله تعالى لا تكون إلاّ بالمعروف ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١٠٤].

(٥) وعلاقة المسلم بالآخرين فيه لا تقوم إلاّ على المعروف ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٣]. وقال ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[النّساء: ١١٤].

(الثّالثة) قوله تعالى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾: أى إذا أقمت عليهم الحجّة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة لك منهم ورفعا لقدرك عن مجاوبتهم، وهذا وإن كان خطابا لنبيّه ﷺ فهو تأديب لجميع خلقه.

(المدخل الخامس عشر)

المسلم بين العُطاس والتّثاؤب

العُطَاسُ والتَّثَاؤُبُ أمران متناقضان حسّا وتعريفا، فالأوّل يحبّه الله تعالى ويحمده العاطس عليه، والثّاني يكرهه لكونه من الشّيطان فيُستعاذ بالله منه كما فى قول النّبى ﷺ « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللهَ كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ[١] ».

ويشير الحديث إلى مسألتين:

(الأولى) أنّ معنى المحبّة والكراهة فيهما ينصرف إلى [سببهما] وذلك أنّ العُطَاسُ الذى يسبّبه اندفاع الهواء من الأنف بقوّة مصحوبا بصوت مسموع من [عَطَسَ الرَّجُلُ عَطْسًا وعُطَاسًا] فهو عَاطِسٌ. وينشأ من خفّة البدن وانفتاح المسام وعدم الغاية فى الشّبع، وذلك بخلاف التّثاؤب فإنّه يكون من علّة امتلاء البدن وثقله وهو الأمر النّاشىء عن كثرة الطّعام والتّخليط فيه، فالأوّل يستدعى النّشاط للعبادة ويأتى الثّانى على نقيضه وعكسه.

(الثّانية) وكما أنّ فى كظم التّثاؤب وردّه مغيظة للشّيطان وكيد له، فإنّ حمد العاطس لربّه تعالى وتشميته من سامعه يُسيىء إلى الشّيطان كذلك ويبهته ويذلّه. (قال)

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٦] ومسلم [٢٩٩٤].

ابن القيّم [تتحقّق إغاظة الشّيطان بحمد الله تعالى على نعمة العُطَاس وما حصل له به من المحابّ، فإذا ذكر العبد ربّه تعالى وحمده ساء ذلك الشّيطان وغاظه من عدّة وجوه منها[(١)]:

(١) حدوث العُطَاس الذى يحبّه الله تعالى وحمده عليه.

(٢) دعاء المسلمين للعاطس بالرّحمة ودعاؤه لهم بالهداية وإصلاح البال.

وذلك كلّه غائظ للشّيطان ومُحزن له، فتشميت المؤمن يغيظ عدوّه ويُحزنه ويزيد كآبته، فسُمّى الدّعاء له بالرّحمة تشميتا له، وبذلك تتحقّق محبّة الله تعالى للعاطس، كما تتحقّق منفعة نعمة العُطَاس فى البدن والقلب معا كما جاء به الخبر من الرّسول الكريم ﷺ.

والحديث عن ذلك يأتى بالتّفصيل التّالى:

(أ) تشميت العاطس

العُطَاسُ حالة تَلُمٌّ بالمرء عند خروج الأبخرة المحتقنة فى الدّماغ الذى تجتمع فيه قوّة الفكر، ويكون منه منشأ الأعصاب التى هى معدن الحسّ وبسلامته تسلم الأعضاء، ولو لم يدفع هذا الأذى وبقيت فيه هذه الأبخرة لأحدثت له أدواء عسرة وأضرارا خطيرة. فشُرع للعاطس حمد الله على هذه النّعمة مع بقاء أعضائه على التئامها وهيئتها لقوله ﷺ «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، وَيَقُولُ هُوَ يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ[(٢)]». وكما جاء قوله ﷺ «خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ [مِنْهَا]: وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ[(٣)]».

(قال) أبوعبيد وغيره [وكلّ داع لأحد بخير فهو مُشَمِّتٌ له ومُسَمِّتٌ[(٤)]]:

(١) إذا قيل [سَمَّتَهُ] بالمهملة: كان دعاء له بحسن الهيئة وبعوده إلى حالته من السُّكون والدَّعة، فإنّ العُطَاس يُحدث فى الأعضاء حركة وانزعاجا.

(٢) وإن قيل [شَمَّتَهُ] بالمعجمة: فكأنّه دعا له أن لا يكون فى حال من يشمت به، إذ أنّه إذا حمد [الله تعالى] أدخل على الشّيطان ما يسُوؤُه ويُزعجه فَشَمَتَ هو بالشّيطان، ومن الشّماتة الْفَرَحُ بِبَلِيَّةِ العدوّ، وهو هنا الشّيطان [(٥)].

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٢ ص ٤٣٩].

(٢) أخرجه أبو داود [٥٠٣٣] والبخارى [٦٢٣٤] وزاد «فَإِذَا قَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللهُ فَلْيَقُلْ:...».

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٤٠] ومسلم [٢١٦٢] وأبو داود [٥٠٣٠].

(٤) انظر غريب الحديث [ج ١ ص ٤٠٣] ومقاييس اللّغة [ج ٣ ص ٢١١].

(٥) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦١٧]

وفي مختار الصّحاح [تشْميتُ الْعَاطسِ الدُّعَاءُ لَهُ، وكلُّ دَاعٍ بخير فهو مُشَمِّتٌ ومُسَمِّتٌ بالسِّين[1]]. فتَسْميتُ العاطس أن يقول له يَرْحَمُكَ اللهُ بالسِّين والشِّين معًا، لما رُوِي أنّ النّبي ﷺ لَمَّا أَدْخَلَ فَاطِمَةَ عَلَى عَلِيٍّ ـ عليهما السّلام ـ قَالَ لَهُمَا: لاَ تُحْدِثَا شَيْئًا حَتّى آتِيَكُمَا، فَأَتَاهُمَا فَدَعَا لَهُمَا وَشَمَّتَ عَلَيْهِمَا ثُمَّ خَرَجَ[2]». ودلالة الحديث أنّ كلّ داعٍ بخير فهو مشمّت له، ولذلك قال العلماء أنّ من مُحَصِّلات التّشميت وفوائده:

* تأديب العاطس بكسر النّفس عن الكِبْر الذى يَلُمُّ به وحمله على التّواضع والذّل والانكسار لجلال الله تعالى لما فى ذكر الحمد من التّذكير بالنّعم، ولما فى ذكر الرّحمة من الإشعار بالذّنب المحقّق للتّوبة والإنابة إلى الخالق جلّ وعلا.

* تحقيق المودّة والتّعاطُف بين المسلمين والتّأليف بين قلوبهم بقول المسلم لأخيه «يَرْحَمُكَ اللهُ».

وإذا كان للمُتثائب أن يردّ ما استطاع من تثاؤبه إغاظة للشّيطان ودحراً لكيده فإنّ العاطس يرتبط فى هذه الحالة بأقوال وأفعال:

فمن الأقــوال:

(أوّلا) حمد الله تعالى على دفع الأذى بالعُطَاس وعلى أنّ ذلك نعمة جليلة، فناسب أن تُقابل بالحمد كما في قول النّبى ﷺ «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لله، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللهُ فَلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ[3]». وظاهر الحديث يقتضى وجوبه لثبوت الأمر الصّريح به، إلاّ أنّ النّووى نقل الاتّفاق على استحبابه.

أمّا لفظه فاشتهر عن الأكثر أنّه لا يزيد على قوله: [الْحَمْدُ لله] كما فى حديث أبى هريرة «فَلْيَقُلْ الْحَمْدُ لله». وعن طائفة يقول «الْحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ». وأصله عند التّرمذى من حديث أبى مالك الأشعرى رفعه «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ الْحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ[4]». (قال) فى الفتح [ونقل ابن بُطّال عن الطّبرانى أنّ العاطس مُخيّر بين أن يقول «الْحَمْدُ لله» أو يزيد «رَبِّ الْعَالَمِينَ» أو «عَلَى كُلِّ حَالٍ». والذى يُستفاد من الأدلّة أنّ كلّ ذلك مُجزِىء لكن ما كان أكثر ثناء أفضل بشرط أن يكون مأثورا[5]].

واستُدلّ بأمر العاطس [بحمد الله تعالى] أنّه يشرع حتّى للمُصَلّى وبذلك قال الجمهور

---

(١) انظر مختار الصّحاح [ص ١٤٥] وتهذيب اللّغة [١١ / ٣٢٩].
(٢) أورده أبو عبيد فى غريب الحديث [ج ١ ص ٤٠٤] والفائق [٢ / ٢٦١].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٤] والحاكم [٧٨٥٦].
(٤) حديث صحيح لغيره أخرجه أبو داود [٥٠٣٣] والتّرمذى [٢٧٤١] وأحمد [٩٧٣].
(٥) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦١٦].

من الصّحابة والأئمّة بعدهم، وبه قال الأئمّة الثّلاثة مالك والشّافعي وأحمد، ونقل التّرمذى عن بعض التّابعين أنّ ذلك يشرع فى النّافلة لا فى الفريضة ويحمد مع ذلك فى نفسه وبذلك جزم ابن العربى [(١)].

وللعاطس آداب نجملها فيما يلى :

* أن يخفض بالعُطاس صوته لأنّ فى رفع الصّوت بالعطاس ازعاج للأعضاء وأن يغطّى وجهه لئلاّ يبدو من فمه أو أنفه ما يُؤذى جليسه لحديث أبى هريرة قال «كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ إِذَا عَطَسَ، وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ(٢)». وقوله «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ كَفَّيْهِ عَلَى وَجْهِهِ وَلْيَخْفِضْ صَوْتَهُ(٣)».

* كما لا يلوى عنقه يمينا ولا شمالا لئلاّ يتضرّر من ذلك، ولا يُبالغ فى إخراج العطسة، كما يُستحبّ للعاطس أن يرفع صوته بالحمد عقب عُطاسه بلا فاصل.

(ثانيا) يقابل الحمد من العاطس كما فى النّصوص الصّحيحة الصّريحة تشميت الجالس أو السّامع ولا يكون إلاّ بقوله «يَرْحَمُكَ اللّهُ» لقوله ﷺ «وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللّهُ». وفيه قال ابن دقيق العيد: يُحتمل أن يكون دعاء بالرّحمة أو أن يكون إخبارا على طريق البشارة كما فى قوله ﷺ «طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللّهُ» أى هى طهر لك، فكأنّ المشمّت يُبشّر العاطس بحصول الرّحمة له فى المستقبل بسبب حصولها له فى الحال لكونها دفعت ما يضرّه، كما أنّ ظاهر الحديث يُبيّن أنّ السُّنّة فى ذلك لا تؤدّى إلاّ بالمخاطبة بقوله «يَرْحَمُكَ اللّهُ».

وتتأكّد [مشروعيّة] التّشميت بقول النّبى ﷺ «فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ(٤)». وفى رواية «وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللّهَ فَسَمِّتْهُ(٥)». (قال) فى الفتح: [ظاهر الأمر فيها الوجوب وبه قال جمهور أهل الظّاهر، وقال ابن أبى جمرة إنّه فرض عين، وقوّاه ابن القيّم فقال: جاء بلفظ «الوجوب الصّريح» وبلفظ الحقّ الدّال عليه وبلفظ «على» الظّاهرة فيه، وبصيغة الأمر التى هى حقيقة منه، وذهب آخرون إلى القول بأنّه «فرض كفاية» إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وبه قال الحنفيّة وجمهور الحنابلة، وذهب جماعة من المالكية إلى أنّه [مستحبّ] ويُجزىء فيه الواحد عن الجماعة وهو قول الشّافعية(٦)].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦٢٤].

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود [٥٠٢٩] والتّرمذى [٢٧٤٥] والحاكم [٧٨٤٧].

(٣) أورده فى صحيح الجامع [٦٨٥] والمشكاة [٤٧٣٨] من حديث أبى هريرة.

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٣] والتّرمذى [٢٧٤٨] وأحمد [١٩٥٨٤].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٤٠] ومسلم [٢١٦٢] وأبو داود [٥٠٣٠].

(٦) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦١٩].

(ثالثا) لا يكون [الرَدُّ] على التَّشْميت وهو قوله «يَرْحَمُكَ اللَّهُ» إلاّ بعبارة من اثنتين:

(١) قوله «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ». كما في قوله ﷺ «فَإِذَا قَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ(١)». ومُقتضاه أنّه لا يشرع ذلك إلاّ لمن شَمَّتَ وأنّ هذا اللّفظ هو جواب التّشميت وهو ما ذهب إليه الجمهور.

(٢) قوله «يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ» كما في حديث سالم بن عبيد عند التّرمذى «وَلْيَقُلْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَنا وَلَكُمْ». (قال) الحليمى [أنواع البلاء والآفات كلّها مُؤاخذات، وإنّما المؤاخذة عن ذنب، فإذا حصل الذّنب مغفورا وأدركت العبد الرّحمة لم تقع المؤاخذة، فإذا قيل للعاطس «يَرْحَمُكَ اللَّهُ» فمعناه جَعَل اللَّهُ تعالى لك ذلك لتدوم السّلامة، وفيه إشارة إلى تنبيه العاطس على طلب الرّحمة من الله والتّوبة من الذّنب، ومن ثمّ شُرِع له الجواب بقوله «يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ»(٢)].

وبالثّانى قال الكوفيُّون وأخرجه الطّبرى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما، وذهب مالك والشّافعى إلى أنّه مُخيّر بين اللّفظين وقيل يجمع بينهما. (قالوا) وأصحّ ما ورد فى جواب المشمّت هو حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى «فَلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحْ بَالَكُمْ». فإنّه قال بعد تخريجه: وهذا أثبت ما يُروى فى هذا الباب]. وقوله ﷺ «فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتْهُ». استُدلَّ به على استحباب مبادرة العاطس بالتّحميد، ونُقل عن بعض العلماء أنّه يجب على المشمّت أن يتأنّى فى حقّه حتّى يسكُن ولا يعاجله بالتّشميت، وقد خُصَّ من عموم الأمر بتشميت العاطس:

(١) من لم يحمد الله تعالى فلا يُشَمَّتْ لورود الأمر بذلك فيما أخرجه مسلم عن أبى موسى من قوله ﷺ «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلاَ تُشَمِّتُوهُ(٣)». ويؤيّده ما فى الصّحيحين عن أنس قال «عَطَسَ عِنْدَ النَّبِىِّ ﷺ رَجُلاَنِ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ، فَقَالَ الَّذِى لَمْ يُشَمِّتْهُ عَطَسَ فُلاَنٌ فَشَمَّتَّهُ وَعَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمِّتْنِى؟ فَقَالَ هَذَا حَمِدَ اللَّهَ وَأَنْتَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ(٤)». (قال) النّووى [وفيها الأمر بالتّشميت إذا حمد العاطس، وتصريح بالنّهى عن تشميته إذا لم يحمده، وإنّما أُمر العاطس بالحمد لما حصل له من المنفعة بخروج ما اختنق فى دماغه من الأبخرة الضّارة(٥)].

(٢) والكافر لا يُشَمَّتْ لما أخرجه أبو داود وصحّحه الحاكم من حديث أبى موسى قال

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٤] وأحمد [٩٧٢].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦٢٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٢] وأحمد [١٩٥٨٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٥] ومسلم [٢٩٩١] والتّرمذى [٢٧٤٣].

(٥) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٣٤٩].

«كانت الْيَهُودُ يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجَاءَ أَنْ يَقُولَ: يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ، فَكَانَ يَقُولُ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ(١)». وفيه الدّلالة على أنّهم يدخلون في مُطلق الأمر بالتّشميت بوجه مخصوص وهو الدُّعاء لهم بالهداية، ولا مانع من ذلك بخلاف تشميت المسلمين فإنّهم أهل الدّعاء بالرّحمة بخلاف الكفار.

(٣) وكذلك [المزكوم] إذا تكرّر منه العُطَاس فزاد على الثّلاث فإنّ ظاهر الأمر بالتّشميت يشمل من عطس واحدة فأكثر لحديث سلمة بن الأكوع «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، ثُمَّ عَطَسَ أُخْرَى فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلُ مَزْكُومٌ(٢)». فإذا تكرّر العُطاس متتابعا فالسُّنَّة أن يشمّته لكلّ مرّة إلى أن يبلغ ثلاث مرّات، إلاّ أن يعرف أنّه مزكوم فيدعو له بالشّفاء، وتقريره أنّ العموم يقتضي التّكرار إلاّ في موضع العلّة وهو الزّكام، وعند هذا يسقط الأمر بالتّشميت عندالعلم بالزّكام لأنّ التّعليل به يقتضي أن لا يُشَمَّتَ من عُلِمَ أنّ به زُكاما أصلا.

(٤) ويُستثنى كذلك من عطس والإمام يخطب لتعارض الأمر بالتّشميت مع الأمر بالإنصات إلى الخطيب، والرّاجح في ذلك الإنصات لإمكان تدارك التّشميت بعد فراغ الخطيب ولا سيّما إن قيل بتحريم الكلام والإمام يخطب، أمّا لو كان العاطس الخطيب فحمد واستمرّ في خطبته فالحكم كذلك.

(٥) كما يمكن أن يُستثنى من كان عند عُطَاسه في حالة يُمتنع عليه فيها ذكر الله تعالى كما إذا كان على الخلاء، أو في صلاة الجماعة فيؤخّر ثمّ يحمد الله فيُشمَّت[(٣)].

ولقد اختلف النّاس في مسألتين:

(إحداهما) أنّ العاطس إذا حمد الله فسمعه بعض الحاضرين دون بعض يُسنّ لمن لم يسمعه تشميته، والأظهر أنّه يُشمّته إذا تحقّق أنّه حمد الله، وليس المقصود سماع المشمّت للحمد، وإنّما المقصود نفس حمده فمتى تحقّق ترتّب عليه التّشميت.

(والثّانية) إذا ترك الحمد فهل يستحبّ لمن حضره أن يذكّره بالحمد؟ فذهبوا في ذلك إلى قولين:

(١) أنّه لا يذكّره لأنّ النّبي ﷺ لم يُشمِّت الذى عطس ولم يحمد الله ولم يُذَكّره، وهذا تعزير له وحرمان لبركة الدّعاء لمّا حرم نفسه بركة الحمد فنسي الله، فصرف قلوب المؤمنين وألسنتهم عن تشميته والدّعاء له وهو قول ابن العربي [(٤)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٣٨] والتّرمذى [٢٧٣٩]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٣] وأبو داود [٥٠٣٧] والتّرمذى [٢٧٤٣]. (٣) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٦٢٢]. (٤) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٢ ص ٤٤٢].

(٢) أن يُذكّره ويكون ذلك من باب النّصيحة والأمر بالمعروف والتّعاون على البرّ والتّعريف بالسُّنَّة والإعانة على تحقيقها وهو المرويّ عن النّخعي والنّووي.

(٢) التّثاؤب من الشّيطان

التّثاؤب من الأفعال المكروهة التي نسبها الشّرع إلى الشّيطان لكونه وسيلة من وسائله التي تُؤدّي إلى التّكاسل والخمول لقول النّبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ[١]».

والتّثاؤب في تعريف اللُّغة من تَثَاءَبَ الشّخْصُ يتثاءَبُ تثاؤُبًا: فتح فمه وأطبقه بحركة لا إراديّة من هجوم كسل أو نوم، أمّا إضافة التّثاؤب إلى الشّيطان فإنّها تأتي بمعنى إضافة الرّضا والإرادة، أي أنّ الشّيطان يحبّ أن يرى الإنسان مُتثائبًا لكونها حالة تتغيّر فيها هيئته وصورته فيضحك اللّعين منه، وليس المراد أنّ التّثاؤب من فعل الشّيطان.

ومن أسباب كراهة التّثاؤب حصوله من علّة امتلاء البطن وثقل البدن الذي ينشأ عنه التّكاسل عن أداء الطّاعات والشّهوة التي يدعو إليها الشّيطان، وجاء التّثاؤب عند التّرمذي [بالواو]، وكذا في أكثر نسخ مسلم بلفظة [التّثاوب]. وورد عند البخاري وأبي داود بالهمز [تثاؤب]. وقد أنكر الجوهري كونه بالواو وقال [تقول تثاءبت على وزن تفاعلت ولا تقل تثاوبت، قال: والتّثاؤب أيضا مهموز، وقال ابن دريد: أصله من ثُئِبَ فهو مثئوب إذا استرخى وكسل، وقال غير واحد: إنّهما لغتان وبالهمز والمدّ أشهر[٢]].

وتثاؤب المسلم مرتبط بأمرين:

(الأوّل) أنّ بعض الرّوايات قيّدت كراهة التّثاؤب بحالة الصّلاة كما جاء في الحديث الذي أخرجه التّرمذي عن أبي هريرة «التَّثَاؤُبُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ[٣]». وفي لفظ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ[٤]». ولمّا كان للشّيطان غرض قوي في التّشويش على المصلّي في صلاته فإنّ كراهة ذلك في الصّلاة تكون أشدّ ويتّصل بذلك:

(١) يُطلب من المتثائب أن يأخذ في أسباب ردّ التّثاؤب وليس المراد أن يملك دفعه، لأنّ الذي وقع لا يُردّ حقيقة فيكون معنى «إِذَا تَثَاءَبَ» أي إذا أراد أن يتثاءب وهو معنى قوله ﷺ «فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ». ثمّ يأتي قوله «فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ» من [كظَمَ يَكْظِمُ كَظْمًا]

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٢٢٦] والتّرمذي [٢٧٤٧] وأحمد [١١٨٢٨].
(٢) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص ٦٢٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٢٨٩] ومسلم [٢٩٩٤].
(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٥] وأبو داود [٥٠٢٦].

فهو كَاظِمٌ من الإمساك والحبس، ومعناه كظم التّثاؤب وردّه بوضع اليد على الفم لئلاّ يبلغ الشّيطان مُراده من تشويه صورته ودخوله فمه وضحكه منه.

(٢) الأمر بوضع اليد على الفم ويتناول ما إذا انفتح بالتّثاؤب فيُغطى بالكفّ ونحوه وما إذا كان منطبقا حفظا له عن الانفتاح بسبب ذلك، وإنّما يتعيّن اليد إذا لم يرتدّ التّثاؤب بدونها، ولا فرق فى هذا بين المُصلّى وغيره لقوله ﷺ عند مسلم «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِه عَلَى فِيهِ[١]». وأخرج أحمد بسند صحيح عن أبى سعيد أنّ رسول الله ﷺ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلاَةِ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مَعَ التَّثَاؤُب[٢]».

(٣) وممّا يُؤمر به المتثائب إذا كان فى الصّلاة أن يمسك عن القراءة حتّى يذهب عنه لئلاّ يتغيّر نَظْمَ قراءته وجاء ذلك عن مجاهد وعكرمة.

(٤) أمّا قوله ﷺ فى رواية مسلم «فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ» فقد بيّن معناه ما جاء عند أحمد فى المسند من قوله ﷺ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِى فِيه[٣]». والمتثاءب إذا كان فى تلك الحالة غير ذاكر لله تعالى تمكّن منه الشّيطان وبلغ مراده من تشويه هيئته وصورته وتملّكه بالغفلة والكسل لغرضه القوى فى إفساده عليه صلاته.

(الثّانى) أنّ كون التّثاؤب من الشّيطان فإنّ ذلك يؤيّد كراهته مطلقا فى الصّلاة وفى غير الصّلاة. [قال] ابن العربى [ينبغى كظم التّثاؤب فى كلّ حالة وإنّما خصّ الصّلاة لأنّها أوْلى الأحوال بدفعه لما فيه من الخروج عن اعتدال الهيئة واعوجاج الخلقة].

وتكمن حكمة ردّ التثاؤب فيما يلى:

(١) أنّ من أسباب كراهة التّثاؤب كونه من الشّيطان لأنّه الدّاعى إلى إعطاء النّفس شهوتها، وأراد به التّحذير من سببه وهو امتلاء البدن وثقله والتّخليط عليه فينشأ عنه التّكاسل الذى يفتح به الشّيطان طريقا إلى التّهاون فى أمور الدّين.

(٢) عدم تمكين الشّيطان من الضّحك عليه والتّمكُّن منه لما رواه ابن ماجه عن أبى هريرة بلفظ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ وَلاَ يَعْوِى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْهُ[٤]». وفيه شبّه التّثاؤب الذى يُسْتَرْسَلُ معه بعُواء الحيوان تنفيرا منه واستقباحا لفعله، فإنّ الحيوان يرفع رأسه ويفتح فاه ويعوى، والمتثائب إذا أفرط فى التّثاؤب شابهه،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧ / ٢٩٩٥]. (٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١٢٦٢]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١٢٠١]. (٤) أورده الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [١٨٤].

ومن هنا تظهر الحكمة في كونه أنّه يضحك منه لأنّه صَيَّرَهُ ملعبة له بتشويه خلقه في تلك الحالة [(١)].

ومن الخصائص النّبويّة الكريمة في هذه المسألة ما أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في التّاريخ عن يزيد بن الأصمّ قال «مَا تَثَاءَبَ النَّبيُّ ﷺ قَطُّ». وأخرج الخطّابي من طريق مسلمة بن عبدالملك قال «مَا تَثَاءَبَ نَبيٌّ قَطُّ». ويؤيّد ذلك ما ثبت أنّ التّثاؤب من الشّيطان، وأنّه ﷺ «كَانَ لاَ يَتَمَطَّى لأَنَّهُ منَ الشَّيْطَان» والله تعالى أعلم [(٢)]. والتّمطّي في قوله تعالى﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾. له معنيان الأول: التّثاقل عن الدّاعي إلى الحقّ وقلّة الاكتراث، والثّاني: التّكسّل والتّمدّد كأنّه يمدّ ظهره ويلويه من التّبختر.

(المدخل السّادس عشر)

الشّيطان سفور وتبرّج

تؤكّد أقوال النّبي ﷺ أنّ فتنة الأمّة تكمن في تبرّج نسائها، وأنّ سلامها وأمنها يتمثّلان في التزام المرأة بمبادىء الدّين الحنيف وقيمه الخالدة لقوله ﷺ عن أسامة بن زيد «مَا تَركْتُ بَعْدي فِتْنَةً هيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَال منَ النِّسَاء(٣)». وفيه الإفادة بأنّ الافتتان بهنّ أشدّ منه بغيرهنّ ويشهد له قول الله تعالى﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[آل عمران: ١٤]. فجعلهن من عين الشّهوات وبدأ بهنّ قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنّهن الأصل في ذلك.

ثمّ قرن رسول الله ﷺ بين فتنة الدّنيا وفتنة النّساء فقال «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضرَةٌ، وَإنَّ اللهَ مُسْتَخْلفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ(٤)». وفيه التّحذير من الميل إلى زهرة الدّنيا وحلاوتها وخضرتها، وقوله «وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»: أي احذروهن أن يحملكم الافتتان بهنّ على ترك ما طُلب منكم من التّكاليف أو أن يخدعنكم بكيدهن، فتتقاعسوا عن القيام بأداء حقوق العبوديّة والتّقرّب إلى مراضي الله جلّ وعلا، فإنّه بمقدار محبّة المرء لهنّ والرّكون إلى فتنتهنّ يكون البعد عن طاعة المولى سبحانه وتعالى.

ومنذ الأزل والشّيطان يدرك أنّ المرأة أُلعوبة سهلة في يده وأنّها المتقدّمة لصفوف جنده، وأنّها سهمه الذي يرمي به الأفئدة فلا يُخطىء القتلة، وهو باحتياله ونصب أحباله يُشعل بالمرأة المتبرّجة حربا شعواء على الفضيلة، فيقوّض أركانها ويجتثّها من جذورها، إنّها بفتنتها وجمالها وعُريها تُعتبر السّلاح الأقوى الذي يُحقّق به الشّيطان

(١) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص ٦٢٨]. (٢) انظر فتح الباري [ج١٠ ص ٦٢٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٠٩٦] ومسلم [٢٧٤٠] والتّرمذي [٢٧٨٠]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٤٢] والتّرمذي [٢١٩٢] وابن ماجه [٣٢٤٨].

غواياته، ويُمعن به فى فتنه وضلالاته، عندما يجعل من جسدها العارى أنوثة طاغية متلوّنة تُلهب الرّغبات الكامنة فى النّفوس الضّعيفة، ومن لباسها وسيلة سهلة لإظهار عوراتها ومفاتنها المكشوفة، ومن زينتها وعطرها النّفّاذ عاملا من عوامل الإغراء التى تُحرّك العواطف الفاسدة وتُثير الشّهوات المكبوتة لدى المراهقين.

إنّ قصّة آدم وحوّاء عليهما السّلام مع إبليس تكشف لنا مدى حرص عدوّ الله على كشف السّوءات، وهتك الأعراض، وإشاعة الفاحشة، وأنّ هذا هو هدفه الأسمى وغايته الكبرى، فجاء التّحذير متلوًّا فى كتاب الله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إنّ المرأة التى نقصدها هنا هى تلك التى مسخها الشّيطان بضلاله وهواه، وجعل منها أُضحوكة للعاقل المتحسّر، وفتنة متّقدة للنّاظر المسترسل، إنّها السّهلة التى لا تردّ يدَ لامس، والمتبلّدة الحسّ التى لا تعبأ بترشيد هادٍ أو ناصح، والضّعيفة المقهورة التى استشعرت هوانها بعدما وقعت فى شراك الشّيطان هدفا سافرا مقصودا يسعى إليه، ورغبة متجسّدة فى عيون السُّفهاء يبحثون عنها كما فى قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ[١]». وزاد ابن خُزيمة فى روايته «وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنَ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا».

(قال) الطّيبى [المعنى المتبادر أنّها ما دامت فى خِدْرِهَا لم يطمع الشّيطان فيها ولا فى إغواء النّاس بها، فإذا خرجت طمع وأطمع لأنّها من حبائله ومن أعظم فخاخه[٢]]. ومعنى قوله ﷺ «إِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»: أى زيّنها فى نظر الرّجال ليُغويَها ويُغوى بها، والأصل فى الاستشراف رفع البصر للنّظر إلى الشّىء وبسط الكفّ فوق الحاجب، والمعنى: أنّ المرأة يُستقبح ظهورها فإذا خرجت أمعن النّظر إليها ليُغويها بغيرها، ويُغوى غيرها بها ليوقعهما أو أحدهما فى شرّ الفتنة وغوايتها [[٣]].

وليس أسهل من أن يستشرف الشّيطانُ امرأة فيتقمّصها ويملك عليها عقلها وقلبها، ويمدّها بكلّ أسلحة الفسق والفجور لتنوب عنه فى تنفيذ خطط الإفساد والمجون تلك التى استشرت فى مجتمعات النّاس، ويؤيّد ذلك ما ورد عن ابن مسعود قال «إِنَّمَا النِّسَاءُ عَوْرَةٌ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا وَمَا بِهَا بَأْسٌ، فَيَسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ إِنَّكِ لاَ تَمُرِّينَ بِأَحَدٍ إِلاَّ أَعْجَبْتِه، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَلْبَسُ ثِيَابَهَا فَيُقَالُ أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ فَتَقُولُ أَعُودُ مَرِيضاً، أَوْ أَشْهَدُ

(١) حديث حسن صحيح أخرجه التّرمذى [١١٧٣] وابن خُزيمة [١٦٨٥] والمشكاة [٣١٠٩].

(٢) انظر فيض القدير [ج ٦ ص ٢٦٦].

(٣) انظر تحفة الأحوذى [ج ٤ ص ٣٦].

جَنَازَةً ، أَوْ أُصَلّي فِي مَسْجِدٍ ، وَمَا عَبَدَت امْرَأَةٌ رَبَّهَا مِثْلَ أَنْ تَعْبُدَهُ فِي بَيْتِهَا[1] » .

وقول الله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] . يبيّن أنّ الحياء من التّعرّي وانكشاف السّوءة شيء مركوز في طبع الإنسان ، كما يؤكّد أهميّة هذه المسألة وتأثيرها وعمقها في الفطرة البشرية ، فاللّباس زينة للإنسان وستر لعورته الجسدية ، كما أنّ التّقوى لباس وستر لعوراته النّفسيّة ، ومن هنا حرص الشّيطان اللّعين في صراعه الطّويل مع الإنسان على كشف السّوءات وهتك الأستار وإشاعة الفاحشة من خلال أمرين خطيرين :

(أولهما) السّفور الكاشف

السّفور من سَفَرَ الأَمْرُ سُفُوراً ، أي وضح وانكشف ، يقال : سَفَرَت الرِّيحُ الْغَيْمَ عن وجه السّماء سَفَراً فانسفر ، أي فرّقته فتفرّق ، وسُمّي السَّفَرُ سَفَراً لأنّه يُسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيُظهر ما كان خافيا منها . و«أَسْفَرَ» الصُّبْحُ : أضاء من قول الله تعالى ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر : ٣٤] . وقول النبي ﷺ في الحديث «أَسْفِرُوا بِالْفَجْرِ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلأَجْرِ[2]» : أي إذا انكشف الصّبح وأضاء .

وإذا ألقت المرأة نقَابَهَا قيل سَفَرَتْ فَهِيَ سَافِرٌ بغير «هاء» . [قال] أبو منصور [وسفرت المرأة وجهها إذا كشفت النّقَابَ عن وجهها ، من تَسْفُرُ سُفُوراً فهي سَافِرَةٌ] ، وبهذا يُعرف أنّ السُّفُورَ لغة : هو كَشْفُ الْوَجْه ، وقد خرج السُّفُورُ اليوم عن معناه في أصل اللّغة وتحوّل إلى التّبرّج الفاحش والاختلاط المزري بالأجانب [[3]] .

(والثّاني) التّبرّج الفاضح

التّبرّج لغة مصدر تبرّج . يقال «تَبَرَّجَت الْمَرْأَةُ» : إذا أبرزت محاسنها ، وفي الحديث «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ عَشْرَ خِصَالٍ مِنْهَا : التَّبَرُّجُ بِالزِّينَةِ لِغَيْرِ مَحَلِّهَا[4] » . (قال] الإمام السّيوطي [والتّبرج بالزّينة أي إظهارها للنّاس الأجانب وهو المذموم ، فأمّا الزّوج فلا ، وهو معنى قوله «لِغَيْرِ مَحَلِّهَا»[5]] .

وأصل التّبرّج التّكشّف والظّهور للعين ومنه بروج مشيّدة وبروج السّماء والأسوار ؛ أي لا حائل دونها يسترها . [وحقيقته إظهار ما ستره أحسن ، وتعريفه إبداء المرأة زينتها وإظهار

---

(١) رواه الطّبراني في الكبير وقال الهيثمي في مجمع الزّوائد [٢ / ٣٥] : رجاله ثقات .

(٢) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٢٤] والنّسائي [٥٤٧] والتّرمذي [١٥٤] .

(٣) انظر لسان العرب [٦ / ٣٣-٣٧] .

(٤) رواه النّسائي بسند ضعيف [٥١٠٣] وأبو داود [٤٢٢٢] .

(٥) انظر سُنن النّسائي [ج ٤ ص ٤٨٧ - هامش] .

وجهها ومحاسن جيدها للرّجال، وكلّ ما تستدعى به شهوتهم حتّى التّكسُّر والتّبختُر فى مشيتها ما لم يكن ذلك للزّوج[(١)] . وقيل [هو كلّ زينة أو تجمُّل تقصد المرأة بإظهاره أن تحلو فى أعين الأجانب، حتّى القناع الذى تستتر به إن انتخب من الألوان البارقة والشّكل الجذّاب لكى تلذّ به أعين النّاظرين فهو من مظاهر تبرّج الجاهليّة أيضا[(٢)] . ويتضمّن النّهى عن هذا كلّه ما جاء فى قوله تعالى﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ .

ووُصمت لفظة [التّبرُّج] بالفعل الفاضح لكونها رذيلة ماديّة مُخلّة بالشّرف والحياء، وتكشف عن تلك العورة التى تفضح ما أمر الله تعالى بحفظه وستره عن أعين النّاس، وإذا كات عورة المرأة بدنها كلّه إلاّ وجهها وكفيّها، فإنّ الكشف عمّا دون ذلك من بدنها وزيتها يُعتبر هتكا لستر ما بينها وبين ربّها تعالى، فكلّ انحراف عن القيم الخُلُقية التى جاء بها القرآن لا يترتّب عليه إلاّ الخزى والذّل والهوان من قوله تعالى﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ . ومن الفضيحة كشف المرأة عورتها وإظهار زينتها وتعرية جسدها وهوان قيم الدّين عليها فى عالم الضّياع والافتتان .

والتّحذير من التّبرُّج محكوم فى القرآن بآيتين كريمتين :

(الآية الأولى)

هى قوله تعالى﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الأحزاب :٣٣] . ويستفاد منها :

(١) أنّ معنى قوله ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ : أى كُنَّ أهل وقار وهدوء وسكينة، يقال وَقَرَ فلان فى منزله يقرّ وقورا إذا هدأ فيه واطمأنّ به، وفيه الدّلالة على لزوم المرأة المسلمة بيتها وهو مقرّ عملها الطّبيعى فلا تخرج منه إلاّ لحاجة ماسّة، إذ البيت هو محل تربية أولادها وخدمة زوجها وعبادة ربّها بالصّلاة والزّكاة وذكر الله وما والاه [(٣)] .

(قال) القرطبى [معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النّبى ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخصّ جميع النّساء، كيف والشّريعة طافحة بلزوم النّساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلاّ لضرورة، فأَمَرَ الله تعالى نساء النّبى ﷺ بملازمة بيوتهن وخاطبهن بذلك تشريفا لهنّ ونَهَاهُنَّ عن التّبرُّج وأعلم أنّه فعل الجاهلية الأولى(٤)] .

---

(١) انظر لسان العرب [٣ / ٣٣] والقاموس المحيط [١ / ١٨٧] .

(٢) انظر كتاب الحجاب لأبى الأعلى المودودى [ص ١٣٢] .

(٣) انظر عودة الحجاب لمحمّد المقدّم [ج ٣ ص ٢٥٩] .

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ١٤ ص ١٧٩] .

(٢) ويقصد بقوله تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ . ما يقع في الإسلام من التّشبّه بأهل الجاهليّة بقول أو فعل فيكون المعنى : [ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكنّ تبرّجا مثل تبرّج أهل الجاهليّة التى كنتنّ عليها ، وكان عليها مَنْ قَبْلَكُنَّ أى : لا تُحْدِثْنَ بأفعالكنّ وأقوالكنّ جاهليّة تُشَابهُ الجاهلية التى كانت من قبل[١]] . وفيها الدّلالة على تحريم التّبرّج وهو خروج المرأة المسلمة من بيتها كاشفة عن وجهها ومُظهرة لمحاسنها غير خَجلة ولا مُحتشمة حييّة [[٢]] . ولقد تبرّأ رسول الله ﷺ من كلّ من يدعو بدعوى الجاهليّة فقال «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ[٣]» .

ودعوى الجاهليّة لصيقة بتبرّج الجاهليّة وكلاهما [مُنْتنٌ خَبيثٌ] أبغضه الله تعالى وحرّمه علينا رسول الله ﷺ وقد قال في الأولى «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ[٤]» . وعند مسلم «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ[٥]» . فوجب أن نقولَ فى الثّانية [دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ مُنْتِنَةٌ] بل ضَعُوهَا حيث وضعها رسولُ الله ﷺ لـمّا قال «أَلاَ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَي مَوْضُوعٌ[٦]» . فلا يجوز لأىّ مسلمة بحال أن تَرْفَعَ ما وضعه رسولُ الله ﷺ أو تُعظّمَ مَا حقّرهُ من أمر الجاهليّة سواء فى ذلك ربَا الجاهليّة ، أو تبرّج الجاهليّة ، أو دَعْوَى الجاهليّة ، أو حُكْمَ الجاهليّة ، أو ظَنَّ الجاهليّة ، أو حَمِيَّةَ الجاهليّة ، أو سُنَّةَ الجاهليّة [[٧]] .

(أما الآيـــة الثّانية)

فهى قول الله تعالى ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النّور : ٦٠] . وهى تؤكّد على الآداب التى تصير عليها الْعُجّزُ من النّساء اللّواتى قد يئسن من الإنجاب فى الْكِبَرِ فلاَ يَحضْنَ ولا يلدن ﴿ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ . وقد يئسن من البعولة ، فلا يطمعن فى الأزواج ، فليس عليهن حرج ولا إثم فى ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ . وهو الجلباب الذى يكون فوق الدّرع والخمار وهو قول ابن

(١) انظر فتح القدير [ج ٤ ص ٢٧٨] .

(٢) انظر عودة الحجاب [ج ٣ ص ٢٥٩] .

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٥١٩] ومسلم [١٠٣] .

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٥١٨] ومسلم [٢٥٨٤] .

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٤ / ٢٥٨٤] .

(٦) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٩٠٥] وابن ماجه [٢٥١٢] .

(٧) انظر عودة الحجاب [ج ٣ ص ١٣٨] .

مسعود وابن جبير وغيرهما، ولا حرج عليهنّ أن يضعن ذلك عند المحارم من الرّجال وغير المحارم من الغرباء غير متبرّجات بزينة [(١)].

(قال) القرطبي [إنّما خصّ القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهنّ إذ لا مذهب للرّجال فيهن، فأُبيح لهن ما لم يبح لغيرهن، وأزيل عنهنّ كلفة التّحفظ المتعب لهن، وفي تفسير قول الله تعالى ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾: أي غير مُظهرات ولا مُتعرّضات بالزّينة لينظر إليهن، فإنّ ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحقّ(٢)].

وقيل لعائشة «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَقُولِينَ فِي الْخِضَابِ وَالصِّبَاغِ وَالتَّمَائِمِ وَالْقُرْطَيْنِ وَالْخَلْخَالِ وَخَاتَمِ الذَّهَبِ وَرِقَاقِ الثِّيَابِ؟ فَقَالَتْ: يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ قِصَّتُكُنَّ قِصَّةُ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَحَلَّ اللهُ لَكُنَّ الزِّينَةَ، غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ لِمَنْ لاَ يَحِلُّ لَكُنَّ، أَنْ يَرَوْا مِنْكُنَّ مُحَرَّمًا(٣)». (قال) عطاء [هذا في بيوتهنّ فإذا خرجن فلا يحلّ لهنّ وضع الجلباب].

ولقد اعتبر القرآن الكريم أنّ السّفور والتّبرّج من أخطر الأوبئة التي تشيع الفاحشة في مجتمع المؤمنين وتهدّد أمن الأسر وتقوّض القيم وتفسد الأخلاق، وأنّ افتتان المرأة المسلمة بما يُزيّنه الشّيطان من فُحش وعُري إنّما ينذر الأمّة بالخطر العظيم وهو ما حذّر الخالق منه بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّور: ١٩].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ ذلك من خُطُوات الشّيطان ومن دسائسه ومؤامراته في قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النّور: ٢١]. ثمّ يشير سبحانه إلى خطورة تحوّل المرأة إلى فتنة مُحرِقة وشهوة مرغوبة في قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فقدّم سبحانه النّساء في الآية لعراقتهنّ في هذا الجانب وسهولة سيطرة الشّيطان عليهنّ إلاّ من عصم الله تعالى منهنّ، ولأنّ أكثر الرّجال إنّما دخل عليهم الخلل من قبل هذه الشّهوة، ولقد كان الإشفاق من وبال ذلك الدّاء أشدّ ما خامر قلب رسول الله ﷺ وفي سبيله نصح للأمّة ورشّد أبناءها نحو الطّريق الأصوب الذي يصون كرامتها ويضمن عزّتها ويحقّق رفعتها من خلال توجيهين كريمين:

(١) انظر المصدر السّابق [ج ٣ ص ٢٩٣].

(٢) انظر تفسير القرطبي [ج ١٢ ص ٣٠٩].

(٣) رواه ابن أبي حاتم - كذا في تفسير القرآن العظيم [٦ / ٩١].

(الأوّل) عندما حضّ نساء الأمّة كما أمر الله تعالى على التّستُّر والعفّة والتّحلّي بالوقار وخلق الحياء، وبيّن لهنّ أنّ الحجاب طاعة لله تعالى وإيمان وطهارة، كما في قول الله سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٩].

وقول الله تعالى ﴿مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾: جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار، وقيل إنّه القناع تلويه المرأة فوق الجبين وتشدّه ثمّ تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنّه يستر الصّدر ومعظم الوجه. [ومنه] النّقاب: ما تنتقب به المرأة ويكون على ما لان من الأنف وجمعه نُقُبٌ. [قال] انتقبت المرأة وتنقّبت: إذا غطّت وجهها بالنّقاب، والنّقاب على وجوه:

(قال) الفرّاء [إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينيها فتلك «الْوَصْوَصَةُ» فإن أنزلته إلى ما أحاط بالعين فهو «النِّقَابُ» فإن كان على طرف الأنف فهو «اللُّغَامُ». و(قال) أبو زيد: النِّقَابُ على مارن الأنف أى على ما لان منه[1]].

(الثّاني) يبيّن أنّ التّبرُّج والسّفور كبيرة من الكبائر مُهْلِكَةٌ، ومعصية لله ورسوله قَاصِمَةٌ، وأنّه صفة من صفات أهل النّار وفاحشة وتهتّك وفضيحة وجاهليّة، وأنّه يجلب اللّعن والمقت والطّرد من رحمة الله تعالى.

ولذلك جاء التّحذير من هذة الفتنة التى أَوْدَتْ بالأمّة وقضت على أخلاقها وقيمها:

* عندما جعل رسول الله ﷺ تبرّج المرأة في ميزان العمل كالزّنى والقتل والسّرقة والشّرك، وبيّن أنّه في منزلة كلّ ما ذُكر عندما جاءته امرأة لتبايعه على الإسلام فقال «أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكِي بِاللهِ، وَلاَ تَسْرِقِي، وَلاَ تَزْنِي، وَلاَ تَقْتُلِي وَلَدَكِ، وَلاَ تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ يَدَيْكِ وَرِجْلَيْكِ، وَلاَ تَنُوحِي، وَلاَ تَتَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى[2]».

* وعندما أخبر ﷺ عن الخطر الكامن وراء العُرى الفاضح فقال «سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ[3]». أخبر كذلك عن أهل النّار من الكاسيات العاريات المميلات اللّواتي عصين الله وخالفن شرعه فقال «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا[4]».

---

(١) انظر الإفصاح في فقه اللّغة [١ / ٣٧٤ و ٣٧٥] والنّظم المستعذب [١ / ٧١].

(٢) أخرجه أحمد [٦٨٥٠] وقال العلاّمة أحمد شاكر [إسناده صحيح].

(٣) أخرجه الطّبراني في المعجم الصّغير [ص ٢٣٢] وصحّحه الألباني في الحجاب [ص ٥٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٢٨].

و«الْبُخْتُ» : جنس من الإبل معروف بطيء الجرى وهى ضخمة الأجسام والأسنمة مائلة إلى القصر لها سنامان، شبّه رء وسهنّ بها لـمّا رفع من ضفائر شعورهنّ على أوساط رء وسهنّ وهو أمر مشاهد معلوم والنّاظر إليهنّ محاسب من ربّه تعالى ملوم.

ويقف بنا الحديث أمام المسائل التّالية :

(١) تعدّدت أقوال العلماء في معنى قوله «كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ». فنقل السّيوطى عن ابن عبد البرّ [أراد ﷺ النّساء اللّواتى يلبسن من الثّياب الشّىء الخفيف الذى يصف ولا يستر، فهنّ كاسيات بالاسم عاريات فى الحقيقة[1]]. وقال النّووى :[معنى كاسيات أى من نعمة الله تعالى، عاريات من شكرها].

وقيل [تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارا لجمالها وتلبس ثوبا رقيقا يصف لون بدنها وهو المختار]. والحقّ الذى يقال : إنّهنّ كاسيات من الثّياب، عاريات من لباس التّقوى الذى قال الله تعالى فيه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦]. ونُقل عن ابن العربى [إنّما جعلهنّ كاسيات لأنّ الثّياب عليهن، وإنّما وصفهن بأنّهن عاريات لأنّ الثّوب إذا رَقّ فإنّه يصفهنّ ويُبدى محاسنهن وذلك حرام].

(٢) أمّا قوله «مُميلاَتٌ مَائلاَتٌ» : أى مائلات عن طاعة الله تعالى وما يلزمهن حفظه من أمور الدّين، ومُميلات : أىَ يعلّمن غيرهن فعلهن المذموم، وقيل يمشين متبخترات مُميلات لأكتافهن يمتشطن المشطة الميلاء وهى مشطة البغايا [[2]].

(٣) ومن معنى قوله ﷺ «مُمِيلاَتٌ مَائلاَتٌ» : ما رواه التّرمذى عن ميمونة بنت سعد أنّ رسول الله ﷺ قال «مَثَلُ الرَّافِلَةِ فِى الزِّينَةِ فِى غَيْرِ أَهْلِهَا كَمَثَلِ ظُلْمَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ نُورَ لَهَا[3]». والرَّافِلَةُ كما فى النّهاية :[هى التى تَرْفُلُ فى ثوبها أى تتبختر من : رَفَلَ رَفْلاً وَرُفُولاً وَرَفَلاَنًا : جَرَّ ذَيْلَهُ وتبختر فى سَيْرِه، فهو : رَافِلٌ وهى : رَافِلَةٌ. (قال) الدّيلمى [يريد المتبرّجة بالزّينة لغير زوجها[4]]. (وفى) الفردوس [والرَّفْلُ التّمايل فى المشى مع جرّ الذّيل، يريد أنّها تأتى يوم القيامة سوداء مظلمة كأنّها متجسّدة من ظلمة[5]].

وعن حديث الرّافلة (قال) ابن العربى [ذكره التّرمذى وضعّفه ولكن المعنى صحيح، فإنّ اللّذة فى المعصية عذاب والرّاحة نَصَب، والشّبع جوع، والبركة محق، والنّور ظلمة،

(١) انظر نيل الأوطار[٢ / ١٣١].

(٢) انظر المجموع شرح المهذّب [٤ / ٣٠٧].

(٣) أورده التّرمذى فى جامعه [١١٦٧] وذكره الألبانى فى الضّعيفة [١٨٠٠].

(٤) انظر تحفة الأحوذى [ج ٤ ص ٣٢٩].

(٥) نقله المناوى فى الفيض [٥ / ٥٠٧].

والطّيب نتن، وعكسه الطّاعات: فخُلُوفُ فم الصّائم أطيب عند الله من ريح المسك، ودم الشّهيد اللّون لون دم والعَرْفُ عَرْفُ مسك[1]].

* ويخبر رسول الله ﷺ أنّ المتبرّجة عندما تخرج من بيتها، تكون كالجرثومة الخبيثة الضّارة التى تنشر الفاحشة فى المجتمع، وتلحق بغيرها أفدح الضّرر لقوله ﷺ من حديث أبى موسى عند التّرمذى «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِىَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ[2]».

وجاء عند أبى داود بلفظ «إِذَا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ فَمَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا، فَهِىَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ قَوْلاً شَدِيدًا[3]». وفى الأحاديث الدّلالة على أنّ كلّ عين نظرت إلى أجنبيّة عن شهوة فهى زانية، وكذلك من «اسْتَعْطَرَتْ» ثمّ مرّت بمجالس الرّجال لأنّها هيّجت شهوتهم بعطرها وحملتهم على النّظر إليها، ومن نظر إليها فقد زنى بعينيه فهى سبب زنى العين فهى آثمة.

وقوله ﷺ من حديث عائشة «مَا مِنِ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِى غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ هَتَكَتِ السِّتْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا[4]». والْهَتْكُ: خرق السّتر عمّا وراءه، والْهَتِيكَةُ: الفضيحة. (قال) المناوى [قول النّبى ﷺ «تَضَعُ ثِيَابَهَا فِى غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا»: كناية عن تكشّفها للأجانب وعدم تستّرها منهم، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عزّ وجلّ]. لأنّه تعالى شرّع لباسا ليوارين به سوءاتهن وهو لباس التّقوى، وإذا لم يتقين الله وكَشَفْنَ سوءاتهن هتكن السّتر بينهن وبين الله تعالى، وكما هتكت ستر نفسها ولم تصن وجهها وخانت زوجها يهتك الله سترها والجزاء من جنس العمل.

اختزال الحجاب فى غطاء الرّأس تبرّج مستتر

فى تحقيق هذه المسألة كتب الأستاذ [عصام هاشم] بجريدة الأهرام تحت هذا العنوان قائلا [فى حقبة السّبعينات لم تكن ثقافة الحجاب قد سادت بين النّساء والفتيّات كما هو الحال الأن برغم انتشار الحجاب وامتداده ليشمل طبقات عديدة، إلاّ أنّه يبدو وكأنّه نوع جديد من التبرّج طال المحجبّات أنفسهنّ برغم حرصهن على غطاء الرّأس، فحجاب اليوم أخذ صُوَرًا كثيرة أقلّها مُوافق للكتاب والسُّنّة ومُعظمها بعيد تماما عن مقاصد الشّرع.

ومن الأسف أن تحرص بعض النّساء على غطاء رأسها، إلاّ أنّ باقى ثيابها وهيئتها تخضع لملاحظات عديدة، كمن ترتدى ثيابا ضيّقة أو شفّافة، أو ذات ألوان مثيرة، أو ترتدى

(1) انظر عارضة الأحوذى [٥/ ١١٣].
(2) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢٧٨٦] وأحمد [١٩٦٣٥] والنّسائى [٥١٤١].
(3) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤١٧٣] والتّرمذى [٢٧٨٦].
(4) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٠١٠] والتّرمذى [٢٨٠٣].

بنطالا ضيّقا، أو تضع من مساحيق التّجميل والعطور ما لا تحرص عليه في بيتها، وفوق كلّ ذلك تحرص كلّ الحرص على غطاء شعرها ورأسها حتّى تكون مُحجبّة غير مُتبرِّجة.

وعن حكم الدِّين في ذلك يقول الدّكتور زكي محمّد عثمان أستاذ الثّقافة الإسلاميّة بكليّة الدّعوة بجامعة الأزهر: أنّ هناك خللا عميقا في تطبيق فرائض الإسلام وفهم مقاصد الشّرع الحكيم فيما أمر به أو نهى عنه، وللأسف صارت الأهواء حَكَما في تطبيق كثير من الواجبات، وشاعت فلسفة الأحكام الشّرعية والنزول بها عن مقاماتها من قِبَل العوام وليس من المتخصّصين.

ولسنا بحاجة إلى تكرار حُكم الحجاب في الإسلام وهو الوجوب طبعا، كما أنّه ليس بمحلّ خلاف في هيئته، ولكنّ المشكلة تكمُن في حُسن التّطبيق، وكما أجمع أهل العلم فإنّ زيّ المرأة عموما فضلا عن الحجاب شُرع لحماية المرأة المسلمة وصون المجتمع بأسْره من الفتنة ومقدّمات الفاحشة، وذلك لا يتحقّق بغطاء الرّأس فقط، بل إنّ غطاء الرّأس جزء من كلّ، والكلّ يشمل الزيّ الشّرعي الكامل الذى لا يصف، ولا يكشف، ولا يُثير، لكنّه زيٌّ فَضْفَاض ساتر للبدن كلّه، ودافع للفتن وغوائلها، فلا تفوح منه عطور ولا مساحيق فجّة تفضح ما يستره الحجاب.

ومن الخُذى على المرأة المسلمة أن تختزل الحجاب في غطاء الرّأس فقط، وإلاّ فكيف ينفع المحجّبة حجابها وهي ترتدى ضيّق الثّياب والمثير منه، وهل ينفعها غطاء الرّأس وعطورها الفوّاحة التى تجذب إليها المارّة وتثير غرائزهم، فلا فرق حينئذ بين من تُغطى رأسها عمّن تكشف شعرها وكلتاهما على الخطأ والمعصية.

ولا يصحّ أن نُطلق على من كان هذا حالها إنّها محجّبة، فالحجاب في هذه الحالة يكون نوعا من التبرّج المستتر، وإذا كان يُؤخذ على بعض الملتزمات بالحجاب شكلا سوء أخلاقهنّ وتعاملاتهنّ، فإنّ ذلك لا يبرّر العزوف الكلّى عن الحجاب الشّرعى كما إراده الله تعالى، ولكنّ الواجب أن تكتمل الصّورة ويتم تصحيح الفهم لمقاصد الشرع الذى يريد للمسلم أن يكون ملتزما شكلا ومضمونا في العبادات والمعاملات على حدّ سواء]. فجزى الله من عرض المسألة تحقيقا للأمر ومن أجاب عنها بيانا وتوضيحا للحُكم.

(المدخل السّابع عشر)
النّظرة وسهم إبليس المسموم

تستهدف دعوة القرآن إلى غضّ البصر إقامة المجتمع النّظيف الذى لا تُهَاجُ فيه الشّهوات ولا تستثار فيه النّوازع والرّغبات، ويتحرّر أبناؤه من النّظرات الخائنة والحركات المثيرة واللّفتات المسعورة التى يُوقظها الشّيطان من كوامنها نشرا للفتنة

وتأجيجا للغواية بين النّاس.

وتتحدّد العلاقة بين البصر والقلب مع تلك النّظرة المسمومة التي يرمي بها إبليس بما رواه حذيفة من قوله ﷺ «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللهِ تَعَالَى أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ[1]». ويعبّر بالسّهم فيه عن تلك النّظرة المحرّمة التي تخترق القلب لسرعة وصوله إلى هدفه بنصله القاتل عندما يُرمى به من قوسه، وفيه الدّلالة على أنّ النّظرة تفعل في القلب ما يفعله السّهم في الرّمية فإن لم تقتله جرحته وأصابت منه، وهي بمنزلة الشّرارة من النّار التي ترعى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كلّه أحرقت بعضه [[2]].

ويقف بنا الحديث أمام أمرين:

(أحدهما) أنّ العين هي مرآة القلب وأقرب الحواسّ الموصّلة إليه، فإذا غضّ العبد بصره غضّ القلب شهوته وسكنت إرادته وهدأت نفسه، وإذا أطلق بصره أطلق القلب عنان شهوته وتمكّن الشّيطان من نزوته.

(والثّاني) أنّ النّظرة المحرّمة بمثابة السّهم المسموم الذي يسري أثره في القلب، فيعمل فيه عمل السّم الذي يُسْقَاهُ المسموم فإن بادر واستفرغه وإلاّ قتله لا محالة.

ولمّا كانت العين رائداً والقلب باعثًا وطالبًا، وهذه لها لذّة الرّؤية وهذا له لذّة الظّفر، فإنّ الشّيطان ينصب شراكه حول الرّجل عندما يجعل من المرأة المتبرّجة هدفا لذلك، فيجعلها طيّعة لأمره مُنقادة لهواه مستسلمة لخططه، وهو الأمر الذي أشار إلى خطورته رسول الله ﷺ عندما قال «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ[3]». وقوله «كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، يَعْنِي زَانِيَةً[4]». إنّه يغلق الطّريق على الفتنة المتوقّدة كي لا تنطلق من عقالها بدافع النّظر للمواضع المثيرة والزّينة المتعطّرة الدّاعية إلى الغواية والإفساد.

ونقل عن مجاهد قوله [إذا أقبلت المرأة جلس الشّيطان على رأسها فزيّنها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عَجُزِهَا فزيّنها لمن ينظر[5]]. أمّا المرأة المحتشمة المنتقبة فلا حظّ للشّيطان منها ولا أمل له في التّحريش بها أو التّسلّط عليها، فإنّها في منجاة من شرّه وضلاله بصلاحها وتقواها وحفظ الله تعالى لها.

---

(١) رواه الحاكم [٨٠٤٠] من حديث حذيفة وقال صحيح الإسناد.

(٢) انظر كتاب روضة المحبّين [ص ٩٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٠٩٦] ومسلم [٢٧٤٠].

(٤) حديث حسن أخرجه التّرمذي [٢٧٨٦].

(٥) انظر تفسير القرطبي [ج ١٢ ص ٢٢٧].

والنّظرة واحدة من ثلاث:

(الأولى) نظـرة الفجـاءة

وهي التي تقع بغتة من غير قصد من النّاظر. [قال] في النّهاية: فَجَأَهُ الأَمْرُ فُجَاءَةً [بالضّم والمدّ] فَاجَأَهُ مُفَاجَأَةً: إذا جاءه بغتة من غير تقدّم سبب [(١)]. وهذه النّظرة معفوّ عنها كما في قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه «لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ(٢)». فما لم يعتمده القلب لا يعاقب عليه الشّرع، فإن أدام النّظر أثم واعتدى لقول جرير «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفُجَأَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي(٣)». والصّرف أن ينقل بصره إلى الشّق الآخر والنّاحية الأخرى.

والبصر هو تلك القوّة المودعة في العصبين المجوّفين اللّتين تلتقيان ثمّ تفترقان، وتتأدّى إلى العين بها الأضواء والألوان والأشكال، يقال: أبصرته بالعين إبصارا وبصرت بالشّيء [بالضّم]. ويُطلق مجازا على الإدراك للمعنويّات، كما يُطلق على العين نفسها لأنّها محل الإبصار، والبصر ضدّ العمى [(٤)].

ومن هنا جاء أمر النّبيّ ﷺ لجرير عند «نظرة الفجأة» أن يصرف بصره ولا يستديم النّظر فإنّ استدامته كتكريره، وهذا يقوّي قول من قال [إن «منْ» في قول الله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النّور: ٣٠]. للتّبعيض لأنّ النّظرة الأولى لا تُملك فلا تدخل تحت خطاب التّكليف، إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصودا فلا تكون مُكتسبة فلا يكون مُكلّفا بها فوجب التّبعيض لذلك(٥)].

[قال] الخطّابي [النّظرة الأولى إنّما تكون له لا عليه، إذا كانت فُجَأَةً من غير قصد أو تعمّد، وليس له أن يكرّر النّظرة ثانية ولا له أن يتعمّده بدءا كان أو عودا(٦)].

كما أرشد رسول الله ﷺ من ابتُلي بنظرة الفُجَأة أن يداوي ذلك بإتيانه امرأته لقوله من حديث جابر رضي الله عنه «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ(٧)». وجاء عند التّرمذي بلفظ «فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا(٨)». وفي رواية مسلم عن أبي الزّبير عن جابر «إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ». وبذلك يتحقّق أمران:

---

(١) انظر تحفة الأحوذي [ج ٧ ص ٢٠٠]. (٢) حديث حسن أخرجه التّرمذي [٢٧٧٧]. (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٥٩] وأبو داود [٢١٤٨]. (٤) انظر النّهاية لابن الأثير [١ / ١٣١]. (٥) انظر تفسير القرطبي [ج ١٢ ص ٢٢٣]. (٦) انظر سُنن أبي داود [ج ٢ ص ٢١٤ ـ الهامش]. (٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩ / ١٤٠٣] وأبو داود [٢١٥١] وأورده في الصّحيحة [٢٣٥]. (٨) من حديث صحيح أخرجه التّرمذي [١١٥٨].

(الأوّل) أنّه يُستحب لمن رأى امرأة فتحرّكت شهوته أن يأتي امرأته فليواقعها ليدفع شهوته وتسكن نفسه ويجمع قلبه على ما هو حلال له .

(الثّاني) أنّ النّظر يثير قوة الشّهوة فأمَرَه بتنقيصها بإتيان أهله فإنّ ذلك يردّ ما في نفسه .

وفي قوله «إنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَان» الإشارة إلى الهوى والدّعوة إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرّجال من الميل إلى النّساء والالتذاذ بالنّظر إليهنّ وما يتعلّق بهنّ، فهي شبيهة بالشّيطان في دعائه إلى الشّر بوسوسته وتزيينه له، ويُستنبط من هذا أنّه ينبغي لها ألاّ تخرج بين الرّجال إلاّ لضرورة [(١)] .

والمحظور في ذلك أن يعيد المرء نظره إلى حيث يستأنس الزّينة المحرّمة والجمال المرغوب فيجعله مرمى عينيه، وهذا ما يُؤكّده قوله ﷺ لعَليٍّ رضي الله عنه «فإنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ». فإنّه إذا غضّ بصره كان أطهر له من الذّنوب وأنمى لأعماله في الطّاعة والخشية لخالقه تبارك وتعالى .

(الثّانية) النّظرة المباحة

لـمّا كان في قول الله تعالى ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وجوب الغضّ عن جميع المحرّمات وكلّ ما يُخشى الفتنة من أجله، جاءت لفظة «منْ» في الآية لتُبيّن أنّ من النّظر ما يُباح على قدر الحاجة دون ما زيادة، وهذا شأن كلّ ما حرم تحريم الوسائل فإنّه يُباح للمصلحة الرّاجحة، فكما حَرُمت الصّلاة في أوقات النّهي لئلاّ تكون وسيلة إلى التّشبّه بالكفّار في سُجودهم للشّمس، أُبيح فيها قضاء الفوائت وصلاة الجنازة وفعل ذوات الأسباب على الصّحيح للمصلحة الرّاجحة .

وممّا صُرّح بإباحته في موضع الحاجة :

(١) أن ينظر الطّبيب إلى مريضة أو ينظر القاضي إلى امرأة تحضر بين يديه شاهدة أو متخاصمة، أو النّظر إلى مشرفة على الهلاك وتحتاج إلى الإنقاذ والمعونة [(٢)] .

(٢) وكذلك النّظر إلى الأجنبيّة بقصد التّزوّج بها وهو أمر مندوب إليه في شرع الدّين القويم وقد رأى النّبي ﷺ نفسه امرأة بهذا القصد، وخطب المغيرة بن شعبة امرأة فقال له ﷺ «انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا(٣)». أي يؤلف بينكما ويميل كلّ منكما للآخر ويأنس إليه [(٤)] .

---

(١) انظر نووي مسلم [ج ٥ ص ١٩٢] .

(٢) انظر كتاب روضة المحبّين لابن القيّم [ص ٩٥] .

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [١٠٨٧] والنّسائي [٣٢٣٥] وابن ماجه [١٥٢٣] .

(٤) انظر كتاب الحجاب لأبي الأعلى المودودي [ص ٢٧٨] .

وفى قوله ﷺ لمن خطب امرأة من الأنصار «فَاذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّ فِى أَعْيُنِ الأَنْصَارِ شَيْئًا[(١)]». (قال) النّووى [وفيه استحباب النّظر إلى وجه من يريد تزوجها وهو مذهبنا ومذهب مالك وأبى حنيفة وسائر الكوفيين وأحمد[(٢)]].

(٣) كما يجوز ذلك عند المعاملة بالبيع والشّراء وغيرهما ونحو ذلك.

فيُعلم من التّأمل فى هذه الحالات أنّ مقصود الشّرع ليس منع النّظر مُطلقا بل المقصود سدّ ذريعة الفتنة، ولذلك مُنع النّظر الذى لا تدعو إليه حاجة وفيه أسباب محرّكة لنزعات الشّهوة فى الإنسان [(٣)].

(الثّالثة) النّظرة المحرّمة

إنّها النّظرة المسترسلة التى طالما أيقظت فى النّفوس كوامن الشّهوات والرّغبات، وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات يديرها الشّيطان ويوجّهها لتخريب المجتمع فى غفلة عن العيون الرّاعية والقلوب النّاصحة، فجاء أمر القرآن بصرف البصر عنها وعدم استرساله معها كما فى قول الله سبحانه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[النّور: ٣٠]. وفيها الدّلالة على ثلاثة أمور:

(الأوّل) أنّ غضّ البصر مُستعمل فى التّحريم لأنّ غضّه عن الحلال لا يلزم، وإنّما يلزم غضّه عن الحرام فلذلك أدخل حرف التّبعيض فى غض الأبصار فقال الله تعالى ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[(٤)].

(الثّانى) أنّ العينين هما أصل زنى الفرج فكما تضمّنت الآية الأمر بغضّ البصر اشتملت على الأمر بحفظ الفرج، فمن مقتضى حفظ الفرج غضّ البصر عن النّظرة الحرام التى هى بريد الزّنا ومبعث فتنة الرّجال وطريقهم المحرّم للتّلذّذ برؤية جمال الأجنبيّات ومفاتنهنّ، وإنّها [السَّهْمُ الْمَسْمُومُ] الذى يخترق به الشّيطان قلب الإنسان فيزيّن له ما أصابه به لتتمّ البليّة وتعمّ الرّزيّة.

(الثّالث) أنّ حفظ الفرج هو الثّمرة الطّبيعيّة لغضّ البصر، أو هو الخُطوة التّالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرّقابة والاستعلاء على الرّغبة الجامحة فى مراحلها الأولى، ومن ثمّ يجمع الخالق سبحانه بين غضّ البصر وحفظ الفرج فى آية واحدة بوضعهما سببا ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين فى عالم الضّمير وعالم الواقع كلتاهما قريب من قريب [(٥)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٢٤].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٥ ص ٢٢٧].

(٣) انظر كتاب الحجاب لأبى الأعلى المودودى [ص ٢٨٠].

(٤) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٣ ص ١٣٦٥].

(٥) انظر فى ظلال القرآن [ج ١٨ ص ٢٥١٢].

إنّ من أضرّ الأشياء على القلب إرسال البصر إلى ما هو ممنوع منه فيشتدّ عليه طلبه ويتعذّر عليه تحصيله، فيتعذّر عليه صبره، ولا يتحصّل له قربه، ولا يجني من ذلك إلاّ الإثم والضّياع كما في رواية ابن مسعود عند البيهقي «الإِثْمُ حَوَّازُ الْقُلُوبِ وَمَا مِنْ نَظْرَةٍ إلاّ وَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ[(١)]». أي رجاء وأمل لأنّه مُفسد يتتبّع الأخطاء ويوقع فيها مقترفها، فمن أطلق بصره على هذا النّحو دامت حسرته واشتدّ ألمه وعذابه، وكان كمن أُصيب بالعطش فلم يجد إلاّ الماء المالح الذى يشربه الظّمأن فلا يرتوى منه أبدا.

وقد قيل [(٢)]:

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِى لاَ كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

ويُروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال «أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ يَوْمَ النَّحْرِ خَلْفَهُ عَلَى عَجُزِ رَاحِلَتِهِ، وَكَانَ الْفَضْلُ رَجُلاً وَضِيئًا فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ يُفْتِيهِمْ، وَأَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ وَضِيئَةٌ تَسْتَفْتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَأَخْلَفَ بِيَدِهِ فَأَخَذَ بِذَقْنِ الْفَضْلِ فَعَدَلَ وَجْهَهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا[(٣)]».

وجاء عند مسلم «فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ[(٤)]». وجاءت الرّواية عند التّرمذى بلفظ «وَلَوَى عُنُقَ الْفَضْلِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَارَسُولَ اللهِ لِمَ لَوَيْتَ عُنُقَ ابْنِ عَمِّكَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ شَابًّا وَشَابَّةً فَلَمْ آمَنِ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمَا[(٥)]». وقوله «لَوَى عُنُقَ الْفَضْلِ»: أى صرفَ عُنقه من جانب الجارية إلى جنب آخر.

ويُؤخذ من هذه الرّوايات:

(١) النّهى عن إطلاق النّظر إلى المرأة الأجنبيّة خشية الفتنة.

(٢) أنّ في تحويل النّبى ﷺ وجه الفضل منعًا وإنكاراً بالفعل فلو كان النّظر جائزا لأقرّه عليه ﷺ ولم يحوّل عنه وجهه.

(٣) وفيه بيان مُغالبة طباع البشر لابن آدم وضعفه عمّا رُكّبَ فيه من الميل إلى النّساء والإعجاب بحُسنهنّ.

---

(١) رواه البيهقى وأورده فى تهذيب اللّغة [٣ / ٣٨٥] والتّرغيب [ج ٣ ص ٢٢].

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٣ ص ١٣٦٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٢٢٨].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٠٧ / ١٣٣٤].

(٥) من حديث حسن أخرجه التّرمذى [٨٨٥].

(٤) وفيه دليل على أنّ ستر المرأة وجهها ليس فرضا لإجماعهم على أنّ للمرأة أن تُبدى وجهها فى الصّلاة ولو رآه الغرباء [(١)].

(قال) النّووى [وهذا الحديث فيه فوائد منها : جواز سماع صوت الأجنبيّة عند الحاجة في الاستفتاء والمعاملة وغير ذلك ، ومنه إزالة المنكر باليد لمن أمكنه لقوله «فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ» (٢)].

وقد صرح ﷺ بأنّ العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج فإنّهما له رائدان ، وإليه داعيان كما فى قوله ﷺ «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ، فَالْعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ ، وَاللِّسَانُ يَزْنِى وَزِنَاهُ النُّطْقُ ، وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْخُطَى ، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ(٣)» . وفى رواية أبى داود «وَالْفَمُ يَزْنِى فَزِنَاهُ الْقُبَلُ(٤)» .

ويعنى قوله ﷺ «أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ» . أنّه لابدّ له من عمل ما قُدّر عليه أن يعمله ، وأنّ كلّ ما كتبه الله على الآدمى قد سبق فى علم الله تعالى وإلاّ فلابدّ أن يدركه المكتوب عليه ، وأنّ الإنسان لا يستطيع أن يدفع ذلك عن نفسه ، إلاّ أنّه يُلام إذا واقع ما نُهى عنه بحجب ذلك عنه وتمكينه من التّمسّك بالطّاعة [(٥)].

ويأتى إطلاق الزّنا فى الحديث على النَّظر والنُّطق والخُطى وغيرهم بطريق المجاز لأنّ كلّ ذلك من مقدّماته ودواعيه ، فهو من إطلاق اسم المسبّب على السّبب ، فيبدأ بزنى العين لأنّه أصل زنى اليد والرّجل والقلب والفرج ، ونبّه بزنى اللّسان بالكلام على زنى الفم بالقُبل ، وجعل الفرج مُصدّقا لذلك إن حقّق الفعل ، أو مكذّبا له إن لم يحقّقه ، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أنّ العين تعصى بالنّظر وأنّ ذلك زناها ، وفى رواية المُسند عند أحمد «الْعَيْنُ تَزْنِي ، وَالْقَلْبُ يَزْنِى ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا الْقَلْبِ التَّمَنِّى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ(٦)» .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] . قال ابن عبّاس رضي الله عنهما [هو الرّجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النّظر إليها ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسّس بالنّظر ، فإذا نظر إليه أصحابه

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٢].
(٢) انظر نووى مسلم [ج ٥ ص ١٠٨].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٦١٢] ومسلم [٢٦٥٧] وأبو داود [٢١٥٢].
(٤) من حديث حسن أخرجه أبو داود [٢١٥٣] وأحمد [٨٥٠٧].
(٥) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٥١٢].
(٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٨٣٣٨].

غضّ بصَرَه، وقد علم الله تعالى أنّه يودّ لو اطّلع على فرجها وإن قدَر عليها زنى بها[1]].
ونعوذ بالله تعالى من شرّ كلّ ذلك، وعن قتادة ومجاهد نحوه، وكأنّهم أرادوا أنّ هذا كلّه من جملة [خائنة الأعين]. وقال الكرماني في معناه [أنّ الله يعلم النّظرة المسترقة إلى ما لا يحلّ[2]].

ومن غضّ البصر كَفُّهُ عن التّطلّع إلى المباحات من زينة الدّنيا وجمالها كما قال الله تعالى لنبيّه في التّنزيل﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ١٣١]. وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنّ غضّ البصر أدب نفسي يتحلّى به الإنسان، وكمال خُلُقي يرتفع به فوق الصّغائر، وسموّ روحي أرشد إليه القرآن ليتحقّق للمسلم التّقيّ من خلاله:

(١) الاستعلاء على الرّغبة الملحّة المدفوعة بالشّيطان للاطلاع على محاسن المرأة ومفاتنها وهو الأمر المحرّم في شرع الدّين.

(٢) إغلاقه للنّافذة الأولى من نوافذ الفتنة وتقليل فرص الاستثارة الغريزيّة التي تأخذ بالنّاس إلى الخسَار والبوَار وهتك الأعراض والأستار.

(٣) الصّد العملي والمحاولة النّاجحة التي تحُول دون إصابة قلب المسلم بسهم الشّيطان اللّعين تزكيةً للنّفس البشريّة من الدّنايا الوضيعة، وتطهيراً للمشاعر الإنسانيّة من الغواية والرّذيلة، وصونًا للحُرُمات من التهتُّك والبذاءات.

(٤) صيانة الحواسّ وعدم تلوّثها بالانفعالات الشّهوية في غير موضعها النّظيف والمشروع، وعدم ارتكاسها إلى الدّرك الغريزي الذي يأباه المؤمن بربّه تعالى.

أمّا قول الله تعالى﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[النّور: ٣١]. فهو قول عام يتناول الذّكر والأنثى من المؤمنين حسب كلّ خطاب عام في القرآن، إلاّ أنّ الله تعالى قد يخصّ الإناث بالخطاب على طريق التّأكيد كما ورد في حديث أمّ عمارة الأنصارية أنّها قالت «يارسُولَ الله مَا أرَى كُلَّ شَيْءٍ إلاّ للرِّجَال وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بشَيْءٍ». فَنَزَلَ قوله تعالى﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥[3] ». فلمّا أراد الله منهنّ غضّ البصر وحفظ الفرج أكّده بالتّكرار آية بعد الآية وخصّ النّساء فيه بالذّكر على الرّجال ليؤكّد معهنّ أمرين:

(الأوّل) أن يغضضن من أبصارهن فلا يرسلن بنظراتهن المتلصّصة والهاتفة التي تستثير

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كذا في [الصّارم البتّار للتّويجري [ص ٢١].

(٢) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ١١].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٣٢١١].

كوامن الفتنة فى صدور الرّجال .

(الثّانى) أن يحفظن فروجهن فلا يكون إلاّ الحلال الطيّب الذى يلبى دعوة الفطرة كما شرع الله فى الكتاب المكنون .

ثمّ يبيّن سُبحانه وتعالى فِي قوله ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ . أنَ النّظر إلى غير ما يحلّ حرام شرعا ويسمّى [زنى] كما فى حديث أبى هريرة «إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ(١)» . فكما لا يحلّ للرّجل أن ينظر إلى المرأة فكذلك لاَ يحلّ للمرأة أن تنظر إلى الرّجل ، فإنّ علاقته بها كعلاقتها به وقصده منها كقصدها منه .

غضّ البصر تزكية للقلب

يبيّن تعالى فى قوله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النّور: ٣٠]. أنّ تزكية القلب وتطهيره لا تتحصّل إلاّ بغضّ النّظر عن المحارم كما أمَر وشرّع ، وأنّ نجاسة الفواحش والمعاصى تكون فى القلب بمنزلة الأخلاط الرّديئة التى ينبغى للمسلم أن يتخلّص منها ، ولا يتسنّى للقلب أن يعمر بنور الإيمان ويستشعر حلاوته ، إلاّ إذا تخلّص من هذه الأخلاط وتطهّر منها بالكلّية ، حيث جعلت الآية من غضّ البصر وحفظ الفرج وسيلة لتحقيق هذه التّزكية فى قوله تعالى﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ .

ومن الفوائد التى تتحقّق للمسلم بغضّ البصر [(٢)] :

(أولا) تذوّق حلاوة الإيمان

إذا تخلّص القلب من الجواذب الفاسدة والمواد الرّديئة واستفرغ تلك الأخلاط التى تسبّبها النّظرة المحرّمة ، فإنّه يستطيع أن يتذوّق حلاوة الإيمان بربّه ويعايش جلال المراقبة لخالقه سبحانه ، فإنّ من ترك شيئا لله عوّضه الله خيرا منه لما جاء فى الحديث عن تلك النّظرة فى بلاغه ﷺ عن ربّه تعالى «فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِى أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِى قَلْبِهِ» . فحلاوة الإيمان ولذّة الطّاعة تُورّث القلبَ محبّة الخالق سبحانه لتكون أحلى وأطيبَ ممّا صرف بصره عنه وتركه لله تعالى .

وإذا كان إرسال البصر إلى ما هو مُحَرَّم من أضرّ الأشياء على القلب ، فإنّ صرفه عن النّظرة الخائنة يُورّثه نوراً وإشراقًا يظهر فى العين ، وفى الوجه ، وفى الجوارح ، ويخلّصه من ألم الحسرة والتّمنّى والحرمان ، فإنّ من أطلق نظره دامت حسرته ، وقد قيل [رُبَّ نظرة زرعت شهوة وربّ شهوة ساعة أورثت حُزنًا طويلا] .

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٦١٢] ومسلم [٢٦٥٧] .

(٢) انظر إغاثة اللّهفان لابن القيّم [ج ١ ص ٤٩ و ٥٠] .

(ثانيا) تحصيل نور القلب وصحّة الفراسة

وغضّ البصر يورّث صحّة الفراسة فإنّها من النّور وثمراته، وإذا استنار القلب بالإيمان صحّت فراسته لأنّه يصير بمنزلة المرآة المجلوّة التى تظهر فيها المعلومات ثابتة من غير تبديل ولا تغيير، وقد قال أهل التّقوى والصّلاح [من عمّر ظاهره باتباع السُّنّة وباطنه بدوام المراقبة وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشّهوات، وأكل من الحلال، لم تخطىء فراسته(١)].

وقد ذكر الله سبحانه قصّة قوم لوط وما ابتلوا به، ثمّ قال بعد ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر:٧٥]. وهم المتفرّسون الذين سلموا من النّظر المحرّم والفاحشة، ثمّ يأتى التّنزيل الكريم عقيب أمر الله للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم بقوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[النّور:٣٥]. والسّر فى هذا:

(١) أنّ الجزاء يكون من جنس العمل، فمن غضّ بصره عمّا حرّم الله عليه عوّضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرّمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضّه عن محارم الله تعالى.

(٢) وأنّ غضّ البصر يفتح للمسلم طُرق العلم وأبوابه وفهمه واستيعابه، ويسهّل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنّه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات وانكشفت له مفاتيح الفيوضات.

(٣) أنّ صحّة الفراسة تكون بقدر النّور الذى يكون فى القلب وهذا أمر يحسّه المؤمن من نفسه، فإنّ القلب كالمرآة والهوى فيه كالصّدأ، فإذا خلصت المرآة من الصّدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هى عليه من غير تبديل، وإذا صدأت لم ينطبع فيها شىء فيكون علمه وكلامه من باب الخَرَص والظّنون.

(ثالثا) تحقيق قوّة القلب وثباته وشجاعته

إنّ غضّ البصر يُورّث صاحبه قوّة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوّته سُلطان النُّصرة كما أعطاه بنوره سُلطان الحُجّة، فإذا ما جمع له النُّصرة والحُجّة هرب الشّيطان منه، وفى الأثر [إنّ الّذى يُخَالفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ منْ ظلّه]. ولهذا يوجد فى المتبّع هواه من ذلّ النّفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه وآثر هواه على رضاه، فإنّه سبحانه وتعالى جعل العزّ لمن أطاعه والذّل لمن عصاه وقد قال الله فى محكم الكتاب﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر:١٠]. وقدّر الزّجاج معناه بقوله [من كان يريد بعبادته الله تعالى العزّة، فإنّ الله عزّ وجل يُعزّه فى الدّنيا والآخرة].

---

(١) انظر إغاثة اللّهفان لابن القيّم [ج ١ ص ٤٩ و٥٠].

(رابعا) حماية الأعراض وصيانتها

الْعِرْضُ [بالكسر] ما يُمدح ويُذمّ من الإنسان سواءٌ كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمُهُ أمرُهُ والجمع أَعْرَاضٌ. ويأتى بيان توكيد غلظ تحريم الأعراض والتّحذير من انتهاكها فى قول النّبى ﷺ «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا[1]». وإذا ذُكر مع النّفسِ أو الدّم والمال فالمراد به الحَسَب فقط كقوله ﷺ «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ[2]».

وفى قوله ﷺ «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ[3]». الدّلالة على طلب البراءة للدّين والعِرض من النّقص والشَّيْن. والعَرْضُ فيه: ما يحصل له بذكره بالجميل مَدْحٌ وبذكره بالقبيح قَدْحٌ. فمن اتّقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حَصَّنَ عِرْضَهُ من القَدْح والشَّيْن الدّاخلين على من لا يتجنّبهما. كما فيه دليل على أنّ طلب البراءة للْعِرْض ممدوح كطلب البراءة للدّين ولهذا قيل [إِنَّ كُلَّ مَا وَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ[4]].

وإذا كانت «النَّفْسُ» قد دخلت فى تعريف «الْعِرْضِ» وإنّه ممّا يُمْدَحُ ويُذَمُّ فى الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره، فإنّه لا يتسنى لنا أن نحمى بناتنا وزوجاتنا وأخواتنا وأمهاتنا ونساء المسلمين وهنّ جميعا أعراضنا اللاّتى جعل الله حرمتهنّ على المسلم كحرمة الدّم والمال صونًا لكرامتهنّ وحفظًا لحيائهنّ ودفاعًا عن أعراضهن إلاّ من خلال ثلاثة أمور:

(الأوّل) غض البصر عمّا نهى الله تعالى عنه.

(والثّانى) حفظ الفرج عمّا حرّم الله تعالى.

(والثّالث) صرف القلب عن التّعلّق بالأجنبية أو الأجنبى.

ثمّ يُضاف إلى هذه الأمور (أمرا رابعا) وهو:

غَيْرَةُ المسلم على أهله وحفظ عوراتهم

ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بقضيّة صيانة المرأة وحفظ عرضها وكرامتها، ويقصد بالْغَيْرَة تلك العاطفة التى تدفع الرّجل لصيانة المرأة عن كلّ مُحَرَّمٍ وشَيْنٍ وعار. (أو) أن يحمى الرّجل زوجته وغيرها من قرابته ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهنّ غَيْرُ مَحْرَمٍ [[5]].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٤٧] ومسلم [١٦٧٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٦٤] وابن ماجه [٣١٩٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢] ومسلم [١٥٩٩].

(٤) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب [ص ١٢٣].

(٥) انظر زاد المسلم للشّنقيطى [ج ٥ ص ١٥٨].

والدّفاع عن العِرْض والْغَيْرَة على النّساء ركن فى الإسلام ركين يُبذل من أجله الدّم ويُضحّى فى سبيله بالنّفس، ويُجازى فاعله بدرجة الشّهيد فى الجنّة، لقوله ﷺ «وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِه فَهُوَ شَهِيدٌ(١)». بل يَعُدُّ الإسلام الغَيْرَة من صميم أخلاق الإيمان، فمن لا غَيْرَة له لا إيمان له، ولهذا كان رسول الله ﷺ أغْيَرُ الخلق على الأمّة لقول سعد بن عبادة رضي الله عنه «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِى لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ». أى ضربه بحَدّه لا بعرضه، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْد! وَاللّه لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللّهُ أَغْيَرُ منّى، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ(٢)». وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ اللّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَإِنَّ غَيْرَةَ اللهِ أَنْ يَأْتِىَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ(٣)».

إنّ من ضروب الغَيْرَة المحمودة أَنَفة المحبّ وحميّته أن يشاركه فى محبوبه غيره، ومن هنا كانت الغيْرة نوعا من أنواع الأثَرة لابدّ منه لحياطة الشّرف وصيانة العِرْض، وكانت أيضا مثار الحميّة والحفيظة فيمن لا حميّة له ولا حفيظة.

وضدّ الغيور [الدَّيُّوثُ] وهو الذى يقرّ الخبث فى أهله ولا غيْرة له على أهل بيته، وجاء فى [المحكم]: الدّيوث الذى يُدْخِلُ الرّجال علي حريمه بحيث يراهم، وقد ورد الوعيد الشّديد فيه كما فى قوله ﷺ «ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْه، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ(٤)». إنّ الغَيْرَة على حُرْمة العفّة ركن العروبة وقوام أخلاقها فى الجاهلية والإسلام لأنّها طبيعة بالفطرة البشرية الصّافية النّقية ولأنّها طبيعة النّفس الحرّة الأبيّة [(٥)].

إنّ حياة الغَيْرَة التى يحياها المجتمع المسلم والتى يسمو بها فوق النّجوم رفعة، ويرتقى بها إلى أعلى المنازل فضلا وطُهرا، يقابلها فى المجتمعات الكافرة حياة الدّياثة والخباثة والقذارة والحقارة واللّوثة والنّجاسة، التى قد تترفّع عنها بعض الحيوانات حيث يغار فُحُولها على إناثها ويقاتل الفحل دون أُنثاه كلّ فحل يعرض لها حتّى تصير إلى الغالب.

حفظ العورات من الإيمان

منذ أن عصفت بالمرأة تلك التيّارات الوافدة التى تريد هدم بيوت الإسلام من داخلها وتهتك أستارها وتكشف سوءاتها، وتنتقص من قيَمها وكرامتها وانتشرت من خلالها

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٦٢٨] والتّرمذى [١٤١٨] وأبو داود [٤٧٧٢]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٨٤٦] ومسلم [١٤٩٩]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٢٣] ومسلم [٢٧٦١] والتّرمذى [١١٦٨]. (٤) أخرجه النّسائى بإسناد حسن واللّفظ له [٢٥٦١]. (٥) انظر عودة الحجاب [ج ٣ ص ١١٥].

بين أبنائنا وبناتنا أوبئة خبيثة وأمراض رديئة توشك أن تدمّر من تبقى لدى الأسر من خلال حميدة وخصال قويمة، وكلّها أمراض وأوبئة تمسّ الكرامة وتخدش الحياء وتتعلّق بالشّرف والفضيلة، وتؤدّى فى النّهاية إلى الفتك بالمجتمع المسلم ثمّ بعد ذلك إحلال الغضب من الله تعالى.

ودليل ذلك قوله ﷺ من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما «خَمْسٌ بِخَمْسٍ: مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلاَ طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ(1)».

ويستشعر من يرى مظاهر السُّفور والاختلاط فى المدارس والجامعات وأماكن العمل والمصانع والمنتديات، وما تلعبه وسائل الإعلام من دور خطير فى كشف العورات من خلال التّبذُّل فى الملبس والعُرى الفاضح لما أمر الله بستره فى البرامج وعلى الشّاشات، مدى الخطورة الكامنة التى تصيب مقوّمات هذا المجتمع فى الصّميم.

والفتاة فى زماننا وبدعوى التّحرُّر والتّقليد الأعمى عندما تخرج رافلة فى أبهى صورة وقد حرصت على أن تكشف عورات جسدها أو تتزيّا بالضّيق من الثياب أو الشّفاف لما تحته، فإنّها تكون بذلك قد خالفت شرع الله ودينه وابتعدت بقيمها وأخلاقها عن هدى رسوله الأكرم ﷺ واستسلمت لشياطين الجنّ والإنس ليجعلوا منها فريسة سهلة للغواية والضّلال، ولُعبة ليِّنة للاقتناص والابتذال .

وفى مواجهة هذا المدّ العَلمانى الجارف فإن الله تعالى أحاط المجتمع المسلم بما يحفظه من الرّذيلة والوقوع فى شباكها، وطالب كلّ راع أن يذود عن أهله وأبنائه ويحول دون وقوعهم فى هذه الشّراك الخادعة الكاذبة التى تؤدّى إلى الاقتراب من جريمة الزّنى صراحة كما فى قوله تعالى﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[الإسراء:٣٢]. وذلك بتعاطى الأسباب المؤدّية إليه وإتيان الطُّرق الموصّلة والمُوقعة فيه، والنّص الكريم فيه نهى بطريق ضمنى عن كلّ ما سلف بيانه، وهو إنّما جاء كذلك ولم يأت بالنّهى المباشر حتّى يجعل بيننا وبين الوقوع فى الفاحشة وأسبابها بُعد المشرقين، فهو نهى عنها بطريق أبلغ، ولذلك جعل من الواجب الأسمى على الوالد لابنته والزّوج لزوجته:

(أولا) ألاّ يدعها تخرج سافرة متبرّجة كاشفة لمحاسن جيدها للرّجال، وأن يأمرها بالحجاب الذى يسترها، وهو الأمر الذى يتناسب مع الغَيْرة التى جُبلَ عليها الإنسان السّوى، والغَيْرة غريزة تستمدّ قوّتها من الرّوح، أمّا التّحرُّر عن القيود فهى غريزة تستمدّ قوّتها

(1) حديث حسن أخرجه فى الجامع الصّحيح [٣٢٤٠] وأورده فى صحيح التّرغيب [٧٦٣].

من الشّهوة الجامحة والرّغبة الجائحة، فهذه تُغرى بالسّفور وتلك تبعث على الاحتشام، إنّ العُرى والزّنى رفيقان لا يفترقان وصنوان لا ينفكّان غالبا، وقد نهى الله تعالى عن التّبرّج وهو إظهار ما يجب إخفاؤه بقوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وفى بيانه للمنهج القويم الذى يتسنى للمرأة المسلمة من خلاله أن تستر عورتها جاء قول الله تعالى ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. والتّجرّد من هذا السّتر أو التّبذّل فيه على نحو ما هو حاصل الأن ممّا بدا معه حال بناتنا أكثر ممّا كانت عليه الجاهليّة الأولى، إنّه تقهقر إلى الوراء ورجعة إلى الجاهليّة الأولى ونزعة إلى الشّر وعودة إلى التّخلّف الأخلاقى المقيت.

(ثانيا) ألاّ يدعها تخرج متزيّنة متعطّرة لكون ذلك من دواعى فتنة الرّجل بالمرأة ونزوعه إليها، وأنّ ما يُشمّ من طيبها إنّما يجرّ إلى الفتنة وتفجّرها، وقد حذّر رسول الله ﷺ من خطورة ذلك بقوله «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ[1]». أى كلّ عين نظرت إلى أجنبيّة عن شهوة فهى زانية.

وما ورد فى سُنن ابن ماجه «أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَقِيَ امْرَأَةً مُتَطَيِّبَةً تُرِيدُ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: يَا أَمَةَ الْجَبَّارِ! أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ قَالَتْ الْمَسْجِدَ، قَالَ: وَلَهُ تَطَيَّبْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ لَمْ تُقْبَلْ لَهَا صَلَاةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ[2]». وإذا كان هذا فى حقّ الذّهاب إلى مكان العبادة الذى هو بعيد عن كلّ شُبهة وريبة فلأن يكون غيره من باب أولى.

(ثالثا) والمؤمنات لا يُسلِّمن بأيديهن على غير ذى مَحْرَم، فإنّ المصافحة بين الجنسين من الأمور التى حرّمها الشّرع وحذّر منها، ذلك لأنّ لمس المرأة باليد يحرّك كوامن النّفس ويفتح أبواب الفساد ويسهّل مهمّة الشّيطان، وهو الأمر الذى نبّه رسول الله ﷺ إلى خطورته بقوله «لأَنْ يُطْعَنَ فِى رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لاَ تَحِلُّ لَهُ[3]». فإذا كان هذا فى مجرّد المسّ من غير شهوة فما بالك بما فوقه؟ [[4]].

والذى يُؤخذ من الهدى النّبوى فى هذه المسألة أنّ رسول الله ﷺ ما صافح امرأة بيده أبدا وشواهد ذلك ما جاء فى قوله ﷺ «لاَ أَمَسُّ أَيْدِى النِّسَاءِ[5]». وعن عائشة رضى الله عنها قالت «وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلاَمِ[6]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٧٨٦] والنّسائى [٥١٤١]. (٢) حديث حسن صحيح أخرجه ابن ماجه [٤٠٠٢] وابن خُزيمة [١٦٨٢] وأورده فى الصّحيحة [١٠٣١]. (٣) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصّحيح كذا قال فى التّرغيب [٣/ ٦٦]. (٤) انظر عودة الحجاب [ج ٣ ص ٤٤]. (٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط كما فى صحيح الجامع [٧١٧٧] عن عقيلة بنت عُبيد. (٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٨/ ١٨٦٦] وافقه البخارى [٥٢٨٨].

وجاء في رواية بلفظ «وَمَا مَسَّتْ كَفُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَفَّ امْرَأَةٍ قَطُّ». وأكثر النّاس رجالا ونساء يتغافلون عن حُرمة المصافحة بحجّة الاستحياء من ردّ الأيدى غير عالمين أنّ هذا عجز وليس حياء، وأنّ الله تعالى أحقّ أن يُستحى منه بتطبيق شرعه وأحكام دينه.

(رابعا) ألاّ تختلى بأجنبى عنها وحقيقة الخلوة أن ينفرد الرّجل بامرأة في غيبة عن أعين النّاس، ذلك لأنّ الخُلوة بالأجنبيّة من أعظم الذّرائع وأقرب الطّرق إلى اقتراف الفاحشة الكبرى، فإذا ما تحقّقت الخُلوة كان للغريزة أن تستيقظ وللشّيطان أن يحضر، والكائن البشرى حين تتّقد فيه نار الشّهوة ويتحكّم فيه الحيوان تراه يندفع إلى الفعل إن لم تحجزه التّقوى والخوف من الله تعالى، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة بالأجنبيّة وشدّد في ذلك بقوله «لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ[(١)]». وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «أَلاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانُ[(٢)]». وبذلك غُلّقت مداخل الشّيطان وتوصّدت مسارب الفساد إلى الأُسر والمجتمعات.

(خامسا) البّعد عن الاختلاط المعيب بالرّجال وهو من العوامل الخطيرة المؤدّية لتقوية دواعى الشّهوة وانتشار قضايا التّحرُّش والفساد بين النّاس من جراء المُتعة الحرام والزواج العرفى النّاتج عن هذا الاختلاط في أكثر معاهد العلم والجامعات.

(سادسا) ألاّ يدعها ترتدى الملابس التى لا تستر جميع بدنها أو ما كان من شأنه إثارة الفتن، ذلك لأنّ حال المرأة خارج البيت لا ينضبط إلاّ بتطبيق الشّروط الشّرعية في هذا اللّباس ومنها:

(١) استيعاب الثّوب لجميع البدن لقوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النّور: ٣١].

(٢) ألاّ يكون الثوب زينة في نفسه لقوله ﷺ في الحديث «وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ[(٣)]». والتّبرّج هو أن تبدى المرأة من زينتها ومحاسنها وما يجب عليها ستره ممّا تستدعى به شهوة الرّجل، والمقصود من الأمر الوارد بالحجاب هو ستر زينة المرأة فلا يُعقل أن يكون الحجاب نفسه زينة.

(٣) وأن يكون كثيفا لا يصف ولا يشفّ، واللّواتى يلبسن من الثياب الشّىء الخفيف الذى يصف ولا يستر فهنّ كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة.

(٤) وأن يكون فَضْفَاضًا غير ضيّق فلا يصف شيئا من جسدها لأنّ الغرض من الثّوب إنّما هو رفع الفتنة ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالفَضْفَاض الواسع، أمّا الضّيّق فإنّه وإن ستر

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٣٣] ومسلم [١٣٤١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩٣٤] والتّرمذى [٢١٦٥].

(٣) من حديث أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٨٢٧] والطّبرانى في الكبير [٧٨٨].

لون البَشَرة فإنّه يصف حجم جسدها أو بعضه فيصوّره فى أعين الرّجال ويُزيّنه لهم ، وفى ذلك من الفساد والدّعوة إليه ما لايخفى على العاقل فوجب أن يكون الثّوب واسعا.

(٥) ألاّ يكون مُبخّرًا أو مُطيّبًا لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «أَيُّمَا امْرَأَة تَطَيَّبَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ لَمْ تُقْبَلْ لَهَا صَلاَةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ[(١)]». وسبب المنع من التّعطّر للمرأة إذا العطر فى ثوبها أو بدنها لما فيه من تحريك داعى الشّهوة عند الرّجال.

(٦) ألاّ يشبه لباس الرّجال لورود النّهى عن ذلك لما فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ[(٢)]». ولكون المرأة المتشبّهة بالرّجال تكتسب من أخلاقهم حتّى يصير فيها من التّبرّج والبروز ومشابهة الرّجال ما قد يُفضى ببعضهنّ إلى أن تُظهر بدنها كما يُظهره الرّجل، وتأتى من الأفعال ما يُنافى الحياء وهذا القدر قد يحصل بمجرّد المشابهة.

(٧) ألاّ يُشبه زىَّ الكافرات وهذه قاعدة عظيمة فى الشّريعة الإسلاميّة أن تتميّز الأُمّة ولا تنماع ولا تذوب فى شخصيّة غيرها ولو كان ذلك فى الملبس، وهو ما عناه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله «لاَ يُشْبِهُ الزِّىُّ الزِّىَّ حَتَّى يُشْبِهَ الْقَلْبُ الْقَلْبَ». ومن كلام ابن تيمية فى ذلك [أنّ المشاركة فى الهدى الظّاهر تُورّث تناسبا وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما فى الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس]. ثمّ يأتى حديث رسول الله ﷺ ليفصل فى المسألة بقوله «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ[(٣)]».

(٨) ألاّ يكون زىَّ شُهرة وهو كلّ ثوب يُقصد به الاشتهار بين النّاس ولفت الأنظار إليه، سواء كان الثّوب نفيسا يلبسه تفاخرا بالدُّنيا وزينتها أو خسيسا يلبسه إظهارا للزّهد والرّياء وهو مضمون قوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما يرفعه «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ، ثُمَّ يُلَهَّبُ فِي النَّارِ[(٤)]».

ليس أخطر على المسلمين من تتبّع العورات

ومّما يحفظ عورة المسلم وصونها عدم تتبُّعه لعورة غيره لما فى ذلك من أذى مؤكّد لنفسه ثمّ لغيره لقوله ﷺ من حديث أبى برزة الأسلمى «يَامَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ[(٥)]».

---

(١) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٢٧٠٣] والصّحيحة [١٠٣١].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٠٩٨] وصحيح الجامع [٥٠٩٥] وأورده فى المشكاة [٤٤٦٩].

(٣) حديث حسن أخرجه أبو داود عن ابن عمر [٤٠٣١] وصحيح الجامع [٦١٤٩] والإرواء [١٢٦٩].

(٤) حديث حسن أخرجه أبو داود [٤٠٢٩] وأورده فى صحيح الجامع [٦٥٢٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٨٠].

وجاء عند التّرمذى بلفظ «يَامَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بلسَانه ولَمْ يُفضِ الإيمَانُ إلَى قَلْبه، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلمينَ ولاَ تُعَيِّرُوهُمْ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتهم، فَإنَّهُ مَنْ تَتَبَّع عَوْرَةَ أَخِيه الْمُسْلِم تَتَبَّعَ اللّهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ تَتَبَّعَ اللّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ ولَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِه». قال: «ونَظَر ابْنُ عُمَرَ يوْماً إلَى الْكَعْبَة فَقَالَ مَا أَعْظَمَك وأَعْظَمَ حُرْمَتَك، والْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ منْك[1]».

وقوله: «ولَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِه»: أى ولو كان فى وسط منزله مختفيًا عن النّاس. وعن ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ قال «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيه الْمُسْلِم، سَتَرَ اللّهُ عَوْرَتَهُ يومَ الْقِيَامَة، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيه الْمُسْلِم كَشَفَ اللّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ بهَا فِي بَيْتِه[2]».

والْعَوْرَةُ سوءة الإنسان وكلّ ما يُستحيا منه، والجمع: عَوْرَاتٌ [بالتّسكين]. وقرأ بعضهم ﴿عَلَىٰ عَوَرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾. بالتّحريك. والْعَوَارُ بالفتح: العيبُ وقد يُضمّ، والعوراء الكلمة القبيحة، والْعَوْرَةُ ما يستره الإنسان حياء من ظهوره، وفى «التّوقيف»: العورة سوأة الإنسان وذلك كناية وأصلها من العار، لما يلحق من ظهورها العار أى المذمّة ولذلك سمّى النّساء عورة [[3]].

والعورة «من الرّجل»: ما تحت السّرة إلى الرّكبة، أى معها، والرّكبة من العورة، وقيل من الفخذ وهو الأصح. [قال] الشّوكانى [العورة دون الرّكبة لقول النّبى ﷺ «عَوْرَةُ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ سُرَّته ورُكْبَته[4]»].

أمّا «عورة المرأة»: فقد اختلف العلماء فيما يُباح لها كشفه من أعضائها أمام الرّجال الأجانب وما لا يُباح كشفه تبعا لاختلافهم فى فهم المراد من قول الله تعالى ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

والمراد [بغَضِّ الْبَصَرِ]: كفّ النّظر إلى المحرّم، والمراد [بحفظ الفروج]: حفظها من النّظر إليها ومن لمسها، ومن وطئها إلاّ على زوج لقول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾. وقد جاء تعريف عورة المرأة على قولين [[5]]:

(الأوّل) ذهب الشّافعية والحنابلة فيه إلى أنّ جميع بدن المرأة [عورة] ولا يصحّ لها أن تكشف أىّ جزء من جسدها أمام الأجانب من الرّجال إلاّ إذا دعت الضّرورة إلى ذلك كالطّبيب للعلاج، والخاطب للزّواج، والشّهادة أمام القضاء، والمعاملة فى البيع والشّراء، واستثنوا من ذلك [الوجه والكفّين] لأنّ ظهورهما للضّرورة، أمّا [القدم] فليس ظهوره

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٣٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٠٧٩].

(٣) انظر التّوقيف [ص ٥٣٠] ومعجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٥٦].

(٤) انظر نصب الرّاية [١ / ٣٩٦].

(٥) انظر كتاب المذاهب الأربعة للجزيرى [ج ٥ ص ٥٤].

بضرورى، والأصحّ عندهم أنّه [عورة] . وقيل عورة من حيث النّظر والمسّ وليست بعورة فى الصّلاة .

(الثّانى) وهو قول الحنفيّة والرّأى الثّانى للشّافعية والمُفتى به عند المالكيّة : أنّ جميع بدن المرأة [عورة] إلاّ الوجه والكفّين، فيباح للمرأة كشف وجهها وكفّيها فى الطّرقات وأمام الرّجال الأجانب، ولكنّهم قيّدوا هذه الإباحة بشرط أمن الفتنة .

و(قالوا) : إذا كان كشف الوجه واليدين يُثير الفتنة لجمالها الطّبيعى أو لما فيهما من الزّينة وأنواع الحَلْى فإنّه يجب عليها سترهما ويصيران [عورة] كبقيّة أعضاء جسدها، وذلك من باب سدّ الذّرائع وقطع دابر الفتنة وصيانة الآداب وحفظ الأعراض والأنساب .

ومن [تتبّع العورات] كذلك رميها بسهام العين وكشف حرمتها والتّلذُّذ بإمعان النّظر إليها . وللعلماء فى قوله «تَتَبَّعَ اللّهُ عَوْرَتَهُ» ثلاثة أقوال :

(الأوّل) أنّه جاء على سبيل المشاكلة أى كشف عيوبه ومن أقبحها تتبُّع عورة الأخ المسلم وهذا فى الآخرة .

(الثّانى) أن «يَفْضَحْهُ» فى الدّنيا بكشف مساوئه ولو كان فى وسط منزله مخفيًّا بين النّاس .

(الثّالث) أنّ مقصد قوله «يَفْضَحْهُ فِى بَيْتِه» : أى يردّ ذات الإساءة إلى أهله، لأنّه إذا كان قد استهان بعورات المسلمين ولم يحفظها ولم يغضّ البصر عنها فإنّ عوراته كذلك لا تكون بمنأى عن أعين النّاس وتسلُّط شهواتهم .

لقد شاءت إرادة الله الغالبة أن يُعامل عبده بما فيه من صفات وجوداً وعدماً، فمن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصّفة، وهو معنى قوله ﷺ من رواية ابن عدى مرفوعا «فَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَكُونُ لَكَ كَمَا تَكُونُ أَنْتَ لَهُ وَلِعِبَادِه» . فهو سبحانه ستّير يحبّ من يستر على عباده، فمن تتبّع عوراتهم تتبّع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن مكر بهم مكر به، ومن خادعهم خادعه، ومن شاقّ شاقّ الله به . فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه ولهذا جاء فى الحديث «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللّهُ تَعَالَى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ[1] » .

(المدخل الثّامن عشر)

تعرّض الشّيطان للمسلم عند الموت

تأتى استعاذة النّبى ﷺ من هَمَزَات الشّياطين ودفعاتهم ـ وهو معصوم منها ـ زيادة فى التّوقّى والالتجاء إلى الله تعالى وتعليما لأمّته وهو قُدوتها وأُسوتها : أن يتحصّنوا من

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٠٧٨] وأورده فى الصّحيحة [٢٣٤١] .

هَمَزَات الشّياطين وشرورهم في كلّ وقت، بل إنّ النّبي ﷺ ليوجه إلى الاستعاذة بالله تعالى من مجرّد اقتراب الشّياطين من المسلم لا من همزاتهم ودفعاتهم كما في قوله تعالى ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون: ٩٨]. أي الاستعاذة به سبحانه عند حضورهم كلّ شيء من شأن الإنسان، ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم المسلم ساعة الوفاة ويرجّح هذا المعنى أمران:

(الأوّل) ما يتلو الآية من سياق وهو قول الله تعالى﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[المؤمنون:٩٩]. على طريقة القرآن في تناسق المعاني وتتابعها. و(قال) عكرمة: عند النّزع والسّياق فأمَرَهُ أن يستعيذ من شرّ إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

(الثّاني) دعاؤه ﷺ «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ(١)».

(قال) الخطّابي [تأتي الاستعاذة من تخبُّط الشّيطان عند الموت من أن يستولي عليه عند مفارقته الدّنيا، ويحول بينه وبين التّوبة أو يعوقه عن إصلاح شأنه، والخروج من مظلمة تكون قِبَلَهُ، أو توبةُ من رَحِمَهُ الله تعالى، أو يُنَكِّرَهُ الموت ويتأسّف على حياة الدّنيا، فلا يرضى بما قضاه الله في النّقلة إلى الدّار الآخرة، فينمّ له بالسّوء ويلقى إليه وهو ساخط عليه، وقد روى أنّ الشّيطان لا يكون في حال أشدّ على ابن آدم منه في حال الموت، يقول لأعوانه: دُونَكُمْ هَذَا فَإِنْ فَاتَكُمُ الْيَوْمَ لاَ تَلْحَقُوهُ(٢)].

ولذلك ورد أنّ الملائكة تتعجّب عند خروج روح المؤمن ونجاته من الشّيطان لما أخرجه الإمام أحمد عن ابن رفيع قال [إِذَا عُرِجَ بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ سُبْحَانَ الَّذِى نَجَّى هَذَا الْعَبْدَ مِنَ الشَّيْطَانِ، يَاوَيْحَهُ كَيْفَ نَجَا؟(٣)].

(الباب الثّالث) - تعرّض الشّيطان لأهل المسجد

حرب الشّيطان على المسلم معلنة في كلّ الظروف والأحوال، والمسجد في خطط الشّيطان من محاور التّسلُّط ومحل الإغواء والإفساد، فتأتي تصرّفاته على النّقيض من رسالة المسجد وهديه، فَالْفُرْقَةُ سلاحُه في إفساد الجماعة، والخلل يُحدثه في الصّفوف هدما لوحدة الأمّة، والاختلاف فيها اختلاف للقلوب والمقاصد، ثمّ تأتي وسوسته بعد ذلك تضييعا لخشوع الصّلاة وأركانها.

ولـمّا كانت الصّلاة من أكثر الأعمال التي يريد الشّيطان أن يُفسدها ويُلبّسها على المسلم ويحول بينه وبين إقامتها على الوجه الأكمل، فإنّه آل على نفسه ألاّ يترك فرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف إلاّ وانتهزها، فهو متربّص بالمُصلّي حتّى إذا نودى بالصّلاة

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٥٢] والنّسائي [٥٥٤٦] والحاكم [١٩٨٤]. (٢) انظر سُنن أبي داود [ج ١ص ٥٧٣ - الهامش].(٣) أخرجه أحمد في الزُّهد [ص ١٦٧] طبعة أمّ القرى.

ولّى مدبرا ، فإذا ما انتهى من النّداء عاد مرّة أُخرى ليواصل مهمّة التّخريب والإفساد من جديد . ومن المسائل التى تساعده على تحقيق ذلك :

(ا) إدباره وإقباله إذا نُودى بالصّلاة

لمّا كان الأذان دعاء إلى الصّلاة المشتملة على السّجود الذى أباه وعصى ربّه بسببه ، وهو إعلام بالصّلاة التى هى أفضل الأعمال بألفاظ هى من أفضل الذّكر ، فلا يُزاد فيها ولا ينقص منها ، بل تقع على وفق الأمر الذى حدّده الشّرع ، فإنّ الشّيطان يهرب عند سماع الأذان والإقامة دون سماع القرآن والذّكر فيها لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «إِذَا نُودِىَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِين ، فَإِذَا قُضِىَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ ، حَتَّى إِذَا قُضِىَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِه يَقُولُ : اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لاَ يَدْرِى كَمْ صَلَّى[1]» .

وقوله «بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِه» : أى قلبه . (قال) الباجى [يمرُّ فيحولُ بين المرء و ما يُريد من نفسه من إقباله على صلاته وإخلاصه فيها[2]] . وعن أبى بحر : يخطِر - بكسرها - من قولهم : خطر البعير بذنبه إذا حرّكه ، فكأنّه يريد حركته بوسوسة النّفس وشغل السّر . أمّا قوله «لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ» . أى لشىء لم يكن على فكره وخاطره قبل دخوله فى الصّلاة ، وجاء فى رواية لمسلم «لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ[3]» .

وفيما يحدث من الشّيطان احتمالان :

(الأوّل) أنّه يصحُّ حمله على ظاهره إذ هو جسم مُتَغَذٍّ يصحّ منه خروج الرّيح وأنّ ذلك يحدث له من شدّة الغيظ والنِّفار وذلك لما يرى من ظُهور الإسلام ودخول النّاس فيه وامتثالهم أوامره ، كما جاء ت الأخبار بما يعتريه يوم عرفة لما يراه من اجتماع النّاس على البرّ والتّقوى ولما يتنزّل عليهم من المغفرة والرّحمة .

(الثّانى) أن يكون على سبيل التّمثيل فيُشبِّه النّبى ﷺ حال الشّيطان عند هروبه من سماع الأذان بحال من حَزَبَهُ أمر عظيم واعتراه خَطب جسيم فلم يزل يحصل له الضّراط من شدّة ما هو فيه ، لأنّ الواقع فى شدّة من خوف وغيره فإنّ مفاصله تسترخى ولا يملك نفسه فينفتح مخرجه [4] .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٨] ومسلم [٩١ / ٣٨٩] وأبو داود [٥١٦] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ١٠٢] .

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٩ / ٣٨٩] .

(٤) انظر المنهل العذب المورود [ج ٤ ص ١٧٥] .

وعندما يعترى الشّيطان من شدّة عند النّداء للصّلاة فإنّه يهرب حتّى لا يسمع التّأذين، فشبّه شغل الشّيطان نفسه عن سماع الأذان بالصّوت الذى يملأ السّمع ويمنعه عن سماع غيره ثمّ سمّاه [ضُراطا] تقبيحا له. وفى وصفه لما يعترى الشّيطان من حال جاء قوله ﷺ «إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ حُصَاصٌ[(١)]». وفى رواية «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِىَ بِالصَّلاَة وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ[(٢)]». ولمّا سُئل عاصم بن أبى النّجود عن الحُصَاص قال «مَا رَأَيْتَ الْحِمَارَ إِذَا صَرَّ بِأُذُنَيْهِ وَمَصَعَ بِذَنَبِه وَعَدَا فَذَلِكَ حُصَاصُهُ». [(٣)] وفى القاموس: [حَصَّ] الْفَرَسُ وغيره ـ حَصًّا. وحُصَاصًا: اشتدّ عَدْوُهُ فِى سُرْعَةٍ [[(٤)]].

وللعلماء فى الحكمة فى هروب الشّيطان عند سماعه الأذان والإقامة دون سماع القرآن فى الصّلاة عدّة أقوال:

(١) أنّه يهرب حتّى لا يشهد للمُؤذّن، فإنّه لا يسمع مدى صوت المؤذّن جنٌّ ولا إنس إلاّ شهد لـه يوم القيامة.

(٢) أو أنّه يهرب نفورا عن سماع الأذان ثمّ يرجع مُوسوسا ليفسد على المصلّى صلاته، فصار رجوعه من جنس فراره والجامع بينهما الاستخفاف، ولأنّ الأذان دعاء إلى الصّلاة المشتملة على السّجود الذى أباه وعصى ربّه تعالى بسببه.

(٣) وقيل إنّما يهرب لاتّفاق الجميع على الإعلان بشهادة الحقّ وإقامة الشّريعة لقوله ﷺ لعبد الله بن زيد «أَلْقِه عَلَى بِلاَلٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ[(٥)]». أى أقعد فى المدّ والإطالة والإسماع ليعُمَّ الصّوتَ ويطول أمد التّأذين فيكثر الجمع ويفوت على الشّيطان مقصوده من إلهاء المسلم الموحد عن إقامة الصّلاة فى جماعة أو إخراجها عن وقتها أو وقت فضيلتها فيفرّ حينئذ، وقد ييأس عن أن يردّهم عمّا أعلنوا به ثمّ رجع لما طُبع عليه من الأذى والوسوسة.

(٤) وقيل يهرب لما للأذان من هيبة يشتدّ انزعاج الشّيطان بسببها، لأنّه لا يكاد يقع فى الأذان رياء ولا غفلة عند النّطق به بخلاف الصّلاة فإنّ النّفس تحضر فيها فيفتح لها الشّيطان أبواب الوسوسة.

ويُستفادَ من قوله ﷺ «إِذَا نُودِىَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ» ما يلى:

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧ / ٣٨٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٨ / ٣٨٩].

(٣) انظر الفائق [١ / ٢٨٩] وتهذيب اللّغة [٣ / ٣٩٩].

(٤) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٥ ص ٢٠٢].

(٥) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٩٩].

(أوّلا) أنّ محلّ ما ذُكر إذا كان الأذان مُوافقا لما جاءت به الشّريعة المطهّرة من عدم التّغنّى والتّمطيط بكلماته والزّيادة عليها، بخلاف ما يقع من بعض مُؤذّنى أهل هذا الزّمان من التّغنّى والتّحريف فى كلماته، فإنّه لا يترتّب عليه ما ذكر، بل هو بُغية الشّيطان وهدفه السّاعى إليه.

(ثانيًا) أنّه يحمل الزّجر عن خروج المرء من المسجد بعد أن يُؤذّن المؤذّن لئلاّ يكون فى ذلك تشبّها بالشّيطان الذى يفرّ عند سماع الأذان.

(ثالثًا) استحباب رفع الصّوت بالأذان لأنّ قوله «حَتَّى لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِينَ» ظاهر فى أنه يبعد إلى غاية ينتفى فيها سماعه للصّوت غاية لإدباره.

(رابعًا) يُفهم من الحديث إمكانيّة الإتيان بصورة الأذان لدفع أذى الجنّ والاحتراز من شرّهم وإن لم توجد فيه شرائط الأذان من وقوعه فى الوقت وغير ذلك لما فى رواية مسلم من طريق سهيل قال «أَرْسَلَنِى أَبِى إِلَى بَنِى حَارِثَةَ وَمَعِى غُلاَمٌ لَنَا أَوْ صَاحِبٌ لَنَا، فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِط بِاسْمِه، فَأَشْرَفَ الَّذِى مَعِى عَلَى الْحَائِط فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لأَبِى فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ! وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَاد بِالصَّلاَة، فَإِنِّى سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِىَ بِالصَّلاَة وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ[(١)]».

وذكر ابن عبد البرّ عن مالك قال «اسْتُعْمِلَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَلَى مَعْدَنِ بَنِى سُلَيْم، وَكَانَ لاَ يَزَالُ يُصَابُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْجِنِّ، فَلَمَّا وَلِيَهُمْ شَكَوْا ذَلِكَ إِلَيْه، فَأَمَرَهُمْ بِالأَذَانِ وَأَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِه، فَفَعَلُوا فَارْتَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَهُمْ عَلَيْه حَتَّى الْيَوْمَ. قَالَ مَالِكٌ: فَأَعْجَبَنِى ذَلِكَ مِنْ زَيْد[(٢)]».

(٣) تعرّض الشّيطان لصفوف المصلّين

يعمل الشّيطان على إحداث الخلل فى صفوف جماعة الصّلاة بقصد تفريق المسلمين وقطع وشائج الألفة والمودّة بينهم، ولذلك جاء أمره ﷺ بالتّقارب بين الصّفوف ليكون تقارب الأشباح فيها سببا لتقارب الأرواح وتآلفها، فلا يستطيع الشّيطان أن يُوسوس لقول النّبى ﷺ من حديث أنس «رُصُّوا صُفُوفَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَهَا وَحَاذُوا بِالأَعْنَاق، فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَده إِنِّى لأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ[(٣)]». والخلل ما يكون بين الاثنين من الاتساع عند عدم التّرَاصّ، أمّا الفُرجة وجمعها فرجات، فهى المكان الخالى بين الاثنين فى الصّف.

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٨٩]. (٢) انظر المنهل العذب المورود [ج ٤ ص ١٧٧]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٦٦٧] وأحمد [١٣٧٣٧].

وقوله ﷺ «أقيموا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا بأَيْدِى إِخْوَانِكُمْ وَلاَ تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ[١]» . يؤكّد على عدم ترك فتحات فى الصّفوف فيدخل منها الشّيطان فيوسوس، وذكره بعد قوله «وَسُدُّوا الْخَلَلَ» . للتّنبيه على الحكمة فى سدّ الفُرج. كما جاء قوله ﷺ فى رواية النّسائى «إِنِّي لأَرَى الشَّيَاطِينَ تَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ[٢]» . وجاء عندالحاكم «تَرَاصُّوا فِي الصَّفِّ لاَ يَتَخَلَّلُكُمْ أَوْلاَدُ الْحَذَفِ[٣]» .

والحَذَفُ غنم صغار سود ليس لها أذناب يُؤتى بها من اليَمن واحدتها [حذفة] مثل قصب وقصبة [[٤]]. ولقد رأى رسول الله ﷺ دخول الشّيطان متمثّلا بهذه الصّورة لكون دخول الحذف أقرب ما يُرى فى العادة مع السّواد المشعر بقبح السّريرة فتمثّل الشّيطان فى الحديث يكون بتلك الصّورة .

وتشتمل الأحاديث على الدّلالات التّالية :

(١) طلب تسوية الصّفوف ومشروعيّة التّقارب بينها ، وعلى أنّ ترك تسوية الصّفوف وعدم التّقارب بينها سبب فى دخول الشّيطان بين المصلّين .

(٢) أنّ إفساد مراد الشّيطان فى ذلك لا يتحقّق إلاّ بالمحافظة على تسوية الصّفوف وتعديلها وسدّ الخلل والفُرجات فيها .

(٣) أنّ تسوية الصّفوف وسدّ فُرَجها سبب فى جمع الخاطر ووجدان حلاوة الطّاعة ، وكلّما رأى الشّيطان نقصا فى شىء من هذه المعانى كلّما كانت الفرصة مواتية لتداخله فى الصّفوف ووسوسته للمصلّين وإفساده عليهم صلاتهم .

(٣) دفع الشّيطان النّاس للمرور بين يدى المصلّى

من وسائل الشّيطان لقطع الصّلاة والتّشويش على صاحبها دفعه النّاس للمرور بين يدى المصلّى لقوله ﷺ من حديث أبى سعيد «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلْيَدْفَعْهُ ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ[٥]» .

وقوله «بَيْنَ يَدَيْه» : أى أمامه بالقرب منه ، وعبّر باليدين لكون أكثر العمل يقع بهما ، واختُلف فى تحديد ذلك فقيل إذا مرّ بينه وبين مقدار سُجوده ، وقيل بينه وبين قدر ثلاثة أذرع، وجاء تعليل ذلك على أمرين [[٦]] :

(١) حديث صحيح أخرجه أبوداود [٦٦٦] والنّسائى [٨١٨] بلفظ مُختصر . (٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٨١٤] وأبو داود [٦٦٧] وابن خُزيمة [١٥٤٥] . (٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٥٥٨] ونيل الأوطار [٣ / ١٨٨] . (٤) أخرجه الحاكم [٨٩٥] وافقه الذّهبى فى التّلخيص وقال صحيح على شرط الشّيخين. (٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠٩] ومسلم [٥٠٥] . (٦) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٩٦] .

(الأوّل) أنّ فعله هذا فعل الشّيطان لأنّه أبى إلاّ التّشويش على المُصلّى ، وإطلاق اسم الشّيطان على المارّ من الإنس سائغ شائع ، وقد جاء فى القرآن قول الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[الأنعام: ١١٢] . ويتضمّن جواز إطلاق لفظ الشّيطان على من يفتن فى الدّين ، وأنّ الحكم للمعانى دون الأسماء لاستحالة أن يصير المارّ شيطانا بمجرّد مروره .

(الثّانى) أنّ الحامل للمارّ على ذلك الشّيطان ، وقد وقع هذا المعنى فى قوله ﷺ «فإنّما مَعَهُ شَيْطَانٌ» . ونحوه لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما «فَإِنَّ مَعَهُ الْقَرِينَ[١]» . وقوله ﷺ عند الحاكم «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُصَلِّ إِلَى سُتْرَةٍ وَلْيَدْنُ مِنْهَا ، لا يَقْطَعُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ صَلاتَهُ[٢]» . واستنبط العلماء من قوله «فَلْيُقَاتِلْهُ» المدافعة اللّطيفة للمارّ بين يديه لا حقيقة القتال لجواز هذا الفعل فى الصّلاة عند البعض لضرورة ، أمّا مُقاتلة الشّيطان إنّما تكون بالاستعاذة والتّستّر عنه بالتّسمية ، وإنّما جاز الفعل اليسير فى الصّلاة لضرورة .

وجاء فى البخارى قوله ﷺ «إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِى فَشَدَّ عَلَيَّ لِيَقْطَعَ الصَّلاَةَ عَلَيَّ فَأَمْكَنَنِى اللهُ مِنْهُ[٣]» . وفى رواية مسلم «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ وَإِنَّ اللهَ أَمْكَنَنِى مِنْهُ فَذَعَتُّهُ[٤]» . أى خنقته ، وجاء فى رواية ابن أبى شيبة «فَدَعَتُّهُ» بالدّال من الدّعت : أى دفعته دفعا شديدا .

ويتأيّد هذا بما رواه الإمام أحمد فى مُسنده عن أبى سعيد الخُدرى «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فَصَلَّى صَلاَةَ الصُّبْحِ وَهُوَ خَلْفَهُ ، فَقَرَأَ فَالْتَبَسَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ قَالَ : لَوْ رَأَيْتُمُونِى وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِى فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالَّتِى تَلِيهَا[٥]» .

وعند العلماء فى قوله «لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ» احتمالان :

(الأوّل) أن يكون قطعها بمروره بين يديه وهو فى الصّلاة .

(الثّانى) أن يصدر من هذا العفريت أفعال يحتاج إلى دفعها بأفعال تكون منافية للصّلاة فتقطعها تلك الأفعال [[٦]] .

واتّفاق العلماء قائم على أنّ الدّفع والمقاتلة يكونان للخلل الذى يقع فى صلاة

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٠٦] .

(٢) أخرجه الحاكم [٨٥٦] وقال صحيح على شرط الشّيخين .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢١٠] .

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤١] وافقه البخارى [٤٦١] .

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١٧١٩] .

(٦) انظر أكام المرجان [ص ٧٥] .

المصلّى من المرور، لأنّ إقبال المصلّى على صلاته أولى له من اشتغاله بدفع الإثم عن غيره لما رواه ابن أبى شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه «إنَّ الْمُرُورَ بَيْنَ يَدَى الْمُصَلِّي يَقْطَعُ نِصْفَ صَلاَتِه».
وروى أبو نعيم عن عمر رضي الله عنه «لَوْ يَعْلَمُ الْمُصَلِّي مَا يَنْقُصُ مِنْ صَلاَتِه بِالْمُرُورِ بَيْنَ يَدَيْه مَا صَلَّى إِلاَّ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ». فهذان الأثران مُقتضاهما أنّ الدّفع لخلل يتعلّق بصلاة المُصلّى ولا يختصّ بالمارّ، وهما وإن كانا موقوفين لفظا فحُكمهما حُكم بالرّفع لأنّ مثلهما لا يُقال بالرّأى [(١)].

كما جاء الصّحيح الذى يُبيّن إثم المارّ بين يدى المصلّى فى قوله ﷺ من حديث أبى جُهَيم «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَى الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْه لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْه» قَالَ أَبُو النَّضْرِ «لاَ أَدْرِي قَالَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً(٢)». أى لو يعلم المارّ مقدار الإثم الذى يلحقه من مروره بين يدى المصلّى لاختار أن يقف المدّة المذكورة حتّى لا يلحقه شىء من ذلك الإثم.

وإبهام العدد فى قوله [أرْبَعِينَ]: يُشعر بأنّه جاء للمُبالغة فى تعظيم وتبشيع الأمر لا لخصوص عدد معيّن، وقال الحافظ [ظاهر السّياق أنّه عيّن المعدود ولكنّ الرّاوى شكّ فيه. ثمّ أبدى الكرمانى لتخصيص الأربعين بالذّكر حكمتين:

(الأولى) كون الأربعة أصل جميع الأعداد فلمّا أُريد التّكثير ضربت فى عشرة.

(الثّانية) كون كمال أطوار الإنسان بأربعين كالنُّطفة والمُضغة والعلقة وكذا بلوغ الأشدّ، ويُحتمل غير ذلك(٣)].

واستنبط العلماء من قوله ﷺ «لَوْ يَعْلَمُ» الدّلالات التّالية:

(١) أنّ الإثم يختصّ بمن يعلم بالنّهى وارتكبه.

(٢) أنّ الوعيد المذكور يختصّ بمن مرّ لا بمن وقف عامدا بين يدى المُصلّى أو قعد أو رقد، لكن إن كانت العلّة فيه التّشويش على المُصلّى فهو بمعنى المارّ.

(٣) أنّ ظاهره عموم النّهى فى كلّ مصلّ وخصّه بعض المالكية بالإمام والمنفرد، لأنّ المأموم لا يضرّه من مرّ بين يديه لأنّ سترة إمامه سترة له أو أنّ إمامه سترة له، (قال) فى الفتح: [والتّعليل المذكور لا يطابق المدّعى، لأنّ السُّترة تُفيد رفع الحرج عن المُصلّى لا عن المارّ فاستوى الإمام والمأموم والمنفرد فى ذلك(٤)].

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٩٦].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٠] ومسلم [٥٠٧] وأبو داود [٧٠١] والتّرمذى [٣٣٦].
(٣) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٩٧].
(٤) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٦٩٨].

(٤) تلبيس الشيطان على المصلي صلاته

الالتباس في اللُّغة من اللَّبْسِ وهو الخلط ويأتي بمعنى الاشتباه والإشكال، يقال: الْتَبَس عليه الأمْرُ من تلبَّس يتلبَّس تلبُّسًا: أُشكل عليه واختلط، وفي القاموس: لبس الشيء يلبسه لبسا خَلَطَهُ عليه وَعَمَّاهُ وَأَبْهَمَهُ وجعله مُشْكَلاً مُحَيِّرًا، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]. أي لعمّينا الأمر عليهم فلا يعلمون أهو رجل أم مَلَكٌ، وقول الله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]. أي لا تخلطوا الحقّ بالباطل فلا يُعرف في وسط الباطل.

[وعُرِّف الالتباس اصطلاحا بأنّه صيرورة شيء مشتبهًا بآخر بحيث لا يكون بينهما تفاوت أصلا، وعُرِّف كذلك بأنّه هو الإشكال، والفرق بينه وبين الاشتباه أنّ الاشتباه معه دليل يرجّح أحد الاحتمالين والالتباس لا دليل معه[1]].

والمسلم إذا قام يصلّي جاءه الشّيطان ليلبس عليه أمرها ويُخلّط عليه قراءتها فلا يدري أزاد أم نقص لقوله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «إنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَلَبَّسَ عَلَيْهِ حَتَّى لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ[2]». فكان من نتيجة تلبيس الشّيطان على المُصَلِّي نسيانه ما أدّى من فروض وأركان كما في قوله ﷺ «حَتَّى لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى». ويكون ذلك بواحد من أمرين:

(الأول) السّهو

السّهو هو الغفلة عن المعلوم وفي «القاموس» سَهَا في الأمر: نَسِيَهُ وغَفَلَ عنه وذهب قلبه إلى غيره، فهو سَاه وسهوَان. يقال: «غَفَلَ عَنْهُ غُفُولاً» تركه وسَهَا عنه، والسّهو خطأ عن غفلة وهو قسمان:

أحدهما ـ أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولّداته كمجنون سبّ إنسانًا وهذا معفوٌّ عنه لعلّة مرضه.

والثّاني ـ أن يكون منه مولّداته كمن شرب خمرا ثمّ ظهر منه مُنكر لا عن قصد إلى فعله وهذا مأخوذ به، و(في) غاية الوصول [السّهو الغفلة من المعلوم الحاصل فيتنبّه له بأدنى تنبيه بخلاف النّسيان[3]].

أمّا السّهو المذموم فقد جاء ذكره في موضعين من كتاب الله تعالى:

---

(١) انظر المصباح المنير [ص٢٠٩] ودستور العلماء [١/ ١٦٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٢٣٢] والنّسائي [١٢٥١] والتّرمذي [٣٩٨].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [٢/ ٣٠٢-٣٠٣].

(الأوّل) عندما نعت البيانُ القرآنى هؤلاء الكذّابين الذين يتخرّصون بما لا يعلمون وهم لاهُون عن ذكر الله تعالى، غافلون عن أمر الدّين وأمر الآخرة فى قوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[الذّاريات: ١١]. أى ساهون لا يشعرون بشيء من حولهم ولا يتبيّنون الحَقّ كأنّهم سُكارى مذهولون، أو هم مغمورون بالضّلالات والأوهام لا يفيقون ولا يستيقظون [(١)].

(الثّانى) عندما كشف عن مسلك هؤلاء المرائين الذين يسهون عن الصّلاة فلا يؤدّونها فى أوقاتها تهاونا بها فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. وفيه قال المفسّرون: لمّا قال الله تعالى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ بلفظة [عَن] عُلم أنّها فى المنافقين، ولو قال [فِى صَلَاتِهِمْ] لكانت فى المؤمنين، والفرق بين السّهوين واضح:

* فالمؤمن يعتريه السّهو عندما يُقبل على وسواس الشّيطان إذا قال له أذكر كذا أذكر كذا لمَا لَمْ يَكُن يذكُر حتّى لا يدرى كم صَلّى، وذلك أمر لا يكاد يخلو منه غيره، فإذا سها تدارك سهوه فى الحال جبرا بالسّجود وترغيما للشّيطان لقول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة «إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِه يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا، مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ قَبْلُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِى كَمْ صَلَّى(٢)».

ومعنى قوله «يَخْطُرُ» بالكسر: يُوسوس وأصله من خطر البعير بذَنَبه إذا حرّكه فضَرَبَ به فَخذَيْه، ويكون بالضّم: من المرور أى يدنو منه فيمرّ بينه وبين قلبه فيشغله فيحول بين المرء وبين ما يريده من إقباله على صلاته وإخلاصه فيها بتذكيره لشيء لم يكن على ذكره قبل دخوله فى الصّلاة وهو ما أشار إليه ﷺ فى قوله عند مسلم «فهَنَّاهُ ومَنَّاهُ وَذَكَّرَهُ مِنْ حَاجَاتِه مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ(٣)».

ومن ثمّ استنبط أبو حنيفة للّذى شكا إليه أنّه دفن مالا ثمّ لم يهتد لمكانه أن يصلّى ويحرص أن لا يحدّث نفسه بشيء من أمر الدّنيا، ففعل فتذكّر مكان المال فى الحال، قيل: [خصّه بما يعلم دون ما لا يعلم لأنّه يميل لما يعلم أكثر لتحقّق وجوده، والأظهر أنّه يُذَكّره بما سبق له به علم ليشتغل باله به بما لم يكن سبق له ليوقعه فى التّفكير فيه(٤)]. وقوله «حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ»: غاية لوسوسة الشّيطان أى أنّه يوسوس للرّجل حتّى يصير لا يدرى كم صلّى من الرّكعات أثلاثا أم أربعا!.

---

(١) انظر فى ظلال القرآن [٢٧ / ٣٣٧٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٨] ومسلم [٣٨٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٤ / ٣٨٩].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ١٠٣].

* أمّا سهو المنافق فهو سهو التّرك والغفلة فهو لا يتذكّر وقتها إهمالا، وينشغل عن أدائها بدنياه تهاونا فى إقامتها وتفريطا في حقّها، وفي تعريفه لهذا السّهو قال ابن عبّاس رضي الله عنه [هُوَ الْمُصَلِّى الَّذى إنْ صَلَّى لَمْ يَرْجُ لَهَا ثَوَابًا وَإنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخْشَ عَلَيْهَا عِقَابًا(١)]. وهذا التّفصيل يقف بنا أمام أمرين [(٢)]:

(الأول منهما): يُبيِّن أنّ السّلامة من السّهو مُحال، وأنّه أمر قد يعرض له كلّ من أقبل على الصّلاة ويجرى عليه ما جرى على النّبى ﷺ عندما جاء سهوه بيانا للحكم الشّرعي إذا وقع مثله، ولتقتدى به الأمّة الرّاشدة فيما شرعه لها عند السّهو لقوله ﷺ «إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونى(٣)».

(قال) النّووى [فيه دليل على جواز النّسيان عليه ﷺ فى أحكام الشّرع وهو مذهب جمهور العلماء وهو ظاهر القرآن والحديث: اتّفقوا على أنّه ﷺ لا يُقَرُّ عليه بل يعلمه الله تعالى به، ومنعت طائفة من العلماء السّهو عليه ﷺ فى الأفعال البلاغية والعبادات كما أجمعوا على منعه واستحالته عليه ﷺ فى الأقوال البلاغية، والصّحيح الأوّل فإنّ السّهو لا يناقض النُّبوّة، وإذا لم يُقرّ عليه لم يحصل منه مفسدة، بل يحصل فيه فائدة وهى بيان الأحكام للنّاسى وتقريرها(٤)].

ثمّ بتقدير وقوع السّهو منه ﷺ فإنّ السّهو يأتى على ثلاثة أقسام:

(أحدها) سهو الرّسول ﷺ والصّحابة وذلك منجبر بسجود السّهو.

(والثّانى) ما يكون فى الصّلاة من الغفلة وعدم استحضار الفروض والأركان.

(والثّالث) التّرك الذى يُؤدّى إلى إخراج الفريضة عن وقتها بتكاسل وغفلة.

(الأمر الثّانى): يُؤكّد أنّ الذّم الوارد فى الآية الكريمة يتعلّق بمن عقد نيّته على ترك الصّلاة إذا جاء وقتها أو لم تكن عادته التّرك لها، ولا يدخل فيه من يقبل على الوسواس حتّى لا يدرى كم صلّى.

(الثّانى) النّسيان

النّسيان ضدّ التّذكُّر والحفظ، ونسيان الشّىء تركه على ذهول وغفلة، يقال رجل [نَسْيَانٌ] بفتح النّون: كثير النّسيان للشّىء، وفى «الموسوعة الفقهيّة»: هو عدم استحضار صورة الشّىء فى الذّهن وقت الحاجة إليه من غير آفة فى عقله ولا فى تمييزه، [أو] هو فِقْدَانٌ

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢١١].

(٢) انظر أحكام القرآن [ج ٤ ص ١٩٨٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧٢] وافقه البخارى [٤٠١] وأبو داود [١٠٢٠].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٧٢].

مُؤَقَّتٌ لما حفظه الذِّهْنُ من صُور وأفكار وكلام [(١)].

ولا فرق بين السّهو والنّسيان من حيث الحكم ومعناهما عند اللُّغويّين: الغفلة عن الشّيء وذهاب القلب إلى غيره، وقيل عدم استحضاره وقت الحاجة، وقيل السّهو زوال صورة الشّيء من المدركة مع بقائها في الحافظة، والنّسيان زوالهما معا.

و(قال) في النّهاية: [السّهو في الشّيء تركه من غير علم، والسّهو عن الشّيء تركه مع العلم به، وبذلك يظهر الفرق بين السّهو الذى يقع «فى» الصّلاة والسّهو «عن» الصّلاة. وفي أحكام القرآن: النّسيان هو التّرك، وقد يكون بقصد، وقد يكون بغير قصد، فإن كان بقصد فاسمه العمد، وإن كان بغير قصد فاسمه السّهو(٢)].

وعلى ذلك فإنّ النّسيان يكون أمرا مشتركا يدور بين معنيين:

(أحدهما) التّرك عن عمد ومنه قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. لأنّه موضوع تناس لا نسيان إلاّ على التّشبيه.

(والثّانى) ترك الشّيء عن ذهول وغفلة وهو خلاف التّذكُّر، وهذا ينقسم إلى قسمين:

(١) النّسيان من غير غفلة كنسيان النّبى ﷺ فى الصّلاة كما فى قوله «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي(٣)». وقوله وقد سمع قراءة رجل «لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا، آيَةً كُنْتُ أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا(٤)».

(قال) الجمهور: يجوز على النّبى ﷺ أن ينسى شيئا من القرآن بعد التّبليغ لكنّه لا يُقَرُّ عليه، وكذا يجوز أن ينسى ما لا يتعلّق بالإبلاغ ويدلّ عليه قول الله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦(٥)].

(٢) النّسيان النّاتج من استحواذ الشّيطان وتغليقه على مدركة الإنسان وحافظته فيحُول دون احتضار الشّيء وتذكُّره كما في قوله تعالى ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾. وقوله تعالى ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾. وهو ما يفسّره قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَلَبَسَ عَلَيْهِ حَتَّى لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ(٦)».

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [٣ / ٤١٥] والموسوعة الفقهيّة [٧ / ١٦٢].

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٤ ص ١٩٨٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧٢] وافقه البخارى [٤٠١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٣٥] ومسلم [٧٨٨].

(٥) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٤٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٨٩] والنّسائى [١٢٥١].

وقوله ﷺ من حديث أبي سعيد «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِه فَلْيُلْغِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى الْيَقِينِ، فَإِذَا اسْتَيْقَنَ بِالتَّمَامِ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعَتَا لَهُ صَلَاتَهُ، إِنْ صَلَّى أَرْبَعًا كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ[1]».

والشّكُّ [في اللُّغة] مُطلق التّردُّد بين الشّيئين فإن استوى طرفاه تحرّى المصلّي الصّواب وبنى على الأغلب عنده لقوله ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِه فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ وَلْيَبْنِ عَلَيْه، فإذا سَلَّمَ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ[2]». وإن لم يترجّح له أحد الطّرفين بنى على اليقين وهو الأقل لقوله ﷺ «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِه فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ[3]».

والتّحرِّي لغة القصد والطّلب والابتغاء ومنه قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجنّ: ١٤]. أي قصدوا طريق الحقّ واجتهدوا في طلبه ومنه قول النّبي ﷺ «فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ». أي يقصد الصّواب ويعمل عليه. و[اصطلاحا] هو طلب الأحرى من الأمر: أي الأغلب الذي ينتهي إليه حدّ الطّلب، يقال تحرّيت في الأمر: إذا اجتهدت في طلب ما يُثبت حقيقته.

والتّحرّي غير الشّكّ والظّن، فإنّ الشّك أن يستوي طرفا العلم والجهل، والظّن ترجُّح أحدهما بدون دليل، والتّحرِّي ترجّح أحدهما بغالب الرّأي وهو دليل يُتوصّل به إلى طرف العلم وإن كان لا يُتوصّل به إلى ما يُوجب حقيقة العلم [[4]].

ويفرِّق الحنفيُّون بين التّحرِّي والبناء على اليقين وبه قال أبو حاتم وابن حبّان في صحيحه، فإذا شكّ المرءُ في صلاته فلا يدري ما صلّى فعليه أن يتحرّ الصّواب ويبنِ على الأغلب عنده، وإذا شكّ في الثّنتين أو الثّلاث أو الثّلاث والأربع، فعليه أن يلغي الشّك ويبني على اليقين وهو الأقلّ.

والمراد بالتّحرِّي عند الشّافعيّة البناء على اليقين لا على الأغلب لأنّ الصّلاة في الذّمّة بيقين فلا تسقط إلاّ بيقين، ومن شكّ في صلاته عند المالكيّة بنى على الأقلّ، فلو بنى على الأكثر بطلت صلاته، إلاّ إذا كان الشّك يأتيه كلّ يوم في صلاته ولو مرّة، فإنّه يبني على الأكثر ويعرض عن الشّك ويسجد بعد السّلام ترغيماً للشّيطان، فلو بنى على الأقل

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي [١٢٣٧] وأبو داود [١٠٢٤] والدّارمي [١٤٩٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧٢] وافقه البخاري [٤٠١] وأبوداود [١٠٢٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧١] وابن ماجه [١٠٠٤].

(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥].

صحّت صلاته لأنّه رجوع إلى الأصل عندهم [(١)].

وفى المشهور عن أحمد أنّ المُصَلّى إذا كان إماماً تحرّى وبنى على غالب ظنّه وأكثر وَهْمه، وإن كان منفرداً بنى على اليقين، وهذه طريقة أكثر أصحابه فى تحصيل ظاهر مذهبه، وعنه روايتان أخريان ذكرهما ابن القيّم فى الزّاد :

إحداهما - أنّه يبنى على اليقين مُطلقًا وهو مذهب الشّافعى ومالك .

والأُخرى - على غالب ظنّه مُطلقًا .

وظاهر نصوصه إنّما يدلّ على الفرق بين الشّكّ وبين الظّن الغالب القوى، فمع الشّك يبنى على اليقين، ومع أكثر الْوَهْم أو الظّن الغالب يتحرّى [(٢)].

(قال) الشّوكانى [والذى يلوح لى أنّه لا معارضة بين أحاديث البناء على الأقلّ والبناء على اليقين وتحرّى الصّواب، وذلك لأنّ التّحرّى فى اللّغة هو طلب ما هو أحرى إلى الصّواب وقد أمَرَ به رسول الله ﷺ وأمَرَ بالبناء على اليقين والبناء على الأقل عند عروض الشّك .

فإن أمكن الخروج بالتّحرّى عن دائرة الشّك لغة ولا يكون إلاّ بالاستيقان بأنّه قد فعل من الصّلاة كذا ركعة، فلا شكّ أنّه مُقدّم على البناء على الأقل، لأنّ الشّارع قد شرط فى جواز البناء على الأقل عدم الدّراية كما فى حديث عبد الرحمن بن عوف أنّ النّبى ﷺ قال «إِذَا سَهَا أَحَدُكُمْ فِى صَلاَتِه فَلَمْ يَدْرِ وَاحِدَةً صَلَّى أَم اثْنَتَيْنِ ؟ فَلْيَبْنِ عَلَى وَاحِدَة، فَإِنْ لَمْ يَدْرِ اثْنَتَيْنِ صَلَّى أَمْ ثَلاَثًا، فَلْيَبْنِ عَلَى ثِنْتَيْن، فَإِنْ لَمْ يَدْرِ ثَلاَثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَبْنِ عَلَى ثَلاَث وَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ (٣) » .

وهذا المتحرّى قد حصلت له الدّراية، وأمر الشّاك بالبناء على ما استيقن كما فى حديث أبى سعيد، ومن بلغ به تحرّيه إلى اليقين قد بنى على ما استيقن، وبهذا تعلم أنّه لا معارضة بين الأحاديث المذكورة وأنّ التّحرّى مقدّم على البناء على الأقلّ (٤)] .

وعلى ضوء ما تقدّم فإنّ حال من قام يُصَلّى الظُّهر فشكّ فى الرّكعة التى يؤدّيها هل هى الثّالثة أم الرّابعة لا يخلو من أمرين :

الأوّل - أن يترجّح عنده أنّها الرّابعة فيعمل بما ترجّح ويتمّ عليه صلاته ويسلّم ثم يسجد للسّهو ويسلّم كما فى حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

---

(١) انظر المنهل العذب المورود [ج ٦ ص ١٤٧].

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ١ ص ٢٩٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٦٥٦] وابن ماجه [١٠٠٣] والتّرمذى [٣٩٨] .

(٤) انظر نيل الأوطار للشّوكانى [٣/ ١٣١].

الثّاني - أن يبقى على شكّه ولا يترجّح عنده أنّها الثّالثة أو الرّابعة فيبني على اليقين وهو الأقلّ فيجعلها الثّالثة ويأتي بعدها بركعة ويسجد للسّهو ويسلّم كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

ثمّ ذكر العلماء أمراً ثالثاً يتعلّق بمن شكّ في صلاته ثمّ زال شكّه وتيقّن ما صلاّه فإنّه يسجد للسّهو سجدتين قبل السّلام لتردّده أثناء الصّلاة لقوله ﷺ «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِه، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى؟ ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا؟ فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ[1]».

وفي الحديث الدّلالة على أنّ من شكّ في صلاته ثمّ زال شكّه وتيقّن ما صلاّه يسجد للسّهو قبل السّلام، وعلى المسلم إذا صادف شكّا أو تلبيسا أن يراغم الشّيطان بهاتين السّجدتين كما في قوله ﷺ «كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ[2]». وعند أبي داود «وَكَانَتِ السَّجْدَتَانِ مُرْغِمَتَيِ الشَّيْطَانِ[3]». أي مغيظتين له ومذلّتين من الرّغام: وهو التّراب، يقال أرغم الله أنفه أي ألصقه بالتّراب، وفيه قال ابن عبّاس «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمَّى سَجْدَتَيِ السَّهْوِ الْمُرْغِمَتَيْنِ[4]». وهي تثنية مرغمة من الإرغام وهو القسر والإذلال.

والمراد أنّ السّجدتين كما تُسَمَّيان سجدتي السّهو تُسَمَّيان المرغمتين، وإن صلّى المسلم إتماما كانت السّجدتان إغاظة للشّيطان وإذلالا له، وتداركا لما لبّسه عليه في صلاته وردّه خاسئا مدحورا مبعدا عن مراده في إفسادها، وطريقا إلى جبرها بالسّجود الذي عصى به إبليس ربّه تعالى.

(٥) اختلاس الشّيطان من صلاة العبد

لا يزال الله تعالى مُقبلاً على عبده ما دام العبد مُقبلاً عليه في صلاته، فإذا التفت العبد بقلبه أو ببصره أعرض الله عنه، والتفات القلب في الصّلاة يكون بسهوه وغفلته، وعدم إقباله على ربّه وانشغال فكره بما ليس من الصّلاة لقوله ﷺ «لاَ يَزَالُ اللهُ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلَاتِه مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ[5]».

وإقبال الله على العبد يكون بفيضه ورحمته وإحسانه ومغفرته، ولا ينقطع عنه ذلك ما لم يتعمّد الالتفات في الصّلاة إمّا بقلبه أو بنظره، فإذا التفت انقطع عنه ذلك الخير، والالتفات المنهي عنه في الصّلاة قسمان:

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٧١] وأبو داود [١٠٢٤]. (٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٨/ ٥٧١] والنّسائي [١٢٣٧]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٠٢٤] ومسلم [٥٧١] والنّسائي [١٢٣٨] بنحوه. (٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٠٢٥] والحاكم [١٣٣٩].

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٤٠٠] وأبوداود [٩٠٩] والنّسائي [١١٩٤].

(الأوّل) الالتفات الظّاهرى

ويكون بالتفات البصر أو بالتّحوُّل عن القبلة ببعض البدن وللعلماء الأعلام فيه ثلاثة أقوال :

(الأوّل) كراهة الالتفات بالوجه عن القبلة لغير عذر لقول أمّ المؤمنين عائشة «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الالْتِفَاتِ فِى الصَّلاَةِ فَقَالَ هُوَ اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ(١)». وجاء عند أبى داود بلفظ «إِنَّمَا هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ». أى اختطاف يختطفه الشّيطان من العبد.

والاختلاس: من خَلَسَ الشّىْءَ من يده ـ يَخْلِسُ خَلْسًا فهو خَالِسٌ: استلبه. وخَالَسَ [الرَّجُلَ] يُخَالِسُهُ مُخَالَسَةً: انتهز منْهُ فُرْصَةً فأعجله. والمرادُ ذهاب شىء من كمال الصّلاة بسبب التفاته، وفى الحديث الدّلالة على كراهة الالتفات بالوجه فى الصّلاة من غير حاجة وهو متّفق عليه.

(الثّانى) جواز الالتفات إذا كان لعذر بلا كراهة اتّفاقا لقول جابر «اشْتَكَى النَّبِىُّ ﷺ فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَآنَا قِيَامًا، فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا فَصَلَّيْنَا بِصَلاَتِهِ قُعُودًا(٢)». ولقول سهل بن الحنظلية «ثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ ـ يَعْنِى صَلاَةَ الصُّبْحِ ـ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّى وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ، قَالَ: وَكَانَ أَرْسَلَ فَارِسًا إِلَى الشِّعْبِ مِنَ اللَّيْلِ يَحْرُسُهُ(٣)».

هذا ما يتعلّق بالالتفات بالوجه، أمّا التفات البصر يُمنة ويُسرة من غير تحويل الوجه لغير حاجة فخلاف الأوْلى، ولا بأس به لحاجة عند الحنفيّين ومالك، وعليه يُحمل قول ابن عبّاس «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَلْحَظُ فِى الصَّلاَةِ يَمِينًا وَشِمَالاً وَلاَ يَلْوِى عُنُقَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ(٤)». أى ينظر بمؤخّر عينيه، و«اللَّحْظُ»: هوَ النّظر بطرف العين الذى يلى الصُّدْغ تارّة إلى اليمين وتارّة إلى جهة اليسار ولا يميل عنقه، والمراد بالالتفات المذكور ما لم يستدبر القبلة بصدره أو عنقه كلّه.

(الثّالث) حرمة الالتفات والتّحوُّل عن القبلة بجميع بدنه لكونه مُبطل للصّلاة اتفاقًا، وكذا التّحوُّل بالصّدر عند الحنفيّة والشّافعيّة، ولا تبطل عند الحنبليّة إلاّ إن استدار بجُملته أو استدبرها فى غير الكعبة وشدّة الخوف، وكذا لا تبطل عند المالكيّة ما لم يكن فى القبلة التى يضرّ فيها الانحراف اليسير كالمُصَلِّى إلى عين الكعبة فإنّ صلاته

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٩١] وأبو داود [٩١٠] والنّسائى [١١٩٥]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤١٣] وأبو داود [٦٠٦] وابن ماجه [١٠٢٩]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٩١٦]. (٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٥٨٧] والنّسائى [١٢٠٠].

تبطل متى خرج عن سَمْتِهَا بوجهه أو بشيء من بدنه.

وقيل إنّ الحكمة في جعل سُجود السّهو جابرا للمشكوك فيه دون الالتفات وغيره ممّا ينقص الخشوع لأنّ السّهو لا يُؤاخذ به المكلّف، فشرع له الجبر دون العمد ليتيقّظ العبد له فيتجنّبه، ودليل ذلك قول عائشة «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَمِيصَةٍ[1] لَهَا أَعْلاَمٌ فَقَالَ شَغَلَتْنِي أَعْلاَمُ هَذِهِ، اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِه[2]».

والدّلالة فيه أنّ أعلام الخميصة إذا لحظها المصلّي وهي على عاتقه كان قريبا من الالتفات، ولذلك خلعها رسول الله ﷺ مُعلّلاً ذلك بوقوع بصره على أعلامها وسمّاه شغلا عن صلاته، وأنّ علّة كراهة الالتفات كونه يؤثّر في الخشوع، ويحتمل أن يكون أراد أنّ ما لا يُستطاع دفعه معفوٌّ عنه، لأنّ لمح العين يغلب الإنسان ولهذا لم يُعِد النّبيُّ ﷺ تلك الصّلاة.

أمّا قول النّبي ﷺ «شَغَلَتْنِي أَعْلاَمُ هَذِه»: يعني كادت تُشغله وتُلهيه عن كمال الحضور في الصّلاة وليس المراد أنّها شغلته ﷺ بالفعل، وتؤيّده رواية مسلم عن عائشة من قوله ﷺ «اذْهَبُوا بِهَذِهِ الْخَمِيصَةِ إِلَى أَبِي الْجَهْمِ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنفًا فِي صَلاَتِي[3]». وهو معنى رواية مالك في الموطأ «فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَى عَلَمِهَا فِي الصَّلاَةِ فَكَادَ يَفْتِنَنِي[4]». فإطلاق رواية عائشة للمبالغة في القرب لا لتحقّق وقوع الشّغل [[5]].

(الثّاني) الالتفات الباطني

ويكون بالتفات القلب إلى غير الله عزّ وجلّ وانشغاله بأمور الدّنيا وهو في الصّلاة، فقد يشغل الشّيطان المُصلّي بأشياء تأخذ بفكره بعيدا عن مُناجاة ربّه جلّ ثناؤه وخشوعه له وهو في موقف الرّحمة والإجلال، فهو يحرص أن لا يقيمه فيه بل لا يزال به يَعِدُهُ ويُمَنِّيه ويُنسيه ويجلب عليه بخيله ورَجِله، حتّى يُهَوِّنَ عليه أمر الصّلاة فيحول بينه وبين قلبه ويخطر بينه وبين نفسه فيقوم فيها بلا قلب لانشغاله بغير المقصود وهو الذي سمّاه الرّسول الكريم ﷺ كما في حديث عائشة «اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ».

---

(١) الْخَمِيصَةُ: هي ثَوْبٌ مِنْ صُوفٍ وسُمِّيَ بذلك لرقّته وصغره إذا طُوِيَ، والأَعْلاَمُ: نقوشٌ وعلاماتٌ تُمَيِّزُ الثّوب، وكان أبو الجهم قد أهدى الخميصة للنّبي ﷺ ثمّ ردَّهَا عليه للنّقوش التي شغلته في الصّلاة، ثمّ طلب منه ثوبا غيرها ليُعلمه أنّه لم يردّ عليه هديته استخفافا به بقوله ﷺ «وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِه» وهي كساء غليظ قريب من العباءة له خَمْلٌ، وهو منسوب إلى موضع اسمه أنبجان.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٥٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٥٦] وأبو داود [٩١٤] وابن ماجه [٢٨٧٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه مالك في الموطأ [٢١٢].

(٥) انظر المنهل العذب المورود [ج ٦ ص ٩].

وذكر العلماء أنّ الحكمة من تسمية الالتفات اختلاسا تعود إلى :

(١) أنّ الشّيطان عندما يُشغل المُصلّي عن صلاته بالالتفات إلى شيء ما بغير حُجّة يقيمها ، أو أن يأخذ بخاطره بعيدا عن قراءتها وخشوعها يكون أشبه بالمُختلس الذى يخطف من غير غلبة ويقتنص من غير صعوبة ويهرب ولو مع معاينة المالك له ، فالنّاهب يأخذ بقوّة والسّارق يأخذ خُفية .

(٢) وأنّ الهجمة التى يظفر فيها الشّيطان بقلب المُصلّي فيختلس منه صلاته وخشوعه تكون على حين غفلة وغرّة منه .

(٣) وأنّ ذلك سُمّيَ اختلاسًا تصويرًا لقُبح الفعلة بالمختلس ، لأنّ المُصلّي يقبلُ عليه الخالق سبحانه وتعالى والشّيطان مرتصّد له ينتظر فوات ذلك عليه ، فإذا التفت اغتنم الشّيطان الفرصة فسلبه تلك الحالة [(١)] .

وممّا يدلّ على ذمّ الالتفات في الصّلاة ما رُوى عن الحارث الأشعرى من قوله ﷺ «إنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ بالصَّلاَة فإذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفتُوا ، فَإنَّ اللّه تَعَالَى يَنْصبُ وَجْهَهُ لوَجْه عَبْده في صَلاَته مَا لَمْ يَلْتَفتْ(٢)» . وقوله ﷺ من حديث أنس «إيَّاكَ وَالالْتفَاتَ في الصَّلاَة فَإنَّ الاَلْتفَاتَ في الصَّلاَة هَلَكَةٌ(٣)» .

وسُمّيَ الالتفات في الصّلاة «هَلَكةٌ» باعتبار كونه سببا لنقصان الثّواب الحاصل بالصّلاة ، أو لكونه نوعا من تسويل الشّيطان واختلاسه ، فمن استكثر منه كان من المتتبّعين لخطى الشّيطان واتّباع الشّيطان هَلَكَة ، أو لأنّه إعراض عن التّوجّه إلى اللّه تعالى والإعراض عنه عزّ وجلّ هلَكة [(٤)] . والأحاديث تدلّ على كراهة الالتفات في الصّلاة وهو قول الأكثر ، والجمهور على أنّها كراهة تنزيه ما لم يبلغ إلى حدّ استدبار القبلة ، والحكمة في التّنفير منه لما فيه نقص من الخشوع والإعراض عن اللّه تعالى وعدم التّصميم على مخالفة وسوسة الشّيطان لعنه اللّه تعالى [(٥)] .

(٦) تسلّط الشّيطان بالوسوسة

جاء القرآن الكريم مشتملا على الاستعاذة من شرّ المخلوقات النّافثة الحاسدة ، ومن شرّ الخنّاس الذى يُوسوس فى صدور النّاس ، والذى هو السّبب الأقوى فى الذّنوب والمعاصى ،

(١) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ٢٧٤] .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٧١٠٤] والتّرمذى [٢٨٦٣] .

(٣) أخرجه التّرمذى [٥٨٩] وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) انظر نيل الأوطار للشّوكانى [ج ٢ ص ٣٧١] .

(٥) انظر تحفة الأحوذى [ج ٢ ص ٥٠٨] .

ومنشأ العقوبة فى الدّنيا والآخرة كما ذكرته الآيات الكريمة :

(١) فتضمّنت «سورة الفلق الاستعاذة من الشّر الذى هو ظُلم الغير للغير بالسّحر والحسد وهو شرّ من «الخارج» ، فلا يدخل تحت التّكليف ولا يُطلب منه الكفّ عنه لأنّه ليس من «كسبه وإرادته» كما فى قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٣ ـ ٥] .

فجاءت الاستعاذة من شرّ المخلوقات عموما وخصوصا ، ولهذا استُعيذ فيها بربّ الفلق ، ففالق الإصباح بالنّور يُزيل بما فى نوره من الخير ممّا فى الظّلمة من الشّر .

(٢) أمّا سورة النّاس فقد اشتملت على الاستعاذة من الشّر الذى هو سبب ظلم العبد لنفسه ، فهو شرّ من الدّاخل يقع تحت التّكليف ويتعلّق به النّهى عن الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ، كما تضمّنت الاستعاذة من شرّ نفسه لقوله سبحانه ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النّاس: ٤ ـ ٥] .

وفيه يُطلق النّص [صفته أولا] بقوله ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ ثمّ [يحدّد عمله] بأنّه ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ . ثم يشير [إلى ماهيّته] : على أنه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ . وهذا التّرتيب يُثير فى الحسّ اليقظة والتّلفّت والانتباه ليبيّن حقيقة هذا [الوسواس الخنّاس] بعد إطلاق صفته فى أوّل الكلام ، ولإدراك طريقة فعله التى يتحقّق بها شرّه تأهّبا لدفعه أو مراقبته .

ويُستفاد من ذلك أنّ المستعاذ به فى «سورة الفلق» مذكور بصفة واحدة وهى أنّه [ربُّ الفلق] والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات هى [الغاسق والنّفّاثات والحاسد] . أمّا المستعاذ به فى «سورة النّاس» فمذكور بصفات ثلاثة وهى [الرَّبُّ والمَلك والإله] . والمستعاذ منه آفة واحدة وهى [الوسوسة] . والفرق بين الموضعين أنّ الثّناء يجب أن يتقدّر بقدر المطلوب ، فالمطلوب فى السّورة الأولى [سلامة النّفس والبدن] . والمطلوب فى السّورة الثّانية [سلامة القلب والدّين] . وهذا تنبيه على أنّ مضرّة الدّين وإن قلّت أعظم من مضارّ الدّنيا وإن عظمت [[1]] .

وسوسة الشّيطان لآدم وحوّاء عليهما السّلام

ووسوسة الشّيطان لأبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام قصّة خلّدها القرآن الكريم فى آياته البيّنات لتؤكّد أنّ الصّراع بين الحقّ وجنده من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٣٢ ص ١٩٨] .

من سُنن الحياة الدّنيا، ومن العجيب في حياة البشر أنّه منذ رفض إبليس اللّعين السّجود لآدم سُجود تكريم واحترام وتوقير، وليس سُجود عبادة وخضوع وتسليم، أخذ يفكّر في كيفيّة الكيد له ولزوجه، فكانت الوسوسة هي السّبيل الذي أراد من خلاله أن يقعد لآدم وذرّيته من بعده بكلّ صراط، ووسوسة الشّيطان للإنسان لا تقوده إلاّ إلى هيمنته على قلبه واستزلاله له والدّفع به إلى ارتكاب المآثم والمهلكات، وتُؤخذ عبرة ذلك من واقعة غواية الشّيطان لأبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام والتي جاء ذكرها في ثلاث آيات بيّنات :

(الأولى) قوله تعالى﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾[البقرة: ٣٦]. وقوله ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾ أي أزلقهما بمعنى أذهبهما، من (الزّلل) وهو عثور القدم، ثمّ استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازا، يقال [زلّ] [يزلّ] [زلاً] و[زللا] و[زليلا] بمعنى سقط منزلقا في طين، و[الإزلال] هو الإزلاق، والاسم [الزّلة]. يقال: [أزلّه] غيره و[استزلّه] بمعنى أزلقه في الطّين أو الوحل، أو أوقعه في خطيئته، وقد يكون اللّفظ مستمداً من [الإزالة] بمعنى التّنحية والإبعاد، والضّمير في قوله تعالى﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾ عائد على أبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام عندما أُسكنا الجنّة ثمّ طُردا منها، بمعنى أنّ الشّيطان بوسوسته إليهما قد أوقعهما في الخطأ الذي كان سببا في إخراجهما من الجنّة وتنحيتهما عنها.

والتّعبير يوحي بصورة الشّيطان وهو يجرّهما بغوايته ويلقي بهما إلى خارج الجنّة إلقاء بعنف، ويدفع بهما إلى خارجها دفعا فتزلّ أقدامهما من تحتهما لشدّة الدّفع، وتهوي بهما من مقامات الكريم في الجنّة إلى كدح الحياة الأرضية وشظفها وهنا يأتي الأمر الإلهي﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾.

و[الهبوط] هو النّزول من أعلى إلى أسفل، وتستخدم اللّفظة مجازا بمعنى النّزول من مقامات التّكريم والدّعة والتّنعيم إلى مقامات المسئوليّة والكدح والعرق والجهد والنّصب الذي قُدّر آدم وحوّاء ولذرّيتهما من بعد إلى يوم الدّين أن يعيشوا فيه على الأرض، وكان هذا إيذانا بانطلاق المعركة في مجالها المقدّر لها بين الشّيطان والإنسان إلى آخر هذا الزّمان.

(أمّا الآية الثّانية) فهي قوله تعالى﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴾[الأعراف: ٢٠].

و[الوسوسة] هي الصّوت الخفي المكرّر ويُقصد به الحديث الخفي الذي يلقيه الشّيطان

فى وعى الإنسان ليقارف ذنبا من الذّنوب، إنّها إغواء على الشّر يقع فى صورة من الصّور، وإيحاء بارتكاب المحظور يتمّ فى هيئة من الهيئات، وأنّ هذا الإيحاء وذلك الإغواء المتمثلان فى الوسوسة يعتمدان على نقط الضّعف الفطريّة فى الإنسان، وأنّ هذا الضّعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذّكر، حتّى ما يكون للشّيطان سلطان على المؤمن الذّاكر وما يكون لكيده الضّعيف حينئذ من تأثير.

(والثّالثة) هى قول الله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وفيها يكشف سبحانه عن وسوسة الإغراء والتّزيين الذى لجأ إليها الشّيطان مع آدم عليه السّلام بعدما لمس فى نفسه الموضع الحسّاس، فالعمر البشرى محدود، والقوّة البشريّة محدودة، من هنا يتطلّع إلى الحياة الطويلة، وإلى المُلك الطّويل، ومن هاتين النّافذتين [الخُلود] و [المُلك] يدخل عليه الشّيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة، ومن ثمّ نسى العهد وخالف أمره مُثبتًا ضعف عزيمته كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ولعلّ المرء يلمح فى قصّة الأكل من الشّجرة أنّها كانت تربية لهذا الخليفة وإيقاظا للقوى المذخورة فى كيانه، كانت تدريبا له على تلقّى الغواية، وتذوّق العاقبة، وتجرّع النّدامة، ومعرفة العدوّ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين الذى يقبل توبة التّائبين ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. واختلف أهل التّأويل فى الكلمات فقال ابن عبّاس وسعيد بن جبير هى قوله [سبحانك اللّهمّ لا إله إلاّ أنت ربّى، ظلمت نفسى فاغفر لى إنّك أنت الغفور الرّحيم]. وقالت طائفة [المراد بالكلمات البكاء والحياء والدّعاء، والنّدم والاستغفار والحزن].

إنّها قصّة الشّجرة المحرّمة ووسوسة الشّيطان باللّذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصّحوة من بعد السّكرة، والنّدم وطلب المغفرة، إنّها هى هى تجربة البشريّة المكرَّرة، عندما اقتضت رحمة الله تعالى بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوّدا بهذه التّجربة التى سيتعرّض لمثلها طويلا، استعدادا للمعركة الدّائبة المستمرّة موعظة وتحذيرا.

ثم إنّ التّعريف [بالوسوسة] يتطلّب الإشارة إلى أمرين مهمّين:

(أولهما ـ حقيقة الوسوسة):

وتتّضح حقيقة الوسوسة عندما يصدر الفعل عن الإنسان من خلال حصول أمور أربعة يترتّب بعضها على بعض ترتيبا لازما بحكم سلامة أعضائه الأصلية وصلاحيّتها الطّبيعيّة

للفعل والتّرك والإقدام والإحجام، فما لم يحصل فى القلب ميل إلى ترجيح الفعل على التّرك أو بالعكس فإنّه يمتنع صدور الفعل، وذلك الميل هو الذى يحدّد الإرادة الحازمة والقصد الجازم.

ولا تحصل هذه الإرادة إلاّ عند حصول علم أو اعتقاد أو ظنّ بأنّ ذلك الفعل سبب للنّفع أو سبب للضّرر، فإن لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يتحقّق الميل لا إلى الفعل ولا إلى التّرك ويترتّب على ذلك واحد من ثلاثة أمور:

(أوّلها) إن حصل الشّعور بكونه ملائما له ترتّب عليه الميل إلى الفعل، وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع الميل المتحقّق موجبة للفعل.

(والثّانى) إن حصل الشّعور بكونه منافرا له ترتّب عليه الميل الجازم إلى التّرك.

(الثّالث) إن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشّىء ولا إلى ضدّه.

وعلى هذا فإنّ صدور الفعل عن مجموع القدرة والدّاعى الحاصل أمر واجب، فلا يكون للشّيطان مدخل فيه، وصدور الميل عن كونه خيرا أو تصوّر كونه شرّا أمر واجب، فلا يكون للشّيطان فيه مدخل، وحصول كونه خيرا أو تصوّر كونه شرّا عن مُطلق الشّعور بذاته أمر لازم، فلا مدخل للشّيطان فيه.

فلم يبق للشّيطان مدخل فى أىّ من هذه المقامات إلاّ أن يلقى فى خاطره شيئا يذكّره ويشغله به، فالشّيطان لا قدرة له فى هذا المقام إلاّ النّزغ والوسوسة، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[إبراهيم: ٢٢].

(والثّانى - كيفية إلقاء الوسوسة):

عندما طُرح التّساؤل عن كيفيّة تمكّن الشّيطان من النّفوذ فى داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه جاءت الإجابة ممّن يقولون بالقسمة العقليّة للخلق على أنّ كلّ ما سوى الله تعالى على ثلاثة أقسام:

(١) المتحيّز.

(٢) والحالّ فى المتحيّز.

(٣) والذى لا يكون متحيّزا ولا حالاًّ فيه.

[إلاّ أنّ الأدلّة الكثيرة قد قامت على صحّة القول بالقسم الثّالث وهو المسمّى بالأرواح المبرّأة عن الجسميّة والتّحيّز، فإن كانت هذه الأرواح طاهرة مُقدّسة خيِّرة

كانت [ملائكيّة] وكان إلقاؤها ما يسمّى بالإلهام، وإن كانت شرّيرة خبيثة قبيحة كانت [شيطانيّة] وكان إلقاؤها ما يسمّى بالوسوسة[1]].

وعلى هذا التّقدير فإنّ الشّيطان لا يكون جسما يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو [جوهر روحاني] خبيث الفعل مجبول على الشّر يلقى أنواعا من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النّفس الإنسانيّة المهيّأة للتّأثّر بوسوسته ونزغه.

ثمّ يأتى الهدى النّبوى ليقرّر أنّ الخالق سبحانه وتعالى وكّل بالإنسان قرينين، قرين من [الملائكة] يكتب ويسجّل، وقرين من [الشّياطين] يغوى ويزيّن كما في قوله ﷺ عن ابن مسعود «مَا منْكُمْ منْ أَحَد إلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ منَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ منَ الْمَلاَئكَة[2]».

ويروى التّرمذى وغيره عن ابن مسعود «إنَّ للْمَلَك الْمُوَكَّل بقَلْب ابْن آدَمَ لَمَّةً وَللشَّيْطَان لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلَك إيعَادٌ بالْخَيْر، وَتَصْديقٌ بالْحَقِّ، وَرَجَاءُ صَالح ثَوَابه. وَلَمَّةُ الشَّيْطَان إيعَادٌ بالشَّرِّ، وَتَكْذيبٌ بالْحَقِّ، وَقُنُوطٌ منَ الْخَيْر، فَإذَا وَجَدْتُمْ لَمَّةَ الْمَلَك فَاحْمَدُوا اللهَ وَسَلُوهُ منْ فَضْله، وَإذَا وَجَدْتُمْ لَمَّةَ الشَّيْطَان فَاسْتَعيذُوا بالله تَعَالَى وَاسْتَغْفرُوهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨] الآية[3]».

وقوله «لَمَّةً» من الإلمام ومعناه النُّزول والقُرب والإصابة، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشّيطان أو الملَك بابن آدم:

(١) فتأتى صورة تأثير الملائكة في نشأة الخواطر متمثّلة في الأُنس والرّغبة في الخير وعمل البرّ، والإقبال على الطّاعات.

(٢) ويأتى تأثير الشّياطين فيها متمثّلا بالوحشة وقلق النّفس والرّغبة في الشّر والبعد عن طاعة الله ومخالفة أمره.

وعلى ذلك فإنّ الوسوسة في محوريّتها تقوم على ثلاثة عوامل:

(الأوّل) وسوسة شياطين الجنّ

يبيّن القرآن أنّ وسوسة الشّيطان أصل كلّ كفر ومعْوَلُ كلّ شرّ ومنبت كلّ فسوق، وأنّها الطّريق إلى تسلّطه وغوايته وتحريضه على الباطل كما في قول الله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[الأعراف: ٢٠]. وقوله ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. كما يشير قول الله تعالى ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[النّاس: ٤]. إلى أنّ للشّيطان ثلاث صفات:

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١٩ ص ١١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٤].

(٣) أخرجه التّرمذى موصولا [٢٩٨٨] وابن حبّان [٤٠] من قول ابن مسعود وإسناده صحيح.

(الأولى) أنه وسواس

وفيه يبيّن الذّكر الحكيم أنّ تسلُّط الشّيطان وسيطرته على ابن آدم وتلبيسه عليه أمر دينه يكون بواحدة من ثلاث : [الْوَسْوَسَةُ ، وَالْهَمزُ ، وَالنَّزْغُ] وكلّها فى معناها تأتى من الشّيطان سواء.

والْوَسْوَاسُ اسم الشّيطان ، والوَسْوَاسُ فعلال من وسوس الشّيطان إليه ، وله وفى صدره وسوسة ووسواسا : حدّثه بما لا نفع فيه ولا خير ، و[الوسواس] اسم بمعنى الوسوسة كالزّلزال بمعنى الزّلزلة ، وأمّا المصدر فوِسواس ـ بالكسر ـ كزِلزال ، والمراد به الشّيطان سُمّى بالمصدر كأنّه وسوسة فى نفسه لأنّها صنعته وشغله ودَيدنه الذى هو عاكف عليه مُنقطع له ، وأصل الوسوسة الخطْرة الرّديئة والصّوت الخفى الذى لا يُحَسُّ فيحترز منه [(١)].

و[الوسواس] الوسوسة وهى حديث النّفس والشّيطان وأخذ بالوهْم [أو] هى الإلقاء الخفىّ فى النّفس وجمعها : وساوس. (قال) مقاتل [وَسْوَسَتُهُ هى الدّعاء لطاعته بكلام خفىّ يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت(٢)]. ولمّا كانت الوسوسة كلاما يكرّره الموسوس ويُؤكّده عند من يلقيه إليه كـرّر لفظها لتأكيد معناها.

يُقال [وَسْوَسَتْ] إليه نفسه [وَسْوَسَةً] و [وِسْوَاسًا] ، ورجل [مُوَسْوِسٌ] بكسر الواو. ولا يفتح فإنّه لحن ، وإنّما قيل له : [مُوسوس] لأنّ نفسه توسوس إليه من قول الله تعالى ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ . ومثله كهذا الذى يحكم بنجاسة الشّىء من غير علامة تعارض أصل طهارته ، فيغسل الثّوب لمجرّد سقوط رذاذ الماء عليه ! ! فهو يتخيّل ما لم يكن كائنًا ثمّ يحكم بحصوله ، وهو بعكس الشّك الذى يكون له أصل ينبنى عليه ، ومثار يدعو إليه وهو الذى يُطلب عنده الاحتياط والأخذ باليقين.

وجاءت كلمة الوسوسة فى أكثر من موضع قرآنى منها قوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف : ٢٠]. يريد إليهما. وقوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه : ١٢٠]. وقوله تعالى ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [سورة ق : ١٦]. أى ما يختلج فى سرّه ومكنون قلبه. وقوله تعالى ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [النّاس : ٤]. والوسواس الشّيطان ، ووُصف بالْخَنَّاس لأنّه كثير الاختفاء ، وروى ابن جُبير عن ابن عبّاس فى قوله تعالى ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وجهين [(٣)] :

أحدهما ـ أنّه الرّاجع بالوسوسة عن الهُدَى.

---

(١) انظر النّهاية [ج ٥ ص ٨٨٧].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢٦٣].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢٦٣].

الثّانى ـ أنّه الخارج بالوسوسة عن اليقين.

ولا يتسلّط الشّيطان بوسوسته إلاّ على من استحكم فيه الجهل واستولى عليه الخبَل وغفل عن ذكر الله تعالى وخالف هدى نبيّه ﷺ لما رواه أنس أنّ رسول الله ﷺ قال «إنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ[1] عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللّهَ خَنَسَ، وَإِذَا نَسِىَ اللّهَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ[2]».

وجاء في رواية «يُولَدُ الإنْسَانُ وَالشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِه، فَإِذَا عَقَلَ وَ ذَكَرَ اسْمَ اللّهَ خَنَسَ، وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ[3]». أى تأخّر وأقصر. وفي رواية ابن عبّاس عند البخارى «فَإِذَا ذُكِرَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَهَبَ، وَإِذَا لَمْ يُذْكَرِ اللّهَ ثَبَتَ عَلَى قَلْبه[4]». وجاء عن سعيد ابن منصور من طريق عروة قال «سَأَلَ عيسَى عَلَيْه السَّلاَمُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ مَوْضِعَ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدمَ فَأَرَاهُ، فَإِذَا رَأْسُهُ مِثْلَ رَأْسِ الْحَيَّةِ، وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى ثَمَرَةِ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ خَنَسَ وَإِذَا تَرَكَ مَنَّاهُ وَحَدَّثَهُ[5]».

ولمّا سُئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال «تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ[6]». وقال فى حديث أبى هريرة «ذَلِكَ صَرِيحُ الإيمَانِ[7]». والصّريح هو الخالص، وهذا ليس على ظاهره إذ لا يصحّ أن تكون الوسوسة نفسها هى الإيمان لأنّ الإيمان هو اليقين، وإنّما كانت الإشارة هنا إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يُعاقَبُوا على ما وقع فى أنفسهم من وساوس، فكأنّه قال: جَزَعُكُمْ من هذا هو [محض الإيمان وخالصه] لصحّة إيمانكم وعلمكم بفساد هذه الوسوسة وأنّها مهلكة لأصحابها.

فسمّى النّبى ﷺ الوسوسة [إيمانا] لـمّا كان دفعها والإعراض عنها والرّد لها وعدم قبولها والجزع منها كلّه صادر عن قلوب موقنة بالإيمان عندما قالوا: «يَارَسُولَ اللّه إِنَّا نَجِدُ فِى أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ؟ قَالَ أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهْ! قَالُوا نَعَمْ. قَالَ ذَاكَ ـ ذلِكَ ـ صَرِيحُ الإِيمَانِ[8]».

(قال) المازرى [الخواطر على قسمين: فالتى لا تستقرّ ولا يجليها شبهة هى التى تندفع

---

(١) الخطْمُ من كلّ طائر منقاره ومن كلّ دابّة مقدّم الأنف والفم فاستُعير ذلك للشّيطان.

(٢) رواه أبو يعلى وابن عدى مرفوعا عن أنس [وانظر الدُّر المنثور ٦ / ٤٢٠].

(٣) أورده فى مشكاة المصابيح [٢٢٨١] والحافظ فى الفتح [ج ٨ ص٦١٤] عن ابن عبّاس.

(٤) أخرجه البخارى معلّقا قبل رقم [٤٩٧٧].

(٥) أورده فى فتح البارى [ج ٨ ص ٦١٤].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٣] والنّسائى فى «عمل اليوم واللّيلة».

(٧) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥١١١].

(٨) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٢].

بالإعراض عنها وعلى هذا ينزل الحديث، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، وأمّا الخواطر المستقرّة النّاشئة عن الشُّبهة فهي التي لا تندفع إلاّ بالنظر والاستدلال، لأنّ العلم باستغناء الله تعالى عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة[(1)]].

أمّا [الْهَمْزُ] في اللُّغة فهو النَّخْسُ والدَّفْعُ. يقال همزه ولمزه ونخسه دفعه. [قال] اللّيث: الهمز كلام من وراء القفا واللّمز مُواجهة، والشّيطان يُوسوس فيهمس من وسواسه في [صدر] ابن آدم وهو المراد في قول الله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[المؤمنون:٩٧]. أي نزغات الشّياطين الشّاغلة عن ذكر الله تعالى. وفي تفسيرها (قال) ابن عبّاس [همزات الشّياطين نَزَغَاتُهم ووساوسهم].

وكذلك [النَّزْغُ] فأصله الفساد كما في قول الله تعالى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف:٢٠٠]. ومعنى قوله «يَنزَغَنَّكَ»: أي يُصيبنَّك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحلّ، ونظير ذلك قوله ﷺ في صحيح مسلم عن أبي هريرة «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟. فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ[(2)]».

وقيل النَّزغ والنَّسغ والنَّخس بمعنى واحد، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا أو ما يشبه ذلك في الجلد، وعن ابن زيد يقال: نزغت ما بين القوم إذا أفسدت ما بينهم، وقال الزّجاج [هو أدنى حركة تكون ومن الشّيطان أدنى وسوسة] والمعنى الأوّل مشهور، وإطلاقه على وسوسة الشّيطان مجاز حيث شبّه وسوسته إغراءً للنّاس على المعاصي وإزعاجا بغرز السّائق ما يسوقه وإسناد الفعل إلى المصدر مجازي.

وقيل [النّزغ] بمعنى النّازغ فالتّجوُّز في الطّرف، والأوّل أبلغ وأوْلى: أي [إمّا يحملنّك من جهة الشّيطان وسوسة ما على خلاف ما أُمرت به من اعتراء غضب أو نحوه فاستعذ بالله تعالى واستجرْ به والتجيء إليه في دفعه عنك وسوسته ونزغاته[(3)]].

(الثّانية) أنّه خنّاس

والخنّاس هو الذي من طَبْعه كثرة الخنوس وهو الاختباء والرّجوع بسرعة، ووصف بذلك لأنّه كثير الاختفاء ويَدلّ عليه قوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾[التّكوير:١٥]. وهي النّجوم التي تختفي بعد ظهورها، وَالْخَنَسُ في اللُّغة: الرُّجوع. ولذلك سُمِّيَ «خنّاسًا»

(١) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٣٩٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٤ / ١٣٤] وافقه البخاري [٣٢٧٦] وأبو داود [٤٧٢١].

(٣) انظر تفسير الطّبري [ج ٩ ص ١٤٧].

لأنّه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى.

والخنّاس على وزن فعّال من خنس يخنس إذا تدارى واختفى ومنه قول أبى هريرة فى الحديث عندما غاب عن النبى ﷺ «فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ[1]». أى مضيت عنه فى طريقى مستخفيا لجنابتى من الحدث الأكبر، ولذلك وُصف الشّيطان بالخنّاس. (قال) قتادة: [الخنّاس الشّيطان له خرطوم فى صدر الإنسان فإذا غفل وسوس له وإذا ذكر العبد ربّه تعالى خنس، من خنسته فخنس أى أخّرته فتأخّر وأخنسته أيضا، وحقيقة اللّفظ اختفاء بعد ظهور[2]].

وتشير الآيات الكريمة إلى لفتة ذات مغزى عندما تصف الوسواس بأنّه الخنّاس فى قوله تعالى﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾. فهذه الصّفة تدلّ على أمرين:

(الأوّل) أنّه يستمرّ على تخفّيه واختبائه حتّى يجد الفرصة سانحة فيدبّ ويوسوس، فهو يأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون ويأتيهم بُرهة من حيث لا يحتسبون، فهو أشبه بالمترصّد لمواتاته الفرصة فلا تفلت منه.

(الثّانى) أنّها تُوحى بضعفه وهوان أمره أمام من يتنبّه لمكره وخداعه ويحمى منه مداخل صدره، فهو سواء كان من الجِنّة أم كان من النّاس إذا وُوجه خنس وعاد من حيث أتى وقبع واختفى، أو كما قال الرّسول الكريم ﷺ فى تمثيله المصوّر الدّقيق «فَإِذَا ذَكَرَ اللّٰهَ تَعَالَى خَنَسَ وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ».

وهذه اللّفتة تُقوّى القلب على مواجهة هذا الوسواس فهو خانس وخنّاس وضعيف أمام عُدَّة المؤمن فى المعركة، ولكنّها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهى أبدا، فهو على الدّوام قابعٌ خانسٌ مترقّبٌ للغفلة والشّهوة والسّقطة، واليقظة مرّة لا تُغنى عن اليقظات والحرب سجال إلى يوم القيامة [[3]].

(الثّالثة) محل وسوسته

لـمّا كان الصّدر هو [ساحة] القلب وبيته ومنه تدخل الواردات عليه فتجتمع أولا فى [الصّدر] ثمّ تلج إلى [القلب] جاءت الآية الكريمة لتحدّد أنّ بداية الوسوسة تكون فى﴿صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وليس فى قلوبهم، فاعتبرت أنّ [الصّدر] هو الممرّ إلى [القلب] ثمّ تخرج الأوامر والإرادات من القلب إلى الصّدر فتتوزّع على الجوارح، ومن فهم

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٣] والتّرمذى [١٢١] وجاء فى حديث أم سلمة عند البخارى [٢٩٨]: «فَانْسَلَلْتُ فَأَخَذْتُ ثِيابَ حيضتى» أى ذهبت فى خُفْيَة. [انظر فتح البارى ج ١ ص ٤٨٠].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢٦٢].

(٣) انظر فى ظلال القرآن [ج ٣٠ ص ٤٠١١].

هذا فهم قوله تعالى ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فالشّيطان يُلقى ما يريد إلقاءه من وسوسة في «الصّدر» ووسوسته هذه واصلة إلى «القلب» ولهذا قال تعالى ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. ولم يقل [فيه].

ومثل القلب مع الوسوسة كمثل الهدف الذى تُرمى إليه السّهام من كلّ جانب، أو مثل مرآة منصوبة تجتاز عليها الأشخاص فتتراءى فيها صورة بعد صورة، ولا تعرف هذه الآثار طريقها إلى [القلب] إلاّ من خلال مدخلين:

(الأوّل) إمّا من الظّاهر كالحواسّ الخمس فإنّه إذا أدرك بها شيئا حصل منه أثر فى القلب.

(الثّانى) وإمّا من الباطن كالخيال والشّهوة والغضب والأخلاق المركّبة فى مزاج الإنسان، فإذا ما هاجت الشّهوة أو الغضب حصل من تلك الأحوال آثار فى القلب.

والقلب دائم التّغيُّر والتّأثُّر بهذه الأسباب وتلك المتغيِّرات، ومن أخصّ الآثار الحاصلة فيه هى تلك [الخواطر] التى يقصد بها ما يعرض من الأفكار والإدراكات إمّا على سبيل التّجدُّد وإمّا على سبيل التّذكُّر، وهى المحرِّكة للإرادات حيث تنقسم هذه الخواطر إلى:

(١) ما يدعو إلى الخير والنّفع ويتوافق مع هدى الكتاب والسُّنَّة.

(٢) ما يدعو إلى الشّر وهو ما يلقيه الشّيطان فى صدر الإنسان.

فهما خاطران مُختلفان افتقرا إلى اسمين مُختلفين:

* فالخاطر [المحمود] يُسَمَّى «إلْهَامًا».

* والخاطر [المذموم] يُسَمَّى «وَسْوَاسًا» [(١)].

ومن تأمّل عظمة القرآن وجلاله لأدرك الحكمة التى تضمّنتها الآيات الكريمة من خلال أمرين:

(الأوّل) أنّ الاستعاذة لم تأت من وسوسته فقط وإنّما جاءت لتشمل شرّه جميعه فقول الله تعالى ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ يعمّ كلّ شرّه وتشتمل على وصفه وذمّه بأقبح صفاته وأكثرها شرّا وأقواها تأثيرا وأعمّها فسادا، فجاء موصوفا بقول الله تعالى ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾.

(الثّانى) أنّ جهاد المسلم للشّيطان قائم على أمرين:

(١) جهاده على دفع ما يُلقى إلى العبد من الشّبهات المكفّرة والشّكوك القادحة فى

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ١ ص ١٩١].

يقين الإيمان ودرجات الإحسان.

(٢) وجهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشّهوات.

فالأمر [الأوّل] يتحقّق بعده اليقين فى الإيمان.

و[الثّانى] يكون معه الصّبر والتّسليم لأمر الله، وهو ما جمعته الآية الكريمة فى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السّجدة: ٢٤].

فأخبر سبحانه أنّ إمامة الدّين إنّما تنال بالأمرين معا:

* باليقين الذى يدفع الشّكوك والشّبهات عن القلب.

* وبالصّبر الذى يدفع الشّهوات والإرادات الفاسدة عن النّفس [(١)].

(الثّانى) وسوسة شياطين الإنس

يبيّن قول الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]. أنّ الشّيطنة وهى التّمرّد والغواية والتّمحّض للشّرّ صفة تلحق بالإنس كما تلحق بالجنّ، وكما أنّ الذى يتمرّد من الجنّ يسمّى [شيطانا]. فكذلك الذى يتمحّض من الإنس للشّر والغواية يسمّى [شيطانا] وقد يُوصف الحيوان أيضا بهذه الصّفة إذا شرُس وتمرّد واستشرى أذاه ودليل ذلك قوله ﷺ «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ[(٢)]».

وتكشف الآية أنّ الشّياطين من الإنس والجنّ يخدع بعضهم بعضا بالقول المُزخرف الذى يُحرّض على الفسوق، ويدفع إلى المعصية، ويدعو إلى الكفر، وينشر الباطل الذى يُوسوس به شياطين الإنس إلى الإنس، وسُمِّى ذلك [وَحْيا] فى قوله ﴿يُوحِي﴾ : لأنّه إنّما يكون خُفْيَة، وجعل تمويههم زُخرفا لتزيينهم إيّاه، ومنه سُمِّىَ الذّهب زُخرفا، وكلّ شىء حسن مُمَوّهٌ فهو زُخرف.

ورُوى عن ابن عبّاس في قول الله عزّ وجلّ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال: مع كلّ جنّيٍّ شيطان ومع كلّ إنْسِيٍّ شيطان فيلقى أحدهما الآخر فيقول: إنّى قَدْ ضللت صاحبى بكذا، فأضل صاحبك بمثله، ويقول الآخر مثل ذلك، فهذا وحي بعضهم إلى بعض، ويدلّ عليه قوله ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا وَإِيَّاكَ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ فَلاَ يَأْمُرُنِى إِلاَّ بِخَيْرٍ[(٣)]».

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٣ ص ١٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥١٠] والتّرمذى [٣٣٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٩ / ٢٨١٤] وأحمد [٢٣٢٣].

كما جاء في حديث أبي ذرّ عن النّبيّ ﷺ قال «يَا أَبَا ذَرّ: تَعَوَّذْ باللّه مِنْ شَرِّ شَيَاطِين الْجِنّ وَالإِنْسِ؟ قُلْتُ: أَوَ لِلإِنْسِ شَيَاطِينٌ؟ قَالَ: نَعَمْ[1]». وجاء في مصنّف عبد الرّزاق بلفظ «تَعَوَّذْ باللّه مِنْ شَيْطَانِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ». وذُكر عن عبدالرّحمن بن زيد قال [الخنّاس الذى يُوسوس مرّة ويخنس مرّة من الجنّ والإنس].

فبيّن أنّ الوسواس الخنّاس من هذين الصّنفين، وعن مالك بن دينار قال [إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ، وذلك أنّي إذا تعوّذت بالله ذهب عنّي شيطان الجنّ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانًا[2]].

وفى قول الله تعالى﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: إخبار بأنّ الموسوس قد يكون من الجنّة أو من النّاس، وقوله تعالى﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بيان أنّه من الجنّة و﴿ٱلنَّاسِ﴾: معطوف على الوسواس، والمعنى: قل أعوذ بربّ النّاس من شرّ الوسواس الذى هو من الجنّة ومن شرّ النّاس، فعلى هذا أُمر المرء أن يستعيذ من شرّ الإنس والجنّ.

[والنّفس حين تعرف أنّ الوسواس الخنّاس هُو الذى يُوسوس فى صدور النّاس خُفية وأنّه من الجِنَّة المستخفية، فكذلك بعض النّاس الذين يتدسّسون إلى الصّدور تدسّس الجنّة ويُوسوسون وسوسة الشّياطين، فهؤلاء يُعرف من أمر وسوستهم الشّيء الكثير ويُعرف منها ما هو أشدّ من وسوسة الشّياطين:

* فرفيق السّوء الذى يتدسّس بالشّر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يأخذ حذره لأنّه الرّفيق المأمون.

* والنّمّام الواشى الذى يُزيّن الكلام ويزيّفه حتّى يبدو كأنّه الحقّ الواضح الجليّ الذى لا مرية فيه، وبائع الشّهوات الذى يتدسّس من منافذ الغريزة فى إغراء لا يدفعه إلاّ إيمان القلب ويقظة الضّمير[3]].

وغير ذلك من عشرات الموسوسين الخنّاسين الذين ينصبون الفخاخ وغيرها من الألاعيب ويخفونها ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفيّة التى يعرفونها وهم شرّ من الجِنّة وأخفى منهم دبيبا.

(الثّالث) وسوسة النّفس للنّفس

وهو ما تضمّنه قوله تعالى﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [سورة ق: ١٦]. وفيه دليل على أنّ للنّفوس وسوسة وهو حديث النّفس كما جاء تعريفه

(١) رواه النّسائى [٥٥٢٢] وأحمد [٢١٤٣٨] بإسناد ضعيف والمصنّف [٢٥٨١].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٧ ص ٦٨].

(٣) انظر فى ظلال القرآن [ج ٣٠ ص ٤٠١١].

في قوله ﷺ «إنَّ اللّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتي عَمَّا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ[1]».
وقوله ﷺ من حديث أبي هريرة «وَالنَّفْسُ تَهْوَى وَتَحَدَّثُ[2]». وفي رواية «إنَّ اللّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتي عَمَّا تُوَسْوِسُ بِهِ صُدُورُهُمْ[3]». وعلى ذلك فالوسوسة نوعان:

(١) نوع من شياطين الجنّ والإنس.

(٢) ونوع من نفوس الإنس ودواخلهم.

فيكون الشّر من الجهتين جميعا:

* فتأتي من الجنّ [وَسْوَسَةٌ] ومن الإنس [وَشْوَشَةٌ] بالشّين المعجمة وهي صوت في اختلاط، يقال: فلان يُوشوش فلانا وقد وشوشه: إذا حدّثه سرّا في أُذُنه، وإذا كان النّاس قد استعاذوا بربّهم سبحانه من شرّ الوسواس فقد دخل في ذلك وسواس الجنّ والإنس، وكذلك الشّر الذي يكون مبدأُه في نفوس النّاس بظلم بعضهم بعضا، وبإغواء بعضهم بعضا، وبإعانة بعضهم بعضا على الإثم والعدوان، فكلّ ما حصل من شرّ لإنسي من إنسي إلاّ كان مبدأُه من هذا الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور النّاس.

* وتأتي من النَّفس للنَّفس حديثا يكون بمنزلة الكلام الخفيّ الذي يختلج في سرّ المرء وقلبه وضميره وهو الأمر الذي تعوّذ منه رسول الله ﷺ بقوله «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَوَسْوَسَةِ الصَّدْرِ[4]». أي حديث النّفس بما لا يُستحبّ، يقال وَسْوَسَتْ لَهُ نَفْسُهُ أي تكلّم بكلام خفيّ مُخَلَّط لم يتبيّنه.

ولقد اتّفق الجمهور من أهل العلم على عدم بطلان الصّلاة بحديث النّفس والتّفكير في غير أعمالها ما لم يصحبها فعل للجوارح، فمن رتّب في فكره كلاما أو عملا ولم يتكلّم به ولم يفعل صحّت صلاته عندهم، وإن فكّر في أمر أخروي غير الصّلاة فإنّه يأتي بخلاف الأولى لعدم تحصيله الصّلاة المقصودة بالخشوع والمناجاة لقوله ﷺ من حديث عثمان رضي الله عنه «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه[5]».

(قال) النّووي: [ومراد قوله «لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ»: ألاّ يحدّث بشيء من أمور الدّنيا وما لا يتعلّق بالصّلاة، ولو عرض له حديث فأعرض عنه بمجرّد عروضه عُفي عن ذلك وحصلت له هذه الفضيلة، لأنّ هذا ليس من فعله وقد عُفي لهذه الأمّة عن الخواطر التي

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٢٦٩] ومسلم [١٢٧] وأبو داود [٢٢٠٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٨٥٨٢].

(٣) من حديث صحيح أورده في صحيح الجامع [١٧٢٩] والإرواء [٢٠٦٢] عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه التّرمذي [٣٥٢٠] بسند ليس بالقوي.

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٥٩] ومسلم [٢٢٦] وأبو داود [١٠٦].

تعرض ولا تستقرّ [(١)].

حديث النّفس والخواطر الواردة على القلب

يُراد بحديث النّفس تلك الخواطر المجتلبة التي تسترسل النّفس معها، ويمكن للمرء قطعها لأنّ قوله «يُحَدِّثُ»: يقتضي تَكَسُّبًا لها، وأمّا ما يهجم من الخَطَرات والوساوس ويتعذّر دفعه فمعفوٌ عنه، لذلك ضمن النّبى ﷺ المغفرة لمُراعى ذلك لأنّه قلّ من تسلم صلاته من [حديث النّفس].

وإنّما حصلت له هذه المرتبة لمجاهدة نفسه من خطَرات الشّيطان ونفيها عنه، ومحافظته على صلاته فلا ينشغل عنها طرفة عين، ويسلم من الشّيطان لاجتهاده وتفريغه قلبه لذكر الله تعالى، وحديث النّفس:

* إمّا أن يكون [إلهاما] محمودا.
* أو [وسوسة] مذمومة.

وهو ما حمله معنى قول الله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشّمس: ٧-٨]. فهو سبحانه يُلهم النّفس التّقوى بواسطة الملك وهو [إلهام وحى]، ويُلهمها الفجور بواسطة الشّيطان وهو [إلهام وسواس]. ولذلك قال تعالى في الأُولى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾. أى أفلح من زكّى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّ وجلّ ونمّاها بالبرّ والصّدقة واصطناع المعروف والمحافظة على الفروض.

ثمّ قال في الثّانية ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. أى نقصها وأخفاها بترك عمل البرّ والخير وركوب المعاصى والمآثم، والفاجر هكذا أبدا خفى المكان، زمن المروءة، غامض الشّخص، ناكس الرّأس، فمرتكب الفواحش قد دسّ نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف قد شهر نفسه ورفعها.

وقد صار في العرف أنّ لفظ الإلهام إذا أُطلق لا يراد به الوسوسة، وهذه الآية ممّا تدلّ على أنّه يُفرّق بين [إلهام الوحى] وبين [الوسوسة]، فالمأمور به إن كان من تقوى الله فهو من إلهام الوحى، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشّيطان، ويأتى الفرق بين إلهام [الملَك] وإلقاء [الشّيطان] من عدّة وجوه منها:

(١) أنّ ما كان لله تعالى مُوافقا لمرضاته وما جاء به رسوله ﷺ فهو من الملَك، وما كان لغيره غير مُوافق لمرضاته فهو من إلقاء الشّيطان.

(٢) أنّ ما أثمر إقبالا على الله تعالى وإنابة إليه وذكرا له وهمّة صاعدة إليه فهو من

(١) انظر نووى مسلم [ج ٢ ص ١١٠].

إلقاء الملَك، وما أثمر ضدّ ذلك فهو من إلقاء الشّيطان.

(٣) أنّ ما أورث أُنْسًا ونُورا فى القلب وانشراحا فى الصّدر فهو من الملَك، وما أورث ضدّ ذلك فهو من الشّيطان.

(٤) أنّ ما أورث سكينة وطُمأنينة فهو من الملَك، وما أورث قلقا وانزعاجا واضطرابا فهو من الشّيطان.

فالإلهام [الملائكى] يكثر فى القلوب الطّاهرة النّقيّة التى قد استنارت بنور الله تعالى، فللملَك بها اتّصال، وبينه وبينها مناسبة، فإنّه طيّب طاهر لا يجاور إلاّ قلبا يناسبه، فتكون لمّة الملَك بهذا القلب أكثر من لمّة الشّيطان، أمّا لمّة القلب المظلم الذى قد اسوَد بدخان الشّهوات والشُّبهات والوساوس فإلقاء الشّيطان ولمّته به أكثر من لمّة الملَك.

وإسناد الوسوسة إلى الشّياطين أمر معروف فى الكتاب والسُّنَّة، أمّا إسناد إلهام الحقّ والخير إلى الملائكة فيؤخذ من خطابهم لمريم كما فى قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]. ومن قول النّبى ﷺ عند الشّيخين فى المحدَّثين وهم المُلْهَمُونَ وكون عمر منهم «قَدْ كَانَ يَكُونُ فى الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِى أُمَّتِى مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ[١]».

[قالوا]: والْمُحَدَّثُ بالفتح هو الرّجل المُلهم الصّادق الظّن وهو من أُلقى فى روعه شىء من قِبَلِ الملأ الأعلى فيكون كالذى حَدَّثَهُ غَيْرُهُ به، وقيل من يجرى الصّواب على لسانه من غير قصد، ويفسّر ذلك ما ورد من حديث أبى سعيد مرفوعا «قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحَدَّثُ؟ قَالَ تَتَكَلَّمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى لِسَانِهِ».

والسّبب فى تخصيص عمر رضي الله عنه بالذّكر كثرة ما وقع له فى زمن رسول الله ﷺ من الموافقات التى نزل القرآن مُطابقا لها، ويُؤيّده قوله ﷺ «إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ[٢]». وجاء عند أبى داود «يَقُولُ بِهِ» بدل قوله «وَقَلْبِهِ».

(الفرق بين الإلهام المحمود والوسوسة المذمومة)

وعلى هذا فإنّ الفرق بين [الإلهام] المحمود وبين [الوسوسة] المذمومة هو الكتاب والسُّنَّة:

(١) فإن كان ممّا أُلقى فى النّفس ممّا دلّ الكتاب والسُّنَّة على أنّه تقوى الله فهو من [الإلهام المحمود].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٨٩] ومسلم [٢٣٩٨] والتّرمذى [٣٦٩٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٥١٤٥] والتّرمذى [٣٦٩١].

(٢) وإن كان مما دلّ على أنّه فجور فهو من [الوسواس المذموم] وهذا الفرق مطرد لا ينتقص، وقد ذُكر عن أبى حازم في الفرق بين وسوسة النّفس ووسوسة الشّيطان قوله [مَا كَرِهَتْهُ نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَمَا أَحَبَّتْهُ نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنْ نَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْهُ] .

ولقد سبق الإمام الغزالى إلى بيان هذا المعنى وعبّر عنه بالسّبب بعدما قسّم الخواطر إلى محمود ومذموم فقال [ثمّ إنّك تعلم أنّ هذه الخواطر حادثة، ثمّ إنّ كلّ حادث فلابدّ له من مُحدث، ومهما اختلفت الحوادث دلّ ذلك على اختلاف الأسباب، وهذا ما عُرف من سُنَّة الله تعالى في ترتيب المسبّبات على الأسباب، فمهما استنارت حوائط البيت بنور النّار وأظلم سقفه بالدّخان، علمت أنّ سبب السّواد غير سبب الاستنارة، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان[1]] :

* فسبب الخاطر الدّاعى إلى الخير يسمّى [مَلَكًا] .
* وسبب الخاطر الدّاعى إلى الشّر يسمّى [شَيْطَانًا] .
* واللّطف الذى يتهيّأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمّى [توفيقا] .
* والذى يتهيّأ به لقبول الشّر يسمّى [إغواء وخذْلانا] .

أمّا «الخاطر» فى اللُّغة فهو : «الهاجس» الذى يَرِدُ على القلب، وهو المرتبة الثّانية من مراتب حديث النّفس والجمع خواطر . (قال) أبو البقاء [الخاطر اسم لما يتحرّك فى القلب من رأى أو معنى سُمِّىَ محله باسم ذلك، وهو من الصّفات الغالبة، يقال منه خطر ببالى أمر وعلى بالى أيضا] . واصطلاحا ما يَرِدُ على القلب من الخطاب، [أو] الوارد الذى لا عمل للقلب فيه، و[الخاطر] ما لاح ومكث بُرهة من الزّمن .

أمّا [الهاجس] فهو ما لاح وذهب بسرعة، و(قال) ابن أبى جمرة [لترتيب الوارد على القلب مراتب : الهمّة، ثمّ اللّمّة، ثمّ الخَطرة، ثمّ النيّة، ثمّ الإرادة، ثمّ العزيمة، فالثّلاثة «الأولى» لا يُؤاخذ بها بخلاف الثّلاثة الأخرى[2]] . أمّا ما يقع فى النّفس من قصد المعصية يكون على خمس مراتب :

(١) ما يُلقى فيها وهو «الهاجس» .

(٢) ثمّ جريانه فيها وهو «الخاطر» .

---

(١) نقلا عن تفسير المنار [ج ١ ص ٢٢٤] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٨٨] .

(٣) ثمّ ما يقع فيها من التّردُّد هل يفعل أم لا؟ وهو «حديث النّفس».
(٤) ثمّ «الهمّ» وهو قصد ترجيح الفعل.
(٥) ثمّ «العزم» وهو قوّة ذلك القصد والجزم به.

«فالهاجس» لا يُؤاخذ به إجماعا لأنّه ليس من فعله وإنّما هو شيء طرقه قهرا عليه، وما بعده من الخاطر وهو جريان ذلك الهاجس وحديث النّفس لا يؤاخذ بهما وهما مرفوعان بقول النّبى ﷺ «إنَّ اللّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتى مَا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا مَالَمْ تَتكَلَّمْ به[١]»: أى فى المعاصى القولية «أَوْ تَعْمَلَ بِه» أى فى المعاصى الفعليّة، لأنّ حديثها إذا ارتفع فما قبله أَوْلَى.

وهذه المراتب لا أجر فيها فى الحسنات لعدم القصد، أمّا الهمّ فقد بيّن الحديث الصّحيح أنّه بالحسنة يُكتب حسنة، وبالسّيئة لا يُكتب سيئة لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «إنَّ اللّهَ كَتَبَ الْحَسَنَات وَالسَّيِّئَات ثُمَّ بَيَّنَ ذَلكَ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعملَهَا كَتَبَهَا اللّهُ عنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَات إلَى سَبْعمَائَة ضعْف إلَى أَضْعَاف كَثيرَة، وَإنْ هَمَّ بسَيِّئَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللّهُ عنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعملَهَا كَتَبَهَا اللّهُ سَيِّئَةً وَاحدَةً[٢]». والأصح فى معناه أن يكتب عليه الفعل وحده وهو معنى قوله «سَيِّئَةً وَاحدَةً[٣]».

أمّا الهمّ الذى لا يُكتب فهى تلك الخواطر التى لا تتوطّن النّفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نيّة ولا عزم، ويستفاد من التّأكيد بقوله «وَاحدَةً» أنّ السّيئة لا تُضاعف كما تُضاعف الحسنة وهو على وفق قوله تعالى﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[الأنعام: ١٦٠].

وفى الحديث بيان فضل اللّه العظيم على هذه الأمّة لأنّه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنّة لأنّ عمل العباد للسّيئات أكثر من عملهم الحسنات، ويؤيّد ما دلّ عليه الحديث من الإثابة على الهمّ بالحسنة وعدم المؤاخذة على الهمّ بالسّيئة قول اللّه تعالى﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[البقرة:٢٨٦]. إذ ذكر فى السّوء الافتعال الذى يدلّ على المعالجة والتّكلُّف فيه بخلاف الحَسَنة، وفيه ما يترتب للعبد على هجران لذّته وترك شهوته من أجل ربّه سبحانه رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه [٤].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٦٩] ومسلم [٢٠٢/١٢٧] وأبو داود [٢٢٠٩].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣١] وافقه البخارى [٦٤٩١].
(٣) انظر دليل الفالحين [ج ١ ص ٧٠].
(٤) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٣٣٦].

{الخاتمـــة}

[وبعـد] فلقد جاء التّعريف بعالمي الملائكة والجان للتّنبيه على حقيقة مهمّة في حياة البشر عندما تمثّلت دلالاتها في قدرة الله تعالى على خلق المتضادّات المتقابلات ، فخَلَقَ هذه الذّات المتمثّلة في «الشّيطان اللّعين» والتي هي من أخبث الذّوات وشرّها وهي سبب كلّ شرّ ، في مقابلة ذات «جبريل عليه السّلام» التي هي من أشرف الذّوات وأطهرها وأزكاها بل هي مادّة كلّ فيض وخير ، فتبارك الله خالق هذا وهذا .

ومن دلالات ذلك أيضا أنّ الطّبيعة البشرية مشتملة على الخير والشّر والطّيب والخبيث ، وذلك كامن فيها كُمُون النّار في الزّناد . فخَلَق الشّيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشّر من القوّة إلى الفعل ، وأرسلت الرّسل لتستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوّة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتّب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشّر ليترتّب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما .

وإذا كان الحديث قد جاء موصولا عن مداخل الشّيطان للاقتناص والغواية فإنّه ينبغي على المسلم أن يتعرّف على النّهج الذى رسمه الله تعالى له حتّى يستطيع أن يتجنّب هذه المداخل ويبتعد عن مزالقها فلا يتمكّن اللّعين منه ولا أن يتسلّط عليه ولا ينجح في إغوائه وكيده ، فكلّ شيء من الشّيطان منظور ومراقب حتّى يتحيّن فرصة الإيقاع بالمسلم والاستحواذ على عقله وقلبه ، وعندما حاول مؤلف هذا الكتاب أن يحدّد محوريّة البحث حول تصوّر المنهج التّطبيقي الصّحيح لمواجهة المسلم الدائمة والمستمرّة مع الشّيطان وحزبه جاء كتابه :

{جوامع البيان في الوقاية من أذى الجنّ و مسّ الشّيطان}

وقد طرح من خلال رؤيته لهذه المسألة ثلاث توجّهات رئيسيّة جاء أوّلها عن المقدّمات الضّرورية للوقاية والحفظ عندما يشير إلى أنّه ليس للشّيطان سُلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون ، وأنّ سلاح المؤمن في تلك المواجهة هو العلم الذى يقوده إلى صحيح الدّين ، والمعرفة التي تحقّق له كمال الإيمان وحقيقة اليقين .

نسأل الله تعالى فقها في الدّين ، وزيادة في العلم ، وبركة في الرّزق ، وصحّة وعافية في البدن ، إنّه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النّصير ، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا .

و{ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ }.

المصادر العلمية
والمراجع الفقهية للكتاب

(أولا) ـ القرآن الكريم وعلومه:

(١) الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصارى القُرطبى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة (الطّبعة الثّالثة ـ ١٣٨٧هـ) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن كثير ـ مؤسسة قرطبة القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٤٢١هـ) .

(٣) تفسير الفخر الرّازى المشتهر بالتّفسير الكبير للإمام محمد فخر الدّين الرّازى ـ دار الفكر بيروت (الطّبعة الثّالثة ـ ١٤٠٥هـ) .

(٤) التّفسير الكبير للإمام تقىّ الدّين أحمد بن تيمية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت . (الطّبعة الأولى ـ ١٤٠٨هـ) .

(٥) تفسير المنار للسيّد محمد رشيد رضا ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (١٩٧٣م) .

(٦) أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ـ تحقيق محمد على البجاوى ـ دار المعرفة بيروت .

(٧) فى ظلال القرآن للشّيخ سيد قطب ـ دا ر الشّروق القاهرة (الطّبعة السّابعة ـ ١٣٩٨هـ) .

(٨) نحو تفسير موضوعى لسُور القرآن الكريم للشّيخ محمد الغزالى ـ دارالشّروق القاهرة ـ (الطّبعة السّادسة ـ ١٤٢٤هـ) .

(ثانيًا) ـ كتب الحديث وعلومه:

(٩) صحيح البخارى ـ بيت الأفكار الدّوليّة (طبعة ١٤٢٠هـ]

(١٠) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى المكتبة السّلفية بالقاهرة (الطّبعة الثّانية ـ ١٤٠٣هـ) .

(١١) صحيح مسلم بشرح محيى الدّين بن شرف النّووى ـ دار الحديث القاهرة . (الطّبعة الرّابعة ـ ١٤٢٢هـ) .

(١٢) سُنن الإمام أبى داود ـ دار الحديث القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٤٢٠هـ) .

(١٣) جامع التّرمذى ـ مصطفى الحلبى القاهرة ـ ١٣٥٦هـ.

(١٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع التّرمذى للإمام أبى العلا المباركفورى ـ دار الحديث القاهرة . (الطّبعة الأولى ـ ١٤٢١هـ) .

(١٥) السُّنن الصُّغرى لأبى عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائى بشرح الإمامين السّيوطى والسّندى دار الحديث القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٤٢٠هـ) .
(١٦) المُسند للإمام أحمد بن حنبل - شرح الشّيخين أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزّين - دار الحديث القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٤١٦هـ) .
(١٧) صحيح ابن ماجه القزوينى للشّيخ ناصر الدّين الألبانى - مكتبة المعارف للنّشر - الرّياض (الطّبعة الأولى - ١٤١٧هـ) .
(١٨) السُّنن الكبرى للنّسائى - دار الكتب العلمية - بيروت .
(١٩) سُنن الدّارقطنى للإمام على بن عمر الدّارقطنى - تحقيق هاشم اليمانى - دار المحاسن القاهرة .
(٢٠) المستدرك على الصّحيحين للإمام الحاكم النّيسابورى - دار الفكر بيروت . (الطّبعة الأولى - ١٤٢٢هـ) .
(٢١) الموطّأ للإمام مالك - مكتبة المجلّد العربى القاهرة . (الطّبعة الأولى - ١٤٢١هـ) .
(٢٢) سُنن الدّارِمى لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدّارِمى - دار الفكر القاهرة (طبعة - ١٣٩٨هـ) .
(٢٣) غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام الهروى - مَجْمَع اللُّغة العربيّة القاهرة (طبعة - ١٤٠٤هـ) .
(٢٤) الرَّوض النَّضير فى ترتيب وتخريج معجم الطّبرانى الصّغير - تحقيق الشّيخ محمد ناصر الدّين الألبانى - مكتبة المعارف الرّياض .
(٢٥) دلائل النّبوّة للإمام البيهقى - تحقيق عبدالرحمن محمّد عثمان - دار الفكر (الطّبعة الثّانية - ١٤٠٣هـ) .
(٢٦) المُفْهِم لما أشكَلَ من تلخيص كتاب مسلم للإمام القرطبى - دار ابن كثير - دمشق (الطّبعة الثّانية - ١٤٢٠هـ) .
(٢٧) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمى - مؤسسة المعارف بيروت (طبعة ١٤٠٦هـ) .
(٢٨) الفائق فى غريب الحديث للزّمخشرى - مكتبة عيسى البابى الحلبى القاهرة (طبعة ١٣٩١هـ) .
(٢٩) النّهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزرى - مكتبة البابى الحلبى القاهرة (طبعة - ١٣٨٣هـ) .
(٣٠) الأدب المفرد للإمام البخارى - المطبعة السّلفية ومكتبتها بالقاهرة (الطّبعة الأولى - ١٣٧٨هـ) .
(٣١) شرح السّنة للإمام البغوى - تحقيق شعيب الأرناؤوط - المكتب الإسلامى .

(٣٢) كتاب الأمّ للإمام محمد بن إدريس الشّافعي ـ مطابع دار الشّعب .
(٣٣) التّرغيب والتّرهيب للحافظ المنذرى ـ تحقيق مصطفى عمارة ـ مكتبة البابى الحلبى ـ القاهرة (الطّبعة الثّالثة ـ ١٣٨٨هـ) .

(ثالثًا) ـ كتب أصول الفقه:

(٣٤) الإحكام فى أصول الأحكام ـ لأبى محمد على بن حزم ـ دار الحديث القاهرة (طبعة ١٤٠٤هـ) .
(٣٥) الموافقات فى أصول الشّريعة لأبى إسحاق الشّاطبى ـ تحقيق الشّيخ عبد الله دراز ـ دار المعرفة بيروت .
(٣٦) أعلام الموقعين عن ربّ العالمين لابن القيّم ـ مراجعة طه عبد الرّءوف سعد ـ مكتبة الكليّات الأزهرية القاهرة (طبعة ـ ١٩٦٩) .
(٣٧) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ـ مكتبة الكليّات الأزهرية القاهرة (طبعة ١٤٠٢هـ) .
(٣٨) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ فى علم الأصول ـ الإمام محمد بن على الشّوكانى ـ مكتبة مصطفى الحلبى القاهرة (طبعة ـ ١٣٥٦هـ) .
(٣٩) أصول الفقه للشّيخ محمد أبى زهرة ـ دار الفكر العربى القاهرة (طبعة ـ ١٣٧٧هـ) .
(٤٠) أصول الفقه الإسلامى للدّكتور أمير عبد العزيز ـ دار السّلام للطّباعة والنّشر ـ القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٤١٨هـ) .
(٤١) تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ـ طبعة إدارة الطّباعة المنيرية .
(٤٢) تهذيب اللّغة للأزهرى ـ الهيئة العامّة للكتاب القاهرة (طبعة ـ ١٣٨٤هـ) .
(٤٣) دستور العلماء للقاضى أحمد ـ مؤسسة الأعلمى بيروت (طبعة ـ ١٣٩٥هـ) .
(٤٤) الموسوعة الفقهيّة ـ وزارة الأوقاف الكويتيّة .
(٤٥) النّهاية لابن الأثير ـ تحقيق محمود الضّاحى ـ طبعة عيسى الحلبى القاهرة .
(٤٦) التّعريفات للشّريف الجرجانى ـ مصطفى الحلبى (طبعة ـ ١٣٥٧هـ) .
(٤٧) شرح الكوكب المنير لعبد العزيز الفتوحى ـ مطبعة السُّنّة المحمّدية (١٣٧٣هـ) .
(٤٨) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ـ طبعة دار المعرفة بيروت .
(٤٩) ميزان الأصول للسّمرقندى ـ وزارة الأوقاف القَطَرية (طبعة ـ ١٤١٤هـ) .
(٥٠) معجم المقاييس فى اللّغة لأحمد فارس بن زكريا .
(٥١) الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة ـ زكريّا بن محمد الأنصارى ـ دار الفكر المعاصر بيروت (طبعة ـ ١٤١١هـ) .
(٥٢) المستصفى للإمام أبى حامد الغزالى ـ المطبعة الأميرية ببولاق (طبعة ـ ١٣٢٢هـ) .

(٥٣) الزّاهر فى غرائب ألفاظ الإمام الشّافعى ـ لأبى منصور الأزهرى .
(٥٤) بصائر ذوى التّمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ـ طبعة المجلس الأعلى للشّئون الإسلامية (١٤١٢هـ).
(٥٥) المطّلع على أبواب المقنع للبعلى الحنبلى ـ المكتب الإسلامى (طبعة ـ ١٤٠١هـ) .
(٥٦) تحرير التّنبيه للإمام النّووى ـ طبعة دار الفكر .
(٥٧) شرح حدود ابن عرفة لأبى عبد الله الأنصارى ـ دار الغرب الإسلامى (١٩٩٣) .
(٥٨) الإفصاح فى فقه اللّغة لحسين يوسف موسى ـ طبعة مكتب الإعلام .
(٥٩) زاد المسير لابن الجوزى ـ المكتب الإسلامى (طبعة ـ ١٣٨٨هـ) .
(٦٠) أنيس الفقهاء للقونوى ـ دار الوفاء بجدّة (طبعة ـ ١٤٠٧هـ) .
(٦١) الإبهاج فى شرح المنهاج للسّبكى ـ مكتبة الكليّات الأزهرية القاهرة (طبعة ـ ١٤٠١هـ) .
(٦٢) شرح تنقيح الفصول للقرافى ـ طبعة مكتبة الكليّات الأزهرية .
(٦٣) التّوقيف على مهام التّعريف للمناوى ـ دار الفكر المعاصر (طبعة ـ ١٤١٠هـ) .
(٦٤) الكليّات لأبى البقاء اللّكنوى ـ مؤسسة الرّسالة (طبعة ـ ١٤١٣هـ) .
(٦٥) القاموس القويم للقرآن الكريم ـ أحمد عبد الفتاح ـ مجمع البحوث الإسلامية القاهرة (طبعة ـ ١٤٠٤هـ) .

(رابعًا) ـ كتب الفقه وقواعده:

(٦٦) فيض القدير شرح الجامع الصّغير للمناوى ـ المكتبة التّجارية الكبرى القاهرة (طبعة ـ ١٣٥٦هـ) .
(٦٧) حجّة الله البالغة ـ شاه ولىّ الله بن عبد الرّحيم الدّهلوى ـ دار التّراث القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٣٥٥هـ) .
(٦٨) سُبل السّلام بشرح بلوغ المرام من أدلّة الأحكام ـ محمد بن إسماعيل الصّنعانى ـ دار إحياء التّراث العربى (الطّبعة الرّابعة ـ ١٣٧٩هـ) .
(٦٩) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للإمام محمد بن على الشّوكانى ـ مصطفى البابى الحلبى القاهرة (الطّبعة الأخيرة) .
(٧٠) المحلّى لابن حزم الأندلسى ـ تحقيق أحمد محمد شاكر (طبعة دار الفكر) .
(٧١) شرح معانى الآثار للحافظ أبى جعفر أحمد الطّحاوى ـ دار الكتب العلميّة .
(٧٢) دليل الفالحين لطُرق رياض الصّالحين لمحمد بن علان الصّديقى ـ دار الرّيان للتّراث القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٤٠٧هـ) .
(٧٣) الإبداع فى مضار الابتداع ـ الشّيخ على محفوظ ـ دار الاعتصام القاهرة (الطّبعة

السّابعة - ١٣٧٥هـ) .
(٧٤) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيّم- تحقيق شعيب الأرناؤوط - مكتبة المنار الإسلامية (الطّبعة الرّابعة عشر - ١٤٠٧هـ) .
(٧٥) الأشباه والنّظائر لابن نجيم - الحلبى وشركاه (الطّبعة الأولى-١٣٨٧هـ) .
(٧٦) المجموع شرح المهذّب للإمام أبى زكريا يحيى النّووى - طبعة المكتبة المنيرية .
(٧٧) المغنى للعلامة أبى محمد عبد الله بن قدامة. مكتبة الرّياض (طبعة - ١٤٠١هـ) .
(٧٨) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبى داود للشّيخ محمود محمّد خطّاب - مطبعة الاستقامة القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٣٥١هـ) .
(٧٩) الأساس فى السُّنَّة وفقهها للشّيخ سعيد حوّى - دار السّلام للطّباعة والنّشر القاهرة (الطّبعة الثّالثة - ١٤١٧هـ) .

(خامسًا) - كتب التّاريخ والأدب:

(٨٠) البداية والنّهاية للحافظ ابن كثير - مكتبة المعارف (الطّبعة السّابعة - ١٤٠٨هـ) .
(٨١) العقد الفريد - أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسى - طبعة دار الفكر .
(٨٢) عيون الأخبار لابن قتيبة - الهيئة المصرية للكتاب القاهرة (طبعة-١٩٧٣) .
(٨٣) تلبيس إبليس - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى - إدارة الطّباعة المنيرية (الطّبعة الثّانية - ١٣٦٨هـ) .
(٨٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى - دار الفجر للتّراث القاهرة (الطّبعة الأولى ١٤٢٣هـ) .
(٨٥) التّذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبى - دار الرّيان للتّراث القاهرة (الطّبعة الثّانية - ١٤٠٧هـ) .
(٨٦) كتاب العظمة لأبى الشّيخ محمّد بن حيّان الأصبهانى - مكتبة القرآن القاهرة .
(٨٧) آكام المرجان فى أحكام الجآن لبدر الدّين الشّبلى - مكتبة ابن سينا القاهرة .
(٨٨) جامع بيان العلم وفضله للإمام أبى عمر يوسف بن عبد البرّ - دار الكتب العلمية بيروت (طبعة - ٢٠٠٠م) .
(٨٩) مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين لابن القيّم - تحقيق الشّيخ محمد حامد الفقى - مطبعة المنار القاهرة (طبعة - ١٣٧٥هـ) .
(٩٠) إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان لابن القيّم - مكتبة المجلّد العربى القاهرة. (الطّبعة الأولى) .
(٩١) كتاب الفوائد لابن القيّم - مطبعة العاصمة القاهرة .

(٩٢) مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيّم - مكتبة الفاروق الحديثة القاهرة.
(٩٣) كتاب الرّوح لابن القيّم. مكتبة محمد صبيح القاهرة (الطّبعة الثالثة - ١٣٨٦هـ).
(٩٤) الوابل الصّيّب من الكلم الطّيّب لابن القيّم - مطابع المختار الإسلامى القاهرة - (الطّبعة الخامسة - ١٤٠٠هـ).
(٩٥) عودة الحجاب لمحمد بن إسماعيل المقدّم - دار العقيدة القاهرة (الطّبعة الرّابعة عشر - ١٤٢٠هـ).
(٩٦) تهذيب الأخلاق لابن حزم - ضبط وتحقيق عبد الرّحمن محمد عثمان - المكتبة السّلفيّة المدينة المنوّرة (طبعة - ١٩٧٠).
(٩٧) صحيح الجامع الصّغير وزيادته للإمام السّيوطى - تأليف الشّيخ محمّد ناصر الدّين الألبانى - المكتب الإسلامى - بيروت (الطّبعة الثّالثة - ١٤٠٨هـ)

(سادسًا) - معاجم اللغة:

(٨٩) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى - دار الحديث بالقاهرة (طبعة - ١٤٠٧هـ).
(٩٩) لسان العرب لابن منظور المصرى (طبعة دار المعارف - القاهرة).
(١٠٠) القاموس المحيط للفيروز آبادى - مؤسسة الرّسالة (طبعة - ١٤٠٧هـ).
(١٠١) المعجم الوجيز - مجمع اللّغة العربيّة القاهرة (طبعة - ١٩٩٩).
(١٠٢) المعجم العربى الأساسى - لاروس. المنظمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم (طبعة - ١٩٨٩).
(١٠٣) مختار الصّحاح لمحمد بن أبى بكر الرّازى (طبعة المطابع الأميرية - ١٣٢٩هـ).
(١٠٤) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة للدّكتور محمود عبد الرحمن عبد المُنعم - دار الفضيلة القاهرة (الطّبعة الثّانية - ١٤٠١هـ).

(سابعا) - الفتاوى:

(١٠٥) مجموع فتاوى ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرّحمن بن قاسم.
(١٠٦) فتاوى الشّيخ محمد حسانين مخلوف مفتي الدّيار - دار الاعتصام القاهرة.
(١٠٧) كتاب الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر - دار الشّروق القاهرة (الطّبعة السّابعة - ١٩٧٤).
(١٠٨) أحسن الكلام فى الفتاوى والأحكام للشّيخ عطية صقر - المكتبة التّوفيقية - القاهرة.

*****

مُصنَّفات الكتاب وتبويباته

(الكتاب الأول)

عالم الملائكة الأطهار (٢٧ - ١٢٠)

المهام والوظائف المكلف بها كبار الملائكة

بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ

وظائف الملائكة وأقسامها

المكلّفون بالسّياحة فى الأرض

الجانب الوصفى عن هذه المخلوقات

{قهر الصّحابة رضوان الله عليهم للشّيطان}

(الكتاب الثّالث)

الإعجاز الإلهى وقلب الإنسان (٢٢١-٣١٢)

الوظيفة العضويّة والمعنويّة للقلب

(الكتاب الرابع)

ما يصيب الإنس من شياطين الجنّ

(الباب الأوّل)

تدرّج الشّيطان في إغوائه للإنسان

(٣١٣-٣٨٧)

(الباب الثّاني)

مداخل الشّيطان للاقتناص والغواية

(أ) ملازمة الشّيطان للإنسان في كلّ أحواله

(٣٨٨-٤١٥)

اقرأ للمؤلف:

روح الصّلاة

موسوعة فقهيّة متكاملة عن أركان الصّلاة وفروضها

(١٠٤٠ صفحة ـ تجليد فاخر)

* كتاب سجّلت صفحاته التّرجمة العمليّة والقولية لصلاة نبيّنا ﷺ وتضمنّت أبوابه الجانب الوصفي الذى جمع بين العلم البيانى لأركان الصّلاة وأحكامها والشّرح التفصيلى لفروضها وهيئاتها فى أسلوب شيّق وعرض ممتع وبديع.
* والكتاب من خلال مضمونه ومُحتواه يقف بالقارىء أمام المسار التعبُّدى الصّحيح الذى يضمن لصلاته تطابقا فعليا مع صلاة نبيّه الأكرم ﷺ تعريفا بفقهها، ووقوفا على أحكامها، وتحصيلا لآدابها وخشوعها.
* ثمّ تأتى مادة الكتاب فى توجّهها عطاء روحيا متجدّدا تعيش معه النّفس إشراقات الصّلاة وأنوارها، تلك التى جعلت من أبوابه موضوعا فريدا يستروح الفكر مادّته ومحتواه، ومن تصانيفه بحوثا قيّمة جديرة بالقراءة والاقتناء، لقد جاء الكتاب محاولة مخلصة من المؤلف استهدفت تقييم المسلم لصلاته قصدا وإخلاصا، وتصحيحه لأدائها تأسّيا واقتداء، واستيعابه لمضمونها نورا وإشراقا.

الناشر 

للمؤلـف
تحت الطبـع

جوامع البيان فى الوقاية
من أذى الجنّ ومسّ الشيطان

[كتـاب]

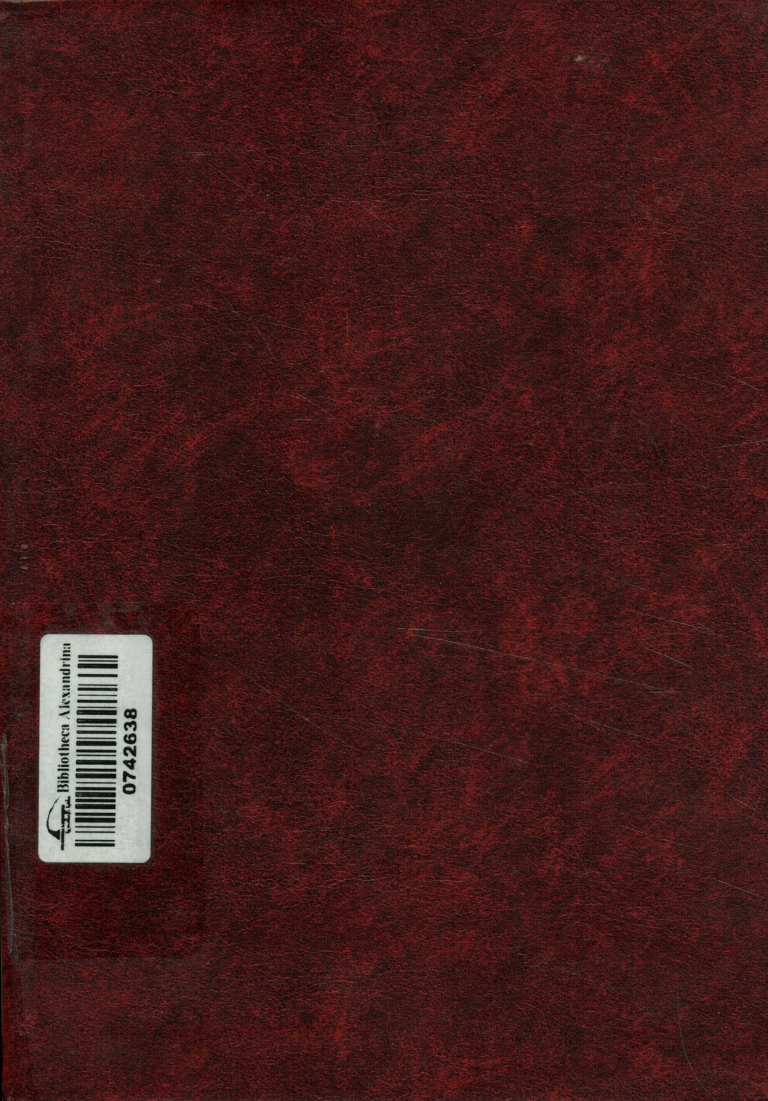
يتضمّن دراسة قرآنيّة تبحث فى علاقة بعض المسائل الغيبيّة بالسّلوك الإنسانى، وتتناول التعريف بالمنهج الصحيح للوقاية من أذى الجنّ ومس الشيطان، والاحتراز من السّحر والحسد وعين الإنسان ويشمل :

- نحو العلاج الأمثل للوقاية من أذى شياطين الإنس والجنّ.
- السّحر بين الحقيقة والتّخيُّل !.
- الاحتراز من السّحر وعلاجه.
- عين الإنس والجان والرُّقية منهما.
- عين الإنس وكيف تؤثّر فى المعيون ؟.
- الحكمة من استغسال العائن للمعيون.
- العلاقة بين العين الحاسدة والنّفس الحاقدة.
- المسّ الشّيطانى بين الحقيقة والمجاز.
- دعوى ولوج الجنّ جسد الإنس باطلة !.
- العلاج بالقرآن انحراف به عن وجهته الصّحيحة.
- الآثار السّلبية لدعوى الولوج وتلبُّس الجنّ بالإنس.

جوامع البيان

كتاب يستقى أهميّته من موضوع بحثه

النـاشـر 


Bibliotheca Alexandrina
07742638